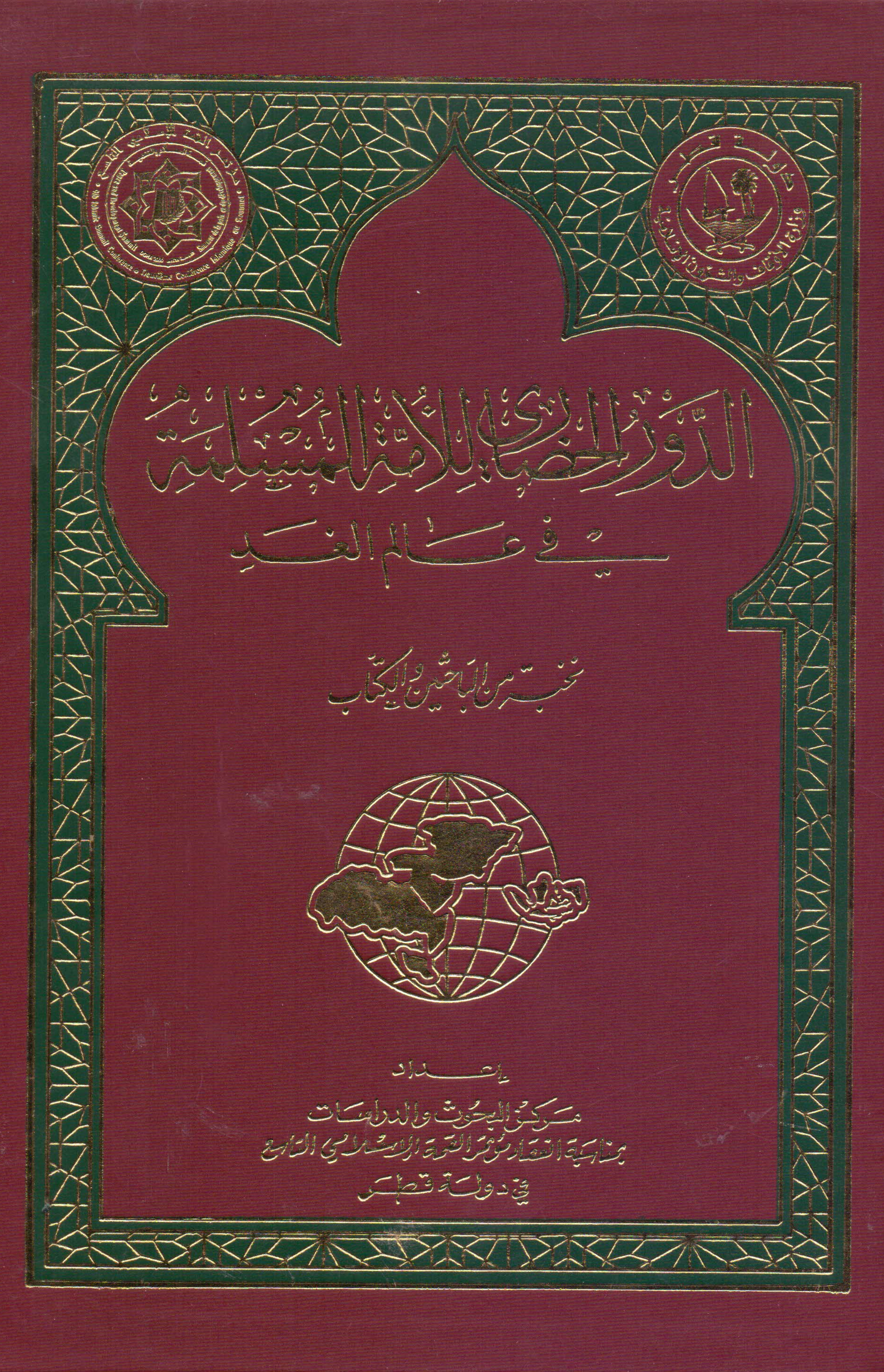
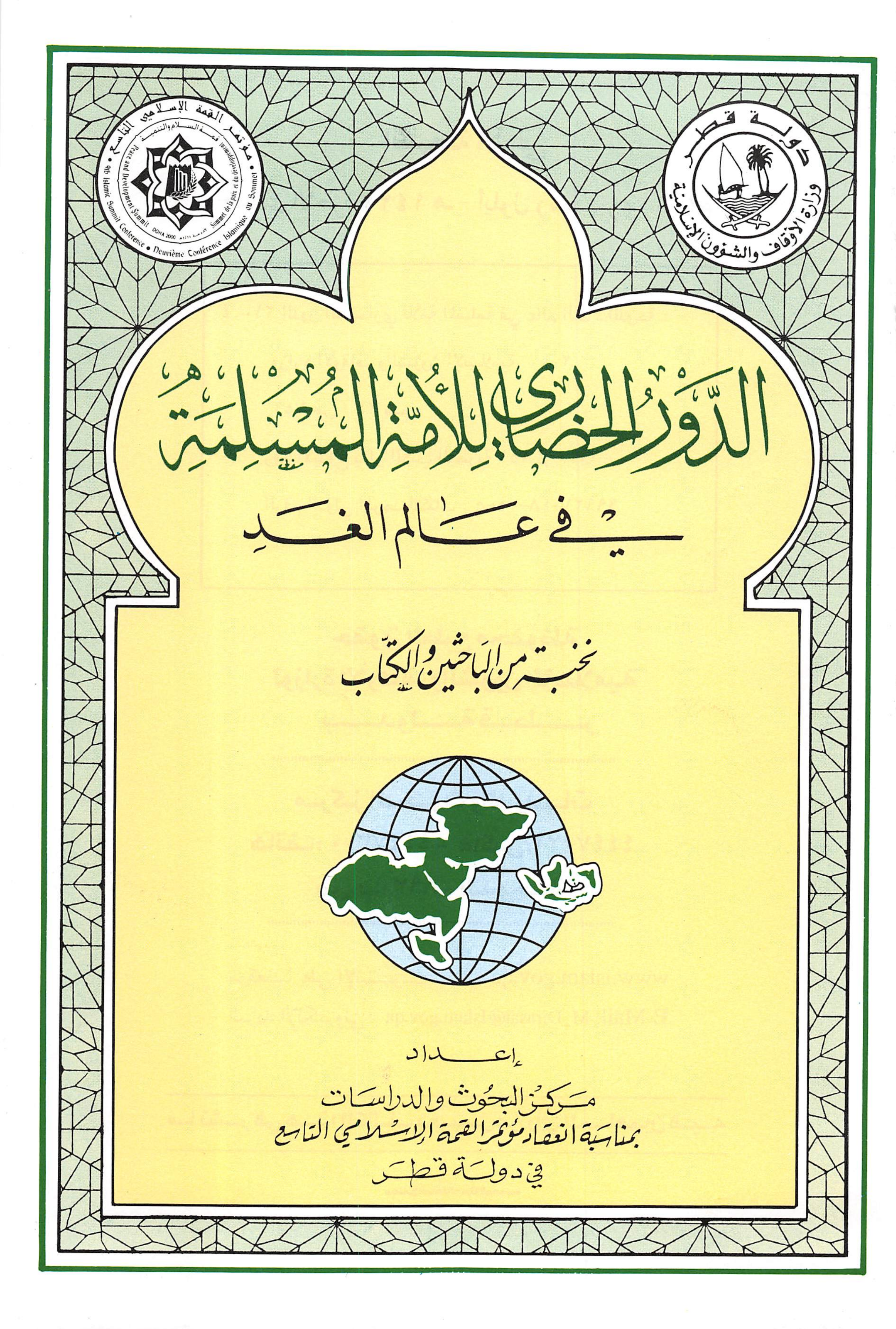

الدور الحضاري للأمة المسلمة
في عالم الغد
نخبة من الباحثين والكتاب
إعداد
مركز البحوث والدراسات
بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع
في دولة قطر



دولة قطر
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
مؤتمر القمة الإسلامي التاسع
قمة السلام والتنمية
Peace and Development Summit
9th Islamic Summit Conference
DOHA 2000
Sommet de la paix et du développement
Deuxième Conférence Islamique au Sommet
الدور الحضاري للأمة المسلمة
في عالم الغد
نخبة من الباحثين والكتاب
إعداد
مركز البحوث والدراسات
بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع
في دولة قطر

الطبعـة الأولى

جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ - أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠م

٢١٠,٤ الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد ـ الدوحة :

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠

٧٥٢ ص ؛ ٢٤ سم

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية ٢٥١ / ٢٠٠٠

الرقم الدولي الموحد للكتاب : ٥-٠٥-٤٨-٩٩٩٢١

مـركـز البحـوث والدراسـات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب: ٨٩٣ - الـدوحـة

موقعنـا على الإنتــرنت: www.islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

مطابع الدوحة الحديثة المحدودة

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة البقرة الآية ١٤٣



حضرة صاحب السمو

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

أمير دولة قطر

رئيس مؤتمر القمة الإسلامي التاسع

تقديم

سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

أحمد بن عبد الله المري

الحمد لله الذي أورث الأمة المسلمة النبوة والكتاب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر:٣٢)، وجعلها خير أمة أخرجت للناس بما تقوم به من حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠).. فخيرية الأمة المسلمة وتميز دورها الحضاري رهين بما تحمل من رسالة الخير، وما تقوم به من استنقاذ الإنسانية وتطهير الأرض من الفساد والإفساد.

والصلاة والسلام على الرسول الخاتم، الذي انتهت إليه أصول رسالات السماء جميعاً، وكانت رسالته بذلك عالمية ممتدة إلى النبوة الأولى، فكانت الأمة الواحدة، ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).. فبالإسلام كمل الدين الإنساني، وتحددت الوجهة والغاية التي من أجلها أنزل الدين، وتشكل التدين، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وبعد :

فهذا كتاب (**الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد**)، الذي تتشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتقديمه بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في دولة قطر، مساهمة منها بطرح رؤية لما يمكن أن نطلق عليه : (**رؤيــة النخبة المفكرة**)، في أكثر من موقع من مواقع عالم المسلمين المتنوعة، في محاولة للتبصير بمجالات الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة المسلمة، وكيفية الاستفادة منه، وبعث فاعليته، لتستأنف الأمة دورها الغائب في الشهود الحضاري، ولتأتي رؤية نخب الأمة المثقفة مترافقة مع انعقاد مؤتمر القمة برئاسة دولة قطر بقيادة حضرة صاحب السمو **الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني** أمير البلاد حفظه الله .

ولعل من الأمور الملفتة، والجديرة بالاهتمام في هذا المجال، أن الاستقراء الأمين للتاريخ الحضاري للأمم، يؤكد أن الأمة المسلمة كانت ولا تزال عصية عن التذويب والذوبان، في تاريخها الطويل، وأنها لم تخضع لما أسمي بقانون الدورات الحضارية، بحيث تمر بمرحلة الشباب والفتوة الحضارية، ومن ثم مرحلة الشيخوخة التي تؤدي إلى الانقراض، شأن سائر الأمم التي سادت ثم بادت .

وعلى الرغم مما لحق بها من الإصابات، والأعاصير المدمرة، والهجمات الماحقة، والاستعمار المزود بكل أدوات الاستلاب الحضاري، والغزو الثقافي، والانحلال الخلقي، ألا أنها استطاعت الصمود والاحتفاظ بإمكانها الحضاري، ومن ثم النهوض واستعادة العافية والإقلاع من جديد، حيث كانت العقيدة هي الدرع الواقية والقوة المانعة من الذوبان في فترات التراجع والهزيمة والسقوط، كما كانت القوة الدافعة المحركة لفاعلية النهوض أثناء التألق والإنجاز الحضاري، وحمل الخير للناس جميعاً .

وهذا بلا شك يشكل أهم البصائر التاريخية، كما يشكل إحدى أهم البشائر المستقبلية على قدرة الأمة وأهليتها وإمكانها الحضاري في استعادة دورها في إلحاق الرحمة بالعالمين، فمهما لحق بها من المرض والإصابة فهي قادرة على استعادة العافية ومعاودة النهوض.

والناظر في مسيرة التاريخ، يبصر هذه القدرة على النهوض والتجاوز للواقع، في ظروف كثيرة ومختلفة.. وقد تكون من أهم أسباب القدرة على النهوض والامتداد ، إلى جانب امتلاكها للقيم السماوية الخالدة ووراثتها للنبوة بكل رصيدها، أن الحضارة الإسلامية لم تكن حكراً على جنس أو لون أو قوم، وإنما اتجهت منذ خطواتها الأولى صوب المشترك الإنساني، كما كانت نبوتها جماع النبوات، الأمر الذي يؤهلها دائماً للقيام بدورها في العطاء الحضاري وإلحاق الرحمة بالعالمين، ويمكنها إذا أفَلَت في مكان أن تشرق في مكان آخر، لذلك نجد عطاءها اليوم ممتداً و ما يزال يشمل العالم، من أكثر المناطق تخلفاً إلى أكثرها تقدماً وتقنية.

وتشتد الحاجة اليوم أكثر فأكثر لحضارة الإسلام لمعالجة أزمات الحضارة المعاصرة، وإخراجها من ضيق الدنيا، حيث برزت الغريزة المستأثرة وغابت الفكرة السامية وعاش الإنسان أسير الحضارة ومنتجاتها، إلى سعة الدنيا والآخرة، لتصبح الحضارة محققة لإنسانية الإنسان في الدنيا وسعادته في الآخرة.

والله نسأل أن يلهمنا إلى سواء السبيل، والله غالب على أمره، وله الأمر من قبل ومن بعد.

هذا الكتاب

الهدف من إصدار هذا الكتاب هو المساهمة بإحياء عملية الاجتهاد والتجديد وإعادة بناء مشروع النهوض، لتستأنف الأمة المسلمة دورها في الشهود الحضاري وإلحاق الرحمة بالعالمين، وما يتطلب ذلك من معرفة الذات وما تمتلكه من الإمكان الحضاري والتخطيط لحسن استثماره، ومعرفة (الآخر)، المعرفة التي تمكن من كيفية التعامل معه، ودعوته إلى كلمة سواء، وتحقيق المشترك الإنساني.

وفي محاولة من مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لتقديم رؤية مستقبلية، لما يمكن أن نصطلح على تسميتهم «أهل الاجتهاد والفكر والرأي»، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في دولة قطر، برعاية حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير البلاد حفظه الله، بحيث تشكل هذه الرؤية أحد أدلة العمل أمام أصحاب القرار للوصول إلى تحقيق الانسجام والتكامل والتصالح بين أهل الرأي وأصحاب القرار.

ولا يمكننا أن ندعي أننا استطعنا أن نبلغ في هذا المشروع العتيد ما أردنا من ضمان مساهمة معظم المفكرين أو النخب الفكرية، في وضع رؤية استراتيجية نضيجة، وإنما الذي استطعنا تقديمه يمكن وصفه في المحصلة النهائية بأنه نوافذ تمكن من الإطلالة على الواقع الثقافي القائم.

ولقد حاولنا ما أمكن أن تأتي هذه المساهمات من مواقع ثقافية وجغرافية ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة.. وحرصنا أن تكون المشاركة ممثلة لجميع بلاد العالم الإسلامي الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، إضافة إلى رغبتنا تقديم مساهمات ممن يعيشون ضمن منظومة الثقافة الغربية المعاصرة ومؤسساتها.. وما لا يدرك كله لا يترك جله.

ونحب أن نؤكد أن الآراء والاجتهادات الواردة في هذا الكتاب لا تمثل بالضرورة وجهة نظر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، بل يمكن القول: إن بعضها

قد لا يمثلها، بل هو محل نظر، وإنما هي محاولة منا لتقديم رؤية -كما أسلفنا- عن الواقع الموجود بكل ما فيه، الذي تمور به الساحة الفكرية، لعلها تمنح دعاة التجديد والإصلاح وأصحاب القرار معرفة بالواقع كما هو عليه وكما هو كائن -تأكيداً لقاعدة تكلم حتى أراك- لينطلقوا في مشروعاتهم من فقه هذا الواقع لا من الأمنيات التي قد تختلط في أحيان كثيرة بالإمكانيات.

لذلك حرصنا وآثرنا ووعدنا بعدم المداخلة، والمحافظة على نص الباحث، على الرغم -أحيانًا- من وجود بعض الملحوظات أو التحفظات والمجازفات القابلة للمناقشة.

ولقد ارتأينا عدم تحديد المحاور التي تدور حولها المساهمات، رغبة منا في إتاحة الفرصة لكل باحث أن ينظر من الزاوية التي يرى أهميتها وأولويتها لمثل هذه الموضوع، وحتى لا يشكل تحديد المحاور من بعض الوجوه محددات مسبقة لرؤية الباحث، واكتفينا بالإشارة في مراسلاتنا إلى الملامح الأساسية من مثل:

الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، والرؤية الاستراتيجية لتفعيله، وكيفية استرداد الدور الغائب للأمة لتستأنف من جديد رسالتها في الشهود ومعالجة أزمة الحضارة، وتحقيق الغاية التي من أجلها جاءت الرسالة وهي إلحاق الرحمة بالعالمين.

ويبدو لنا، وعلى الأخص بالنسبة لبعض الباحثين، أننا لو حددنا المحاور بشكل دقيق لكان ذلك أعون لهم على الالتزام بإطار الموضوع والاجتهاد في تحقيق أهدافه، بعيداً عن التجاوز إلى وجهات ورؤىً أخرى قد تكون مفيدة في مجالها.

ولكم حرصنا وتابعنا الاتصالات للحصول على عينات فكرية من مواقع متعددة، لكن يؤسفنا أن نقول هنا: سامح الله بعض الإخوة الذين وعدوا بالمساهمة، واستمهلوا حتى استنفدوا الزمن المخصص، ومن ثم جاء اعتذارهم في الوقت غير المناسب، ولعل هذا جاء كأحد شواهد الإدانة والأدلة على الواقع الحقيقي الذي يعاني منه عالم المسلمين، أو بعبارة أدق: تعاني منه بعض القيادات والنخب الفكرية في الواقع الإسلامي، والذي أصبحنا معه كالغاص بالماء! الأمر الذي حال دون استدراك البدائل المناسبة.

وقد تكون مشكلة بعض الباحثين في محاولته قراءة الواقع الإسلامي، أنها جاءت من خلال معاناة خاصة حاول تعميمها، واعتبارها أنموذجًا ومعيارًا للنظر، ودليلاً على كونها تمثل ظاهرة اجتماعية وثقافية، وهي في حقيقتها لا تخرج عن أن تكون حالة استثنائية أو خاصة تعرّض لها وصعب عليه تجاوزها والتفلت منها للوصول إلى الرؤية الموضوعية، فوقع بما يمكن أن نسميه بفكر الأزمة التي يعاني منها والذي يقود غالبًا إلى أزمة الفكر.

وبالإمكان القول: إن قراءة متأنية للكثير من المساهمات تبرز ظاهرتين ما زالتا تعتوران الرؤية الإسلامية المعاصرة بشكل عام ورؤية العاملين في الحقل الإسلامي بشكل أخص.. ففريق غلبت عليه فكرة المقارنة بين أشياء الحضارة المعاصرة الغالبة، وأشياء الحضارة الإسلامية المصابة، فانتهى إلى حالة الاستصعاب التي تورث العجز والتخاذل، بعيداً عن مقارنة الأفكار والإحاطة بالسنن، لأن المعايرة جاءت من خلال اللحظة التاريخية التي يعاني منها عالم المسلمين اليوم.. وفريق آخر على الرغم من كل التعقيدات الدولية والسبق الحضاري ما تزال تسيطر عليه حالة من التهوين والتبسيط، وهو ما أسماه الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله: «ذهان السهولة»، حيث يظن أن القضايا يمكن أن تحسم من خلال السنن الخارقة بعيداً عن السنن الجارية والتعامل من خلال عزمات البشر، وتعالج من خارجها دون الإحاطة بها ومعرفة أسبابها والسنن التي تتحكم فيها، وأنه يكفي في ذلك الحشد والخطب الحماسية الملهبة للمشاعر المسلمة..

لذلك نقول: فلا صاحب ذهان الاستحالة استوعب السنن بدقة في مقاربته ومقارنته، ولا صاحب ذهان السهولة الذي أعفى نفسه من النظر اقترب من محاولة إدراك المنهج السنني.. فذهان الاستحالة يورث الاستصعاب والعجز المؤدي إلى الاستلحاق والاستسلام الحضاري.. وذهان السهولة يؤدي إلى تدمير الذات والخروج من الساحة وتعطيل الإمكانات والانتهاء إلى الغياب الحضاري، ويؤذن بامتداد (الآخر).

ولا يزال الفريق أو النموذج الثالث، الذي يتمكن من معرفة الذات وإمكانها

الحضاري، وتحديد الاستطاعات وتقدير الزمن والدور الممكن والمدخل المناسب من خلال السنن التي شرعها الله، غائبًا أو أنه لم يتوفر بعد بالمستوى المأمول.

ونرى أن المحصلة الثقافية لهذا المشروع-الكتاب تتمثل في أهمية طرح الأمر واستدعائه إلى مجال الهم الثقافي العام وساحة تفكير النخبة المثقفة بشكل «أخص»، وذلك بغض النظر عن نوعية بعض المساهمات وقدرتها على إثراء الموضوع من جوانبه المتعددة وتحقيق الهدف المأمول.. ذلك أن مثل هذه الأمور، بطبيعتها، بحاجة إلى الكثير من الحوار والمناقشة والمثاقفة والمراجعة واختيار أدوات البحث الملائمة.

والأمر الذي نحب أن نوضحه، أن ترتيب البحوث والباحثين جاء ملتزمًا الحروف الهجائية دون أي اعتبار آخر، إلا ما اقتضت ظروف التأخير لتجاوزه، وأن الكتاب سوف يترجم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية في الوقت نفسه، في محاولة لتوسيع مجال الإفادة منه.

ولا يسعنا في هذه المناسبة إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير والدعاء لحضرة صاحب السمو أمير البلاد حفظه الله، الذي يرعى هذه المسيرة الخيرة بكل أبعادها، كما نخص بالشكر سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد أحمد بن عبد الله المري، الذي استجاب لفكرة هذا المشروع وحاول تذليل كل الصعاب، ليأتي العمل بالمستوى المأمول.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الكتاب والباحثين، الذين أسهموا معنا في إنجاز هذا العمل الواعد.

وإلى الإخوة موظفي مركز البحوث والدراسات الذين شاركوا في إعداد الكتاب على الرغم من الظروف الصعبة، والإمكانات البشرية المتواضعة.

والله نسأل أن ينفع به، وأن يكون لبنة في البناء المأمول، وخطوة سديدة على الطريق الطويل، وإضاءة متميزة وبصيرة نافذة على المشروع النهضوي الحضاري، وإعادة التوافق والانسجام وتوحيد الرؤية والمنطلق بين الأمة والدولة، وأصحاب الفكر وأهل الفعل، في عالم المسلمين؛ إنه نعم المسؤول.

﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾

الشيخ السيد أبو الحسن الندوي*
(رحمه الله)

المطلوب من القيادات الدعوية والفكرية والثقافية أن تخلِّص مجتمعها من هذا الصدام بين الشعوب والحكومات، وتجمع الكلمة والعزيمة على مقاومة النفوذ الأجنبي، وتوقد الشرارة الإيمانية الكامنة التي لا تقابلها الطاقة الذرية المبيدة.

رغبة منا في مساهمة العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي -رحمه الله- في تقديم رؤية عالم ومؤرخ، كان له فضل السبق في طرح موضوع الدور الحضاري للأمة المسلمة في كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، وعلى الأخص بحث: نهضة العالم الإسلامي، طلبنا إليه المشاركة في مشروعنا المأمول، إلا أن الشيخ رحمه الله أرسل إلينا -قبل أن يدركه الموت- مشيداً بهذا العمل العظيم، ومعتذراً عن عدم المساهمة بسبب مشاغله الكثيرة واعتلال صحته، وقد تخطى من العمر أربعة وثمانين عاماً، ولكن همته العالية التي يدركها كل من رأى الشيخ أو صحبه:

* رئيس ندوة العلماء.. (لكنهؤ بالهند).

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

التي تأبى الاعتذار عما يمكن أن يبصر مسؤوليته أو يدرك خطورته، فقد اختار لنا بحثاً من أواخر ما كتب مما له صلة بالموضوع المطروح، فكان ذلك ثمرة علمه وعصارة نفسه وراحة قلبه في عدم الاعتذار.. فشكر الله له، وأجزل ثوابه في الآخرين، وعوّض المسلمين خيراً*.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإنني كلما مر بي قوله تعالى وقرأته: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٣)، وقفت حائراً مشدوهاً أمام هذه الآية القرآنية، بصفتي -والحمد لله تبارك وتعالى- أؤمن بالقرآن بفصه ونصه، عقائد وأحكامًا وأخبارًا، وكدارس للتاريخ، وباحث في التاريخ كذلك، خصوصًا تاريخ القرن السادس المسيحي، الذي كانت فيه البعثة المحمدية، وبصلتي بالسيرة النبوية دراسة واسعة متنوعة اللغات.

أحار عند قراءة هذه الآية، ذلك أن الجاهلية قد كانت مخيمة على العالم كله، ضاربة أطنابها على السهول والجبال، وعلى القفار والبراري.. على البلاد المتمدنة، وعلى البلاد المتخلفة، كما اتفق المؤرخون.. كانت الجاهلية هي بمثابة الديانة الوحيدة التي تؤمن وتعمل بها شعوب العالم كلها، فكان الجزء المتمدن المعمور الراقي ينقسم إلى جزأين: الجزء الشمالي الغربي، والجزء الشرقي.. كانا خاضعين لإمبراطوريتين

---

* الناشر.

جاهليتين، إن لم أقل وثنيتين، لكن تحريًا للصدق والدقة، أقول: إمبراطوريتين جاهليتين.

الجزء الكبير والمتمدن والمعمور كان خاضعًا للإمبراطورية الرومانية التي كانت تسمى بالإمبراطورية المسيحية، والجزء الثاني، وهو الجزء الشرقي، كان خاضعًا للإمبراطورية الفارسية الإيرانية المجوسية الساسانية، وكان باقي أجزاء العالم المعمورة المتمدنة الراقية وغير الراقية كلها خاضعة لوثنية فاحشة. .وثنية سافرة. . وثنية عارية.

حتى الهند التي كانت تملك فلسفات عميقة، وكانت تملك مدارس فكرية كبيرة في بعض الأزمان، كانت خاضعة للوثنية الفاحشة، يقول أستاذ كبير -صاحب اختصاص في التاريخ، بروفيسور في جامعة دلهي- يقول: قد وصل عدد المعبودات والمعبودين في الهند إلى مائة مليون في بعض الأحيان، والبوذية أخفقت في إصلاح الحال وفي توجيه البلاد -كما يدعي مؤرخوها وكما يدعي دعاتها- إلى التوحيد. . قد أخفقت تمامًا، كما اعترف بذلك المؤرخون في الهند.

كذلك كانت الدولة المجوسية الإيرانية، وكانت فارس كذلك، وكانت كل أصقاع العالم، وكل قطع العالم، وكل النواحي، خاضعة للوثنية، وخاضعة للأوهام والخرافات، وخاضعة للاضطهاد، ولكن كانوا هم الذين يملأون العالم، وكان عددهم لا يحصى، ولا يمكن إحصاؤه، ولا أعرف مؤرخًا أحصى عدد الموجودين في ذلك الزمان قبل البعثة المحمدية، أو عند البعثة المحمدية في العالم. . ما كان هناك إحصاء دقيق عالمي. . ففي جانب كان أوسع عالم، وأكثر وأملك للطاقات البشرية، وأملك للقوى الحربية، وأملك للمكتبات العلمية، وأملك لكل القيم، ولكل الخصائص التي تتصف بها الأمم، ولكنهم في جانب كانوا قد اتخذوا جبهة وثنية، جبهة للدعوة الوثنية، والإغراء

بالوثنية، والخضوع للخرافات والأساطير والاستبداد، وقهر الملوك.. هكذا كان وضع العالم في ذلك الحين.

وكان مقابل ذلك المسلمون.. وهم حفنة بشرية، وهذا تعبير غير مبالغ فيه، حفنة بشرية تملأ الكف، إذا قيسوا في العدد والعُدد، وفي القوة والطاقات والآلات.. إذا قيسوا بهذا العالم المتمدن المعمور، المالك لأزِمّة الأمور، والموجه للعالم كله توجيهًا كما يشاء.. إذا قوبل بينهم وبين هذه الحفنة البشرية كانوا -في الحقيقة- ملء الكف.

فقد صح عن الرسول ﷺ -كما جاء في صحيح البخاري[1]- أنه كان هنالك ثلاثة إحصاءات، أمر الرسول ﷺ بإحصاء المسلمين في المدينة المنورة، ما عدد المهاجرين، والذين آمنوا بالإسلام في المدينة المنورة، فكان الإحصاء الأخير لا يتجاوز ألفًا وخمسمائة، وكان ذلك عند غزوة أحد، ويقول بعضهم عند حفر الخندق.. كان عددهم لا يتجاوز ألفًا وخمسمائة.

وهؤلاء الألف وخمسمائة يُخاطَبون في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، هم جبهة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، أي: إن لم تكونوا معسكرًا، إن لم تُكَوِّنوا اتجاهًا سافرًا معلنًا به واضحًا للدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدعوة إلى التوحيد الخالص، والدعوة إلى احترام الإنسانية والإخاء الإنساني، والأخوة البشرية، والدعوة إلى الإنصاف والمساواة،

---

(١) أخرج البخاري عن حذيفة رضي الله عنه، قال قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل. فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة! فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف. [كتاب الجهاد والسير، باب كتابة الإمام الناس]، قال الحافظ بن حجر: لعله كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها. ثم رأيت في شرح ابن التين الجزم بأن ذلك كان عند حفر الخندق، وحكى الداوودي احتمال أن ذلك وقع لما كانوا بالحديبية [فتح الباري: ٢٠٦/٦]. والثابت أن سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر حين كان عدد المسلمين كما سبق أو أقل منه.

والدعوة إلى خشية الله تبارك وتعالى، والعطف على الإنسانية، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

كيف يفهم الإنسان ذلك بسهولة إذا لم يكن عنده إيمان عميق بالقرآن، ودراسة دقيقة، وتحر للصواب ولواقع العالم البشري؟

فقد كان هناك ملايين من البشر، من الناس، عدد كبير منهم مثقف، وعدد آخر غير مثقف، كلهم يخضعون للوثنية خضوعًا سافرًا فاحشًا دائمًا، ولهم خرافات وأساطير ومفروضات وعادات وتقاليد جاهلية فاحشة ظالمة جائرة للإنسانية والشرف الإنساني.. وهناك حفنة من البشر لا يتخطى عددهم ولا يتجاوز ألفًا وخمسمائة.. فمن غير الله تبارك وتعالى يستطيع أن يقول هذا؟!

هناك ملايين من البشر يملكون كل طاقة ووسيلة، ويملكون كل عدة وسلاح، ويملكون كل تصرف في البشرية.. وهناك حفنة بشرية قد تجوع.. قد يجوع مئات منها، ولا يستطيع كثير منهم أن يستر جسمه سترًا كافيًا وافيًا، ولا يستطيع أن يقوت عياله.. هناك حفنة بشرية قليلة العدد والعتاد والأسلحة، وقليلة القوى والطاقات، وهناك بحر خضم لا يُعرف قعره ولا عمقه، بحر مستفيض فائض على الصعيد كله، وعلى الأرض كلها، وعلى قارات وأبالات ومدن وقرى، وكذلك محلات صغيرة وكبيرة، وعمارات، وحكومات، وفقر مدقع، وعري وفاقة.

هكذا كان العالم موزعًا في ذلك الحين بين هذه الأكثرية الساحقة الغالبة، الماحقة، المعاندة، المتشبثة، الملحة، المصرة على الوثنية، وكانت هناك حفنة بشرية لا تستطيع أن تعول نفسها.. ومعلوم أن كل مهمة كبيرة تحتاج إلى أن يكون الذي يضطلع بها، والذي يقبل مسؤوليتها، أن يكون صاحب كفاف وكفاية وقوة.. هذه حفنة بشرية قليلة، وهذا العالم الممتد، عالم كالبحر مائج هائج.. فمن غير الله تبارك وتعالى

يستطيع أن يقول: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؟!

إن العبرة بالقيمة لا بالقامة.. كان المسلمون صغاراً في القامة، ولكنهم كانوا كباراً في القيمة.. والعبرة بالقيمة لا بالقامة، يدل عليه التاريخ ويثبته من أوله إلى آخره.. إن القيمة تغلبت دائماً على القامة وهزمتها مهما كانت كبيرة وشامخة.. لولا هذا، لما كان لهذا العالم المتمدن المعمور بقاء ولا كيان أبداً.. لولا أن القيمة استطاعت أن تتغلب وتهزم القامة، مهما كانت كبيرة وشامخة، لما بقيت هناك عقيدة صحيحة، ولا دين صحيح، ولا دعوة صحيحة، ولا كرامة بشرية.

والعالم البشري الآن، يعاني عللاً وأسقاماً، وموبقات وأخطاراً، لا يوجد لها نظير في كثير من القرون الماضية.. والعالم الإسلامي نفسه يعاني أهوالاً ومحناً، فريدة طريفة، أنواعاً لم تخطر ببال، ولم تكن تسنح للخيال.

إنه يعاني مؤامرات ومعارضات، تختلف في الأشكال ولكنها تلتقي على نقطة واحدة، وهي إبادة الأثر الإسلامي، وأثر التعليمات الإسلامية على العالم الإسلامي، وإفقاد الثقة بصلاحية الإسلام للبقاء في هذا العهد الراقي المتطور، وعن صلاحيته لقيادة قُطر، فضلاً عن صلاحيته لقيادة البشرية والمدنية.

وقد التقىٰ في هذا المشروع المدمر والمخطَّط المبيد، ذكاء إسرائيل (وبالأصح شطارة إسرائيل) مع وسائل أمريكا وطاقاتها. التقى هذان العنصران القويان المبيدان على محو الأثر الإسلامي، حتى في العالم الإسلامي وفي الأقطار الإسلامية، العريقة في الإيمان بالإسلام، والتضلع بالدعوة الإسلامية ونشرها في العالم، ذات الحمية الإسلامية، والغيرة الدينية، والنضال الإسلامي، وذوات الثروات الواسعة.. الغنية في العلوم الإسلامية، الدينية والعلمية، السنية والفقهية والأدبية، والتي قامت في بعض الفترات التاريخية بمقاومة الهجمات والزحفات المتحدية لبقاء الإسلام والمسلمين، كالهجوم

الصليبي الفاتك والزحف التتاري المبيد.

وكان ذكاء إسرائيل واستعراض أمريكا للواقع -رغم وجود تناقض من أشد التناقضات في العقيدة في ما يتصل بنبي الله عيسى بن مريم عليهما السلام- مصيبين في اختيار هذا العنصر الوحيد الذي يهدد الاستعمار الأجنبي والتخطيط الأجنبي المدمر.

وقد جاء تقرير المصير للأمم والشعوب في أيدي حكومة عالمية، ذات وسائل تجارية، ووسائل سياسية، ووسائل مدمرة، مع أن مستقبل الإنسانية متوقف على بقاء المسلمين، هم يوجهون العالم إلى ما فيه السداد، وإلى ما فيه الرشاد، وإلى ما فيه السعادة، وإلى ما فيه النجاة الأخروية، والسلامة الدنيوية، وإلى ما فيه التآلف والتعاطف والتعاون على البر والتقوى.

ثم هناك معركة أخرى حامية غير طبيعية وغير معقولة، وهي التي استنزفت جهود القادة والساسة، وولاة الأمور والمفكرين في البلاد الإسلامية، وهي المعركة الحامية بين الشعوب والجماهير والحكومات.

فالحكومات تتجه إلى العلمانية والقومية وتنفيذ الحضارة والقيم الغربية، والثقافة الحرة الخاضعة للقيم الغربية، أو المستوردة من الأقطار الغربية إلى الأقطار الإسلامية، والإشفاق والحذر من كل ما يتصل بمطالبة تنفيذ الشريعة المحمدية والفكر الإسلامي، والحضارة الإسلامية، في البلد الإسلامي والمجتمع الإسلامي.

ونشأت عند قادة الأقطار الإسلامية حساسية زائدة في هذه القضية، فالحكومات -كما أسلفنا- تتجه الاتجاه الغربي العلماني أو القومي، والشعوب تتجه الاتجاه القديم الإسلامي، فلا الحكومات نجحت في جر هذه الشعوب والجماهير المسلمة إلى الابتعاد عن جادة الإسلام، ولا الجماهير نجحت في إقناع هؤلاء الحكام والمشرعين

باستخدام الطاقة الذرية الهائلة، التي هي كامنة في نفوس الجماهير المسلمة، وهي قوة الإيمان والشوق إلى الشهادة وطلب الأجر من الله والفوز بالجنة.. القوة الكامنة التي لا بديل لها، والتي يرجع إليها فضل البطولات الخارقة للعادة، المحيرة للألباب، التي أشار إليها الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤).

فالمطلوب من القيادات الإسلامية، الدعوية والفكرية والثقافية، مهما صغر حجمها ومهما اعترضت لها عوائق ومشكلات ومطاردات ومعوقات، أن تخلص بلادها ومجتمعها من هذا الصدام القيادي والتشريعي والتنفيذي، والحضاري والسياسي، الذي هو في غير أوانه ومكانه، وتجمع الكلمة والعزيمة على مقاومة النفوذ الغربي ومخططاته السلبية المشفقة من النفوذ الإسلامي، الكارهة له، وتجمع الكلمة والطاقات الكامنة في نفوس الجماهير المسلمة وتوقد الشرارة الإيمانية الكامنة التي صنعت العجائب، وجاءت بخوارق في التاريخ الإسلامي، بل التاريخ البشري الطويل، ولا تقابلها الطاقة الذرية المبيدة السلبية، ولا تنظر في ذلك إلى حجمها ونطاق وسائلها، وكثرة العوائق والمؤامرات، واختلاف الزمان والمكان، وليكن نصب عينها ومثير عزمها وغيرتها قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾..

ينبغي أن نتأمل، وأن نؤمل، وأن نتفكر في هذه الآية، في هذه المقارنة، لإلقاء التبعة، تبعة الدعوة والإنسانية، والمسؤولية الإنسانية على هذا العدد القليل، وعلى هذه الحفنة البشرية.

لقد أثبت التاريخ أن هذه الحفنة البشرية لما قامت واضطلعت وقبلت بمسؤوليتها،

غلبت هذا البحر الخضم الممتد على صعيد الأرض كلها وتغلبت عليه، وهزمت هذا العدد والعُدد والعتاد، والمملكات الشامخة، والطاقات الباذخة كلها.. تغلبت الفئة القليلة على الكثرة.

إن التأمل في هذه الآية تبصير لنا، وإثارة لعواطفنا وإيماننا وعزيمتنا ونخوتنا، وإثارة لإبائنا وعزتنا أن نقوم أمام هذه الكثرة الشامخة الفاشية التي نراها اليوم، نقوم أمامها بقيمنا لا بقامتنا.. بدعوتنا لا بما عندنا من إمكانيات، ومن فرص وعتاد.

نقوم بالدعوة بقوة الإخلاص، وبقوة الإيمان.

نقوم بالميزة الخلقية. نقوم بالإخلاص التام.

لا نكون خاضعين لعَدَد ولا عُدَد، نكون خاضعين لله تبارك وتعالى، ولإرادته، ولنصرته، فالله سبحانه وتعالى قد وعد بالنصر.. وعد المسلمين والقائمين بالحق وبالدعوة الصحيحة بالنصر المبين.. والتاريخ من أوله إلى آخره يشهد بذلك.

يشهد بأن فئات قليلة العدد تغلبت على فئات كثيرة، ولا أقول فئات، بل تغلبت على بحار من العدد والعُدد، بقوة الإيمان وبالإخلاص في الدعوة، وبالرثاء للإنسانية وبالتضحية والزهد.

هذه هي الأسلحة التي تستطيع بها هذه الأمة أن تتغلب وتنقذ العالم المادي الخاضع للشهوات والمصالح السياسية، والخاضع للأهواء، والخاضع للازدهار والاستعمار.

إن المسلمين -وإن قل عددهم- تغلبوا على فئات كثيرة العدد، وعلى طاقات كبيرة.

والآن أقول بصراحة:

إن هناك فراغًا ليس مثله فراغ، يمثل خطورة ضد الإنسانية وضد رحمة الله تبارك وتعالى بالإنسانية، ضد ما أراده الله تبارك وتعالى، وما جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو فراغ الدعوة العالمية، فراغ الاعتماد على الله تبارك وتعالى بالنصر المبين، ثم على القوة الإيمانية، وقد شوهد وجُرب مراراً وتكراراً في التاريخ الإنساني -كما أسلفت- أن تغلبت الفئة القليلة الضعيفة على فئة كثيرة قوية: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

وانتهز هذه الفرصة التي تسنح قليلاً لمثلي فيما عندي من أشغال وأسفار ومن تبعات ومسؤوليات، انتهز هذه الفرصة وأقول لإخواني المسلمين وللعرب: أن تجعلوا قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ نصب أعينكم، وتؤمنوا بهذا، وإذا لم تقوموا لله تبارك وتعالى بالدعوة الإسلامية الصحيحة الصادقة، والمخلصة، الراحمة والرائفة بالإنسانية، فالعالم في خطر، بما عنده من عتاد وأسلحة مادية ومعنوية وثقافية وإعلامية.

العالم في خطر إذا لم تكن هناك دعوة إلى الإيمان، إذا لم يكن هناك اتجاه عالمي بالأصح، اتجاه الطاقات الكبرى والبلاد المتمدنة الراقية إلى دراسة الإسلام، إذا وفق الله تبارك وتعالى إلى قبوله واعتناقه.. لذلك فإن هذا الفراغ يجب أن يملأ.

والعرب -سامحوني- هم أحق بذلك، لأنهم هم الذين أكرمهم الله تبارك وتعالى بتوجيه الدعوة إليهم، وهم الذين قاموا ونهضوا بالعالم وأنقذوه من الانهيار والدمار والخراب ومن الهلاك والإبادة.

فيجب على إخواننا العرب -وهم السادة والأساتذة والرعيل الأول، والطليعة في ميدان ومجال الدعوة، وفي مجال الرثاء للإنسانية- أن يقوموا قبل غيرهم بالدعوة في

أمريكا، وأوروبا، واليابان، وفي الصين، وفي مناطق أخرى.. يقوموا بالدعوة للإسلام، وتوضيحه للناس هناك، خصوصًا المثقفين.. يشرحون لهم الإسلام، ويعرضونه عليهم في قالب علمي مقنع، مراعٍ للنفس البشرية والأوضاع هناك..

هذا واجب المسلمين جميعًا من غير تمييز ومن غير استثناء، وللعرب أوجب أن يقوموا بهذه الدعوة، لأن العالم إنما خرج من المأزق والهاوية التي كان فيها عن طريق العرب الأولين، المسلمين الدعاة.. عن طريق الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم، الذين اقتبسوا منهم النور والعلم الصحيح والرحمة والرثاء للإنسانية، وكذلك الشجاعة الأدبية والبيانية.. والآن -وهذا وقت أكيد، ربما لا تسنح فرص بعده- هناك فرص كثيرة.

يجب علينا أن نقوم بالدعوة الإسلامية الصحيحة المقتبسة من القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية، وشمائل وسير الصحابة، ونملأ هذا الفراغ الذي ليس هناك أغور وأخطر منه.. وهذا في صالح الإنسانية جميعًا وليس في صالح المسلمين فقط، حتى يمتد سلطانهم ونفوذهم، أو حتى يكتسبوا ويحرزوا الفوائد الاقتصادية والسياسية.

من صالح ومصلحة الإنسانية كلها أن توجه إليها الدعوة الإسلامية، وإلا فإنني أخاف على الإنسانية والبشرية كلها، وحتى أجزاء العالم الراقية والمتمدنة، القائدة والرائدة للعالم، فإذا لم تكن هناك دعوة فإنه لا يؤمن على البشرية التائهة الضالة الظالمة البقاء لمدة أطول.

فهذا في صالح الإنسانية، وفي صالح المسلمين، وفي صالح العرب أولاً، وللعرب حق وواجب أكبر ورئيس في توجيه هذه الدعوة، والاضطلاع بهذه الدعوة بصدق وإخلاص، وشجاعة وجرأة، وصراحة.

وأقول أخيراً:

أيها المسلمون! أيتها الحفنة البشرية الضئيلة العدد، إذا لم تقوموا بواجب الاضطلاع بهذه الدعوة الإنسانية الكريمة الواسعة المنقذة للبشرية، إن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.. هذا ما نشاهده بأم عيوننا.. نشاهد كيف أن البلاد التي يضرب بها المثل في المدنية والحضارة والثقافة، البلاد التي توجه العالم توجيهًا فكريًا وثقافيًا ومدنيًا وحضاريًا وسياسيًا، كلها في خطر.. إذا فهم قادتها هذا -ومنهم من يفهم- خافوا على بلادهم وأنفسهم، وبدأوا يطلعون على هذا الدين الأخير الخاتم الصحيح.. الدين المنقذ للبشرية.. وكان هناك دور آخر للتاريخ، وليس ذلك على الله بعزيز.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا، ويوفق إخواننا، ويوفق العالم المتمدن للتعرف على هذا الخطر الداهم والقاصم والمبيد، ليس لبلاد دون أخرى، بل للإنسانية كلها.

الأمة هي الأصل

الدكتور أحمد الريسوني*

كثيرون ينظرون للشورى على أنها شأن من شؤون الحكم والحكام، فهي عندهم شورى نازلة من الأعلى، وهو إنزال خاضع لتقدير الحاكمين، والعكس هو الصحيح.. فالشورى شأن من شؤون الجماعة برمتها، وقد نزل قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ قبل أن تكون للمسلمين دولة.

وأعني بالأمة أمة الإسلام، وهي جماعة المسلمين، المؤمنين بالله ربًا واحدًا لا شريك له، وبمحمد رسولاً ونبيًا لا نبي بعده، وبالإسلام دينًا جامعًا لا دين سواه. فالأمة مراد بها عموم المسلمين وكافتهم. وهي المخاطبة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وضمن هذه الأمة وداخل جسدها تتشكل كيانات وهيئات، قائدة حاكمة، أو مهيمنة متحكمة كالرؤساء والوزراء، والولاة والقضاة، وقادة الجند، والجند أنفسهم (الجيوش)، والشرطة، وغيرها من الفئات والهيئات التي تتكون منها الدولة وعليها تنهض وتقوم، وبها تستقر وتدوم.

---

* باحث.. أكاديمي.. (المغرب).

وهذا المقال يتناول علاقة الأمة بالدولة، من حيث موضع كل منهما ومكانتها من الأخرى، وموقع كل منهما ومكانتها في الخطاب الشرعي وفي النظام الإسلامي. وهي قضية يترتب على تصورها نظريًا وإقامتها عمليًا على هذا النحو أو ذاك نتائج كبيرة وجسيمة في هذا الاتجاه أو ذاك.

وإذا كانت الكتابات في السياسة الشرعية قديمًا وحديثًا، والدراسات السياسية الدستورية اليوم، قد ركزت على الدولة ومؤسساتها، ووظائفها وصلاحياتها، وأبرزت بما فيه الكفاية وأكثر، مدى أهمية الدولة وضرورتها، فإنها -بحكم كونها في الغالب تعكس الواقع المعيش- أهملت دور الأمة وموقعها ومكانتها، وصلاحياتها ووظائفها، مما عزز الواقع المعيش أكثر فأكثر.

وأطروحة هذا المقال هي أن «الأمة هي الأصل»، سواء من حيث توجه الخطاب الشرعي ابتداءً، أو من حيث العموم، أو من حيث الصلاحيات والمسؤوليات، أو من حيث الأولوية والتقديم. وفي هذا كله تأتي الدولة والحكام، والفئات والأفراد، يأتون تبعًا وضمنًا.

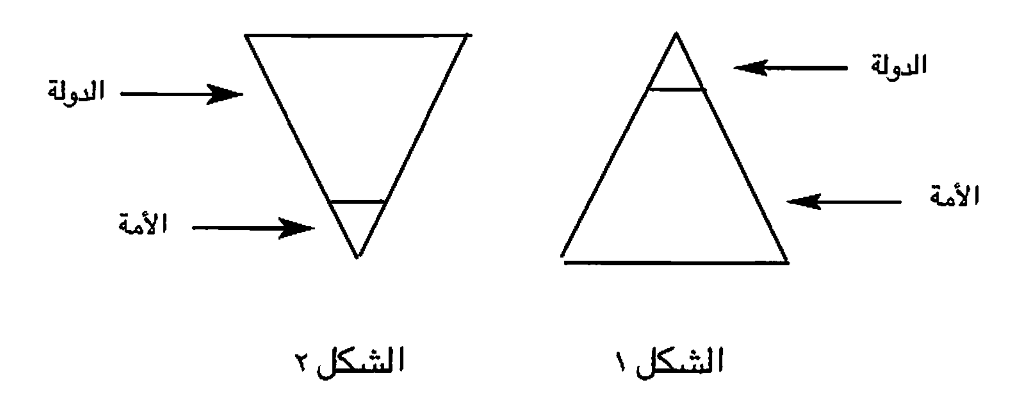
وقبل أن أدخل في بعض التفاصيل والأمثلة والأدلة لهذه القضية، أضيف أن هذه المعاني الكبيرة والأساسية في النظام الإسلامي وفي التصور الإسلامي لمكانة الأمة والدولة، وأولوية الأولى على الثانية وفرعية الثانية وتبعيتها للأولى، وكذلك تبعية الخطاب الفردي للخطاب الجماعي، هذه المعاني قد تعرضت للضمور والاختلال، بل إلى الانقلاب والانعكاس. وهو ما أفقد الأمة مكانتها وقدرتها على الريادة والعطاء والإبداع، وحولها إلى مجرد ركام ضخم من الأفراد المتفرجين المستهلِكين والمستهلَكين، بينما تضخمت الدولة حتى صارت هي الأصل، وحتى صارت «هي الكل في الكل».

وفي ظل هذا الوضع المقلوب نمت الأحاسيس والهموم الفردية، ونما ورسخ السلوك الفرداني الأناني.

إن الوضع الطبيعي والسوي لمكانة كل من الأمة والدولة يمكن تشبيهه بهرم قاعدته وعامة جسمه هو من الأمة، والزاوية العلوية الصغيرة التي تمثل رأس الهرم هي الدولة. وأما الوضع المختل المقلوب الذي أصبحنا نعيش عليه منذ مدة وإلى الآن، فهو وضع الهرم المقلوب، زاويته الضيقة إلى الأسفل وهي الأمة، وقاعدته المديدة العريضة إلى الأعلى وهي الدولة.

فالأمة في الوضع الأول هي الأساس المتين والجسم الممتلئ والخير الواسع طولاً وعرضاً وعمقاً، والدولة فيه بمثابة برج صغير للمراقبة والتفقد والتوجيه والتنسيق، وتحتل حيزاً ضيقاً، لكنه مرتفع ومشرف. انظر الشكل (١).

وفي الوضع المقلوب نجد للأمة حيزاً ضيقاً وزاوية حادة في أسفل الهرم المقلوب، وفوق هذا الحيز الضيق تنتصب الدولة متضخمة ثقيلة ضاغطة... انظر الشكل (٢).



الشكل ٢ الشكل ١

الخطاب الشرعي بين الأمة والأئمة

هناك كثير من النصوص التكليفية الشرعية تفهم وتؤخذ عادة على أنها خطاب خاص ومباشر لأولي الأمر من ذوي السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية، أي أنها من شؤون الدولة واختصاصاتها، مثل النصوص المتعلقة بإقامة العدل والقسط، والجهاد والقتال، وتنفيذ الحدود، والحكم بما أنزل الله، وتنظيم شؤون الزكاة، والأسرة والمجتمع.

وأنا لا أنكر أن للدولة نوع اختصاص ومزيد مسؤولية في هذه الأمور وأمثالها، ولكني أقول: إن الخطاب فيها أساسًا وابتداءً للأمة ولجماعة المسلمين. وعن هذا الأصل، أو عن هذه الأصالة يتفرع الاختصاص بقدر ما تقتضيه المصلحة وتمليه الضرورة، وبقدر ما تراه الجماعة على سبيل التنظيم والتوكيل والتفويض، بحسب الصيغ والتفاصيل المعتمدة أو المتعارف عليها.

والدليل على ذلك هو أن الخطاب الشرعي في هذه الأمور العامة، وفي معظم التكاليف الشرعية هو خطاب لجماعة المسلمين، وهو نداء لجماعة المسلمين. فالخطاب الشرعي يتعامل مع الأمة لا مع الأئمة، مع الأمة لا مع الدولة، أما الأئمة ومن في حكمهم، فهذا إنما هو شأن من شؤون الأمة. فهم مخاطبون من خلالها ومكلفون من قبلها.

ولنتأمل في هذه النماذج لنرى من المخاطب بها ومن المعني بها:

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ (الشورى: ١٣).
- ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران: ١٠٣).
- ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ (التوبة: ٧١).

- ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ (النور: ٣٢).

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠).

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨).

- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢).

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ (النور: ٤).

- ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ...﴾ (النساء: ١٥-١٦).

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

- ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

ففي هذه النصوص كلها -وفي كثير مثلها- لا يوجد مخاطب اسمه الدولة، أو الخليفة، أو الحكومة، أو الإمارة، أو المجلس الفلاني، بل الخطاب للجماعة، للأمة، لعموم المسلمين.

ومثل هذا المغزى واضح في كل خطاب جاء بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

وحتى أمهات العبادات التي هي أساسًا تعبير عن العبودية والتعبد للرب سبحانه، وهي تعتمد على النية الفردية بالباطنة، وتنبعث من ضمير الفرد وتتجه إليه، حتى هذه العبادات نجد فيها أبعادًا جماعية متعددة. فالأمر بها يأتي جماعيًا، وقد يأتي فرديًا، والقيام بها جماعي في أصله وأساسه. وإقامتها، بما تتطلبه من إعداد ووسائل وشروط وتعاون وتناصح، تتوقف على الجماعة والعمل الجماعي.

فالأمر بالصلاة والزكاة مثلاً يأتي في الغالب خطابًا لجماعة المؤمنين: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: ٤٣).

وأداء الصلاة هو العمل الجماعي الذي ينخرط فيه أكبر عدد من المسلمين نساءً ورجالاً. وهو أكثر عمل جماعي ينخرط فيه المسلم في حياته. وفي كل صلاة يدعو المصلي بقوله: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**».

والزكاة هي علاقة أخوية إحسانية بين ذوي الفضل وذوي الحاجة من المسلمين. ولذلك فهي بنص الحديث النبوي: «**تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم**»[1].

والصيام من أكثر العبادات خفاءً وخصوصية، ومع ذلك جعله موحدًا في شهره وبدايته ونهايته قد رتب عليه من الأبعاد الجماعية ما هو مشاهد ومعيش في كافة المجتمعات والتجمعات الإسلامية. ولو كان الصيام الفردي هو المطلوب، لكن لكل واحد أن يختار شهره وتوقيته.

والأمر في الحج أكثر قوة ووضوحًا، سواء في خطابه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ (الحج: ٢٧)، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ (آل عمران: ٩٧)، أو في أدائه.

ففي جميع هذه الأركان يمكن أن يكون للدولة أدوار مساعدة ووظائف مكملة،

(١) متفق عليه.

ومواقف مشجعة وموجهة، ولكن الخطاب أبداً ليس لخصوص الدولة، وليس متوقفًا على تدابير الدولة ولا على تشجيعها ومساعدتها. وهناك دول عرقلت بعض هذه الشعائر، ولكن الشعوب المسلمة ظلت تدفع تلك العراقيل وتتخطاها، مثلما تدافع الصعوبات الذاتية وغيرها. وسواء كانت الأمة، أو الشعوب، في مستوى مسؤولياتها فهمًا وعملاً، أو كانت قاصرة أو مقصرة، فإن المبادرة إلى تعظيم شعائرها والمحافظة عليها وتوفير ما يخدمها ودفع ما يعوقها ويضر بها هي واجباتها ووظائفها، وجدت الدولة أو لم توجد، ساعدت أم عاندت.

نصرة الدين وحمل رسالته

وقر في الأذهان والقلوب -مثلما الشأن في الواقع المقلوب- أن نصرة الدين والدفاع عنه والدعوة إليه وحمل رسالته إلى العالمين، وظائف وواجبات دائرة بين الدولة والعلماء. ويعتقد كثير من العلماء أنفسهم أن أداءهم لنصيبهم من هذه الرسالة متوقف على الدولة إذناً ومساعدة ودعمًا. فآل الأمر إلى الدولة ونيط بها إلى حد كبير.

وهذا أولاً، إفساد لمعاني الدين، وقلب لأوضاعه، على نحو ما يتبين في هذا المقال من أوله إلى آخره.

وثانيًا، فإن الدولة عاجزة مسبقًا عن التكفل وحدها بمثل هذا الأمر الجلل، بل عاجزة حتى عن أن تكون قاطرته والطرف الأكبر فيه.

وثالثاً: لأن الدولة قد تكون في كثير من الأحيان غير صالحة لهذا الأمر، أو غير راغبة فيه، أو غير مؤهلة له. بل قد تكون ضده ورافضة له، لأسباب عديدة ترجع إلى سياستها الداخلية والخارجية.

أما أولاً:

فلأن الله عز وجل قد خاطب في هذا الشأن عامة المؤمنين وكافة المسلمين،

وحملهم الأمانة والمسؤولية، ولم يخاطب فيه الأمراء، ولا اقتصر على العلماء، ولا خص الأغنياء دون الفقراء، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ (يوسف:١٠٨). وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ .. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ ..﴾ (الصف: ١٠-١٤).

فالدعوة إلى الإسلام وحمل رسالته إلى كافة الأنام، هي وظيفة جميع المسلمين أتباع خاتم الأنبياء، مثلما هي وظيفة الرسول نفسه، ومن ادعى التخصيص والاستثناء فليأتنا بدليل لا وجود له. وقل مثل هذا في نصرة الله التي هي نصرة دينه والجهاد والتضحية في سبيله بالأموال والأنفس. فليس الخطاب بذلك موجهاً إلى العلماء، أو الأمراء، أو الفاتحين، أو قادة الجند.. بل هو خطاب موجه إلى كافة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وأما ثانياً:

فإن أمانة ثقيلة جسيمة كأمانة حفظ الدين ونصرته، أعظم وأخطر من أن تحملها فئة واحدة أو فئتان من الأمة، بما يعنيه ذلك من تعرض أي فئة للضعف والتقصير، أولقلة في العدد والنصير، أو تعرض للانحلال والاضمحلال. أما حين تخاطب بهذه الأمانة الأمة، كل الأمة، ويصبح مسؤولاً عنها المؤمنون، كل المؤمنين، نساءً ورجالاً، فقراء وأغنياء، تجاراً وصناعًا، أمراء وأجراء... فإن فرص حمل الأمانة ورعايتها تكون كثيرة وفيرة واسعة متنوعة. ومهما أصاب الأمة من محن وآفات ونكبات وعثرات، فإن فرص الإفلات والانبعاث تبقى قائمة دائمة، في هذا الجزء من الأمة أو ذاك. فلذلك يظل الجهاد قائمًا إلى يوم القيامة، ولذلك لا تزال طائفة من الأمة ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة. وهذا في أسوأ الظروف وأحلكها.

وأما ثالثًا:

فإن الإلقاء بهذه الأمانة الثقيلة الجليلة إلى الدولة ومن يدور في فلكها، يجعلها عرضة للخطر الماحق حين تقوم الدولة على غير هدى من الله، بل على الغضب والأثرة والانحراف والفساد. ومثل هذا ليس بقليل في تاريخنا. فأنى لدولة هذا شأنها أن تحمي الدين وتحمل رسالته إلى العالمين؟! وقل مثل هذا حين تصبح غارقة في الفتن والصراعات الداخلية الذاتية، أو تصل إلى حد التفكك والتلاشي.

أما حال الأمة مع حفظ دينها فهو كحالها مع وعد الله تعالى ألا يهلكها بسنة عامة تأتي عليها من أطرافها، وألا يسلط عليها عدوًا يهلكها ويبيد كيانها. نعم قد يصيب أجزاءها شيء من هذا وذاك، ولكن تبقى الخيرات والبركات.

تغيير المنكر ومقاومة الفساد

هذه وظيفة أخرى من وظائف المجتمع والجماعة، وظيفة تغيير المنكر إذا ظهر ومقاومة الفساد إذا بطر. ولكن هذه الوظيفة أيضًا قد حوصرت وحصرت، ودُفع عامة الناس بشتى الأساليب والآراء عن ممارستها، أو على الأقل ضُيِّق عليهم في ممارستها. بينما النصوص متضافرة صريحة في تحميل هذ المسؤولية لعموم الناس، نساءً ورجالاً، يؤدونها في كافة مدنهم وقراهم، وحتى مع ولاتهم ووجهائهم.

ومن غريب ما صنعته الممارسة السلطانية، ذلك الفقه السلطاني الذي جعل تغيير المنكر خاصًا بالدولة، وتغيير المنكر باللسان خاص بالعلماء (بقيود وشروط)، وأما الأمة برمتها وعامتها فلم يبق لها إلا تغيير المنكر بالقلب، أي عدم التغيير الفعلي.

وقد تضافرت نصوص القرآن والسنة على عمومية وجوب تغيير المنكر وإزالة الفساد بقدر ما يستطاع. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١). وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧). وفي مقدمة الإصلاح إزالة الفساد.

وأما الأحاديث النبوية فلا تقل كثرة وتعميماً عن الآيات القرآنية. ومن أشهرها قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1]، ومنها قوله ﷺ في شأن الأمراء المنحرفين والمحرفين: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[2].

وواضح كيف أن النبي ﷺ جعل تغيير المنكر ومقاومته في الحديثين معًا نوعًا من الإيمان وجزءاً من أجزائه، وليس مجرد مقتضى من مقتضياته.. وقوة الإيمان وضعفه، وكماله ونقصه، ليس مما يتخص به الأمراء أو العلماء، بل هو مما يهم كل مؤمن. ولهذا نجد الحديثين السالفين في صحيح مسلم ضمن أبواب الإيمان، وتحت هذا العنوان المعبر: «باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان»[3].

ومراتب تغيير المنكر الواردة في الحديثين ليست موزعة على الأمراء والعلماء والعامة، كما يذهب إلى ذلك بعض المتأخرين. بل جميع المراتب واجبة على جميع المسلمين بحسب الإمكان والاستطاعة لا غير.

(١) صحيح مسلمْ بشرح النووي، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ت، ٢/٢١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

ومن التناقضات الغريبة في هذا الباب، أن تجد عالمًا مفسرًا كالإمام القرطبي يفهم بحق من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١)، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أخص أوصاف المؤمنين، وهو فرق ما بين المؤمن والمنافق، ثم ينقض ذلك حين يضيف مستدركًا: «ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان، إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق إليه والنفي والتغريب. فينصب في كل بلدة رجلاً صالحًا قويًا عالمًا أمينًا ويأمره بذلك»[١].

وهكذا فإن المؤمنين والمؤمنات في كل بلدة يختزلون في كل رجل واحد، قد يكون وقد لا يكون، وقد يكفي وقد لا يكفي، وقد يعلم وقد لا يعلم بما يقع، وقد يصيب وقد يخطئ، وقد يستقيم وقد ينحرف.. وإذا أريد تغييره فكيف يتغير؟ ومتى يتغير؟ وهل يمكن تغييره إلا بشكاوى العامة وإنكارهم ومبادراتهم؟ لكن هؤلاء ليس لهم إنكار المنكر حتى على بعضهم وأمثالهم، فكيف ينكرون على رجل أقامه الإمام وهو نائب الإمام؟!

والعلامة القرطبي يستدل على ما ذهب إليه من قصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الحكام بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ (الحج: ٤١). فهو يستدل على فهم مختل بآخر مثله ومن جنسه، حيث يجعل التمكين في الآية خاصًا بالحكام الذين تمكنوا من الحكم والغلبة. وهذا غلط كبير. فإن التمكين في الآية عام أيضًا. ولفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظ العموم، كما هو معلوم. ثم إن قلنا: إن الآية تتحدث عن الحكام وما يختصون به، فلنقل إن الحكام الذين تمكنوا يختصون أيضًا بإقامة الصلاة

(١) الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ٤/٤٧.

وإيتاء الزكاة، لأن الكلام واحد والجهة المتحدث عنها واحدة.

ومما يدل على عموم التمكين للجماعة، وعدم قصره على الحكام قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (النور: ٥٥).

والأمر بيِّن لا يحتاج إلى بيان.

غير أن ها هنا التباسًا يقع لبض الناس، فلا يتصورون تغيير المنكر باليد إلا سلاحًا وقتالاً وخروجًا على الحكام، وخاصة إذا كان المنكر المراد تغييره واقعًا من الأمراء أنفسهم. وهذا غير صحيح وغير لازم، قال ابن رجب الحنبلي: «التغيير باليد لا يستلزم القتال»، وقد نص على ذلك أحمد أيضًا في رواية صالح فقال: «التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح»، فحينئذ جهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات، مثل أن يريق خمورهم أو يكسر آلات اللهو التي لهم، أو نحو ذلك، أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كانت له قدرة على ذلك. وكل ذلك جائز. وليس هو من باب قتالهم ولا من الخروج عليهم، الذي ورد النهي عنه»[١].

حق الشورى بين العموم والخصوص

اعتاد الناس، وكثير من العلماء والمفكرين، أن ينظروا إلى الشورى على أنها شأن من شؤون الحكم والحكام، وإنما الكلام عندهم في مجال إعمالها ومدى وجوبها ولزوم نتيجتها، وكل هذا في نطاق نظرية مؤداها أن المخاطبين بالشورى هم الولاة، فهي شأنهم والأمر فيها إليهم. ثم هم يضعونها حيث اقتضى نظرهم واجتهادهم،

(١) جامع العلوم والحكم، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٣٢١.

ويشركون فيها من يرون أهليتهم وصلاحيتهم لها، فهي شورى نازلة من الأعلى إلى الأسفل، من رأس الهرم إلى وسطه أو إلى قاعدته أحيانًا. وهو إنزال خاضع لتقدير الحاكمين في كمه وكيفيته.

والحق -في نظري- أن العكس هو الصحيح، فالشورى شأن من شؤون الجماعة برمتها. فهي مالكتها وصاحبة الحق فيها وفي تفويضها، وفي تقييدها وتنظيمها. والدليل على هذا كلام الله وفعل رسول الله ﷺ. قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

فأولاً، هذه الآية نزلت في المسلمين قبل أن يكون لهم دولة. فهي تتحدث عن جماعة المؤمنين مباشرة وأصالة. فلفظ الآية، والواقع الذي تتحدث عنه، يتعلقان بعموم المسلمين، وليس بدولتهم ولا برئيسهم ولا بهيئة حاكمة فيهم.

وثانيًا، الشورى ها هنا شأنها شأن ما جاء قبلها وبعدها، صفة من صفات جماعة المؤمنين الذين استجابوا لربهم وأقاموا صلاتهم وأدوا زكاتهم...

وحين أمر الله تعالى رسوله بالشورى، لم يجعل لهذ الشورى خصوصية، بل جاءت (الشورى) حقًا لعموم المسلمين ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، وجاء الأمر بالشورى مسبوقًا بعبارات وأوامر أخرى لا يشك أحد في أنها متعلقة بالعموم لا بالخصوص: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). فهل شيء من هذا خاص بالأمراء والولاة والعلماء وقادة الجند؟

فالمعنيون بالمعاملة اللينة الخالية من الفظاظة والغلظة، والمعنيون بالعفو والاستغفار، هم أنفسهم المعنيون بالمشاورة، وهم عامة المسلمين وجماعة المسلمين.

ولقد كان رسول الله ﷺ يستشير فيقول مخاطبًا الناس: «**أشيروا عليّ**» تنبيهًا على أن الشورى في أصلها حق لجميع الناس المعنيين بالأمر، أو على الأقل لجميع من أمكن منهم.

هذا هو الأصل في الشورى، غير أنه وبمقتضى الشورى، فإن لأي جماعة الحق في أن تتوافق وتتعارف على تنظيم الشورى وإقامتها على النحو الذي تريده وتراه أنسب وأصلح لها ولحالها. ومن ذلك إسناد الشورى والبت في أمور معينة إلى أناس معنيين وطوائف مخصوصة. ولكن هذا لا يسقط حق الجماعة في المراجعة والتغيير، كما لا يسقط حقها الأصلي فيما أنابت فيه وفوضت.

وقد أمر الله تعالى المسلمين أن يسألوا فيما لا يعلمون أهل الاختصاص والخبرة: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٤٣). ونهاهم عن الخوض والقول فيما ليس لهم به علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦). فوجب بهذا على المسلمين أن يعتمدوا على أهل الاختصاص والعلم والدراية فيما يتوقف تقديره والبت فيه على ذلك. وهذا أيضًا لا يلغي الحق الأصلي والعام للمسلمين في أن يتشاوروا في أمورهم العامة والمشتركة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، فما كان مشتركًا بين عموم الأمة فهو إلى الأمة شورى بينها. وما كان مشتركًا بين جزء من الأمة -قل من أو كثر- فهو شورى بين أهل ذلك الجزء، كان طائفة، أو مدينة أو قرية أو حارة...

هذا هو الأصل الذي يجعل توسيع الشورى أكثر ما يمكن هو الأقرب إلى الصواب والعدل، ولا يعدل عن هذا الأصل ولا يستثنى منه إلا بقدر الحاجة والمصلحة، أو بدليل خاص.

وعلى هذ الأساس تبقى الأمة والجماعة حية متيقظة مشاركة فعالة. أما حين

تعكس الآية، ويعمل بقاعدة: «وأمرهم شورى بين ولاتهم»، وولاتهم يسلمون الأمور إلى رئيسهم، طوعًا أو كرهًا، فإن الأمة أو الجماعة تستقيل وتنحط إلى السلبية واللامبالاة، وينهمك كل واحد في شأنه وذاته.

بين التمكين للأمة والتمكين للدولة

إن أمة الإسلام التي وصفها القرآن الكريم بكونها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لا يليق بها إلا أن تكون ذات سيادة وريادة، وتمكين ومكانة. وعلى هذا الأساس بناها رسول الله ﷺ، وعلى هذا المنهج سارت وعاشت عدة قرون، ملأت فيها العالم نورًا وهداية، وعدلاً ورحمة، وعلمًا وخلقًا.

كانت الأمة -قبل الدولة وأكثر منها- هي التي تدير وتدبر شؤونها الدينية والثقافية، وتحل مشاكلها المعيشية، وتلبي حاجاتها الاجتماعية، وتنهض بمشاريعها العلمية والتعليمية، وتحقق إنجازاتها العمرانية والحضارية. وكانت الدولة تشجع وتساعد وتنظم، وقد تضعف فتصبح عالة على المجتمع، وقد تنحرف فتصبح عائقًا في طريقه، ولكن المجتمع يبقى نشيطًا متجددًا في طاقاته وعطاءاته.

وعلى سبيل المثال، لو تصفحنا -مجرد تصفح- دور الوقف في خدمة الحياة الدينية والثقافية، وفي تلبية الاحتياجات الاجتماعية، وفي القيام بشؤون الفقراء والمساكين والمرضى والمحتاجين، وفي بناء المدارس وإعمارها وتمويلها والإنفاق على أساتذتها وطلبتها، وفي دعم حركة الجهاد والدفاع عن الثغور، لعلمنا الأدوار والعطاءات العظيمة التي تستطيع الأمة أداءها، حين تأخذ حريتها وتملك مبادرتها، ولعلمنا أي خسارة نمنى بها حين يصبح «التمكين» خاصًا بالدولة منزوعًا من الأمة.

إن التمكين للدولة -في الوضع الصحيح- هو الذي يكون نتيجة وفرعًا من التمكين للأمة، أما حين يصير التمكين للدولة على حساب التمكين للأمة، وحين

يصبح التمكين حكرًا للدولة ممنوعًا على الأمة، فذلك حين «**تلد الأمة ربتها**».

ومنذ سنوات قرأت للدكتور سيد دسوقي حسن آراءً جيدة عن البعث الحضاري وشروطه ومقدماته، وقرأت له مع صديقه الدكتور محمود محمد مسفر نظرات واقتراحات نيرة عن كيفية شحذ فاعلية الأمة والخروج من الطريق المسدود...

غير أن ما لم استسغه من كلام الدكتور سيد دسوقي هو نظريته القائلة: «الدولة هي العقل المدبر، والأمة هي الجوارح التي تعمل»[1].

فهذه أخت النظرية التي تجعل التمكين خاصًا بالدولة، وتعطي للأمة التهميش والتبعية. فجعل الأمة مجرد جوارح، ومجرد أدوات للتنفيذ، مقابل إعطاء الدولة وحدها دور التفكير والتخطيط والعقل المدبر، هو تهميش للأمة ودفع بها إلى الانحطاط والتخلف.

نعم للدولة مهام قيادية وريادية لا تنكر، ولكن الدولة التي تهمش الأمة وتلغي صلاحياتها وتكبت مبادراتها، لا يمكن أبدًا أن تكون دولة رائدة ولا مبدعة حقًا.

إن مركزية الدولة وأمومتها وهيمنتها واحتكارها للوظائف والصلاحيات، تجعل الآلاف أو الملايين من القادرين على الإبداع والعطاء الحضاري يقفون مشلولين، أو يقفون مناوئين، لأن الدولة هي التي تفكر وتبادر، وهم ليس لهم مكان في الدولة.

أما حين نعتمد مركزية الأمة، ونعتمد حرية المبادرة في الفكر والقول والعمل، ونشجعها ونساعدها، فإن الأمة تتحرك في كل اتجاه، وتبدع وتعطي في كل جانب، دون أن يؤثر ذلك سلبًا على الدولة وقيادتها ورعايتها، بل لا يؤثر ذلك على الدولة إلا بمزيد قوة وعافية ورقي.

(١) مقدمات في البعث الحضاري، ط١، دار القلم بالكويت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١١٠.

مقومات الأمة المسلمة

الشيخ أحمد بن حمد الخليلي*

> لا بد من قيام اقتصاد إسلامي يوجد السوق الإسلامية المشتركة، ويحل المشكلات الإنتاجية والتسويقية، ويوجد المصانع القادرة على استغلال المواد الخام والعمالة الإسلامية، خاصة وأننا لا نعاني من نقص الثروة وكل ما نحتاج إليه التخطيط السليم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام والسلام على المبعوث رحمة للناس أجمعين، وعلى آله وصحبه الأبرار قادة الدنيا ومعلميها، وعلى من تبعهم على نهج الإسلام وعمل على رفعته إلى يوم الدين.

وبعد:

فالحديث عن واقع الأمة الإسلامية أمر لابد منه، سرّنا هذا الحديث أم ساءنا نتيجة الظروف التي تمر بها، بل كيان الأمة هو كيان كل فرد مكوِّن لها، وما يقع عليها هو واقع عليه لا محالة.. وأمتنا تمر اليوم بأزمة التخلف الحضاري مع امتلاكها كل مقومات الحضارة والريادة والصناعة التاريخية للعالم.. والمسلم تساوره الشكوك في بقاء كيان الأمة الإسلامية، كما تحدوه الآمال في ظهور وعموم هذا الدين، وبين هذا

* *المفتي العام.. (سلطنة عمان).*

وذاك يبقى قادة الأمة وعلماؤها وصناع القرار فيها هم من يوجه الأمة التوجيه السديد، إذ أرادوا لها التقدم والازدهار والعطاء، أو ستبقى -نسأل الله تعالى السلامة- في خط الانحدار إن لم يأخذ مفكروها وقادتها بها إلى العزة والتمكين.

من هنا فإن الدعوة المباركة المقدمة من قبل مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر الشقيقة -للاستكتاب في موضوع الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد- تأتي لبنة صلبة في تحديد خط السير الصحيح في رجوع الأمة إلى سالف مجدها وعزها.. وهي مطلب شرعي واجب، يمليه عليها دين الأمة وضميرها وواقعها.

ولذلك نتقدم بالشكر الجزيل إلى هذه المؤسسة الرائدة وإلى مؤتمر القمة الإسلامي التاسع... ولكن مع هذا لا ننسى أن نناشدهم بأن لا يمر هذا المؤتمر كغيره من المؤتمرات الإسلامية التي تدبج فيها الكلمات وتفرز فيها البحوث، ثم يرجع كلٌّ إلى داره لا يعرف ماذا حقق من نتيجة.

إنني قبل أن أدخل إلى الموضوع لا بد أن أؤكد بأننا يجب أن نتخذ خطوات عملية من هذا الموقع الشريف لنهضة الأمة، وكفانا خطبًا وكلمات، أقول هذا وكلي أمل بأن حال المسلمين سيتحول إلى الأفضل.

لا ريب هناك الكثير من الهموم التي يرغب الإنسان أن يبثها في مثل هذه الدراسات، كما لديه العديد من التصورات لتشخيص حال الأمة وواقعها، وفي فكره ما لا بأس به، ويمكن أن يسهم به في علاج أمر الأمة، وهو ما يستغرق الصفحات الكثيرة والمباحث العديدة، ولكن بما أن توجيه المؤسسة أن يكون البحث في ورقات محدودة -ولعلها سلكت ذلك لتخرج بزبدة التصورات وأنجع الحلول- جعلتُه مختصرًا جدًا، وأشرت إلى حقائق الأمة إشارات عابرة يدرك ما خلفها من سياق الموضوع وواقع الأمة، ومنه ما فصلته الدراسات الكثيرة من قبل علماء نجباء ومفكرين أفذاذ.

دراستي هذه تأخذ المحاور الآتية:

- علاقتنا بالآخرين (نحن والآخرين).
- أسباب عثرة الأمة.
- مقومات نهوض الأمة.
- أوليات مشروع النهوض.

هذا؛ وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد لي ولجميع المسلمين، وأسأله سبحانه العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

علاقتنا بالآخرين (نحن والآخر)

نقصد بـ (الآخرين) هنا، العالم من حولنا بشتى الاتجاهات، شرقًا وغربًا.. ومع وجود التباين في الخصوصيات الثقافية للمجتمعات، كالنصرانية واليهودية والوثنية باختلاف أوجهها، إلا أن الكل يوجد ضمن منظومة الرأسمالية التي تستأثر بالانفراد بالسوق الحر، كما يسمى، أو بالقطب الواحد.. والأقرب من ذلك أننا قد دخلنا راغبين أو مرغمين نحن المسلمين في هذه المنظومة، وبذلك أصبح (الآخر) متغلغلاً في كياننا، فالعلاقة معه حتمية وليست اختيارية، ولذلك تكون المعالجة في مجال الفكر والمنهج، وليس في القطاع الجغرافي، لأنه لم يبق تمايز للعالم الإسلامي من حيث نفوذ الفكر الإسلامي نفسه، من جراء الزحف الرأسمالي القوي والمنظم والمفروض.

السؤال الذي يطرح نفسه: ما العلاقة بين المسلمين و(الآخرين)؟ وكيف يجب أن تكون؟

أولاً: لا بد لنا أن نؤكد على حقيقة مفادها أن كل اتجاه في هذا العالم يخدم مصلحته، ويعمل على نشر فكره وفلسفته حتى يضمن وجوده ودوامه، وهذه حقيقة كونية إلهية، ليميز الله الخبيث من الطيب، وليظهر جوهر الحق براقًا أمام ظلام الباطل،

وليمحص المؤمنين برسالاته من الكافرين بها، وهذا هو هو حال الأنبياء مع أقوامهم، وهو معترك العقائد والتصورات والمبادئ، كل يشحذ قوته ويعد عتاده، يقول الحق مصوراً حال المؤمنين مع منافسيهم في الساحة، وموجهاً للأمة لكي تقابل ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٩).

فلا ينبغي لنا أن نتصايح بإيقاف النشاط المنبعث من أي اتجاه بمجرد الصراخ والعويل، وأن نكتفي بإحالة الحلول إلى وصفة المؤامرة الخارجية، فصراخنا سيذهب أدراج الرياح، لأن (الآخر) ماضٍ وفق تصوراته وفلسفته وحركته في القيام بعمله.. وفي عالم اليوم لا يمكن أن نطلب من أحد أن يسكت، وإنما علينا أن نعرض ما لدينا، وأن نتخذ الأساليب الشرعية والحضارية في بث الرؤية الإسلامية وتفعيل الدور الديني للإسلام بين المسلمين أنفسهم أولاً ثم غيرهم؛ وهو دور يكتنف جميع مناحي الحياة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ

أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

تركيبة العالم معقدة، وحركته متشعبة، وبالتالي تكون كذلك علاقتنا معه.. ولكن نحدد -في عجالة- بعض النظرات التي يتوجه بها الغرب إلينا لكونه سادن الفكر الرأسمالي:

١- **العدائية**: وهذه العلاقة ناشئة من الصراع التاريخي بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني، وأصبح من الخوف بمكانٍ أن توجد قوة للمسلمين، لأن ذلك يعني في ذاكرة الغرب التاريخية التمدد الجغرافي والثقافي والديني للمسلمين على حسابه.

٢- **الدولية**: ومرد هذه النظرة إلى الضعف والانحطاط الذي يمر به المسلمون، وإلى النظرة المختلفة للقضايا، التي يرجعها (الآخر) -حسب نظره- إلى تشبث المسلمين بدينهم، ويعتقد أنهم لا يملكون الشجاعة لأن يغيروا مواقفهم باتجاه التطور الحضاري الذي يحدث باستمرار، وإنما يركنون إلى موروثات قديمة رجعية.

٣- **الانغلاق**: ويرون فينا بأننا نهاب فكر (الآخر)، ونحسب كل صيحة علينا، ولسنا مستعدين للحوار معه، وإن وجد الحوار فإنما لفرض ما لدينا على غيرنا، ويعتبروننا أسيرين ثقافة نقدسها ودين منزل لا يعتبرونه هم كذلك، أو على أقل تقدير يعتبرون الدين الإسلامي كغيره من الأديان قابلاً لحصره في جهة معينة كزوايا المسجد، وأن الحياة يجب أن تشق طريقها بعيدة عن سلطانه.

٤- **مصدراً للمواد الخام ومستهلكًا للمواد المصنَّعة**: وهذا أمر واقع فُرض علينا بالقوة ثم بالضغط العالمي، ولا يريد الاستعماريون الجدد كسلفهم أن يخسروا هذا المورد الغني في العالم الإسلامي بل يؤكدون على بقائه على هذا الحال، ويضربون أي بادرة تحررية صادقة -عندنا يكون مبعثها الدين- بالوسائل غير المشروعة كالقوة العسكرية أو إثارة الخلافات الداخلية أو الحصار الاقتصادي، أو تسييس القوانين

والمعاهدات الدولية لهذا الغرض، وهذا واضح ومشاهد في الساحة الدولية.

٥- **دين ينتشر**: مع كل ما سبق يذهل الغرب -والشرق أيضًا- من قوة انتشار هذا الدين في الأوساط العالمية، واجتذابه للكثير من العناصر المهمة من مختلف الشرائح كالسياسة والاقتصاد والطب بالإضافة إلى عموم المجتمعات.. وقد أخذ (الآخر) في دراسة هذه الظاهرة وتحليلها، واتجه إلى الحوار مع المسلمين لهذا الأمر ولتحقيق المثلية في المجتمعات الإسلامية، وذلك بالسماح للأفكار المختلفة للولوج إلى المسلمين بغية إيجاد أكثر من رأي مؤثر بينهم، وفي ذلك ما لا يخفى من لؤم السياسة.

هذه النظرة التي يُنظر بها إلى المسلمين هي العلاقة القائمة.. وحتى نحدد علاقتنا بهم كيف تكون؟ لا بد من دراسة الفكرة المواجهة لنا، وهي الفلسفة الرأسمالية التي تحدد الإطار الفكري للعالم الجديد، وهي فلسفة آخذة في الانتشار واحتواء العالم تحت مظلتها، ونحن لا نملك من الأمر شيئًا حتى نحول دون انتشار هذا الأسلوب من الحياة، ولكن الذي نملكه هو مقارعة الفكرة بالفكرة، ومقاومة النشاط بالنشاط، واحتواء الأسلوب بالأسلوب.

الفكر الرأسمالي تحدده أربع قضايا:

أ- الحرية الشخصية.

ب- حرية الاعتقاد.

جـ- حرية الرأي.

د- حرية التملك.

وهذه القضايا مكفولة في الفكر الإسلامي، وإن اختلفت المحددات بين الفكرين.

نعم، الفلسفة التي يقوم عليها الفكر الرأسمالي هي النفعية الدنيوية، ولا حدود لهذه الحريات إلا بقدر ما تتعدى على (الآخرين) تعديًا مباشرًا.

أما الفلسفة التي يقوم عليها الفكر الإسلامي فهي الجزاء الأخروي، وبناء المجتمع الفاضل، وضمان عدم تخريب هذا المجتمع باسم الحرية.. كما أن هذه المرتكزات عندنا أقرب إلى أن تكون ثمرة لمرتكزات أخرى أساسية كالتوحيد والإيمان باليوم الآخر والعدالة -وهي عندهم ضابط للحريات فقط- والكرامة الإنسانية والأخلاق الثابتة ونحوها.

إذن، الفلسفة الرأسمالية لديها الاتساع في قبول الفكر الإسلامي وانتشاره في مواقعها ونفوذها، وهذا ما يعطي الفرصة للدعوة داخل المجتمعات الأخرى، والتأثير المستقبلي في التركيبة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لصالح الإسلام والمسلمين، وهذا لا ينسينا بأن هناك عقبات في هذه المجتمعات تعرقل انتشار الإسلام واتخاذه المواقع المناسبة لمكتسابته، ولكن هذه العقبات يمكن تذليلها مع همة المسلمين ومضاء عزمهم في السباق الحضاري.

وحتى يكون للإسلام مراكزه المتقدمة في المجتمعات الأخرى، لا سيما الغربية، لا بد من تغيير النظرات السلبية -التي ذكرتها سلفًا- تجاه المسلمين عند الآخرين.

فبالنسبة للنظرة العدائية، يجب أن تقوم المؤسسات الدعوية بتقديم الإسلام المشرق الذي أنزله الله تعالى، وأن يحلل الصراع بين المسلمين والغرب في إطاره التاريخي، وأن تكون الدعوة بالأسلوب الأمثل والحكمة المؤثرة والحجة الواضحة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ويقول تبارك اسمه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وأن المسلمين بإمكانهم أن يقدموا الحل السلمي من خلال الطرح العادل بين الأمم، وأن يثبتوا بذلك أن ما يمارسه القطب الرأسمالي المنفرد بالساحة العالمية هو عين الظلم والاستفزاز للمستضعفين.

وبالنسبة للنظرة الدونية، لا بد من تحسين الواقع الإسلامي من خلال مشروع

حضاري دعوي تقوم به الأمة.

وأما الانغلاق المزعوم فهو وهم قد يقع فيه البعض، لكن كلمة الإسلام عالية قوية قادرة على التمكن في خضم الصراع الحضاري.. وهذا الصراع يجب أن يكون عبر طريق الحوار الحضاري الواعي المدروس من قبل علماء الأمة، لا من قبل المتخاذلين أمام الهيمنة الغربية أو المنخدعين ببريقها.

وحتى نتغلب على الاستغلال الاقتصادي الذي منيت به الدول الإسلامية من قبل الاستعمار وبقاياه في العالم الإسلامي، وأيضًا لكي نتغلب على سمة العالم الثالث -الذي نقع في فلكه- وهي السوق الاستهلاكية الرائجة، لا بد من قيام اقتصاد إسلامي موحد يوجد السوق الإسلامية المشتركة، ويحل المشكلات الإنتاجية والتسويقية، ويوجد المصانع القادرة على استغلال المواد الخام والعمالة الإسلامية، وخاصة أننا لا نعاني في إطار العالم الإسلامي من نقص الثروة، بل ثرواتنا تذهب لإدارة آلة الاقتصاد الرأسمالي خاصة الغربي، وكل ما يحتاج من أمر هو أن يتوفر التخطيط السليم والأمانة في التنفيذ.

ويجب أن نرسخ في أذهان غير المسلمين أن الدين الإسلامي هو دين الفطرة الذي يجذب بتأثيره قوى الإنسان المختلفة، الروحية والنفسية والعقلية والفكرية، ويوازن بينها في غلاف من الجسد السليم والنظيف.

ونوجد وحدة الكلمة في تقديم الإسلام إلى البشر، وأن لا تتوزعنا العصبيات الإقليمية والمذهبية في ذلك، وإلا كيف نعالج الناس ونحن أنفسنا بحاجة إلى أن نتخلق بخلق الدين القويم.

وعلينا في كل ذلك، بل في مسير حياتنا، أن نقدم الدليل من الكتاب العزيز والسنة الثابتة على أقوال البشر، مهما علت منزلتهم في قلوبنا.

هذا الأمر لا يمكن أن يقوم بين عشية وضحاها، ولا بالأماني الحلوة النظرة، بل بقيام كيان إسلامي دعوي عالمي موحد، عامل على توحيد الجهود واستغلال الموارد والقدرات لصالح المسلمين وأهدافهم النبيلة في إصلاح الإنسانية.

أشير هنا إلى أن العالم يواجه أزمة حقيقية في البحث عن مخرج، وإيجاد النظام الصامد أمام المتغيرات الإنسانية، والمتمكن من توزيع العدالة العالمية، والقادر على حل المشكلات البشرية.. والرأسمالية لن تستطيع أن تصمد كثيراً.. وسيظل الإنسان يقلب يديه ظهراً على بطن دون أن يصل إلى حل مجدٍ، وسيخرج من تحت عباءة هذا النظام التطرف والإرهاب الدولي وخنق الشعوب واستذلالها، بل قد تواجه البشرية انهيارات اقتصادية من جراء التخبط في هذا النظام.. وعندما توجد كتل قوية تتبع نفس المنهج الأيديولوجي ستتصارع فيما بينها اقتصادياً، وتفني نفسها بنفسها.. كما أن البعد الإنساني لهذا النظام معدوم، حيث لا ينظر إلى الإنسان إلا بقدر قدرته على الإنتاج وعلى قهر الحريات لصالحه وتحقيق منفعته.. وسيزداد الغني غنى والفقير فقراً.. وسيبقى العالم ينتظر قارب النجاة الذي يحمله نحو بر الأمان والسلامة، ولا يوجد هذا إلا في ديننا الحنيف.

ولكن السؤال: كيف يمكننا أن نعرض منهجنا على عالم بشكل عملي مقبول؟

الجواب: قطعًا؛ نحتاج إلى مؤسسة واعية رائدة تأخذ بيد المسلمين وعقلهم نحو فهم دينهم وواقعهم أولاً، ثم الاتجاه نحو (الآخرين).

أسباب عثرة الأمة

جاء الإسلام ليصنع من الناس قوة بناءة فاعلة آخذة في النماء والتطور الحضاري، وليكوِّن من المسلمين أمة شاهدة على الناس ووريثة للأمم السابقة ومهيمنة على كتبها وشرائعها.. ووصايا الإسلام حاضّة على الأخذ بالأسباب وعدم التواكل، فمن ذلك

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، ويقول سبحانه: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠).. بل نجد الآيات المتتابعة في الكتاب العزيز تحث على العمل وتحض على استغلال الكون الاستغلال الأمثل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٥-١٤).

إلا أننا مع كل هذا التوجيه نرى الخمول والخمود والتقهقر في الأمة الإسلامية.. ولنكن صرحاء في تشخيص الداء واكتناه العلل، فإن التعتيم والتغطية على المرض خطر على المصاب به، حيث قد يؤدي بحياته، فما أسباب عثرة الأمة؟ وهل كلها وليدة الآونة المتأخرة؟ وهل جاءت نتيجة مؤامرة خارجية؟ وما علاجها؟

يمكننا أن نوجز ذلك في النقاط التالية:

١) **الاستبداد** : أصيبت الأمة في رأسها وقيادتها بالاستبداد، وعطلت الشورى وانتخاب الحكومة الإسلامية المرتضاة، وكان منشأ هذا الداء بعد العصر الأول للإسلام، عندما اغتصبت الخلافة الراشدة المبنية على الشورى وحولت إلى ملك مستبد، مع أن الله تعالى يقول: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨)، ويقول سبحانه: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران:١٥٩)، والتطبيق العملي للصحابة الكرام على ذلك.. وقد ضرب كل من حاول أن يرجع الأمر إلى نصابه بسوط من القمع، وظهرت النظريات القائلة بحصر الخلافة في عنصر قبلي أو بيت واحد من العرب.. ولا يفوتنا أن نذكر هنا بأنه قد وجد في الأمة المثال الإسلامي الصحيح في اختيار قائد الأمة وفق أحكام الشورى الانتخابية، ووجد معه الدستور الذي يحكم تصرفات هذا الحاكم، وتحديد صلاحياته، ومتى يجب عزله أو الخروج عليه إن رفض؟ وما ضوابط هذا الخروج؟

وما علينا إلا أن ننظر في تراثنا الإسلامي الضخم وتجربتنا الغنية التي امتدت على طول التاريخ الإسلامي، وإن كان قد نظر إلى هذه التجربة في كثير من الأحيان بأنها خروج على الدولة الإسلامية، ووُضعت المقالات المنددة بحكمها الشوري، وانتُصر لمن حاول مراراً أن يئدها، ولم تمتد الأعين والأبصار لاستقرائه والاستفادة منه والسير في سبيله، إلا اللهم ما كان من بعض الكتابات المتأخرة التي يعود لها الفضل بالتعريف بهذا المنهج ومن طبقه في الحكم.

والاستبداد هو الذي أصاب الأمة في مقتلها ومزقها فرقًا وشيعًا، وأدى بها إلى الجمود في مختلف المجالات حتى في خاصية الأمة من التشريع والاجتهاد في الأحكام فنودي بإغلاقه.

وفي نظرنا أن الاستبداد يعتبر أهم المعوقات وأولها.

٢) **الفساد الإداري**: وهذا الفساد مستشر في معظم المجالات، سواء المؤسسات التشريعية أو التنفيذية، مروراً بالجوانب الاقتصادية والتربوية ونحوها.

ويحلو للكثيرين أن يرجع هذا الفساد إلى الاستعمار العسكري ثم أذيال الاستعمار في هذا العصر، ونحن لا ننكر ذلك، لكن البدايات الأولى ترجع إلى الاستبداد الذي وقع على الأمة كما ذكرت آنفًا.

ولا يمكن أن تحل مشكلة هذا الفساد إلا بالقضاء على الاستبداد وإيجاد آلة للشورى في كل مناحي الحياة الإدارية.

٣) **التقليد والتعصب**: لقد أصيبت الأمة في علمائها كما أصيبت من قبل قادتها، حيث وضعت قوالب محددة للتفكير الإسلامي سميت بالمذاهب، وتحول هذا التفكير إلى منهاج كأنما أنزل نصًا من عند الله تعالى أو ورد على لسان رسول الله ﷺ، وأصبحت كل فئة تنتصر لمذهبها وإن خالفت النص الشرعي أو أخضعته لقول أحد من البشر، حتى نادى المنادي بكفر من يأخذ بظاهر الكتاب والسنة ما لم يحكم فيه آراء الرجال، وأغلق باب الاجتهاد، وأصبح المسلمون مشغولين بالشرح والتعليق ورد الفروع إلى أصول مجتهديهم لا إلى أصول الكتاب والسنة.

ومُنعت الاستفادة من المذاهب الأخرى وإن امتلكت الدليل الشرعي، وأخرجت طوائف بأسرها من الإسلام.. فمتى تقوم قائمة للأمة وهذا حال علمائها؟!

٤) **إضعاف أثر العقيدة**: لقد فشا في الأمة إضعاف العقيدة، ورسخ في الناس أنه لا تضر معصية مع إيمان، فأصبحت الشهادة الإلهية معبراً إلى ارتكاب المحرمات بتبرير مزعوم من الدين.. ونتيجة ذلك، ظهر في المسلمين الغش والاحتكار والكذب والخيانة ونحوها من الأمراض، ولم يفلح الوعاظ في رد الناس إلى جادة الصواب، لأن الوعاظ أنفسهم إذا سئلوا في العقيدة عن حكم من يفعل ذلك، أجابوا بإجابة

لا تردعهم عن غيهم وانحرافهم.. فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو المستعان.

هذه أهم المعوقات.. أقولها بصراحة: لا يمكن للأمة أن تنهض من كبوتها إلا إذا سلكنا طريق الشورى، وأعدنا تركيبتنا الإدارية حسب التوجيه الأخلاقي الذي جاء به ديننا الحنيف وسير المسلمين الأوائل، وتحررنا من التعصب، وعملنا على تقوية الإيمان في نفوس المسلمين، وأخذت الأحكام الشرعية مهابتها في نفوسهم.. وعلى علمائنا أن يبحثوا في الأدلة الشرعية التي تعمل على صلابة المسلمين في دينهم.. هذا هو السبيل إن كنا نريد الخلاص في الدنيا والنجاة في العقبى.

مقومات نهوض الأمة

لا توجد أمة على وجه الأرض تملك ما تملكه أمة الإسلام من المقومات التي لديها قابلية أكيدة لنهضة الأمة، ولكن للأسف الشديد هذه المقومات مهملة، فمنها ما هو معطل أصلاً، ومنها ما يستفيد منه (الغير) على حساب الأمة.

وأذكر هنا باختصار أهم هذه المقومات:

١- **الدستور**: حيث يوجد لدينا دستور مبني على الكتاب العزيز والسنة الشريفة، يتميز بميزات عديدة، منها: الربانية، والخلود، والشمول، والمرونة، والإنسانية، يقول جل وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، وهو مع ذلك مجرب وناجح، وتعطيل هذا الدستور من الحياة الإسلامية هو الذي أصاب الأمة بالركود، وجعلها في تبعية مزمنة لغيرها، لأنه لا يمكن أن يكون للأمة الخصوصية والاستقلالية الإسلامية إلا بتحكيم شرع الله تبارك وتعالى، وهذا أهم المقومات.

٢- **الانتماء**: لقد صهر الإسلام الشعوب والأمم تحت راية واحدة وهي «لا إله إلا الله؛ محمد رسول الله»، وأصبح الناس في ظلها متحابين، تربطهم وشيجة العقيدة، وتشدهم إلى بعضهم البعض آصرة التوحيد، وانعدم أي ميزان للتفاضل إلا ميزان

التقوى وما يقدمه الإنسان لأجل رفعة دينه وأمته، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).. فالكل يقوم بعبادة واحدة نحو ربه.. يتساوى الجميع أمام خالقهم في الصلاة، فيقضى على التمايز الطبقي، ويلغى الاختلاف العنصري والجنسي.. والصوم يوحد المشاعر، ويعطف الأغنياء على الفقراء، ويعتبر من أبرز ما يمثل الهوية الإسلامية حيث إنهم يصومون في شهر واحد.. والزكاة تجعل من المجتمع لحمة واحدة، فتقتل من النفس الشرَّه والأنانية، وبها يتغلب النظام الاقتصادي الإسلامي على سائر الأنظمة التي تجعل من المال غاية الإنسان في كده وعمله.. والحج مؤتمر إسلامي عام، يمكن أن يتحول بالتنظيم والتخطيط إلى ملتقى كبير تُتدارس فيه أحوال الأمة، ويؤخذ فيه بسبل تقدمها ونهضتها، وتعالج مشكلاتها، ويبحث لها عن حلول.. وهكذا عندما نستقصي سائر الشعائر الدينية في الإسلام.

٣- **الجغرافيا**: رقعة العالم الإسلامي رقعة شاسعة، تتميز بالتباين الجغرافي، ففيها الأنهار والبحار والجبال والسهول الممتدة.. واليابسة يتوزعها المناخ المتنوع، ففيها الثلوج والغابات، ومنها الأقاليم المطيرة والأقاليم الجافة، وأخرى باردة وغيرها حارة، مما يمكن أن تستثمر زراعيًا على مدار السنة، وكذلك الموارد الغذائية البحرية الغنية بالثروة السمكية المتنوعة، وتحقق بذلك الأمة اكتفاءً ذاتيًا، بل ستصدر إلى غيرها.. ولكن المحزن أن رقعة كبيرة من الأمة تعيش تحت خط الفقر، وأضخم مآسي المجاعات تضرب دول العالم الإسلامي.. ومن العجيب أن تصاب أمة بذلك وقد أُنزل عليها سورة يوسف! وأمتنا تتوسط الأمم مما يؤهلها للازدهار التجاري، ولو اعتمدت فقط على الخطوط البحرية لكفاها.. ولوجود الأنهار والغابات والتاريخ تعتبر أفضل مجال للجذب السياحي، مع الانتباه للجوانب السلبية من السياحة.. وللبحار دورها في

الريادة البحرية العالمية ولتحقيق الاستراتيجية العسكرية وتوازن القوى الدولية.

٤- **الثروات الطبيعية**: أكبر مخزون للنفط هو العالم الإسلامي، مع وجود بقية المعادن الطبيعية الأخرى بوفرة كالغاز والحديد والنحاس والذهب ونحوها، مما يؤهلها للريادة الصناعية.. وكذلك بالتحكم في النفط يمكنها من اتخاذ مواقف دولية لصالح العالم الإسلامي، بل بإمكان العالم الإسلامي أن يكون مؤثراً بقوة في صناعة العالم الجديد، بدلاً عما نعايشه من تغييب لوجودنا، وصدام مع ثقافتنا، ومواقف ضد مصالحنا واستراتيجية أمن دولنا.. فهذه الثروات عصب الحياة الذي يمكن أن يلعب دوراً حاسماً في تغيير وجه العالم الإسلامي البائس اليائس، إلى وجه مشرق ومستقبل زاهر، ولكن في ظل سياسة شرعية واعية تأخذ مصالح الأمة فوق المصالح الأخرى الضيقة.

٥- **السكان**: لم نسمع من الصريخ والعويل من خوف الانفجار السكاني مثلما سمعناه في عالمنا الإسلامي.. والحقيقة، تعتبر كثرة السكان بلاءً بالنسبة لخاملي الهمم خائري العزائم، الذين لا يستثمرون هذه الثروة الجبارة في صناعة مجد أمتهم، أما مع وجود التخطيط والتدريب للموارد البشرية فيمكن أن توجد لدينا العمالة المؤهلة للقيام بأكبر ورشة صناعية عالمية، مستغنين عن العناصر والعمالة غير الإسلامية التي ابتلي بها قطاع كبير من العالم الإسلامي مع وجود الوفرة السكانية الإسلامية التي تنام تحت العراء.. كما أن من السكان يخرج المتميزون في الأمة، الذين تعتبر عقولهم كنزاً لا يقدر بثمن مع من يستغلهم، ونكرر أسفنا بأن العقول الإسلامية تستغل من قبل الرأسمالية في الغرب، ولم نسمع عندهم ذلك الأنين الذي نسمعه في العالم الإسلامي من قنبلة الانفجار السكاني الموهومة.

هذه المقومات تذهب هباء بسبب الوطنية الضيقة، وتعود علينا وبالاً بسبب

الاتجاه نحو الغرب والشرق لاستجداء الأنظمة والدساتير.. إن الشرط الوحيد لاستثمار هذه المقومات لصالح الأمة، أن توجد القيادة المؤسسية العالمية التي يقودها مخلصو الأمة ومُخَلّصُوها.

أولويات مشروع النهوض

الموضوع معقد، والقضية متشابكة، لأننا نريد أن نعالج مشكلات أمة تشكل ربع العالم، ولها من تراكم المشكلات تاريخ طويل، ومرت بحقبة طويلة من الاستعمار ولا زالت تجر تركته الثقيلة، وتحمل في كاهلها العديد من قضايا التخلف كالجهل والأمية والفقر والمرض والفساد.. والعلاج صعب ويحتاج إلى مدى طويل حتى تشفى الأمة من أسقامها المزمنة، ولكن كل هذا لا يسقط عنا البحث عن استكشاف الطريق المؤدي إلى تمكين الأمة وسؤددها.

من أين البداية؟

لو أردنا أن نضع خيارات لبداياتنا في الإصلاح لهذه الأمة، فمن أين نبدأ؟

هل نتجه إلى السياسة؟ وهل يرضى السياسيون بأن يغيروا من ثوابتهم، إن كانت هناك ثوابت؟

أم نبتدئ من القاعدة الكبرى للأمة وهم عموم المسلمين؟

لو نظرنا إلى واقع الصحوة الإسلامية نجد أن البداية كانت من هذه القاعدة، وكسب الإسلام بها الكثير جداً، وتعتبر خطوة عظيمة لا بد منها في النهوض بالأمة.. ولكن -في الحقيقة- وصلنا الآن إلى مرحلة أقرب ما تكون إلى ضعف الاستيعاب، فسلكت جماعات طريق الغلو في الدين، ووجدت أخرى لا هم لها إلا الاختلاف والتنافر فيما بينها، وظهر صدى ذلك على الإعلام والفضائيات وشبكات المعلومات العالمية.

كما ذهب كثيرون من مفكري الصحوة إلى محاولة المواءمة بين الفكر الإسلامي (وخاصة الأحكام الشرعية) وبين الأفكار الرائجة الآن في السوق (وخاصة الغربية)، وكأن هدف الإسلام أن يُطَوِّع لحركة الحياة لا أن يُصلِح ويُجَدِّد فيها.

كما انغمست أعداد هائلة من ثمرة الصحوة مرة أخرى في مستنقع التغريب والابتعاد عن منهج الله تعالى.

وهكذا قل في تشخيص نتاجات الصحوة الإسلامية الأخرى، مع عدم إغفالنا للمكاسب الجليلة التي تحققت من الصحوة المباركة، إلا أنها مرحلة في عمر الزمن يجب أن ننتقل بها إلى مرحلة أخرى.

وهذا ما يوصلنا إلى الخيار الثالث، وهو دور العلماء، وقد قيل: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها »، فكيف يقوم العلماء بدورهم في هذه المرحلة القادمة؟

ونقترح أن **تقوم في الأمة الإسلامية مؤسسة تحمل طابع العالمية**، تقوم بدراسة أوضاع المسلمين، وتشخيص أدواء الأمة، ووضع التصورات العملية للمناشط التي ستقوم بها في المجتمعات الإسلامية.

- يقوم بهذه المؤسسة علماء الأمة ومفكروها، بشروط:

- أن يكونوا من ذوي الغَيْرة والهمة الإسلامية والناشطين في الدعوة الإسلامية.
- أن يكونوا من ذوي الوعي بمصالح الإسلام العليا، ويؤمنوا بقدرة الإسلام على تسيير دفة الحياة وإصلاح العالم.
- أن يتحلوا بالتسامح وعدم التعصب المذهبي أو الإقليمي.
- أن لا تسيرهم الأهواء السياسية.

- أن يتفانوا في خدمة المشروع الإسلامي، ويقدموا مصلحته على أي مصلحة أخرى.

● **تقوم المؤسسة على تحقيق أهداف الإسلام والمسلمين**، نذكر منها:

- الكشف عن خلود الإسلام وشموله وقدرته -كنظام- أن يحل محل الأنظمة الوضعية.
- الدعوة بين صفوف المسلمين ورجعهم إلى الطريق الإلهي المستقيم والحياة الإسلامية السوية.
- تغيير أفكار غير المسلمين عن الإسلام بكشف حقائقه وإظهار محاسنه وتفنيد شبهات خصومه، والدعوة بالتي هي أحسن في المجتمعات غير الإسلامية والحوار مع أهل الكتاب للوصول إلى كلمة سواء.
- إيجاد المؤسسات التربوية والعلمية التي تبني الإنسان المسلم، وتغنيه عن اللجوء إلى المؤسسات غير الإسلامية.
- العمل على بناء اقتصاد إسلامي شعبي، وتشجيع أثرياء الأمة للدخول في مشاريع استثمارية تخدم الأمة، وتوجيه الشباب المسلم إلى بناء الشركات الإسلامية، وتقديم الدعم والعون لهم.
- العمل على إيجاد مؤسسة وقفية إسلامية عالمية تخدم الأهداف الإسلامية النبيلة، وتكون مورداً للإنفاق على هذا المشروع العالمي.
- إيجاد سوق عمل للعمالة الإسلامية وللإنتاج الإسلامي.

وهناك الكثير من الأهداف التي ينبغي تحققها في الأمة، ستجد لها الطريق مع وجود المؤسسة.

● **اللجنة العليا للمؤسسة**: تكون من جميع المذاهب والأقطار الإسلامية، وتقوم

بوضع اللائحة التنظيمية للمؤسسة، واختيار الأفراد العاملين في إدارة اللجان، وتعمل على وضع السياسات اللازمة لتقدم المؤسسة في خدمة الأمة الإسلامية، وتنبثق منها اللجان العاملة بها، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- لجنة الدعوة والإرشاد.
- لجنة الإفتاء الشرعي.
- لجنة مؤتمرات الوحدة والتقريب.
- لجنة التربية والتعليم.
- لجنة الوقف والموارد المالية.
- لجنة الإغاثة والإعانة.
- لجنة التطوير الاقتصادي.
- لجنة البحوث والدراسات العلمية.

● **المقر**: تتوزع لجان ومناشط هذه المؤسسة على البلدان الإسلامية، وكذلك خارج الدول الإسلامية، وإيجاد البدائل في حالة مواجهة أي مشكلة في بلد ما.

● **الضوابط**:

- التأكيد على إبعاد المؤسسة عن التأثير السياسي والمذهبي.
- أن يكون عملها وقراراتها مبنية على الدليل الشرعي، الذي تتخذه لجنة الإفتاء بغض النظر عن المذاهب.
- مع مطالبتنا بتقديم الدليل الشرعي على غيره وفق القواعد التي استنبطها العلماء من الكتاب والسنة وقواعد اللغة ومسلمات العقل، إلا أن ذلك

لا يؤدي بنا إلى إنكار فضل علماء الأمة وأئمتها ودور المذاهب الفقهية حضارياً وتشريعياً، بل نطالب أن يعمم تدريس مقررات معتمدة من قبل العلماء تبين الصفحات النيرة والأدوار العظيمة التي قامت بها المذاهب على مر التاريخ الإسلامي.

- إلغاء الألقاب المذهبية التي يرفضها كل مذهب، وعدم التنابز بالألقاب بين الأمة، وعدم القدح في سلف الأمة، واحترام الصحابة جميعاً.
- أن يكون شعار المؤسسة القائمة على تنفيذه دوماً قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (النحل: ١٢٥).

هذا؛ وإذا أخلصنا النية، وسرنا بخطط مدروسة وخطى واعية وهمم عالية، لا ريب سنصل إلى عزة الأمة وتمكينها في الأرض.. وعلينا أن نثق بأن المستقبل للإسلام، وأن الله مظهر دينه وممكّن عباده المؤمنين في الأرض، ولكن لا شيء يتحقق بالأماني والدعاوى الفارغة، وإنما سلعة الله غالية ولا يحصل عليها إلا بالجد والاجتهاد والمثابرة، فسيري -أمة الإسلام- في الطريق الذي ارتضاه لكِ ربكِ.

وبعد؛

فلا ريب أن هناك دراسات ستقدم أكثر نضجاً من هذه الدراسة، والكل يكمل بعضه بعضاً، ولا يسعني إلا الاعتذار عن التقصير، والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

أسأل الله جلت قدرته أن يوحد أمة الإسلام ويرصّ صفها، وأن يجعلها مشعل هداية للأمم، وأن يصلح بها الخلل العالمي، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، نعم المولى ونعم النصير.

الإعداد للدور الحضاري
للأمة المسلمة في عالم الغد

الدكتور أحمد كمال أبو المجد*

إن القفز على حقائق الواقع وتجاهل عناصره الأساسية والمباهاة بدلاً من ذلك بدور حضاري رائد -قبل إصلاح الجبهة الداخلية- لا يمكن أن يكون إلا إمعانًا في الوهم، وإسرافًا في التمني، لا يتغير بهما حال ولا تقوم بهما نهضة.

ليس من المنهج السليم في الفكر والحركة أن يتوجه المسلمون إلى الاشتغال بأمر الدور الحضاري لأمتهم المسلمة في عالم الغد، قبل أن يتوجهوا إلى التأمل الموضوعي الجاد في واقعهم أفراداً وجماعة، وقبل أن يعترفوا بما ينطوي عليه هذا الواقع من ثغرات وعثرات كبيرة.. اعترافًا يفتح الباب لتدارك الحال، وإصلاح «جبهتهم الداخلية»، إن صح هذا التعبير.. ذلك أن القفز على حقائق الواقع وتجاهل عناصره الأساسية والمباهاة -بدلاً من ذلك- بدور حضاري رائد يمارسه المسلمون متقدمين على سائر الأمم والشعوب، لا يمكن إلا أن يكون إمعانًا في الوهم، وإسرافًا في التمني، لا يتغير بهما حال ولا تقوم بهما نهضة.

---

* أكاديمي.. ووزير سابق.. (مصر).

إننا لا ننسى في غمرة الشعور بالأزمة التي تعيشها الشعوب المسلمة المعاصرة، أن لأمتنا رسالة لا تملك إلا أن تؤديها، وهي رسالة قضى بها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).. كما حدد جوهر مضمونها قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

كذلك لا يملك أحد، مسلماً كان أم غير مسلم، أن يتجاهل الحقيقة التاريخية التي تشهد بدور المسلمين في نشر العلوم والمعارف داخل حدودهم الجغرافية ووراء تلك الحدود، امتداداً إلى قلب أفريقيا، ومراكز النهضة في العواصم والمدن الأوروبية وإلى أجزاء مترامية من قارة آسيا.. ولا زالت أسماء وجهود عشرات من العلماء الرواد من العرب والمسلمين تتردد في موسوعات العلوم، ومدونات المعارف النظرية والتجريبية في الشرق والغرب على السواء.. فأسماء ابن الهيثم وابن حيان وابن سينا وابن رشد قد صارت جزءاً مشتركًا من أجزاء التراث العلمي والإنساني.. وإن تكلم أصحابها العربية ودانوا بالإسلام.

ولكن الذي نذهب إليه وندعو إليه في مقدمة هذا البحث هو ضرورة تصحيح النظر إلى القضية كلها، بدءاً بتصحيح الفكر الديني السائد في العالم الإسلامي، مروراً بإصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية في أقطار ذلك العالم المحسوب على الإسلام.. حتى إذا تم لنا ذلك، ولو على مستوى البحث والنظر، أمكن الحديث -بعد ذلك- عن معالم الدور الحضاري الذي يمكن أن يؤديه المسلمون في عالم الغد.

ذلك أن الحديث عن دور حضاري يؤديه المسلمون في عالم الغد لا يمكن أن يستند إلى مقولات نظرية تعبر عن معالم الإسلام وحضارته، كما تستخلص من إطاره المرجعي بمصدريه الرئيسين الكتاب والسنة.. فالكتاب والسنة ليسا إلا خطاباً موجهاً

للمسلمين.. ولكن أوضاعهم لا تتحدد بوجود هذا الخطاب، وإنما تحدد بمدى استجابتهم له، وإقامة أمورهم على أساسه.. وتتحدد كذلك بمؤثرات عديدة، لا يتصل بعضها بالإسلام، قدر اتصاله بملابسات وظروف سياسية واقتصادية اجتماعية. فالقضية في النهاية ليست قضية الحضارة الإسلامية بقدر ما هي قضية «الأمة الإسلامية».

والمتأمل في حضار الأمة الإسلامية تستوقفه ظاهرتان أساسيتان يتعين الالتفات إليهما والتسليم بوجودهما قبل التوجه لعرض مشروع إسلامي للنهضة يساهم به المسلمون في الحضارة العالمية مع مطلع القرن الحادي والعشرين.

الظاهرة الأولى:

المفارقة الهائلة بين مبادئ الإسلام وقيمه ونظمه كما حددتها مصادره المكونة لإطاره المرجعي، وبين واقع المسلمين وماضيهم القريب في أكثر جوانبه إن لم يكن فيها جميعًا.. وقطعًا للطريق على المكابرين والمغالطين القانعين بالحديث عن الأمجاد القديمة والاشتغال بها عن الواقع السيء الذي تعيشه الأمة، نشير -مجرد إشارة- إلى المفارقات الآتية:

١- أن الأمة التي بدأ وحي السماء إليها بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٣-٥)، والتي يقرر نبيها ﷺ أن «**العلماء ورثة الأنبياء**»[1]، وأن **مدادهم يوزن يوم القيامة بدم الشهداء**[2]، هذه الأمة لا تزال الأمية غالبة على كثير من أقطارها، ولا يزال المستوى الثقافي العام فيها على درجة من التدني تحول بينها وبين أن تقدم للبشرية شيئًا جديدًا نافعًا، في زمن تعاقبت فيه على

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) إشارة للحديث الذي أخرجه القرطبي في جامع بيان العلم وفضله، عن أبي الدرداء: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء».

الدنيا ثورات علمية متعاقبة، زادت معها الفجوة اتساعًا بين عالم يأخذ بالعلم ويتقنه ويجوده ويوظفه، وأمة لا يزال التفكير الخرافي المنسوب ظلمًا وجهلاً للدين ينخر في عظامها ويستولي على عقول العامة فيها!

٢- أن الأمة التي جَعل كتابها الذي تؤمن به وتتعبد بتلاوته، من العمل فريضة دينية بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ (التوبة: ١٠٥)، كما جعل إتقان ذلك العمل فريضة متممة له بقوله ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[١]، هذه الأمة سقطت في أكثر بلادها قيمة العمل.. فقل حجمه، وتراجع مستوى أدائه، وغلبت عليه النمطية والتقليد، وزال عنه الإبداع والتجديد والابتكار، فتراجعت مع هذه الأمور كلها فرصته المعقولة لمنافسة الآخرين، وللتصدير إلى بلادهم وأسواقهم!

٣- أن الأمة التي أعلن لها ربها أنها، تحت لواء الإيمان به، ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وعلمها نبيها ﷺ: **أن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم** [٢]، هذه الأمة تفرقت عبر القرون شيعًا وأحزابًا وجماعات متنافرة متصارعة: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢)، ومد كثير من حكامها وساستها ومثقفيها أيديهم إلى من سوى العرب والمسلمين، طلبًا للمساندة، أو المعاونة، أو الحماية.. ولم يقف الأمر عند هذا، وإنما اشتعلت بين كثير من أقطارها منازعات حدودية وسياسية واقتصادية.. حتى صار اختلاف تلك الأقطار حول أي قضية، وفي غير قضية، عادة غالبة وطبعًا سائدًا!

٤- أن الأمة التي أقيم نظامها السياسي على «الشورى».. ولم يكن أحد من جيلها الأول أكثر مشورة من نبيها ﷺ.. هذه الأمة هي اليوم من أقل دول العالم

---

(١) أخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود: «**المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**».

احتفالاً بإشراك الرعية في أمورها. وإذا فعلت ذلك أو فعلته بعض أقطارها، أحاطته بقيود وسدود تكاد تأخذ من الشورى شكلها ومظهرها، وتهجر مضمونها وجوهرها.. وهو حال لا تقف آثاره السياسية والاجتماعية عند حد إضعاف نظام الحكم، وانصراف الرعية عن الاهتمام الجاد بأمورها، وإنما تمتد هذه الآثار لتفسد بها الطباع والأخلاق، وتستعلن في ظلالها ظواهر الكذب والنفاق والرياء وشهادة الزور في الأمور العامة والخاصة على السواء!

٥- وتمتد المفارقة بين «الواقع» و«المثال» لتصل إلى قضية من أخطر القضايا وأكثرها نصيبًا من اهتمام الساسة والحكام والمفكرين في عصرنا هذا، وهي قضية الحقوق والحريات.. وأكثر المسلمين اليوم بين غافل عنها، ذاهل عن قيمتها وعن موقعها من عقيدة الإسلام وشريعته.. متهم للذين يجعلون منها قضية القضايا في تقييم أحوال الأمم والشعوب.. وبين مشارك في تغييب الحقوق والحريات، والتطاول عليها، إن لم يكن بالعدوان الإيجابي فبالسكوت الآثم عن مظاهر ووقائع ذلك العدوان!

أما الظاهرة الثانية:

فهي انتشار حالة «الجفاء» و«التباعد» بين المسلمين وبين سائر الأمم والشعوب.. وهو جفاء تجاوز حده حتى استحال إلى سوء ظن شديد، وإلى اتهام المسلمين بكل نقيصة، وتصوير دينهم وثقافتهم كلها على أنهما يمثلان خطراً داهمًا على مسيرة سائر الشعوب نحو مزيد من الديمقراطية والحرية على نشر الإسلام!!

والواقع أن هذه الظاهرة قد أمكن لها أن تقوم وأن تستحكم ويتعاظم تأثيرها نتيجة «الضعف العام» الذي أصاب الأمة.. على نحو تراجع معه على نحو مطرد، تأثيرها على الآخرين، وعلى مجريات أمور السياسة والحرب والاقتصاد.. ومن أعجب

العجب أن العرب والمسلمين قد اختاروا في لحظة تاريخية غير بعيدة (هي أوائل السبعينيات وأواسطها) أن يذهلوا تماماً عن حقيقة هذا الضعف العام وأن يتحدثوا عن أنفسهم باعتبارهم سادس قوة في الوجود!! وكان ذلك وهماً صنعه غرورالاعتقاد بأنهم -بما يملكونه من آبار النفط- قادرون على التحكم في العالم وفرض إرادتهم عليه.. وهو وهم دفع العرب والمسلمون له ثمنًا باهظًا ولا يزالون يدفعون.

كذلك ساهم في تعاظم هذه الظاهرة وقوع بعض المتحدثين عن الإسلام والداعين إليه في أخطاء فاحشة عرضوا معها الإسلام عرضًا مشوهًا يحكي ضيق صدورهم وضيق عقول بعضهم، وفساد مزاج الكثيرين منهم.. ولا يحكي أبداً سماحة الإسلام، ورفقه بالناس جميعاً، ودعوته العامة للتعاون على البر.. ومنع التعاون على الإثم والعدوان. واستفاد الخائفون من الإسلام والكارهون له من هذه الخطايا.. فقالوا: شهد شاهد من أهلها.. هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون!! فراجت وذاعت حملات إعلامية نشطة صدت عقول الناس وقلوبهم عن الإسلام وحضارته.. وصورته وصورت المسلمين جميعًا كما لو كانوا سيفًا مسلطًا على سائر الناس، يخشى منه على مسيرة الإنسانية «المتوحدة» أو «المتعولمة» من مخاطر العنف والسعي إلى استبعاد «الآخر» غير المسلم ونشر ثقافة «القسر والإكراه»!!

لذلك كله، قلنا، ولا نزال نقول: إن المسلمين لا يملكون أن يقفزوا فوق الواقع المليء بالثغرات، وأن يزعموا -بالتصريحات المعلنة، والشعارات المرفوعة- أنهم الأمناء على مسيرة الإنسانية، والأوصياء على أهلها، والقادرون وحدهم على ترشيد مسيرتها.. بل لا بد أولاً من إصلاح ذات البين، وتصحيح العلاقة مع الآخرين.. حتى يسود بين الأطراف إحساس بالمعية وبالصحبة على الطريق، وبالحاجة إلى تبادل الخبرة والمعرفة والحكمة.

عند هذا وليس قبل هذا، يمكن البحث فيما يستطيع المسلمون، تحت ظلال دينهم وحضارتهم الإنسانية، أن يقدموه لأنفسهم وسائر الناس مع مطلع القرن الجديد.

فإذا تحقق لنا -نحن العرب والمسلمين- إنجاز هذا الإصلاح الداخلي أو إنجاز جانب كبير منه على الأقل، كان على علمائنا وساستنا ومثقفينا وأجهزة الإعلام ومؤسساته عندنا أن يقدموا جوابًا واضحًا صريحًا محددًا لسؤال كبير.. هو:

ما هي عناصر الإسهام الذي يملك المسلمون أن يقدموه لسائر الأمم والشعوب، وهي تدخل من باب واحد ساحة قرن جديد مليء بالفرص المتاحة، وآمال التقدم السريع؟؟ ومليء كذلك بأخطار يُرى أقلها ولا يرى أكثرها؟

وهل يستطيع المسلمون باسم دينهم وحضارتهم، واستمداداً من ينابيعها الأصيلة الصافية أن يضيفوا جديداً إلى التجربة الطويلة والخبرة المتراكمة لسائر الشعوب؟

إن الإجابة عن هذا السؤال الكبير ليست إلا وجهًا آخر للتساؤل عن خصائص «الثقافة الإسلامية» ومعالمها الكبرى.. إذ أن هذه الخصائص هي التي تحدد «ميادين» و«نوع» المساهمة الإسلامية في مشروعات النهضة العديدة التي تتطلع إليها شعوب العالم في مستهل القرن الجديد.

ونستطيع في شيء غير قليل من التبسيط ومن التعميم، أن نعرض الخصائص الآتية للثقافة الإسلامية، وكلها ذات انعكاس مؤكد على ما يستطيع المسلمون تقديمه للعالم خلال السنوات المقبلة من القرن الحادي والعشرين.

أولاً: إنها ثقافة إيمانية، يتحتل الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر مكان القلب من كل شعبها وروافدها.. وهذه السمة ليست أمراً جانبيًا أو هامشيًا، إذ أن الإيمان تتداعى معه -بطريق اللزوم- معالم عديدة، في مجال الاعتقاد، ومجال السلوك الإنساني الفردي والجماعي على السواء، وذلك كله على نحو تتميز به الحياة في ظل

ثقافة إيمانية عن الحياة في ظل ثقافة «عدمية» «مادية».. لا يربط أجزاءها رباط تتصل جذوره بالعقيدة المحورية.

فالإيمان بالله -أمان حقيقي من الاستعلاء الظالم على الآخرين، وأمان من تورط الأفراد والجماعات في أعمال «العدوان» والجور بصورها العديدة، التي توشك أن تفسد «العلاقات الإنسانية» إفساداً كاملاً على النحو الذي ترتفع منه الشكوى هذه الأيام.. ذلك الإيمان يفجر في الإنسان الفرد وفي الجماعة المنظمة معنى المراقبة.. ومراقبة الله عصمة للجماعات من صور الطغيان التي تخشى الإنسانية اليوم عودتها في صور قديمة وجديدة مع مطلع القرن الجديد.. ولقد نبه القرآن الكريم إلى مخاطر هيمنة الذين يؤمنون ولا يتقون:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ (التوبة:٨)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (الممتحنة:١٣).

ثانياً: **إنها** خلافاً لما يتصوره عامة المسلمين، **ثقافة عقلانية**، تقوم على العلم، وتعتبر العقل أداة صالحة للمعرفة.. وإذا كان المسلمون المحدثون قد قصروا في الالتزام بهذه السمة من سمات حضارتهم، وتصور كثير منهم، غلطاً ووهماً ونقص علم، أن العقل نقيض النقل، وأن انتصارات العقل التي تتحقق عند الآخرين لا بد أن تمثل انتقاصاً من الإيمان، فإن علينا اليوم أن نصوب ونصحح وأن نمحو آثار هذه الأوهام الضارة القاتلة، وأن نعيد أمتنا من جديد أمة علمٍ ومعرفة وطلبٍ للحكمة أنىَّ تكون.. فـ«**الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا هذا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم.

ومن الأمانة والصدق مع الله تعالى ومع النفس أن نعترف بتقصيرنا الذي طال مداه في تشجيع العلم والتعلم والإبداع. وما لم نعترف بهذا الخطأ الحضاري الذي يصل إلى حد الخطيئة، وما لم نعد «العقل المسلم» إلى عرشه الذي نحي عنه، وما لم نشجع الإبداع والتجديد واقتحام المجهول في شتى ميادين العلم، فإن الحديث عن دور رائد للمسلمين في نهضة الأمم والشعوب لن يكون إلا أماني.

وينبغي في هذا المقام أن نحدد طبيعة هذا الإسهام المنتظر، فهو ليس إسهامًا متفردًا نحوز نحن أسبابه ولا يحوزها الآخرون.. بل هو في حقيقته رجوع إلى الحق وعودة إلى الصف من جديد.. ومشاركة قائمة على الندية والاشتراك في التوجه، مع جميع السائرين على طريق العلم والمعرفة والإبداع.. والطريق إليه –داخل البيت العربي والمسلم– يبدأ برفع الوصاية عن العقول، وتشجيع الجيل الجديد على ممارسة «النقد» العقلي، والاحتفاظ بالاستقلال إزاء فكر «الآخرين»، والالتزام الصارم في البحث والتعلم وفي التعبير والحديث بأصول المنهج العلمي الصحيح في طلب المعرفة.. وهو منهج تعارف عليه العلماء على اختلاف ثقافاتهم وأوطانهم.. وبقي أن تتعرف عليه أجيالنا الناشئة من جديد.

ثالثًا: إن ثقافتنا الإسلامية ثقافة إنسانية وليست ثقافة خاصة بأمة دون أمة، أو قطر دون قطر، أو سلالة بشرية دون سلالة، أو طبقة اجتماعية أو سياسية دون سائر الطبقات.. فقد ارتفعت دعوة الإسلام من أول يوم في مسيرتها فوق عوارض الأصل واللون واللغة، فتحت لوائها: «**الخلق كلهم عيال الله**»[1]، والتكريم الذي قرره القرآن الكريم تكريم لبني آدم جميعًا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، والمخالفون حتى ولو كانت مخالفتهم في الدين والعقيدة.. لهم دينهم ولي دين.. ولهم في مجتمع

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

المسلمين حقوق وحريات وضمانات لا يملك حاكم أو محكوم أن ينال منها.. وأساس العلاقة معهم تعاون على البر، وتراحم وتبادل للمنافع، وتسابق إلى الخيرات: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة:٨).. والدعوة الإسلامية في إطار هذه الثقافة دعوة عامة لأهل الكتاب جميعًا: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران:٦٤).

ولقد دخلت في الإسلام شعوب ذات أصول عنصرية متباينة، فما وجدوا إلا حرية وكرامة ومساواة كان من ثمراتها أن قدموا جميعًا عطاءً ثريًا نافعًا.. لا تزال آثاره موثقة في أسماء العلماء والفقهاء والفلاسفة والصوفية الذين تركوا بصمات واضحة بارزة في الثقافة الإسلامية.. وحسبنا أن نشير إلى أسماء سلمان وصهيب وبلال من صحابة رسول الله ﷺ، وأن نشير إلى أسماء تعاقبت عبر الأجيال وفي سماوات العلوم والمعارف المختلفة من أمثال ابن سينا والبخاري وابن رشد والقرطبي وولي الله الدهلوي وصلاح الدين الأيوبي وجمال الدين الأفغاني وكثيرين غيرهم.

رابعًا: إنها ثقافة عطاء وبذل قبل الأخذ والطلب، تعنى بالواجبات عنايتها بالحقوق.. بل إن الحقوق في لغة القرآن الكريم تستخدم بمعنى الواجبات.. وتتناول العلاقة بين صاحب الحق وصاحب الواجب من زاوية هذا الأخير. يقول تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٤١).. ويقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج:٢٤-٢٥).

وفي هذا تختلف الثقافة الإسلامية عن أكثر الثقافات المعاصرة، وهو اختلاف له ثمرته الكبرى الفارقة التي تفتح الباب لإسهام إيجابي هام يمكن أن يقدمه المسلمون لبناء حضارة إنسانية للقرن المقبل.

وبهذا الإسهام تتحول الأنانية والجشع الفردي إلى تكافل اجتماعي وإلى تبادل للعطاء.. وبه تزدهر مؤسستان من أهم مؤسسات الاستقرار والأمن الاجتماعي، وهما مؤسسة الأسرة ومؤسسة الجوار.

خامسًا: إن للإسلام وثقافته منهجًا متميزًا في الإصلاح.. يبدأ مسيرة التغيير بالدوائر القريبة، ثم يمتد بها خطوة خطوة إلى الدوائر الواسعة البعيدة.. فهو يبدأ الإصلاح بإصلاح «الذات الفردية» فكرًا وشعورًا وسلوكًا.. وذلك اتباعًا لهذا المنهج من ناحية، وتوكيدًا لمبدأ «شخصية المسؤولية»، من ناحية أخرى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤)، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٥).. لذلك يقول النبي ﷺ: «**ابدأ بنفسك**»[١].

ثم تمتد جهود التغيير والإصلاح إلى أقرب الدوائر للإنسان الفرد وهي أسرته الصغيرة، ثم الأقربون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم: ٦)، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥).

وبعد دائرة «النفس» ودائرة «الأقربين»، تأتي في منهج الإصلاح الإسلامي دائرة «الجوار» وهي دائرة أوسع وأبعد، ولكنها أرحب وأكبر، فما من أحد إلا وله جيران عن يمين وشمال.. وقد توسع الإسلام في رعايتهم، ومنحهم حقوقًا، مازال جبريل عليه السلام يوصي بها الرسول ﷺ، حتى ظن أنه سيورثهم من تركته[٢].. وإذا

(١) أخرجه مسلم.

(٢) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

استقرت علاقات المودة والتعاون والتكافل بين الجيران، فقد تحقق -على مستوى العالم كله- نصف الإصلاح.. واستقر نصف السلام العالمي، وحسبنا أن نذكّر مرة أخرى بالخلافات المستعرة على الحدود والمناطق المشتركة، والموارد الطبيعية المشتركة.. وهي خلافات تهدد بوقوع حروب قد يبدأ بعضها بين جانبين، ثم تستدرج إليها أطراف قريبة منهما أو بعيدة.

وأخيراً تأتي دعوة الإسلام العامة للسلام والتعاون على الخير.. وهي دعوة كما قدمنا تتجاوز حدود القرب والجوار.. والوصول إلى تحقيقها ميسور إذا تحقق السلام واستقرت علاقات المودة بين أهل الجوار.

أما أن يبدأ الإصلاح بالدائرة الأبعد والأوسع متحركًا نحو الدوائر الصغيرة، فمنهج دل التاريخ على صعوبته وتعقيده وتضاؤل فرص نجاحه.

وليس من شك في أن الأديان السماوية تقوم جميعها على منهج الإصلاح الإسلامي الذي أشرنا إليه، ولذلك فإن أتباعها، أيًا كانت انتماءاتهم الثقافية الأخرى، مطالبون بوضع أيديهم في أيدي المسلمين، ليقدموا في ثقة وتواضع هذا الإسهام الإصلاحي الكبير الذي تتطلع إليه الشعوب بعد أن فسدت العلاقات، وتقطعت المودات، وصارت أهوال الحروب أقرب وقوعًا مما يظن الكثيرون ممن أصمّت أسماعهم نداءات «العولمة» وتقارب الشعوب.. فأذهلتهم عن صراعات هائلة حول المصالح الخاصة للفئات والطبقات والدول.. يجرى تحت ندائها البراق، تحقيق المصالح الذاتية للبعض على حساب البعض.. مما يؤجل وقوع ظواهر العنف وتبادل العنوان.. دون أن يزيل أسبابها أو يجتث من الأرض بذورها وجذورها.

سادسًا: قام الإسلام وقامت ثقافته من أول أيام على أساس الإيمان بالتعددية، إيمانًا لا تحركه بواعث سياسية، ولا تتحكم فيه ملابسات ظرفية، وإنما يصدر عن إيمان

بأن التنوع سنة من سنن الله في خلقه.. وأن اختلاف الألوان والألسن والثقافات مصدر غنى حقيقي للتجربة الإنسانية في امتدادها المكاني وعمقها التاريخي.. وأن «الغير» ليس بالضرورة خصمًا ولا عدوًا ولا هو «الجحيم»، كما يقول سارتر.. وإنما هو -في التصور الإسلامي- نعيم آخر، يستحق التعرف عليه، والتودد إليه، والتواصل معه.. ويلفت النظر أن الآيتين اللتين أشارتا صراحة إلى التعددية القائمة على التنوع والاختلاف قد ختمتا بعبارة واحدة تتضمن توجيهًا لتوظيف هذا التنوع لخدمة الخير والمنفعة العامة، وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٨؛ المائدة:٤٨).

وقد كان طبيعيًا ومنتظرًا من المسلمين أن يقيموا علاقاتهم بالآخرين على أساس هذه النظرة، ولكن ظروفًا تاريخية عديدة يرجع بعضها للمسلمين أنفسهم ويرجع بعضها «للآخرين» قد غيرت طبيعة هذ العلاقة وجعلتها علامة شك وحذر وسوء ظن يصل أحيانًا إلى حد القطيعة.. وإلى الإحساس المتبادل بالخصومة واستحالة التعاون.

وإذا أراد المسلمون اليوم أن يسهموا من خلال حضارتهم ومجموعة القيم التي تقوم عليها في بناء عالم جديد يشترك في بنائه أتباع الثقافات المختلفة، فإن عليهم أن يعيدوا النظر في علاقاتهم بالآخرين، وأن يجعلوا الإيمان بالتعددية قاعدة إيمانية تقوم عليها مواقف عملية تعيد الأمة بها بناء الجسور مع أتباع الثقافات الأخرى.. وتتفتح بها أزهار المعرفة وتراكمات التجربة الإنسانية عبر العصور.. وعبر الحدود.

وعلى المشتغلين بالفقه في عالمينا العربي والإسلامي أن يعيدوا النظر في كثير مما قرره الفقهاء الأقدمون حول علاقة المسلمين بغير المسلمين، وتقسيم الدنيا إلى دار حرب ودار إسلام.. فتلك صياغات فقهية لا قدسية لها، وبعضها يعبر عن أوضاع تاريخية ظرفية، فلا إلزام لتلك الصياغات إذا تبدلت وتحولت الأوضاع المحيطة بها.

إن هذا الإيمان الأصيل بالتعددية هو أحد الإسهامات الكبرى التي يستطيع المسلمون أن ينشروها بين الناس، مشتركين في ذلك مع الجماعات المنتشرة في الشرق والغرب، داعية إلى احترام (الآخر) والاعتراف به، وتبادل الأخذ والعطاء مع مكوناته الثقافية.

ولا نجد ما نختم به هذه الدراسة المختصرة خيراً من معاودة التنبيه إلى العلاقة الوثقى بين ما نحدثه في واقعنا من تغيرات أساسية وبين قدرتنا على الإسهام الفعال في مسيرة النهضة العالمية.. فنحن في الحقيقة نخوض معركتين: إحداهما مع أنفسنا وداخل حدودنا، والأخرى مع (الآخرين) اقتراباً منهم، وتصحيحاً لما يحمله بعضهم من أفكار وتصورات حول الإسلام وحضارته، تناقض المعالم التي حددناها لتلك الحضارة، وتؤخر محاولات الاقتراب والتواصل على المستويات الثقافية والسياسية والاقتصادية على السواء..

وعلى الله تعالى قصد السبيل.

حاجة الحضارة العالمية للرؤية الإسلامية

الدكتور أحمد علي الإمام*

لم يبح الإسلام التعايش مع (الغير) فحسب، بل أصل له وحث عليه باعتباره وسيلة للتواصل مع الأمم الأخرى.. إن استثمار الوسائل الحديثة للتخاطب وسرعة الاتصال للتعريف بقيم الإسلام للأمم التي تجهل حقيقته، سوف يؤدي إلى حماية الإنسانية من المنزلق الذي يوشك أن يبتلعها، وتأمين مستقبلها.

نحن أمة يشرفها انتماؤها إلى دينها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٣).. وتتميز تاريخيًا بأن إيمانها هو الذي يحركها في مختلف الأزمنة والعصور للعمل على هدي أصول الشريعة الإسلامية، و(تراثها الداعي) لاستثمار الوقت الحاضر، والتخطيط للمستقبل، وإعداد العدة لأداء الدور الحضاري المطلوب للأمة المسلمة في عالم الغد.

ولعل من أهم مقومات العمل وشروط النهوض التي تمتلكها الأمة، في إطار التعرف على الذات، هو أن نستحضر أننا نمثل أمة الرسالة العالمية الخالدة الخاتمة، وأن

* *أكاديمي.. ومستشار لشؤون التأصيل (السودان).*

ننطلق في حوارنا مع غيرنا من ثقتنا بأنفسنا واعتزازنا بما لدينا، فإن الإنسان تسيره أفكاره عن نفسه، أما المؤمن فحسبه الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[1] حيث تسيِّر أفكاره ثقته بربه. وعليه فيجب علينا دون ضنٍّ أو منٍّ أن نقود أمتنا للثقة بالنفس والعزة بنعمة الهداية[2]، وأننا نمتلك (الإمكان الحضاري)، وأهم ما في ذلك كله ما خصها الله تعالى به من النص السماوي السليم الموثوق المحفوظ، حيث جاءت وثاقة الإسلام في حفظ أصوله، فهو كتاب الله المعصوم المحفوظ بحفظ الله تعالى أبد الدهر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

فالقرآن محفوظ كما أنزل في صدور المؤمنين، موثق في المصاحف، سليم من التعارض والتناقض، وذلك ما تأكد خلال القرون من سلامة القرآن من الوقوع في تبني ما كان سائداً أوان نزوله من نظريات وأفكار، وسلامته كذلك من تناقض أحكامه وأخباره: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

وكذلك الأخذ من معين السنة المطهرة مما صح من سنة نبينا عليه الصلاة والسلام وهديه وصحابته في فهم القرآن، وما تأصل من منهج علمي ملتزم في مناهج تفسير القرآن العظيم، وما تضمنته نصوصه المعصومة من بُشْريات المستقبل، من ظهور الإسلام وانتشاره وسيادة أحكامه بالانتقال الطوعي والاختياري أساساً، ثم بإزاحة العوائق من طريقه جهاداً في سبيل الله.

لقد خصّ الله تعالى الإسلام دون سائر الديانات الأخرى بعالمية هذه الرسالة، وختمها للرسالات، وعمومها، وخلودها، وهي حقيقة مقررة في أصول ديننا مما نتلو

---

(١) متفق عليه.

(٢) اقتباس من كلمة ألقيتها في الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، طهران، ١٧-١٩ محرم ١٤٢٠هـ/ ٣-٥ مايو ١٩٩٩م.

من كتاب ربنا ونتبع من سنة نبينا الصحيحة، وهما أصل الأصول التي إليها المرجع، وعلى ذلك يبنى الإجماع وأصول الاجتهاد الأخرى.

والمسلم يؤمن حقًا أن المستقبل لهذا الدين، ولهذه الأمة، حيث يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ (النور: ٥٥). وهو وعد الله تعالى بنصر عباده المؤمنين وتأمينهم والتمكين لدينهم في امتداد الإسلام وانتشاره وظهوره على الأديان كلها، وما ينتظر الأمة من تقدم حضاري ومستقبل تنموي، بل إن المسلمين وهم يواجهون الحصار والفتنة في الفترة المكية -كما يواجهها المسلمون اليوم- كانوا على يقين من عالمية الرسالة، إذ يتلون: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وعلينا الاقتداء بهم في هذا اليقين شريطة أن نجمع بين اليقين والعمل.

وأما ختمها للرسالات فبما قامت به الحجة على العالمين مما نص عليه القرآن: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وهدى إليه الرسول ﷺ، ومن ذلك حديثه ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داره فأتمها وأكملها، إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع هذه اللبنة، قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع هذه اللبنة، جئت فختمت الأنبياء**»[1].. ويؤيد ذلك بشرى الأنبياء السابقين به ﷺ نبيًا خاتمًا..

---

(١) أخرجه البخاري.

أسباب ضعف الأمة وعدم فاعليتها

كل نهضة تحتاج إلى إعداد وتحضير وتخطيط مستقبلي، وخاصة النهضة الحضارية، التي تستلزم بدءًا تعريف الأمة على المعيقات ومواطن الخلل، وأبرزها ولا شك ضعف الإيمان وما اعترى العقيدة من فساد، بحيث لم يعد القرآن يؤثر في أجهزة الاستقبال من القلوب، التي تغلفت بحب الشهوات وران عليها واعتلاها الدخن، مع عدم الالتزام بأحكام الشريعة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).. وكثر فساد العمل، حيث فقد روحه، وخالف سنة الاقتداء، فلا صواب في أدائه ولا إخلاص.

وقد أدت سيادة الأمية والجهالة والتقليد إلى تفاقم ظواهر الفقر والصراعات السياسية والمناحرات القبلية.. ويستوي الجهلاء والمتعلمون تعليمًا غير راشد في إدارة هذا الصراع وتأجيج نيرانه.

ويعاني عالمنا اليوم من تخلف الأنظمة الحاكمة والمجتمعات، إذ: « **كيفما تكونوا يول عليكم** »[1]، ومن آثار عصور التدهور الفكري والانحطاط الثقافي والهزيمة الحضارية لأجيال متلاحقة، وما يتبع ذلك عادة من التبعية ومحاكاة المغلوب للغالب، ساعد على ذلك انفصال السلطان عن القرآن، واحتراب السيف والقلم.

ومن هذا الإشكال تواترت المشكلات، مما أدى لسقوط مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمجتمع الراشد يمثل أمة الخير المكملة لسلطان الدولة.. ومن ذلك كذلك استبداد الحكام وغياب الشورى والرقابة وتبادل الرأي والركون إلى التقليد، وحصر الدين في الفروض العينية، والتخلي عن فروض الكفايات الكاملة لسد

(١) أخرجه الطبراني عن الحسن البصري عن عمر وكعب الأحبار، وقال موقوف.

حاجات المجتمع في جميع المجالات، بحيث يكون الاعتماد على النفس في الصنائع وإعداد القوة اللازمة استجابة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم... ﴾ (الأنفال: ٦٠). وفاقم الوضع سوءاً غياب الرقابة الشعبية إلا من جهود مقدرة -على قلتها- من جانب العلماء والوعاظ والقصاص.

أضف إلى ذلك التخلف العلمي والتقني والجمالي والفني، ولا يزال الأمر على ما تركنا عليه الغزو الأجنبي ووكلاؤه.

وقد أصبح الجهل بالسنن الكونية التي تحكم سير الإنسان سمة مؤسسات العالم الإسلامي ردحًا من الزمن، حتى استحثنا سوء الواقع للأخذ من معين الغرب، واعتماد الوافد أصلاً، وتغريب الأصيل (الفلسفة التلفيقية).

وفي ظل غياب المنهج تُنتقص المكرمات وتتعاظم المثالب، وأبرزها تفاعلاً الآتي:

أ- مشكلة الاستلاب الحضاري وتغريب النهج الأصيل.

ب- تعطل الإبداع، وضعف الخيال، واختلال المعايير وضوابط الاختيار والانتقاء.

ج- نفي الحاضر، والعيش في الماضي بفهم عاجز عن التجديد والاجتهاد.

د- غياب «مفهوم الأمة»، فالحضارة نتاج أمة لا شعب.

ولغياب هذه الرؤية، مع جملة المشاكل الأخرى، فإن المتاح من الحضارة العالمية لا يمكن أن يكون بديلاً لما وصى به الإسلام لخير الإنسان، ولا يقدم حلاً مرضيًا تسعد به الإنسانية.

ولا سبيل للإبداع والتفوق الحضاري بدون الخروج من الأزمة، التي تسود حياة الناس، ويلاحظها من يؤرخ لتاريخ الحضارات.

أزمة الحضارة العالمية وحاجتها للرؤية الإسلامية

تعاني الحضارة الغربية اليوم إفلاسًا في عالم القيم، وقد ساهمت عدة عوامل مشتركة في انحطاط سلوكيات الغرب حتى تحفظ بعض المهتمين عن تسمية الحضارة الغربية واكتفوا باسم المدنية الغربية، لأن الحضارة قيم ومعانٍ تتأتى في أنماط السلوك والتعامل. يقول «ول ديورانت»:

«إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وحينئذ لا تنفك الحواجز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها»[1].. وصدق الله العظيم حيث امتن على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فكان القرآن سباقًا في لفت النظر إلى أهمية الأمن في حياة المجتمع قبل أربعة عشر قرنًا.

وأصبح واقع العالم اليوم يعكس همجية وحيوانية، لأن الناس فيه ابتعدوا عن أصول دينهم، وهجروا تعاليم أنبيائهم، بل حدثت المواجهة والمعاداة والخروج، وغاب عن نظرهم تذكر الله واستحضار حسابه في الآخرة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ٤-٦).

وقد سادت مخالفتهم للفطرة السليمة، اعتقادًا وسلوكًا، وشاعت بينهم الفواحش، بل صار السفهاء على كثرتهم يجاهرون بممارساتهم غير الأخلاقية، ويطالبون بكيانات تنظمهم وتحميهم.. والقانون هنالك يبيح هذه الفوضى بدعوى الحريات الشخصية.

وأضحى فساد الفطرة وتلوثها، وما ران عليها، طابع الحياة الذي لا يستغرب في

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمود، ط دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٣/١، المقدمة.

تلك المجتمعات ولا يستهجن، واستشرى ذلك الفساد بصورة صعُب معها أن يقوّم الوالد أبناءه من الانحراف والاعوجاج، وانتقلت العدوى إلى بعض مجتمعاتنا، وأول الغيث قطر.

واعتقد الغرب أن سر نجاحهم يعود إلى اتباعهم المناهج المناهضة لتعاليم الدين باسم العلمانية واستلابها حق التشريع، والخلاق العليم أعلم بما يصلح خلقه، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ١٤٠).. ومما يذكر مؤخرًا أن أحد المجالس التشريعية (البرلمان) في الدول الأسكندنافية قد أباح زواج الأخ من أخته، وصادق على هذه الإباحة مطلقًا، ثم ما لبث وأن تدخل علماء الأحياء وقدموا دراساتهم الموثقة علميًا وتجاربهم التطبيقية بثبوت الإضرار وتوارث الصفات الوراثية الرخوة وضعف (الجينات)، مما دعا ذلك المجلس لمراجعة حكمه وسحب تشريعه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

وتستشري الآن خطورة (العولمة)، ولعل المفردة الأنسب والأصح لهذه العملية هي (الكوكبة Globalization) أو (الأمْركَة)، التي تسعى بالقوة لتجعل التفرد والخصوصية أمرًا منكرًا يُقاوم بكل سبيل، وترمي لتذويب الحدود الثقافية والسياسية وزيادة التشابك والتماثل بين المجتمعات، وزيادة درجة التفاعل بين شعوب العالم المختلفة. وهي كذلك محاولة لإعادة صياغة هوية سكان العالم وفق رؤية (علمانية) ليست لديها مرجعية تحكم إطار نشاط إنسانها.. وقد دلت مقررات مؤتمر الأسرة والسكان وبرنامج الصحة الإنجابية على مدى الهاوية السحيقة التي يريدون أن يبلغها العالم.. وبرهنت إحصاءات الغرب على الانخفاض المتواصل لنسب الزيادة في السكان نتيجة لتفكك الأسر والفوضى الإباحية، في حين أن العالم الإسلامي متماسك متنام، لذا يسعون إلى أن تعم البلوى.

وتنتشر آثار ظاهرة الكوكبة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، خاصة كوجه جديد للاستعمار. فالغرب يستغل وسائل الاتصال الحديثة بالصوت والصورة والسفر والسياحة لإفساد العالم أخلاقيًا.

وظاهرة (العولمة)، تمنح الغرب فرصًا استثمارية بما يملكه من قوة شرائية ومقدرات اقتصادية وتأثير ثقافي، ولكنها قوة مرحلية، لأنها في المدى الطويل تشكل تحديات عليهم، لخوفهم من حركة الأفكار القوية المؤثرة، وحسبهم أن يعتبروا بتجربة غزو التتار للعالم الإسلامي، الذين كان لهم رهان القوة المادية، ولكنهم تأثروا بالثقافة الإسلامية، وصاروا جزءًا في الكيان الإسلامي نفسه. ولأول مرة بدأ الغرب في وضع ضوابط للهجرة، كما حدث في فرنسا وبريطانيا وألمانيا، خوفًا من هذا التأثير عليهم، خاصة من المهاجرين العرب والأتراك وسائر الآسيويين.

وانتبه الغرب إلى خطورة أن لا يدركوا سرعة الآلة، وتخوفوا من أن ترتد العولمة عليهم بامتلاك العالم الإسلامي لهذه القوة بما تمنح الوسائل المعاصرة من قدرات، حيث أتاحت الشبكة العابرة للمعلومات (الإنترنت) الكثير من الفرص لدخول مواد إسلامية غنية قوية قادرة على التأثير، لا سيما وأن الغرب يعيش فراغًا روحيًا يمكن للإسلام أن يملأه، خاصة أن لدى الإنسان في الغرب حرية في تبني الأفكار، ورغبة في المطالعة، وقدرة مادية على امتلاك هذه الآلات والوسائل. ثم صارت الفضائيات العربية والإسلامية متاحة للمقيمين بالغرب، من عرب ومسلمين، تعينهم على الارتباط الثقافي بأوطانهم حتى لا يذوبوا في عمليات العولمة أو (الأمْركَة).. ولو كانت وفق منهج يتمتع بقوة الدليل وعرض الأفكار، لأتاحت لغير المسلمين التأثر بها، اعتمادًا على حرية الأفكار وصلاحها لدى المتلقي.

ولعلنا نعود من جديد إلى مفهوم الأمة من بعد تجاربنا نحن مع الحال القُطْرية

والدولية، وبتأثير من الغرب نفسه، حيث نجد أوروبا تتجمع وتتكتل وتتحد اقتصاديًا، لكنها تتشرذم ثقافيًا وإثنيًا من جهة أخرى، كما في يوغسلافيا، فتنقسم إلى دويلات.. وها هي اسكتلندا بعد ثلاثمائة وخمسين سنة ضمن المملكة المتحدة تفكر في الاستقلال، وهكذا ويلز وأيرلنده الشمالية، مع المساعي الجارية حاليًا من أجل تجزئة أسبانيا إلى ثلاث دول.

يقول الأستاذ رجاء جارودي -بعد أن هداه الله تعالى للإسلام- يصف حال الغرب: «إن الثقافة المدعية المغرورة، التي تعتمد عليها هذه الحضارة، ترى حينًا حصر الحياة في الضرورة والصدفة، كما يزعم أحد علماء الأحياء، وترى حينًا جعلها عاطفة جوفاء لا طائل تحتها، كما كتب أحد الفلاسفة، وترى حينًا نسبتها إلى اللامعقول، كما وصف أحد الروائيين، ولعل الإسفاف بلغ منتهاه فيما أفاضت الصحف ردحًا من الزمن عن موت الإله! وموت الإنسان، وموت كل شيء، كما يردد دعاة العدم والمتنبئون به...!!

والثقافة المادية التي تحتضنها تقوم على أربعة مبادئ زجت بنا -بعد خمسة قرون مجموعة- إلى طريق مسدود، وإذا استمررنا فيه فسينتحر العالم بأسره! إن هذه المبادئ الأربعة هي:

١- الفصل بين العلم والحكمة، أي الفصل بين الوسائل والغايات، يعني أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها، فليس وراءها حياة أخرى.

٢- إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص ومقدارها المادي، مع استبعاد كل أثارة للحب والإيمان والمعاني الروحية.

٣- الفردية أو الأنانية التي تجعل امرءًا ما أو جماعة ما المحور والمقياس لكل شيء، وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنًا مؤقتًا بين الأطماع المتنافسة.

٤- إنكار التسامي، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتاهات المفروضة والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على (الكم) وتستبعد الخلق والحرية والأمل..

يقول رجاء جارودي: إن الثقافة الأوروبية المعاصرة تنبثق من أصل مزدوج، من التراث اليوناني-الروماني، واليهودي-المسيحي، وقد أغفلت عن عمد التراث العربي الإسلامي.

ويضيف جارودي: «لن أتحدث هنا عن الإسلام بصفة عامة، ولا حتى إسهامه -المجحود- في الحضارة الإنسانية، إنما أتحدث عن الإمكانات الجديدة لتوسعه وانتشاره اليوم في عالمنا الغربي، وعن الأسباب المتصلة بروح العقيدة الإسلامية ذاتها، التي أتاحت مثل هذه الإمكانات.

ويقول: «إن نهضة الغرب لم تبدأ في إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية الرومانية! بل بدأت في أسبانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية! لكن هذه النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية والثقافة الإسلامية سوى منهجها التجريبي (تقنياتها)، وتركت جانب الإيمان الذي يوجهها نحو الله ويسخرها لخدمة البشر...».

ويقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- في وصف جارودي معقبًا على الاقتباس السابق: «إن الرجل اعتنق الإسلام بعدما أحس إفلاس الحضارة الغربية واستوحش من خوائها الروحي، وشرودها الفكري، وبعدما درس الإسلام دراسة خبير بالأديان والفلسفات، عارف بالحضارات البشرية وأسرار ازدهارها وانهيارها...»[١].

وكيما يحدث ذلك النهوض الحضاري، لا بد من أن تنهض شروط وتنضج

(١) انظر محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص٤٧-٥٠.

ظروف وتؤمن إمكانيات لنهضة شاملة، يتحقق فيها التوافق والتكامل بين المعاني والمباني، والتآخي بين الفرد والمجتمع.

يقول صاحب كتاب روح الحضارة الإسلامية: «امتازت حضارة الإسلام بالانسجام والأمن، وليس ذلك مقصوراً على انسجام وأمن اجتماعيين خارجيين تأتلف بهما العناصر والطبقات، وتتقى بهما ويلات الحروب الاجتماعية، ولكن الانسجام والأمن الذين امتازت بهما الحضارة الإسلامية، يبتدئان انسجامًا وأمنًا داخليين وفرديين تأتلف فيهما المدارك الإنسانية وتتقى بهما ويلات داخل النفس الإنسانية، وهي ويلات الحيرة والاضطراب وتنازع الأفكار والعواطف، وحرب بين المعقولات والعقائد، وتقسيم بين الروحانيات والماديات، ومقتضيات المصالح وواجبات الأخلاق»[1].

شروط النهضة

ويستلزم إحداث النهضة توفر عدة مقومات تبدأ أساسًا بسلامة العقيدة وتحرير الإرادة وإخلاص العمل وتجويده وإتقانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩)، حيث يصبح الالتزام بأحكام الشريعة سلوكًا منبعًا ونهج مجتمع ودولة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

وقد كان أول ما نزل من القرآن الكريم قوله عز وجل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، ومنه نأخذ أول أمر يستوجب نشر العلم بين العامة ومحو الأمية والجهل والخرافة؛ فكتابنا هو كتاب العلم وافتتاحه.

---

(١) الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، روح الحضارة الإسلامية، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٢م، ص٢٢-٢٣.

والحمد لله إذ نرى اليوم اتجاهًا في الغرب جديداً يسعى للإنصاف وتقدير الجميل كما في خطابات رسمية ومحاضرات علمية لولي العهد البريطاني.. وهذا وزير خارجية بريطانية (روبن كوك)، الذي أقر أن أساس نهضتهم لم تكن الحضارة الإغريقية واليونانية فحسب، بل كان لحضارة الإسلام حظ وافر في ذلك، حيث قال الوزير في خطاب عام له يوم ٨ / ١٠ /١٩٩٨م في لندن: «إن جذور حضارتنا ليست نابعة من أصول إغريقية أو يونانية فقط، بل من أصول إسلامية أيضًا، فلقد أرسى الأسس الثقافية لقطاعات واسعة من الحضارة الغربية.. إن الدِّين الذي تدين به ثقافتنا للإسلام هو أمر يحسن بنا تذكره ونحن نطور علاقاتنا بالعالم الإسلامي، لأننا كلينا قد قطعنا شوطًا بعيداً في ابتعاد أحدنا عن الآخر، وتركنا لسوء الفهم ولانعدام الثقة أن تزداد بين الغرب والإسلام»[١].

إن الإسلام هو دين الرحمة والتسامح والعدل والإحسان، لهذا يقبل على اعتناقه علماء ومفكرون وعامة.. ولم يبح الإسلام التعايش مع (الغير) فحسب، بل أصّل له وحث عليه باعتباره وسيلة للتواصل مع الأمم الأخرى، يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

وتعتبر منطقة العالم الإسلامي هي أغنى بقاع العالم من حيث الموارد والإمكانيات الطبيعية، وقد حرص الحكم الأجنبي أن تظل هذه المنطقة مستودعًا للمواد الخام يمدها بما تحتاجه، وكذلك سوقًا لتصريف منتجاته المصنعة، فلم تتم الاستفادة القصوى من الإمكانات الطبيعية الزاخرة في الوسط الإسلامي، وأمرنا هنا كائن -إن شاء الله- إلى ما هو أكثر تحقيقًا للرخاء والنماء، وفي ذلك حديث الرسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة**

(١) الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، طهران، ١٧-١٩ محرم ١٤٢٠هـ / ٣-٥ مايو ١٩٩٩م، ص٣٧.

حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»[1]، وقد صدقه علماء الجيولوجيا والبيئة المحدثين بعد دراسة طبقات الأرض، وتغيرات المناخ في العالم، وأكدته تقارير أجهزة الغرب الاستراتيجية، التي تتحدث عن إمكانية قيادة منطقة العالم الإسلامي للتنمية والعمران خلال القرن القادم.

فقد أكدت هذه التقارير، الناجمة عن دراسات موضوعية وبحث مستمر، أن ما يملكه الإسلام، ومن ثم المسلمون، من مقومات البقاء والاستمرار والظهور والتمكين، أمر يقبله العقل وسنن الحياة في الكون، وتدل عليه النصوص القطعية الثبوت والدلالة.

وتتطلب حماية النهضة توفير أسباب القوة المادية، كما تستوجب إعداد العدة اللازمة لذلك بأوسع دلالات الآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . . .﴾ (الأنفال: ٦٠)، وامتلاك القوة المناسبة والمكافئة، وإتقان العمل وتجويده، والإحسان في إدارة الأعمال والإصلاح.

كما تستوجب كذلك العمل على الاستقرار السياسي والأمني للأمة المسلمة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتزام العدل والإحسان والشورى والحرية: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا؟!»[2]

ويتطلب الأمر كذلك أن نضع نصب أعيننا حسن الاقتداء بتاريخ الإسلام الدال على عظمة النماذج التطبيقية للسلف الصالح، فإن صلاح حاضرنا لا يكون إلا على منهاجهم، كما قال الإمام مالك رحمه الله: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) انظر: مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، تحقيق زينب القاروط، ط٣، ١٩٨٧، ص٩٩.

وأول الواجبات رعاية فقه الأولويات، وحسن ترتيب الواجبات، وصناعة دليل عمل مُلْزِم ومُلْتَزَم، وامتلاك الرؤية المستقبلية، والتخطيط الاستراتيجي، وذلك من خلال:

١- مخاطبة الفطرة، وتزكية النفوس، وإعادة البناء الإيماني العقدي والعاطفي للإنسان المسلم، وتجديد أمر الدين، والعودة الكاملة على منهاج النبوة، حتى يكون الدين كله لله في الشعائر والشرائع. وبما أن الإيمان لا بد أن يجمع قولاً هو شهادة التوحيد الخالص، يتلو ذلك عمل صالح، في إخلاص ونية صادقة، على منهاج النبوة، فإن الأمة المسلمة عليها تبعًا لذلك كله أن تستهدي بفقه الإسلام الداعي لتجويد العمل وإتقانه، وحسن استثمار الوقت، لصياغة الإنسان.

وليكون ذلك ناجعًا، فإن تأصيل المناهج التربوية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونظم الحكم والإدارة، يبقى أولية الأوليات.

وحماية اللغة العربية وحفظها وهي لغة القرآن عند المسلمين جميعًا، في مواجهة المعاهدات الثقافية التي تدعم بها أوروبا وأمريكا لغاتها، يبقى أوجب الواجبات على الأمة.

وفي مواجهة دعاة التغريب وأعداء التعريب، المفتونين بلغات الغرب والشرق، لا بد من التذكير بأن اللغة هي وسيلة لإيصال المعرفة وتطويرها، ولا يوجد أي ادعاء منطقي يفترض أن المتلقي يمكن أن يستوعب أكثر بغير لغته الأم. ولا ينازع عارف بتاريخ العلوم والمعارف أنه قام على اللغة العربية أساس العلوم والمعارف المتداولة في الغرب.

والخطر الثقافي يكمن في تذويب القيم والثقافات بفعل البث المباشر، إذ أن ٦٥٪ من الأفلام هي من إنتاج أمريكا وحدها (هوليود)، وطغيان ثقافة الصورة السريعة

والمتغلبة على الكلمة المقروءة التي قامت عليها الحضارات السابقة، وقد فاض الكيل حتى استنكرت مؤسسات غربية مظاهر العنف الزائد والإباحية الفاضحة. وهيمنت كذلك لغة واحدة على الشبكة العالمية للمعلومات وعلى المؤتمرات وغيرها، وأصبحت مؤسسات الغرب الإعلامية هي التي تحدد الموضوعات الأهم في العالم من خلال سياساتها الخبرية.

فالواجب أن نستثمر هذه الوسائل الحديثة للتخاطب وسرعة الاتصال، ونستخدمها للتعريف بقيم الإسلام للشعوب الغربية، التي تجهل حقيقة الإسلام ولا تعرف إلا ما يذكره الإعلام الغربي من صور شائنة ومحرفة لقيم الإسلام. وعلينا أن نملأ الخواء الفكري لدى الغرب، والمساعدة في انتشال هذه الأمم إلى رحابة الإيمان.. ولن نتحول من سياسة الدفاع إلى سياسة المبادرة ونشر الدعوة إلا بالإيمان والعلم مع المعرفة بتقنيات المعلومات.

إن الثقافة الأصيلة في صحبة جليلة تصنع الإنسان محطم عروش الطغاة، وانظر إلى ربعي بن عامر رضي الله عنه وخطابه في بلاط فارس: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

٢- التخطيط الاستراتيجي، والتأصيل له وللنهضة الحضارية، ونحن أولى أن نعتبر بما ينفقه الغرب على الدراسات المستقبلية، حيث يدخر عشر ميزانيته لذلك، فليتنا ننفق واحداً في المئة على مثل هذه الدراسات.

ولا بد من اتساق علوم الكون مع معرفة الوحي لإزالة ما حدث من انفصام،

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف، ٣/٥٢٠.

والاهتمام بدراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله الكريم وسنة الرسول عليه أفضل السلام وأتم التسليم.

وهكذا إعمال سنن الله، وبعث إرادة الصلاح والإصلاح في الأمة، وإحياء الأشواق إلى دعوة بليغة لسيادة الكون بالعدل والرحمة.

٣- وتوحيد الله تعالى يقتضي أن توحد الامة كلمتها: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢)، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)، ولا بد من إعمال هذه التوجيهات الربانية.

إن من اهتدوا لدين الله الحق من قلب أوروبا ومفكريها يرون في الإسلام سعادة البشرية وإنقاذها، وهذا «جارودي» ثانية يعبر عن ذلك فيقول: «إن الإسلام عند مولده أنقذ العالم من الانحطاط الشامل، فقد كانت الإمبراطوريات التي تسود العالم مفككة منحلة، سواء الفارسية أو الرومانية، أو أرجاء الهند، أو الشمال الأفريقي، أو ممالك «الفيزقوط» بأسبانيا.. ثم جاء القرآن معلنًا بقوة علو الخالق ومجده الذي تفرد به، وبانيًا على هذه الوحدانية نوعًا جديداً من البشرية المتساوية في عبوديتها لله سبحانه.

وبذلك منح الألوف المؤلفة من الناس وعيًا بمدى الكمال الذي يحرزونه عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به.. إن (الربانية) هي الشرف الحقيقي للإنسان، والبعد الذي يجتازه ليؤدي رسالته في الحياة..

والإسلام اليوم قادر على الإسهام بهذا العنصر الغالي لتحصين الإنسانية وحياطة مستقبلها، وحمايتها من المنزلق الذي يوشك أن يبتلعها..

إن المدنية الحديثة قضت على التسامي الروحي، وأيقظت الأثرة الحيوانية، وأقرت

نمطًا من الحياة بجنون التنمية وزيادة الإنتاج، ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسيسة[1].

والوحدة الإسلامية القائمة على الأخوة الدينية والصلة الروحية شرف وعز وانتماء، ونحن أولى بذلك من اغترار اليهود وعلوهم والعزة بالإثم.

ومن ذلك رحمة المسلمين والأقليات، والاهتمام بأمرهم ونصرتهم، وذلك من تكاليف الإيمان: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[2]. ويقول الرسول ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنان -أو كالبنيان- يشد بعضه بعضًا**»[3]، ويقول: «**ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**»[4].

٤- بعث خُلُق الرحمة في الأمة، وهي أمة الرحمة كما وصفها نبيها عليه الصلاة والسلام، وكان هو ﷺ خلقه الرحمة، بوصف الله تعالى له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ...﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وهو شرف عظيم أن خُصَّ عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء وموكبهم بالرحمة العامة.

يقول صاحب التحرير والتنوير: «وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكمًا وعلمًا، وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه

(١) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص٤٥.

(٢) أخرجه الحاكم والطبراني والخطيب، وضعفه الذهبي وابن الجوزي والألباني.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ.. ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين».. ويذكر أنها «صيغت بأبلغ نظم، إذ اشتملت هاته الآيات بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه»[1].

٥- الاستعداد لتحديات العولمة الرامية لقهر الشعوب وإخضاعها للرأسمالية الجديدة وتزييف الديموقراطية.

وأكثر من الاستعداد لتلك التحديات، أن نوظف كل طاقات العمل والإنتاج للاستفادة القصوى من كل الفرص التي تمنحها هذه (العولمة) في الوسائل والإمكانات، للتمكين للإسلام واستعادة مجد المسلمين على منهاج النبوة.

ولئن كان غيرنا يسعى لصراع الحضارات أو تصادمها، فإن واجبنا هو إعداد القوة اللازمة لتوجيه الصراع إلى مجادلة بالتي هي أحسن، وللمواجهة الحضارية بالحوار وقوة الحجة وخطاب العقل في الإنسان، لنقدم النماذج الحية الفعالة المؤثرة الجامعة بين الوحي والعقل.

(١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، د.ت، ١٧/١٦٥.

المسار المستقبلي للعمل الإسلامي

إبراهيم غرايبة*

ازدياد أهمية المعلومات وقيمتها يعني ان تكون قواعد البيانات ومراكز البحوث والدراسات محوراً أساسًا في العمل لأجل الإحاطة بمدخلات العمل والتخطيط والقرار الصائب الراشد.

يكتسب الحديث عن الدور الحضاري المستقبلي المطلوب للأمة المسلمة أهمية كبرى.. فقد حدثت تغيرات مهمة ومؤثرة تعيد صياغة المجتمعات والدول على أسس جديدة، وهي تحولات تقتضي إعادة تكييف دور الأمة والمؤسسات والأفراد، واختبار الفرص والتحديات الجديدة.. والموضوع مهم بذاته، فهو مناسبة لمراجعة مسارات العمل الإسلامي الدعوي والنهضوي، وتقدير المكتسبات والإنجازات، ومعرفة الضعف والقوة، وتصحيح الأعمال والمشروعات، وإعادة توجيهها نحو الأهداف والأولويات الضرورية، وتجنيبها الزلل والانحراف والتكرار، وترشيد الجهود والنفقات.

لقد خطت الأمة المسلمة منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري خطوات كبرى في مسار النهضة والإصلاح، وتحققت إنجازات مهمة.. وهي -الأمة المسلمة- في أوائل

* كاتب وصحفي.. رئيس تحرير *مجلة الأمة الأردنية (الأردن)*.

القرن الخامس عشر تبدو أحسن حالاً بكثير منها قبل مائة سنة، وأمامها بالطبع أعمال أخرى كبيرة يجب إنجازها ومراحل كثيرة يجب تخطيها بسرعة أكبر، وتواجهها مخاطر وتحديات تهددها وتضعفها.

ستحاول هذه الدراسة تقديم عرض لخريطة مسار الأمة المسلمة الإصلاحي والنهضوي بإيجاز، ثم تقدم اجتهاداً في فهم الخريطة القادمة والتحولات الجارية في الحضارة والمجتمعات، وتخلص إلى أفكار ومقترحات يراها الكاتب ضرورية لنهضة الأمة المسلمة واستعادة دورها في الشهادة على الناس وتبوء الموقع الصحيح المناسب بين الأمم.

المشهد العام للأمة المسلمة

تعرضت الأمة في القرن الماضي إلى أسوأ حالة ربما في تاريخها كله من الضعف والجهل والغزو الفكري والاحتلال العسكري، واستطاعت أن تتحرر من الاحتلال وتحقق قدراً من الاستقلال، وانحسرت موجة الغزو الفكري، وتحققت صحوة إسلامية شاملة.

فالأمة المسلمة اليوم تبدو وقد أنجزت الكثير مما كانت تتطلع إليه قبل قرن من الزمان، ويمكن ملاحظة الكثير من شواهد التقدم التي حققتها الأمة المسلمة، فالمشروعات والمبادرات الإصلاحية التي بدأها أفراد من العلماء والمصلحين، تحولت إلى حركات إسلامية تربي مئات الآلاف من الشباب المسلم، وتجتذب إلى صفوفها كفاءات علمية مؤهلة تأهيلاً عالياً، وبثت في صفوف الأمة ومؤسساتها في كل مكان وموقع قيادات علمية واجتماعية وعامة على قدر متقدم من القوة والأمانة، ويمكن القول باطمئنان: إن موجة التشكيك بالإسلام وهوية الأمة وثقافتها قد انحسرت مهزومة.. وتمتلك الأمة من التدين والثقة بالإسلام والركون إليه والتمسك بالثقافة والهوية الإسلامية قدراً عالياً يؤهلها لمرحلة أخرى جديدة من الإصلاح والنهوض.

وتعبر عن الصحوة الإسلامية اليوم مؤسسات كثيرة جداً تؤدي دوراً مهماً في الدعوة والإصلاح، مثل المنظمات الإسلامية الدولية والمحلية، والبنوك الإسلامية، والمراكز والاتحادات والجمعيات، والروابط والجامعات، ومراكز الدراسات، والصحف والمجلات، ومحلات الأشرطة والكاسيت، واللباس الشرعي، والمساجد العامرة بالشباب، وحلقات التعليم وتحفيظ القرآن الكريم، ورحلات الحج والعمرة، ومؤسسات التنمية والإغاثة والعمل الخيري، وكفالة الأيتام والفقراء، وغير ذلك مما يصعب حصره في هذا المقام، حيث تقوم في كل دولة من العالم الإسلامي، وفي كل تجمع للمسلمين خارج دولهم مؤسسات تنتظم جهودهم وأعمالهم.

هذا التحول من الفردية إلى الجماعية والمؤسسية قدم للأمة المسلمة خبرات تنظيمية وفكرية متراكمة، نقلت الصحوة الإسلامية من التدين المجرد وأداء الشعائر والالتزام بالعبادات، إلى مبادرات ومشروعات إيجابية تفيد منها الأمة والإنسانية.

وفي مجال العمل الحكومي الرسمي يمكن ملاحظة الكثير أيضاً، فالجامعات تزيد في الدول العربية عن خمسمائة جامعة، وقد يكون للمسلمين من غير العرب مثلها، وقدمت هذه الجامعات كفاءات متعلمة ومؤهلة تجعل التعليم في المدارس والدعوة في المساجد والعمل العام يمتلك من الوعي والبصيرة وأسباب النجاح والتقدم.. وتدير وزارات الأوقاف جيشاً كبيراً من أئمة المساجد والوعاظ والدعاة والعاملين في المجال الإسلامي، هم متفرغون لعملهم هذا، وتوفر لهم الدول أسباب المعيشة والتعليم والتدريب، وامتد العمل الإسلامي الرسمي إلى محطات الإذاعة والتفزيون، والمدارس، والمؤسسات العسكرية والأمنية، ويدعم ذلك اتجاه التدين والصلاح في الأمة، ويوفر له كثيراً من مستلزمات العمل ونفقاته.

ويمكن بالطبع ملاحظة الكثير من مظاهر العجز والتخلف لدى الأمة المسلمة،

وهي على قدر من الكثرة والخطورة يجعل التفكير في النهضة والإصلاح، ورسم اتجاهات العمل، وتحديد الأولويات والأهداف أمرًا في غاية الصعوبة والتعقيد، ويصدق فيها القول: «الفتق أكبر من الرتق».

فالمسلمون لم يعودوا أمة واحدة، ولكنهم دول كثيرة تتنازع أحيانًا كثيرة، وهم على درجة من التفرق والاختلاف وتضارب المصالح تجعل مؤسسة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية في حالة تدعو إلى الشفقة.

وعلى الرغم من مرور عقود طويلة على استقلال الدول الإسلامية، ورغم مواردها وإمكانياتها الطبيعية والبشرية، فإنها لا تزال في موقع متدن في سلم التنمية البشرية «انظر الجدول المرفق للتنمية البشرية في العالم الإسلامي».. ومن أكثر مؤشرات التنمية والإصلاح رعبًا هي المستويات المتدنية للتعليم، والتبعية في مجالات أساسية واستراتيجية كالغذاء والدواء، والتقنية، والأمن والدفاع، وأنماط الحياة والاستهلاك وإدارة الاستهلاك والتنمية.

المشهد المطلوب للأمة المسلمة

نحن نتحدث عن دور الأمة، وهو دور لا تغني عنه أعمال جزء من الأمة كالجماعات والحركات والحكومات والمؤسسات، ولكننا نعني مجموع الأمة التي تشكل فيها المؤسسات والأفراد جزءًا من شبكة العمل والإصلاح والتنمية، فالمطلوب ليس فقط أن تبادر المؤسسات المختلفة إلى العمل والبرامج، ولكن المطلوب ما يلي:

١- أن ننقل الأمة المسلمة بمجموعها إلى حالة جديدة من الفاعلية الحضارية والاجتماعية.. ومعيار نجاح عمل الجماعات والحكومات والمؤسسات والأفراد هو بمقدار نجاحها في التأثير في الأمة ومساعدتها على النهضة والتغيير.

٢- أن تتكامل أعمال ومواقف جميع الأطراف من أفراد وحكومات ومؤسسات أهلية

ومجتمعية بحيث تتحقق شبكة من الإصلاح والعمل النهضوي، ولا تكون هذه الجهود مشتتة متعارضة متباعدة، فقد يكون مجموعة الأعمال صفراً أو قيمة سالبة، لكنه يمكن أن يكون أضعافًا مضاعفة وكأنه حاصل ضرب وليس جمع، لأن الأعمال والمشروعات يمكن أن تتفاعل وتحقق متوالية كبيرة من الإنتاج، وقد تؤدي «وهذا الجانب المخيف» إلى متوالية عكسية سالبة من التناقض والتدمير: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٤).

ولذلك فإن المحاولة في هذا المجال ستجهد أن توضح مطلبين أساسيين:

ما الحالة التي نسعى إليها ونريدها؟ وكيف تشبك الأعمال والأدوار، أي «تجعل في شبكة»، تجعلها أكثر فاعلية واقتدار وتضاعف آثارها الإيجابية ونتائجها الطيبة؟

إنه ليس ممكنًا ولا هو مطلوب أن تنهض فئة قليلة من الأمة وتعمل وحدها، وتتحمل أعباء النهضة والدعوة، في حين يقف المجموع الباقي يراقب وينظر، أو يحارب ويعوق، ولكن المطلوب تأهيل الأمة المسلمة لتحقق شروط النهضة والإصلاح وتكون قادرة على أداء دور الشهود الحضاري المطلوب منها.

من النخبوية إلى المجتمعية.. ومن الهرمية إلى الشبكية

وهكذا كما تحول العمل الإسلامي والنهضوي من عمل فردي إلى عمل مؤسسي، فإن المطلوب اليوم أن يتحول من نخبوي إلى مجتمعي، تؤديه الأمة كلها.. فالتحدي هنا يكمن في أن تقوم المؤسسات والحكومات بنقل الخبرات التي لديها إلى المجتمع كله، وأن تشاركها الأمة المسؤوليات والأدوار والأعمال، وهنا تؤدي الشبكية إلى ربط الأعمال وتنسيقها، وسد الثغرات، ودعم الحلقات الضعيفة وتقويتها.

ونشاهد اليوم لدى الأمة الكثير من المظاهر والإنجازات التي تدل على إمكانية نقل الدعوة والإصلاح والهم العام من نخبة إسلامية في أعلى هرم الأمة إلى الأمة كلها، فالمساجد تمتلئ بالرواد من الناس الذين لا تنسق وجودهم في الصلوات والدروس جماعة ما، كما كان الأمر قبل عشرين سنة أو أكثر حين بدأت الصحوة الإسلامية بالنمو والانتشار، ولكن الإقبال على المساجد حالة مجتمعية عامة.. والأمر نفسه ينطبق على رحلات الحج والعمرة والحجاب والأشرطة «الكاسيت» والإعلام وغيرها من البرامج التي بدأت نخبوية تقوم عليها وتنسقها جماعة إسلامية منظمة فصارت حالة مجتمعية عامة.

وامتدت الصحوة الإسلامية إلى دول وأقطار ليس فيها وجود لجماعات إسلامية منظمة، كما شملت فئات من المجتمع ليس من بينها في العادة من ينتظمون في جماعات إسلامية.. ومن المشاهد الطريفة أنه في أحياء غنية في بعض المدن والعواصم العربية المسلمة يلاحظ إقبال نساء غير محجبات على المساجد للصلاة وحضور الدروس والنشاطات المسجدية.

وقامت مؤسسات استثمارية تجارية لا علاقة لها بحكومة أو جماعة مستمدة أساساً من إقبال الناس ورغبتهم بتطبيق الشريعة الإسلامية، مثل البنوك الإسلامية، وشركات التامين الإسلامية.

ويقابل هذه الحالة صورة أخرى مردها إلى عدم رعاية الصحوة الإسلامية وترشيدها واستثمارها على نحو إيجابي، ونعني التطرف والتدين المنقوص المشوه والإرهاب المنسوب إلى الإسلام، ولا نقلل من شأن هذه المشكلات، ولكننا نعتقد أنه يمكن تحويل هؤلاء المتدينين إلى أعمدة في الإنتاج والإصلاح والاستقرار بدلاً من استدراجهم ليكونوا أعداء لبلادهم، ومصدر إعاقة للنهوض والتنمية.

فأبناء الصحوة الإسلامية والمتدينون أغلبهم من المتعلمين والمثقفين الذين تخرجوا من الجامعات في بلادهم وفي الدول الغربية المتقدمة، هم يرون في الدعوة الإسلامية مصدر حراك للمجتمع، يصلحه وينميه، ويمتلكون رؤى برامج في الإصلاح يتحمسون لها.. فالتدين يعطي الدافع والحماس لمشروعات حياتية وتنموية تقلل كثيراً من تكاليفها وتجعلها منسجمة مع ضمائرهم وتطلعاتهم.

إن الحكومات والمؤسسات يمكن أن تجد في الدعوة الإسلامية مورداً كبيراً لو استثمر استثماراً صحيحاً فإنه سيخفض كثيراً من النفقات والجهود المبذولة، مع فاعلية ونجاح أكبر في تحقيق الأهداف، وبخاصة في مكافحة الجريمة والإدمان والتفكك الأسري، والارتقاء ببرامج العمل التطوعي، والتعليم المستمر، وتأهيل الأسر والمجتمعات المحلية وبرامج البلديات والنقابات، وغير ذلك كثير مما يمكن تفعيله والحصول على أفضل النتائج بأقل التكاليف.

الثقافة المحرك الأساس للنهوض والفاعلية

تكاد الدراسات والتقارير والمؤسسات المتخصصة بالتنمية في الغرب، مثل اليونسكو والتقرير السنوي للتنمية البشرية الذي تصدره الأمم المتحدة، ونادي روما، وتقارير أوضاع العالم، وغيرها كثير، تجمع على أن العامل الرئيس في تحقيق التنمية هو الثقافة، وتقر جميعها بفشل فلسفة التنمية من أجل الوفرة والنمو الاقتصادي.. واليوم تتبنى كثير من المؤسسات الدولية والوطنية مفهوماً جديداً للتنمية تؤدي فيه الثقافة دوراً مهماً ومحورياً.. ويربط كثير من الاقتصاديين بين مؤشرات نوعية الحياة كالصحة والتغذية والتعليم وبين قيم دينية وثقافية واجتماعية تجعل هذه النتائج فعالة وتحمي هذه الإنجازات أكثر من الوفرة المالية.

والكثير من العاملين في مجال الدعوة الإسلامية يدركون هذا الأمر كما يعرفه

قطاع كبير من الناس من قبل، ولكن خطط التنمية ومشروعات التعليم والإنتاج في العالم الإسلامي ظلت تتجاهل هذ الحقيقة دون ملاحظة لعدم الجدوى والنزف المالي والخسائر الكبيرة التي رافقت هذه المشاريع.

فالنمو الاقتصادي هو أداة أو وسيلة وليس غاية.. والنظر إليه بخلاف ذلك سيؤدي إلى هدر كبير للموارد إذا لم يحقق حياة كريمة.. وقد حدثت بالفعل زيادة كبيرة في الإنتاج ووفرة الغذاء والدواء ولكن الحرمان والتخلف يشمل أكثر من أربعة أخماس البشرية، ولا يكاد يحصل على الحياة الكريمة في العالم الإسلامي أكثر من ٢٠٪ من الناس، وما زالت الحروب والجريمة والتشرد تشكل مساحات واسعة في حياة الناس حتى في الدول الغنية والمتقدمة صناعياً.

كتب المفكر الفرنسي «آلان بيرفت» تحت عنوان «ما تغفله ماديتنا الساذجة»: لم أفلحت اليابان في أن تصبح بلداً صناعيًا بمثل هذه السرعة دون أن تمتلك الموارد الخام والطاقة اللازمة للصناعة؟ ولا تجد دول تعد من أغنى دول العالم بالمعادن والموارد وأوفرها ماءً وخصبًا ما تقوت به الناس وتحدث فيها مجاعات؟ وكيف يحصل ٣٧٥ شخصًا يعيشون في كل كيلومتر مربع في جنوب الهند على احتياجاتهم الأساسية، ولا يستطيع أربعة أشخاص يعيشون في كل كيلومتر مربع في دول أفريقية استوائية تمتلك نفس الظروف الجغرافية والطبيعية توفير الطعام واللباس؟

ويخلص بيرفت إلى أن النظر إلى الاقتصاد على أنه رأسمال ويد عاملة وعلاقات إنتاج ينطوي على سذاجة وجهل، فقد تأكد أن السمات اللامادية كالدين والدوافع المعنوية والأخلاق والثقافة تعدل من سلوك الشعوب وتحورمسار أكثر المجالات مادية كالاستثمار والإنتاج.

وتقول (أمارتيا سن) أستاذة الاقتصاد بجامعة هارفارد: التنمية الثقافية مكون

أساس لا ينفصل عن التنمية بشكل عام، فإذا حرم الناس من فرصة فهم وتقوية قدراتهم الخلاقة، فإن هذا يعوق التنمية.. والثقافة تؤدي دوراً أساسيًا في تقييم الأشياء والأهداف والوسائل التي نسعى بها للعمل والإنتاج.

والسؤال الأساس هنا: ما هي الثقافة التي يجب أن توجه نحوها الجهود وتستهدف لأجل النهوض؟ وماذا تملك الأمة المسلمة من قيم ثقافية واجتماعية تصلح أساسًا للتنمية؟

إن الأمة تملك رصيداً كبيراً لعله يفوق ما لدى الأمم الأخرى، ولو استثمر هذا الرصيد بفعالية فسيحقق الكثير من أهداف التنمية التي أنفق الكثير لأجل الوصول إليها بلا طائل.

فالإسلام يقدم دافعًا كبيراً على العمل والإنتاج، والمسلم الذي يسابق يوم القيامة ليزرع شجرة «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[1]، أو الذي يزرع ليفيد كل ما ومن حوله «**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**»[2]، لا بد أن يكون بالتأكيد إنسانًا فاعلاً منتجًا يستحي من القعود ويعتز بالعمل.

ولا يتسع المجال لعرض توجيهات الإسلام في وجوب العلم والعمل والنظافة وحماية البيئة والتعاون ومكافحة الجهل والفقر والرذيلة، ولكن يمكن في هذا المقام تقديم أفكار ومقترحات عملية مستمدة من الثقافة الإسلامية في التنمية تصلح أساسًا للنهوض، ويمكن أن نسعى لتحقيقها. وهي أمثلة لا تشمل بالضرورة كل ما هو مطلوب وممكن:

---

(١) أخرجه أحمد.

(٢) أخرجه البخاري.

■ المشاركة في التنمية:

يتوقع أن تكون مشروعات وبرامج المشاركة هي البديل الأفضل في المستقبل بعد انتهاء مرحلة دولة الرفاه، حيث تتخلى الحكومات والدول في جميع أنحاء العالم عن تقديم الخدمات الأساسية للمواطنين، وتوقف ظاهرة «الدولة رب العمل الأكبر»، حيث يصل عدد المواطنين الذين يعتمدون على الدولة في بعض الأحيان إلى حوالي النصف إلى الثلثين.. وأدت العولمة والخصخصة في المقابل إلى انهيار مستوى الخدمات الأساسية التي كان يحصل عليها معظم المواطنين وبخاصة الطبقات الوسطى والفقيرة في المجتمع.

البديل المقترح في هذه الحالة إقامة مشروعات وبرامج ومؤسسات توفر الخدمات الأساسية المطلوبة من صحة وتعليم وضمان اجتماعي وسكن.. ليست استثمارية تقوم عليها شركات بهدف الربح، وليست حكومية أو خيرية تقدم مجانًا، أو تتحمل المؤسسات القائمة عليها خسائر باهظة.

والفكرة ليست جديدة ولا بدعًا في التاريخ والجغرافيا، فقد طبقت بنجاح في أماكن وأزمنة متعددة، ولكن المطلوب أو المتوقع أن تنتشر وتتوسع حتى تكون القاعدة الأساسية لخدمة الناس وتوفير احتياجاتهم الأساسية.

ويتعاون الناس في مثل هذه المشروعات بإقامة مؤسسات ونقابات وجمعيات يوفرون إيراداتها المالية، وتقدم لهم الحكومة التسهيلات والمعونات التي لا ترهقها، مثل: الأرض، والإعفاءات الضريبية، وإيصال الخدمات الحكومية، وإصدار تشريعات توسع صلاحيات وموارد هذه المؤسسات كالبلديات والنقابات والجمعيات التعاونية والمؤسسات غير الربحية، ولا يقصد بهذه الأخيرة الجمعيات الخيرية.

ومن الأمور المهمة التي يجب أخذها بالاعتبار في نجاح هذه المشروعات، الدافعية

والقناعة والثقافة التي توجه الناس نحو هذه البرامج والمشروعات وتنجحها.. وبالطبع فإن مشروعات يشارك الناس في التخطيط والتفكير لها وفي تمويلها وإدارتها سيكونون جميعًا حريصين على إنجاحها وتفعيلها.. وقد ثبت بالفعل أن من أسباب فشل المشروعات والمؤسسات الحكومية ضعف ثقافة «المال العام»، التي ترى المرافق العامة شيئًا مقدسًا يجب احترامه والمحافظة عليه، بل إن الثقافة العربية تكاد تكون عكسية، فالناس في كثير من البلاد العربية يجدون أن الأصل في المال والوظائف العامة هو الاستباحة، ومن العيب أمام الأقارب والأهل عدم تسخير الفرص العامة لخدمتهم.

الثقافة العربية والإسلامية أكثر انسجامًا وميلاً مع مشروعات المشاركة منها على الخيارين الآخرين، الحكومة أو القطاع الخاص، ويمكن أن تكون هذه المشروعات أكثر فاعلية ونجاحًا، وقد أقيمت في الأردن «صناديق إدخار»، وهي مؤسسات موازية طوعية أقامتها جمعيات الموظفين والنقابات توازي مؤسسة الضمان الاجتماعي الحكومية.. وتؤدي هذه المؤسسات الطوعية نفس خدمات الضمان الاجتماعي «التقاعد، والتعويض، والتأمين الصحي».

وإذا كان المثل الصيني يقول: لا تعطه سمكة ولكن أعطه صنارة ليصيد سمكًا، فإن الهدي النبوي يقول: لا تعطه سمكة ولا صنارة ولكن علمه كيف يصنع صنارته ويدبر معيشته، فقد جاء إلى الرسول ﷺ سائل يطلب مالاً ورآه الرسول ﷺ قويًا مقتدرًا، فسأله إن كان عنده شيء من المال والمتاع، فجمعه وباعه للناس بدرهمين، وقال له أنفق درهمًا على نفسك واشتر بالآخر فأسًا واحتطب به، ورجع إليه بعد حين فقال للرسول ﷺ لقد بارك الله فيما أرشدتني إليه.. ووجد عنده مالاً ومتاعًا يكفيه.. فالرسول ﷺ لم يقدم له حتى الفأس ليعمل بها ولكنه قدم له «الخبرة والتنظيم» ليفعّل موارده ويلتفت إلى ما يمكن تحقيقه.

وقد شاركت بنفسي في مشروعين، أحدهما نجح تمامًا والآخر فشل تمامًا، والسبب في الحالتين هو المشاركة والقناعة، فقد بادرت بالتعاون مع هيئة خيرية لإقامة مشروع لتطوير مصادر الري في إحدى القرى، حيث كانت مياه الينابيع تتسرب في الوادي بلا فائدة كبيرة، واقترحنا إقامة مشروع لنقل المياه في قناة أسمنتية على جانبي الوادي لتصل إلى السهول والمناطق التي يمكن زراعتها، وأن يتحمل الأهالي ثلث التكاليف، والهيئة الخيرية الثلثين.

عندما أعددت دراسة المشروع وقدمتها للمتبرع توقعت أن تزداد مساحة الأراضي الزراعية بنسبة ٦٠-٧٥٪ كنت أشعر أنني أبالغ في التقدير، ولكني أملت أن تشجع هذه المبالغة الممول، ولكن المفاجأة كانت أن نسبة الزيادة في الأراضي الزراعية كانت أكثر من خمسة أضعاف (٥٠٠٪)، فقد نفر الأهالي بعد إقامة المشروع إلى زراعة أراضٍ كثيرة لم تكن تزرع أبدًا، ولم تكن ابتداءً تحسب أنها أراض زراعية، ولكن قناعات وهممًا جديدة تكونت لدى الناس وهم يبنون المشروع بأنفسهم، حيث طلب متعهد تجاري أكثر من خمسة أضعاف المبلغ المتوفر، ولكن عندما بني المشروع بخبرات الناس المحلية وبالمكافأة أيضًا وليس تطوعًا، فقد أقيم المشروع وأمكن توفير مبلغ لإقامة حفل غداء للأهالي حضره وزير التنمية الاجتماعية.. واليوم بعد ست سنوات من المشروع، فإن الوادي الذي لم تكن فيه شجرة واحدة زرعت فيه أكثر من عشرة آلاف شجرة زيتون وفاكهة وأشجار حرجية.

وقد شجعنا هذا النجاح على المبادرة بإقامة مشروع آخر لتربية المواشي، وقدمت مؤسسة بريطانية معظم تكاليف المشروع، ولكن لأن الأهالي لم يكونوا في الحقيقة يريدون إقامة المشروع، وإنما الحصول على المبلغ المخصص ثم تصفية المشروع والحصول على ثمنه نقدًا، فقد نفقت معظم المواشي وبيع المتبقي منها بأسعار بخسة بسبب

الظروف البائسة للمشروع، ولم تستطع الجمعية التي تدير المشروع أن تسترد حتى الجزء الذي ساهمت به في المشروع.

■ **التنمية بالعودة إلى الأصول:**

تتكون اتجاهات جديدة في أوساط ومنظمات دولية مفادها أن التنمية وتحقيق الاحتياجات الأساسية والمحافظة على البيئة وحماية الكرة الأرضية يمكن تحقيقها بالوسائل البسيطة التي استخدمها الناس وعرفتها الحضارات القديمة.. وهذه الاتجاهات آخذة بالتتالي والانتشار وتلاقي احترام كثير من الحكومات والجامعات والمؤسسات نفسها التي عملت على استخدام التقنيات الحديثة وتطوير المشروعات الكبيرة.. ثم اكتشفت أن هذا الأسلوب في العمل والإنشاء رافقه ضرائب كبيرة أهمها موارد الأرض والإضرار بالبيئة دون رفع مستوى المعيشة للشعوب وبخاصة في دول العالم الثالث.

وعقدت مؤتمرات علمية لاستخدام الأعشاب في العلاج بدلاً من العقاقير الكيماوية، ورعت الأمم المتحدة مشروعات عدة للإسكان والطب التقليدي، وتعمل منظمة الأغذية الزراعية (الفاو) على تشجيع مشروعات غذائية قائمة على استخدام الموارد المتاحة بعدما تحول اتجاه سكان العالم إلى نمط موحد من العادات الغذائية يعتمد على أنواع محدودة من الغذاء لا تستطيع جميع البيئات توفيرها.. فدول شرق آسيا التي لا تعرف القمح أصبحت تستخدم الخبز بدلاً من أو مع الأرز، وتضطر لاستيراده، ومن ثم الضغط على مناطق إنتاج القمح.. ودول الشرق الأوسط التي كانت تعتمد على القمح ولا تعرف الأرز أصبح القمح فيها طعامًا أساسيًا لا يمكن الاستغناء عنه.

ويتزايد الإقبال في دول الغرب على المنتجات الزراعية التي لا تستخدم المبيدات، وثمة اتجاهات لمقاطعة كل منتج يؤدي تصنيعه إلى الإضرار بالبيئة أو الكائنات الحية.

تقرير أوضاع العالم الصادر عن مؤسسة «وورلد ووتش» يعرض معلومات وتصورات مفاجئة، فقد لاحظ الخبراء الذين اهتموا بالشعوب الأصلية التي لا زالت تعيش حياة بأنماط وموارد هي نفسها منذ آلاف السنين أن هذه الشعوب تمتلك خبرات ومعلومات غير مدونة في الحفاظ على البيئة والموارد تفوق ما هو مدون ومدروس في مراكز الأبحاث حتى الآن.. وقد ارتبط التدهور البيئي بانحسار هذه الشعوب أو تذويبها في الحضارة الحديثة.. ووجدت منظمات حماية البيئة بعد جهود ونفقات كبيرة بذلتها لحماية البيئة والحيوانات والطيور المنقرضة، أن أفضل وسيلة للحماية -دون تكاليف تذكر- هي في تفويض إدارتها وتنميتها للشعوب الأصلية في تلك المناطق، وهذا ما حدث بالفعل في مناطق كثيرة في غابات أفريقيا وغابات الأمازون وأمريكا الوسطى.

يقول العالم الإنثروبولوجي الكولومبي «مارتن فون هيلديبراد»: «إن الفرق بين الهنود الحمر والسكان الأوروبيين، أن الهنود يريدون أن يتركوا الغابات لأطفالهم ولكن الأوروبيين يريدون أن يتركوا مالاً لأطفالهم»، وهو يشير بذلك إلى نمط حياة الهنود المرتبط بالمحافظة على الغابة باعتبارها مصدر الحياة.

وغالبًا ما يعجز المختصون الذين درسوا العلوم الغربية عن إدراك المعلومات البيئية التي يعرفها السكان الأصليون بسبب الأساليب الثقافية التي يسجل هؤلاء السكان من خلالها معلوماتهم وأساليب تناقلها.. فأنماط الحياة التي تطورت عبر أجيال كثيرة لا يمكن أن تزدهر إلا من خلال ترجمة المحافظة على البيئة إلى مجموعة من الممارسات والمعتقدات والمحرمات التي يتوارثها الآباء عن الأجداد.

وتقوم قبائل «السوكوما» جنوب بحيرة فكتوريا بتدوير عملية الرعي في دورة تتراوح بين ٣٠- ٥٠ سنة.. وتنقل قبائل الزغاوي في النيجر جمالها وأغنامها إلى

مراعي الصحراء الكبرى أثناء الفصل الماطر في ممرات مستقلة متوازية، تاركة بذلك أشرطة أرضية بدون رعي لاستخدامها في طريق العودة.

وصمم السكان في إيران وأفغانستان نظامًا للري يعتمد على الجاذبية ويزود الجبال والسهول بالمياه من خلال حفريات معقدة تخدم قرونًا طويلة.

وفي المقابل يمكن رصد كثير من الأضرار غير المنظورة لمشروعات الاقتصاد النقدي والتقنيات الحديثة، بل إن منظمات دولية مثل نادي روما حذرت من مشروعات السدود الكبيرة التي تتسبب بأضرار فادحة لم يحسب لها حساب عند التخطيط لهذه المشاريع، فقد أدت هذه السدود إلى تغطية أجزاء كبيرة من اليابسة التي كانت تستخدم للزراعة والاستيطان، وتسربت من الأرض أملاح وعناصر سامة لونت المياه، وتضررت أنظمة الأنهار التي كانت تقيم مناعة ذاتية تحافظ على المياه عذبة نظيفة وتقتل الميكروبات، وتدهورت خصوبة الأراضي الزراعية بسبب انحباس الطمي في السدود، وتآكلت شواطئ البحار لأن مصبات الأنهار كانت تزودها بالطمي الذي يقيم حاجزًا صلبًا أمام أمواج البحر، وهاجرت أسماك كثيرة كانت تأتي إلى الشواطئ بحثًا عن الغذاء في الطمي الذي يلقيه النهر في الشاطئ، حتى أن خسائر الصيد في مصر بسبب السد العالي تقدر بثمانية عشر ألف طن من السردين سنويًا.

والجدير بالاعتبار أن هذه التنمية الأصلية لا تضيف تكاليف ونفقات على المجتمعات والدول، كما أنها تنسجم مع اتجاهات الدول في التخفيف عن الحكومات وإسناد الأدوار الأساسية للمجتمعات نفسها.

لقد أدت استعارة أنماط مستوردة في العمارة إلى نزف كبير في الموارد ومصادمة للبيئة والطبيعة، وثقافة الناس أيضًا، ومعاناة كبيرة في السكن من حيث القدرة على الحصول على مسكن ملائم.

يستطيع الناس أن يبنوا بيوتهم بأنفسهم كما كانوا يفعلون طوال حياتهم باستخدام البيئة المحيطة، وما زال الناس في دول فقيرة يقيمون بيوتًا واسعة جميلة دون تكاليف تذكر، والأمر نفسه متبع في دول غنية متقدمة كالدول الأسكندنافية، لكن شعوبًا ودولاً أخرى كثيرة في العالم الإسلامي انتقلت إلى أنماط حديثة في السكن وتخطيط الأحياء أدت إلى تكاليف باهظة وخسائر متوالية لم تستطع المجتمعات والدول تحملها، فالأردنيون على سبيل المثال ينفقون ٤٠٪ من الناتج المحلي على البناء ولكنهم يعانون ربما أكثر من أي بلد آخر من أزمة السكن، وفي الوقت الذي يعجز الإنسان العادي متوسط الحال عن الحصول على مسكن، توجد مئات من البيوت الفارغة التي يتطلب إشغالها تكاليف باهظة لا يقدر عليها الناس.

وتجد في أحياء راقية بالغة الترف، أنفق الناس فيها المليارات على بناء بيوتهم، وأنفقت الدولة مئات الملايين على مرافقها وخدماتها الأساسية، ولكن لأنها اختطت على أساس تحدي الطبيعة ومناطحة الجغرافيا، تعاني من مشكلات مزمنة وفشل حاد، فمجاري الصرف الصحي لا تعمل غالبًا، وتتحول الشوارع إلى مجاري مكشوفة وقذرة.. ولأن البيوت والطرق والأحياء بنيت في الأودية وسفوح الجبال والسهول الزراعية دون مراعاة للطبيعة الجغرافية للأرض، فإن الأمطار والفياضانات تجرف في كل عام الناس والبيوت.

هذه البيوت والمدن التي تبنى في كل مكان دون مراعاة لاعتبارات التزود بالماء وملاءمة الأرض للبناء أو الزراعة، تلتزم الدولة بإيصال الماء إليها، فتستنزف الموارد المائية وتحرم منها أصحابها الأصليين، وتنفق الكثير على ضخها لتصل إلى أماكن معاكسة لطبيعة مسارها، وتبنى شبكات هائلة لنقلها.. وفي الأردن على سبيل المثال، تنفق الدولة أكثر من ثلاثين مليون دولار ثمن الوقود اللازم لتشغيل أجهزة ضخ المياه.. وتحتاج شبكة المياه التي يتسرب منها أكثر من ٦٠٪ من المياه لأنها متآكلة، إلى

أكثر من خمسمائة مليون دولار إلى إصلاحها.. وتوقفت وسائل جمع المياه التقليدية كالآبار والبرك والقنوات، لأن الشبكات كانت بديلاً أكثر راحة.. واليوم فقد الناس وسائلهم التقليدية، ولا تفي الشبكات الحديثة باحتياجاتهم، وتشكل المياه همًا أساسيًا مرعبًا للحكومات والناس.

■ التقنية ليست آمالاً ولامعجزة:

أنشأ خمسة عشر عالمًا أردنياً يعملون في الجامعات والمعاهد العلمية في الأردن شركة تصنع المستحضرات الطبية، وحظيت الشركة بدعم المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا، وحصلت على شهادة الآيزو ٩٠٠٢ في إنتاج ١٢٧ مستحضراً تستخدم للكشف الطبي مثل السكري والحمل ونسبة الأملاح والعناصر والأجسام المضادة في الدم، وهذه المواد تنتج محليًا بكل مدخلاتها، وتسوق في الأردن ودول أخرى كثيرة.

وأحد هؤلاء العلماء هو د.عبد الحميد القضاة الذي تخرج في جامعة مانشيستر ببريطانيا، وكان قد أجرى ونشر بحوثًا وظفت على نطاق تجاري لإنتاج علاج السكري من الأشجار الحرجية التي تنمو في الأردن «البطم والبلان»، وكانت مجلة الأمة القطرية قد أجرت أيام صدورها حوارًا موسعًا معه حول استخدام الموارد والفرص المحلية في التقنية الطبية وغيرها.

وكان الأردن يستورد من هذه الكواشف ما قيمته ثمانية ملايين دولار، وتقدر مستوردات الوطن العربي من هذه المستحضرات بحوالي خمسمائة مليون دولار، علمًا بأن العالم العربي يستورد ٨٨٪ من المستلزمات الصحية.

إن الجديد الملفت في تجربة د. القضاة وزملائه هو منهج توظيف الممكن والسعي في نجاحات صغيرة متراكمة، وليس البحث عن الآمال الكبار والمعجزات، فالتقنية

برأيه عملية تنموية وتربوية وتدريبية يتولى مسؤوليتها شبكة من المؤسسات والمجتمع والحكومة وحتى الأسر والعائلات.

وأعجبني إعلان تثقيفي نشر في الصحف تعده شركةأردنية أمريكية بتمويل من وكالة الإنماء الأمريكي (USAID)، تستهدف هذه الحملة التثقيفية تحسين وإتقان المهن والصناعات والمهارات، واتخذت شعاراً هو حديث الرسول ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[1].

عرض الإعلان تحت عنوان: «لنتعرف على أحد هؤلاء» تجربة مواطن متخصص بإصلاح الثقوب والعيوب في الملابس، وهي مهنة تعلمها فؤاد آغا من والده الذي بدأ عمله قبل خمسين سنة، ويعلمها هو اليوم لأبنائه، وأخوته الصغار الذين يشاركونه العمل، وكيف تسعى هذه العائلة في صناعة اسم وسمعة ترتبط بالإتقان والإخلاص للعمل والاستمتاع به، وهي تقاليد تقنية وتربوية عرفت بها اليابان وعائلات تجارية في الشام ومصر وأنحاء كثيرة من الوطن العربي والإسلامي، ويمكن أن تكون هذا التقاليد أساساً للنقابات والجمعيات لتطور مهنها وتحافظ عليها وتحميها.

ومن الحالات التي عرضتها هذه الحملة التثقيفية تجربة فتاة جامعية تخرجت في مجال علم الاجتماع، واستطاعت أن توائم بين ثقافتها التربوية والاجتماعية التي تلقتها في الجامعة وبين خبرات عائلتها الممتدة من جدها في مجال النجارة، فتنتج «إلهام العكر» الألعاب والوسائل التعليمية للأطفال من مادة الخشب، وهي توفر اليوم للمدارس ومؤسسات التعليم وسائل تعليمية مصنوعة من الخشب المتين الذي يتحمل استخدام الأطفال، ودون تكاليف كبيرة، حيث تجمع الأخشاب الزائدة والمواد التي لم

---

(١) أخرجه أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها.. وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٣/١٠٦.

تكن تستخدم في شيء نافع، إضافة إلى ما يلزم من أخشاب أخرى بالطبع، وتسعفها دراستها الجامعية في الابتكار والتنسيق مع المشرفين التربويين والطبيين والنفسانيين لتعميم وتنفيذ التقنيات التعليمية والتربوية.

يمكن إنجاز الكثير في التقنية لو استعيرت، مثل هذه التجارب وجرى تعميمها بحيث تستطيع الصناعات الوطنية أن تحقق قدراً من الجهود يمكنها من منافسة غيرها والتفوق عليها، أو توظيف الموارد والفرص المتاحة لإنتاج بدائل معقولة عن السلع والاحتياجات التي تستورد.

الواقع العربي والإسلامي في مجال إنتاج الدواء والغذاء مرعب وينذر بخطر كبير، والحل عملي وممكن لإنتاج معظم هذه الاحتياجات.. وليس المطلوب البدء بالأعمال التي تتطلب مستوى متقدماً في التقنية أو مهارات معقدة، ولكن المهارات المتاحة يمكن أن تنتج الكثير مما نستورده.

لقد تضاعفت الجامعات العربية على نحو سريع، بعدما كانت في أوائل التسعينيات أقل من مائة، ويوجد حتى عام ١٩٩٤م حوالى ٣٤٦ معهداً تقنياً، ولا بد أنها اليوم تزيد على الخمسمائة معهد، وهي مؤسسات يمكن أن تفعل الكثير، وبخاصة أن التعليم انتشر كثيراً وأصبح ثمة قاعدة أساسية للبناء التقني، ولكن الباحث العربي لا يزال ينتج أقل من ١٠٪ من نظيره في بلدان أخرى، وهذا أمر محير يجب ألا يرتبط تفسيره فقط بضعف الإمكانات والمؤسسات.. وقد تراجع الإنفاق على البحث العلمي خلال عشر سنوات من ٠,٣١٪ من مجموع الدخل القومي إلى ٠,٢٧٪، في الوقت الذي ارتفع هذا المعدل في الدول النامية من ٠,٣٢٪ إلى ٠,٤٥٪، علماً بأن إسرائيل تنفق أكثر من ٣٪ من مجموع دخلها القومي على البحث القومي.

ليس المطلوب تدفق الاستثمارات الكبيرة وبناء المصانع في الوطن العربي، ولكن

الأفضل بناء مشروعات صغيرة ومتوسطة بتكلفة معقولة، توظف الخبرات والمهارات التي تحققت في المعاهد أو في المؤسسات القائمة أو تناقلتها العائلات.. وليس المطلوب من الحكومات أن تمول هذه المشروعات ولكن مساعدتها بالحصول على التدريب واعتراف مؤسسات المواصفات والمقاييس، والبحث عن المصادر المحلية في التصنيع وتحسين قدرات الصيانة.

لقد أثبتت المشروعات المبنية على آمال كبيرة فشلها، لأنها أرادت الوصول قسراً إلى حالة تقنية متقدمة.. وفي الوقت نفسه فإن تشجيع حراك المجتمع أو تركه يفعل ويتقدم نحو مصالحه في حالة وسط أو مواءمة بين التدخل الحكومي والخصخصة، بحيث يتعاون القطاع الخاص ورأس المال الأهلي مع العمل العام والتعاوني والتسهيلات الإدارية والقانونية، ستؤدي مع الزمن إلى تقليص الفجوة التقنية وتحقيق بنى وقواعد أساسية تمكن المجتمعات والدول من استيعاب مشروعات أخرى أكثر تطوراً وتعقيداً.

الأمة المسلمة تمتلك اليوم الكثير لو أنها فقط تعرف ماذا تملك، وماذا تريد، وماذا يجب أن تحقق، وما يمكنها أن تحقق، وتميز ما بين ما يمكن تحقيقه وما لا يمكن، وترتيب هذه الإمكانات في متوالية بسيطة يتحرك بها المجتمع والمؤسسات والشركات.

■ الإعلام أداة نهضة وتقدم:

يبدو من نافلة القول الحديث عن أهمية الإعلام، وقد تقدمت وسائل الإعلام ومؤسساته وبخاصة في مجال الإعلام الفضائي وشبكات الإنترنت، حيث أمكن تغطية الكرة الأرضية بالرسائل الإعلامية وإيصالها إلى أي شخص في أي مكان بالصوت والصورة، وإمكانية التحاور وتبادل الرأي والحصول على معظم المعلومات على قدم المساواة «تقريباً» بين جميع الناس.

وتحتاج الأمة المسلمة اليوم إلى منظومة عمل إعلامي تفعّل هذه المؤسسات

وتجعلها في سياق النهضة والإصلاح وليست أداة هدم وإفساد، والعمل على ربط العمل الإعلامي بالدعوة الإسلامية ليكون صاحب رسالة مبنية على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والتأثير في الناس على نحو يفعّل الموارد والإمكانات المتاحة ويحشد كل الطاقات للبناء والتنمية.

وحتى يكون الإعلام في موضعه الصحيح في شبكة النهضة والإصلاح، فإنه مطلوب منه:

١- الشمول:

شمول في الرسائل والوسائل، وشمول في المستقبلين، فالعمل الإعلامي منظومة متكاملة تستوفي صيغًا وشرائح ووسائل كثيرة..

وشمول في المعالجة والاهتمام والتغطية: اقتصاد، سياسة، ثقافة، تنمية، سكان..

٢- النسبية:

أ- نسبية الخطأ والصواب، وذلك يعني أن ثمة ما هو أكثر صوابًا وخطأ وكمالاً، وجواز تعدد الصواب، واختلاف مراتب الخطأ، ويقتضي ذلك بالضرورة إفساح المجال للآراء ووجهات النظر المختلفة مهما تباينت..

ب- نسبية الأداء والإنجاز والكمال، ويقتضي ذلك بالضرورة البحث المستمر عن الأكثر صوابًا وكمالاً، والسعي الدائم للاقتراب من الصواب والأفضل، باعتباره هدفًا مثاليًا يصعب، بل يستحيل الوصول إليه، لكنه يظل هاجسًا يدفع إلى التطوير والحوار والمراجعة.

٣- التراكم والاستيعاب والإبداع:

الإحاطة ببرامج وأعمال إعلامية أخرى وسابقة ورصدها ومتابعتها، وإخراج عملنا

الإعلامي وفق ما يطور المشروع الإعلامي كله، ويسد النقص ويحقق الاحتياجات ويميزه عن غيره.

٤- **التكامل والتنسيق:**

تحديد إنجازات المؤسسات الأخرى ودورها ومهماتها، ووضع العمل الإعلامي في سياق العمل العام وفي مواقع تمنع التكرار والازدواجية، أو حدوث فراغ أو تقصير.

٥- **التخصص:**

أ- السعي في استيفاء التخصصات والاحتياجات.

ب- توزيع الأدوار والأعباء وفق الاستعدادات والتخصصات.

٦- **اعتبار التغير المستمر في المعلومات** والأحداث والتقنيات، ويقتضي ذلك بالضرورة الإحاطة الدقيقة والشاملة بمجالاته ومهنه، والتعليم المستمر وإعادة التأهيل وفق المتغيرات المستمرة.

٧- **التفكير المستقبلي الدائم في الأحداث** التي تشمل السياسة والتقنية والحضارة والمجتمعات، وحالة التطور المستمر المذهل في مدخلات حياة الناس واقتصادهم وتعليمهم، أو ما يطلق عليه «عصر المعلومات» أو «حضارة المعلومات».

٨- **الاهتمام بـ (الآخر)**، فكرًا ومؤسسات وبرامج ومواقف، واستحداث التعامل المستمر معه ترجمة أو تنسيقًا أو استيعابًا أو مواجهة.

٩- **المرحلية:**

أ- تحديد المراحل وفهمها واستيعاب علاقاتها المتدرجة والمتداخلة.

ب- التعامل مع المرحلة بما يلائمها، وتحديد أولوياتها واحتياجاتها.

١٠- **الموازنة:**

أ- بين الطموح والممكن.

ب- ما يجب تغييره أو تحقيقه، وما يمكن تغييره أو تحقيقه.

١١- **السعي في اكتساب أصدقاء ومؤيدين**، أو تحييد الناس وتجنب استعدائهم على أقل تقدير، بما في ذلك الغرب، رسمياً وشعبياً.

١٢- **المعالجة التفصيلية للقضايا** والموضوعات والابتعاد عن التعميم، أو التأييد أو المعارضة المطلقة.

١٣- **تجنب الاتهام والشتم** والتعرض بالتجريح للحكومات أو المؤسسات أو الأشخاص، ولا يمنع ذلك من الانتقاد والمعارضة في إطار التحليل والدراسة.

١٤- **الاعتماد قدر الإمكان على حشد الأدلة** والمعلومات والبيانات من جميع المصادر، المحايدة منها خاصة.

١٥- ثمة موضوعات وقضايا تزداد أهميتها لدرجة أنها أصبحت موضع اهتمام العالم كله، وقد تحكم في المستقبل العلاقات الدولية وربما الحروب، كقضايا البيئة، والسكان، والتوطين، والثقافات، والتنمية البشرية، ولنلاحظ مثلاً مؤتمرات القمة العالمية: «ريو (٩٢) قمة الأرض، القاهرة (٩٤) السكان والتنمية، كوبنهاجن (٩٥) التنمية الاجتماعية، اسطنبول (٩٦) التوطين والإسكان».

■ الدعوة الإسلامية في عصر المعلومات:

تتشكل اليوم قناعة لدى القادة والمفكرين وكثير من الناس أن العالم على أعتاب مرحلة جديدة سببها تقنية «المعلومات والاتصالات»، تتغير فيها جذرياً موازين القوى والاقتصاد والتجارة ومنظومة الحياة والقيم.

وقد لقيت الدراسات التي تبشر بهذا التحول إقبالاً واهتمامًا كبيرًا، وكان أشهرها «الموجة الثالثة» لألفن توفلر، إذ بيع من الطبعة الأولى من الكتاب عشرة ملايين نسخة.. ويعتقد (توفلر) أن البشرية تدخل المرحلة الثالثة أو الموجة الثالثة في مسارها بعد موجتي الزراعة والصناعة، وهي مرحلة تنطوي على أنماط جديدة من الحياة والمجتمعات تختلف جذريًا عما سبقها.

وأصدر عالم الاجتماع الياباني «يونيجي موسودا» كتابًا بعنوان: «مجتمع المعلومات القادم» يتنبأ بمجتمع ياباني جديد في أشكاله وتنظيماته ومؤسساته وأدوار أفراده وحكامه ونسق القيم والمعايير التي تولد الغايات وتحكم العلاقات بين الأفراد والمجتمع والمؤسسات.

وأصدر المجلس الوطني للثقافة والآداب في الكويت كتاب «العرب وعصر المعلومات» للدكتور نبيل علي الذي يعتقد أن الأمة وضعها عصر المعلومات الجديد أمام مخاطر التبخر والانقراض أو تحدي التقدم والنهوض.

ومن أكثر قادة «إسرائيل» اقتناعًا بطبيعة المرحلة الجديدة هو شمعون بيريز الذي أصدر مجموعة دراسات منها «مرحلة جديدة لا مكان فيها للمتخلفين ولا عذر للجهلة»، و«مارشال الشرق الأوسط»، و«إسرائيل على عتبة القرن الحادي والعشرين»، إضافة إلى كتابه المشهور «الشرق الأوسط الجديد»، ويقترح فيها بيريز تصورًا جديدًا للحياة والعلاقات في الشرق الأوسط مبنية على تغيرات مهمة.

وقد سئل بيريز إثر إعلان واشنطن «الاتفاق الأردني -الاسرائيلي»: هل تخلت إسرائيل عن مشروع «إسرائيل الكبرى»؟ فقال: إسرائيل الكبرى تقنيًا واقتصاديًا وليس جغرافيًا.

لقد بدأ الفعل الحضاري للإنسان عندما تحول من الصيد والرعي إلى الزراعة، فقد

رافق ذلك الاستقرار وبناء القرى والحواضر ونشوء الحضارات والتشريعات والفكر والفلسفة، وكان محور القوة الإنسان بعقله وحكمته وشجاعته وقوته الجسدية، واستقرت البشرية على ذلك أكثر من سبعة آلاف سنة حتى اكتشفت الآلة البخارية والطباعة ثم الثورة الصناعية في القرن السابع عشر، فتغيرت الحضارة والحياة والاقتصاد إذ أصبحت الآلة مدخل التفوق العسكري والإنتاج.

ومنذ ظهور أول كمبيوتر عام ١٩٤٨م حتى نهاية الثمانينيات -أي خلال أربعين سنة فقط- حدثت نقلات وثورات في التقنية، وانتقلت الصناعة والتجارة إلى آفاق جديدة، حتى أن الناتج العلمي لصناعة المعلومات «الكمبيوتر والاتصالات والإعلام» يقترب من ألف مليار لتكون أول صناعة في التاريخ تحقق «التريليون».

وانتشرت تطبيقات صناعة المعلومات في كل اتجاه ومجال، للحياة في المصانع والحقول والمنازل ومكاتب الإدارة وسفن الفضاء وفصول الدراسة وغرف العمليات، وبمستويات من التطبيق تراوح بين المهارات الدنيا وتصل إلى أدقها وأعلاها، كالترجمة ومعالجة المعلومات وتشخيص الأمراض وقراءة الخرائط والتدريب، والتعليم الذاتي، والتسلية...

إن هذه التطبيقات الجديدة في التقنية ستنتقل بحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والعلمية إلى آفاق جديدة، وستطرأ عليها تغييرات جوهرية فينقرض جزء منها وتزداد أهمية أجزاء أخرى، وتتغير صيغ الإدارة والعلاقات والقيم والهياكل والبنى التنظيمية والاجتماعية والتشريعات والأنظمة.

فالعمل تغيرت طبيعته وأهميته، فكان توزيعه مثلاً في أمريكا حتى أوائل القرن العشرين كما يلي: معلومات ٨٪، صناعة ١٦٪، زراعة ٤٢٪، وصارت نسبة العمالة في مجال الصناعة في الأربعينيات ٤٠٪، «لاحظ انتقال الأهمية من الزراعة إلى

الصناعة».. وفي ١٩٨٠ كان توزيع العمالة: معلومات ٤٥٪، صناعة ٢٠٪، زراعة ٤٪، «انتقلت الأهمية من الصناعة إلى المعلومات».

ويقصد بالعمالة في مجال المعلومات: أعمال الكمبيوتر والاتصالات والنشر والإعلام والتخطيط ونمط المعلومات والتأليف.

وهو توزيع سيؤثر بالطبع على اتجاهات التعليم والتدريب لتلائم تحولات العمل واحتياجاته، فمثلاً لم يعد بإمكان ٣٠٪ من المدراء في أوروبا وأمريكا إحراز ترقيات بسبب عجزهم عن استخدام الكمبيوتر.

وأتاحت تقنية المعلومات تدفقًا هائلاً في المعلومات «انفجار المعلومات»، وإمكانية تحصيلها، حتى أنه ينشر في العام الواحد أكثر من مائة مليون صفحة، وهو تدفق يشكل تراكمًا في العلم والمعرفة واستدراكًا حتى أن عالمًا مثل «أميليو سيريجر» الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء يقول: «أجد من المستحيل عليَّ مراجعة كل ما يكتب عن الميزونات- أحد مكونات الذرة».

وهو تدفق يغير العلوم والمعارف والمعلومات بسرعة تجعل نصف ما تعلمه المهندس عفى عليه الزمن خلال خمس سنوات، وتجعل التعليم المستمر وإعادة التأهيل جزءًا مستمرًا وضروريًا من برامج المؤسسات والأفراد.

وبانتشار المعلومات وسهولة الحصول عليها «الأقمار الصناعية، شبكات الاتصال» تصعب وقد تستحيل أعمال الرقابة وضبط المعلومات وتبادلها، وربما يفسر هذا التحولات نحو الديمقراطية والانفتاح في الاتحاد السوفياتي «سابقًا» وأوروبا الشرقية.

لقد أصبحت المعلومات مصدر القوة الأساسية، وستكون معيارًا اجتماعيًا ووسيلة ارتقاء وموردًا اقتصاديًا، وتتأكد من ثم قيمة احترام الملكية الفكرية، والحرص على البيانات والأمانة العلمية.

وأدى تحول التقنية من محاكاة الجسد والعضلة إلى محاكاة الذهن والعقل إلى تغيير في ترتيب أهمية العلوم، فكان تطوير الصناعة يعتمد على الفيزياء والرياضيات وتطبيقاتها الهندسية، ولكن تقنية المعلومات زادت أهمية الإحصاء والاحتمالات وعلم الحياة وعلم النفس واللغة والاجتماع لإعادة وتطوير فهم الإنسان والعقل.. فبرامج الذكاء الاصطناعي تعتمد على مقدرة الإنسان على ضبط هذه العلوم وتحويلها إلى قواعد ومناهج وقوانين كالفيزياء والرياضيات، وقد بدأ هذا يتحقق بالفعل وبخاصة في مجال اللغويات.

وبما أن الإنسان يتعلم كل لحظة ويزداد علمه ويعيد النظر باستمرار فيما تعلم، فسيتجه العلم باتجاه التعلم الذاتي والنسبية دون التفات إلى الحقائق المطلقة، وتتحول خصائص الحياة والعمل والعمران من الديمومة والثبات إلى التغير والزوال والجدة.

ولا يمكن الفراغ من رصد متوالية التغيير ومسارات الحضارة والمجتمعات، ولكن الغرض تأكيد وجاهة السؤال الذي يقتضيه العنوان: إلى أين يتجه العمل الإسلامي؟

لقد أصبحت مداخل التأثير والتوجيه متنوعة ومعقدة، منها الصحف المتطورة والقنوات الفضائية وشبكات المعلومات.. وسيؤدي الغياب عنها إلى شلل وتراجع وانحسار.

وازدياد أهمية المعلومات وقيمتها يعني أن تكون قواعد البيانات ومراكز البحوث والدراسات محوراً أساسياً في العمل، لأجل الإحاطة بمدخلات العمل والتخطيط والقرار الصائب الراشد.

ويكون التدريب وإعادة التأهيل لعناصر العمل وفق هذه الاحتياجات جزءاً رئيساً من برامج العمل ومواضع الإنفاق والموازنات.

مؤشرات التنمية البشرية في العالم الإسلامي بالمقارنة مع غيره (١٩٩٩م)*

الإقليم / المؤشر	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
قيمة دليل التنمية البشرية	٠,٣٨٦	٠,٦٣٦	٠,٤٦٢	٠,٦٨٣	٠,٥٨٦	٠,٩١١	٠,٧٧٢
معدل الأمية بين البالغين (٪)	٤٢	٤٢,٨	٤٩,٥	١٣,٢	٢٩,٦	١,٤	٢٢,٤
سكان لا يحصلون على مياه مأمونة (٪)	٤٨	٢١	١٨	٣٥	٢٩	---	---
سكان لا يحصلون على خدمة صحية (٪)	٤٨	١٣	٢٢	١٥	٢٠	---	---
سكان لا يحصلون على صرف صحي(٪)	٥٥	٣٠	٦٤	٤٥	٥٨	---	---
أطفال دون سن الخامسة يعانون من نقص الوزن (٪)	٣٠	١٧	٥٠	٣٤	٣٠	---	٣٠
أطفال لا يصلون إلى الصف الخامس (٪)	٣٢	٧	٣٥	١٧	٢٢	١	٢١
العمر المتوقع بالسنوات ١٩٦٠	٣٩,٣	٤٥,٥	٤٣,٩	٤٥,٣	٤٦	٦٨,٦	٥٠,٢
١٩٩٥	٥٠,٦	٦٣,٥	٦١,٨	٦٤,٧	٦٢,٢	٧٤,٢	٦٣,٦

(*) البيانات الواردة في الجدول مستمدة من تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية (١٩٩٩م).

الإقليم / المؤشر	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
معدل وفيات الرضع لكل (١٠٠٠) مولود حي							
١٩٦٠	١٦٦	١٦٦	١٦٣	١٢٧	١٤٩	٣٩	١٢٩
١٩٩٦	١٠٤	٥٥	٧٤	٤٨	٦٥	١٣	٦٠
أطفال يعانون من نقص الوزن دون سن الخامسة (٪)							
١٩٧٥	٣١	٢٠	٦٨	٤٦	٤٠	---	---
١٩٩٠-١٩٩٧	٣٠	١٧	٥٠	٣٤	٣٠	---	٣٠
معدل معرفة القراءة والكتابة بين البالغين (٪)							
١٩٧٠	٣١	٣١	٣٢	٦٦	٤٨	---	---
١٩٩٥	٥٧	٥٦	٥١	٨٧	٧٠	٩٩	٧٨
نصيب الفرد من الناتج المحلي الحقيقي بالدولار							
١٩٦٠	٩٩٦	--	٦٩٨	٧٣٢	٩١٥	--	--
١٩٩٥	١٤٠٧	--	١٧٢٤	٣٨٥٢	٣٠٦٨	١٦٣٣٧	٥٩٩٠
الأطفال البالغون من العمر سنة ومحصنون							
ضد السل (٪)	٧٠	٩١	٩٤	٩٤	٨٩	٩٢	٨٩
ضد الحصبة (٪)	٥٦	٨٣	٧٩	٨٦	٧٩	٨٦	٧٩

الإقليم / المؤشر	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
حالات الإيدز لكل (١٠٠٠٠٠) فرد	١١,٢	٠,٤	٠,١	٤	٣,٥	٥	٣,٩
حالات السل لكل (١٠٠٠٠٠) فرد	٨٤,٢	٦٠,٥	١٠١,٦	٨٧,٤	٦٨,٦	٢٧,٦	٥
حالات الملاريا لكل (١٠٠٠٠٠) فرد	---	١٢٥	٢٢٦	١,٠٠٨	٩٥٤	---	---
استهلاك السجائر لكل بالغ (١٩٧٠-١٩٧٢)	١٢١	١٥٩	١٣٤	١٤٧	١٦٠	٩٠	١١٥
عدد الأطباء لكل (١٠٠٠٠٠) فرد	١٦	١٠٧	٤٤	١٩	٧٦	٢٨٧	١٢٢
عدد الممرضات لكل (١٠٠٠٠٠) فرد	٧٨	١٨٠	٢٤	٧٥	٨٥	٧٨٠	٢٤١
المعوقون (٪)	---	٢	٠,٨	١,٧	٢,٦	---	---
الإنفاق العام على الصحة (كنسبة مئوية) ١٩٦٠	٠,٧	١	٠,٥	٠,٥	١	---	---
١٩٩٠	٢,٤	٢,٩	٢,٩	١	٢	---	---
نصيب الفرد يومياً من إمدادات السعرات الحرارية							
١٩٧٠	٢٢٢٥	٢٢٠٦	٢٠٩٤	١٩٥٧	٢١٣١	٣٠١٦	٢٣٣٧
١٩٩٥	٢٢٣٧	٢٩٠٣	٢٣٨٥	٢٥٣٣	٢٥٧٢	٣١٥٧	٢٧٠٢

المؤشر / الإقليم	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
الرقم القياسي لنصيب الفرد من إنتاج الأغذية (١٩٨٠=١٠٠)	٩٩	١٠٦	١٢٢	١٢٧	١٣٩	١٠٣	١٣٢
الإنفاق العام على التعليم							
١٩٨٥	٥,٢	٥,٧	٣,٣	---	٤,١	٥,١	٤,٩
١٩٩٥	٦,٣	٥,١	٣,٦	---	٣,٨	٥,٢	٤,٩
القوى العاملة (كنسبة مئوية من مجموع السكان)	٤٤	٣٤	٤٢	٤٨	٤٨	٤٩	٤٨
القوى العاملة في الزراعة							
١٩٧٠	٧٨	٦١	٧٣	٧٠	٧٢	١٨	٥٦
١٩٩٠	٦٧	٣٩	٦٢	٥٩	٦١	١٠	٤٩
القوى العاملة في الصناعة							
١٩٧٠	٨	١٤	١٢	٩	١٢	٣٨	١٩
١٩٩٠	٩	٢٢	١٦	١٤	١٦	٣٣	٢٠
القوى العاملة في الخدمات							
١٩٧٠	١٤	٢٥	١٥	٢١	١٧	٤٥	٢٥
١٩٩٠	٢٥	٣٩	٢١	٢٧	٢٣	٥٧	٣١
أجهزة الراديو لكل (١٠٠٠) شخص	١٦٦	٢٦٤	٨٨	١٥٦	١٨٥	١٠٠٥	٣٦٤
أجهزة التلفزيون /(١٠٠٠)	٣٥	١٣٨	٥٥	١٥٠	١٤٥	٥٢٤	٢٢٨

الإقليم / المؤشر	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
كمية ورق الطباعة والكتابة المستهلكة بالطن /(١٠٠٠)	١٫٦	٢٫٩	١٫٩	٦٫٨	٥٫٢	٧٨٫٢	٢٠٫٩
خطوط الهاتف الرئيسية لكل (١٠٠٠)	١٢	٤٩	١٦	٢٩	٣٩	٤١٤	١٢٢
خطوط الهاتف العمومية لكل (١٠٠٠)	٠٫٢	٠٫٤	٠٫٢	٠٫٦	٠٫٧	٣٫٧	١٫٤
عدد الحواسيب الشخصية لكل (١٠٠٠) شخص	ــــ	٥٫٧	١٫٢	٨٫٣	٦٫٥	١٥٦٫٣	٤٣٫٦
الدين الخارجي: ببلايين الدولارات	٢٢٤	١٥٨	١٧٣	٢٧٨	١٥٨٣	ــــ	ــــ
نسبة الصادرات إلى الواردات	٦٠	٩٦	٧٣	٩٦	٩١	١٠٢	ــــ
سكان الحضر:							
١٩٧٠	١٩	٣٩	٢٠	٢٠	٢٥	٦٧	٣٧
١٩٩٥	٣٢	٥٤	٢٨	٣٣	٣٧	٧٤	٤٥
٢٠١٥	٤٤	٦٦	٣٨	٤٦	٤٩	٧٩	٥٥
سكان المدن التي يتجاوز عدد سكان كل منها ٧٥٠٠٠٠ نسمة: كنسبة مئوية من السكان	١٢	٢٢	١٢	١٠	١٦	٣٠	١٩
كنسبة مئوية من سكان الحضر	٣٨	٤٠	٤٣	٣١	٤١	٤٠	٤١

المؤشر / الإقليم	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
عدد السكان التقديري:							
١٩٧٠	٢٦٨,٢	١١٩,٩	٧٤٠,٧	٢٨٩,٤	٢٦١٦,١	١٠٤٣,٥	٣٦٥٩,٦
١٩٩٥	٥٤٣,٤	٢٤١,٦	١٢٩٣,٣	٤٨٦,٩	٤٣٩٤	١٢٣٣,١	٥٦٢٧,١
٢٠١٥	٩١٩,٧	٣٧١,٨	١٧٦٨	٦٣٦,٤	٥٨٩٢,٢	١٢٩٤,٧	٧١٨٦,٩
معدل نمو السكان:							
١٩٧٠–١٩٩٥	٢,٩	٢,٨	٢,٣	٢,١	٢,١	٠,٧	١,٧
١٩٩٥–٢٠١٥	٢,٧	٢,٢	١,٦	١,٤	١,٥	٠,٢	١,٢
تاريخ تضاعف السكان	٢٠٢٠	٢٠٢٣	٢٠٣٤	٢٠٣٨	٢٠٣٧	٢٢٢٣	٢٠٤٦
معدل المواليد الأولي	٤٣,١	٣١,٩	٢٨,٢	٢٥,٠٤	٢٦,١	١٢,٦	٢٣,٢
معدل الوفيات الأولي	١٤,٩	٧,٧	٩,٢	٧,٧	٨,٧	١٠,١	٩
نسبة الإعالة	٩٣,٢	٧٧,٢	٧٠,٢	٦٣,٤	٦٣,٩	٥٠,٥	٦٠,٨
معدل الخصوبة الإجمالي	٦	٤,٤	٣,٥	٣	٣,٢	١,٧	٢,٩
المعدل السنوي ننمو سكان الحضر: ١٩٧٠–١٩٩٥	٥	٤	٤	٤	٤	١	٣
١٩٩٥– ٢٠١٥	٤	٣	٣	٣	٣	١	٢
مساحة الأرض (بملايين الهكتارات)	٢٠٥٥	١١٨٦	٥٧٥	٤٣٦	٧٤٩٥	٥٣٥٤	١٢٨٤٩
الغابات وأراضي الغابات (كنسبة مئوية من مساحة الأرض)	٢٣	٤	١٤	٥٠	٢٦	٢٨	٢٧

الإقليم / المؤشر	أفريقيا جنوب الصحراء	الدول العربية	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	جميع البلدان النامية	البلدان الصناعية	العالم
نصيب الفرد من الموارد المائية الداخلية المتجددة (بالأمتار سنويًا)	٦٢٨٣	٥٤٦	٢٨٥٤	١١٨٩٥	٥٩٧٥	١٠٨٠٤	٦٩١٨
المسحوبات السنوية من المياه العذبة (٪من الموارد المائية)	١,٥	١٤٠,٢	١٦,٤	٢	٦,٣	٩,٥	٧,٣
نصيب الفرد (بالأمتار المكعبة)	١٣٢	٩٢٦	٦٥٨	٣١٥	٤٩٦	١٠٦٩	٦٢٦
الزراعة: (كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي)	١٨	---	٢٩	١٤	١٤	٣	٥
الصناعة: (كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي)	٣١	---	٢٧	٣٩	٣٦	٣١	٣٣
الخدمات: (كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي)	٥٢	---	٤٣	٤٧	٤٩	٦٦	٦٣
الناتج القومي الإجمالي (ببلايين الدولارات)	٢٧٦	٤٠١	٤٢٦	٦١٧	٤٧٤٥	٢٢٣٣٢	٢٧٠٧٧
متوسط معدل التضخم السنوي ١٩٨٥-١٩٩٥	٢٤,٣	---	٩,٦	١٧	١٢٧,٤	٩,٥	٢٨,٦
١٩٩٥	٥٢,٨	---	١٧,٣	٨,٥	٢٤,٢	٩,١	١٢,١
معدل نمو الصادرات كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي	٠,١	---	٣,٧	٢	٣,٢	٢,٣	٢,٥

هل يكفي التراث لأداء دور حضاري متميز؟

الدكتور برهان غليون*

إن صيانة الإرث والإبقاء عليه حياً، ليسا مضمونين من دون الارتقاء بالوعي والجهد والتنظيم إلى مستوى الحضارة الراهنة، أي من دون بذل جهد استثنائي لإعادة بناء هذا الإرث وتوظيفه وتثميره حتى يستعيد الحياة والحيوية في شروط وجود لم يعرفها من قبل.

هل يكفي التراث العظيم حتى تتأهل أمة لأداء دور متميز في الحضارة الكونية؟

تستدعي الإجابة على سؤال: ما هو الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد؟ معرفة ثلاثة أمور بدقة:

الأمر الأول هو: ما المقصود بالدور الحضاري؟

فهل المقصود بالدور الحضاري انتقال الأمة الإسلامية من موقع المستهلك والعالة على إبداعات الآخرين التقنية والعلمية والإنسانية، نحو موقع الفاعلية والمشاركة الإيجابية بقسط من النشاط المنتج لهذه القيم الحضارية المختلفة؟

أم المقصود مساهمة خاصة ومتميزة لا يمكن أن يقدمها طرف غير الأمة الإسلامية

* مدير مركز دراسات الشرق المعاصر في جامعة السوربون (باريس).

في الحضارة الإنسانية، نظراً لما تتمتع به من منظومات قيم أساسية هي عناصر القوة فيها، ومنها على سبيل المثال ما يذكره الكثير من المفكرين الإسلاميين، بعد المستشرقين الذين سبقوهم، عن السمة النوعية الروحية للثقافة الإسلامية بالمقارنة مع الثقافة الغربية العلمانية أو المادية؟

أم المقصود أخيراً نشوء دورة حضاريةإسلاميةعالمية تعقب الدورة الحضارية الغربية وتعكس هيمنة القيم والأفكار والاعتقادات ومناهج العمل والتفكير الإسلامية، وتسمح للمسلمين باستعادة القيادة والهيمنة الدولية على الساحة العالمية، كما تأمل العديد من الفرق الإسلامية؟

والثاني: ما المقصود بالأمة الإسلامية؟

هل يتعلق الأمر بالمساهمة التي يمكن أن يقدمها أي مجتمع إسلامي في الحضارة البشرية، باعتبار أن كل مجتمع إسلامي يختزن منظومة واحدة من القيم، ويمثل في نجاحه وفشله جميع المجتمعات الإسلامية الأخرى؟

أم يتعلق الأمر بمجموع الأمة الإسلامية، باعتبار أن اجتماع هذه الأمة هو شرط إيجاد الشروط الجيوستراتيجية والمادية والمعنوية الكفيلة بتغيير طبيعة المشاركة الإسلامية الراهنة التي تعكس انقسام العالم الإسلامي وتشرذمه؟ وفي هذه الحالة تطرح لا محالة مسألة فيما إذا كان من المشروع النظر إلى العالم الإسلامي كوحدة، أي كفاعل تاريخي ذي إرادة واحدة ووعي ومصير وأهداف مشتركة يسعى إلى تحقيقها، بصرف النظر عن اختلاف الدول والثقافات واللغات والمراسي الجيوسياسية التي تفصل بين دوله ومجتمعاته وتمزقها أحياناً. وهو ليس من الأمور البسيطة أو المتوقعة على الأقل لفترة طويلة قادمة.

والثالث هو: ما المقصود بالغد؟ أو عن أي غد نحن نتحدث بالضبط؟ هل نقصد

القرن الواحد والعشرين، آخره أو أوله؟ أم نقصد عالم الثورة المعلوماتية الجديد، الذي لا نعرف متى سينتهي بعد بدايته منذ منتصف هذا القرن؟ أم نقصد عالم ما بعد الثورة المعلوماتية، باعتبار أن هذه الثورة قد بدأت منذ بعض العقود ويمكن أن تنتهي في العقود القليلة المقبلة لتحل محلها ثورة أخرى قد ترتبط بقفزة استثنائية جديدة في ميادين الهندسة الحيوية، ولا نستطيع منذ الآن أن نقدر طبيعتها، ولا أن نتوقع نتائجها؟

ليس من الضروري الإجابة على جميع هذه الأسئلة بالتفصيل، لكن ذكرها يبين إلى حد يكتسي السؤال في الأمور التاريخية التي تربط مجموعة كبيرة من الأطراف فيما بينها وتتحدث عن أهداف ليست واضحة تمامًا لأنها تتعلق بالمستقبل، طابعًا تأمليًا وتخمينيًا من جميع الوجوه.

ولعل فهم طبيعة السؤال تكون أسهل لو عرفنا السبب في طرحه، وهو من دون شك الشعور المتزايد والمؤلم عند العرب وربما المسلمين، بموقع الهامشية والمساهمة الاستهلاكية والسلبية في الحضارة، وأملهم في أن يتغير ذلك في يوم من الأيام لتصبح الأمة العربية، مستندة على العالم الإسلامي الكبير، مساوية في شروط وجودها ومساهمتها للأمم الأخرى، ويصبح من الممكن للعرب أن يحظوا باحترامهم لأنفسهم في عالم بدأوا يفقدون فيه، بسبب ما بدر منهم من ضعف وانعدام سيطرة على المحيط الحديث، كل اعتبار.

وهكذا فإن السؤال عن الدور المستقبلي للأمة الإسلامية يعيدنا في الواقع من جديد للسؤال الكبير التاريخي، الذي لم يكف العرب عن طرحه منذ نهاية عصر النهضة وبداية هذا القرن العشرين، عندما بدأت النهضة تفقد ديناميتها وقوة دفعها: لماذا تأخر العرب وكيف يمكن النهوض بهم من جديد ليسايروا في معايير وجودهم

ومقدراتهم الشعوب والمجتمعات الأخرى؟ لكن السؤال مطروح بصيغة أخرى: هل سينجح العرب في تغيير شروط وجودهم الراهنة التي تؤكد دونيتهم، أم أنهم سيبقون في المستقبل القريب كما هم عليه الآن مهمشين ومستضعفين؟

والواقع أن هنالك مشكلة في طرح السؤال نفسه، لأنه يفترض أن العرب أو المسلمين شيء والعالم شيء آخر، ولا ينظر إلى الحضارة كمجموع تراكم منجزات ومكتسبات علمية واجتماعية وفكرية وأخلاقية ساهمت فيها العديد من الثقافات البشرية، وأن حصول الطفرة الصناعية أوالتقنية أو الرأسمالية في منطقة ما لا يعني بالضرورة إدانة المناطق الأخرى بالعزلة والهامشية. وإنما يطرح مسألة التفاوت في النمو بسبب امتلاك بعض المجتمعات لأسبقية في العديد من الميادين، في موضوع الإبداعية والإنتاجية معًا.. والقصد هو القول: إن العرب لم يتأخروا، ولكن الغرب، والأوروبي أولاً، هو الذي تقدم فجأة باكتشافه لأساليب إنتاج جديدة ومناهج تفكير وتنظيم علمي للمعارف مبتكرة.

وإذا كان الحال هو هذا، يصبح السؤال الصحيح هو التالي: لماذا لم ينجح العرب في تمثل الطفرات العلمية والتقنية والاجتماعية الجديدة في القرن الماضي، حتى يستدركوا الفجوة التي أحدثتها الثورات الفكرية والسياسية والعلمية والصناعية والتقنية؟ وتكملته بالسؤال التالي: ما هي العوامل التي أعاقت هذا التمثل الذي بدأت محاولاته منذ أكثر من قرن ونصف؟ وعندئذ يمكن الخروج من إطار التفكير العمومي الذي طبع إجابات العرب والمسلمين على هذا السؤال من نوع: هل الإسلام هو المسؤول لمجافاته العلم والإبداع والابتكار، كما يدعي البعض؟ أم هو ترك المسلمين للإسلام وتحريفهم له وتشويههم لصورته، كما أجابت الإصلاحية الإسلامية؟ أم هو الاستعمار والإمبريالية، كما سيجيب القوميون والماركسيون؟ أم هو بالعكس رفض

التعلم من الغرب وتقليده والاقتداء به، وفي مقدمة ذلك رفض نظمه الديموقراطية وقيمه المادية والعقلانية والتمسك بالتقاليد الشرقية الدينية والطوباوية والأبوية، كما تقول النظريات السائدة اليوم في أوساط أغلب الباحثين في العلوم الاجتماعية، من عرب وغربيين؟

وانطلاقًا من ترك هذا السؤال وجوابه الأيديولوجي العام، يمكن الدخول في البحث العلمي والتفكير الاختياري المرتكز على فهم تجربة التحديث العربية والإسلامية منذ القرن الماضي، ومقارنة هذه التجربة مع تجارب المجتمعات الأخرى التي نجحت في التغلب على الفجوة الحضارية التي خلفتها الثورة التقنية السياسية والعلمية بين المجتمعات والشعوب، بل يمكن وينبغي مقارنة تجارب المجتمعات الإسلامية نفسها فيما بينها، ورؤية المشاكل الخاصة المطروحة أو التي طرحت على كل منها، فليست جميع الشعوب الإسلامية في موقع واحد من الحداثة، ولا تعاني جميعها من المشاكل ذاتها، وليست الفجوة على درجة واحدة من الاتساع عند جميعها بينها وبين المجتمعات السائدة.

وهذه المقاربة العلمية، أعني المرتبطة بفحص الواقع وتحليل التجربة العلمية كما حدثت بالضبط، وتمييز عناصر الفاعلية وعناصر الإحباط فيها، هي التي ستساعدنا على الحصول على حل المسألة الحقيقية التي تكمن وراء السؤال عن تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، أعني مسألة تقدم العالم الإسلامي وسيطرته على ذاته وعلى محيطه، وتحوله من موقع العالم المهمش أو الفاقد للسيطرة والسيادة إلى عالم مشارك في الحضارة على قدم المساواة مع غيره من المناطق الحضارية، ومبدع بالقدر نفسه للأفكار والقيم والتقنيات الجديدة.

والقصد أن البحث في التاريخ والمستقبل منه بشكل خاص، لا يعتمد ولا ينبغي

أن يعتمد على التخمين أو الضرب بالرمل والودع.. إنه يقوم على استقراء الوقائع المادية والسياسية والاجتماعية والأدبية والنفسية، ليستمد منها مؤشرات التغير أو اتجاهاته العميقة. فما هي حقيقة الوقائع التي تفسر إجهاض تجربة الحداثة أو التحديث العربية، ليس بمعنى زوال أي بنيات حديثة من المجتمعات، ولكن بمعنى وصولها إلى مأزق لا تعرف كيف تتقدم بعده، ونزوعها نتيجة ذلك إلى التراجع والتقهقر والتشكيك بالذات، وبالتالي بقائها في حالة قاسية ومعذبة من عدم الاكتمال، كالحبل المقطوع؟

وما هي عناصر الانسداد والتيبس والاختناق في هذه التجربة الحداثية والتحديثية؟ وهل لا يزال هناك في الواقع العربي والإسلامي الراهن، أو لا يزال من الممكن لنا أن نعين ديناميات قوية دافعة في اتجاه التغيير وتجاوز الصعوبات واستدراك الفجوة على مدى عقد أو عقدين أو ثلاثة، وهو في نظري كل ما نستطيع أن نقبله على سبيل التوقع المستقبلي؟

أو بالأحرى: هل نستطيع أن نقول: إننا وضعنا إصبعنا على عناصر الانسداد في نظمنا الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية، وبدأنا رحلة الخروج من المأزق الذي وصلت إليه تجربتنا في استيعاب مكتسبات الحداثة، وأن بإمكاننا منذ الآن أن نشير من دون صعوبة كبيرة إلى ديناميات جديدة، لم تكن من قبل، ذات طبيعة اقتصادية مثل بناء سوق إقليمية واسعة، أو اكتشاف ثروات كبيرة جديدة، أوفتوح تقنية تكنولوجية؛ أو ذات طبيعة سياسية مثل إنشاء تكتلات أو وحدات سياسية أو عسكرية، أو تطورات في النظم السياسية تضاعف من مبادرة الأفراد والجماعات وتضمن الاستقرار والفاعلية في الوقت نفسه؛ أو طفرات علمية مثل تكوين نظم تعليمية وتربوية قادرة على بناء مهارات مبدعة تنجح في التنافس مع النظم التعليمية

والتربوية الأخرى؛ أو طفرات ذات طبيعة أخلاقية ونفسية تظهر نشوء أوتبلور منظومات قيم تعمق الشعور بالمسؤولية وتعزز قيم الأخوة والتضامن والتفاهم واحترام القانون والحق والواجب بين أبناء البلاد والمجتمعات العربية، أقول هل هناك ديناميات من هذا النوع تسمح لنا بتوقع حصول تغيير كبير وحاسم مؤثر على خط سير التاريخ العربي الراهن عبر التراكم الذي يمكن أن يحصل في الصعيد المعني وما يجره من تغييرات ضرورية على الأصعدة الأخرى؟

هل نستطيع أن نقول مثلاً: إن إدراكًا قويًا قد بدأ يسري في أوساط النخب العربية بطبيعة الأسباب التي أدت إلى تعثر العالم العربي وعدم قدرته على مجاراة المجتمعات الأخرى والرد بنجاح على تحديات الثورة الصناعية والعلمية؟ وهل هناك إدراك أفضل اليوم لدى الأوساط نفسها لضرورة الشروع بإصلاحات جذرية وسريعة وشاملة تزيل العقبات التي منعت تقدم العالم العربي وتحديثه بالعمق، وأن من الممكن منذ الآن حساب الزمن المتبقي للخروج من وضعية العجز والهامشية؟ وأن بإمكاننا أن نراهن، مع حظ كبير بعدم الخطأ، على نهضة سياسية أو فكرية أوأخلاقية أواقتصادية تفجر طاقات جديدة في المجتمعات العربية وعند الأفراد لم تكن موجودة من قبل؟

ترمي هذه التساؤلات جميعًا إلى التنبيه إلى أن مستقبل أي مجتمع ودوره التاريخي لا يتحدد فجأة ومن دون إشارة سابقة، ولكنه نتيجة تراكم وتطور بطيئين يمكن ملاحظة آثارهما على مدى فترة طويلة.. فلا تحصل الطفرة التقنية أوالعلمية أو الاقتصادية أو العسكرية من دون سابق إنذار ولا تأهيل ولا تكوين، إنها لا بد أن تكون مسبوقة بديناميات نمو وتغيير وتجديد لا يمكن لإشارتها أن تغيب عن العين الفاحصة. وهذا هو الذي يجعل معرفة المستقبل ممكنة. فهي تستند إلى تحليل المعطيات القائمة أو التدقيق في اتجاهات تطورها الممكنة والمحتملة.. ولا يعني هذا

بالتأكيد أن التوقعات المسنودة إلى معطيات يمكن كشفها بالملاحظة التجريبية لا تخطئ.. فيمكن تمامًا أن تحصل كارثة أو طفرة سلبية تقطع الطريق على الاتجاهات القوية الكبيرة أو تحبط بعض الديناميات الفاعلة، فلا تتحقق هذه التوقعات، لكن منطق التوقع القائم على فحص المعطيات التجريبية يبقى المدخل الوحيد لمعرفة المستقبل بمنهج العقل، ومن غير ذلك ليس هناك وسيلة أخرى ممكنة لمعرفة المستقبل سوى الاتصال بعالم الغيب عن طريق النبوة أو الاعتماد على التنجيم وطرق الشعوذة والسحر التي لا تقدم شيئًا.

فهل يبرز الواقع العربي الراهن بعض هذه الديناميات التراكمية، المادية أو التقنية أو المعرفية أوالأخلاقية؟ هل نستطيع أن نتحدث بثقة عن تراكم تكنولوجي حقيقي يمكن المراهنة عليه لتجاوز دينامية التبعية الكاملة في ميدان التجديدات التقنية، أو أن نلاحظ تجديداً مثيراً في شروط تجديد عملية الإنتاج الاقتصادية والاجتماعية، أم أن نشير إلى طفرات مبشرة في ميدان البحث العلمي، أم إلى تحولات سياسية جدية تزيد من الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية، أم إلى تنام مهم في درجة إدراك النخب السائدة في العالم العربي، الرسمية والمعارضة، لطبيعة الأوضاع الصعبة والتحديات التي تواجهها المجتمعات العربية في المستقبل القريب والمتوسط، وفهمًا عميقًا للأسباب التي تسهم في إضعاف قدرة العالم العربي على التطور والنمو؟

يبدو لي أن الأمر مختلف كثيراً عن ذلك، فاتجاهات التفكير الحالية، كما تعكسها أقوال وسلوكيات القسم الأكبر من المسؤولين العرب، توحي بأن النخب الحاكمة سعيدة جداً بما حققته من إنجازات، وراضية تمامًا عن الأوضاع الراهنة، فهي تعتقد أن وضع العالم العربي على أحسن حال، بل إنه كما يعتقد قطاع كبير منها، أفضل بكثير مما هو الحال في البلاد الصناعية، التي توصف هنا -بالمناسبة- بأنها

تعيش أزمة طاحنة وتعاني من أزمات كبيرة، اجتماعية واقتصادية ونفسية.

وعلى الرغم من التقديرات السلبية جداً التي تحفل بها تحليلات معظم المثقفين والناشطين العرب، الأكثر وعياً بمجريات التحولات العالمية، فإن القطيعة بين هؤلاء وبين الطبقات الحاكمة من جهة والرأي العام من جهة ثانية قد تعمقت، لدرجة أصبح من الصعب عندها أن تلقى هذه الانتقادات الصدى المنتظر.

وهكذا لا يبدو أن هناك وعياً عميقاً ومشتركاً بنقاط ضعف العالم العربي وضرورات تجاوزها لمواجهة تحديات المستقبل.. إن موضوع النقاشات الوطنية عند معظم النخب الحاكمة في البلدان العربية لا يزال يتعلق بكيفية توزيع مغانم الحكم، أوتقاسم السلطة، أو وراثتها من قبل هذه المجموعة أو تلك. وليس الحديث المتكرر عن الإصلاح في السنوات الأخيرة إلا جزءاً من استراتيجيات الأجيال الجديدة من النخب ذاتها في تعزيز موقفها في الصراع على تأمين وراثة السلطة وانتقالها. إنه يهدف إلى تجديد أسس الشرعية السياسية للسلطة، تماماً كما ترمي الأجيال الشابة الطامحة إلى الحلول محل جيل الآباء القديم في مواقع المسؤولية - اللامسؤولية إلى تجديد نظم الحكم مع الاحتفاظ بقواعد الممارسة كما هي دون تغيير.

فالصراع الراهن على السلطة يبدو لي أنه من نمط الصراع بين أجيال لا بين مناهج مختلفة للإدارة والحكم. ولا يبشر إذن بأي تحول ذي قيمة في الحقل السياسي الذي يشكل في البلاد العربية المركز الأول للإعاقة التاريخية للمجتمعات الراهنة.

السؤال الذي يبقى مطروحاً ربما هو التالي: هل ستلعب بعض القيم المستمدة من التراث العربي الإسلامي دوراً مؤثراً في التمدن البشري في القرن القادم؟ وما هي بالضبط هذه القيم الخصوصية، ومن أين تنبع فضيلتها الاستثنائية؟

ليس من الممكن فهم الدور الخاص الذي يمكن أن تلعبه أي ثقافة اليوم وفي

المستقبل في تحديد مصير الإنسانية من دون معرفة المستويات المختلفة التي تعمل الثقافة من خلالها، والتفاعلات التي تحصل فيما بينها.. وهذه المستويات هي في نظري ثلاثة:

المستوى الأول: هو المستوى الحضاري الشامل، وفيه تعبر الثقافة عن درجة سيطرة الإنسان على محيطه ونفسه، وتطور قدرته على التحكم فيهما.. وهي تعكس من هذه الناحية المرحلة الأخيرة من تطور الشرط الإنساني.. وتتجسد في معايير تفرض نفسها على المجموعات البشرية جميعًا، باعتبارها معايير مرجعية مشتركة وأساس الاندراج في التاريخية الكونية العالمية.. وتنتسب الثقافة -من حيث هي حضارة- إلى التاريخ، وتقدم المرجعية التي تعكس موقع كل جماعة في التراتبية الثقافية العالمية.. إنها تحدد موقع كل ثقافة من الحركة التاريخية، فتسمها بالمعاصرة أو بالتأخر واللاتاريخية.

والمستوى الثاني: هو مستوى الثقافة من حيث هي مدنية، أي خزانًا للصيغ والاتجاهات والمواقف والميول التي تميز جماعة من الجماعات الكبرى وتتحكم بطريقة عيشها وسلوكها لآماد طويلة.. وتنسب الثقافة من حيث هي مدنية للجماعة لا للتاريخ.. إنها ذاكرة جماعية، تختزن جميع الصيغ والاتجاهات والميول القوية والعميقة التي تشكل الرأسمال الرمزي التاريخي والحاضر لكل جماعة. فهي تشرط من دون شك سلوكنا العام والخاص، لكن هذا الإشراط لا يعني الحتمية المطلقة، ذلك أن الصيغ والحلول الجاهزة والأساليب والأنماط التي ينطوي عليها الخزان الثقافي لأي جماعة ليست واحدة، ولكنها متعددة ومختلفة ومتباينة مع احتفاظها بخصوصياتها بالمقارنة مع الذاكرات الجماعية الأخرى.. والمجتمعات تستطيع أن تختار من هذا الخزان ما يلاؤمها حسب الظروف التي تجد نفسها فيها والتحديات التي تتعرض لها..

وقد تبتعد عن الصيغ التقليدية المطبوعة في ذاكرتها أو عن الكثير منها، كما تستطيع أن تعدل فيها على ضوء تجربتها التاريخية.. وقد تخلط بين صيغ وأنماط متعددة ومتباينة الأصول والمشارب أيضًا.. وككل رأس مال بشري، تتوقف قيمته ومضمونه ونتائجه على طريقة استثماره وميادين هذا الاستثمار واتجاهاته من قبل الجماعة التي تملكه.

أما المستوى الثالث: فهو الثقافة من حيث هي مشاركة خلاقة للفرد أو لمجموعة منفردة، لذات فاعلة، في إبداع حياته الفردية على الأرض وداخل المجتمع.. وهي تتكون من أساليب يطورها كل فاعل تاريخي، من جهة حسب إمكاناته ورأسماله الثقافي وظروفه لتكييف سلوكه الذاتي مع معايير الحضارة، ومن جهة ثانية مع الصيغ الثابتة في الذاكرة الجمعية. إنها الثقافة على صعيد الممارسة اليومية، وهي تمثل القراءة الشخصية التي يقوم بها لا محالة كل فريق فاعل لإدراج أو إعادة اكتشاف نفسه مع ما يبدو في كل مجتمع وعصر المضمون الحقيقي لمعنى الإنسانية أو ما يشكل ماهية الإنسان. وهذه هي الثقافة الإبداعية، التي تنسب إلى الفاعل وتشكل أساس تجاوز التقاليد، والتفاعل مع العصر في الوقت نفسه.

وإذا كانت الثقافة في مستواها الثاني، أي من حيث هي مدنية، وصيغ واتجاهات واختيارات مكرسة تاريخية، تمثل بالنسبة للجماعة التي تنتمي إليها مصدر الخصوصية، بقدر ما تعكس تجربة تاريخية متميزة لا يمكن مطابقتها مع تجربة أي جماعة أخرى، فإن الثقافة في مستواها الحضاري تشكل فضاءًا مشتركًا وعموميًا يدفع إلى اللقاء بين البشر، ويتيح التفاعل والتمازج الطبيعي والحي فيما بينهم من وراء الثقافات التاريخية والإبداعات الذاتية.. إنه يمثل المحيط الذي تصب فيه الثقافات ثمرات إبداعها، كما تمتح منه حاجتها من الرأسمال الرمزي المتجدد كما لو كان

احتياطيًا عامًا ومصرفًا لإقراض الجماعات المحتاجة.. وبالمثل، إن الثقافة من حيث هي إبداعًا للذات أو أنسنة للكائن، تعبر عن تجربة فريدة وفردانية، وتفتح إمكانية تجاوز الثقافة بمستوييها الحضاري والتاريخي معًا.

وليس هناك شك في أن مساهمة العالم العربي والإسلامي في إنتاج القيم الحضارية العامة سوف يزداد مع الزمن بقدر تحسن سيطرة المجتمعات العربية الإسلامية على تقنيات الحضارة الحديثة وآلياتها. لكن لن يكون في هذه المشاركة ما يمكن أن يشكل مساهمة متميزة للحضارة العربية، فمن المؤكد أن البلاد العربية والإسلامية سوف تزيد من حصتها في إنتاج المواد الصناعية وأدوات الحضارة الحديثة والتقنيات والأجهزة المتقدمة، على الأقل كي تلبي الحاجة المتزايدة لسكانها، وتقلص من معدل العجز والتبعية في تموينها بها من الخارج، لكن لن يكون لهذه الزيادة قيمة حضارية كبرى، على الأقل على المدى المنظور.

أما فيما يتعلق بمستوى التنظيمات المدنية، أي استغلال منتجات الحضارة وتقنياتها وترميزها واستيعابها من قبل المجتمع، أي من حيث تأثيرها على بناء النظام الاجتماعي وتطوير القيم المتضمنة فيه، فمن الممكن جداً أن يبدع العالم العربي والإسلامي، بسبب التوتر العميق الذي أنشأته الحداثة المجهضة نفسها فيه، حلولاً وصيغ تنظيم وتوطين للتقنية ومستلزماتها الاجتماعية، تختلف عن تلك التي طورتها أو يمكن أن تطورها المجتمعات الأخرى.. لكنني لا أعتقد -كما يعتقد الكثيرون- أن ما يميزنا أو سوف يظل يميزنا عن المجتمعات الأخرى في الثقافة هو سيطرة الروحانيات الشرقية في مقابل سيطرة الماديات في الغرب، ولا المكانة الخصوصية التي يحتلها الدين عندنا بما يجعلنا مختلفين مع المجتمعات التي تبنت العلمانية، ولا كوننا مجتمع الإيمان والاعتقاد مقابل مجتمعات الجحود والدهرية.

وعلى الأغلب، إن الذي سوف يميز المساهمة الإبداعية الحضارية للمجتمعات العربية على هذا المستوى، هو إعادة إنتاج وتطوير وتطويع قيم لا يبدو أن العرب والمسلمين أنفسهم قد أدركوا حتى الآن أهميتها، وهي في نظري قيم مجتمع التركيب والتوليف والاختلاف، وقيم مجتمع الأخوة والمعاشرة والمؤانسة والتواضع، في مقابل قيم مجتمع الفردانية والاستقلال الذاتي العدائي والعنجهية.

أما على المستوى الثالث من مستويات عمل الثقافة وفاعليتها، فالعرب والمسلمون يقفون على الأرضية نفسها التي تقف عليها جميع الشعوب والثقافات الأخرى، وليس هناك ما يمنع أن ينافسوا المجتمعات الأخرى في الفهم والتحليل والتفسير والإبداع النظري والعلمي والروحي إذا توفر لمجتمعاتهم الحد الأدنى من شروط الحياة الحرة والطبيعية.

وبالإجمال، إن مساهمة العرب في المصير الإنساني العالمي ليست مسجلة مسبقًا في تاريخهم الخاص، كما تكون الجينات أو المورثات مسجلة في الذاكرة البيولوجية للجنين. كما أنها ليست محفورة في البنية العميقة للثقافة العربية، أو في البنية العقائدية للدين الإسلامي. إنها ثمرة الجهود التي سوف يبذلها المسلمون، أفرادًا وجماعات وتكتلاً ممكنًا، من أجل استيعاب مكتسبات الحضارة الراهنة والتمكن منها وتجاوزها، أي إعادة إنتاجها بطريقة إبداعية، بما في ذلك إعادة استيعاب وفهم وتفسير الإرث الثقافي والديني، وتفعيلهما، من منظور آمال الإنسانية الجديدة ومطالب أجيالها المتغيرة.

باختصار، ليس لنا من شفيع في التاريخ القادم وفي المستقبل إلا ما ننجح في تطويره نحن جيل الحاضر من قدرات ومؤهلات، لفهم العالم ومسايرته والمشاركة فيه على قدم المساواة مع غيرنا من المجتمعات البشرية.

أمـا الذين يعتـقـدون أن مـا خلفـه لنا أجـدادنا من إرث ثقـافي وديني وحضـاري استثنائي، أو أن طبيعة هذا الإرث وقيمته الأصلية يضمنان لنا من دون شك أن نلعب دوراً كبيراً في مستقبل الحضارة الإنسانيـة، أو يؤهلاننا لقيادة هذه الحضارة ويكفلان لنا موقعاً متميزاً فيها، فهم يـزرعون الأوهام ولا يمكن أن يحصدوا غير الهشيم.

إن صيانة هذا الإرث، والإبقاء عليه حيًا، ليسا مضمونين من دون الارتقاء بالوعي والجهـد والتنظيم إلى مستوى الحضارة الراهنة، أي من دون بذل الجهد الاستثنائي لإعادة بناء هذا الإرث وتوظيفه وتثميره حتى يستعيد الحياة والحيوية في شروط وجود لم يعرفها من قبل ولا كان مؤهلاً لمعرفتها.. فلن نكون إلا ما طمحنا ونطمح إلى أن نكون، بصرف النظر عما تركه لنا الأجداد من رأس مال ومن ملكيات.. وربما لن يكون لهذا الإرث قيمة أكبر من تلك الجذوة العميقة المتوهجة التي تختزنها الثقافات تحت ركام القضايا والعقائد والأفكار والمنتجات الكثيرة، والتي تسمح وحدها بتغذية طموح المشاركة في الحضارة الكونية من مستويات الفعالية والندية.

رسالة من مجمع الفقه الإسلامي

إلى قادة دول العالم الإسلامي

(نصر الله بهم الإسلام وأهله.. آمين)

الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد*

إن إنشاء مجمع الفقه الإسلامي من فقهاء جميع الدول الإسلامية، سوف يسهم بتقديم الرؤية الإسلامية الراشدة، ويبين الأحكام الشرعية للقضايا المعاصرة والنوازل التي تحل بالأمة، سعيًا لتسديد طريقها، وتحقيق عطائها الحضاري، وإلحاق الرحمة بالعالمين.

((حرصًا منا على مشاركة فضيلة الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، ورئيس مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، واستجابة لإلحاحنا بطلب المساهمة، رأى أن يشارك معنا باختيار بعض قرارات مجمع الفقه، التي يمكن أن تشكل مع غيرها من أعمال المجمع لبنة أساس في تسديد المسيرة الراشدة للأمة المسلمة، وتأمن سلامة طريقها إلى عالم الغد، وتحميها من المنزلقات طالما التزمت بقيمها الشرعية وضوابطها الفقهية، حيث لا سبيل لنهوض الأمة وإعادة إخراجها واسترداد دورها إلا بتطبيق الشريعة وتحقيق الوحدة الإسلامية))**.

---

* رئيس مجمع الفقه الإسلامي.. عضو هيئة كبار العلماء (السعودية).

** الناشر.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: فإن الارتباط بالإسلام، ارتباط بالحق، الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه.. وقد اصطفى الله أمة الإسلام، أمة الوسط والاعتدال، لوراثة علم النبوة، فقال -عز شأنه-: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر: ٣٢).

وهذا الميراث شرف عظيم لأهل الإسلام، أمرهم الله بالعمل به، واتباعه دون ما سواه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٢)، وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ١٨-٢٠).

وهذا الاتباع حكم عيني على كل من انتمى إلى هذا الدين.

ويشمل هذا الاتباع جميع جوانب الحياة، عقيدة وشريعة.

ويوجب التجرد من كل ما يخالف هدى الإسلام في الاعتقاد والقول والعمل، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ويوجب التزام جماعة المسلمين واللياذ بإمامهم، فإنه لا جماعة إلا بطاعة، ولا طاعة إلا بإمام، وفي الحديث المتفق على صحته: «**الزم جماعة المسلمين وإمامهم**»[١].

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه.

ويوجب أن يكون العمل بالإسلام ونصرته، ووحدة المسلمين، والحكم فيما شجر بينهم بالإسلام، ومد الدعوة إليه، ليشمل البشرية كلها.

وهذه الواجبات لا تكون إلا بالاعتصام بالشريعة المعصومة: الكتاب والسنة، ونشر شريعة رب العالمين، وبناء الأمة الإسلامية على الهدي القويم والصراط المستقيم في تعليمها وإعلامها، وشؤون حياتها كافة.

ولا تتحقق هذه الواجبات إلا بمواجهة جميع أنواع التحديات والنحل والمغازي الفكرية، التي يراد منها القضاء على الإسلام، وذوبان المسلمين في هوية غيرهم، والمتعين صد نفوذها إلى المسلمين وديارهم، وانتشالهم من عالم توجيه الأهداف إليهم، وسحق مقوماتهم، إلى أمة الاجابة والعبودية لله تعالى.

ومن أعظم آثار الاعتصام بالإسلام، أداء الأمانة، والنصح للأمة، للنجاة من عذاب الله وأليم عقابه، وهو الوسيلة الوحيدة لتضييق دائرة الفجوة بين الراعي والرعية، وحماية الرعية من الأهواء والنزعات المضلة.

هذا وقد كان من آثار مؤتمر القمة الإسلامي الطيبة إنشاء مجمع الفقه الإسلامي، الممثل رسميًا من فقهاء جميع الدول الإسلامية، والذي يسهم بتقديم الرؤية الإسلامية الراشدة والأحكام الشرعية للقضايا المعاصرة والنوازل التي تحل بالأمة، سعيًا لتسديد طريقها، وتحقيق سعادتها وعطائها الحضاري، وإلحاق الرحمة بالعالمين.. وكان من قراراته المتميزة:

قرار رقم (٤٨) بشأن تطبيق الشريعة الإسلامية.

وقرار رقم (٨٩) بشأن الوحدة الإسلامية.

وبمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في مدينة الدوحة بقطر، رأيت

التقديم بما ذكر، والتذكير بهذين القرارين لأهميتهما، وهذا نصهما:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه.

قرار رقم: ٤٨ (٥/١٠)
بشأن
تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الخامس بالكويت من ١-٦ جمادى الأولى١٤٠٩هـ الموافق ١٠-١٥ كانون الأول (ديسمبر)١٩٨٨م،

بعد اطلاعه على البحوث المقدمة من الأعضاء والخبراء في موضوع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، واستماعه للمناقشات التي دارت حوله.

وبمراعاة أن مجمع الفقه الإسلامي الذي انبثق عن إدارة خيرة من مؤتمر القمة الإسلامية الثالث بمكة المكرمة، بهدف البحث عن حلول شرعية لمشكلات الأمة الإسلامية وضبط قضايا حياة المسلمين بضوابط الشريعة الإسلامية، وإزالة سائر العوائق التي تحول دون تطبيق شريعة الله، وتهيئة جميع السبل اللازمة لتطبيقها، إقراراً بحاكمية الله تعالى، وتحقيقًا لسيادة شريعته، وإزالة للتناقض القائم بين بعض حكام المسلمين وشعوبهم، وإزالة لأسباب التوتر والتناقض والصراع في ديارهم، وتوفيراً للأمن في بلاد المسلمين، قرر ما يلي:

إن أول واجب على من يلي أمور المسلمين تطبيق شريعة الله فيهم.

ويناشد جميع الحكومات في بلاد المسلمين المبادرة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وتحكيمها تحكيمًا تامًا كاملاً مستقراً، في جميع مجالات الحياة، ودعوة المجتمعات الإسلامية، أفراداً وشعوبًا ودولاً، للالتزام بدين الله تعالى، وتطبيق شريعته، باعتبار

هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكًا ونظام حياة.

ويوصي بما يلي:

أ- مواصلة المجمع الأبحاث والدراسات المتعمقة في الجوانب المختلفة لموضوع تطبيق الشريعة الإسلامية، ومتابعة ما يتم تنفيذه بهذا الشأن في البلاد الإسلامية.

ب- التنسيق بين المجمع وبين المؤسسات العلمية الأخرى التي تهتم بموضوع تطبيق الشريعة الإسلامية، وتعد الخطط والوسائل والدراسات الكفيلة بإزالة العقبات والشبهات التي تعيق تطبيق الشريعة في البلاد الإسلامية.

جـ- تجميع مشروعات القوانين الإسلامية التي تم إعدادها في مختلف البلاد الإسلامية ودراستها للاستفادة منها.

د- الدعوة إلى إصلاح مناهج التربية والتعليم ووسائل الإعلام المختلفة، وتوظيفها للعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعداد جيل مسلم يحتكم إلى شرع الله تعالى.

هـ- التوسع في تأهيل الدارسين والخريجين من قضاة ووكلاء نيابة ومحامين لإعداد الطاقات اللازمة لتطبيق الشريعة الإسلامية.

والله الموفق.

* * *

قرار رقم: ٨٩(١١/١)

بشأن

الوحدة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن مجلس الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في دورة انعقاد مؤتمره الحادي عشر بالمنامة في دولة البحرين، من ٢٥-٣٠رجب١٤١٩هـ (١٤-١٩نوفمبر١٩٩٨م)،

بعد اطلاعه على الأبحاث المقدمة إلى المجمع بخصوص موضوع الوحدة الإسلامية، وفي ضوء المناقشات التي وجهت الأنظار إلى أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي تحتاج الأمة الإسلامية اليوم إلى بحثها من الناحيتين النظرية والعملية، وأن العمل على توحيد الأمة الإسلامية فكريًا وتشريعيًا وسياسيًا، وشدها إلى عقيدة التوحيد الخالص، من أهم أهداف هذا المجمع الدولي، قرر ما يلي:

أولاً: إن الوحدة الإسلامية واجب أمر الله تعالى به، وجعله وصفًا لهذه الأمة بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران:١٠٣)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (الأنبياء:٩٢)، وأكدت ذلك السنة النبوية قولاً وعملاً، حيث قال النبي ﷺ: «**المسلمون تتكافؤ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم**»[1]، وحقق عليه الصلاة والسلام هذه الوحدة فعلاً بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقرر ذلك في أول وثيقة لإقامة الدولة

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الإسلامية بالمدينة المنورة التي فيها وصف المسلمين بأنهم: «**أمة واحدة من دون الناس**»[1].

إن هذه النصوص من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وما في معناها، تقتضي أن يجتمع المؤمنون تحت لواء الإسلام، مستمسكين بالكتاب والسنة، وأن ينبذوا الأحقاد التاريخية والنزاعات القبلية والأطماع الشخصية والرايات العنصرية. وحينما قاموا بذلك تحققت القوة لدولة الإسلام في عهد النبوة ثم في الرعيل الأول، وانتشر دين الإسلام ودولته في الشرق والغرب، وقادت الأمةُ الحضارةَ الإنسانية بحضارة الإسلام التي كانت أعظم حضارة قامت على العبودية لله وحده، فحققت العدل والحرية والمساواة.

ثانياً: إن الوحدة الإسلامية تكمن في تحقيق العبودية لله سبحانه، اعتقاداً وقولاً وعملاً، على هدي كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، والحفاظ على هذا الدين الذي يجمع المسلمين على كلمة سواء في شتى مناحي الحياة، من فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية. وما أن ابتعدت الأمة الإسلامية عن مقومات وحدتها حتى نجمت أسباب التفرق، التي تعمقت فيما بعد بأسباب كثيرة منها جهود الاستعمار الذي شعاره: (فرق تسد)، فقسم الأمة الإسلامية إلى أجزاء ربطها بأسس قومية وعرقية، وفصل بين العرب والمسلمين، وانصبت معظم جهود المستشرقين إلى تأصيل التفرق في دراساتهم، التي روجوها بين المسلمين.

ثالثاً: إن الاختلافات الفقهية التي مبناها على الاجتهاد في فهم النصوص الشرعية ودلالاتها، أمر طبعي في حد ذاته، وقد أسهمت في إغناء الثروة التشريعية التي تحقق مقاصد الشريعة وخصائصها من التيسير ورفع الحرج.

---

(١) هذا جزء من المعاهدة التي كتبها الرسول ﷺ مع اليهود لما قدم المدينة، ذكرها ابن إسحاق وابن كثير بدون سند.

رابعًا: وجوب الالتزام بحفظ مكانة جميع الصحابة رضي الله عنهم، ودعوة العلماء إلى التنويه بمنزلتهم وفضلهم في نقل الشريعة إلى الأمة، والتعريف بحقهم عليها، ودعوة الحكومات إلى إصدار الأنظمة التي تعاقب من ينتقص من شأنهم في أي صورة من الصور، لما لذلك من رعاية حرمة الصحابة رضي الله عنهم واستئصال سبب من أسباب التفرق.

خامسًا: وجوب الالتزام بالكتاب والسنة وهدي سلف الأمة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان، ونبذ الضلالات، وتجنب ما يثير الفتن في أوساط المسلمين، ويؤدي إلى الفرقة بينهم، والعمل على توظيف الجهود للدعوة إلى الإسلام ونشر مبادئه في أوساط غير المسلمين.

التوصيات:

لا يخفى أن عصرنا هو عصر التكتلات التي لها تطبيقاتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، تحت شعارات العولمة والعلمانية والحداثة، وبسبب الانفتاح الإعلامي دون أي قيود أو ضوابط، مما يجعل العالم الإسلامي مستهدفًا لإزالة خصوصياته وتذويب مقوماته ومعالم حضارته الروحية والفكرية.. ولا تتم حماية أمتنا من هذه الأخطار إلا باتحادها وإزالة أسباب التفرق، لا سيما أن أمتنا تملك العديد من مقومات الوحدة التي تشمل الوحدة الاعتقادية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والثقافية.

وعليه يوصي المجمع بما يلي:

أ- تأكيد قرار رقم: ٤٨(١٠/٥) بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وما تبعه من توصيات في الموضوع ذاته، وقرار المجمع رقم ٦٩(٧/٧) بشأن الغزو الفكري في التوصية الأولى.

ب- التأكيد على حكومات البلاد الإسلامية بدعم جهود كل من منظمة المؤتمر

الإسلامي ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، باعتبارهما من صور الوحدة بين المسلمين سياسيًا وفكريًا.

جـ- تجاوز النزاعات التاريخية، فإن إثارتها لا تعود على الأمة إلا بإذكاء الضغائن وتعميق الفرقة.

د- التزام حسن الظن وتبادل الثقة بين المسلمين دولاً وشعوبًا، بتوجيه وسائل الإعلام إلى تنمية روح التآلف وإشاعة أخلاقيات الحوار واحتمال الآراء الاجتهادية.

هـ- الاستفادة من القضايا المصيرية التي توحد الأمة الإسلامية وفي مقدمتها قضية القدس والمسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى رسول الله ﷺ لدرء الأخطار التي تهدد إسلاميتها، والتأكيد على أنها قضية المسلمين جميعًا.

ويناشد المشاركون في المؤتمر حكومات البلاد الإسلامية مضاعفة اهتمامها بهذه القضية وأمثالها، والمبادرة إلى الإجراءات المناسبة، ومنها:

- التنديد بما تتعرتض له الأراضي الفلسطينية وأهلوها من سياسات التهجير والاستيطان والتهويد، وما يعانيه الإنسان الفلسطيني من احتلال وظلم وقمع وحرمان وقتل وتشريد وامتهان لكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية.

- الدعم المطلق لفلسطين المجاهدة وأرضها المباركة ومسجدها الأقصى أولى القبلتين، في معركتها الاستقلالية، والوقوف بجانبها وجانب الشعب الفلسطيني في صموده.

- إدانة الحركة الصهيونية والاحتلال الإسرائيلي فيما يقوم به من ألوان التنكيل وصور العدوان البشع على الشعب الفلسطيني المناضل في سبيل حريته وتحرير مقدساته.

و- الاهتمام بالآليات المطروحة التي لها أولوية في تحقيق الوحدة الإسلامية مرحليًا، مثل:

١- إعداد المناهج التعليمية على أسس إسلامية.

٢- وضع الاستراتيجية الإعلامية الإسلامية المشتركة.

٣- إنشاء السوق الإسلامية المشتركة.

٤- إقامة محكمة العدل الإسلامية.

ز- قيام الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بتكوين لجنة من أعضاء المجمع وخبرائه لوضع دراسات عملية قابلة للتطبيق تراعي واقع الأمة الإسلامية، وتشمل الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وتضع آليات تحقيق الوحدة في هذه المجالات مع الاستفادة من الجهود القائمة حاليًا في إطار المنظمات العربية والإسلامية، والاستعانة بالمختصين في المجالات المختلفة.

ولضمان جدية هذه اللجنة وتنفيذ نتائج دراستها، نوصي باعتماد تشكيلها ومهامها من منظمة المؤتمر الإسلامي.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحفاظ على الهوية
في حقبة العولمة الثقافية

حامد عبد الله العلي*

إن الموقف المطلوب من المسلمين تجاه العولمة الثقافية والفكرية هو التفاعل الحضاري والتعامل الثقافي الحذر، القادر على التمييز بين النافع والضار، حفاظًا على عقيدة الأمة وهويتها من التضليل والعبث الفكري والثقافي.

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، لا شريك له في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته.. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء محمد وعلى آله وصحابته وبعد:

فإن الدعوة إلى العولمة الثقافية لا تخرج في حقيقتها عن محاولة لتذويب الثقافات والحضارات وإلغاء الخصوصيات الحضارية لصالح حضارة الغالب.. وعالم المسلمين يعد أول المستهدفين.. ذلك أن الثقافة الإسلامية التي تشكل هوية الأمة وقسمات شخصيتها الحضارية، هي في ثوابتها من عطاء معرفة الوحي، لذلك فالاستهداف يتركز حول عقيدة الأمة الإسلامية؛ لأن الدين ليس أمرًا مفصولاً عن الثقافة.

---

* باحث.. أكاديمي.. (الكويت).

ولقد أصبح من الواضح في تحليل السياسة العالمية بصورة عامة منذ تفرد الولايات المتحدة بكونها القوة الكبرى المهيمنة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، أن العولمة ما هي إلا أحد الأعمدة الأربعة التي أوثقت بها دول القلب (الولايات المتحدة وأوروبا)، التي تشكل موقع صناعة القرار العالمي، ما حولها من العالم في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وأوروبا الشرقية -والتي غدت لا تعني سوى كونها سوقًا مربحة أو ساحة مصالح لدول القلب- أوثقتها بهذه الأعمدة لتجبرها على البقاء تحت هيمنة دول القلب، تجري في فلكها لتضمن تحقق السيطرة الكفيلة بضمان تفوق الغرب على الشرق والشمال على الجنوب، وتدفق المصالح الاستراتيجية من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال.

وأما الأعمدة الثلاثة الأخرى فهي:

الشرعية الدولية: حيث تحتكر دول القلب هذه الشرعية المتمثلة في (الأمم المتحدة) وتستعملها لإسباغ الشرعية أو نزعها عن أي دولة تحاول التخلص من الوثاق ذي الأعمدة الأربعة التي أوثقت به دول القلب العالم، ولم يعد يهم دول القلب أن تتعسف وتتناقض وتكيل بمكيالين في استعمال أداة (الشرعية الدولية) فتصدر قرارًا من مجلس الأمن لعقاب من تريد، لأنه أعلن رفضه لقانون الهيمنة الذي فرضته دول القلب على العالم، بينما تكتفي بموقف المتفرج في حالات أشد خطورة وانتهاكًا لحقوق الإنسان وقيم الأمم المتحدة، لسبب واضح وهو أن دول القلب لم تشعر بالحاجة إلى تحريك (الشرعية) هنا لضمان مصالح أو تأديب خارج على قانونها، قانون الهيمنة والسيطرة.

السلاح: وبوسيلة هذا العمود تتحكم دول القلب بالحروب والتوترات العالمية، وتأجج أو تخمد مناطق الصراع العالمية على وفق مصالحها.

والخامات: مثل النفط والقمح، وبوسيلة هذا العمود تتحكم دول القلب بالتنمية والتطور والتكنولوجيا أيضًا في الدول الواقعة في أحزمة مصالح دول القلب، وذلك وفق مصالحها وبما يضمن بقاء تفوقها وتدفق المصالح الاستراتيجية إليها.

والعولمة تعتمد على محورين أساسين:

المحور الأول: التجارة العالمية.

المحور الثاني: الإعلام الذي يحمل الثقافة والفكر.

والعولمة التجارية يقصد بها ضمان تدفق المصالح المادية نحو دول القلب، كما تقدم.. والعولمة الإعلامية يقصد بها إخضاع العالم لقيم العالم الغربي.

الموقف من العولمة الفكرية والثقافية

يمكن تلخيص المواقف تجاه العولمة في أربعة:

الأول: الموقف القابل للعولمة، الذائب فيها، المؤيد لها تأييداً مطلقًا.

الثاني: الموقف الرافض لها جملة وتفصيلاً.

الثالث: الموقف الملفق الذي يحاول التلفيق بين ما تحمله العولمة والإسلام.

الرابع: الموقف المتفاعل معها على أساس الانتقائية المشوبة بالحذر.

أما الموقف القابل بإطلاق فهو موقف تابع قد جَلَب، ولا يزال يجلب سلبيات الحضارة الغربية، لأنه موقف قائم على الخلط بين مقومات الحضارة الإنسانية التي هي بناء فكري ينبثق منه منهج للتعامل مع الخالق والحياة والإنسان والكون، وبين الآلات والتكنولوجيا التي هي منجزات علمية مشتركة بين الناس.. فالأول هي الحضارة وهي لا تستورد ولا تشترى ولا يمكن نقلها من أمة إلى أمة إلا بإحداث انقلاب جذري استئصالي.

وأما الموقف الرافض، فهو موقف خاسر غير واقعي، وسيؤدي إلى الانكفاء والانعزال فالموت الحضاري.

وأما الموقف الملفق وهو الموقف الذي يتزعمه بعض من يسمون أنفسهم الليبراليين في عالمنا العربي، والذين يعتبرون أنفسهم معتدلين، لأن المتطرفين منهم هم أصحاب الموقف المؤيد تأييداً مطلقًا للعولمة.. ويدندن حول هذا الموقف من يسمون أنفسهم (اليسار الإسلامي) أيضًا.. وهاتان الفئتان تضيعان وقت الأمة بممارستهما عملية (قص ولزق) وبتر لبعض قيم الأمة وعزلها من سياقها المتكامل لإخضاعها للفلسفات المعاصرة، وما هذا الصنيع إلا تكريس لإلغاء الذات أو تشويهها لصالح الأجنبي.

وأما الموقف الرابع القائم على التفاعل الحضاري الناقد والانتقائي الحذر، الذي يقوم على الفحص والتدقيق وتقليب الشعارات والتنقيب عن المسميات، فيكشف ما تحت بريق العولمة من الظلمات كالإباحية والمادية النفعية والميكافيلية الشريرة والاستغلال الرأسمالي للإنسان باسم التحرير، وفلسفة اللذة والمتعة وعبادة الدنيا، ثم يأخذ ما في العولمة من الصواب والخير بعد التمييز والتفتيش والنقد الموضوعي المنبثق من الثقة بالذات والاعتزاز بالهوية، ويرفض ما في العولمة من الشر والضلال.

وهذا الموقف لا شك أنه هو الحق الذي يجب اتباعه، وأصله في الشريعة الإسلامية قول النبي الكريم ﷺ: «... **حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[1] وورد في بعض ألفاظه: «**ولكن لا تصدقوهم.. ولا تكذبوهم**»[2].. ووجه الاستدلال أنه أذن بالتفاعل الحضاري والتواصل الثقافي مع ما عند أهل الكتاب، غير أنه ﷺ أمر برفض ما يعارض القرآن وقبول ما يوافقه والحذر مما لا يعلم صدقه من كذبه.

---

(١) أخرجه البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وحتى نبرهن على صحة هذا الموقف من العولمة، نقف عند أهم أخطارها الثقافية والفكرية على أمتنا، لتأخذ حذرها وتدرك كيفية التعامل مع وجهة العالم الجديد، مما يمكنها من إبلاغ رسالتها وإلحاق الرحمة بالعالمين قياماً بدورها في الشهود الحضاري.

أهم أخطار العولمة:

تعرف العولمة مطلقًا بأنها:

ظاهرة الانتماء العالمي بمعناه العام، وهي تعبير مختصر عن مفاهيم عدة، فهي تشمل الخروج من الأطر المحدودة -الإقليمية والعنصرية والطائفية، وغيرها- إلى الانتماء العالمي الأعم.. ففي جانبها الاقتصادي تشمل الانتفاح التجاري وإلغاء القيود التجارية، وتوفير فرص للتبادل التجاري الواسع محكوماً بقواعد السوق فقط، بدون وجود إجراءات حمائية حكومية.. وفي جانبها الفكري والثقافي هي الانفتاح الفكري على الآخر وعدم الانغلاق على الذات، ورفض التعصب الفكري الذي يدعو لإلغاء (الآخر)، لا لشيء سوى أنه مغاير للفكر.. وفي جانبها السياسي هي شيوع تطبيق القانون على الجميع ومراعاة الحقوق السياسية للإنسان.. فهي باختصار الشعور بالانتماء الكبير العالمي بدلاً من الاقتصار على الانتماء المحلي الاقليمي (العنصري الطائفي).

لكن هذا العرض اللطيف الذي حاول تجميل وجه العولمة، ليس سوى محاولة لإخفاء حقيقتها التي تنطوي على أهدافها.

أهداف العولمة:

١- محاولة سيطرة قيم وعادات وثقافات العالم الغربي على بقية دول العالم، خاصة النامي منها، وإذابة خصائصها.

٢- تهميش تميز دين الإسلام، وإزالة الحدود الفاصلة بينه وبين غيره من الأديان الباطلة، تمهيداً لشن هجوم على مبادئه وتعاليمه وصد الناس عن الإيمان به.

٣- فرض مفهوم نهاية التاريخ بانتصار قيم العالم الرأسمالي الغربي انتصاراً نهائياً، والتسليم بلزوم تسليم القيادة البشرية إلى ثقافة الغرب إلى الأبد.

٤- إبقاء حال الهيمنة الغربية -بأعمدتها المذكورة آنفًا- أطول فترة ممكنة تحت ستار مصطلح العولمة.

هوية بلا هوية:

وباختصار فالعولمة هي في الحقيقة (هوية بلا هوية)، وهدفها باختصار تفريغ ثقافة (الغير) من محتواها واستدراجها إلى الثقافة الغربية بحيلة وشعار مزيف يطلق عليه اسم (العولمة)،لأنه لو قيل للعالم (الأمركة) لنفر كثير من الناس من هذه الدعوى، فاستبدل باسم (العولمة)، فكأنهم يقولون تعالوا لنصير جميعًا عالمًا واحداً، وننصهر في ثقافة واحدة، ونحتكم إلى قوانين عالمية واحدة، وتسيرنا ثقافة وعادات واحدة أو متقاربة حتى نتعايش ونتفاهم ولا تقع بيننا الحروب... إلخ، حتى إذا وقع المدعوون في هذا الفخ، اكتشفوا أنهم في قفص الأمركة والعالم الغربي، ثم وجدوا اللافته التي تحمل اسم (العولمة) تساقطت حروفها واختفت كهيئة الحبر السري، وظهر من تحتها اسم جديد وشعار جديد هو (التغريب)، واكتشف المخدوعون أن حضاراتهم سلبت من حيث لا يشعرون، وثقافتهم ذابت من حيث لا يعلمون، وهويتهم طمست بالتدريج من حيث لا يدرون.

إذن العولمة في النهاية هي نتيجة انهيار نظام عالمي كان يقوم على (القطبية الثنائية) بانهيار أحد قطبيه -وهو الاتحاد السوفيتي- وسيطرة قطب واحد أخذ يهيمن بانتهاء الحرب الباردة على العالم سياسيًا وعسكريًا.

هذا القطب الواحد -كما أشرنا في مطلع هذه الورقة- يستخدم آلات كثيرة خداعة للسيطرة الفكرية والثقافية على العالم تحت شعار كبير اسمه (العولمة).. وقد

بدأت تظهر آثار سياسة هيمنة وسيطرة القطب الواحد (دول القلب) بملامح حملة تغريب الإنسان في أفكاره ومنهاج تعليمه، وفي طراز حياته، وفي طعامه وشرابه، حتى في صورته الظاهرية وشكله الخارجي، التي أصبحت ظاهرة منتشرة في شباب اليوم الذي يحمل جراثيم التغريب، وباتت هذه القبعات الجديدة تذكرنا بالقبعة التي فرضها أتاتورك على الشعب التركي عندما أعلن أول خطوات الانهزام أمام التغريب عند بدء عصر الانحطاط أول هذا القرن.

المخاوف من العولمة على العالم الإسلامي

أولاً: تهديد العولمة لأصل العقيدة الإسلامية:

لعل من أخطر ما تحمله العولمة هو تهديدها لأصل العقيدة الإسلامية، وذلك لأن العولمة تشتمل على الدعوة إلى وحدة الأديان، وهي دعوة تنقض عقيدة الإسلام من أساسها، وتهدمها من أصلها، لأن دين الإسلام قائم على حقيقة أنه الرسالة الخاتمة من الله تعالى للبشرية، الناسخة لكل الأديان السابقة التي نزلت من السماء ثم أصابها التحريف والتغيير، ودخل على أتباعها الانحراف العقائدي.

والعولمة تحمل في طياتها اعتبار الأديان كلها سواء، وأن الحق في هذه الدائرة نسبي بحسب اعتقاد كل أمة.. ولا يصح في العولمة الفكرية والثقافية اعتبار دين الإسلام هو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولهذا تشجع العولمة ما يسمى (حوار الأديان)، لا على أساس دعوة الأديان الأخرى إلى الإسلام، بل على أساس إزالة التمييز بين الإسلام وغيره بالحوار الذي يتوقعون أنه سيحمل المسلمين على التنازل عن اعتزازهم بدينهم واعتقادهم ببطلان غيره، وبذلك يزول التعصب وتتقارب الأديان.. وتتجلى خطورة هذه الدعوة في كونها تنقض عقد الإسلام من أصله، فعقد الإسلام لا يستقيم إلا مع اعتقاد بطلان كل الأديان الأخرى، والإيمان لا يعد صحيحاً إلا على

أساس قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الكافرون: ١-٢)، أي باعتقاد كفر كل من يعبد غير الله تعالى، أو يزعم أنه يعبد الله تعالى بغير دين الإسلام وشريعة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

وهذا لا يتناقض مع حرية الاعتقاد والاختيار.. كما يعبر عن هذه الحقيقة علماء الإسلام بأن من نواقض الإسلام، من لم يكفر المشركين والكفار أو شك في كفرهم أو صحح دينهم.. والكفار هم أتباع كل دين غير دين الإسلام بعد بعثة محمد ﷺ.

وقولهم: إن من نواقض الإسلام أيضًا من اعتقد جواز الخروج عن شريعة رسولنا محمد ﷺ.

ثانيًا: تهديد العولمة للمفاهيم الأساسية في العقيدة الإسلامية:

كما أن العولمة تسعى لإعادة تشكيل المفاهيم الأساسية عن الكون والإنسان والحياة عند المسلمين، والاستعاضة عنها بالمفاهيم التي يروج لها الغرب ثقافيًا وفكريًا.

فالكون -في نظر العولمة الثقافية والفكرية- لم يخلق تسخيرًا للإنسان، ليكون ميدان امتحان للناس ولابتلائهم أيهم أحسن عملاً!! والإنسان لم يخلق لهدف عبادة الله تعالى!! والحياة ليست صراعًا ابتدأ منذ خُلق الإنسان بين الحق، الذي يمثله الرسل والأنبياء وأتباعهم الذين يدعون إلى سبيل الله تعالى بالوحي، وبين الباطل الذي يدعو إليه الشيطان.. والشيطان ليس هو الذي يقود -في الحقيقة- معركة الباطل ويجند لها جنوده من الرجال والنساء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ (الإسراء: ٦٤).. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى

ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (مريم: ٨٣)، وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦)، وقال سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ (الحشر: ١٦)... هذه المفاهيم الأساسية للعقيدة الإسلامية، ليست في نظر العولمة الفكرية والثقافية سوى خرافة.

كما أن الموقف من أمم الأرض -في نظر العولمة الفكرية والثقافية- ليس على أساس المفهوم القرآني القائم على التقسيم العقائدي إلى:

أ- «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[1] وأنه تجب موالاة المسلم لأخيه المسلم ونصرته، وأن يكونوا أمة واحدة تجمعها العقيدة ولا تفرقها أي وشيجة أخرى.

ب- وإلى كفار تجرى عليهم الأحكام الشرعية بحسب علاقتهم بالمسلمين.

هذه المفاهيم القرآنية الإسلامية الأساسية كلها تنقضها العولمة الفكرية والثقافية من أصلها، وتهدمها من أساسها، فالكون -في نظر العولمة- ما هو إلا ميدان تنافس على المصالح الدنيوية، والإنسان حيوان دائب البحث عن ملذاته وشهواته ومنافعه، وليست الحياة سوى فرصة قصيرة لا ينبغي أن تضيع في غير اللذة والشهرة والجنس والمال والثروة والجمال، وليس وراءها شيء آخر، وما هي إلا سباق بين الناس في هذا الميدان لا ينقصه سوى تنظيم هذ اللعبة لئلا تفسد على الجميع، ولا يصح التفريق بين الناس على أساس عقائدهم فهم أمة واحدة في الإنسانية تجرى عليهم أحكام واحدة لا يجوز بحال أن تتفاوت هذه الأحكام بسبب الدين أو العقيدة.

(١) أخرجه أحمد في المسند؛ وأبو داود وغيرهما.

إن خطورة العولمة الفكرية والثقافية تكمن في أنها تعمل على إعادة تشكيل المفاهيم الأساسية التي تشكل أصول عقيدة المسلم، بل تنقضها، وتستعيض عنها بمفاهيم غربية كافرة ملحدة لا تؤمن بوجوب عبادة الله واتباع الوحي والاستعداد للآخرة.

ثالثًا: تهديد العولمة لمبادئ الشريعة الإسلامية:

كما أن العولمة تحمل في طياتها نقضًا لأحكام الشريعة الإسلامية، بفرضها مبادئ تخالف الشريعة.

- تسويق العولمة لوهم المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة:

ومن الأمثلة الواضحة على هذا قضية فرض مفهوم المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، فهذا المفهوم منصوص عليه في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، ومقتضاه إزالة جميع الفوارق في الأحكام والحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، وهو الأمر الذي يتناقض مع الشريعة الإسلامية التي تقوم على أساس الفرق الفطري والخلقي بين الرجل والمرأة.. ذلك الفرق الذي يقتضي اختلافًا في بعض الأحكام والحقوق والواجبات بحسب اختلاف الاستعدادات الفطرية والمؤهلات التكوينية بينهما، ولهذا نجد الشريعة الإسلامية تقرر أن مبدأ عدم المساواة المطلقة بين الرجال والنساء أمر قطعي الثبوت والدلالة، ولا خلاف فيه، ولا مجال فيه للاجتهاد.. ونفي المساواة المطلقة لا يقتضي نفي مطلق المساواة كما لا يخفى.

- الشريعة الإسلامية تقوم على أساس الفروق بين الجنسين:

على هذا قام الفقه الإسلامي، ودلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع العلماء.. وبدءًا من باب الطهارة إلى باب الشهادات، آخر أبواب الفقه الإسلامي، نجد

المرأة والرجل يجتمعان في أحكام ويختلفان في أحكام أخرى.. ومن صور الاختلافات ما جاء في أحكام الحيض والنفاس، وأحكام لباس المرأة في الصلاة، وعدم وجوب الجمعة والجماعة عليها، وكون صلاتها في بيتها أفضل، وأنها ممنوعة من الآذان بإجماع العلماء، ومن إمامة الرجال في الصلاة وخطبة الجمعة لهم بإجماع العلماء، وأنها تصفق لتنبيه الإمام إذا سهى ولا تسبح كالرجال، وأن صفوف النساء في الصلاة وراء صفوف الرجال، ولا يجوز تقدمهن ولا اختلاطهن بصفوف الرجال بإجماع الفقهاء، و«**خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**»[1]، بعكس الرجال.

ومن الأمثلة أيضًا على الاختلاف، إحرامها للحج والعمرة في بعض الأحكام، وفي عدم وجوب الجهاد عليها، وفي اختلاف أحكام الميراث والنفقة وجعل الطلاق بيد الرجل في الأصل، وتقديمها في الحضانة في الجملة، وفي تحريم الخلوة بها، وفي تحريم التبرج، وعدم قبول شهادتها في الحدود والدماء.

وهذا كله على سبيل المثال، وإلا فثمة أحكام كثيرة غير هذه قد أجمع العلماء على أن المرأة لا تتساوى فيها والرجل، كما دل على ذلك صريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦).

وأما العولمة فإنها كما ترفض التمييز بين الناس على أساس الإيمان والكفر، تفرضه العولمة علينا مناقضة لأحكام الشريعة الإسلامية التي بنيت على أساس التقسيم الوظيفي بين الرجل والمرأة في المجتمع، وأن دور كل منهما مكمل لدور الآخر في النظام الاجتماعي الإسلامي، بناء على أساس أن التكوين الخلقي للمرأة يختلف عن الرجل، وأن مؤهلاتها واستعداداتها الفطرية تقتضي توليها دورًا ما في المجتمع يختلف عن دور الرجل، وهو الدور الأسري.

---

(١) أخرجه مسلم.

إن الحقائق العلمية لتؤكد الفرق البيولوجي الأساس بين الجنسين، ولا بأس أن أستشهد هنا بما أورده مؤلفا كتاب جنس الدماغ (Brainsex) الدكتور في علم الوراثة «آن موير» و«ديفيد جيسيل»، وهو في الحقيقة مُؤلَف اشترك فيه أكثر من (٢٥) اختصاصي على رأسهم رائدة علم الفروق الدكتورة «كوراين هت»، لأنهما نقلا نتيجة إجابات كل هؤلاء الأخصائيين في الكتاب.

يقول مؤلفا الكتاب في المقدمة: «تمت صياغة المادة الأساسية لهذا الكتاب من أبحاث قام بها علماء كثيرون من جميع أنحاء العالم».. ثم قالا في وصفٍ دقيقٍ للحقيقة التي توصلا إليها بعد أبحاث مضنية: «الرجال مختلفون عن النساء، وهم لا يتساوون إلا في عضويتهم المشتركة في الجنس البشري.. والادعاء بأنهم متماثلون في القدرات والمهارات والسلوك تعني بأننا نقوم ببناء مجتمع يرتكز على كذبة بيولوجية وعلمية، فالجنسان مختلفان، لأن أدمغتهم تختلف عن بعضهما، فالدماغ وهو العضو الذي يضطلع بالمهام الإرادية والعاطفية في الحياة، قد تم تركيبه بصورة مختلفة عند كل منهما، والذي ينتج عنه في النهاية اختلاف في المفاهيم والأولويات والسلوك».

وإنما أطلت في هذا المثال، لأن حمى مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة أضحت موجة آخذة في الصعود في الخليج، متساوقة مع تنامي الدعوة إلى العولمة الثقافية والفكرية، ولأنها قضية بالغة الخطورة، لأن الغرب يسعى من خلالها إلى إعادة تشكيل النظام الاجتماعي في المجتمعات الخليجية وفقًا للمفاهيم الغربية.

إنه مثال واضح لما تفرضه العولمة من مبادئ وتشريعات تناقض الشريعة الإسلامية ومبادئها.

رابعًا: تهديد العولمة للأخلاق الإسلامية:

كما أن العولمة تهدد النظام الأخلاقي الإسلامي، فمن خلال العولمة يروج للشذوذ الجنسي، ويحاول الغرب استصدار قوانين لحماية الشذوذ الجنسي في العالم.. ومن أحدث محاولات العولمة محاولة فرض مصطلح جديد يطلق عليه (gender) بدل كلمة (sex)، يقول الدكتور محمد الركن في مجلة المستقبل الإسلامية: «ومن المسائل الجديد المستحدثة التي تحاول بعض المنظمات والحكومات الغربية فرضها وإلزام شعوب العالم الأخرى بوجهة نظرهم فيها مسألة تعريف الجنس والأسرة، ومما حداني للحديث حول هذا الموضوع ما شاهدته في المستندات الرسمية، فقد تمت ترجمة الجنس الغربي إلى مصطلح (gender) باللغة الإنجليزية، وهي تنم عن عدم إلمام بما يسعى إليه الغربيون في فرض ثقافتهم على الآخرين، فلفظة الدنور لتتطابق تمامًا مع لفظة (sex)، بل إن لها أبعادًا خطيرة قلما نتنبه إليها.

فالموسوعة البريطانية تعرف الجندر بأنه: «تقبل المرء لذاته، وتعريفه لنفسه كشيء متميز عن جنسه البيولوجي الحقيقي».. فهناك من الأشخاص من يرون أنه لا صلة بين الجنس والجندر، إذ أن ملامح الإنسان البيولوجية الخارجية الجنسية مختلفة عن الإحساس الشخصي الداخلي لذاته أو للجندر.. بعبارة أخرى أكثر تبسيطًا، فإن الجندر بعبارتهم تنصرف إلى غير الذكر والأنثى كجنسين فقط، ونحن لا نعرف ولا نقر في ديننا وثقافتنا إلا بهما، فالجندر تشمل الشاذين جنسيًا من سحاقيات ولواطيين ومتحولي الجنس، إذ أنها ترتبط بتعريف المرء لذاته وهويته وليس بجنسه البيولوجي.. ومن هنا تأتي خطورة المسألة، ولهذا نرى في المؤتمرات الدولية تسابقًا محمومًا من المنظومات الغربية وبعض الحكومات الغربية، وخصوصًا الأوروبية لفرض لفظ (gender) بدل لفظ (sex) التي تنصرف إلى الذكر والأنثى فقط، وذلك عند الحديث عن حقوق الإنسان أو محاربة التمييز ضد الإنسان أو تجريم أفعال ترتكب ضد الإنسان».

خاتمة:

وبعد هذا العرض لمخاطر العولمة، لا يبقى مجال للشك أن الموقف الواجب تجاه العولمة الثقافية والفكرية هو التفاعل الحضاري والتعامل الثقافي الانتقائي بحذر، حفاظًا على عقيدة الأمة وهويتها وأخلاقها من عبث العولمة الفكرية والثقافية.. ولا يتم ذلك إلا بإحياء مشروع نهضوي ثقافي شامل يعيد للأمة ثقتها بثقافتها واعتزازها بتاريخها وفخرها بهويتها، على أساس الالتفاف حول الإسلام النقي الخالص من شوائب الموروث المتخلف، بفهم صحيح يضع الثوابت والمتغيرات في مواضعها الصحيحة، ويوجه الاجتهاد الشرعي العصري توجيهًا سليمًا جامعًا بين الأصالة والأسس السلفية، والاستفادة من المعاصرة النافعة، وسطًا بين الغلو والإجحاف.. ذلك أن الموقف الرافض المنكفئ العاجز عن التعامل مع حقبة العولمة، يحمل من المخاطر على الأمة المسلمة وطمس هويتها وتوهين قيمها وعزلها عن الواقع العالمي الشيء الكثير، لذلك لا بد من التفكير بامتلاك الوسائل القادرة على حماية الأمة، والإفادة من وسائل العولمة وطروحاتها لتقديم البديل الإسلامي على المستوى العالمي.

كما لا بد من تفعيل كل جهود الوحدة التي تقرب الأمة، حكومات وشعوبًا، من بعضها، وتقرب الحكام من الشعوب والشعوب من الحكام، وتصلح بين السياسة والثقافة، والحكام والعلماء، وتجمع بين الكتاب والميزان والحديد، لتعود هذه الأمة إلى مجدها من جديد.. حيث تتمكن من حشد قواها التي تمكنها من استئناف دورها في إلحاق الرحمة بالعالمين.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإسلام والحداثة

الدكتور روجي غارودي*

ترجمه عن الفرنسية: الدكتور العربي كشاط

إن خمسة قرون من هيمنة الحضارة الغربية؛ أدت إلى تلويث الطبيعة واستنفاد مواردها وقدرة تقنية على إتلافها، وانفجار في مستنقعات السوق، التي فاقمت العنف، وسعرت الحروب، وألهبت نيران المزاحمة، وعمقت الهوة بين شمال مستقطب للثروات المتناقصة وجنوب يتضور جوعًا.

تقتضينا دراسة ما بين الحداثة والإسلام من علاقة أن نبدأ بتعريف «الحداثة» في منظور ثقافة عالمية متعددة، وليس من زاوية نظر ثقافة أوروبية خصوصية فحسب.

ذلك أن الحداثة شكل من أشكال ثقافة من الثقافات، وأسلوب حياة من الحيوات. أما الثقافة فتتحد بمجمل علاقات الإنسان، فردًا أو جماعة، بذاته، بالطبيعة، وبالآخرين من بني نوعه، وبالمستقبل أو بمعنى الحياة.

ومما له دلالته أن تدرج كتبنا المدرسية على تحديد بداية «الأزمنة الحديثة» بـ «النهضة» الغربية، التي ليست سوى الميلاد المتزامن للرأسمالية والاستعمار والذي بتقويضه أركان قرطبة عام ١٢٣٦م ودكه لغرناطة آخر مملكة إسلامية بأوروبا عام

---

* *فيلسوف.. مسيحي.. ماركسي.. أعلن اعتناق الإسلام (فرنسا).*

١٤٩٢م، واجتياحه لأمريكا، يكون قد قطع أوصال ثقافتين شامختين، هما الثقافة الإسلامية وثقافة الهنود الحمر.

وابتداءً من هذه اللحظة، يغدو بالإمكان أن نرجع بتحديد الحضارة الغربية لعلاقاتها بالطبيعة والآخر والله (أو الغاية النهائية من الوجود) إلى ثلاث مسلّمات هي:

١- مسلّمة ديكارت، التي تجعل «الإنسان سيداً ومالكًا للطبيعة».

٢- مسلّمة هوبز، التي تجعل «الإنسان ذئبًا بالنسبة للإنسان».

٣- مسلّمة مارلو، التي تجعل «الإنسان المنمي لقدراته العقلية إلهًا يسود جميع العناصر ويهيمن عليها».

ولكن خمسة قرون من الهيمنة المطلقة لم تنته بهذه الثقافة إلى ما استهدفته مسلماتها تلك من نتائج، وإنما إلى نقائضها من تلويث للطبيعة، واستنفاد لمواردها، وقدرة تقنية على إتلافها، وانغمار في مستنقعات السوق التي فاقمت العنف، وسعرت الحروب، وألهبت نيران المزاحمة التي لم تفتأ أن جزأت المجتمع الواحد إلى فئات متناهشة، وعمقت الهوة بين شمال مستقطب للثروات المتفاحشة، وجنوب يتضور جوعًا ومسغبة.

أما زعم الاستغناء عن الله سبحانه في تدبير الكون، فقد انحدر بهذه الثقافة إلى كفرانها بالقيم المطلقة، واعتبارها الإنسان والنزعة القومية مركزًا للأشياء ومقياسًا لها؛ فانقضت ركائز الحياة، وخيمت البلبلة، ومزقت حراب العنف أحشاء المدن، وطم بحر الأهوال، وتوازنات الرعب، واحتدم سعار الإرادات والرغبات، على صعيد الأفراد والمجتمعات.

ومما لا مراء فيه أن هذه «الحداثة» المزعومة التي انطلقت منذئذ أبواقها للترويج لها، إنما هي دين، غير أنه لا يجرؤ على المجاهرة باسمه، وركنه الأوحد إنما هو «آحادية

السوق »، تلك البدعة التي انفرد الغرب باختلاقها في مطلع « النهضة » والذي اهتبل الاتحاد السوفيتي، وتحطيم العراق، واستبداد الولايات المتحدة الأمريكية بشؤون العالم الثالث وأوروبا ، فرصة سانحة ليجاهر العالم باعتبار « ليبيراليته الاقتصادية » نهاية التاريخ، على حد تعبير فوكوياما، أحد منظري أيديولوجية وزارة الدفاع الأمريكية.

ومما لا شك فيه أنه ما من مسلمة من مسلمات هذه « الحداثة » المزعومة إلا وهي مجرد أكذوبة من الأكاذيب، في مقدمتها:

أكذوبة الديموقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، وحماية الحريات.

والحق أن هذه الديموقراطية لم تكن في طور من أطوارها سوى وسيلة تعمية وتمويه، تلجأ إليها أقلية من مالكي العبيد إلى مالكي الثروات.

أما ديموقراطية أثينا على عهد بركليس، التي يضرب بها المثل والتي تعتبر « أم الديموقراطيات »، فقد كانت عبارة عن حكومة يديرها عشرون ألف مواطن من الأحرار، يستبدون برقاب مئة ألف من الأرقاء المحرومين من جميع الحقوق.

أجل، إنها ديموقراطية، لا عيب فيها، غير أنها مقصورة على الأسياد، وليس لغيرهم من العبيد فيها نصيب.

أما الأكذوبة الثانية فهي المتعلقة بالمساواة بين الناس في الحقوق.

وعلى الرغم من نص وثيقة « إعلان الاستقلال الأمريكي » على هذا المبدأ فقد ظل العبيد أكثر من قرن من الزمان يتجرعون علقم الاسترقاق، ولم يتورع حاملو هذا الشعار إلى اليوم عن ممارسة ألوان من التمييز العنصري الذي ينحدر بالزنوج إلى دركات الأشياء.

أجل، إنها ديموقراطية لا يعيب فيها غير أنها مقصورة على البيض، وليس لغيرهم من السود فيها نصيب.

وبنبرة متغطرسة أكدت وثيقة « حقوق الإنسان والمواطن » إبان الثورة الفرنسية أن الناس كلهم يولدون أحراراً ومتساوين في الحقوق، ولكن دستور « اقتراع دافعي الضرائب » قضى بحرمان ثلاثة أرباع الفرنسيين من المشاركة في الانتخاب، بغير ذنب إلا إنهم فقراء، مسخهم فقرهم « مواطنين غير نافعين ».

أجل، إنها ديموقراطية لا عيب فيها، غير أنها مقصورة على الأثرياء، وليس لغيرهم من الفقراء فيها نصيب.

إن حرمان الفقراء هذا من الاقتراع ليس البتة انتهاكًا لمبادئ الديموقراطية الليبيرالية البرجوازية، بل هو تطبيق دقيق لحقيقتها التي تقوم على التفرقة بين الأغنياء المنتخَبين والمعوزين المنتخِبين؛ كما أكد ذلك الفيلسوف الإنجليزي « جون لوك »، الذي كان أعلم الناس، نظرية وتطبيقًا، بالديموقراطية الإنجليزية أم الديموقراطيات الغربية، حيث قال في كتابه « المبحث الثاني حول الحكومة المدنية » : « إن الهدف الذي يطمح إليه الناس من اجتماعهم إنما هو الإبقاء على الممتلكات »، وهذا يعني إيصاد أبواب الديموقراطية في وجه غير المالكين للثروات.

وعشية الثورة الفرنسية، لم تنعقد أنامل ديدرو، أثناء تحريره فصول موسوعته إلا لتكرار إحدى أطروحات « جون لوك » السياسية التي تقصر صفة « المواطنة » على المالك دون غيره من المعوزين.

وعلى الرغم من المظاهر والشكليات؛ فإن هذا المبدأ نفسه ما زال حتى اليوم هو الممسك بزمام « ديموقراطياتنا » الليبيرالية، حيث يتأكد الآن أكثر مما مضى، ما ذهب إليه « روسو » في « العقد الاجتماعي » من النفي الصريح لأي وجود للديموقراطية.. ويعود الانتفاء إلى سببين:

أولهما: انعدام الإيمان المشترك بالغاية النهائية للوجود الإنساني.

وثانيهما: التفاوت بين الناس فيما يحوزون من الثروات.

الأمر الذي عوّق تشكل «الإرادة العامة»، تلك التي تعد محور مفهوم روسو للديموقراطية الحقيقية.

ولقد كشفت تجارب أكثر من قرنين، عن الطابع الراهن لما كان بالنسبة «لروسو» مجرد توقعات مستقبلية استوحاها من حالكات سوابق الديموقراطية.

وقد تجلى اليوم لذي عينين أن مماثلة الديموقراطية بحرية السوق ليست سوى فقرة من أخبث فقرات عقائد السياسة الأمريكية، إذ أنه من المستحيل -كما بين ذلك روسو- أن تتشكل الإرادة العامة في غيبة الأهداف العامة التي يشترك أفراد المجتمع في الإيمان بها.

وأنى لهم ذلك، وقد أطلقت «آحادية السوق» إرادات آحادهم وجماعاتهم وحوشًا تتهارش، ورغبات في الأدغال تتصادم.

وكلما جرى حديث حول حقوق الإنسان تذكر المرء أنه بمقتضى تأكيد «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» (١٩٤٨م)، حق المساواة بين الناس أمام القانون، يصبح بإمكان أي إنسان، سواء كان عاطلاً عن العمل أم مالكًا للمليارات، أن يصدر صحيفة أو ينشئ قناة تلفزيونية؛ وغني عن البيان أن قانونًا هذا شأنه لا يحجم عن عقاب من تمتد يده إلى قطعة رغيف، دون تفرقة بين المترفين والمعوزين.

إن هذه المبادئ وما إليها من حق الاقتراع وغيره، مدونة في جميع دساتير وتشريعات البلاد الديموقراطية، ولكن شتان بين هذه النظريات والواقع الذي تمسك بتلابيب الناس فيه قوانين قمعية قاهرة، تلك التي تستبدل سندات البنوك ببطاقات الانتخاب.

ففي الولايات المتحدة، على سبيل المثال، تكلف المشاركة في حملة انتخابية خمسمائة مليون دولار كل من يطمح إلى مقعد نائب في البرلمان، أو ممثل في هيئة

من الهيئات، مثل ما هو الشأن في جميع هذه البلاد التي يسهِّل فيها الثراء شراء الوسيلتين اللازمتين لكل راغب في السطو على السلطة؛ ونعني بهما:

- وسائل الإعلام، للتلاعب بالرأي العام وتكييفه.

- وصناعات الأسلحة، التي تضمن، في نهاية المطاف، إقناع غير المقتنعين.

ومن نوازل هذا التلاعب والتكييف الذي سجله القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، قصر وصف الليبيراليين (بالمعنى السياسي للكلمة) على أولئك الذين يقاومون سلطان النبلاء.

أما اليوم، فالليبيراليون (بالمعنى الاقتصادي للكلمة)، هم المدافعون عن سلطان الثراء. وهكذا أصبح الاقتصاد السياسي، أو ذلك «العلم الكئيب» على حد تعبير كارليل (أو بالأحرى العلم الذي ليس من العلم في شيء)، عبارة عن أيديولوجية مهمتها تبرير الحالة الراهنة، تلك التي تتلخص في مبادئ رائدها آدم سميث الذي يزعم أنه: إذا سعى كل فرد لتحقيق مصلحته الخاصة، تحققت المصلحة العامة، لكأن يداً غير مرئية توجه نحو هذا الصالح المشترك محققة بذلك اتساق هاتين المصلحتين.

ومن وجهة النظر هذه، فإن اتجاهات الدولة كلها لا ياتي منها إلا الضرر؛ ولما كانت السوق لا تأتمر إلا بقوانينها، وتأبى إلا أن تمسك بأعنة العلاقات الاجتماعية، فلم يبق للدولة إذن إلا أن تتحول إلى مجرد دركي أو حارس ليلي أمين، مهمته المحافظة على هذه الأوضاع.

إن هذه المبادئ التي ما زالت إلى اليوم محل إعجاب وإطراء كل من «ميلتون فريدمان» و«فون هايك» وتلامذتهما الأمريكان والإنجليز: ريغان وتاتشر، ووزراء فرنسا من أحزاب اليمين واليسار، قد انتهت بعد قرنين من التجارب إلى أوخم العواقب؛ من أبرزها عدم تملك العامل وسائل الإنتاج على الرغم من التقدم العلمي،

وتضخم الثراء والسلطة في قطب، وتكرس التبعية والبطالة والإقصاء في القطب الآخر.

ذلكم على الصعيد المحدود، أما على الصعيد الكوكب، فلقد أفضت خمسة قرون من الاستعمار إلى تدمير الزراعات الغذائية الأساسية لصالح الزراعات والإنتاجات الآحادية التي جعلت من المستعمرات ملحقات اقتصادية خاضعة لحاضرات (متروبول) القوى الكبرى، خضوعًا تقنع -بعد الاستقلالات الشكلية- بقناعات المساعدات التي « يتفضل » بها مستعمرو الأمس، وإدارة صندوق النقد الدولي للديون.

ونجم عن هذه المظالم، بين ١٩٦٠-١٩٨٩م، ارتفاع معدل الدخل العالمي من ٧٠٪ إلى ٨٣٪ لـ ٢٠٪ لأثرى أثرياء العالم، وانخفاضه إلى أقل من ١,٥٪ لأفقر فقراء المعمورة. وهذا التقاطب لا يني يتفاقم أيضًا في أغنى بلاد العالم، حيث يستحوذ ١٪ من الأمريكان على ٤٠٪ من الثروات القومية.

وكلما استشعر أسياد العالم مخاطر تمرد المضطهدين، اتخذوا من ديموقراطيتهم سبيلاً يسلكونها بشكل طبيعي نحو الديكتاتورية.

فبفضل هذه الديموقراطية في أتم أشكالها، أدلت أغلبية الألمان بأصواتها فبوّأت هتلر مقاعد الزعامة، وراح أرباب البنوك وملوك الصناعة من الألمان والأمريكان والإنجليز والفرنسيين يمدونه بالأموال والذخائر تمكينًا له من أن يقف حتى عام ١٩٣٨ سدًا منيعًا في وجه الشيوعيين.

وهتلر ليس سوى حالة خاصة من ظاهرة شاملة، ففي أمريكا اللاتينية فتحت الديموقراطية الأمريكية أبواب معاهدها المختصة لتخريج العقداء والجنرالات وتكوين « سرايا الموت » تمكينًا للديكتاتورية، ودفاعًا ضاربًا عن « الحرية الاقتصادية »، التي تعني اختراق الأموال الأمريكية اقتصادياتهم اختراقًا تفرضه الخصخصة والقمع الدموي للمعارضات الشعبية على مرأى ومسمع من أولئك الذين لا يندون بانتهاك حقوق الإنسان إلا حين يتعلق الأمر بتركيع الرافضين للسياسة الأمريكية التي يقترف

إثم فرضها صندوق النقد الدولي، وضروب من الحصار الذي يودي بحياة مئات الآلاف من أطفال العراق، ويلحق الأضرار البالغة بالدول البترولية المتمردة مثل ليبيا والسودان وإيران و.... ويضيق الخناق على لاهوتيي التحرر، الذين يتواصى بالتنديد بهم كل من مركز الاستخبارات الأمريكية والفاتيكان.

إن «آحادية السوق» هذه التي عمِّدت باسم «الحداثة»، تتجلى في تمزق النسيج الاجتماعي، الذي لا يلبث أن يختفي عن الأنظار لتحل محله الداروينية الاجتماعية التي تعني، على حد تعبير «سبنسر»: «مضاعفة حرية الأغنى في افتراس الأفقر والأضعف»، وتعني كذلك أن: «بين القوي والضعيف، الحرية هي التي تضطهد».

إن هذه الحقيقة المقررة التي كان الأب «لاكوردير» قد عبر عنها في عصر انطلاق الرأسمالية الصناعية، لنتأكد منها اليوم أكثر كان مما عليه الحال في زمانه، حيث تواجهنا بشكل لا يتجزأ مشكلات مجتمعنا الاقتصادية والسياسية والدينية، والتي تتعلق في جوهرها بمعنى الحياة الذي يستتبع التساؤل عما يتمخض عنه التطور العلمي والتقني.

وما بنا من حاجة إلى طويل تأمل، وهذه آحادية السوق المتولدة من «الحداثة الغربية» تقض المضاجع بما صنعته من أوضاع اشتطت فيها النزاعات الفردانية، وطغت فيها أمواج المنافسات، مما ضاعف من تدهور العلاقات الاجتماعية، وسرع السابق الذي جعل من «الإنسان ذئبًا للإنسان» على حد تعبير هوبز.

ومنذ أن انهمك «يلتسن» في ممارسة «البغاء السياسي» لبعث الرأسمالية، وصل الاتحاد السوفيتي إلى مستوى الولايات المتحدة في استهلاك المخدرات؛ ففي أزبكستان تضاعفت المساحات المزروعة حشيشًا ست مرات، أي من ١٥٠ هكتاراً سنة ١٩٩٢م إلى ١٠٠٠ هكتار سنة ١٩٩٥م. وكذا الأمر بالنسبة لأنجب التلاميذ من زبائن مدرسة

صندوق النقد الدولي، حيث إحدى الدول حطمت الرقم القياسي -على الصعيد العالمي- في إنتاج الحشيش.

ففي الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، بلغ مجموع مبيعات المخدرات مقدار مبيعاتها من السيارات والفولاذ.

وهناك أشكال أخرى من أشكال هذه «الحداثة الغربية»، أكتفي بالإشارة إلى اثنين منها، وهما:

- الرشوة، التي ينطوي عليها اقتصاد السوق انطواء السحابة على الأعاصير.

وليس بغريب على نظامٍ كل شيء فيه قابل لأن يشترى ويباع، بما في ذلك السلطة والضمائر، أن يؤول إلى ما أشار إليه الاقتصادي «ألان كوسطا» في كتابه: «الرأسمالية في أسوأ أحوالها»، حيث قال: «إن الرشوة في سؤددها الحالي جزء لا يتجزأ من المد المالي والإعلامي المتزايد»، فعندما يهتبل الإعلام فرصة العمليات المالية كاندماج الشركات وحيازة المقتنيات، ليتيح خلال بضع دقائق تكوين ثروةٍ من المستحيل أن يحلم بها حالم ولو يبذل المضاعف من الجهود والنفيس من الأوقات؛ يتعذر على المرء أن يقاوم إغراءات الاقتصاد البضاعي المترعرع في حظيرة هذه السوق «الأصيلة» التي ترتفع بالرشوة إلى أن يضاهي دورها دور المشاريع التجارية.

- وتأبى «آحادية سوق» الحداثة الغربية إلا أن «تجود» بأفضل ما لديها، وأعني بذلك المضاربة التي يحددها قاموس «روبير» بأنها: «عملية مالية تهدف إلى تحقيق الأرباح من خلال استغلالها لتقلبات السوق»، تلك التي أفرزت نموذجًا ثقافيًا يقولب فيه الناس حسب مقتضيات المزاحمة الوحشية والربح المجنون وما إلى ذلك من الأشكال الـ«عصرية» لما يعرف في القرآن الكريم باسم «الربا».

ومما له دلالته أن يتزامن انبثاق هذا التصور عن الكون مع بروز أكمل الأشكال

تعبيراً عن البربرية الغربية: من جرائم قصفها الرهيب لكوفنتري وأزوبنش وهيروشيما، وأزهاقها أرواح أربعين مليون ضحية بلغ ركامها عشرة أضعاف ما أفترسته الحرب العالمية الأولى التي سعّر شواظها زبانية الأمبراطوريات المتزاحمة المتقاتلة.

ولما انقشعت نقوع هذه الأهوال، وانفتحت العيون على عالم فقد رشده، تسلطت على الأذهان فكرة عجز الإنسان عن تدبير شؤون المجتمعات، تلك التي لم يبق لها إلا الانصياع إلى «الماكينة المفكرة» التي ستنفرد بالتفكير والإجابة عن جميع الأسئلة المطروحة.

وبصدور كتاب «نوربير واينعر»: «السبرانية» سنة ١٩٤٢م، وتطبيقاته التي انتهت «بقون نومان» إلى اختراع «الحاسوب» عام ١٩٤٥م، تكون «الحداثة» قد تمخضت فولدت أسطورتها المركزية المتمثلة في «الذكاء الاصطناعي»، الذي يعني إمكان الاستعاضة عن بعض أشكال أعمال الذهن الإنساني؛ استعاضة تعني انتقال الأدوات والماكينات من كونها مسخَّرات لخدمة الإنسان إلى انفرادها -دونه- بالأجوبة عن الأسئلة التي لها صلة بغاية أعماله، بدل أن تكتفي بتزويده بما هو بحاجة إليه من الوسائل.

إن هذه «الحداثة» بالذات، هي التي نجاهر برفضها، وندعو كل من يؤمن بأن للحياة معنى أن ينضم إلينا لنقف سداً منيعًا في وجه هذه الأباطيل من الحتميات التي تروج لها أيديولوجيات تضلل الأغرار بزعمها أن القوانين الاقتصادية قوانين طبيعية لا فكاك منها. ولكن الحق الذي لا مرية فيه أن ما يسمى بالاقتصاد السياسي ليس من العلم في شيء، بل هو مجرد أيديولوجية ليس لها من مهمة إلا تبرير الأوضاع وإطراء السلبية والاستسلام لطاغوت الحتميات التي تكبل الإنسان حين توهمه أن الحاضر هو محصول الماضي، وأن المستقبل لن يكون سوى امتداد للحاضر.

وما على المؤمنين، وقد تجاوز الحتميون المدى، إلا أن يقوضوا أركان الحتميات

بتعاليهم على ضروب الماديات التي أفرزتها «الحداثة» الغربية الكذوب، التي انتهت إلى هذا الإفلاس الشنيع الذي يستنهض المسلمين لـ:

- الإسهام في تشكيل «حداثة» أصيلة وشاملة.
- الاستمتاع بثمار العلوم والتقنيات والمشاركة في تطويرها دون اعتبارها غايات في ذاتها.
- مقاومة التيارات التي تعتبر الفردانية والقومية مركز الأشياء ومقياساً لها.
- التخلص من براثن حتميات السوق والمال الزائفة.
- تعميق الشعور بالمسؤولية المشتركة تجاه المصير المشترك.

وكل أولئك يستوجب الخروج من مأزقين:

- مأزق محاكاة الغرب، الذي يتخبط فيه بعض المسؤولين السياسيين المسلمين.
- ومأزق محاكاة الماضي، الذي تتخبط فيه المعرضات الشعبية في محاولاتها لإزالة عقابيل الاستعمار الذي طالما استمات في طمس الهوية الإسلامية.

وحينذاك نستيقن بأنه على أنقاض الإمبراطورية الرومانية التي امتد رواق هيمنتها من البحر المتوسط فما دونه إلى الفرات فالأندلس، ستترعرع من جديد تجربة الإخصاب لتنعش الشرق والغرب على غرار ما حققه الإسلام في القرن السابع حين انطلاقته السريعة المذهلة التي ليست من الفتوحات العسكرية الاستعمارية في شيء؛ حيث إن عدد الفاتحين وعُددهم لم تكن شيئًا مذكوراً؛ مقارنة بما كان يتمتع به البيزنطيون والفرس وغيرهم من كثافة بشرية وإمدادات مادية.

ومهما يكن، فإن الإسلام لم ينتشر بالقوة، وإنما بفضل ما حققه من:

- اليقظات الدينية.
- والثورات الاجتماعية.
- والتحولات الثقافية.

١ / اليقظة الدينية:

ليس الإسلام دينًا جديداً ظهر بظهور النبي ﷺ، وليس الله عز وجل إلا الواحد الأحد، رب العالمين جميعًا.

والإسلام بمعنى الخضوع الإرادي لله وحده، هو ذلك الدين الذي أرسل الله به رسله أجمعين، من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام.. قال تعالى:
﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ (الأحقاف: ٩).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وقال سبحانه تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولقد أرسل الله رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام ليدعو الناس إلى الفطرة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ (الروم: ٣٠).

والمسلمون يؤمنون بالمرسلين جميعهم، بمن ذكروا في القرآن وبمن لم يذكروا.

٢- الثورة الاجتماعية:

التي تجلت صيغتها الأولى في مجتمع المدينة المنورة الذي أقامه الرسول ﷺ على أسس الشريعة الخالدة التي تبني صروح الاقتصاد والسياسة والاجتماع على الإيمان بتفرد الله سبحانه بالملك والحكم والعلم، والتي تعتبر الإنسان خليفة الله في الأرض، يعمرها ويطورها، مؤتمرًا في كل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ائتماراً يجنبه الوقوع في مهاوي النظرة الرومانية التي تحدد الملكية بـ« حق الاستعمال وسوء الاستعمال ».

ومن مقتضيات مهمة الخلافة إعطاء الأولوية للواجبات التي يضطلع بأدائها المسلم

أداءً روحُه الإخلاص، وشكله الإتقان، وثمرته التكافل القائم على أداء الزكاة وتحريم الربا: أصل بلاء تكدس الثروة في قطب والبؤس في قطب آخر، إذ لا مجال في نظام الإسلام لأي شكل من التسلسلات الهرمية التي تكرسها الأنظمة السياسية الجائرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤).

وعندما طلع المسلمون على دنيا الطبقات والامتيازات بهذا التصور النبيل، الذي شكلوه واقعًا جسد العدل والمساواة وتقويم الرجال والأحداث بالقسطاس المستقيم، عندما فعلوا ذلك، استقبلوا حثيما حلوا استقبال الفاتحين المحررين.

٣- التحول الثقافي:

ينطلق التحول الثقافي الذي يحققه الإسلام من مسلَّمة الاعتقاد بتفرد الله سبحانه وتعالى بالعلم، اعتقاداً يجنبنا الغرور بمعارفنا القليلة، ويذكرنا دومًا بأن «كل ما أقوله عن الله إنما يقوله إنسان»، على حد تعبير اللاهوتي البروتستانتي «كارل بارت».

ويستوجب استمرار هذا العطاء الثقافي أن نتاسى بأسلافنا من أمثال أبي حنيفة والشافعي وغيرهم في استلهام كليات شريعتنا لإحياء فقه يستجيب لمتطلبات العصر استجابة لا تحيد قد شعرة عما رسمه الله سبحانه من معايير وسنه من ضوابط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

وتجنبًا لسوء الفهم، أو إساءة الظن، ينبغي التذكير بضرورة التفرقة بين ما هو ثابت من الشريعة، ومتغير من الفقه، كما يجب التنبيه إلى خطأين يرتكبهما صنفان من الناس:

- صنف الذين يظنون أن مجرد سرد الأجوبة الذكية التي واجه بها أسلافنا

مشكلات عصرهم، يعفينا من استفراغ الجهد في استنباط الأحكام من النصوص المحدودة لتنزيلها على الوقائع المتجددة اللامحدودة، في إطار الكليات والمقاصد.

● الصنف الذي يشمل الولايات المتحدة وأذنابها من منافقي الغرب الذين نصّبوا أنفسهم مدافعين عن «حقوق الإنسان» و«حقوق المرأة» دفاعًا يموهون به جرائمهم في إعداد وتمويل الدكتاتوريات المُحْتَمِيَة بـ«كتائب الموت» في أمريكا اللاتينية، وبجلادي رواندا في أفريقيا، متنادين بالسخرية من الشريعة التي يوهمون الناس أنها مجرد تقطيع للأيدي، وامتهان للمرأة، وتشبث بليد بما أكل عليه الدهر وشرب من الأحكام البائدة، هادفين إلى حرمان كل من يؤمن من الناس بأن للحياة معنى، من أن يكتشف مبادئ الشريعة العظيمة القائمة على اليقين المطلق بتفرد الله سبحانه وتعالى بالملك والأمر والعلم، يقينًا يجنبنا الارتكاس في حمأة الغرور بسلطان المال والحكم والعلموية.

وبإمكان عالمنا الذي بلغ هذا المستوى العالي من التطور التكنولوجي أن يجد في المبدأين الإسلاميين: مبدأ التعالي والجماعة، ما يساعد كل فرد في تحقيق ما تنطوي عليه جوانحه من إمكانات، إسهامًا حقيقيًا في تطوير «حداثة» حقيقية.

ولكي يتمكن المسلمون من تحقيق النهضة المرجوة، عليهم أن يتعاملوا بجد مع أبعاد الإسلام التي شيدت حضارته الرائعة، تلك التي أنعشت بركاتها العالم من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر.

والتعامل الجاد مع الإسلام يعني الكف عن أخذه تفاريق، والعمل على تجسيد أبعاده العالمية والروحية والاجتماعية والنقدية، إبراءً للذمة، وابتعاثًا للإنسان كي يستعيد إنسانيته.

أزمة الحضارة المعاصرة وسبل معالجتها

الدكتور سالم أحمد محل*

> أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية، التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها، سينقذنا من مغبات حضارتنا، وسيكون مفيداً لنا جداً.
> شارل ديجول

هذا البحث هو قراءة غربية-إسلامية في أزمة الحضارة المعاصرة. فقد شخص أزمات هذه الحضارة عدد من المفكرين الغربيين، كما كان لبعض المفكرين المسلمين حضور في تحديد معاناة هذه الحضارة وأزماتها التي تحيط بها والتي تهدد كيانها بالتحلل والانهيار. كما حاولنا تحديد سبل معالجتها من منظور إسلامي. وقد ارتأينا أن نقسم البحث لتسهيل معالجته إلى الفقرات التالية:

١- هل هناك حقًا أزمة حضارية معاصرة؟

٢- ما ملامح هذه الأزمة؟

٣- وماذا يستطيع الإسلام أن يقدم من حلول لمعالجة هذه الأزمة؟

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء.. (اليمن).

١- هل هناك حقًا أزمة حضارية؟

نعم.. هل هناك أزمة حضارية تتوعد الحضارة المعاصرة وتهددها بالدمار، أم أننا نحن المسلمين نفترض وجود مثل هذه الأزمة داخل بنيان الحضارة الغربية لكي نبرر حاجة هذه الحضارة إلى قيمنا ومثلنا ومبادئنا -نحن المسلمين- فنتنقّص من قيمة هذه الحضارة ومن ريادتها العالمية، فنبخس إنجازاتها واكتشافاتها مظهرين قزميتها أمام عبقرية حضارتنا الإسلامية؟

إن الشواهد التي جاءت في كتابات بعض المفكرين الغربيين عن حضارتهم تبين -أو قد بينت فعلاً- وجود أزمة حضارية، بل وأزمة شاملة. وبهذا فإن القول بوجود هذه الأزمة الحضارية هو ليس طرحًا إسلاميًا؛ وإنما هو طرح غربي شخصه مفكرون غربيون ينتمون إلى تلك الحضارة، ويحملون هويتها، وينعمون بإنجازاتها، ويكتوون بنيرانها وإحباطاتها المتعددة والمتنوعة.

لقد شخص كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) أزمة الحضارة الغربية في المجال الاقتصادي، وانتقد بشدة جشع الرأسماليين واستغلالهم للعمال، وتنبأ بوقوع بطالات دورية تشل الاقتصاد الرأسمالي وتجعله دائمًا يترنح نتيجة المنافسة بين المنتجين.

واقترح ماركس تأميم وسائل الإنتاج جميعًا، وطبقت نظريته في روسيا بعد نجاح ثورتها عام ١٩١٧م وظهور الاتحاد السوفياتي مطبقًا نظرية ماركس في الاقتصاد، ومتنكرًا لله سبحانه وتعالى، ومعلنها حربًا على الأديان.

غير أن الماركسية لم تأت بحل يخلص الحضارة الغربية من أزمتها، بل أضافت لها أزمة أخرى جديدة عندما ألغت الحرية الفردية في العمل، وفرضت حالة من الاستبداد السياسي والقهر الجماعي باسم العمال والفلاحين، وفرضت هالة من القداسة الزائفة والكاذبة على دكتاتورية الدولة باسم الثورية والتقدمية.

وجاء أزوالد اشبنكلر (١٨٨٠-١٩٣٦م)، ودرس الحضارات ومنها حضارته الغربية، فألف كتابه الذي يشير عنوانه إلى المأزق الذي تعيشه الحضارة الغربية وسماه: «تدهور الحضارة الغربية».

ثم جاء توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥م)، ليؤكد وجود هذ الأزمة وأن الأخطار تتهدد هذه الحضارة عن طريق حرب نووية مدمرة[١].

أما جوزيف أ. كاميليري فقد ألف كتابه: «أزمة الحضارة»[٢] ليضيف تأكيداً آخر على عمق الأزمة التي تكتنف الحضارة الغربية.

كذلك فإن دراسة روجيه غارودي للحضارة الغربية وتحليل أزماتها من خلال كتابه «وعود الإسلام» إضافة أخرى في ميدان تأكيد أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، بالإضافة إلى ما كتبه الكسيس كاريل وغيره من المفكرين الغربيين تأكيد لا يقبل الشك على تخبط هذه الحضارة في أزماتها وحاجتها إلى من يأخذ بيدها إلى بر الأمان.

٢- ملامح الأزمة الحضارية

لقد افتقدت الحضارة المعاصرة عنصراً حيوياً من عناصر بقائها عندما فرطت بالجانب الروحي وركضت ولهثت وراء الجوانب المادية فقط. فخلقت بذلك إنساناً تعيساً فاقداً للروح والمثل والقيم التي تضبط مسيرته وتعينه على مواجهة الحياة.

يقول ألكسيس كارل في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول»:

«إن الحضارة العصرية لا تلائم الإنسان كإنسان. وعلى الرغم من إنها أنشئت بمجهوداتنا إلا إنها غير صالحة...»[٣].

---

(١) توينبي، أرنولدتوماس: بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، بغداد، ٤/١٥٥.

(٢) ترجمة د. فيصل السامر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، ١٩٨٤م، بغداد.

(٣) ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م، ص٣٧.

وهذه شهادة من أحد أبناء هذه الحضارة على قصور هذه الحضارة. ثم يضيف كاريل: «إننا قوم تعساء لأننا نتخبط أخلاقيًا وعقليًا...»[1] فقد سببت الحضارة الغربية للإنسان الغربي التعاسة والشقاء لأن هذا الإنسان بدأ ينحط أخلاقيًا وعقليًا.

ويعرض كاريل حالة تتقاطع مع معظم المفاهيم السائدة اليوم عن فكرة التقدم والرقي وهي:

«إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة ذروة النمو والتقدم هي الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى الهمجية والوحشية أسرع من سواها»[2].

وهذه مفارقة غريبة، فالخوف دائمًا على الجماعات والأمم الضعيفة من الانحلال والانهيار وليس على الأمم المتقدمة، مما يدل على عقم مظاهر التقدم التي تبدو على قسمات وجه الحضارة الغربية.

ويمضي كاريل في تبيان مراكز الضعف في الحضارة الغربية فيقول: «إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العاطفي فحسب، بل إنها تسحق أيضًا الشخص العاطفي واللطيف والضعيف، فأولئك يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء غير المال»[3].

وهناك دعوة صريحة يطلقها كاريل لأبناء حضارته بضرورة تحررهم من أغلالها: «ومن الضروري أن يحرر الفرد منذ نعومة أظافره من مذاهب الحضارة الصناعية والمبادئ التي يرتكز عليها كيان المجتمع الصناعي»[4].. وبعد تحرر الفرد من قيود

(١) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص ٤١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ٣٥٥.

(٤) نفسه، ص ٣٢٤.

حضارته، فإن كاريل يقترح: «يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان من جديد في تمام شخصيته، الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية»[1].

إن الحضارة الغربية خيبت آمال الإنسانية، ولم تستطع أن تلبي لها احتياجاتها الإنسانية، ولم يحالفها الحظ في إنجاب رجال قادرين على قيادتها عبرالطرق الملتوية التي تتعثر فيها هذه الحضارة:

«ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة الغربية فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه»[2].

إن الحضارة الغربية تعاني من أمراض خطيرة تنخر في جسدها، ومرد هذه الأمراض جميعًا نظرتها المادية المفارقة للمنهج الإلهي والمتقاطعة مع مقاصد الله سبحانه وتعالى في الحياة البشرية، والغريب أن هذه الحضارة على علم بأوجاعها، يقول كاريل: «لأول مرة في تاريخ الإنسانية تستطيع حضارة متداعية أن تميز أسباب انحلالها، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الهائلة تحت تصرفها»[3].

ولم يكن كاريل وحيداً بين المفكرين الغربيين الذين شخصوا الأدواء التي تشكو منها حضارتهم، فقد عبر الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في أول خطاب له بعد انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة، عن عمق الأزمة التي تعيشها بلاده، يقول: «إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين في الروح ونصل بدقة رائعة إلى القمر، أما على الأرض فنتخبط في متاهات ومتاعب كثيرة»[4].

(١) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص٣٥٢.
(٢) نفسه، ص٣٥.
(٣) نفسه، ص٣٥٩.
(٤) الأميري، عمر بهاء الدين: الإسلام وأزمة الحضارة في ضوء الفقه الحضاري، مؤسسة الشرق للنشر والترجمة، ط١، ١٩٨٢م، ص٢٢.

وهكذا فالحضارة الغربية بضائع، كما يصفها رئيس أكبر دولة في العالم وممثل أكبر دولة لهذه الحضارة المادية. وهذه إحدى أكبر أزمات هذه الحضارة، لقد فارقت الروح وتمسكت بالمادة وتعلقت بها دون انفكاك، الأمر الذي تركها خاوية بلا روح وبلا مبادئ تكبح جماح شهواتها ورغباتها التي ليست لها حدود.

أما الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال شارل ديجول فهو يشخص معاناة الحضارة الغربية وأزماتها الراهنة بطريقة تدل على نفاذ الرؤية وعمق البصيرة، يقول ديجول:

«إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئًا ثمينًا جداً تحت وطأة تقدمها الضخم، ألا وهو «الإنسانية»، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا. فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض. لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت»[١].

وهكذا تكون أزمة الحضارة المعاصرة أزمة روحية وأخلاقية، فقد كان تنكرها لأي هدف روحي في الحياة أفقدها نضارتها الإنسانية فالتصقت بالأرض وفارقت السماء، وأصبح معبودها الحقيقي المال والقوة التي تحافظ على استمرار الحصول على المال وحمايته، لقد أصبحت فلسفتها الحقيقية المعاصرة الرغبة في القوة، وهذه هي إحدى موروثات المدنية الرومانية القديمة[٢].

لقد ارتكبت الحضارة الغربية خطأ مهلكًا قادها وسيستمر يقودها إلى الدمار والتحلل والانهيار عندما تنكرت لله سبحانه وتعالى وجحدته فنحته جانبًا عن حياتها، وصاغت نظمها ومشاريعها وحلولها وبرامجها بعيداً عن مقاصد الله جلت قدرته في الحياة الإنسانية.

(١) الأميري، الإسلام وأزمة الحضارة، ص٢١.

(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت [د.ت] ص٢٥.

لقد سيطر على الحضارة الغربية في أوج نشاطاتها وفاعلياتها اعتبارات من الانتفاع العملي (المادي) دون أن يصاحب ذلك أية ومضة روحية أو أدبية. أما قضية معنى الحياة والغاية منها فقد افتقدت في نظر الغربي الحديث جميع أهميتها العملية[1].

إن النظرة المادية التي ميزت الإنسان المعاصر، وخاصة أبناء الحضارة الغربية، أدت إلى عجز الإنسان عن أن يتوحد مع ذاته. فصارت تسحقه المتناقضات كما يرى دعاة الوجودية، وذلك كله راجع إلى عدم التناسق والتكامل والتوازن في حياة الإنسان المعاصر بين الجوانب الروحية والجوانب المادية. لقد كان طغيان الجانب المادي على حياة الإنسان مدمراً ومنذراً بوقوع كارثة إنسانية كبرى قد تقوض جميع منجزاته الحضارية[2].

إن الفراغ الروحي الذي تعيشه الحضارة الغربية جعلها غير قادرة أحياناً على التمييز بين النافع والمفيد وبين غير النافع وغير المفيد. فقد أصبحت كل دعوة وإن كانت تافهة تلقى قبولاً وتجد لها الأتباع من بين أبناء هذه الحضارة حتى من جاء من الهند يبشر بالضحك في الحياة، والضحك فقط، وجد له أتباعاً ومريدين[3].

إن الحضارة الغربية تعيش أزمة ضمير أفرزت خواء أخلاقياً وانقطاعاً اجتماعياً ونفسياً. فتجد المراهق يهرع إلى الـ(L-S-D) وغيره من المخدرات التي تسبب الحالة المرضية المسببة للهلوسة، ورب الأسرة الذي يقضي ساعات طويلة لمشاهدة التلفزيون الذي يعرض أفلاماً تخيلية، والهيبي الرافض لمعطيات حضارته والباحث عن الفردوس في عالم الطبيعة، والمراهق الذي يجد نفسه ثائراً ومتوتراً فيبادر إلى تحطيم النوافذ

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٣٢.

(٢) أنور الجندي، معلمة الإسلام، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ١/١٢٧.

(٣) شوقي أبو خليل، الحضارة الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٩١.

وتهشيم زجاج السيارات، والمخمور الذي يجد مهربًا من قسوة الحياة في معاقرته للخمر إلى حد الضياع، وربة البيت المرهقة بسبب أعبائها المنزلية، أو التي تعاني من الاغتراب، تجد خلاصها على سرير الصحة العقلية، هؤلاء جميعًا ضحايا القلق والشعور بعدم الأمان ومرض العصاب، وأن غضبهم كاسحًا بحيث يمكن أن يتحول إلى عجز وتخاذل في وجه مستقبل لا يتفهمونه ولا يستطيعون التحكم فيه[1].

لقد حدد كاميليري عوامل أزمة الحضارة الغربية وشخص حالة الاضطراب والقلق اللذين ينخران في جسدها، فهناك: اختلال التوازن النفسي- الاجتماعي، واختلال التوازن البنيوي، واختلال التوازن البيئي، وأزمة الطاقة وأزمة الأمن.

فاختلال التوازن النفسي والاجتماعي جعل شخصية الإنسان مغمورة بقيمته في التبادل في مجتمع معقد تحكمه قوى السوق، فأصبح الفرد لا يمتلك إحساسًا بالذات ولا هوية خاصة ولا كرامة شخصية، وليس الفرد في نظم الاقتصاد الجماعي (الشيوعية والاشتراكية) بأحسن حال من نظيره في النظم الرأسمالية إذ ليست له قيمة إلا بقدر ما يسهم به ماديًا من أجل تحقيق أهداف الخطط الاقتصادية للدولة[2].

وكذلك الاختلالات البنيوية والبيئية وتشوش الاقتصاد العالمي، وسباق التسلح الذي يتطلب إنفاقًا عسكريًا متزايدًا، وأنه في المحصلة النهائية يفرز حدة الأزمة النفسية الناتجة عن عدم توفر الأمن القومي للقوى المتسابقة في هذا الميدان[3]. لقد وجد كاميليري في كل ظاهرة وقع عليها نظره في الغرب أزمة وفوضى اجتماعية يدركها الغربي ولكنه لا يستطيع معالجتها. فهناك استمرار في الإنتاج المفرط للبضائع

(١) جوزيف.أ كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة: د. فيصل السامر، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ١٩٨٤م، ص٢٦.

(٢) نفسه، ص٤٤.

(٣) نفسه، ص٢٧، ٣٧، ٩٠، ٩٢.

على الصعيد الاقتصادي، وهناك ارتفاع في كلف الإنفاق العسكري والتسلح، وهناك إفراط في الاستهلاك المحلي، وهناك تشوش في خطط التعليم. ولهذا فقد اعتبر كاميليري التنظيم الاقتصادي والسياسي للدولة القومية سواء في المجتمعات المتطورة أو الناقصة النمو إنما هو في حالة تفسخ[1].

إن الأزمة التي يتحدث عنها كاميليري هي أزمة عالمية، وأن الغرب قطبها، وهي أزمة تهدد مباشرة أرواح رجال ونساء لا حصر لهم، ومع ذلك فإن خطورتها تكمن «في أنها تنفذ إلى بنية العلاقات الإنسانية كلها وتفسدها»[2].

إن الإنسان يعاني من القهر الذي فرضته عليه القوة الساحقة للمجتمع التكنولوجي.. إن الطلب المستمر والمتزايد على النمو، والتسريع في عمليات الإنتاج ومستوياته، والذي بدوره يؤدي إلى ضرورة التوسع المستمر في معدل الاستهلاك، قد أصبح بفضل صناعة الإعلان المعقدة الهدف النهائي الذي ينظم حوله كل الكدح البشري. فلم يعد العمل وسيلة لتطوير الفرد أو إثرائه ثقافيًا، بل غدا عاملاً ثانويًا في نظام تقني يقوم بمهمته مع اهتمام ضئيل بالغايات الإنسانية أو الخلاص الأخلاقي[3].

إن التقدم العلمي الذي بلغته الحضارة الغربية وقدرتها على الوصول إلى القمر وأقمارها الصناعية ومحطاتها الفضائية التي أقامتها في الفضاء الخارجي وثورة الاتصالات التي نجحت بتقريب العالم بعضه من بعض، ينبغي أن لا يعشي أبصارنا بريقها، بل لا يجوز أن تلهينا عن الدرك الذي ينحدر إليه الإنسان ومقوماته الإنسانية[4].

---

(١) جوزيف.أ كاميليري، أزمة الحضارة، ص ٢٩.

(٢) نفسه، ص٣١.

(٣) نفسه، ص ٢٥-٢٦.

(٤) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، مكتبة وهبة، مطبعة الاستقلال الكبرى [د.ت]، ص٦٤.

إن خواء الحضارة الغربية الروحي، بمختلف مذاهبها وأنظمتها، هذا الخواء تختنق فيه روح الإنسان، وتهدر فيه كرامة الإنسان وقيمته، بينما تتكدس البضائع والسلع التي أنتجتها ماكنة التكنولوجيا المتطورة وتطغى على كل قيمة للإنسان[1]:

ولنا أن نتساءل: ما هي العوامل الكامنة وراء هذا الخواء الروحي؟ ولماذا غرقت هذه الحضارة بمستنقع الماديات التي أوصلتها إلى ما أوصلتها إليه من اختناقات وأزمات؟

والجواب على ذلك: يكمن في النزوع البشري إلى حب المال والنساء والذهب والفضة والزروع وكل مقومات الثراء الأخرى، يقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران: ١٤).

لقد تعلقت الحضارة الغربية في حرصها على جمع المال واحتكاره وتنميته واستثماره بطرق بعضها لا تكون مشروعة كالربا والاحتكار، فأدارت ظهرها للمنهج الإلهي الذي ينظم العلاقة تنظيمًا دقيقًا بين المال وبين طرق امتلاكه، ويضع الضوابط الكفيلة بإعادة توزيعه توزيعًا يكاد يحقق الكفاية للمعوزين والفقراء، وينظم العلاقة الجنسية ويقتصرها على الزواج المشروع فيبعد الفاحشة والبغاء عن المجتمع ويجنبه الأمراض الاجتماعية والجنسية.

وعندما يتجه الناس بكل طاقاتهم وقدراتهم وإمكاناتهم إلى المال يجمعونه ويتزيدون منه دون أداء حق الفقراء عليهم ودون مراعاة للوسيلة والطريقة التي يحصلون بها عليه، عندئذ يكون المال وجمعه غاية لا وسيلة، وعندئذ تتراجع جميع المبادئ والمثل والقيم سماوية واجتماعية أمام آلة المال العاتي، الذي أصبح يحرك

(١) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص٦٤.

النزوات والرغبات التي ليست لها حدود في الاستزادة من الأموال. وصارت الحروب تشن ويصرع فيها الأبرياء بين القوى المتسلطة في العالم من أجل ضمان استمرار امتلاء جيوب الرأسماليين وخزائنهم بالأموال، وصار الأمن العالمي مهدداً بالأخطار التي تنذر بالدمار الشامل لكل منجزات الإنسان الحضارية عندما يشعر أحد الأطراف أن مصالحه مهددة بالبلد الفلاني أو أن مراكز نفوذه في الدولة الفلانية مهددة من قبل قوة أخرى.

وهكذا فإن نهضة أوروبا منذ عصر النهضة مروراً بالثورة الصناعية قد قامت على المال، والمال وحده، بعيداً عن أية اعتبارات دينية أو خلقية، ولهذا الحرص على المال قادت أوروبا أكبر حركة استعمارية منذ القرن التاسع عشر سيطرت بها على معظم الشعوب في أفريقيا وآسيا ونهبت ثرواتها، وحولت هذه البلدان إلى أسواق لبضائعها ومنتجاتها الأمر الذي زاد من ثرائها، فازدادت تسلطاً على غيرها.. ونظراً لتصادم المصالح، فقد أغرقت الحضارة الغربية العالم في حربين عالميتين راح ضحيتها الملايين من البشر عدا المشوهين والمعاقين. وكل ذلك قدم على مذبح إله المال الذي عبدته أوروبا.

لقد بدأ التفكك والاضطراب والجريمة تنخر في جسد هذه الحضارة المادية التي غرقت في حب المال حتى أذنيها، وعارضت بذلك المنهج الإلهي وخالفته، ولم تر لها إلهاً غير إله المال والشهوة فأفسدت بذلك حياتها واضطربت أحوالها وشاعت الجريمة في مجتمعاتها.

ففي الولايات المتحدة وحدها تحدث جريمة قتل واحدة كل ٢٤ دقيقة. ويجري كل عشر ثوان اقتحام منزل وسرقته، ويوجد من السلاح المعروض للبيع الحر: مسدس لكل أربعة من الأمريكيين، وتباع قطعة سلاح فتاك كل ١٣ ثانية. أما الاختطاف والإجهاض والانتحار والإدمان والشذوذ الجنسي فذلك منه الكثير الكثير[١].

(١) الأميري، الإسلام وأزمة الحضارة، ص٢٩.

ومن المخاطر الجدية اليوم التي تواجه بنية هذه الحضارة انتقال ظاهرة الجريمة إلى صفوف الأطفال اليافعين، فقد تناقلت وكالات الأنباء والمحطات الفضائية أنباء ارتكاب جريمتين من قبل طفلين جلبا السلاح، كل إلى مدرسته، وبأوقات متفاوتة، وقتل كل منهم عدداً من زملائه في المدرسة. وذلك كله نتيجة الفراغ الروحي الذي تعيشه الأسرة الأمريكية.

أما موقع المرأة في الحضارة الغربية، فإنه يعد الوجه الآخر لأزمة الحضارة الغربية.

في معظم الحضارات نظرت المجتمعات المختلفة إلى الأخلاق نظرة ربطتها بالجنس أو القضية الجنسية[1]. فعند شيوع حالة من الانضباط الذي ينظم العلاقة بين المرأة والرجل وفق قوانين ونظم وأعراف المجتمع بعيداً عن الفحشاء والخنى فتكون عندئذ الأخلاق في مثل هذا المجتمع سليمة وقويمة وعالية أو هكذا توصف. وعند حدوث العكس، وذلك بشيوع العلاقات غير الشرعية والسقوط في مهاوي الرذيلة والفحشاء، فعندئذ يوصف المجتمع بأنه يفتقد إلى الأخلاق القويمة.

ويبدو أن الناس كانوا محقين في ذلك، فالعلاقة الجنسية تعتبر أساس الأخلاق، إذ لا أخلاق -بمفهومها الواسع- إذا انحرف الناس في شؤون الجنس، وأن الذين ينحرفون عن شؤون الجنس لا يمكن على المدى البعيد أن تظل لهم أخلاق[2].

لقد أصبحت المرأة في ظل الحضارة الغربية المستنقع الذي يفسد الحياة الغربية، ومن ثم ينسحب ذلك إلى إفساد الحياة الإنسانية، وذلك بحكم هيمنة الحضارة الغربية وتأثيراتها على الأمم والشعوب الأخرى[3].

---

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، ص٢٥١.

(٢) نفسه.

(٣) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ.. علم إسلامي، دار الصحوة، القاهرة، مطبعة المدينة [د-ت]، ص٢٦٨.

لقد كانت قسوة الحضارة اللادينية شديدة على المرأة، فأصبحت بحكم تكوينها الفطري لا تستطيع المقاومة والصمود، وبذلك فقد أصبحت دمية رخيصة بيد الرجل يتلذذ ويتاجر بها، ويعطيها فتات موائده، ويعاملها كأي سلعة رخيصة لا كرامة لها(١).

لقد سلخت الحضارة الغربية جانبًا مهمًا من جوانب إنسانية المرأة، وبدأت تعاملها كسلعة وبضاعة تجني من ورائها ملايين الدولارات.

ففي الولايات المتحدة وحدها هناك ٢٠٠ شركة جنسية تتخذ من المرأة بضاعتها وبصور متعددة، وتجني من ورائها الكثير من الأرباح، حتى أن الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون علق على ذلك قائلاً: إن أرباح التجارة بالمرأة قد عادت على أصحابها بأكثر من مليار دولار عام١٩٧٢م(٢).

أما المكتبات التي تعنى بشؤون الجنس، فقد أخذت على عاتقها عرض الكتب والمجلات التي تضم عروضًا وصورًا للعملية الجنسية بهدف تحقيق الأرباح الطائلة، ففي واشنطن العاصمة هناك ٢٣ مكتبة تعرض بضاعتها المسمومة بطريقة تعرق الجبين حياءً. وما تعرضه مكتبات شيكاغو ولوس أنجلوس ونيويورك أكثر بكثير مما تعرضه مكتبات واشنطن، إضافة إلى وجود الكثير من دور العرض الخاصة والمشاهد الحية للعملية الجنسية وأفلام الشذوذ الجنسي تعرض جميعًا بأسعار رخيصة لكثرة دور العرض المتنافسة(٣).

وهكذا تتحول البنت والأخت والزوجة وربما الأم أيضًا، إلى بضاعة مثلها مثل كل البضائع المطروحة، فلا يبدو منها إلا ظلالها ويضيع بذلك دورها الريادي في بناء الأسرة وتنشئة الأجيال.

---

(١) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص٢٦٨.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

لقد أصبحت الرذيلة الجنسية إحدى مظاهر الحياة الغربية، بل إنها سارت معها حيث سارت، فنجد الكثير من الشعوب التي تأثرت بقشور الحضارة الغربية قد تفشت فيها ظاهرة التحلل الجنسي، فشاعت الرذيلة بمقدار تأثر ذلك البلد بحضارة أوروبا، أو بعبارة أدق بحضارة الغرب.

جاء في إحصائية لشرطة نيويورك أن عدد البغايا فيها هو (٢٥ ألف) تستهلك الواحدة منهن من المخدرات يوميًا بحوالي (٥٠) دولارًا[١]. وهذا ناهيك عن الخليلات والعشيقات، فهؤلاء لا يدخلن ضمن الإحصائية لأنهن لا يتقاضين أجوراً على سقوطهن.

وفي نيويورك أيضًا يوجد أغرب مجمع في العالم يضم أعضاءً من مختلف الولايات المتحدة يقدر عددهم بـ(١٥ مليونًا) هم المنحرفون جنسيًا[٢]. وهذا مما يدلل على حالة التحلل والتفسخ والانهيار الأخلاقي الذي أصبح سمة لهذه الحضارة.

وتقف المرأة في أوضاع مزرية أخرى في كنف هذه الحضارة اللادينية، فلم تعد بضاعة للمتاجرة بجسدها على صفحات الكتب والمجلات أو بعروض الأفلام الجنسية أو بالمشاهد الحية في اللقاءات المحرمة، وإنما أصبحت وسيلة قانونية ودولية للمزايدات السياسية والتجارية، فظهرت أجهزة خاصة تنتمي إلى قوى دولية كبرى صارت تستخدم النساء عبر أخطر جهاز عالمي وهو هيئة الأمم المتحدة في عرض أجسادهن بطريقة دبلوماسية تتخذ أشكالاً مختلفة من أجل اصطياد الرجال (المهمين) في العالم وسرقة الأسرار الدولية المطلوبة عن طريق الجسد الجميل[٣].

لقد أصبحت المرأة في ظل الحضارة الغربية وسيلة للتجارة وتحقيق الأرباح فهي في المحلات التجارية والشركات، وصناعة الإعلان والدعاية وسيلة لجلب الزبائن، وهي مطلوبة كسكرتيرة خاصة يشترطون فيها قدراً كبيراً من الجمال والأناقة، وهي في

---

(١) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص٢٦٨.
(٢) نفسه، ص٢٦٩.
(٣) نفسه.

السينما والتلفزيون والراديو والمجلة والصحيفة والقصة تعتمد على جمال جسدها وأناقتها، الذين يتفننون في إبرازه وتجسيمه، والذي يعد أهم وسيلة للاتجار والكسب والحصول على الملايين[1].

عطاء الإسلام لأزمة الحضارة

والآن وبعد أن عرضنا جانبًا من أزمة الحضارة الغربية في المال والجنس، هل بإمكان حضارتنا أن تمد يد العون لهذه الحضارة البائسة؟ أو بعبارة أخرى ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لهذه الحضارة في محنتها وتوالي أزماتها؟

١- على الصعيد المالي:

نحن نعلم بأن الربا والاحتكار كانا وراء تمكن الرأسمالية من تجميع الثروات والاستزادة منها، وحرمان سائر الناس من تلك المردودات الضخمة التي تجنى من تلك الاستثمارات[2].

ومن هنا فإن النظام الرأسمالي القائم على الربا والاحتكار يتقاطع مع المنهج الإسلامي الذي يحرم الربا والاحتكار، لكونهما وسائل غير مشروعة لاستثمار المال، وهكذا فإن الإسلام سيحرم الرأسمالي الجشع من ربح كثير مصدره الربا والاحتكار، وهذا ليس لأن الإسلام يرفض استثمار المال أبدًا ولكن لأن الربا والاحتكار لا يمثلان جهدًا حقيقيًا للمالك، ولا دورًا اجتماعيًا إيجابيًا للمال في المجتمع، في حين أن المذهب الاقتصادي الإسلامي يعمل على تنمية الإنتاج وتثميره واستثمار موارده الطبيعية واستغلالها بما ينفع الفرد والجماعة، غير أن ذلك لا يعني أن يكون هدف الإنتاج هو تجميع الأموال وتكديسها. فالمذهب الاقتصادي الإسلامي لا يرى في الإنتاج وما يقوم به من إنتاج سلع وخدمات إلا كونه وسيلة لخدمة الإنسان وترقيته ماديًا

---

(١) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص٢٦٩.

(٢) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٣١.

وروحياً، ليستطيع القيام بما كلفه به الله تعالى من مهام الاستخلاف في الأرض[1].

والمال على هذا الأساس وسيلة لا غاية.. وسيلة تمكن الإنسان من عبادة الله سبحانه وتعالى على أفضل الوجوه يقول ابن تيمية رحمه الله:

«إن الله خلق الخلق لعبادته، وخلق لهم الأموال ليستعينوا بها على عبادته»[2] والغرض من المال في المذهب الاقتصادي الإسلامي -كما نرى- غير الغرض منه في قوانين الإنتاج الاقتصادية في الغرب. فبينما يكون الهدف منه في النظام الأخير إحداث الرفاهية لمالكه وامتلاك السطوة والاستكثار منه، استجابة الدوافع الأنانية في وابتعاداً عن النظرة الأخلاقية، نجد أن هدف الإنتاج في المذهب الاقتصادي الإسلامي غلبة الجانب الأخلاقي، واعتبار المال الناتج عن الإنتاج وسيلة تعبدية يتعبد بها المسلم إلى الله[3].

كذلك فإن الإسلام، أي نظام الإسلام الاقتصادي لا يقوم فقط على زيادة الإنتاج، وهو هدف الإنتاج في الأنظمة الرأسمالية، وإنما يستلزم في نفس الوقت عدالة التوزيع، وهو الشيء المفقود في الحضارة الغربية، ومن ثم فإن الإسلام يرفض أية تنمية رأسمالية تستهدف تنمية الثروة القومية دون النظر إلى توزيع عادل لهذه الثروة[4].

كذلك فإن المسلم الغني وصاحب العمل ومن يمتلك وسائل الإنتاج والمصانع والمزارع قد فرض الله عليه مقداراً محدداً من المال كزكاة لأمواله، يدفعها إلى الفقراء والمعوزين، وقد اعتبرها الإسلام حقًا لهؤلاء الفقراء في أموال إخوانهم الأغنياء، وهي ليست منة من الآخرين، بل هي واجب وحق. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ

---

(١) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية في المذهب الاقتصادي الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٨٧م، ص١٩٧.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، نقلاً عن الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص١٩٧.

(٣) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص ١٩٨.

(٤) نفسه.

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠).

وبذلك يتفوق المذهب الاقتصادي الإسلامي على المذهي الرأسمالي. كما أن الإنتاج في المذهب الرأسمالي يهدف إلى الاستفادة من الطلب في السوق كي يحقق أكبر قدر من الربح دون أن يكون هدفه إشباع الحاجات، فهو إنتاج طلب لا إنتاج حاجات، أما في المذهب الماركسي فهو وإن كان يتجه بالإنتاج لغرض إشباع الحاجات غير أنه يتخلى عن شخصية الإنسان الروحية ومتطلباتها لمقتضيات الحاجات المادية[1].

وهكذا يتفوق المذهب الاقتصادي الإسلامي على المذاهب الاقتصادية الوضعية وخصوصًا الرأسمالية في:

١- تحريمه للربا والاحتكار كمصدرين من مصادر الاستغلال للآخرين.

٢- أن الإسلام رغم أنه يسعى إلى زيادة الإنتاج، لكنه يحرص على عدالة التوزيع، وهو أمر مفقود في النظام الرأسمالي.

٣- أن الإسلام بتشريعه للزكاة ساعد على انتقال الأموال والبضائع وغيرها من مالكيها الأغنياء إلى المحتاجين من الفقراء والمعوزين، وبذلك فإن الإسلام خفف من وقع الحاجة على الفقراء والمعوزين، وهذا ما يفتقده النظام الرأسمالي.

٤- أن طبيعة الإنتاج في مذهب الاقتصاد الإسلامي هو لإشباع الحاجات الإنسانية، في حين أن الإنتاج في النظام الرأسمالي هو إنتاج طلب متزايد في السوق مما يجعله حريصًا على تحقيق أعلى نسب للأرباح.

وبهذا فإن الإسلام يستطيع أن يساعد في حل أزمة الحضارة الغربية، عندما يصبح أبناء هذه الحضارة متحررين من عقدهم في معاداة الإسلام، وعندما ينظروا بموضوعية

---

(١) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص ٢٠٠.

إلى منهج الإسلام في الحياة، والذي هو منهج إلهي أراده الله تعالى واختاره للبشرية جميعاً، وهو منهج صالح في كل زمان ومكان، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وكونه ﷺ قد بُعث رحمة للعالمين فذلك يعني أن دينه كان زمن بعثته رحمة لمن بعث فيهم ومن عاصرهم، وهذه الرحمة مستمرة إلى يوم القيامة، لأن دينه دين خير ولا يمكن للخير أن يكون صالحًا في زمن وغير صالح في زمن آخر.

كما أن الإحباطات والمآزق والأزمات التي تحيط بالنظم الوضعية، وبممثلتها الحضارة الغربية، يعد أكبر دليل على قصور هذه الأنظمة أمام المنهج الإلهي الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للعالمين.

٢- مشكلة الجنس وأزمة الحضارة المعاصرة:

فيما مضى من السطور وقفنا على بعض الشواهد التي دللت على مهانة المرأة في خضم حضارة مادية طاغية، ونظرة الرجل إليها، ونظرة المؤسسات التي تهدف إلى الربح على أنها سلعة يمكن أن يتحقق عن طريقها الربح الوفير.

أما نظرة الإسلام للمرأة، فقد رفع مكانتها وانتشلها من المهانة التي تلفها في معظم الحضارات السابقة للإسلام والمعاصرة له، وجعلها على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات، كما اعتبرها مكملة للرجل وهو مكمل لها، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات:١٣)، كذلك فقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في العمل والمسؤولية أمام الله والثواب والعقاب، يقول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾(آل عمران:١٩٥). وهكذا فإن المساواة متحققة جنائيًا وعقائديًا وفعليًا على صعيد العمل والمسؤولية التي تترتب

عليه. فالرجل والمرأة متكافئان في الحقوق والواجبات في الإسلام، ولكنهما ليسا متشابهين في التكوين النفسي والجسمي[1].

وبهذا فإن الإسلام يتقاطع في نظرته للمرأة مع اليهودية استناداً إلى توراتها المتداولة، فقد جاء في معجم الفلسفة الفرنسي:

«إن القرآن يختلف عن التوراة في أنه لا يجعل ضعف المرأة عقاباً إلهيًا كما ورد في سفر التكوين (٣/١٦)، ومن الخلط أن ينسب إلى شارع عظيم كمحمد [ﷺ] مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء، والحقيقة هي أن القرآن يقول: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩)»[2].

أما الحضارة الغربية فقد نظرت للمرأة نظرة متاع يورث، بينما نفى عنها الإسلام صفة المتاع وضمن لها حقها في الإرث الذي يتركه الأبوان أو الإخوة أو الأقرباء يقول الله عز وجل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ (النساء:٧).

وعندما حرم الإسلام الفاحشة والبغاء فإنه حفظ للمرأة مكانة أسمى، فأبعدها عن أن تكون متعة رخيصة بيد الرجل يلهو بها ثم يتركها إلى غيرها وغيرها...

والإسلام أيضًا بتحريمه للفاحشة ومقاومته لها، وصيانة المجتمع وحمايته منها فإنه يفعل ذلك لأنها تهبط بكيان الإنسان عن المستوى اللائق به كإنسان، ومن ثم فهي تخالف الأخلاق بالمفهوم الواسع للأخلاق[3].

ولما كان الإنسان هو خليفة الله في الأرض فإن اندفاع الإنسان وراء شهواته المسعورة وغرائزه يتناقض مع هذه المهمة المقدسة، كما أن هذا الاندفاع دون ضبط

---

(١) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ١/٢٦٧.

(٢) نفسه، ص ٢٦٤.

(٣) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٥٤.

وتحديد وتنظيم يجعل الإنسان لا يتميز كثيراً عن الحيوان[1].

والله سبحانه وتعالى عندما حرم الفاحشة على عباده لم يحرمها كي يضيق عليهم في حياتهم، ولكن ليطهرهم وليرفعهم إلى مصاف الإنسان الذي كرمه على كثير ممن خلق: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠)[2].

والإسلام لا يقر الرهبانية ولا يتنكر لرغبات الإنسان وميوله الفطرية، ولكنه يعمل على تهذيب وتنظيم وتحديد مشروعية الوصول لها، وإشباعها وفق المنهج الذي جاء به من الله المصطفى ﷺ.

وهكذا فإن الإسلام يعالج المشكلة الجنسية بواسطة:

الزواج المشروع الذي جعله السبيل إلى التحصن من الوقوع بالفاحشة، وتجنب مخاطرها الاجتماعية والصحية. ولهذا فإنه عمل ما في وسعه على تيسيره والتشجيع عليه اقتصاديًا واجتماعيًا وفكريًا وروحيًا، وجعله عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، يقول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ... ﴾ (النساء: ٣)، وهذا أمر من الله للعباد بالزواج الذي يحفظ للرجل والمرأة كرامتهما ويصونهما من السقوط.

وفي قصة الثلاثة الذين جاءوا بيوت أزواج النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فاستقالوها، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً؛ وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر؛ وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[3].

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٥٤-٢٥٥.

(٢) نفسه، ص ٢٥٥.

(٣) صحيح البخاري، دار القلم، بيروت، ١٩٨٧م، ٥/٧/٤.

إن الإسلام بتشجيعه للزواج فإنه يضمن للإنسان أشياء كثيرة:

فهو يضمن للإنسان راحة الأعصاب وراحة الضمير، ويضمن له الاستقرار، كما يضمن نمو الأسرة واستقرارها، ويضمن للأطفال التنشئة الصالحة في حضن الأسرة وما في هذا الحضن من الحب والود والرعاية التي يسبغها عليهم الأبوان، الأمر الذي يجنبهم الانحراف والشذوذ والخروج عن الآداب الاجتماعية في المستقبل[1].

ولقد عبرت مريم جميل، بعد دخولها الإسلام عن صون الإسلام ورعايته للمرأة بقولها: «إن على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه وآدابه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك وضياع الأسرة»[2].

وهكذا فإن الضمانات التي يوفرها الإسلام للمرأة يجعلها بمنأى عن كل ما يحاول جرح كرامتها ويحولها إلى متعة رخيصة بيد الرجال. ولقد عانت وتعاني الحضارة الغربية من جراء هذا الانفلات للعلاقات المحرمة بين أبنائها، فقد أخذت تدفع أثمانًا باهظة، فأصبح الإيدز الهاجس المرعب لأبناء هذه الحضارة، كما أن شيوع الأمراض الجنسية الأخرى يبدد أي شعور بالمتعة التي لا يمكن أن تتحقق إلا في عش الزوجية النقي الدافئ الطاهر.. وهكذا فإن الحضارة الغربية، بل البشرية هو أحوج ما تكون اليوم للإسلام، لأنه المنهج الوحيد القادر على انتشالها من وهدتها، والتشريع الذي جاء لإسعاد البشرية في الدنيا والآخرة.

ولقد تنبه إلى أهمية الإسلام وقدرته على حل ومعالجة أدق التعقيدات التي تتخلل بنيان الحضارة الغربية المعاصرة عدد من المفكرين الغربيين، مظهرين حاجة حضارتهم لهذا الدين وقدرته على العطاء والمساعدة في إيجاد الحلول لأزماتهم

---

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ٢٧٥/١

الحضارية، يقول الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة (فيينا) في مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧م: «إن البشرية تفخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميته فقد استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد الناس لو توصلنا إلى قمته بعد ألفي عام»[١]. وما نريد أن نقوله هو أننا نصحح للدكتور شيرل خطأه التاريخي، فالتشريع الإسلامي لم يأت به الرسول ﷺ من نفسه، وإنما نزل عليه من السماء، وهذا هو سر ديمومته وصلاحيته للحياة في كل زمان ومكان.. وأما العالم سانتلانا فإنه يقول عن الفقه الإسلامي: «إن الفقه الإسلامي يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل إن في ذلك كفاء للإنسانية»[٢].

أما المؤرخ البريطاني المعروف توينبي فيظهر حاجة الحضارة الغربية لظهور ديانة جامعة تأخذ عن الإسلام روح الأخوة الإنسانية[٣].

ويقول هوكنج أستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد: «إني أشعر بأني على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي على جميع المبادئ اللازمة للنهوض. وأن نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام منسقة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية»[٤].

أما الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديجول فقد أجاب على سؤال لإحدى الصحف الباريسية الكبرى عن سر تقديره للعالم الإسلامي، فقال: «أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها سينقذنا من مغبات حضارتنا وسيكون مفيداً لنا جداً...»[٥]، وهكذا فالسياسي

(١) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٥٨١.
(٢) نفسه.
(٣) الملاح، د. هاشم وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م، ص٢٢٣.
(٤) الجندي، معلمة الإسلام، ٥٨١/١.
(٥) الأميري، ص٢١.

العجوز ديغول يرى بثاقب فكره إمكانية مجئ الإنقاذ لأبناء الحضارة الغربية من الإسلام ومن المجتمعات الإسلامية التي يسود فيها الإسلام. فهل يتنبه المسلمون إلى خطورة هذه الشهادة؟

أما العالم الأسباني فيلاسبازا فإنه يرى: أن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست أجدر من أمم الشرق المحتفظة بالثقافة العربية-الإسلامية، القائمة على إذاعتها، بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الذي يجر الإنسانية إلى هوة التوحش والتسلط المادي»[1].

أما روجيه غارودي الذي درس الإسلام ثم دخل فيه وألف كتاباً اسمه «وعود الإسلام»، فقد نقد الحضارة الغربية نقداً لاذعاً، مؤكداً أن حضارة الإسلام هي التي تصلح لإرث الأرض، ولهذا سماها بـ«الإرث الثالث»، باعتبارها تتوسط بين حضارة الأقوياء (الغربية) وحضارة الضعفاء (العالم المتخلف).. وحضارة الإسلام مطلوبة للعب هذا الدور في رأيه لأنها: «توطد عقيدة التوحيد، وتوفق بين الإيمان والعلم، ولا تقيم حاجزاً ولا وسيطاً بين العبد وربه، وتحفظ كرامة الإنسان وما يحققها من العدل والحرية والشورى»[2].

أما محمد أسد (ليوبولد فايس)، وهو من مفكري أوروبا الذين اعتنقوا الإسلام، فيقول: بأن «الإسلام استطاع أن يحصن نظامه الاجتماعي الذي ظل منيعاً ومتيناً، لأن تعاليم القرآن الكريم الدينية قد خلقت هذا الأساس المتين، وسنة الرسول ﷺ أصبحت إطاراً من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعي العظيم»[3].

وعليه فإن الإسلام هو المنهج الذي يمتلك كل عناصر القوة التي تمكنه من

(١) الأميري، ص٢١.

(٢) نفسه، ص٢٤.

(٣) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٧.

اختناقات الحضارة الغربية وبربريتها، وبالتالي فإن المسلمين أصحاب المنهج الإسلامي هم الذين يمتلكون القدرة التي يستطيعون بها أن يثبوا الوثبة الكبرى لإنقاذ البشرية وإعادتها إلى منهج الله سبحانه وتعالى(١).

والإسلام في وثبته المرتقبة -بعون الله تعالى- الكبرى لا يهدف إلى تحطيم مظاهر الحضارة الصناعية أبداً، بالعكس فإنه يحافظ عليها وينميها، ولكنه يعمد فقط إلى تغيير النظرة إلى هذه الحضارة بجعل الروح الإنسانية هي المسيطرة عليها، لا هي المسيطرة على الروح وتصورات الإنسان ومشاعره وأخلاقه(٢).

وعندما يصبح الروح الإنساني المؤمن هو المهيمن وهو المسيطر على كل جانب من جوانب الحياة، بمختلف ميادينها واتجاهاتها، فعندئذ يصبح الإنسان متمتعاً بحريته في إطار عقيدته، قادراً على الاختيار.. والاختيار هو العنصر المفقود في الحضارة الصناعية(٣).

ونحن الآن نعيش حالة ترقب لإحداث تلك الوثبة الكبرى في حياة البشرية فتعيدها إلى المنهج الإلهي، فتستعيد البشرية بذلك إنسانيتها وحريتها وطهرها ونقاءها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾(البقرة:١٣٨)، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣).

والله ولينا في الحياة الدنيا والآخرة، وهو نعم الولي ونعم النصير.

---

(١) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص ١٠٦

(٢) نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) نفسه، ص ١٠٧.

الإسهام الحضاري للأمة المسلمة

الدكتور سعيد عبد الله حارب*

النفير الحضاري عنصر أساس من العناصر العاملة في نشوء الحضارات.. فالأمم لا تصنع الحضارة إلا بهمة جماعية تحشد فيها قوى الفرد، ثم تحشد قوى الأفراد حشداً جماعيًا لتحقيق هدف معين تحمله الفكرة التي تحدد غاية الحياة..

تعبّر الحضارات الإنسانية على مر العصور عن إسهامٍ لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب في صنع ذلك التراكم الهائل من الأفكار والثقافات والعادات والتقاليد، وكذا الإنتاج المادي لتلك الأمم من صناعات ومخترعات واكتشافات أبدعتها يد الإنسان، انطلاقًا من شعوره بدوره الإنساني تجاه العصر الذي يعيش فيه.

وقد ارتبطت تلك الإسهامات بدوافع عدة كانت الحاجة مبتدأها، وتطورت مع تطور الحياة الإنسانية، وجاءت الأديان لتعطي بعداً نفسيًا ومعنويًا ومشروعية لذلك الفعل التراكمي، إلا أن ذلك الفعل الحضاري لم يكن حكراً على الأديان السماوية وحدها بل شاركتها الأديان الوضعية على مختلف العصور.. فإسهام الصينيين والمصريين القدماء، بل وإسهام الهنود والفرس مروراً بالإغريق، كان للدين دور مؤثر فيه إلا أنه لم يكن الدور الأساس في صنع تلك الحضارات، بدليل أن تلك الحضارات

* نائب مدير جامعة الإمارات العربية المتحدة..

كانت تقترب أو تبتعد عن الأديان في كثير من مراحلها التاريخية وفقاً لموقف الأديان من الفعل الحضاري لتلك المرحلة، ولم يكن الدين وحده المؤصل للحضارة، بل شاركته أفكار وفلسفات إنسانية، ولذا لم يكن الدين في تلك المراحل هو المؤثر الوحيد أو المؤثر الأول في صناعة الحضارة. ولعل هذا الأمر يفسر حالة الاندثار أو التراجع للحضارات الإنسانية السابقة التي لم يبق منها إلا آثارها أو أطلالها ولف النسيان ذلك الفعل الحضاري بمجرد زوال المرحلة التاريخية أو الدافعية، وأصبحت تلك الحضارات تاريخًا أو جزءًا من التاريخ.

إن هذه المقدمة تنقلنا إلى تساؤل عن مدى تطبيق هذا المعيار على الحضارة الإسلامية، وهل هي أثر من آثار الدين أم شيئًا منفصلاً يتأثر بالدين؟! وبماذا تختلف الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات؟

يعرف ول ديورانت (Will Durant) الحضارة وعواملها بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.. تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون».. ويحدد لها عوامل عدة، من أولها العوامل الجيولوجية، وثانيها العوامل الجغرافية، وثالثها العوامل الاقتصادية، ورابعها العوامل الثقافية[1].

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نتصور الرؤية الأخرى (غير الإسلامية) للحضارة الإنسانية، إذ تغيب عنها الفكرة أو (الأيديولوجيا)، أو بمعنى أدق الدين كمؤسس للحضارة، أو حتى دافع لها أو مؤثر فيها.. وحتى حين يذكر (ديورانت) من العناصر المكونة للحضارة (التقاليد الخلقية)، فهي ليست بالضرورة منطلقة من فكرة أو دين، بل قد يكون منشأها الحاجة أو البيئة الاجتماعية.. وهذه الرؤية

(١) انظر قصة الحضارة، وول ديورانت، ج، ص٣، الإدارة الثقافية، الجامعة العربية، ١٩٩٥م، ط٣.

للحضارة لا تختلف اليوم عما كانت عليه في العصور السالفة، إذ ما يزال ينظر للحضارة بعيداً عن الدين بالمعايير الأربعة التي يمكن أن نطبقها على الحضارة المعاصرة -إن وجدت- ونستطيع بهذه الرؤية المادية -بصفة عامة- أن نتعرف على أسباب سقوط الحضارات السابقة واندثارها، إذ أن تراجع عوامل الحضارة أدى إلى انهيارها وسقوطها، بل إن تلك الحضارات كانت تحمل -لماديتها- أسباب سقوطها في داخلها، كما يبين ذلك ابن خلدون حين يرى أن «غاية العمران هي الحضارة والترقي، وأنه إذا بلغ -الترف- غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات، بل نقول: إن الأخلاق الحاصلة عن الحضارة والترف هي عين الفساد»[1].

وهذه الرؤية للحضارات القديمة لا تختلف عن الرؤية المعاصرة للحضارة المادية السائدة، إذ ما تزال معايير (ديورانت) هي التي تقوم عليها الحضارة المعاصرة -إن صحت التسمية- لكن هذا التصور للحضارة يختلف عن التصور الإسلامي لها، بل تختلف تلك المعايير عند التطبيق على الحضارة الإسلامية، ولعل ما يشير إليه الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- أكثر انطباقًا على المفهوم الإسلامي للحضارة، إذ يرى أن عواملها «أربعة هي: الأفكار، وخاصة منها الدينية، والإنسان، والتراب، والزمن.. فالإنسان المقصود به: الفعالية الحضارية التي تتكون في الإنسان.. والتراب: يمثل البيئة الجغرافية التي يعيش فيها.. والزمن: هو الاستثمار الفاعل للوقت.. والفكرة الدينية هي: العامل الأساس في التفعيل لهذه العناصر الثلاثة[2].

ولعل السؤال يطرح مرة أخرى: إن هذه العوامل الأربعة موجودة في الحضارات الإنسانية عامة، فبماذا اختلفت الحضارة الإسلامية عنها؟

إن الواقع يشير إلى أن الحضارة الإسلامية تلتقي مع الحضارات الأخرى في ثلاثة

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١١٢، طبعة الشعب، القاهرة.

(٢) فقه التحضر، د. عبد المجيد النجار، ص٢٦.

من عواملها، إلا أنها تختلف معها في عامل أساس وهو الفكرة أو الدين الذي ترتبط به الحضارة، فإذا كان هذا الارتباط هشًا وضعيفًا عند الحضارات الأخرى فإنه في الحضارة الإسلامية يعد الرابط الأساس، إذ تقوم الحضارة الإسلامية على الدين الإسلامي، فهو بالنسبة لها الدافع والمحرك والموجه والمقوم.. ولا يعني ذلك أن الحضارة الإسلامية حضارة دينية (ثيوقراطية) بالمعنى المقدس، بل هي فعل إنساني محركه ومعياره الذي يقاس عليه الدين.. وهذا الرابط هو الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية قديمًا، وهو الذي يحدد دورها في المستقبل.

ومن هنا يمكن تصور استمرار الفعل الحضاري الإسلامي خلال العصور السابقة وتصوره المستقبلي، ولذا تشترك الحضارة الإسلامية مع الحضارات الإنسانية السابقة واللاحقة في كثير من الدوائر وتختلف عنها في دوائر أخرى.. بل إن الحضارة الإسلامية هي الجانب الأكبر من المشترك الإنساني للإسلام ذاته، فلم يأت الدين الإسلامي للمسلمين وحدهم بل جاء للبشرية كافة، وهذا ما تحدده الآيات والأحاديث، وجاء الخطاب القرآني ليتحدث عن « الناس »، فأكد على الانتماء الإنساني الواحد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ (النساء : ١)، فلم يتحدث عن أب وأم أو نسل، بل تحدث عن « نفس » وهي قاسم إنساني مشترك يذكر الإنسان بارتباطه بالآخر.. وقدم الإسلام عوامل الوحدة الإنسانية على عامل التفرقة الدينية فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات : ١٣).. وتحدث عن تكريم الإنسان لإنسانيته فقال الحق عز وجل : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء : ٧٠). ولذا نجد (مساحة) الناس أو الإنسان في الخطاب القرآني واسعة ومتعددة.

والمسلم بالطبع يختلف عن غيره في حقيقة الإيمان وخصائص النظام الإسلامي بجوانبه العقائدية والعبادية والتشريعية، فهو ليس مخاطبًا بالتكاليف الاقتصادية أو العبادية أو التشريعية المرتبطة بسابقتيها لكنه مرتبط بها في رابط الإنسانية التي يلتقي فيها بالمسلم على الأرض، أو المواطنة بحقوقها وواجباتها، أو بالعلائق البشرية التعاهدية أو التعاقدية أوالمصالح المشتركة أو غيرها.. وهذه المساحة المشتركة هي التي يمكن تحقيقها من خلال الحضارة، ولذا فما أبدعه المسلمون في حضارتهم لم يكن خاصًا بهم، بل امتد تأثيره إلى البشرية كافة، بل إن الحضارة المعاصرة تدين في كثير من قواعد نهضتها على ما بناه الرواد الأوائل للحضارة الإسلامية، وهذا ما يقرره (البرت تشمبدر) و(ديزلر) و(كويلي بونج) و(أندريه ميكيل) و(آدم متز) و(زيغرد هونكه) وغيرهم، عدا عن الأدبيات الإسلامية التي تمتلئ بالعرض المتكرر عن إنجازات الحضارة الإسلامية وما قدمته للبشرية.. لكن هذه الحضارة تقف اليوم أمام تساؤل كبير، وهو دورها في المستقبل، هل ستمضي في شراكتها الإنسانية وتسهم كما أسهمت في الماضي، أم سيتوقف عطاؤها الإنساني وتصبح حضارة تاريخية يدرسها الباحثون كما يدرسون أي حضارة إنسانية اندثرت؟

إن الأمر يتطلب أن نحدد عدة منطلقات في إجابتنا على هذا التساؤل: **أولها: فك الارتباط بين الإسلام بشموليته وبين الواقع الإسلامي**، فالحضارة الإسلامية وإن كانت تنطلق من الإسلام إلا أنها لا تعني أنها الإسلام ذاته، بل هي الفعل الإنساني للمسلم.. وهذا الفعل ينطلق من المبادئ والتصورات والرؤى التي يحملها المسلم، وتلك علاقة طردية بين فهمه للإسلام وفعله لما يفهم، ولا يعني هذا بالضرورة الدخول في أحكام شرعية بإيمان المسلم أو عدم إيمانه، وبتطبيق أحكام الإسلام عليه من

عدمها، لأن ذلك ليس مدار الفكرة، بل يحكم للمسلم بالإسلام متى نطق بالشهادتين وعمل جهده على تطبيق أحكام الإسلام وتعاليمه، لكن الفكرة تنطلق من مدى ما يطبقه المسلم ومدلول هذا التطبيق.

ولعل من نافلة القول: التأكيد أن الإسلام دين (سنني)، أي قائم على السنن والأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى، وتلك السنن لا تختلف ولا تتخلف، متى ما أخذ الإنسان «المسلم» بها تحققت له النتائج السننية لها، فالنهضة -مثلاً- لها أسباب، منها: الأخذ بالعلم والقوة بصورها المختلفة التي تتفاوت بين الصدارة والمؤخرة، فتارة يتقدم الاقتصاد ليتراجع الجهاد، وتارة يتصدر الإيمان ليتأخر الاقتصاد وفقًا للحاجات الزمنية والمكانية، لكنها تبقى في النهاية عوامل قوة متى ما قدم لها الإنسان «المسلم» مقدماتها جنى نتاجها، وهو في ذلك لا يختلف عن الإنسان (الآخر)، ولذا لا يمكن الحكم عن إمكانية إسهام الحضارة الإسلامية في عالم الغد من واقع حياة المسلمين، إذ ليس عيبًا في الأسباب أن لا يأخذ الإنسان بها، بل عيب في الإنسان أن لا يأخذ بالأسباب!! ولذا فالتخلف الظاهر في حياة المسلمين اليوم ليس تخلفًا إسلاميًا!! بمقدار ما هو تخلف في الفعل الحضاري للإنسان المسلم، وتراجع عن الأخذ بأسباب النهضة الحضارية التي أخذ بها (الآخر) وعمل بأسبابها وحقق نتائجها.

أما ثاني المنطلقات فهو: أن الحضارة الإسلامية حضارة مستمرة لا تعرف الاندثار، قد تتراجع أو تقصر عن الفعل أو الإسهام في صناعة الحضارة الإنسانية في فترة تاريخية محددة، لكنها تملك مقومات النهوض بها، لأن القول بإمكانية اندثار الحضارة الإسلامية إنما يعني توقف الجانب الإنساني في الفعل أو العطاء من الإسلام، أي في فعل المسلم لذاته أو عطائه لغيره.. فإذا كانت الحضارة هي الوجه الإنساني

للإسلام، فإن القول بإمكانية اندثارها يعني القول باندثار هذا الجانب وتراجع الإسلام ليصبح دينًا «قوميًا» أو مرحليًا أو محدوداً على فئة من البشر، وتلك قضية مناقضة لجوهر الإسلام الذي جاء «رحمة للعالمين» واستقر الأمر على حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

الأمر الثالث هو: المرجعية التي تستند عليها الحضارة الإسلامية، إذ أن مرجعيتها هي الإسلام ذاته من خلال مصادره الأصلية أو الفرعية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المرجعية الثابتة والمستقرة للحضارة الإسلامية، التي تمدها بالدفع والتحريك من خلال النصوص العامة ذات الدلالة التي ترتقي على البعد الزماني والمكاني وتستمر في عطائها الحضاري عبر وتيرة تاريخية ترتفع وتنخفض وفقًا للفعل الذي يقوم به المسلم أو الأمة الإسلامية مع ثبات في الأصل وثبات في الحد الأدنى من هذا الفعل الذي يشكل الصفة اللازمة للأمة حين يقرر «إسلاميتها»، إذ تحدد الخصائص العامة للأمة تلك الصفة الملازمة لها والتي تفرق بينها وبين الأمم الأخرى ذات الخصائص أوالصفات الملازمة لها كذلك.

لكن الأمة المسلمة (الأداة الفاعلة للحضارة) لا تستمد تلك الصفة من (قوم) أو (أرض) أو (عطاء) وإنما تستمدها من الدين، وتلك علامة فارقة بينها وبين الأمم أو الحضارات الأخرى، إذ لا توجد حضارة دينية بالمعنى الدقيق، فليس هناك حضارة بوذية أو هندوسية أو مسيحية أو يهودية أو غيرها من الأديان، بل تستمد الحضارات صفتها من الأرض أو القوم.. كالحضارة الفارسية أو الهندية أو البيزنطية أو الإغريقية أو المصرية القديمة أو غيرها من تلك المسميات التي تعبر عن حضارات انتهت، بل حتى حين نتجاوز عن تطبيق مفهوم الحضارة بصفة دقيقة، ونطلق على المدنية السائدة اليوم لفظ الحضارة فإننا ننسبها إلى أرض أو جهة.. إذ يتحدث العالم اليوم عن (الحضارة) الغربية أو الحضارة الأمريكية أو غيرها، لكن الحضارة الإسلامية، وحدها

التي تستمد صفتها من الدين، كما أن أداتها المنفذة لها تستمد كذلك صفتها من الدين فنقول: الإنسان (المسلم) أو الأمة (المسلمة)، بل إن من معاني لفظ الأمة: الدين ذاته، كما يقول الطبري «لأن الأصل أن يقال للقوم يجتمعون على دين واحد: أمة، فتقام الأمة مقام الدين»، ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (البقرة:٢١٣)، يقول: «إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة».

وهذا ماذكره النبي ﷺ حين أبرم العهد مع اليهود في المدينة، إذ جاء فيه «هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم...»[1].

ولذا فقد ارتبط مفهوم الأمة في الإسلام بمفهوم الدين، ويؤكد هذا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٩٢)، ولذا فإن «الأمة» بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني وعقدي وليست انتماءً عنصريًا لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق. ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر.. وهذا الانتماء الديني العقدي الذي قامت عليه الأمة في الإسلام لا ينفي الانتماء العرقي الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (الحجرات:١٣).

(١) الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص١٥، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.

فإذا كانت الأمة -كأداة صانعة للحضارة- تعتمد في مرجعيتها على الإسلام ذاته، بمصدره الثابت التي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه ومصدره الثاني الذي يلائم الزمان والمكان، فإن ذلك يضيف ثباتًا آخر للحضارة الإسلامية، حيث إن مرجعيتها وأداءها ثابتان ومستمران، ولذا فقد عاشت الأمة المسلمة خلال مراحل التاريخ المختلفة وخرجت من سيرورة المآل الذي آلت إليه الحضارات السابقة، فبقيت مستعصية على الزوال الذي أطاح بالحضارات السابقة، إما لطول زمن أو لاندثار آلة أو لغلبة (الآخرين) عليها، كما يشير إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته إذ يقول:

«الأمة إذا غُلبت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء، والسبب في ذلك -والله أعلم- ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا مُلك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل، والاعتمار إنما هو من جدة الأمل.. فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذات هبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خفد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل.. فلا يزال يأخذهم الفناء، والبقاء لله وحده، واعتبر ذلك في أمة الفرس، كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب.. ولما تحصلوا في ملكة العرب.. لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غُلب على أمره وصار آلة لغيره»[1].

وحين نمعن النظر في هذ القاعدة (الخلدونية)، نجد أنها تنطبق على كافة

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، ٢/٥٦١.

الحضارات التي سبقت حضارة الإسلام، بل يمكن تطبيقها على الواقع المعاصر سواء اتفقنا على تسميته بالحضارة أو اختلفنا، بل يمكن تطبيقها على دوائر أضيق من الحضارة.. فمآلات الدول المتأخرة تشير إلى صدق هذه القاعدة، وما انهيار النظام الشيوعي كفكرة وتطبيق إلا دلالة واضحة على ذلك، لكننا نقف كثيراً عند تطبيق هذه القاعدة على الحضارة الإسلامية، فقد بقيت مستعصية على الفناء أو الانهيار، ولا نعني بذلك الاستعصاء على التراجع عن موقع الصدارة المادية، أي بما تقدمه من عطاء مادي علمي أو فلسفي فذلك واضح لا يحتاج إلى دليل، إذ تراجع المسلمون أشواطًا كثيرة! لكن الاستعصاء يكمن في قدرة الحضارة الإسلامية على المحافظة على مقومات النهوض، وتملكها لبذور الاستمرار التي متى رويت بماء النماء أينعت وأثمرت.

ولعل كثيراً ممن يشدهم الواقع الذي يعيشه المسلمون يرون في ذلك شطحات «خيال» أو «لا واقعية» في التصور، لكن التاريخ علمنا أن هذه الحضارة قادرة على العودة إلى الصف الأول مع غيرها من الحضارات إن لم تكن في مقدمتهم، وقادرة على الإسهام مع غيرها في صنع حضارة إنسانية تحقق للإنسان مبتغاه من الحياة الكريمة، ولذا فإن ما يستقبل الأمة الإسلامية من إسهام حضاري ينطلق من تلك المقدمات التي لابد من إيضاحها حتى نبين ذلك الدور المرتقب الذي قد يكون بعضه مستمراً كقاسم تاريخي مشترك، بينما يبرز بعضه الآخر بين فترة وأخرى، في حين تأتي أدوار جديدة لإسهامات الحضارة الإسلامية وفقاً لحاجة الزمان والمكان الذي تقوم فيه تلك الحاجة، ويبرز في مقدمة ذلك الإسهام ما يمكن أن نصطلح عليه بالشهود الحضاري انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

وقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وذهب المفسرون في ذلك مذاهب شتى، إذ تحدث بعضهم عن الشهادة في الآخرة، مثلما أشار ابن كثير في تفسيره، من ذلك الحديث الذي يرويه الحاكم في مستدركه عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ: «**أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا وأنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه**»..

لكن مفسرين آخرين ذهبوا إلى أن الشهود ليس في الآخرة فقط، بل هناك شهود في الحياة كذلك مثلما يقول عطاء: إن «أمة محمد شهداء على من ترك الحق حين جاءه بالإيمان والهدى من كان قبلنا، ورسول الله ﷺ شاهد على أمته وهم شهداء على الأمم، وهم أحد الأشهاد الذين قال الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١).. وكما يقول الطبري في تفسيره «شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون الرسول محمد ﷺ شهيداً عليكم بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي».

والشهود الذي تقوم به الأمة الإسلامية قائم على معايير ثلاثة هي: الوسطية، والرحمة، والخيرية، وهو ما أكدته الآية، إذ أن معيار الوسطية أعطى الأمة الإسلامية حالة من الاعتدال الذي يجعلها مقياسًا تقاس عليه الأمم السابقة التي أفرطت أو فرضت، «فلما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محموداً، أي هذه الأمة لم تغلو غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم»[1].. وتلك الوسطية قائمة على ما حظى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة «بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

(١) تفسير القرطبي، شبكة الإنترنت على عنوان: http://quran.al-islam.com/odefaulta.htm

مِّنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج: ٧٨)[١].

أما المعيار الثاني فقوامه الرأفة والرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للناس كافة، وقد جمع بين الرأفة التي هي أشد من الرحمة -كما يقول عمرو بن العلاء- للتأكيد على أن الناس جميعًا محتاجون إلى رحمة الله ورأفته».. ويؤكد هذا الفهم الحضاري للرأفة والرحمة قول النبي ﷺ في الصحيح عندما رآى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيًا من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه،** قالوا: لا يا رسول الله.. قال: **فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها**».

ومن هنا فإن الحضارة الإسلامية حين تميز بهذا الوصف، أي بالرأفة والرحمة باعتبارها تمثل الأمر الإلهي تطبيقًا وتحقيقًا، فإنها تحمل في مضمونها معنى الشهود الحضاري، خاصة وأنها قد تيسرت له إمكانية القيام بهذا الدور من خلال المعيار الثالث الذي اتصفت به لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فقد ربطت الآيات بين الخيرية وفعل الخيرية من خلال ثلاثة جوانب هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما لفظان عامان يدلان على القيام بدور في تحقيق الخيرية للناس، فهذا المعنى يعطي لهذه الأمة دورًا بين الناس وهو دفعهم للمعروف.. أي معروف، دون تحديد ممن ولمن وكيف؟ كما أنه لفظ يخرج من إطاره الزمني والمكاني ليمتد عبر الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومثل ذلك في النهي عن المنكر، لكن الملاحظ أن

(١) تفسير ابن كثير، شبكة الإنترنت على عنوان:http://quran.al-islam.com/odefaulta.htm

الإيمان بالله، وهو أحد أضلاع الخيرية، جاء في آخر الترتيب حتى لا يتصور أحد -والله أعلم- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو للمؤمنين فقط، بل هو منهم ولهم وللناس كافة إن هم أرادوا تحقيق الخيرية في أنفسهم، يقول القرطبي في تفسير هذه الأمة هو: مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم.

وبناء على أن الإسلام عالمي الهدف، فإن الحضارة التي تنشأ به ليست بالحضارة المنكفئة على ذاتها، حبيسة لدائرة المجتمع الإسلامي فحسب، بل هي حضارة تجعل من همومها الانتشار بين الناس، ومن ثم فإن لها بعداً إنسانيًا عامًا كمبدأ أساس من مبادئها. وحينما يكون الأمر كذلك، فإن التحضر الإسلامي، كما كان له بعده الداخلي المتعلق بدائرة المجتمع الإسلامي، فإن له بعده الإنساني المتعلق بالموقف من الناس عامة، وإذا تجاوزنا المعنى الغيبي الذي تحمله الشهادة على الناس كما ذكره المفسرون متمثلاً في شهادة الأمة الإسلامية في اليوم الآخر على الأمم على أنهم قد بُلغوا رسالات ربهم، إذا تجاوزنا ذلك إلى معنى الشهادة على الناس في الدنيا، فإن هذه الشهادة في ظاهرها هي الإخبار عن أمر وقع العلم به لإقامة حق يتوقف عليه ذلك الإخبار. وهو ما يقوم على أربعة عناصر أساسية:

العلم الذي هو أساس الشهادة، والبيان والإظهار لذلك العلم، ثم تبليغ ذلك العلم بحيث يصير واصلاً إلى الآخرين على الوجه المقنع، ثم العدل في كل ذلك حتى تكون الشهادة مفضية إلى نفع المشهود عليهم.

تلك هي الشهادة على الناس التي يقوم عليها التحضر الإسلامي تأسيسًا في مبادئ الدين، وتطبيقًا في السيرة العملية للحضارة الإسلامية. إنها شهادة تنطلق من تصور عقدي للإنسان الذي خلق للنعمة، وكرم تكريمًا، وحمل الأمانة تعظيمًا..

وبناء على ذلك فإن التحضر الإسلامي يشهد على الناس بشهادة العلم بحقائق الدين والكون والناس، ثم شهادة على الناس بتبليغ تلك الحقائق تبليغ إنقاذ وإصلاح ونشر للخير، شهادة عدل في الموقع الوسطي بين المتطرفات في الأفكار والسلوك، ليكون ذلك الموقع مثوبة لمن ترهق فطرته مسالك التطرف، وشهادة عدل في الحكم بين الناس بالتعامل المتساوي معهم، وبرد جائرهم عن مظلومهم، ونصرة المستضعفين والمقهورين.

هذه هي شهادة التحضر الإسلامي على الناس، وهي شهادة لا يضيرها خروقات الأفراد والحالات الجزئية المعزولة إذا ما ظلت قائمة في عمومها زمن التحضر. وهي إذا ما خفتت بانحدار الأمة، فإنه لا ينهض تحضر إسلامي إلا على أساسها، وإلا فهو تحضر غير إسلامي. وما أكثرها من حضارات لا يبالي أهلها بالناس إلا أن يتخذوهم مرقاة لأغراضهم الخاصة[1].

ولعل من الإسهام الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، المشاركة في صنع حضارة إنسانية معاصرة، فقد تعالت الصيحات الإنسانية محذرة من مآل البشرية في عالم يموج بالماديات وتتراجع فيه الروحيات يومًا بعد يوم مما ينعكس على حياة الإنسان ذاته.. لقد تحدث الدكتور (ليبولد مينون) أستاذ التربية الأمريكي، قائلاً: «لقد حققنا خلال العقود الثلاثة الماضية للبشرية ما لم تحققه خلال ثلاثة قرون، فغزونا الفضاء، وفجرنا الذرة، واجتزنا المسافات.. كل ذلك من أجل الإنسان، لكننا اكتشفنا بعد ذلك أننا نسينا الإنسان ذاته».

ولذا فلا يمكن تصور وجودحضارة معاصرة اللهم إلا إذا اعتبرنا الإنجاز المادي الذي حققته البشرية –تجاوزًا– إنجازًا حضاريًا، إذ الحضارة لا تتشكل من جناح واحد،

(١) انظر: فقه التحضر الإسلامي، د.عبد المجيد النجار، ص٣٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ولا تطير إلا بجناحين، جناح العلم، وجناح الروح، وهما جناحان متوزعان في عالم اليوم، فمن يملك العلوم والمعارف لا يملك الروح والقيم والفضائل، إلا قليلاً، ومثل ذلك القليل من العلم الذي يملكه من يملك الروح والقيم والفضائل، فلم يحقق أي من الطرفين حضارة متكاملة بالمعنى الدقيق للحضارة.. والأمة المسلمة تملك الأصل الثابت للحضارة وهو جانبها الروحي لكنها تفتقد الجانب العلمي المادي.. وحين تعجز عن صنع حضارة خاصة بها فلا أقل من المشاركة مع الآخرين في صنع تلك الحضارة والعمل على إيجاد حضارة إنسانية معاصرة ومتوازنة.

إن الرجوع إلى ماضي الأمة الإسلامية والاستشهاد بنموذجها الرائع حين أبدعت إنتاجًا علميًا حضاريًا عظيمًا لا يكفي وحده لبناء حضارة جديدة.. فما فعله بن علي ابن يونس والبيروني والمجريطي وابن خلدون وابن رشد والخوارزمي ومحمد بن أحمد مخترع الصفر، وابن الهيثم وجابر بن حيان وأبو بكر الرازي وابن سينا وابن زهر وأبو القاسم بن عباس وغيرهم من علماء الإسلام الذين برعوا في المعارف والعلوم ووضعوا أسسًا لحضارة استمد الغرب منها قواعده ليبنى عليها مدنيته -كل أولئك- تركوا تراثًا عظيمًا توقف عن النماء حين تخلى المسلمون عن دورهم الحضاري.. ولا يمكن أن يعود ذلك التراث، بل لا بد من بناء جديد يقوم على معطيات وحاجيات جديدة، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال التفعيل الروحي، أولاً باعتبار ذلك أساسًا لبناء واستمرارية الحضارة وحتى لا تكون عرضة للهدم والانحراف.

والأمة المسلمة هي الأقدر على تقديم هذا الجانب لما تملكه من مصادر ثابتة وملائمة لتحقيق الغرض من خلال تطبيقاتها الواقعية التي أثبتت الحاجة الإنسانية لها حتى مع اختلاف الدين أو المعتقد، لكن الواقع الذي يعيشه المسلمون يقف حائلاً دون تحقيق هذه الروحية، إذ مع سموها وارتفاع مكانتها وقدرها لا تجد من يحسن عرضها، فهي كسلعة جيدة في سوق كاسدة!! ومع ذلك فإن هذه الروحية على الرغم

من الظروف التي تحيط بها تجد لها مسارب تنساب فيها لتصل إلى طالبي الحقيقة من الناس، وهذا ما يفسر الإقبال على الدخول في الإسلام من مجموعات وأفراد لم يجدوا راحتهم الروحية إلا مع الإسلام.

وإذا كان هذا شأن الأفراد والمجموعات، فإن الأمم والحضارات لا تقل شأنًا وحاجة عنها، فالخواء الروحي الذي يلف العالم اليوم دعى عقلاء البشر ليجأروا بالدعوة إلى إحلال الروحانيات في حياة الإنسان تحقيقًا للتوازن مع حياته المادية وتحقيقًا للاستقرار الداخلي حتى يعيش الإنسان حياة مطمئنة.. كما أن تلك المشاركة لا تعني العزلة والانكفاء بل التفاعل مع العالم المحيط، والتعامل مع احتياجاته بروح من المشاركة والتسامح، تحقيقًا لغاية الإسلام ورسالته للبشرية كافة والتقاءً مع بني البشر فيما يحقق سعادتهم واطمئنانهم، إذ تواجه البشرية اليوم عددًا من التحديات والمشكلات التي تحول دون سعادتها.. ولعل في مقدمتها إحلال الأمن المشترك والسلام العالمي، إذ يعتبر الأمن إحدى الضروريات الهامة التي يحتاجها الناس الذين يسعون إلى الاستقرار، ولذلك فإن الدول على مختلف اتجاهاتها وأنظمتها السياسية تسعى إلى المحافظة على أمنها الداخلي والخارجي، وتتخذ وسائل شتى لتحقيق ذلك، وتختلف هذ الوسائل من دولة إلى أخرى كما تختلف من عصر إلى آخر.

وإذا كان الأمن الداخلي مسألة خاصة بكل دولة منفردة، فإن الأمن الخارجي يعتبر من المسائل التي تشترك فيها الدول، وتتعارف فيما بينها لتحقيق ذلك، ويعتبر تعاونها في هذا المجال ضروريًا لاستمرار الأمن والسلام بينها.

ولقد كان الأمن الخارجي مسألة مهمة في مختلف العصور، فقد كانت القبائل المختلفة تسعى لذلك من خلال عقدها للاتفاقيات فيما بينها بشأن عدم الاعتداء والتعاون فيما بينها لصد الاعتداءات الخارجية.. وكانت الدول تلتقي على أسباب

مختلفة لهذا التعاون، حيث كانت المصلحة المشتركة هي إحدى ركائز التعاون بينها.

وجاءت الحضارة الإسلامية متمثلة في الأمة والدولة المسلمة لتعطي مفهوم الأمن المشترك تميزاً عما كانت عليه الأمم السابقة، فإذا كانت دول العالم تسعى لإقرار الأمن بينها حتى تمنع العدوان وتقر حالة السلم القائم، فإن الأمة المسلمة تجعل من الأمن المشترك وسيلة لإيصال الدعوة للآخرين، فالأمن بالنسبة لها ضرورة مهمة حتى تستطيع أن تبلغ دعوة الله للناس كافة.

كما أن الأمن المشترك الذي تسعى له الأمة الإسلامية مع غيرها يهدف إلى ضمان الأمن والاستقرار الداخلي، فعدم التدخل في الشؤون الداخلية يأتي في مقدمة ما تسعى إليه الاتفاقيات والمعاهدات التي تعقدها الدولة المسلمة مع المجموعات والدول الأخرى.

كما أن اجتماع الدول الإسلامية مع بعض الدول الأخرى في رقعة جغرافية واحدة يجعلها تسعى إلى أن تشترك مع غيرها في حماية هذه المنطقة من الاعتداء عليها من قبل القوى الخارجية.

فقد سعى الرسول ﷺ إلى تنظيم مسألة الأمن مع القوى الأخرى التي كانت تسكن المدينة عندما بدأ الخطوات الأولى في تأسيس الدول الإسلامية.

وكان اليهود من أبرز المجموعات الموجودة في المدينة حال تأسيس الدول المسلمة، ولذلك فقد خصهم الرسول ﷺ ببنود خاصة في الوثيقة التي أقامها بين المسلمين من جهة واليهود من جهة أخرى، فقد كان اليهود يشاركون المسلمين في المدينة، ولذا وجب أن تنظم معهم العلاقة بشكل عام، والأمن بشكل خاص، لأنهم كانوا يقفون من الدعوة الإسلامية موقف العداء، ولذا أراد الرسول ﷺ أن يأمن جانبهم فنص في الوثيقة على أن: « ... من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين

ولا متناصر عليهم... وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. وأن بينهم النصر [على] من دهم يثرب، وإذا دعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعَوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين... وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو إثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله»[1].

ويتبين من خلال هذا العهد أن الرسول ﷺ قد جعل جزءاً من مسؤولية الأمن على اليهود، لأنهم يعيشون في المدينة ويستمتعون بالاستقرار والطمأنينة فيها، ولذا يجب عليهم أن يساهموا في حفظ أمنها من جانبهم سواء تعرض هذا الأمن لاعتداء منهم أم من القرى الخارجية، ويبدو ذلك من خلال النص الصريح: (وأن بينهم النصر على من دهم يثرب)، ولذا فحين تعرض أمن المدينة إلى الخطر من اليهود أجلاهم الرسول ﷺ منها في الوقائع التي ترويها كتب السيرة والمتعلقة بإخراج يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة من المدينة.

وإذا كان الأمن المشترك مبدأ تلتقي فيه الأمة المسلمة مع غيرها، فإن السلام العالمي مبدأ عظيم جاء الإسلام ليقره ويحدده على منهج جديد، ليس كذلك المنهج الذي اختاره دعاة السلام العالمي من زعماء ومفكري العالم الغربي.

والإسلام لا ينظر إلى السلام العالمي نظرة جزئية، بل ينظر إليه نظرة شمولية في كل جوانبها، فمن حيث الأرض والمساحة الجغرافية نجد الإسلام لا يحدد أرضاً معينة تعيش في سلام، بل يقرر أن السلام يجب أن يسود العالم أجمع وذلك لأن دعوة

(١) الوثائق السياسية، حميد الله، ص١٧-٢١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.

الإسلام دعوة عالمية، قال تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

أما من حيث البشر، فلم يفرق الإسلام بين المسلمين وغيرهم في السلام، بل جعل السلام حقًا للجميع، يتمتع به في ظل حماية دائمة مقرونة بالقوة التي تكون على استعداد تام لرد كل عدوان يخل بهذا السلام. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة:٢٠٨).

فهو يطلب من المسلمين أن يدخلوا في السلم.. وذهب بعض العلماء والمفسرين إلى أن المقصود بالخطاب، الذين آمنوا بالأنبياء جميعًا، فهي دعوة للبشرية جمعاء إلى الدخول في السلم[١].

ولذا فالعلاقة بين البشر ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسن والطباع والأخلاق واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني حساب في ميزان الله.

وإذا كان هذا هو البعد البشري للسلام العالمي في الإسلام، فإن البعد الزمني لا يتوقف عند فترة زمنية محدودة، بل يتجاوز ذلك إلى أي زمان تكون فيه للإسلام دولة، فهي مطالبة بأن يكون لها دور إيجابي في السلام العالمي.

هكذا تكون النظرة الإسلامية الشاملة للسلام العالمي، فالإسلام في طبيعته الحالية ونظرته إلى الحياة لا يجزئ السلام، ولا ينشده في حقل مفرد من حقول الحياة، وإنما يجعل السلام كله وحدة، ويحاول تحقيقه في كل حقل، ويربط بينه وبين الفكرة الكلية عن الكون والحياة والإنسان، وبذلك تصبح كلمة (السلام)، التي يعنيها الإسلام ذات دلالة أعمق وأشمل من معناها الذي تتعارف عليه الدول في هذه الأيام.

(١) انظر: تفسير المنار، رشيد رضا، ٢/٢٥٨.

فهو السلام الذي يحقق كلمة الله في الأرض من العدل والأمن لجميع الناس، لا مجرد الكف عن الحرب بأي ثمن مهما يقع في الأرض من ظلم ومن فساد.

والإسلام حين يقر السلام العالمي ينظر إليه نظرة موضوعية واقعية، وليست نظرة خيالية -كما يصورها علماء الغرب- فالإسلام يرى أن البشرية لا يمكن أن تكون على سوية واحدة من الفضائل فيكون بينها السلام والأمن، بل إن هناك من يوقن بهذا الأمن والسلام ويقبله وهناك من يرفضه بل يحاربه، ولذا فإنه لا يقر كثيراً من المبادئ التي قامت عليها النظرة الغربية للسلام العالمي، بل له نظراته الخاصة في ذلك، كما أن الإسلام لا ينظر أن يحل السلام بإسلام الناس كافة، فهذا أمر لا يملكه البشر، ولذلك فإن الإسلام لا يبني أحكامه في السلام العالمي على أساس انتظار أن يسلم الناس جميعًا، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك فقال: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣).

ويقول تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

بل يبين الإسلام أحكامه على أساس إمكانية التقاء الشعوب والدول والبشرية عامة على مبدأ السلام العالمي، بحيث يحفظ للناس استقرارهم وأمنهم.

والإسلام يرفض فكرة الحرب لذاتها، ويجعل الحرب والجهاد وسائل لأهداف عليا مختلفة، وجعل السلام فضيلة يسعى لها، خاصة إذا كان في هذا السلام نصرة للمظلوم وحفظ حقوق الناس من حرية المعتقد والتملك وغيرها من الحريات الفردية والجماعية.

فنصرة المظلوم وحماية الناس من الظلم هدف يسعى له الإسلام، ولذا نجد رسول الله ﷺ يشارك قبل البعثة في حلف التقت عليه قريش من أجل نصرة المظلوم،

فقد ذكر ابن هشام أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمته قريش بذلك حلف الفضول»[(١)].

وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ، وأقره بإعطائه الشرعية له بعد البعثة حين قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه ابن اسحاق قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[(٢)].

وبذلك وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى للتعاون بين المسلمين وغيرهم لنصرة المظلوم ورد العدوان، وهذا لب ما تقوم عليه دعوة السلام العالمي في الإسلام.

إن السلام العالمي في الإسلام هو السلام الذي يعيش فيه الناس جميعًا في أمن وطمأنينة وسلام دائم دون تفريق بينهم لجنس أو للون أو نسب، في حرية تمكنهم من اختيار المعتقد الذي يريدونه بعد أن تبلغهم دعوة الإسلام، وأن لا تقف فيه قوة أو مجموعة من الناس أمام هذه الدعوة، ولذلك فإن موقف الإسلام من مبادئ السلام العالمي يمكن تبينها في المساواة بين الدول على أساس الحقوق والواجبات، فالإسلام يقر للناس حقوقهم ويطلب منهم أن يؤدوا واجباتهم من خلال ما يتم الاتفاق عليه بينهم دون أن يعطي لأي دولة حقًا لا يعطى لغيرهم، كما نجد فيما يسمى بحقوق الدول الكبرى!!

وكذا عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، وهذا المبدأ يقره الإسلام إذا كانت هذه الشؤون لا علاقة لها بالمسلمين سواء كانوا من ديار الإسلام أو في الدول الأخرى،

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ١٢٢٢/١.
(٢) المصدر نفسه.

فالإسلام يتدخل لحماية المسلمين أينما كانوا، كما أنه يقف إلى جانب المظلومين سواء كانوا مسلمين أم غيرهم، وسواء كانوا شعوبًا أم أفرادًا، لأن أساس دعوة السلام العالمي في الإسلام هو نصرة المظلوم.

ويقر الإسلام القانون العالمي فيما يتفق مع الشريعة الإسلامية، وتلتزم الأمة المسلمة بما يتفق عليه المجتمع الدولي من معاهدات واتفاقيات لحفظ السلام العالمي، وتخدم هذه الاتفاقيات من أجل أن تعيش البشرية في سلام وأمن دائم، «ولن يقوم السلام بين دول العالم المختلفة إلا إذا احترمت كل دولة كلمتها ووفت بعهدها ومواثيقها».

ولا يرفض المسلمون قيام المنظمات الدولية –من خلال المواثيق والمعاهدات– لحفظ السلام العالمي، ولكن يشترط لهذه المنظمات أن تكون مستقلة عن سيطرة أي قوة من القوى، كما تلتزم بتحقيق السلام ونصرة المظلوم والحفاظ على الأمن والسلام العالمي، وأن يكون لديها من الإمكانيات ما يمكنها من تحقيق ذلك.

كما أن دعوة السلام العالمي في الإسلام تقوم على التسامح والتعاون بين البشر، حتى مع المخالفين لهم في العقيدة، ولذلك فلا موطن في نفوس المسلمين لما يسمى (الحقد الديني)، لأن المبدأ الذي يحدد العلاقة بين جماعة المسلمين وبين مخالفيهم هو التسامح.

وروح التسامح هذه لا يتعامل بها الإسلام مع فئة أو جماعة، وإنما يتعامل بها مع الناس كافة، فهي روح تمكن له من إقرار السلام في الأرض ومن تأليف الأجناس والألوان والأديان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بني البشر، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردي، والتطاحن الطبقي، والتناحر العنصري والتعصب الديني، كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التي تقوم على تلك الأسباب وعلى

الرغبة في الفتح والتوسع لمجرد الاستغلال المادي أو العظمة الكاذبة»[1].

ولعل من الإسهام للأمة المسلمة في عالم الغد، مشاركتها في صنع التقدم المادي الذي يلف العالم المعاصر، إذ أن حالة التخلف المادي الذي تعيشه الأمة المسلمة مدعاة لاستنهاض الطاقات والإمكانات من أجل تلك المشاركة تحقيقًا لمتطلبات التنمية الشاملة التي يحتاجها المسلمون، وقياماً بالدور المنوط بهذه الأمة باعتبارها أمة ذات رسالة تحمل في جانب منها الروحانية للإنسان، بينما تحمل في الجانب الآخر حاجته المادية، وتحقيقًا كذلك لواقعية الحضارة الإسلامية في تعاملها مع المراحل الزمنية التي تمر بها.

إن المدنية المعاصرة ليست وليدة اللحظة التاريخية، بل هي فعل تراكمي أدى إلى ما وصلت إليه الأمم المعاصرة من نهضة علمية وفتوحات تقنية جعلت أصحابها في مقدمة الأمم، بل جعلتهم أمة غالبة.. ومهما استطاعت الأمم الأخرى أن تحصل على حاجتها من التقدم العلمي ومهما أفاضت عليها الأمم المتقدمة مما عندها من علوم ومعارف، فإن ذلك لا يغني عن استنبات هذه المعارف والعلوم في الأرض المسلمة، إذ يمر القرار السياسي والاقتصادي والعسكري المعاصر من بوابة العلوم والتقانة.. والاستقلال بها استقلال بالقرار وقدرة على تنفيذه.

إن دعوات العجز والتخلف و(هدم) الذات، لن تضع الأمة المسلمة في أي موقع علمي متقدم، مثلها مثل دعوات التبعية العلمية للاستفادة مما حققه الآخرون.. كما أن تلك الدعوى إقرار بالواقع (المتخلف) الذي يعيشه المسلمون، إذ هم لا يشكلون في عالم التقدم المدني الحديث نسبًا تذكر أو مؤشر واضح، إذ تأتي معظم الدول الإسلامية في موقع متأخر من تصنيف التقارير الدولية الباحثة في الشأن العلمي

(١) انظر: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، دراسة مقارنة، سعيد حارب، مؤسسة الرسالة، بيروت.

أو التنموي، بل إن معظم الدول الإسلامية تصنف بين دول نامية أو أقل نمواً، وتحتل أرقاماً بعد المائة في تقرير التنمية البشرية.. ولا يحظى العلم أو البحث العلمي بتقدير واضح لديها، إذ لا يتجاوز الإنفاق على البحث العلمي بين ٢,٠٪ و ٠,١٪ من الناتج الوطني الإجمالي للدول الإسلامية، بينما تنفق دول كاليابان ٢,٨٪، والولايات المتحدة الأمريكية ٢,٧٪ من ناتجها الوطني الإجمالي على البحث العلمي.. بينما يأتي النشر العلمي في مرتبة متأخرة، إذ لا يتجاوز ٠,٢٨٪ أو ٠,٠٠٨٪ في دول أخرى.. أما نسبة إسهام الدول الإسلامية مجتمعة في النشر فلا يتجاوز ١,٠٥٣٪ من النشر العالمي، بينما تحتل دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية ٣٠,٨١٧٪، واليابان ٨,٢٤٤٪، والمملكة المتحدة ٧,٩٢٤٪، وألمانيا ٧,١٤٨٪، وسويسرا ١,٦٤٪ من النشر العلمي[1].

علماً بأن الأمة المسلمة تملك من الإمكانيات المادية والبشرية ما يؤهلها للقيام بهذا الدور المنشود، فمواردها الطبيعية مهيأة للاستغلال متى ما توفرت لها الأموال اللازمة والإمكانات العلمية والتقنية والأيدي الماهرة المدربة، ويكفي أن نشير إلى أن الأراضي الصالحة للزراعة في البلدان الإسلامية تتجاوز ٤٠٧١٨٤٦,٠٠٠ هكتار.. وتشكل البلدان الإسلامية حوالي عشرين بالمائة من سكان العالم وخمسة وعشرين بالمائة من سكان العالم الثالث[2].. وإلى جانب الإمكانات الطبيعية فإن البلدان الإسلامية لديها إمكانات بشرية كبيرة من العلماء والباحثين، إلا أنهم لا يجدون فرصتهم في البحث والإبداع والاختراع في بلدانهم فيهاجرون إلى دول العالم المتقدم لتخسرهم بلدانهم مرتين، مرة حين أنفقت عليهم من مواردها لتعليمهم، ومرة أخرى

(١) انظر: آليات تنفيذ استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، يونيو ١٩٩٩م.

(٢) العرب وتحديات العلم والتقانة، انطوان زحلان، ص٢٣٢.

حين هاجروا إلى خارج أوطانهم.

«إن هجرة الأدمغة ظاهرة تضررت منها البلدان النامية كافة، وبخاصة البلدان الإسلامية التي تفقد من جراء ذلك باستمرار عدداً من كفاءاتها العلمية والتقنية لصالح البلدان المتقدمة. فخلال العقدين الأخيرين خسرت باكستان ومصر وإيران وسوريا وبنغلاديش وتركيا والجزائر ولبنان والأردن عدداً هائلاً من أطرها ذوي الكفاءات العالية الذين هاجروا إلى البلدان المصنعة، وهي خسارة قد تقدر قيمتها الاقتصادية بمليارات الدولارات. وتنضاف إلى القائمة بلدان إسلامية أخرى أقل نمواً.. وستمتد هذه الظاهرة عاجلاً أو آجلاً لتشمل العالم الإسلامي برمته.

ويمكن تقدير عدد الأطر ذوي الكفاءات العالية من العالم الثالث الذين هاجروا إلى الدول المصنعة خلال العقدين الأخرين بحوالي ٥٠٠٠٠٠، وأغلب هؤلاء المهاجرين استقر في الولايات الأمريكية ثم أوروبا الغربية فكندا وأستراليا. ويمثل عدد المهاجرين من آسيا نسبة ٥٥٪، وأكثر البلدان الآسيوية الإسلامية تضرراً ثلاثة هي إيران وباكستان وتركيا. أما أكبر البلدان خسارة في العالم العربي فهي سوريا والأردن ولبنان. فباكستان على سبيل المثال، تفقد حوالي ٦٠٪ من مجموع أطبائها المتخرجين سنويًا، بينما تفقد إيران وسوريا على التوالي ٣٠، ٤٠٪، وكان المهاجرون من دول أفريقيا يتجهون بشكل خاص صوب أوروبا الغربية، فمنذ بداية ١٩٧٥م هاجر ثلث القوة العاملة المؤهلة من شمال إفريقيا نحو فرنسا. ومن المفارقات الجديرة بالملاحظة هنا أن أغلب أساتذة العلم في البلدان الإفريقية هم من البيض الفرنسيين في حين أن معظم الأطر الوطنية من المهندسين والعلماء غادروا بلدانهم للعمل في الخارج»[(١)].

واليوم والأمة المسلمة تقف على أعتاب مرحلة تاريخية مهمة، تراقب الأمم الأخرى وهي ترقى إلى مراقي الصعود المدني والحضاري، لا يسعها أن تقف هذا

(١) انظر: آليات تنفيذ استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

الموقف، لأنه لا يناسب طبيعتها ودورها ورسالتها، بل هي في حاجة لعمل حضاري يعيدها لذاتها ويعيد ذاتيتها إليها، وذلك العمل لا يمكن أن يتم من خلال جهود محدودة ترتفع تارة لتخبو تارة أخرى، لأن فعلاً كهذا يحتاج إلى تضافر الجهود.

العمل الحضاري سواء كان إبداعياً أو استئنافيًا، هو عمل أمم وليس عمل أفراد، على معنى أن إنجاز التحضر لا يتأتى إلا بانخراط جماعي لأفراد أمة ما في عمل موحد يقوم به الأفراد في نطاق الهيئة الاجتماعية للأمة، فيكون الفاعل الحقيقي هو الهيئة الاجتماعية وليس الأفراد باعتبارهم أفراداً.. وأي عمل مهما كان صغيراً فإنه حينما يكون عملاً جماعيًا يتطلب مقتضيات يختلف بها في الكيف أو في النوع عن العمل الفردي، وإذا لم تتوفر له تلك المقتضيات فإنه لا يكون له النجاح في بلوغ هدفه.

وحينما يكون عمل الأمة عملاً حضاريًا بما يستلزم من شمولية وفخامة وكبير جهد، فإن التعبئة الجماعية التي يتطلبها والحشد الذي يستلزمه يكون من حجم يناسب ذلك العمل، وهو حجم يفوق كل تعبئة في الأعمال العادية المحدودة، ويمكن أن نطلق عليه تعبيراً على تميزه النوعي هذا اسم: (النفير الحضاري).

إن النفير الحضاري هو عنصر أساس من العناصر العاملة في نشوء الحضارات.. فالأمم لا تصنع الحضارة إلا بهمة جماعية تحشد فيها قوى الفرد في نطاقه الداخلي، ثم تحشد قوى الأفراد حشداً جماعيًا لتحقيق هدف معين تحمله الفكرة التي تحدد غاية الحياة.. والتاريخ يبين أن الحضارات على اختلافها لم تنشأ إلا بهذا الداعي من النفير الجماعي، وأن انحلال هذا النفير ووهنه هو سبب أساس في انحلال الحضارات وأيلولتها إلى التلاشي.

فالحضارة الإسلامية إنما نشأت من التعبئة الجماعية التي عبأت بها عقيدة التوحيد جموعًا من الناس كانت شتاتًا في الجزيرة العربية وفي خارجها، فإذا هم ينفرون

بالعقيدة الجديدة في أمة موحدة ليصنعوا حضارة مشهودة، ولولا ذلك النفير الجماعي الذي أحدثه فيهم التوحيد ما نشأت تلك الحضارة.. فقد بقي البدو في الجزيرة العربية زمنًا طويلاً يعوقهم التشتت عن الإنشاء الحضاري، إذ لم يكن يحشد قوى الفرد فيه غاية عليا للحياة، ولم يكن يجمع الأفراد هدف مشترك يعبئ فيهم الإرادة الجماعية لينطلقوا في نفير جماعي لإنشاء التحضر. فقد كان واضحًا إذن أن الاندفاع الجماعي كان عاملاً أساسًا في إنشاء الحضارة الإسلامية.

وحينما اكتُشف العالم الجديد، وهاجرت إليه جموع من الأوروبيين، فإن هذه الجموع التقت هناك على فكرة جامعة تتمثل في إقامة الحياة الحرة في الأرض البكر البالغة الثراء، وقد كانوا في أغلبهم يهاجرون بسبب من الاضطهاد المتعدد الألوان في أوروبا التي أُنهكت أيضًا وأوشكت أن تنضب مواردها فتضيق بأهلها.. وهناك في الأرض الجديدة التقت الإرادة على هدف جامع هو إقامة مجتمع الحرية والاستمتاع بالرفاه المادي باستثمار الموارد البكر في تلك الأرض، فحشد هذا الهدفُ الجموعَ المهاجرة والأجيال التالية لها، وعبأها في نفير جماعي صنعت به الحضارة المشهودة الآن هناك.. وهي وإن تكن جذورها أوروبية، إلا أن ما بلغته من القوة فاقت به الأصل في عالمها الجديد، وما كان ليحدث لولا النفير الجماعي الذي هب به المهاجرون للإنشاء الحضاري.

يتبين من هذه الأمثلة أن كل حركة تحضر سواء كانت حركة ابتداء أو حركة إعادة، فإنها تتوقف إلى حد كبير على معنى الدفاع الذي يندفع به الفرد في تجنيد مواهبه وقواه في سبيل العمل، وتندفع به الهيئة الاجتماعية في توافقها وتعاونها واتحاد مشاربها، فيكون الانطلاق في زخم شديد تلتقي فيه كل القدرات الفردية والجماعية، وبه يتحقق البناء الحضاري ابتداءً أو إعادةً، وذلك ما نعني بالنفير الحضاري.

إن الأمة الإسلامية اليوم تتوفر على قدر من الاعتقاد الصحيح، كما إنها تتوفر على قدر من الفكر السديد، وذلك ما يبدو جزء منه في القاعدة العريضة من الناس متمثلًا في استصحاب قدر من التدين بالإسلام، والتثقف بثقافته، ويبدو بصفة جلية متقدمة في سلم الكمال عند الكثير من الأفراد والدول، ولكن هذا القدر الذي تتوفر عليه الأمة من ذلك لا يقابله قدر من التقدم في العمل الحضاري، بحيث يصح القول: إن أداء الأمة في التعمير يقل بكثير من لتقدم في العمل الحضاري، بحيث يصح القول إن أداء الأمة في التعمير يقل بكثير عن حظوظها من الفكر والتدين، بل حظوظها من الإمكانات المتاحة وبين مقدار الأداء وتعمير الأرض!

نحسب أن السبب الأساس في ذلك هو أن الأمة لا تعيش حالة من إرادة التحضر من شأنها أن تدفع بها إلى الإنجاز، فتوظف ما بين أيديها من الإمكانات المعنوية والمادية في حركة البناء.. وبتعبير آخر، فإن السبب الأساس في ذلك هو عدم حصول حالة النفير الحضاري التي تهب فيها الأمة هبة جماعية، لتنطلق من إمكاناتها مهما تكن متواضعة، في حركة بناء تنمو فيها تلك الإمكانات ذاتها، وتفضي إلى إنجاز على طريق التحضر.. ففي خضم حركة النفير تتولد القدرات والإمكانات، ويتم تفعيلها في الترقية المادية والمعنوية، ولكن في غياب النفير قد تظل القدرات والإمكانات –وإن كانت متوفرة– ركامًا لا يثمر شيئًا في سلم الترقي[1].

إن النفير الحضاري هو البداية لعمل حضاري تسهم به الأمة المسلمة في عالم الغد، حتى تحقق الدور الحضاري الجديد، أو تجدد القديم منه، بروح تتعامل مع حقائق الإسلام بواقع العصر.

(١) انظر: عوامل الشهود الحضاري، د.عبد المجيد النجار، ص١٨٩ وما بعدها، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الإنسان معيار الحضارة

الدكتور شافي بن سفر الهاجري*

> ما يعلن عن عولمة الثقافة وإنسانيتها لا يعدو أن يكون شعارات لتذويب الحضارات في الحضارة الغالبة، وما طروحات مؤتمرات السكان إلا دليل واضح على تعميم مفاهيم الحضارة المادية.. والأمر المخيف في عالم الغد هو محاولة فرض تلك القيم من خلال المنابر الدولية.

لعل في مقدمة الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة، نوعية الإنسان وطبيعة القيم التي يلتزم بها، ومدى قابليتها لإقامة حضارة تعترف بإنسانية الإنسان، وتجاهد في سبيل تحقيق حريته وعدم إكراهه على عقيدة لا يختارها، وتحول دون تسلط الإنسان على الإنسان، وتلغي التمييز بجميع أبعاده، وتجعل ميزان الكرامة العمل الصالح.

ولبيان مدى قدرة إنسان الإسلام على تقديم البديل الحضاري ومعالجة أزمة الحضارة، لا بد من التوقف قليلاً عند الإنسان في الحضارة الإسلامية والإنسان في حضارة (الآخر).

ذلك أن الإنسان هو معيار الحضارة وهدفها ووسيلتها.. وبقدر فهم كينونة هذا

---

* باحث.. أكاديمي.. (قطر).

الإنسان ودوره، بقدر ما ينعكس ذلك على رؤيته الحضارية وقدرتها على النهوض وتحقيق إنسانية الإنسان، التي يستعين بها على تحقيق العمران المادي.. لذلك جاءت مساهمتنا في إطار محاولة قراءة بعض الملامح لهذا الإنسان في الرؤية الإسلامية، والحضارات والثقافات الأخرى، والدور الذي يمكن أن يناط به لإنقاذ حضارة عالم الغد، وإلحاق الرحمة بإنسانها.

حقيقة الإنسان (الإنسان محل الثقافة)

إن أي تعامل مع الإنسان، تربية وتثقيفًا وتعليمًا وإعلامًا، لا بد أن يُسبَق بتصور دقيق عن كينونة هذا الإنسان، وما هو مفطور عليه من الطاقات والقدرات والميول والغرائز، التي يمكن الارتكاز إليها أثناء التعامل معه، كما لا بد من تصور دقيق عن الوظيفة التي يمكن أن يؤديها، والدور الذي يمكن أن يقوم به، والهدف الذي يسعى لتحقيقه، وموقعه من هذا الكون من بين الخلائق جميعًا، لأن أية جهود في التربية والتعليم والثقافة وأية مشاريع للنهوض والتطوير والتغيير والتنمية.. .إلخ، لا تمتلك هذا التصور عن الإنسان ولا تحسن التعامل معه في ضوء ذلك عاقبتها الفشل والإحباط ولو نجحت إلى حين.

وحيث إن الإنسان بشكل عام محل المناهج المتنوعة، ومحاولة تشكيله والارتقاء به هو هدف كل ثقافة وحضارة، كان من المفيد والمطلوب أن نقدم تصوراً عن كينونة هذ المخلوق وموقعه في هذا الكون، ورسالته من خلال ما تمنحنا معرفةُ الوحي في الكتاب والسنة من رؤية، لأن ذلك يشكل مدخلاً لا بد منه لبناء أي منهج أو نقده أو تصويبه أو تقويمه ومعايرته.

وقد تكون حقيقة المشكلة أوالقضية المعروضة في هذا الحقل دون سائر الحقول المعرفية والعلمية الأخرى، أن الإنسان المراد تثقيفه وتربيته والنهوض به، والذي هو

موضوع البحث ومحله وهدفه، هو في الوقت نفسه أداة البحث ووسيلته، لذلك تبقى الحاجة من الناحية المعرفية قائمة إلى مرتكزات يستند إليها، ومنطلقات يتحرك من خلالها، وحقائق ثابتة يعتمدها، وقيم معصومة تشكل له المرجعية، حتى لا يضل ويشقى ويخضع لمجازفات يحكمها ظرف الزمان والمكان والكسب العلمي المحدود والموروث الثقافي والديني والأهواء والرغبات.

هذه المعرفة الأساس هي التي تشكل الإطار الذي لا يمكن الاستغناء عنه في النظر للإنسان وكيفيات التعامل معه، والتي لا بد أن تتحصل من مصدر معرفي محيط بعلم الإنسان، خارج عنه، ونعني هنا معرفة الوحي في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

وهنا قضية، يمكن أن يكون التذكير بها، في غاية الأهمية، وهي أن الحضارة الإسلامية التي جاءت ثمرة لهذه المعرفة، هي في حقيقتها، وتاريخها، ونواتجها، حضارة إنسانية، لا تخص جنسًا، أو لونًا، أو عرقًا، أو منطقة جغرافية، أو طبقة اجتماعية، وإن كان العرب وبلادهم هم قاعدتها البشرية وهم حملتها الأوائل، إلا أنها استطاعت أن تتجاوز بدعوتها وممارستها كل الفوارق القسرية التي لا يد للإنسان في وجودها، وجعلت معيار الكرامة (التقوى)، وهي في حقيقتها فعلاً كسبيًا، بمقدور كل إنسان أن يرقى إليه، وليس أمرًا قسريًا خارجًا عن قدرة الإنسان وإرادته، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

ومن اللافت للنظر حقًا أن آيات القرآن الكريم المكية إنسانية الخطاب، جاءت لتؤكد الوحدة الإنسانية، وتحطم الفوارق التمييزية، وذلك قبل أن يكون للمسلمين أمة، أو دولة، أو حكومة، أو موقعًا جغرافيًا.. كانت الوحدة الإنسانية، أو تعزيز

وحدة الأصل البشري، من المقومات الأساس التي نص عليها الوحي، ولم يدع مجالاً للمساومة عليها، أو يسمح بتجاوزها، وكان عطاء الوحي موجهًا إلى العالمين، بل لقد كانت الغاية من الرسالة الإسلامية وجماع إنتاجها الحضاري، هو إلحاق الرحمة بالناس كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وكان الإسلام أول من دعا إلى فكرة المواطن العالمي، في أمة الإسلام، والتمتع بالحقوق والواجبات كافة التي يتمتع بها المواطن في دولة الإسلام، بمجرد أن يعتنق الإنسان الإسلام، كائنًا من كان، وبذلك انتفت عن الإسلام وحضارته إصابات العنصرية، والعرقية، ولوثة الشعب المختار، التي لم تبرأ منها الثقافات البشرية بشكل أو بآخر.

وبذلك فالإسلام بطبيعته يناقض التعصب والانغلاق، ويعتبره من الجاهلية وآفاتها، ونخوتها، وتعاظمها بالآباء، وسفهها، لأن أسوار التعصب المحتمل أو العارض لا تلبث أن تكسر بمجرد الإيمان والدخول في الإسلام، بينما نرى الثقافة والحضارة الغربية هي حضارة اللون والعرق والقوم والموقع الجغرافي، رغم ادعائها الإنسانية.. إنها توبخ نفسها بادعاء الإنسانية والمعيار الحضاري الإنساني، الذي يناقض ممارستها في أكثر من موقع من العالم، ولسنا بحاجة إلى التذكير بتاريخها الاستعماري، كما لا نرى أننا بحاجة إلى القراءة في واقعها وممارساتها في فلسطين والبوسنة والشيشان، وغيرها من بلاد العالم.

والثقافة والحضارة، أية ثقافة، ترتكز إلى اللون أو العنصر أو القوم أو العرق أو الطبقة هي ثقافة عنصرية، عدوانية بطبيعتها وأصل تكوينها، لذلك فهي لا تستطيع أن تعيش وتمتد بدون عدو أو عدوان، فإن لم يوجد لها عدو حقيقي تصنع لنفسها عدوًا، ولو كان وهميًا، لمعالجة مشكلاتها الداخلية وتوجيه أنظار شعوبها إلى الخارج، فهي كالنار المتأججة التي سوف تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله.

الإنسان في الثقافة الغربية

لا شك أن الحضارة الغربية أعطت الإنسان أقداراً من الحرية والكرامة، وأعطته تطوراً ماديًا رهيبًا، ووفرت له سبل العيش المادي الرغيد، وأعطته حق التعبير وحق المقاضاة، وحققت التطور المذهل في الصناعة والإنتاج، وارتادت الفضاء، وأحدثت ثورة في عالم الاتصال.

لكن هذه الحضارة على الرغم من عطائها الكبير في وسائل الإنسان وأشيائه المادية، أخطأت في فهم الإنسان وطبيعته ومعرفة خصائصه.. ومن أكبر أخطائها إسقاط الجانب الروحي في الإنسان وإبعاد الدين والأخلاق عن التوجيه، كرد فعل لصراع علمائها مع رجال الكنيسة، وقد يكون لها فيه بعض الحق، لأن الدين المحرف وصور التدين التي صنعها رجال الدين عندهم، كان سببًا في إبعاد الناس عنه، إضافة إلى تواطؤ الكنيسة وموافقتها على الظلم وتسلط الإقطاعيين.

لقد أخطأت الحضارة الغربية لأنها لم تبحث عن العلة الحقيقية أو لم تبحث عن الدين الحق، وظنت أن التطور المادي سيكون بديلاً عن الدين، ولكن عقلاء الحضارة أنذروا قومهم بخطر هذا الانفصال، وأن طريق الحضارة إلى الانهيار[1].. وقد تكون خلاصة المشكلة أنها عالجت الانحراف بانحراف مماثل.

ولا يتسع المجال هنا لذكر جميع من تكلم عن هذه الحضارة، ولكن نكتفي بأشهرهم على فترات متعاقبة من القرن الميلادي العشرين، ثم بتعزيز أقوالهم بإحصائيات حديثة تؤكد ما يقولون.

---

(١) من أفضل من تكلم عن الحضارة الغربية المفكر الألماني أوزفالد اشبينغلر. ١٨٨٠-١٩٣٦م في كتابه الضخم «تدهور الحضارة الغربية»، وقد صور الحضارة الغربية أدق تصوير، وذلك يعتبر من أعظم المؤلفات التي صدرت في النصف الأول من القرن العشرين.

ويقول فروم: «الوعد العظيم بالتقدم غير المحدود –وعد السيطرة على الطبيعة، والوفرة المادية، والسعادة القصوى للأغلبية العظمى، والحرية الشخصية غير المحدودة– هذا الوعد كان محط الآمال ومنبع الإيمان للأجيال منذ بداية العصر الصناعي، وساد الاعتقاد أن تحقيق الثروة والرفاهية للجميع سيحقق السعادة غير المحدودة للجميع.. ومن الثالوث: الإنتاج غير المحدود، والحرية المطلقة، والسعادة غير المحدودة، تشكلت نواة دين جديد اسمه التقدم، ولن نستطيع أن نفهم الصدمة التي أحدثها التحقق من إخفاق هذا الوعد (الوعد العظيم) في أيامنا هذه إلا إذا تصورنا كم كان عظيمًا ذلك الوعد، وكم كانت هائلة تلك المنجزات المادية والثقافية التي جاء بها العصر الصناعي..

فالحق أن العصر الصناعي أخفق في الوفاء بوعده العظيم، ويومًا بعد يوم يتزايد عدد الناس الذين أصبحوا مدركين لما يأتي[1]:

إن التقدم التكنولوجي نفسه خلف مخاطر أيكلوجية تهدد البيئة الطبيعية، ومخاطر الحرب النووية، وهذه أو تلك، أو كلتاهما معًا، يمكن أن تكون السبب في إنهاء كل أشكال الحضارة، وربما كل أشكال الحياة على ظهر الكوكب[2].

ثم يتساءل:

لماذا أخفق هذا الوعد العظيم؟

ويجيب:

يرجع إخفاق الوعد العظيم للعصر الصناعي –إذا ما تغاضينا عن تناقضاته الاقتصادية الجوهرية– إلى المقدمتين النفسيتين الأساسيتين اللتين بني عليهما وهما:

---

(١) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص ١٤٠.

(٢) إريك فروم، مرجع سابق، ص٢٠.

١- أن الهدف في الحياة هو السعادة، أي تحقيق أقصى متعة، أي إشباع أي رغبة أو حاجة ذاتية تعن للمرء (مذهب اللذة الراديكالي).

٢- أن الأنانية والسعي لتحقيق المصلحة الشخصية والجشع، وهي الصفات التي يولدها النظام من أجل تسيير أموره، لا تفضي إلى الانسجام والسلام[١].

ويقول روبرت م.أغروس وجروج ن.ستانسيو في كتاب العلم في منظوره الجديد: «الحضارة الغربية ما برحت منذ عصر النهضة، تخضع لسلطان العلم التجريبي والنظرة العلمية القديمة، فهي المادية العلمية التي تؤكد أن لا وجود إلا للمادة، وأن الأشياء جميعًا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب»[٢]، وأن «العقيدة الأساس للمذهب المادي هي أن الحقيقة كلها تكمن في المادة، وهذا رأي مقبول في آخر القرن الماضي غير أن أمورًا كثيرة في هذه الأثناء تكذب هذ الرأي»[٣].

ويقول كولن ولسون: «ولا تستطيع الحضارة أن تستمر في وضعيتها العمياء الحاضرة منتجة ثلاجات أفضل وشاشات أوسع للسينما، مجردة البشر باستمرار من كل معنى الحياة الروحية». ويؤكد أن «أية حضارة تصل لحظة أزمتها يومًا ما، وأن الحضارة الغربية قد بلغت اللحظة الآن»[٤].

ويقول جون فوستر دالاس: «إن هناك شيئًا ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج وفي هذه الحال النفسية، وأن الأمر لا يتعلق بالماديات،

---

(١) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص ٢١.

(٢) روبرت م.أغروس وجروج ن ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩م، ص١٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٦.

(٤) كولن ولسون، سقوط الحضارة، ترجمة: أنيس زكي حسن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٣م، ص ٢٩٣.

فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً»[1].

ولقد كتب الرئيس الأمريكي الأسبق ولسون قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً ختمه بقوله: «إن اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي: إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها»[2].

ويقول ريتشارد نيكسون: «إن هناك نزعة سلبية جديدة تبتلى بها أمريكا اليوم، فهناك (جوقة) متزايدة من الحكماء والأساتذة والسياسيين الذي يتكلمون عن انهيار القوة الاقتصادية والزعامة السياسية للولايات المتحدة الأمريكية قائلين: شهدنا نهاية القرن الأمريكي، وهم يجادلون قائلين: إن الحضارة الأمريكية قد بلغت ذروتها وها هي الآن تواجه انهياراً لا سبيل إلى عكس اتجاهه.. كما يشيرون إلى أن أعراض الانهيار تحيط بنا، فهناك مشكلة إدمان المخدرات التي تفشت بين شبابنا، وهناك أزمة في التعليم...»[3].

ويقول أيضًا: « ... فقد أعلن الرئيس كارتر بعد جلساته الشهيرة مع مستشاريه في كامب ديفيد أن الولايات الأمريكية تعاني من علة عميقة الجذور»[4].

ويرى جوزيف كاميليري أن: «التكنولوجيا التي كان يفترض أن تحرر الإنسان من عبودية الأسلوب التقليدي في الاقتصاد، أضحت اليوم سيدة الكائن الإنساني، فالطالب الذي توجه للمخدرات، والهيبي الراكض بحثًا عن الفردوس الخداع، والمراهق الذي يتصدى لتهشيم النوافذ وتحطيم السيارات، والأفاق الذي يجد مهربًا في خبل

(١) جون فوستر دالاس، حرب أم سلام، العالمية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص ٣٣٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٧.
(٣) ريتشارد نيكسون، نصر بلا حرب، ترجمة محمد أبو غزالة، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٣٢٢.
(٤) المرجع السابق.

الكحول، كل هؤلاء إنما هم ضحايا مناخ القلق المتغلغل، والشعور بعدم الأمان ومرض العصاب.. إن خطورة الأزمة القائمة هي أنها ليست موجهة إلى الجانب الروحي للكائن الإنساني فحسب، وإنما لأنها تنخر العلاقات الإنسانية برمتها، فأصبح الكائن الإنساني ضحية (اللاتوازن).. ولأنه ضمن هذه المعادلة اللامتوازنة، فقد فَقَدَ إدراكه لدوره الخاص وهدفه في الكون وواجبه تجاه نفسه وبني جنسه وبيئته»[1].

ويقول أبراهام هـ. ماسلو تحت عنوان (العلم الخطر): «... لقد علمتنا العقود الأخيرة القليلة بأن العلم قد يصبح خطراً يهدد مقاصد الإنسان العليا، وأن العلماء قد يصبحون وحوشًا طالما أن العلم أصبح كلعبة الشطرنج متعسفًا لا أهداف له، غايته الوحيدة اكتشاف الوجود المحسوس، وبذلك ارتكب العلم الخطأ الفاضح المصيري، الذي يقصي أسمى الخبرات الذاتية من ميدان الوجود القابل للاكتشاف»[2].

ويقول أدوارد بيهر تحت عنوان: (أمريكا التي تخيف لا تخيف): «باتت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة على الأرض، لكن الأزمة الأخلاقية التي تهزها بعنف لا سابق لها، ليست سوى نذير انحطاط كامن ينتظر لحظة الانفجار، الانحلال المتنامي للمدن وللعلاقات بين الأعراق والإثنيات، الصعود المخيف للجريمة.. وتسيطر عليها وباءات يصعب حصرها من الاعتداء الجنسي إلى الأمراض النفسية، إلى الفردانية التي تخلت عن روح الجماعة لتبحث عن التقوقع داخل العزلة والأنانية»[3].

---

(١) جوزيف كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة: فيصل السامر، عرض الكتاب في جريدة الشرق الأوسط، ١٢/١/١٩٨٦م.

(٢) أبراهام هـ.ماسلو، خطر الانشقاق بين الدين والعلم، ترجمة ماجد الكيلاني، مجلة الأمة، ربيع الأول ١٤٠١هـ، ص١٨.

(٣) إدوار بيهر، ترجمة وعرض: جريدة الخليج الإماراتية، مجلة الصائم، ٢١/٦/١٩٩٦م، وانظر جريدة الحياة، ٢٨/٥/١٩٩٥م.

من واقع الممارسة والتطبيق:

هذه النظرة أو الفلسفة لموقع الإنسان في الرؤية الغربية، أو إن شئت فقل في الرؤية غير الإسلامية، والتي حاولنا استقراءها من أكثر من موقع جغرافي، أو أكثر من مدرسة، وأكثر من اتجاه، وأكثر من تاريخ -وحاولنا ما أمكن توثيق ذلك لتتسم نظرتنا بالموضوعية وعدم التحيز- انتهت على المستوى العملي أو على مستوى السلوك إلى واقع المعاناة الإنسانية الذي جاء ثمرة مرة لهذه الرؤية.. لذلك قد يكون من المطلوب منهجيًا، بعد وضعنا الملامح العامة للنظرية العامة للإنسان في الرؤية الغربية أن نلقي ضوءًا على واقع الممارسة والتطبيق، وسوف نكتفي هنا بإيراد إحصاءات عن هذا الواقع وهذه الشقوة والمعاناة، تم إعدادها من خلال مؤسسات الحضارة نفسها، حيث إن علم الإحصاء اليوم هو من أهم العلوم التي تحدد توجهات المجتمع ووجهته وتبصر بالأمراض التي تقبع داخله:

- ألمانيا: ٣٠ ألف ينتحرون سنويًا[١].
- اليابان: ٢٠ ألف انتحروا عام ١٩٨٠م[٢].
- المجر: أعلى نسبة انتحار في العالم[٣].
- العنف في أمريكا: ١٣٥ ألف مسدس تجلب للمدارس الأمريكية كل يوم؛ ٢,٤مليون طالب مدرسة، يُسرق منه شيء؛ ٢٨٢ ألف طالب يتعرض للاعتداء الجسدي كل شهر؛ ٥٢٠٠ مدرس يتعرض للضرب في الشهر؛ أكثر من ٢١٠ آلاف أمريكي قتلوا في حوادث عنف داخلية خلال العقد الأخير؛ ١٧ مليون

(١) جريدة الشرق الأوسط، ٢١/١٠/١٩٩٥م.
(٢) جريدة البيان الإماراتية، ٤/٧/١٩٨٢م.
(٣) جريدة الشرق الأوسط، ٢١/٥/١٩٩٥م.

ضحية لجرائم العنف في الفترة ذاتها؛ ٧٠٪ من كل جرائم القتل تتم بالمسدسات؛ ٤٠٪ من جرائم القتل تتصل بالمخدرات[١].

- ١٢٠ ألف حادث انتحار تقع في فرنسا[٢].
- ٤٠ مليون أمريكي ضحايا الإجرام خلال عشرين عامًا.. الخسائر المادية المترتبة على الجريمة عام ١٩٩١م بلغت ١٩ مليار دولار[٣].
- الحكومة الأمريكية استخدمت الأسكيمو في تجربة الأدوية المشعة (تقرير ذكرته شبكة سي أن أن)[٤].
- أرباح الاتجار بالمخدرات حوالي ٥٠٠ بليون دولار سنويًا، ويعادل هذا المبلغ مجموع الناتج القومي الإجمالي لثلثي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة[٥].

واقع الديانة النصرانية:

الإنسان في الغرب ينظر إلى أرضه غالبًا لا إلى السماء، وحتى المسيحية، الدين الذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين، لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضية في الإنسان الغربي، بل بدلاً من أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إله المسيحية إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي.. وهذه النظرة إلى الأرض أتاحت للإنسان الغربي أن ينشئ قيمًا للمادة والثروة والتملك تنسجم مع هذه النظرة.

وليس من الصعب استقراء هذه الظاهرة من الجسم الكنسي في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نجد أن أعضاء هذا الجسم بلغوا ١٣٩,٦ مليون شخص في عام

---

(١) مجلة المجلة، فهمي هويدي، ٦/٩/١٩٩٧م.
(٢) جريدة الخليج الإماراتية، ٢٥/٥/١٩٩٣م.
(٣) جريدة الشرق الأوسط، ٢٥/١١/١٩٩٣م.
(٤) جريدة الأهرام المصرية، ٥/٥/١٩٨٣م.
(٥) جريدة الحياة، ٧/٣/١٩٩٥م.

١٩٨٢م.. وبلغ مجموع ما قدمه الأمريكيون من تبرعات ومساهمات إلى الكنائس في العام نفسه ٦٠,٣٩ مليار دولار.. كما تمتلك الكنائس وتدير عدة مئات من المعاهد والكليات والجامعات في أمريكا.. ففي عام ١٩٨١-١٩٨٢م بلغ عدد معاهد التعليم العالي التي لها صلة بالكنائس ١٩٧٨ معهداً.. وكان عدد المدارس الدينية اليومية قد تضاعف مئات المرات منذ عام ١٩٥٤/١٩٥٥م ليبلغ في عام ١٩٨٠م ١٨ ألف مدرسة تضم أكثر من مليوني تلميذ[١].

ومن أوائل الجامعات الشهيرة التي أسستها الكنيسة الأمريكية بهدف توفير التعليم الديني، جامعة هارفارد في عام ١٦٣٦م، وكذلك جامعة ييل (Yale) في عام ١٧١٠م التي أسست بهدف توفير «تعليم حر وديني في الولايات المتحدة الأمريكية».

ومن بين الجامعات المهمة ذات العلاقة بالكنائس الأمريكية، الجامعة الأمريكية وجامعة جورج تاون والجامعة الكاثوليكية، وكلها في واشنطن العاصمة، وكذلك جامعتا ديتون وبيلور في ولاية تكساس، وجامعة إموري في مدينة أتلانتا، وكلية بوسطن، وجامعة دنفر في كولورادو، وجامعة ديوك في كارولينا الشمالية... إلخ[٢].

وما يقال عن دور الكنيسة وحضورها الفاعل في مجال التعليم، يمكن أن يقال أيضًا عن دورها وحضورها في مجال الإعلام.. ففي عقد الثمانينيات من القرن العشرين، احتلت صور نجوم البرامج الدينية المسموعة والمرئية أمثال بيلي غراهام (Billy Graham) وجيري فولويل (Jerry Falwell)، صفحات أبرز المجلات الأسبوعية وأغلفتها. وصارت برامجهم الدينية تشد المشاهدين أكثر مما تشدهم

(١) البعد الديني في السياسة الأميركية تجاه الصراع العربي الصهيوني، د. يوسف الحسن، ط١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير ١٩٩٠م)، ص٦٩-٧٠.
(٢) نفسه، ص٧٠.

البرامج والأحداث الرياضية المشهورة والمهرجانات الفنية. وصار الدين مسيطراً على الثقافة الأمريكية.. فملكت البرامج الدينية، وبخاصة برامج الكنيسة المرئية (Electric Church) عقول وقلوب وجيوب الأمريكيين. وغدت هذه البرامج الدينية صناعة مزدهرة، وخلقت الآلاف من الوظائف والمئات من ملايين الدولارات. وقدرت نسبة الأمريكيين المستمعين والمشاهدين لبرامجها المرئية والمسموعة عام ١٩٨٠م حوالي ٤٧٪ من مجمل السكان(١).

ومع ذلك فإن ما يحدث في الكنائس، يعتبر مجرد انتماء فقط لا يشاركه الحس والوجدان والتدين.. فعلى سبيل المثال، نشرت إحدى الصحف البريطانية تقريراً عن الوثنية الجديدة ذكرت فيه أن الكنائس تبدي قلقًا شديداً إزاء تفشي مظاهر الوثنية في قطاعات متزايدة من الناس، حيث انصرف هؤلاء بصورة تدريجية عن الديانة المسيحية يبحثون عن الإشباع الروحي في كائنات الفضاء وعالم الخرافة(٢).. إن الكنيسة أصبحت مجرد أبنية ومجرد ترديد كلمات خاوية من كل حقيقة وإيمان وصدق..

يقول أحد المفكرين الأمريكيين وصاحب أكبر مدرسة حديثة في علم النفس: تصبح مترابطة بطقوس ومراسيم تمارس في يوم معين من الأسبوع ولا تتعدى جدران المعبد، وتؤدى بلغة خاصة لا علاقة لها بالحياة، وبآلات موسيقية خاصة... وتصبح المفاهيم القدسية أجزاء متناثرة لا روابط بينها، وتنحصر بفئة قليلة من الناس (رجال الكهنوت)، وتتحول إلى متحف لا فائدة منه للحياة اليومية الجارية، ولا علاقة لها بالمجتمع الكبير المحيط أو بشؤون الإنسان اليومية.. والحقيقة أن مثل هذا التدين يفصل بين المثل العليا والواقع، ويمزق الفاعلية الضرورية للتفاعل بين الاثنين، ويميت التأثير المتبادل بينهما.

(١) المرجع السابق، ص ٧١-٧٢.

(٢) صحيفة الجارديان البريطانية، ١٨/١١/١٩٩٦، نقلاً عن مجلة المجلة، ٢٢/٢/١٩٩٧م.

وماذا يحدث عندئذ؟ لقد رأينا خلال التاريخ ما فيه الكفاية، لقد وقعت الكنيسة -تحت تأثير هذا الفهم المعطل- بمفاهيم مغمغمة إزاء الاستغلال والتفسخ الذي أصاب الحياة كأن ليس عند الدين ما يقدمه، شعارها في ذلك: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وبذلك تخلى هذا النوع من الدين عن محاربة الشر، بل استحال دعماً للشرور اليومية[1].

وما يحدث في الكنيسة من انحرافات توازي الانحراف في المجتمع، فرجال الكنيسة متورطون في قضايا اغتصاب وفاحشة، غير اكتشاف عدد كبير من الأساقفة يمارسون الشذوذ ويتكلمون عنه بصراحة.. كما أصاب مرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز) رجال الكنيسة[2].

وكانت إحدى الكنائس الكبرى في بريطانيا قد أجرت دراسة استغرقت ثلاث سنوات حول الفئة العمرية التي ترتاد الكنائس. فتبين أن عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة قد انخفض إلى الثلث خلال سبع سنوات.. فمنذ عام ١٩٨٧م وسن ما بين ١٤: ١٧ قد انخفض بنسبة ٣٥٪، وسن ما بين ١٨- ٢١ انخفض بنسبة ٣٤٫٧٪ من حضور الكنائس.. وأضاف التقرير أن الشباب لم يعد يشعر بالراحة في الذهاب إلى الكنيسة التي ترتبط في حسه بالملل وعدم الراحة.. وتحاول بعض الكنائس إدخال عناصر الجذب في البرامج الدينية من الغناء والرقص، ولكن يبدو أن مثل هذه المحاولات تبوء بالفشل.

---

(١) أبراهام ماسلو، خطر الانشقاق بين الدين والعلم، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) لم يسلم حتى كبار الأساقفة من هذاالتورط، انظر ما حدث لكبير أساقفة النمسا «هانز هورمان جرور، فقد أحدث اتهامه هزة في المجتمع النمسوي وذلك لتورطه مع تلميذ سابق في مدرسة كاثوليكية، انظر جريدة القبس الكويتية بتاريخ ٢٠/٦/١٩٩٥م، وانظر ملحق الوطن الكويتية ١/١٠/١٩٨٧م، ونشرت المجتمع الكويتية ٢٣/٤/١٩٩٦ تقريراً بعنوان: «موقع الدين في حياة الإنجليز».

يقول أحد رجال الكنيسة معلقًا على التقرير السابق: «إن مجرد الغناء والرقص لن يرغِّب الشباب في الدين، والمفترض على الكنيسة نفسها أن تطور وسائلها، وتكون أكثر تحديثًا بمعنى تقترب أكثر من هموم الشباب ومشاكلهم».. ويكشف التقرير الذي استجوب ٦٠ ألف شاب أن الشباب يريد أن يرى دورًا ملموسًا للكنيسة[١].

السحر والشعوذة هما البديل للدين المحرف:

انتشر السحر والشعوذة بشكل مخيف في أمريكا كبديل للدين المحرّف، وتؤكد الإحصائيات أن ١٢٪ من الأمريكيين يمارسون دروب السحر والشعوذة، وقد قامت إحدى المؤسسات بتنظيم استفتاء شمل طلاب السنة الثالثة علم نفس في جامعات أمريكية، فأجاب ٧٧٪ منهم بأن بعض تجارب السحر توحي بالثقة ونتائجها أكيدة.

وفي فرنسا، ١٥٪ من الفرنسيين يستشيرون عالم الفلك مرة كل عام.. ٦٠٪ من الفرنسيين رجالاً ونساءً يؤمنون بالأبراج التي تجلب الحظ[٢].

كبار المليارديرات في العالم يلجأون إلى الفلكيين لضبط سيطرتهم على السوق، منهم رئيس شركة مايكروسوفت العالمية[٣].

العودة إلى إنسانية الإنسان

تعالت الصيحات في وجه هذا المد المنحل لتعود بالإنسان إلى حياته الصحيحة وإلى فهم طبيعته، وما صيحة كاريل في كتابه العظيم (الإنسان ذلك المجهول)[٤] إلا تعبير صادق عن هذه العودة للأخلاق والدين والأسرة.

---

(١) مجلة المجتمع، ٢٣/٤/١٩٩٦م.

(٢) جريدة العرب القطرية، ٢٠/١٢/١٩٨٠م.

(٣) الخليج الإماراتية. ٢٠/٣/١٩٩٦م.

(٤) انظر إلى الكتب المهمة في هذا الشأن: إنسانية الإنسان لـ دوبيه؛ الإنسان بين الجوهر والمظهر لـ أريك فروم؛ العلم في منظوره الجديد لـ روبرت م.أغروس وزميله.

فعلى سبيل المثال يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون: «لنا أن نستوثق من هذه الحقيقة، وهي أن معنى الحياة لا يمكن أن يوجد في المادية المجردة، سواء أكانت شيوعية أم رأسمالية. وقد قضت المحكمة العليا بأن دستورنا ينص على عدم تدريس الدين في مدارسنا، ولكن إبعاد الدين عن مدارسنا ينبغي ألا يعني رفض الدين في الحياة.. ولأن الأديان العظيمة في العالم -وهي اليهودية والمسيحية والإسلام والبوذية- انبرت لموضوعات القيم الروحية والوفاء بها فقد بقيت توحي للناس قرونًا»[1].

كما خلص أغروس وستانسيو في كتابهما (العلم في منظوره الجديد) إلى: «أن مستقبل النظرة الجديدة يوحي بالعودة بثقافتنا إلى الإيمان بوجود الله الواحد، وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الإنسان»[2].

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أجريت دراسة استغرقت ثلاث سنوات، كانت بعنوان «الأسباب الاجتماعية للعنف»، انتهت إلى أن انهيار الأخلاق والأسرة هو السبب الذي أدى إلى هذا العنف الكبير في المجتمع الأمريكي.. وأوصت بما يلي:

١- نبذ الثقافة التي تمجد العنف والتي تضفي عليه مظهرًا اعتياديًا مألوفًا.

٢- حماية وتعزيز المؤسسات الاجتماعية (العائلة، الأحياء، المراكز الدينية)، وهي التي تنشر وتحفظ قيم المجتمع.

٣- إزالة المسدسات والمخدرات من المجتمع[3].

٤- توفير الفرص الاقتصادية للجميع لمكافحة الفقر والبطالة.

---

(١) ريتشارد نيكسون، نصر بلا حرب، مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٢) روبرت م.أغروس وجروج ن ستانسيو، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٣) يشكل الأمريكيون نسبة ٤،٥٪ من سكان العالم ويستهلكون ٥٠٪ من الإنتاج العالمي للكوكايين، مجلة المنعطف، عدد ٩، ص ٨٢.

- وتنتشر في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية موجة جديدة من العفة والطهارة، حيث يتم حض الفتيات والفتيان في المدارس والمراكز الثقافية والاجتماعية أن يقولوا (لا)، إذ يجري استحداث سلسلة كاملة في العروض التعليمية الجديدة والبرامج العامة تم وضعها بهدف إقناع تلاميذ المدارس بأن الالتزام بالعفة قبل الزواج يعد هو الشيء الصواب[1].

- وفي استفتاء (أجري في الولايات المتحدة الأمريكية) تبين أن ٧٥٪ من النساء يرين أن من الأفضل للأولاد أن يظل أحد الوالدين في المنزل لرعاية الأطفال[2].

- وفي بلجيكا، أدت حملة قادها ملكها (بودوان) قبل رحيله ضد الرذيلة إلى كشف النقاب عن شبكات للرذيلة الإجبارية بمساعدة كاتب أثار كتابه الذي حمل عنوان «إنهن طيبات جداً يا سيدي» عن هذه الظاهرة ضجة في أنحاء البلاد، وأدى إلى حملة قوية على البغاء.. وذكر الكتاب أسماء تجار رقيق ومسؤولين في الحكومة ورجال شرطة ضالعين في هذه التجارة.. وتجارة الرذيلة مسموح بها في بلجيكا شريطة عدم استفادة طرف ثالث[3].

- وفي بريطانيا، اضطرت الدولة إلى سن قوانين جديدة للحد من العنف والإباحية في الـ (بي بي سي)، فقد أصدرت الحكومة تعليمات لتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية لمراعاة المبادئ العامة للآداب وضبط مشاهد الجنس والعنف على الشاشة بهدف حماية الأطفال من التأثيرات السلبية لهذه المشاهد[4].

- وفي السويد، طالبت وزيرة الصحة والشؤون الاجتماعية بإغلاق محلات

(١) جريدة العرب القطرية، ١٩٩٤/٢/٨م.
(٢) جريدة الخليج، ملحق آخر الأسبوع، ١٩٩٥/٦/٨م
(٣) جريدة الخليج، ١٩٩٣/٩/٧م.
(٤) جريدة الشرق الأوسط، ١٩٩٥/١١/٢٨م.

الجنس والعودة إلى الأخلاق[1].

الإنسان في الثقافة الإسلامية

ولعل من أهم الخصائص التي امتازت بها الحضارة الإسلامية، هي هذا الهدي المقصدي للإنسان، الذي أحدث التفاعل بين عطاء الوحي وتطلعات العقل وأشواق النفس، بحيث ارتقى بموقع ووظيفة الإنسان، من مجرد وسيلة وأداة للإنجاز الحضاري، إلى مستوى جعل معه المنجزات الحضارية التي يبتدعها وسائل مسخرة لخدمته وتحقيق إنسانيته، والارتقاء بموقعه وجعله مسخِّرًا للكون، بدل أن يكون مسخَّرًا له، فهو الإنسان المكلف، وفي الوقت نفسه الإنسان المكرم، وبذلك كان بين تعاليم الوحي وتطلعات العقل تواعد والتقاء، فاثمر ذلك كله إنسانية الحضارة الإسلامية، الذي رسم مساراتها وحدد أهدافها الوحيُ، وحقق إنجازاتها في المستويات المتعددة، وابتكر وسائلها الإنسانُ المكلف، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

فالهدي وبيانه من الوحي، والاستدلال والبرهان من كشف العقل، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣). فالوحي يحدد الأهداف، والعقل يكشف السنن ويبدع الوسائل، التي تحقق الأهداف[2].

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، ليكون محلاً لهدايات الوحي، وميزه بالعقل، الذي جعله أهلاً للتكليف، ومنحه إمكانية الاختيار، وناط التغيير بإرادته، وجعله محور التغيير، ووسيلته، وهدفه، ومعياره، في الوقت نفسه.. وإنما يقاس نجاح مناهج

(١) جريدة القبس الكويتية، ٢١/٣/١٩٨٢م.

(٢) من فقه التغيير، عمر عبيد حسنه، ص ١٠٤ وما بعدها، بتصرف.

التغيير، والعطاء الحضاري الذي تثمره، بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان، وتنمية مواهبه، وإطلاق ملكاته، ورعاية قابلياته، وتحقيق وعيه بذاته وانسجامه مع الكون والحياة، والارتقاء بتطلعاته، وسمو أهدافه، ليحسن القيام بدوره في التغيير نحو الأفضل، للوصول إلى البناء الحضاري المأمول، الذي يكرم الإنسان ويكرم به[1].

إن اكتشاف دور الإنسان وفاعليته في منهج التغيير، بدرجة كافية، وحسم هذه القضية، أصبح من الضرورات الملحة للعقل المسلم، ذلك أن العقيدة الإسلامية، جعلت الإنسان مدار الحركة التغييرية ومحورها، وأوكلت إليه مهمة التغيير والبناء، وكلفته بتحقيق الخلافة على هذه الأرض، ولفتت نظره إلى كيفيات التعامل مع الكون والحياة من حوله، وكيف أنها جميعًا مسخرة له، وناطت به إدارة الصراعات المختلفة، التي تجري في هذه الحياة، واستغلال ما على ظهر الأرض، واستخراج ما في باطنها، مستفيداً من عنصر الزمن لإنتاج الحضارة واستعمار الأرض، حملاً لأمانة الاستخلاف، وتحقيقًا للعبودية التي خلق من أجلها.

أما أنه خليفة في الأرض، فبصريح قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠).

وأما أنه مكلف بإدارة الحركة، وتحقيق الحضارة والعمران، فبدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١).

ويقوم الإنسان بهذا الدور التاريخي، من خلال مؤهلاته، في ضوء هدايات الوحي ومكتسبات عقله المدرك، في عالم الشهادة، وشعوره وتأمله وحسن توظيف طاقاته الكثيرة، وقابلياته التي زوده الله بها، لكي يصنع تاريخه على هذه الأرض، بمعونة الله وهدايته.. فبحركته من خلال سنن الله، يتحرك التاريخ، ويتطور الزمن، ويتغير الحال،

---

(١) رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنه، ص ١٧ وما بعدها، بتصرف.

وتتبدل مظاهر الحياة[١].

ونحن عندما نتحدث عن الرؤية الإسلامية للإنسان، وما تميزت به من أنها متأتية من معرفة الوحي اليقينية، ذلك أن الذي خلق الإنسان، أعلم بمن خلق: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤)، فإننا لا ندعي أن واقع الإنسان اليوم في بلاد العالم الإسلامي يعيش السعادة والحياة الطيبة كما أرادها له الإسلام، لأن هذه الرؤية تعرضت لاختراق وغزو واستلاب حضاري واستبداد سياسي وعمالة ثقافية لحضارة الغالب، كما لم يعد يخفى على أحد.

وإنما الذي نريد بيانه أن بقية الرؤية الإسلامية أو بقية العقيدة الإسلامية التي هي محور الرؤية، حمت الإنسان المسلم من الكثير من الإصابات التي لحقت بإنسان الحضارة الغربية، وأن دور الثقافة والتربية الإسلامية اليوم هي وضع الخطط والبرامج لاسترداد الإنسان المسلم وتحقيق ولادة الإنسان المسلم كما أراده الله؛ والتدليل على أن هذه الإصابات التي لحقت به إنما جاءت بسبب بعده عن الإسلام وانسلاخه عنه، وليست بسبب تمسكه به، لأن الاستقراء التاريخي يؤكد أن فترات النهوض والتألق والإنجاز الحضاري كان مترافقًا مع العودة للإسلام.

ولعل الإمكان الحضاري والثقافي المستقبلي الذي يمتلكه الإنسان المسلم، والذي يؤهله للوراثة الحضارية، يتمحور حول امتلاكه هذه الرؤية، إضافة إلى امتلاكه للتجربة التاريخية لتنزيل النص على واقع الحياة، ورؤيته للإصابات المفجعة التي انتهت إليها الحضارة الغربية على مستوى الإنسان على الرغم من تقدمها في مستوى أشيائه ووسائله[٢].

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، محسن عبد الحميد، ص ٦١ وما بعدها بتصرف، وانظر عبد المجيد النجار، الفصل الأول، القيمة الذاتية للإنسان، من كتاب قيمة الإنسان، ص١١ وما بعدها.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان، ص ٢٧٧، ٢٨٣.

لذلك فالرؤية الحضارية للإسلام هي الوحيدة التي يمكن وصفها بأنها إنسانية، لا لما انطوت عليه من عنصري الشمول والتوازن فحسب، بل لأن جميع عناصرها التربوية والنفسية والروحية والأخلاقية.. .إلخ، وأحكامها، جاءت على وفق الطبيعة الذاتية للإنسان -أي إنسان- مجردة من إطار الزمان والمكان ومن النظرات المبتسرة وردود الأفعال[1].

ومن هنا يمكن القول: إن كل ثقافة بشرية -بأي صورة من الصور- لا يمكن أن تكون إنسانية تصلح لجميع الناس في جميع العصور.. وهذا ما يميز الرؤية الإسلامية عن رؤية الثقافات والأديان الأخرى المعمول بها.

فإذا نظرنا إلى الثقافة اليهودية التي يدعي أصحابها أنهم: شعب الله المختار، نرى مدى العنصرية والتعصب والانحياز.. أما النصارى فحدّث ولا حرج، وما الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس ودخولهم القدس إلا مجرد مثال بسيط على الوحشية وانعدام الإنسانية.. وقس على ذلك النازية وتفضيلها الجنس الآري عضوياً وبأصل الخلق.. أما الحضارة المادية المعاصرة فيكفي ما ولدته الحرب العالمية الأولى والثانية من قتلى ودمار، وما يحدث اليوم في البوسنة والهرسك وكوسوفا وغيرها إلا دليل على التعصب للجنس واللون والدين، فضلاً عما يعانيه الملونون في أمريكا وأوروبا على الرغم من أنهم بشر من البشر.

أما ما يعلن في الوقت الراهن عن الإنسانية والثقافة الإنسانية، فإنه لا يعدو أن يكون شعارات ترفع لتذويب كل الحضارات غير الحضارة المادية، وما مؤتمرات السكان والمرأة إلا دليل واضح لما تهدف إليه من مفاهيم في إطار الأسرة والحرية الجنسية التي أفرزتها تلك الحضارة المادية.. والمخيف هو السعي الحثيث لفرض تلك القيم اللاإنسانية من خلال منابر الأمم المتحدة وأروقتها.

---

(١) الثقافة الإسلامية، عدنان زرزور، ص ٣٣.

وهنا يتأكد دور وأهمية الرؤية الحضارية للإسلام، فهي إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، تنظر إلى الناس بمقياس واحد لا تفسده القومية، أو الجنس، أو اللون.. وواضح أن بناء هذا النزوع وتحقيق هذه الصبغة هو من أثر القرآن الكريم الذي يعلن أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة، من ذكر وأنثى.

وأن قيم النفس والأهل والقوم والوطن والأمة والإنسانية، لا تصلح أن تكون القيمة العليا والغاية القصوى التي يجتمع عليها الناس على مر العصور ومر الأجيال، ويلتف البشر حولها أبد الدهر، ولا الهدف الأسمى الذي تسير نحوه الإنسانية باستمرار[1].

ويكفي كمثال على ذلك أن كل الشعوب التي دخلت في الإسلام انصبغت بصبغة هذه الثقافة، وساهمت بعطائها، وقلما أن تجد اليوم شعبًا أو جنسًا أو لونًا إلا دخلوا في الإسلام، وهذا دليل على إنسانية هذه الثقافة الإنسانية[2].

---

(١) الثقافة الإسلامية، خصائصها، تاريخها، مستقبلها، عثمان عبد الكريم، ص ١٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) للتوسع في الموضوع انظر: «الثقافة الإسلامية في الجامعات، دراسة تحليلية نقدية»، دراسة أكاديمية حصل بها الباحث على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٩م.

المرأة المسلمة وشروط النهوض

الدكتورة عائشة يوسف المناعي*

إن الأعراف السائدة في مجتمعات المسلمين وخصوصًا في العصور المتأخرة، لا تمثل الوضع الحقيقي لمكانة المرأة في الإسلام، لأن هذا الوضع يمكننا أن نجده فقط في الكتاب والسنة وفي عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين.

نحاول في هذه الصفحات التعرف على معالم شروط النهوض التي تمتلكها الأمة في ركن الأسرة، قاعدة النظام الاجتماعي.. وأعني بذلك المرأة والدور الذي يمكن أن تؤديه في عملية استئناف النهوض بعد هذا التاريخ الطويل من الركود الذي أصاب المجتمعات الإسلامية والذي واكبه تهميش المرأة عبر عصور التاريخ.

ومما يدل على ذلك أننا إذا قلبنا صفحات هذه العصور، رجوعًا من العصر الحاضر، أو بداية من عصر الركود وحتى ننتهي بعصر الرسالة، فسوف ندهش للمكانة التي كانت تحتلها المرأة في هذا العصر وسائر عصور النهضة والتقدم.. وهذا يدل على أن عودتنا إلى الماضي لا تحمل في طياتها أي أثر من آثار الجمود والتخلف.. بل الحيوية والتقدم.. كما تحمل في الوقت نفسه الدلالة على ما تنطوي عليه أصول الشريعة

* وكيلة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية سابقًا (قطر).

وتاريخ الإسلام من شروط النهضة التي تمتلكها الأمة. وليست هذه دعوة للتقوقع على الذات والانقطاع عن العصر والعالم، ولكنها دعوة مخلصة لاكتشاف الذات ومحاولة الانطلاق منها مرة أخرى.

لقد كثرت الكتابات حول الإصلاح الذي جاء به الإسلام في موضوع المرأة، والمكانة التي رفعها إليها بعد الأوضاع التي كانت عليها في الجاهلية العربية وسائر الجاهليات الأخرى.. ولا نقول هنا: الحضارات -كما تحلو تسميتها عند كثير من المؤرخين «الحضارة الأغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الصينية.. إلخ»- لأن التعبير بالجاهليات عند الحديث عن المرأة أدق.. أسوة بالجاهلية العربية.. فالأوضاع متشابهة أو متماثلة.. وكلها تحط من شأن المرأة.. يستوي في ذلك العرب والأغريق والرومان.. وقد لا نستثني أصحاب الديانتين الكتابيتين من اليهود والنصارى.

ويكفي أن نعلم أن المرأة هي التي أغوت آدم بالخطيئة -في الديانة المسيحية- وأخرجته من الجنة، على الرغم من أن القرآن الكريم يؤكد على أن المعصية إنما وقعت من سيدنا آدم عليه السلام، وأما أمنا حواء فكانت تابعة له، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١١٧-١٢١). على الرغم من ذلك وبناء على نظرة الديانة المسيحية للمرأة، أصبحت عفة الرجل مقترنة بانصرافه عن النساء لأنهن مدخل الشيطان! وقد تمثل هذه الفكرة أو العقيدة مدخلاً لفهم رد الفعل من النظام الوضعي أوالعلماني الذي أعلى من شأن الجسد حتى انتهى به الأمر ونحن على أبواب

القرن القادم إلى التأكيد في لباس المرأة -على سبيل المثال- على عورة الأنثى لا على معنى الأنوثة[1]!

ونذكر هذا للإشارة إلى أن مشكلة المرأة في البلاد العربية والإسلامية لا تُحل عن طريق محاولة إلحاقها بأختها الأوروبية، أو بمجرد انتقالها من امرأة متحجبة إلى امرأة سافرة! أو لأن أبواب المصانع، وسائر أبواب العمل جميعًا قد فتحت لها بدون استثناء، ومن غير أية قيود أو ضوابط، فالمسألة في صورتها الحاضرة، وفي جذورها التاريخية والدينية أعمق وأعقد من هذا بكثير.

التهميش المبكر

لقد جاء الإسلام بإصلاح تاريخي في موضوع المرأة، انطلاقًا من مساواتها بالرجل في أمور عدة، كأصل النشأة أولاً وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (الحجرات:١٣)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء:١).

وثانيًا في العقيدة: قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة:١٢)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧).

وثالثاً في التكاليف الشرعية والمسؤولية العينية والجزاء، قال سبحانه وتعالى:

(١) انظر مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة د.عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م، ص١١٨.

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥)، وقال: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

إضافة إلى ما ورد من صحيح السنة المطهرة في هذا المعنى مما سنعرض لبعضه بعد قليل. ولكن يطرح هنا سؤال: لماذا عادت المرأة بعد العصر الأول إلى ما يشبه منزلتها قبل الإسلام؟ أو لماذا عادت «الروح الجاهلية» إلى الظهور مرة أخرى وبصور شتى؟

ونقول في الجواب: ربما لأن النظام الاجتماعي الجديد لم يترسخ بعد الفتح كما رسخ في بيوت المهاجرين والأنصار.. ولم يَجِدَّ في المجتمع الإسلامي بعد ذلك ما يستدعي مطاردة الأعراف الجاهلية ومنعها من الظهور مرة أخرى! في الوقت الذي كانت تجير فيه المرأة على لسان النبي ﷺ عن الأمة كلها، أي تقوم بإرادتها المنفردة بالتوقيع عنها: «**أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»[1]، وفي الوقت الذي عبر فيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عن النقلة التي شهدها وضع المرأة بين الجاهلية والإسلام بقوله: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم ما قسم».

وتروي لنا كتب السير الواقعة التالية التي جرت بين عبد الله بن عمر بن الخطاب

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ٦/٤٢٣.

رضي الله عنهما وابنه عبد الله.. روى عبد الله الوالد في مجلس له قول النبي ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[1]، وكان ابنه عبد الله حاضراً، فقال: «والله لا ندعهن فيتخذنه دخنًا» أي مكانًا للفساد، فغضب أبوه وقال له: أقول لك إن رسول الله يقول: «**لا تمنعوهن**»، وأنت تقول: لنمنعهن!! والله لا أكلمك أبداً... إن هذا الكلام المناقض لهدي النبوة هو الذي جرى عليه العمل أو انتهى إليه الأمر في خاتمة المطاف!

وقد عبر شيخنا العلامة الشيخ محمد الغزالي عن هذه المفارقة في تعليقه على ما روي عن الرسول ﷺ «حين نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، صعد الرسول ﷺ ونادى: **يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله! يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت رسول الله، اشتريا أنفسكما من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما**»[2]. قال الغزالي: «إن نداء المرأة بهذا الصوت الجهير شيء مستنكر في عصرنا الأخير.. كنا نعد اسمها كشخصها عورة لا يجوز أن يعرف! ونقول: ما للمرأة وهذه الشؤون؟... يكفي أن يحضر رجل من أسرتها ليبلغها، أما أن تنادى على رؤوس الأشهاد فذلك عيب»[3].

وربما كان لتوسع الإسلام في بعض البيئات التي كانت تستبد بها أهواء الجاهلية كالمجتمع الفارسي والهندي أثر في بقاء الأوضاع الجاهلية المتعلقة بالمرأة، لأن «حركة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب «١٣»، ١/٢١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب «١٣»، ٤/١٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب «٣٥١»، ١/١٩٢، وكتاب الصلاة، باب «٣٠»، حديث ١٣٨، ١/٣٢٧.

(٣) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، ط٤، مصر، ١٩٩٢م، ص٥٦.

التوعية بتعاليم الإسلام والتربية بحدوده وتقواه لم تكن مواكبة لحركات التوسع»[1]والانتشار هذه.

وقد ترتب على بقاء هذه الأوضاع والأوهام الجاهلية، عبر سيادة المظاهر الإسلامية العامة، أن المجتمع الجديد أخذ ينسب كثيراً منها إلى الدين ليضفي عليها حجة شرعية وليستبقي نفوذها على نفوس الناس. ومن هنا جاءت أو «اتخذت كثير من الحيل الفقهية لتكييف الشريعة بما يناسب الأعراف القديمة، منها ضرب النصوص بعضها ببعض لادعاء نسخ بعض النصوص التي تتسع على المرأة، وإطلاق النصوص المقيدة، ومنها التوسع في تفسير الأحكام المتعلقة بمظهر المرأة ومسلكها والتشديد في تقديرها، بينما يقع التضييق والحصر في حكم يثبت لها حقًا أو حصانة في وجه إمكانية تسلط الرجل. ومنها سحب النصوص والعزائم التي وردت في شأن النبي ﷺ ونسائه على سائر النساء برغم خصوصية تلك الأحكام. ومن أوسع تلك الحجج الفقهية للتضييق على النساء: استغلال باب سد الذرائع، بفرض قيود مفرطة خشية الفتنة، وبتقديرات مفرطة في الحيطة والتحفظ»[2]، حتى وصل الأمر إلى أن بعض التيارات المحافظة في التاريخ الإسلامي التي تميزت بالتمسك الشديد بالنصوص أو بحرفيتها، والتي تميزت بكراهيتها لجميع ضروب التأويل، يقف أصحابها عكس هذا الموقف حين يكون الأمر أو النص متعلقًا بالمرأة، فيصبحون في هذه الحالة أئمة في التأويل بذرائع مختلفة منها «سد الذرائع» الذي أشرنا إليه.. بالإضافة إلى حجة اختلاف العصر، والزعم بأن «النظم القرآنية السنية رهينة بمجتمع النبي الفاضل، وأن الناس قد أحدثوا من بعده وفسد الزمان، وكان لزامًا أن تتبدل النظم نحو تحفظ أشد»[3].

---

(١) د. حسن عبد الله الترابي، المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، منشورات نجم، السودان ١٩٩٧م، ص٤٢.

(٢) د. حسن الترابي، المرجع السابق، ص٤٣.

(٣) المرجع نفسه.

علمًا بأن منهج الدين هو أن نصلح فساد المجتمع لا أن نستسلم له ونبدل نظم الحياة الإسلامية نزولاً على ظروفه. لقد «انتهى فكر المسلمين وواقعهم إلى تغيير جل الأحكام المتصلة بالمرأة -ما كان أصله في العقيدة أو الشريعة- لا تخاطب بدعوة ولا تكلف بتربية إلا تبعًا لرجل...»(١). وقد يطول تتبع هذا الفكر والواقع.. ونكتفي فقط بالإشارة إلى أقسى صور هذا الوضع أو محصلته الأخيرة وهو عزل المرأة عن المجتمع! حتى عُدّ ظهورها كله كشف عورة، حتى الصوت! وسمّى وجودها حيث يوجد الرجل اختلاطاً حرامًا، وحتى امسكت في البيت بذات الوجه الذي لم يشرعه الدين إلا عقابًا لإتيان الفاحشة!! كل ذلك «بدعوى تجريدها لتربية الأولاد وخدمة الزوج، سوى أنها لم تتهيأ لرعاية البيت بعلم ولا تجربة. وكيف يصلح مربيًا من عزل عن المجتمع ما دامت التربية الأسرية ليست إلا إعداداً للحياة الاجتماعية بمادة تربوية تؤخذ كفاحًا من قيم المجتمع وعلاقاته»(٢).

علينا أن نقرر هنا على نحو حاسم أن سد الذرائع لا يجوز له بعد اليوم أن «ينسخ أصل النظام الإسلامي العام، والذي يقضي بإشراك الرجال والنساء واشتراكهم في الحياة العامة بعفة وطهارة، فإن العزلة إن كانت تحمي المرأة من الفتنة، فإنها تحرمها من فوائد اجتماع المسلمين وتعاونهم على العلم والعمل الصالح، وائتمارهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر، واهتمامهم بأمرهم العام، وتناصرهم على قيام الكيان الاجتماعي، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١). إن لجلب المصالح

(١) د. حسن الترابي، قضايا المرأة، ص٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٥.

الجليلة في اجتماع المسلمين اعتباراً يعادل سد الذرائع إلى الفتنة في كل وجه علاقة بين الرجال والنساء لم تقطع فيها النصوص بحكم فاصل»[١].

الشراكة والمسؤولية

ونذكر هنا أن جمهور العلماء والمفسرين متفقون على أن «كل ما جاء في القرآن من خطاب موجه إلى المؤمنين والمسلمين في مختلف الشؤون بصيغة المفرد المذكر والجمع المذكر -فضلاً عن الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾- يعد شاملاً للمرأة، دون أي تفريق وتمييز إذا لم يكن فيه قرينة تخصيص. ومن ذلك التكاليف التعبدية والمالية والبدنية، والحقوق، والمباحات والمحظورات، والتبعات، والآداب، والأخلاق الفردية والاجتماعية.. وما ترتب على ذلك من نتائج إيجابية وسلبية في الدنيا والآخرة. ومن ذلك ما خوطب به المسلمون بصيغة المذكر والمفرد والجمع من تدبر آيات الله وتفهمها والعلم بها وتنفيذ مضمونها»[٢].

وقد فهمت أم سلمة رضي الله عنها ذلك المعنى في مناداة الرسول ﷺ من على منبره بقوله: «**يا أيها الناس**»، فقالت لماشطتها: كُفّي رأسي، قالت الجارية: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء، قالت أم سلمة: إني من الناس.

ويبدو أن الذي حمل جمهور العلماء والمفسرين على الفهم السديد لطبيعة الخطاب القرآني أن أول مرة ذكرت فيها «الأنثى» في القرآن الكريم دلت على هذا الحكم الإلهي الواحد، أو الذي سوّى بين الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا

---

(١) د. حسن الترابي، قضايا المرأة، ص٣٩.

(٢) د. محمد عزة دروزة، المرأة في القرآن والسنة، المكتبة العصرية، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٢.

مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ (الليل: ٣-١٠). ففي جمع الذكر والأنثى في القسم قرينة على حكمهما المتساوي عند الله؛ لأن اختلاف الناس في فعل ما هو صالح وما هو عكسه الذي تحدثت عنه الآيات المقسم بها يشمل الذكر والأنثى، «ويكون في هذا أول تقرير قرآني لمبدأ تكليف الذكر والأنثى على السواء تكليفًا متساويًا بكل ما يتصل بشؤون الدنيا والدين، ولمبدأ ترتيب نتائج سعي كلٍ منهما وفقًا للفعل الذي يصدر عن كل منهما، وأول تقرير قرآني لتساوي الذكر والأنثى في القابليات التي يختار كل منهما عمله وطريقه بها»[١].

ثم جاءت الآية الكريمة ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، لتدعم هذا المعنى بقوة، وتنص عليه على نحو ظاهر، وتعنى الآية: «أن كل ما يحق للزوج طلبه وانتظاره من زوجته من أمور مشروعة من طاعة وأمانة، وعفة وإخلاص، وحسن معاشرة ومعاملة، ومودة واحترام، وثقة وتكريم، وبر وترفيه، ومراعاة مزاج، ورعاية مصلحة، وقضاء حاجات، وعدم مشاكسة وعنف وبذاءة ومضارة ومضايقة... يحق للزوجة طلبه وانتظاره من الزوج.. فالزوجان شريكان في مختلف نواحي الحياة، ومعاملة كل منهما للآخر على هذا الأساس. وكلمة (بالمعروف) في مقامها بليغة المدى، لأن هذه الكلمة عامة تعني ما هو متعارف عليه أنه حق. وهذا لا يقاس بزمن بعينه فيما ليس فيه تحديد في كتاب الله وسنة رسوله، بل يظل يتبدل ويتطور حسب تبدل ظروف الحياة الاجتماعية وتطورها، والضابط العام فيه هو أن لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً»[٢].

(١) محمد عزة دروزة، المرأة في القرآن والسنة، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

القوامة والحقوق السياسية

ونتابع هنا الحديث عن قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، التي جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾. فقد قال المفسرون في هذه الدرجة هي درجة القوامة التي نُص عليها في قوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (النساء: ٣٤)، وفحوى هذه القوامة: القيام بشؤون الأسرة وقيادة سفينة البيت، من واقع أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية ولا بد لكل اجتماع من رئيس أو أمير.. والرجل أقدر على القيام بأعباء هذه الرئاسة بقوته وماله، وليس في هذا ما يتعارض مع ما شرحناه من مدى الحق الذي جعل فيه الزوجان سواء، بل إن فهم هذه القوامة في نطاق الأسرة القائمة على أوثق الوشائج العاطفية والنفسية، وفي ضوء المودة والرحمة التي جعلها الخالق سبحانه موصولة بين الزوجين؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١)، ما ينأى بهذا الحق -القوامة- عن التسلط والإساءة؛ فضلاً عن العسف والقهر[1].

---

(١) انظر الدكتور عدنان زرزور في مقال له بعنوان: «القوامة وشورى الأسرة»، مجلة قطر الخير، العدد ٢٧، ١٩٩٩م، ص٢٦.

وهذا الفهم السليم (للدرجة) يقابله فهم آخر -لا نتفق فيه مع صاحبه- للمفكر الكبير عباس العقاد، حين فسر وفصل في معنى مفهوم (الدرجة)، الذي رجعه إلى الجنس. بمعنى أن الذي يملك زمام الحياة الجنسية هو الذي يستحق التميز بتلك الدرجة، ومن الطبيعي -كما يرى- أن الرجل أو الذكر -بمعنى أصح- هو القادر على ذلك بحكم طبيعته الفسيولوجية، أما الأنثى فهي متلقية لا إرادة لها، حتى في إغرائها للرجل ومحاولة اجتذابه، فلو لم يكن في نفسه هوى الجنس والرغبة لما استطاعت أن تحرك فيه ساكنًا. يقول العقاد: «فليست شواهد التاريخ الحاضر المستفيضة بالظاهرة الوحيدة التي تقيم الفارق الحاسم بين الجنسين، إذ لا شك أن طبيعة تكوين الجنس أدل من الشواهد التاريخية والشواهد الحاضرة على القوامة الطبيعية التي اختص بها الذكور من نوع الإنسان... فكل ما في طبيعة الجنس الفسيولوجية في أصل التركيب يدل على أنه علاقة بين جنس يريد وجنس يقبل، وبين رغبة داعية ورغبة =

بل إن الحق ما ذهب إليه بعض الباحثين حين قال: «إن هذا الحق يستلزم قيام البيت على الشورى لا على التعسف والاستبداد، لأن الإمارة أو الرئاسة تستلزم الشورى؛ علمًا بأن الآيات الكريمة تنص على تعاون الزوجين وتشاورهما في بعض شؤون الأسرة»[1]، حتى بعد الطلاق والافتراق! قال الله سبحانه تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

بل إن الشورى التي جعلها الله تعالى من شأن جماعة المؤمنين حين قال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨)، إنما تبدأ من الأسرة أو من هذا المجتمع الصغير، قبل أن تعم وتصبح من صفات الأمة أو المجتمع الكبير.. والمرأة التي لم تكن بعيدة عن الشورى وممارسة الديمقراطية في البيت، لن تكون بعيدة عن الشورى وممارسة الديمقراطية في المجتمع.. أي لن تكون بعيدة عن ممارسة حقها السياسي..

بل هي «تشارك في تنصيب القائمين بأمر المجتمع، انتخابًا ونصحًا، كما ورد في قصة الشورى وإشراك النساء فيها؛ قال ابن كثير في البداية والنهاية: «ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما -عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما- ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس

= مستجيبة».. وفي نص أخر يقول العقاد: «فلا يعدو تقرير الواقع من يرى أن الجنسين سواء فيما لهما وما عليهما، إلا درجة يمتاز بها الجنس الذي يملك زمام الحياة الجنسية بحكم الطبيعة والتكوين». انظر المرأة في القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، ص١٠-١٢.

(١) انظر د. عدنان زرزور، المرجع السابق.

وأقيادهم، جميعًا وأشتاتًا، مثنى وفرادى ومجتمعين، سرًا وجهرًا، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن..»[1].

ملامح الإصلاح والوضع الصحيح

لن استعرض هنا حقوق المرأة في الإسلام، لأن هذا حديث يطول، وقد كتب فيه الكثير. ولكنني أكتفي بالقول: إن الأعراف السائدة في مجتمعات المسلمين، وخصوصًا في العصور المتأخرة، لا تمثل الوضع الحقيقي لمكانة المرأة في الإسلام، لأن هذا الوضع يمكننا أن نجده فقط في الكتاب والسنة وفي عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين.. وفي بعض صور التطبيق في عصور لاحقة. ونحن اليوم إذا رجعنا إلى تلك النصوص وهذه العهود، فإننا سوف نجد كل ما تطمح إليه المرأة المسلمة من المكانة والمشاركة في الحياة العامة في العصر الحاضر. ولا أعني بهذا أن تبدأ المرأة من محاولة تقليد المرأة في الغرب.. بل من مدى حاجة المجتمع وتقدمه الحضاري، انطلاقًا من ثوابت الإسلام في باب العقائد والأخلاق والسلوك الاجتماعي.

لقد قدم الأستاذ مالك بن نبي منذ نصف قرن في كتابه «شروط النهضة» التساؤلات التالية: هل يجب نزع الحجاب؟ أو هل يسوغ للمرأة التدخين؟ أو التصويت في الانتخابات؟ أو هل يجب عليها أن تتعلم؟ ثم قال: «ينبغي ألا يكون جوابنا عن هذه الأسئلة بدافع من مصلحة المرأة وحدها، بل بدافع من حاجة المجتمع وتقدمه الحضاري، إذ ليست الغاية من البحث في إشراكها في هذا المجتمع إلا الإفادة منها في رفع مستوى المرأة ذاتها، وإذن فليس من المفيد لنا أن ننظر إلى مشكلتها بغير هذا المنظار»[2].

(١) د. حسن الترابي، قضايا المرأة، ص١٩.

(٢) شروط النهضة، ص١١٦.

وقد سوّى الأستاذ مالك بن نبي بين المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع وأولئك الذين ينادون بإشراكها فيه على طريقة المرأة الأوروبية؛ في أنهما يصدران عن اعتبار واحد وهو الغريزة، ومن ثم فلا أمل في أن نجد في آرائهما جميعًا حلاً لمشكلة المرأة! يقول مالك: «قد يبدو بعض الغرابة في تعليل الدافع النفسي لموقف المتمسكين بضرورة إبقاء المرأة في سجنها التقليدي بأنه جنسي.. ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول حينما نعلم أنه ليس لتفكيرهم من مبرر منطقي إلا ما يتعللون به من الحفاظ على الأخلاق.. الذي يختفي وراءه مغزى التمسك بالأنثى، فالغريزة هنا تكلمت بلسان آخر»[1].

ثم يقول مقارنًا ومحللاً: «ولقد يكون كلام الغريزة واضحًا في رأي من يريد المرأة في صورة تلفت إليها الغرائز، أما عند من يرى أن تخرج في هيئة يقبلها الخلق فإنه من العسير أن نرى دور الغريزة في مثل ذلك التفكير، ولكن قد يكون في منعها من الخروج مبرر خفي مما يستقر في نفس الرجل من دافع جنسي من الخوف على أنثاه أن يشاركه فيها غيره، وإذن فهو يدافع عن أنثاه، وهنا يظهر جليًا ذلك الاعتبار الجنسي في تفكيره»[2].

وإذن فهذه المشكلة ينبغي أن تصفى أولاً من مثل هذه النزعات، ثم تحل حلاً يكون الاعتبار الأول فيه لمصلحة المجتمع، فالمرأة والرجل يكونان الفرد في المجتمع، فهي شق الفرد، كما أن الرجل شقه الآخر.

ولا غرو فالرسول ﷺ يقول: «**إن النساء شقائق الرجال**»[3]، والله تعالى

(١) شروط النهضة، ص١١٤-١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص١١٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطهارة، باب «٨٢»، ١/ ١٩٠.

خلقهما من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ (النساء: ١)، «فالمرأة والرجل قطبا الإنسانية، ولا معنى لأحدهما بغير الآخر. فلئن كان الرجل قد أتى في مجال الفن والعلم بالمعجزات، فإن المرأة قد كونت نوابغ الرجال»[١].

وحتى هذه المقارنة الأخيرة التي ذكرها مالك بن نبي ليست داخلة في باب المفاضلة والترجيح بين مواهب الرجل والمرأة؛ لأنه تحدث قبل قليل عن المرأة والرجل اللذين يكونان «الفرد» في المجتمع، كل واحد منهما شق هذا الفرد.. والعلاقة بينهما تقوم على التكامل وليست على المفاضلة والمنافسة أو الشراكة المطلقة في كل شيء.

وقد سبق لقاسم أمين أن تحدث عن فرق الدربة والمران أو فرق الظروف، وليس عن فرق الطبيعة أو المواهب، قال: «فالمرأة في رأي أعظم العلماء وأدقهم بحثًا مساوية للرجل في القوى العقلية، وتفوقه في الإحساسات والعواطف، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزائمهم بالعمل، بخلاف النساء فإنهن حرمن من كل تربية! فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي». ثم قال: «لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل، وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه، ولكنا نريد أن مجموع قواها وملكاتها تكافئ مجموع قواه وملكاته. وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر»[٢].

---

(١) شروط النهضة، ص١١٦.

(٢) قاسم أمين، المرأة الجديدة، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، تأليف د.محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، مصر، ١٩٨٩م، ص٥٥.

ويلتقي مالك بن نبي مع قاسم أمين في وجوب إشراك المرأة في المجتمع أو إعادة دخولها فيه، وفي وجوب تحريرها لا من قيود القرآن والسنة، لأن الإسلام هو الذي ارتاد ميدان تحرير المرأة من الأغلال التي كبلتها عبر عصور التاريخ.. ولكن من قيود الجاهلية؛ سواء كانت جاهلية القرن الرابع عشر الهجري «أي جاهلية الغلو والتشدد والتقليد الأعمى لما وجد عليه الآباء، وجاهلية القرن العشرين الميلادي، أي جاهلية العري والإباحية والتقليد الأعمى للغرب»[1]. يقول قاسم أمين: «يجب استبدال المنزلة المنحطة للمرأة بأرفع منها! يجب أن تربى المرأة على أن تدخل في المجتمع الإنساني وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف ما شاء.. يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها في نفسها لا في غيرها»[2].

نحن نملك إذن، على أبواب الألفية الميلادية الثالثة، إمكان النهوض بتعديل وضع المرأة الاجتماعي، لأننا نملك الأسس القرآنية اللازمة لهذا التعديل.. بل إننا نرى أن هذه الأسس كفيلة بتصحيح وضع المرأة الغربية كذلك.. ومن الجدير هنا الإشارة إلى خروج المرأة للعمل بعيداً عن أي قيد أو ضابط، نظراً لأن اقتصاد الأسرة أو نظام النفقات في الإسلام لم تعرفه المرأة في الغرب، يقول مالك بن نبي:

«فمن المعلوم أن المرأة الأوروبية كانت ضحية هذا الاعتبار، لأن المجتمع الذي حررها قذف بها إلى أتون المصنع وإلى المكتب، وقال لها: عليك أن تأكلي من عرق جبينك، في بيئة مليئة بالأخطار على أخلاقها، وتركها في حرية مشؤومة، ليس لها ولا للمجتمع فيها نفع، ففقدت -وهي مخزن العواطف الإنسانية- الشعور بالعاطفة نحو الأسرة، وأصبحت بما ألقي إليها من متاعب العمل صورة مشوهة للرجل، دون أن تبقى امرأة! وهكذا حرم المجتمع من هذا العنصر الهام في بناء الأسرة، وهو العنصر

---

(١) عبد الحليم محمد أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، دار القلم، ط٤، الكويت، ١٩٩٥م، ١/ ٣٠.
(٢) المرأة الجديدة، المرجع السابق، ص١١١.

الأساس فيها، وجنت أوروبا ثمار هذه الأسرة المنحلة مشكلات من نوع جديد »[1].

تيارات وأهواء

واليوم نجد أنفسنا بعد مائة عام مرت على دعوة قاسم أمين، ونصف قرن مر على أفكار مالك بن نبي، ما نزال منقسمين إزاء وضع المرأة، ويقف وراء ذلك ثلاثة أسباب:

السبب الأول:

أن دعوة قاسم أمين فهمت أولاً فهمًا غير صحيح، لأن الناس في ذلك الوقت قرأوها بعين الركود الذي كانت تعاني منه المجتمعات الإسلامية في ذلك الحين، والذي شكّل فيه عزل المرأة عن المجتمع أحد أسبابه الأساسية.. ثم حاول المتغربون والمنادون بخروج المرأة المسلمة على طريقة المرأة الغربية الاعتماد على دعوة قاسم أمين.. فأشاعوا عنه ما يريدون وحرفوا فيه وأضافوا عليه من أفكارهم واتجاهاتهم.. حتى إن كثيراً من الإسلاميين عدّوه داعية لنشر الرذيلة وخروج المرأة وإسقاط حجابها[2].

وبعد ذلك، بدلاً من تصحيح النظرة إلى ما كتبه قاسم أمين نفاجأ ببعض المؤتمرات التي عقدت من قريب[3] حاول معظم المشاركين فيه أن يطرحوا رؤيتهم التغريبية أو التي لا تفهم معنى لحقوق المرأة إلا بإسقاط ما علم من دين الإسلام بالضرورة (!) تحت عنوان تحرير المرأة، الذي نادى به قاسم أمين، أو بمناسبة مرور قرن على هذه الدعوة.. لقد ربطت بعض الأوراق التي قدمت في المؤتمر المذكور مبادئ الإسلام بمهانة

(١) شروط النهضة، ص١١٩.

(٢) انظر رأي الدكتور محمد عمارة في تلك المسألة، الأعمال الكاملة، ص١٠.

(٣) مؤتمر تحرير المرأة، الذي عقد بمدينة القاهرة، من ٢٣-٢٧/١٠/١٩٩٩م، بمناسبة مرور مائة عام على صدور كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين.

المرأة واستعبادها، ورأت أن سبيل نهضة المرأة إنما يكون بالتمسك بمواثيق الأمم المتحدة كمرجع بديل عن شريعة الإسلام! كما عدّت الحجاب نوعًا من التخلف! ويعنون به الحجاب مطلقًا.. علمًا بأن قاسم أمين طالب برفع الحجاب، الذي هو احتجاب المرأة في بيتها -لأن هذا من الأوضاع التي اختصت بها نساء النبي ﷺ- كما طالب برفع الحجاب الذي ليس من فروض الإسلام، يقول: «ربما توهم ناظر أنني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، لكن الحقيقة غير ذلك، فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها، غير أنني أطلب أن يكون منطبقًا على ما جاء في الشريعة الإسلامية، وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا، لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملاً بالأحكام، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة. والذي أراه في هذا الموضوع: هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة عن التعرض لمثارات الشهوة.. وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعًا من المقتنيات، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية.. وبين هذين الطرفين وسط.. -هو الحجاب الشرعي- وهو الذي أدعو إليه»[1].

السبب الثاني:

هذا التيار العلماني والتغريبي نفسه الذي يلقى الدعم والتأييد في كثير من الأحيان، والذي ما يزال أصحابه مصرّين على أن السبيل الوحيد لتحرير المرأة إنما يكون بإلحاقها بالمرأة الغربية في لباسها وزينتها، وفي اختلاطها وطبيعة سلوكها ومشاركاتها. ويستمر هذا الإصرار بعد تلك الأصوات الجادة والمسؤولة التي ارتفعت

---

(١) تحرير المرأة، ص ٢٥٠.

عبر قرن كامل، من محمد عبده وقاسم أمين ومالك بن نبي... إلى حسن الترابي وعبد الحليم أبو شقة ويوسف القرضاوي وغيرهم، وفي الوقت الذي بدأ فيه الغرب يحصد الثمار المرة لهذا الوضع للمرأة، ويلمس آثاره على المرأة نفسها وعلى كيان الأسرة النواة الأولى للمجتمع، وفي الوقت الذي تستطيع أحكام القرآن والسنة -كما قدمنا- أن تتقدم للنهوض بالمرأة المسلمة في الشرق، وفي حل مشكلاتها ومشكلات الأسرة في الغرب. وإن من يطلع -على سبيل المثال- على كتاب الأستاذ محمد عبد الحليم أبو شقة الذي أسماه «تحرير المرأة في عصر الرسالة» وهو كتاب موسوعي شامل: يتأكد من صحة ما نقول.

هذا الكتاب يدعو إلى القضاء على ما أسماه شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي «بالآفة» التي ابتليت بها حياتنا الفكرية، تلك الآفة هي (الغلو والتقصير)، فإن تحقق ذلك تحقق الفكر من الوسطية، وهو الأمر المطلوب لمصلحة المرأة والرجل على حد سواء[1].

السبب الثالث:

خطاب كثير من الإسلاميين الذي يتسم بالعموميات والوعظيات في بعض الأحيان، والذي يساير الأعراف والتقاليد التي تهمش المرأة وتعتدي على حريتها وتكاد تلغي كيانها.. في أحيان أخرى.

وقد يذكرنا هذا بما أشرنا إليه من تحليل مالك بن نبي.. وربما مثلت بعض الحركات اليوم أسوأ صور الفهم السقيم لوضع المرأة في الإسلام.. والتي قد قامت بمنع النساء من العمل والتعليم، منعًا للفساد والانحلال! وقد سمى بعض الكتاب هذا الوضع بالوأد التدريجي للنساء!

---

(١) مقدمة كتاب تحرير المرأة في عصر الرسالة، لعبد الحليم أبو شقة.

ويلحق بهذه الحركات ويلتقي معها آخر الأمر بعض «الدعاة» الذين يرون أن المرأة يكفيها أن تتقن القراءة والكتابة، فمالها وللشهادات المدرسية العالية والعلوم الجامعية الحديثة؟! وقد اقترح أمين عام بعض الجماعات الإسلامية في دولة خليجية عدة اقتراحات لمعالجة النقص في الميزانية العامة للدولة، منها اختصار فترة تعليم البنات، بحيث لا تتجاوز المرحلة الثانوية فقط، وذلك بهدف تربيتهن وإعدادهن ليكنّ ربات بيوت، قال: وفي حال إصرارهن على إكمال دراستهن فيجب أن يسمح لهن بالتخصص فقط في مجال التدريس والتمريض[1].

وقد يسمح لنا الموقف أن نشير إلى رفض البرلمان الكويتي منح المرأة حق الترشيح والانتخاب، وإصراره على منعها من ممارسة حقوقها السياسية.. وقد عدّ بعض الإسلاميين الذي تبنوا هذا المنع ذلك نصراً للدين والشريعة.. وهذه هي المشكلة التي نعاني منها مرة أخرى، حين يظن بعض الإسلاميين أن ما أداهم إليه فهمهم واجتهادهم هو الإسلام.. وليس لنا من تعليق على ما قام به البرلمان الكويتي في بلد مارست الديموقراطية منذ وقت ليس بالقصير، سوى القول: إن هذه الديموقراطية ديموقراطية عرجاء.. وهي ديموقراطية استخدمت ضد الديموقراطية ذاتها!

يقول الدكتور حسن الترابي: «إن الثورة على الأوضاع النسوية التقليدية آتية لا محالة، ولئن كان للإسلاميين داع من دينهم لإصلاح القديم ولطيٍّ البعد القائم بين مقتضى الدين الأمثل في شأن المرأة وواقع المسلمين الحاضر؛ فإن اتجاهات التحول في ذلك الحاضر تدعو بوجه ملح إلى المبادرة والتعجل في الإصلاح الإسلامي، قبل أن ينفلت الأمر وتتفاقم الاتجاهات الجاهلية الحديثة.. وليحذر الإسلاميون من أن يوقعهم الفزع من الغزو الحضاري الغربي والتفسخ الجنسي المقتحم، في خطأ المحاولة لحفظ

---

(١) نقلاً عن مجلة «كل الأسرة»، العدد «٣١٥»، ٢٧/١٠/١٩٩٩م.

القديم وترميمه، بحسبانه أخف شراً وضرراً، لأن المحافظة جهد بائس لا يجدي، والأوفق بالإسلاميين أن يقودوا هم النهضة بالمرأة من وحل الأوضاع التقليدية، لئلا يتركوا المجتمع نهباً لكل داعية غربي النزعة يضل به عن سواء السبيل، مستظهراً بتبرم الناس من جنوح أو ضياع المرأة، وباتجاهات الحياة الحديثة، فضلاً عن أن الدين يقتضيهم ابتداءً أن يكونوا أئمة هدى، ينقذون الناس من كل ضلال قديم ألفوا عليه آباءهم الأولين، ويعدلون به عن كل بدعة محدثة»[1].

(١) المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، ص٤٩-٥٠.

الدور الحضاري.. اليقظة

الدكتور عبد العزيز عثمان التويجري*

> الفهم الرشيد لطبيعة التاريخ الإنساني، والوعي بحقيقة المتغيرات، ينيران الطريق لاستشراف المستقبل من خلال الرؤية العلمية، وربط الأسباب بالمسببات.. فالمستقبل لن يكون للأقوياء، بل للمؤمنين الأقوياء..
> إن الانفتاح على التجارب الإنسانية والانتفاع بإيجابياتها، من الوسائل المساعدة على الإنجاز.

من الحقائق الساطعة المقطوع بصحتها وسلامتها، عند الدارسين لمسيرة تطور المجتمعات البشرية، أن ماضي أمة من الأمم وحاضرها، يمثلان النواة الصلبة لمستقبلها. فليس المستقبل، إلا جماع الخبرات والتجارب الإنسانية المتراكمة لأمة من الأمم عبر تاريخها، وليس هو إلا محصلة للعطاء الحضاري الذي تسهم به الأجيال المتعاقبة في صياغة الملامح الرئيسة للحياة في مناحيها المتعددة.

فلا انفصال البتة ولا قطيعة إطلاقًا، بين حلقات المسيرة الإنسانية، من حيث العمق والجوهر، وإنما مدار الأمر كله، حول الرسالة التي ينهض بها هذا المجتمع أو ذاك، وحول الغايات السامية والمقاصد الشريفة التي يسعى إلى بلوغها، وفقًا لقاعدة مطردة في التاريخ البشري، قوامها أن مستقبل المجتمعات الإنسانية، مرهون في خطه المتصاعد، بما هو عليه حاضرها، بحيث إن قواعد هذا المستقبل، تترسخ في الحاضر في

* *المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة*

تموجاته ومتغيراته، وتستمد جذورها من الماضي بحوادثه وتقلباته.

وليس يعني ذلك أن المستقبل، إنما هو صورة مستنسخة للحاضر في قسماته العامة وملامحه المميزة، ولكن المعنى الذي يُقصد إليه هنا، أن جينات المستقبل إنما تعود إلى الماضي والحاضر معًا، وأن ما يصنعه البشر في واقع حياتهم، وما يبذلونه من جهد في التغيير والبناء وفي التطور والانتقال من طور إلى طور، هو العنصر الجوهري الذي يدخل في صياغة المستقبل، والحجر الأساس في صناعته وبنائه.

وتطرد هذه القاعدة بصورة أوضح، في الأمم ذات الرسالة الإنسانية، التي تنهض بأعباء البناء الحضاري الإنساني، وتساهم في إثراء الحياة، وفي تقدم الإنسان ورقيه.

وتنفرد الأمة الإسلامية بين الأمم جميعًا، بأنها تحمل رسالة إيمان وهداية، إلى الناس كافة، هي رسالة الإسلام الخالدة، الصالحة لكل زمان ومكان، إلى يوم الدين.. وهي رسالة التنوير الدائم، والدعوة إلى الارتقاء بالإنسان وهدايته واستوائه على منهج مستقيم يجمع بين صلاح الدنيا والآخرة، ويلبي أشواق الروح، ويستجيب لنوازع الفطرة السوية.

ولا ينال من رسالة الأمة الإسلامية أن تتعثر بها الخطى في فترات من تاريخها، أو أن تزل أو تفترق بها السبل، فمهما تكن الانتكاسة، ومهما تبلغ درجة الأزمة، فإنها مرحلة عابرة، وتبقى سنة الله تعالى في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

والرسالة الحضارية الإيمانية التي تشرف بها الأمة الإسلامية، تُستمدُّ منها عناصر البقاء، وتُقْتبس منها مشاعل الاستنارة الدائمة التي لا تخبو لها جذوة، حتى في الفترات التي يبدو فيها كما لو أن الآفاق جميعًا تلفها حَلَكة داكنة، إذ لا يلبث الضياء أن يسري، والسحب أن تنقشع، وعوارض الأزمة أن تزول.

لقد مرت على الأمة الإسلامية في تاريخها الحافل بعظيم الأحداث والمحفوف

بخطير التقلبات، فترات كانت شديدة الوطأة على الكيان الإسلامي كله، وما من مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، إلا وكان فيها اختبار صعب للإرادة الإسلامية، وامتحان عسير للأمة، حتى بدا في أوقات الشدة، كما لو أن أبواب المستقبل أمام العالم الإسلامي قد أغلقت، والآفاق كلها قد سدت، ثم لا تلبث الأزمة أن تنجلي، لتنتظم المسيرة في طريقها.

ولعل أقرب صورة إلينا، من صور الأزمات التي اعترضت العالم الإسلامي وحاصرته حصاراً عسيراً، ما حدث في القرن التاسع عشر، وهي فترة قريبة على كل حال بالقياس إلى تاريخ الأمة، حينما سقطت معظم البلاد الإسلامية فريسة للاستعمار الأوروبي، الذي عاث فساداً في جسم العالم الإسلامي، وأذل إرادة المسلمين في كل مكان، وفرض عليها ضروباً من الهيمنة التي شلت حركة الكيان الإسلامي، وأصابت الأمة في الصميم، فانطوت على نفسها، وتراجعت عن ركب المدنية، وتخلف بها السير في طريق التقدم الإنساني.

ولكن هذه الغمة سرعان ما انقشعت، واستعادت الأمة عافيتها، واستأنفت أداء رسالتها في الحياة، وإن كان بدرجة لا تتناسب وعظمة هذه الرسالة وشرفها ونبلها وحاجة الإنسانية إليها.

فالأمة ذات الرسالة الربانية تضعف ولكنها لا تموت، وتزل بها القدم ولكنها لا تضل، فهي أمة قوية بالإيمان، قادرة بالرسالة الإسلامية التي تؤتمن عليها، تنهض بالمسؤولية وتؤدي الأمانة، حتى وإن تكالبت عليها صروف الزمن، لأن التحدي من طبيعتها، والصمود من جبلتها.

ولقد تحدت الأمة الإسلامية ولا تزال تتحدى الصعاب والأزمات وضروباً شتى من المعوقات، وصمدت أمام المحن والمؤامرات ولا تزال تصمد، وهي محن قائمة تكابدها

الأمة في إباء وشمم.. وهي مؤامرات حقيقية وليست وهمية، يواجهها العالم الإسلامي في أنفة وكبرياء، وفي قوة وبأس.

فليس من الحكمة في شيء أن نتجاهل ما يحفل به الواقع في البلدان الإسلامية، من صعوبات جمة وعراقيل متراكمة، وتحديات تتفاوت ضراوتها من قطر إلى آخر.. فمن الفطنة، بل من الواجب الشرعي، أن نعترف بأن الأمة الإسلامية في هذه المرحلة من التاريخ، تمر بأصعب الاختبارات على المستويات كلها، وبخاصة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وعلى المستوى العلمي والتكنولوجي، وعلى المستوى التربوي والثقافي.

والحق أن العالم الإسلامي، وإن كان قد وجد نفسه أمام هذه التحديات الضارية والاختبارات الصعبة، فإنه لم يذعن ويرضخ ويستسلم، وإنما صمد وقاوم واحتشد للمواجهة الحضارية التي اتخذ لها جملة من الوسائل، لا نعدو الحقيقة إذا وضعنا إرساء قواعد العمل الإسلامي المشترك في مقدمتها جميعاً.

لقد كان من بوادر اليقظة التي سادت بعض أقطار العالم الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر، أن اهتدت العقول النيرة الناهلة من ينابيع الرسالة الإسلامية، إلى التفكير في مخرج للأزمة الحضارية التي سقط العالم الإسلامي في حبائلها.

وكان الاهتداء إلى طريق الوحدة والتجمع واحتشاد القوى الإسلامية وتضافر جهود أبنائها، هو الخطوة الأولى نحو الخروج من طور السقوط والتبعية، إلى طور النهوض والحرية.

وكان التفكير على هذا النحو، من علامات الصحوة العقلية الراشدة، التي نرى أنها لا تعود فحسب إلى مطلع القرن الخامس عشر الهجري، كما يذهب بعض الدارسين، وإنما تعود إلى البدايات الأولى للقرن الرابع عشر، حينما تبلورت فكرة

الوحدة الإسلامية، التي مرت بأطوار عديدة، من الجامعة الإسلامية، إلى التضامن الإسلامي، إلى العمل الإسلامي المشترك في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، وهو الطور المعاصر لفكرة الوحدة الإسلامية التي بلغت في هذه المرحلة درجة من النضج والاكتمال والاستواء لم تبلغها في أي عهد من العهود الماضية.

لقد انبثق فجر العهد الجديد للأمة الإسلامية بإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، التي قامت على أساس من التضامن الإسلامي متين، ونهضت على قاعدة الأخوة الإسلامية التي جعلها الله تعالى وشيجة ورباطًا وعروة وثقى لا تنفصم أبداً.

وعلى هدى رسالة الإسلام، وعلى قواعد العمل الإسلامي المشترك الذي يجمع الصفوف ويحشد الطاقات ويعبئ الموارد، تمضي الأمة الإسلامية في خطها الصاعد نحو المستقبل، مستأنفة أداء رسالتها الحضارية، وناهضة بالأمانة العظمى التي استخلفها الله عليها، حين جعلها -سبحانه- الأمة الشاهدة على الناس جميعًا.. وكتب الله -تقدست أسماؤه- الخيرية الباقية فيها إلى يوم البعث، حين جعلها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وهو الصلاح والسلام والوئام والتقدم والرقي والأزدهار، وتنهى عن المنكر وهو الشر والفساد والظلم والعدوان على كرامة الإنسان.

وعلى هذا الأساس الراسخ، فإن الدور الحضاري للأمة الإسلامية في حاضرها ومستقبلها، يرقى إلى مستوى الرسالة والهداية؛ فهو ليس دور من الأدوار يؤدى، ولكنه رسالة وأمانة ومسؤولية تاريخية وعهد وميثاق، وهو جزء لا يتجزأ من الإيمان الذي يجازي عليه الله ويدخل عباده به الجنة.

فالأمة الإسلامية ليست كالأمم الأخرى، تسعى إلى التقدم لمجرد التقدم، وتنشد الرفعة في الأرض تلبية لنداء الغرائز والرغبات، ولكنها أمة الإسلام الذي هو دين للإنسانية جمعاء، ورسالة الله إلى البشر كافة.. ويقتضي ذلك أن تتهيأ الأمة

الإسلامية للنهوض بأعباء الرسالة الحضارية، من منطلقاتها الإيمانية والثقافية والتاريخية، ومن إيمانها بالله، وثقتها في نصره، ومن وفائها واستجابتها لدعوته.

ولن تستطيع الأمة الإسلامية أن تؤدي هذه الرسالة، إلا إذا بدأت بنفسها: فصلحت أحوال المسلمين من النواحي كلها، واستشرت روح الأخوة والتضامن والتكافل والتعاون في الكيان الإسلامي كله، وانتظمت مسيرة الإصلاح والتغيير والبناء والمراجعة العميقة والشاملة للنظم والمناهج والوسائل وخطط العمل في جميع الميادين، من منطلق الحرص على تجديد البناء، وعلى ضخ دماء جديدة في شرايين العمل العام الذي يقصد به الإصلاح الشامل الذي يقوم على أقوى الأسس وأرسخ القواعد، على أن يتم هذا كله في إطار العمل الإسلامي المشترك، وفي قنواته الشرعية التي أرست منظمة المؤتمر الإسلامي قواعدها، واجتمعت حولها إرادة الأمة الإسلامية.

فالدور الحضاري للأمة الإسلامية، رسالة مقدسة، وأمانة عظمى، وواجب ديني في المقام الأول، ولا بد أن تنهض الأمة بهذه الرسالة لما فيه الخير للإنسانية جمعاء، في يومها وغدها.

ولسوف تتعاظم حاجة البشرية إلى رسالة الإسلام في المستقبل، لإنقاذ الأجيال المقبلة مما يتهددها من مخاطر شديدة لا سبيل إلى التغلب عليها ومواجهتها، إلا بالتشبع بالقيم الإيمانية، والتمسك بالمبادئ الأخلاقية، وبالاهتداء إلى سبيل الرشاد الحضاري الذي هو درجة عليا من النضج الفكري في دائرة الإيمان بالله.

إن الأمة الإسلامية التي تعاني اليوم ما تعانيه من ضروب المعاناة في شتى المجالات، لا سبيل أمامها لإصلاح أحوالها وتقوية وسائلها وتعزيز قدراتها، إلا بالاهتداء بمبادئ الإسلام الحق، والاقتداء بالمنهج السوي الرشيد الذي يهدي للتي هي أقوم في كل شأن من شؤون الحياة، وفي كل منحى من مناحي العمل النافع للإنسان في دينه ودنياه،

وهو العمل الذي يمكث في الأرض، ليعمرها، كما أراد الله تعالى، وينفع الناس أجمعين النفع العميم العميق الشامل الذي يتغلغل في نسيج المجتمعات، فيغيرها ويصلحها ويطورها، ويجعلها تسير نحو التقدم الحقيقي، لا التقدم الوهمي، وإنما التقدم المتوازن المتكامل.

إن الفهم الرشيد لطبيعة التاريخ الإنساني، والوعي البصير بحقيقة المتغيرات التي تعيشها الإنسانية اليوم، ينيران أمامنا الطريق لاستشراف بعض آفاق المستقبل.

وعلى ضوء ما يتكشف لنا من معالم الطريق نحو الغد، من خلال اعتمادنا الرؤية العلمية في الاستقراء والمقارنة وربط الأسباب بالمسببات، وقياس اللاحق على السابق، نرى أن المستقبل المنظور، لن يكون فقط للأقوياء، بل سيكون للمؤمنين الأقوياء، الذين هم الأقوياء الأسوياء، الذي يجمعون بين قوة العلم والقدرات الاقتصادية، وبين الإيمان بالله الذي يهدي إلى التمسك بالقيم العليا وبالمبادئ الفضلى.

وفي ضوء هذا الوعي الحضاري، نرى أن الأمة الإسلامية التي تحمل رسالة الإيمان والهداية، ورسالة السلام والوئام، ورسالة المساواة بين البشر والعدل فيما بينهم، لا بد وأن تستكمل العناصر الجوهرية التي تمكنها من مواصلة أداء دورها الحضاري في عالم الغد، ومنها امتلاك شروط القوة والقدرة والاستطاعة: قوة العلم الذي يبني صروح التقدم، وقدرة الاقتصاد الذي تزهو به الحياة، والاستطاعة المادية والمعنوية، الروحية والفكرية، للنهوض بالأعباء الثقيلة لهذه الرسالة السامية.

والرأي عندنا، أن قوة الأمة الإسلامية في تضامنها وتعاونها وتكافلها، وفي التفافها حول الأهداف المسطرة في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي، وأن قدرتها تكمن في تنفيذ ما اجتمعت عليه الإرادة الإسلامية الجماعية، سواء أكان ما اجتمعت عليه قرارات، أم خطط، أم استراتيجيات للعمل المشترك في ميادين الاقتصاد والتجارة

والصناعة والزراعة والثقافة والتربية والعلوم والتكنولوجيا والإعلام، ومختلف قطاعات العمل الجماعي الذي يخدم المصالح العليا للأمة الإسلامية.

فبقدر ما تمضي دول العالم الإسلامي قدمًا في طريق العمل الإسلامي المشترك، وفقًا لقواعده وطبقًا لأهدافه، تنفتح أبواب المستقبل في وجه الأمة الإسلامية، وتتمهد أمامها السبل لأداء الدور المنوط بها في عالم الغد.

إن مستقبل الأمة الإسلامية يبدأ اليوم، وينطلق من الواقع، وتتكون ملامحه من اللحظة الراهنة.. فإذا ما استطعنا أن نعالج مشكلات الحاضر بالحكمة، وبالتعاون، وبالتضامن، ومن منطلق الأخوة الإسلامية، تيسرت لنا الأسباب والشروط للبناء الحضاري للمستقبل، أما إذا استمرت أوضاع العالم الإسلامي على ما هي عليه اليوم، لا يصيبها تغيير، ولا ينالها تجديد، فسيكون سعينا دون طموحنا، وفي ذلك ضياع للجهد يُحاسب عليه هذا الجيل.

لقد توفرت من أسباب النهوض، في هذه المرحلة، ما لم يتوفر مثله في أية مرحلة سابقة، ولذلك فلا عذر لأي كان، في التقاعس والتخلف عن التقدم نحو الأمام.

إن الإطار السليم الجامع لأطراف الصف الإسلامي، قائم على أسس قوية، والفرصة التي تتاح اليوم للبلدان الإسلامية للانطلاق نحو اكتساب شروط القوة والمنعة والعزة في الأرض بالحق، هي من الفرص التاريخية التي لا ينبغي، بل لا يجب إطلاقًا أن تُفوَّت.

إن تقوية الحضور الإسلامي على الساحة الدولية شرط رئيس من شروط التأهيل للقيام بالدور الحضاري في المستقبل، وليس هناك من مدخل إلى إثبات حضور العالم الإسلامي على الصعيد الدولي، إلا من خلال تقوية جهاز المناعة الاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية في الكيان الإسلامي، لأن الأمة الضعيفة، الفقيرة، التي تعوزها

القدرة وتنقصها الثقة بالنفس للدخول إلى حلبة التنافس والتسابق، لن تقدر أن تثبت في عالم اليوم، وليس من سبيل أمامها لتثبت أمام الأمم والشعوب في عالم الغد.

ولعل من أقوى الأسباب التي تتوفر لدى العالم الإسلامي للارتقاء بمستويات الحياة في المجتمعات الإسلامية جميعًا، العمل الجماعي المشترك في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، لأنه يتيح إمكانات كبيرة لتبادل المصالح والمنافع، ولتحقيق القدر المطلوب من التكامل الاقتصادي والتكافل الاجتماعي والتقارب الثقافي والترابط المصلحي الذي يخدم الأهداف المشتركة.

وليس أمام الأمة الإسلامية سبيل غير هذه السبيل للوصول إلى المستوى اللائق من التكيف مع مستجدات العصر ومع متغيراته، ذلك أن التعاون في البناء الذي ترتفع به هامة الأمة وتعلو منزلتها، ضرورة تقتضيها المصلحة الحيوية لكل دولة من دول المجموعة الإسلامية.

فالوفاء بمقتضيات الأداء السليم للدور الحضاري في المستقبل مرهون بمدى الالتزام في الوقت الراهن بمبادئ العمل الإسلامي المشترك، إذ ليس في إمكان دولة واحدة أن تفي بحق الشهود الحضاري في عالم الغد، لضخامة العبء، ولثقل المسؤولية، ولذلك جعل الله الأمة الإسلامية شاهدة على الناس.

والشهادة هنا، هي القيادة الحضارية التي تتأتى من القوة الإيمانية والعلمية والثقافية والفكرية، ومن القدرة الاقتصادية، ومن النفوذ السياسي الذي يخدم القضايا الإنسانية العادلة.

والأمة الضعيفة القدرات، الفاقدة لوسائل التأثير الفاعل والإيجابي، لن ترقى إلى مستوى القيادة، ولا إلى مستوى الشهادة، ولن يتسنى لها أداء أي دور إنساني مؤثر على أي مستوى كان.

وبناء على هذه القاعدة التي لا سبيل إلى التشكيك فيها، فإن الرؤية الثاقبة إلى آفاق المستقبل، توضح لنا جملة من الحقائق يمكن حصرها في ثلاثة مجالات:

المجال الأول:

إن الأمة الإسلامية لكي تنهض برسالتها الحضارية في المستقبل، وعلى النحو الذي يستجيب لعظمة هذه الرسالة المؤمنة الهادية، يجب أن تعتمد المنهج العلمي السليم في التخطيط للمستقبل، على مختلف المستويات، إذ لا مجال هنا للعمل وفق قاعدة سد النقص واغتنام الفرص وتلبية الحاجات الآنية، وإنقاذ ما إلى إنقاذه من سبيل، فلا بد من العمل المتقن القائم على العلم، وعلى الرؤية الشمولية إلى الحاضر والمستقبل في آن واحد.

المجال الثاني:

إن العمل في الإطار المتكامل، وفي نطاق تضافر الجهود والتنسيق فيما بينها، والتشاور وتبادل الخبرة والتجربة، هو أنجع الوسائل لبلوغ الأهداف المرسومة. ذلك أن العصر الذي نعيشه، والمستقبل الذي ينتظرنا، للتكتلات الكبرى، ولا مكان فيه للعمل في أضيق الحدود، ولأقصر الغايات.

المجال الثالث:

إن الانفتاح على التجارب الإنسانية والانتفاع بإيجابياتها، والأخذ بأقوم النظم والمناهج التي ثبتت صلاحيتها وسلامتها ومنافعها، من الوسائل المساعدة على إنجاز الأعمال الكبيرة التي تفيد الأمة وتنفع الإنسانية نفعًا عظيمًا.. فالعالم تضيق جوانبه باستمرار، والتجربة الإنسانية حق مشاع لكل البشر، والحضارة الإنسانية إنما هي جماع إبداع الشعوب والأمم وخلاصة عطاءاتها عبر الأزمان والأحقاب، ولذلك يتوجب على

الأمة الإسلامية أن تفيد من العطاء الحضاري الإنساني، وأن تتفاعل معه، وأن تضيف إليه وتساهم فيه.

من هذا المنطلق ومن خلال هذه الرؤية الشمولية، يمكن القول:

إن الأمة الإسلامية وضعت القواعد العامة للعمل الإسلامي المستقبلي، فهي تتوفر على المؤسسات المتخصصة وعلى الخطط والاستراتيجيات، وعلى القنوات والأوعية والوسائل التي تشكل الإطار العام المناسب للتعاون لما فيه الخير والنفع والمصلحة العليا للأمة.

لكن ما ينقص الأمة الإسلامية اليوم، هو دعم مؤسسات العمل الإسلامي المشترك بالكفاءات العلمية المخلصة، وبالوسائل المادية الكافية والدائمة، وتعميق الثقة وتقوية روح الأخوة، وتعزيز التضامن، وتعبئة الإمكانات والموارد في مشروع حضاري كبير للنهوض والبناء، يهيئ الأمة لدخول القرن الحادي والعشرين، بقدرات أكبر ووسائل أوفر، للإسهام في ترشيد الحضارة الإنسانية، وفي اغتنامها، وفي إشاعة روح الوئام والتفاهم بين الأمم والشعوب، في إطار الحوار بين الثقافات والحضارات والتعايش فيما بينها.

إن التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية بالغة الضراوة، وإن الصعاب التي تعترض سبيل دول العالم الإسلامي شديدة القسوة، والأمة الإسلامية قادرة -بمشيئة الله سبحانه وتعالى- على أن تستأنف دورة حضارية جديدة تتهيأ خلالها لأداء دورها الحضاري في عالم الغد إذا ما بادرت الأمة إلى استغلال ما هو متوفر لديها من إمكانات وقدرات، وتوظيفها التوظيف السليم، في إطار التضامن الإسلامي، وبروح الأخوة الإسلامية، ومن أجل تأكيد الحضور الإسلامي المتميز والمؤثر في الساحة الدولية، أداءً للأمانة التي تتحملها، وقياماً بالواجب الشرعي الذي يقتضيه إيمانها برسالتها

الحضارية، وتحقيقًا للأهداف الإنسانية النبيلة.

إن الدور الحضاري الذي يمكن أن تضطلع به الأمة الإسلامية في عالم الغد، يبدأ التخطيط له من المرحلة الراهنة، بانتهاج السبل المستقيمة التي رسمنا معالمها آنفًا، وباعتماد المنهج العلمي الواقعي الذي يقوم على الاهتداء بالقيم الإسلامية الخالدة الهادية للإنسان، والاقتداء بالتجربة الإنسانية البانية للحضارة وللعمران.

فبذلك يمكن أن تساهم الأمة الإسلامية في إثراء الحضارة الإنسانية بصورة متميزة، ويمكن لها أيضًا أن تؤدي رسالتها على النحو الذي يستجيب لنداء ربها.

فالدور الحضاري المنوط بالأمة يبدأ من الذات، وينطلق من الواقع الإسلامي، وينبع من الخصوصيات العقدية والحضارية والثقافية التي تتميز بها هذه الأمة، التي جعلها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس.

أسباب عطالة الأمة وعدم فاعليتها

عبد الله باه*

عودة الأمة إلى هويتها هي الضمان لتجديد دورها الحضاري.. ولا يتأتى ذلك إلا بترشيد الصحوة الإسلامية، واعتماد روح الحوار الهادف وسيلة لنشر الإسلام، وإقناع الآخرين بدوره في إنقاذ الحضارة المعاصرة وإلحاق الرحمة بالعالمين.

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين؛

الإسلام هو، كما قال الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه في حرب القادسية حين سأله رستم قائد الفرس: من أنتم، وما مهمتكم؟ فرد قائلاً: «نحن قوم بعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». نعم فالأمر كما قال.. فهو نظام الله الشامل الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، لتنظيم حياته الدنيوية والأخروية، وضبط علاقاته بنفسه وبربه وبمحيطه، مسلمين وغير مسلمين، أفراداً وجماعات أو دولاً، في السلم وفي الحرب، فلم يفرق بين ما لله

* باحث.. أكاديمي.. (السنغال).

وما للقيصر، يقول تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ...﴾ (القصص:٧٧).. وهو دين الوسطية، لأنه خلاصة متوازنة بين روحية المسيحية ومادية اليهودية.

وبهذا المفهوم العام للإسلام، أرسى النبي ﷺ قواعد الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة، فانطلقت منها طلائع المسلمين بنور التوحيد لإنقاذ بني البشر من براثن الشرك، وتحريرهم من قيود العبودية، فرفرفت في زمن قياسي رايات الإسلام خفاقة فوق الإمبراطوريات المجاورة، فقبلت بحكم المسلمين وقيادتهم للعالم، بقوة إيمان الرجال، وعدالة الإسلام، وشفقته بالإنسانية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ولكن بعد العصور الذهبية من تاريخ الإسلام سرعان ما انقلبت الأمور رأسًا على عقب، وانفلت من أيدي المسلمين زمام القيادة إلى غيرهم، وزحزحوا عن مر كز الدوران، حتى أصبحوا في المجتمع الإنساني أضيع من الأيتام في موائد اللئام.. ولهذا التراجع الخطير في دور الأمة الإسلامية الحضاري، وتحولها إلى شراذم منزوية تعيش في هامش الحياة مستهلكة من إنتاج الآخرين، أسباب أهمها في نظري:

١- الانسلاخ عن الهوية الإسلامية:

التي رشحت الرعيل الأول للصدارة، وهي التمسك بالكتاب والسنة، فقد حكَّم المسلمون الأوائل الوحيَ الإلهيَ ممثلاً في القرآن والسنة النبوية على حياتهم اليومية، في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وسلوكهم العام والخاص، فوضعوا أنفسهم تحت مراقبة الله أو مراقبة الوازع الديني، المركوز في ضمائرهم الحية، فعاشوا سعداء قانعين بما قسم الله لهم من رزق، ومجاهدين في سبيل الله لتبليغ رسالتهم

الإنسانية إلى شعوب العالم، رافعين منارات العلم ليقتبس من نورها العالم الغربي عن طريق جامعات الأندلس، وصقلية، وجنوب إيطاليا، ومن خلال الحروب الصليبية في الشرق، حتى جاء بعدهم جيل أصيب بمرض الجشع والاستغراق في الماديات، فانبهروا بما في الغرب من حريات مزيفة، ومدنيات مزورة، وحضارة براقة لكنها مغشوشة، فتخلوا عن دستور الأمة ومصدر سعادتهم، واحتكموا إلى القوانين الوضعية، لأنها في نظرهم أدرى بشؤون حياتهم المعاصرة، وحلولها أكثر مناسبة لقضاياهم النابعة من روح العصر، فتركوا حلول من قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، لأنها في زعمهم قد عفى عليها الزمن، وليس معقولاً في منطقهم أن تعالج قضايا القرن العشرين بحلول احتمالية وضعت في مطلع القرن السابع الميلادي لأمة بدوية متخلفة قصورها على ظهور جمالها، فصدق عليهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، فحل بهم الهوان والذل، وتأخروا عن ركب الحضارة الإنسانية، وانتزعت منهم راية الحضارة الإنسانية، وأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين.

٢- الجهل والأمية:

الإسلام دين العلم، شرّفه وكرم المشتغلين به، وحث عليه القرآن بأكثر من آية، وبأساليب مختلفة، منها قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧)، بل جعل معرفة الله بصفاته وأسمائه وأفعاله شرطًا لصحة الإيمان به.

كما نوّه بالعلم رسول الله ﷺ، ورفع من شأنه، وجعل طلبه فريضة على

كل مسلم، وفضّل العالم على العابد فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.. ولا يمكن أن يتصور أي تقدم حضاري بمعزل عن العلم والعلماء.

وإذا حل الجهل محل العلم في أي مجتمع إسلامي، وندرت الثقافة الإسلامية، كما هو الحال في عمق الوطن الإسلامي في جنوب الصحراء الإفريقية، تفشت الشعوذة والخزعبلات والسحر والرقى غير المشروعة والتمائم والاستعانة بالموتى والمقبورين وأضرحة الصالحين والأولياء والنذر لغير الله وتقديم القرابين له، والطيرة والتنجيم وقراءة حظوظ الناس في الكف أو الخطوط على الأرض أو في الكؤوس والفناجين، اعتقاداً من الكهنة والعرافين ومن يأتيهم ويصدقهم أن هذه الخرافات لها تأثيراً سلبًا أو إيجابًا في حياة الناس وفي تغيير القضاء والقدر، ومع ذلك يُصلُّون ويصومون، ولا يرون أن هذه الممارسات الشركية تتنافى مع الإيمان بالله ويسيران في اتجاهين معاكسين لا يلتقيان أبداً.. وإذا حذرتهم من خطورتها على العقيدة الإسلامية وصفوا عملك بأنه العلم الجديد!

وقد يرى الإنسان من جهلة المسلمين في بعض المدن الإفريقية من يتخذ أصنامًا من الحجارة والخشب في غرفة خاصة بنيت في إحدى زوايا داره، يقرب لها القرابين من الذبائح واللبن، دون أن يدرك مخاطرها على عقيدته وإيمانه، بحجة أنه ورث هذه الأصنام عن الآباء والأجداد، وأنه يحتفظ بها ليس رغبة فيها بل رهبة منها، مدعيًا أنه لو حاول التخلص منها أو منع القرابين عنها لأمطرت عليه وابلاً من المصائب تمتد آثارها إلى أبنائه وأحفاده.. ولا يعوزه إيراد الخرافات وضرب الأمثال بمن حاول أن يتمرد على تقاليد الأسرة، فأصبح ذات يوم تحت وطأة السياط تمزق جسده، ولا يرى أحداً، فاضطر إلى أن يتوب ويقدم القرابين للأصنام.. ولو قلت له: أنا أكفيك عنها، لو أذنت لي لرميتها في البحر.. لرد عليك قائلاً: حياتك غالية علي

ولا أريد أن تموت أو تصاب أسرتك بسوء!!

فمن لي بإقناع مثل هذا الرجل الجاهل إذا كان ثمن اقتناعه في نظره هو الموت والهلاك له ولأسرته؟! وأي دور حضاري ننتظره من عالم عشعش الجهل على بعض أجزائه وناء بكلكله وضربت فيها الخرافات أطنابها، وسدت الأوهام والممارسات الشركية أمام نور العلم والحقيقة والتوحيد الخالص كل المنافذ؟!! وأي غباوة يمكن أن نسميها تقدمًا إذا كانت تتنمر على عقيدة الأمة الإسلامية، وتقلب لها ظهر المجن؟!

٣- المرض والفقر:

وقد قيل قديمًا: «إن العقل السليم»، رائد الإبداع والابتكار في العلوم التكنولوجية الضرورية لتطوير حياة الأمم، «في الجسم السليم»، المفتول السواعد القادر على الإنتاج الاقتصادي لضمان الأمن الغذائي للشعوب، والذي يعتبر حقًا نقطة الانطلاق لتقدمها في مجالات الحياة الأخرى وارتياد شعبها.. وقد صدر عن منظمة الأمم المتحدة تقرير يوم ١ /١٢ /١٩٩٧م، بمناسبة اليوم العالمي لمرض نقص المناعة المكتسبة «السيدا»، جاء فيه أن الذين يحملون فيروس هذ المرض الخبيث في العالم بلغ عددهم عشرين مليون نسمة، وسيصل في عام ٢٠١٠م إلى أربعين مليون نسمة، ويصاب به يوميًا في أفريقيا وآسيا ستة عشر ألف شخص.. وفي الشمال تنفق الحكومات في علاج مصاب واحد ستة عشر ألف دولار أمريكي، وفي الجنوب ستة عشر دولارًا أمريكيًا فقط، لأن إمكاناتها المادية الضئيلة لا تستطيع أن تغطي أثمان الأدوية الضرورية وتوفير أماكن لازمة للاحتفاظ بها، وتهيئة الجو المناسب فيها لتركيبها الكيماوي، وتسخير الوسائل الفعالة لتوزيعها بين المحتاجين في عمق البلاد.. ومعلوم أن العالم الإسلامي يتشكل من آسيا وأفريقيا باستثناء جيوب له أو تغلغلات

بشرية في أوروبا وأمريكا!

من منطلق هذا التقرير، نستطيع أن نقول بكل صدق وأمانة: إن المرض والفقر يشكلان أخطر تحد في طريق تقدم الشعوب الإسلامية للوصول إلى مصاف الأمم الراقية وإلى مركز صنع القرارات الخطرة لتصحيح مسار العالم، وترشيد توجهاته السياسية والاقتصادية والحربية.

٤- الحروب والنزاعات المحلية والإقليمية:

تعرض العالم الإسلامي لصراعات مريرة وأحداث دموية، راح ضحيتها نخبة من فلذات كبده، فانهكت قواه واستنزفت خيراته، وأصابته في بعض أجزائه بشلل، وعرضته لتدخل أجنبي في شؤونه الداخلية، وأعاقت تنميته، بمفهومها العام، وساهمت كثيراً في تهميش دوره الحضاري بين شعوب العالم، فهي مع كثرتها وتنوعها وتفاوتها في حدة التأثير سلبًا على حياة الشعوب الإسلامية وزحزحتها عن مقصورة القيادة للمسيرة الحضارية، يمكن عرضها وربطها بمناطقها الجغرافية على النحو التالي:

أ/ إفريقيا جنوبي الصحراء:

إن الموضوعية أو أمانة التعامل مع الحقائق التاريخية بشيء من الواقعية تقتضي منا أن ننظر إلى هذا الإقليم بمنظار من الشمولية، نظراً للترابط التاريخي الوثيق بين دوله، وتداخل حدودها الجغرافية والبشرية، وعلاقات الدم واللغة والثقافة والعادات والتقاليد بين شعوبها التي قاومت أطماع الاستعمار فقضّت مضجعه، واصطدم جشعه التوسعي على حساب الآخرين بصخرة إرادتها الصماء، حتى إذا أدرك أن نجمه في طريقه إلى الأفول، ولم يبق له إلا المغادرة النهائية، أخذ بتقطيع أوصال المنطقة برسم حدود

عشوائية غير مبال في ذلك بالفواصل الطبيعية من أنهار وسلسلة جبال وامتدادات عمرانية وبشرية، فأدى ذلك إلى تقسيم بعض مدن وقرى وتجمعات قبلية بين دولتين منفصلتين، أو إقامة دولة داخل دولة أخرى.

كل ذلك يجعل الحديث عن معوقات التقدم الحضاري في دول الأغلبية المسلمة، عمق العالم الإسلامي، بمعزل عن دول الجوار وتجاهلها غير منسجم، فالتنمية البشرية في مثل هذا الوضع الغريب، تتأثر بإفرازات الأحداث الاجتماعية الكبرى، وتتجاوب مع أصدائها المؤلمة، داخلية كانت كالحروب الأهلية والانقلابات العسكرية للإطاحة بحكومات منتخبة، وتزوير الانتخابات، والأعمال الإرهابية، واغتيال شخصيات سياسية، أو خارجية كمخيمات لاجيء الحروب الأهلية، وما يترتب عليها من تخريب الأراضي الزراعية، ونهب ممتلكات المواطنين وتلويث البيئة، وانتشار أمراض وبائية وأعباء، إعلان حالة استنفار عسكري في الحدود، إذا تحولت الحرب الأهلية في دولة مجاورة إلى حرب عصابات تحاول فيها الفصائل المتناحرة استخدام أراضي دول الجوار لشن أعمال حربية، فيرتبك الأمن الداخلي، الذي يعتبر الركيزة الأولى في أي رقي حضاري أو مدني، وينهار الاستقرار الاقتصادي.

وهذا ما حدث بالفعل في الإقليم من جراء حروب أهلية وحشية أتت على اليابس والأخضر في الكنغو الشعبية، والكونغو الديمقراطية، وبورندي، وليبريا، وغينيا بيساو، وسيراليون، رغم أنها ليست من الدول الإسلامية ولكنها مجاورة لها.. علاوة على ذلك فقد طُرد منها من نجا من الموت من الجاليات المسلمة المسيطرة على الأسواق التجارية، بعد أن نهبت أموالهم التي كانت مصدراً سخياً لدعم اقتصاديات بلادهم المسلمة، ولتخفيف الحالة المعيشية فيها لشريحة كبيرة من الأسر المسلمة.

وقد تحدث من حين لآخر بعض أحداث مفزعة بين الدول الإسلامية نفسها، وإن لم تصل إلى درجة الغليان الحربي، ولكنها تؤثر كثيراً في توسيع هوة الخلاف وسوء التفاهم، وإثارة الأحقاد والعداوات بين شعوب الإقليم، وإشاعة حالة من النفور وعدم الثقة بين القادة، كأحداث عام ١٩٨٩م -التي ما زالت آثارها السلبية حتى الآن ماثلة للعيان- بسبب خلاف بين مزارعين في جمهورية السنغال ورعاة في جمهورية موريتانيا حول جزيرة «ندو ندوخوري» الحدودية، أدى إلى أعمال عنف راح ضحيتها عشرات من الأبرياء من جاليات البلدين لدى الطرف الآخر، بعد نهب محلاتهم التجارية وحرق ممتلكاتهم، وكادت الدولتان الشقيقتان تدخلان في دوامة حرب ضروس لولا أن أدركهما الله برحمته.

ب/ أفريقيا شمالي الصحراء:

وليس شمالي الصحراء بأحسن حالاً من جنوبيها حيث الاضطرابات والنزاعات والاقتتال الداخلي الذي ينهك الأمة والدولة على حدٍ سواء.

٥- الاستعمار:

قد لا نستطيع أن نجرد الاستعمار من أي أثر إيجابي في تطوير أساليب حياة شعوب إفريقيا المسلمة، ونحمله المسؤولية الكاملة في تخلفها وكل سلبيات ذلك.. فالواقع التاريخي لا يقر هذه الفكرة، ويكفي لتبريرها أنه -على الأقل- وجدها كيانات وقوميات صغيرة في تجمعات بشرية متفرقة في صورة ممالك وإمبراطوريات متناحرة ومتصارعة فجمعها في كيان موحد وقومية كبرى، وصهرها في بوتقة دولة واحدة تُرْضِع الجميع بأثداء جنسية واحدة ووطنية موحدة.. خطط فيها المدن العصرية، وبنى فيها الطرق والعمارات الشامخة والمستشفيات مجهزة بأحدث المعدات

الطبية العصرية وأنواع من الأدوية مختلفة، تحت إشراف أطباء مهرة من تخصصات مختلفة، ومد شبكات المياه والكهرباء على طول البلاد وعرضها، وأرسى فيها قواعد للحكم، ونظام لاختيار الحكام وممثلي الشعب.

إلا أننا نستطيع أن نقول وبدون إجحاف: أنه أخذ واستفاد أكثر مما أعطى وأفاد.. فقد روج في أمريكا وأوروبا تجارة الرقيق لإسعاد شعوبها على حساب شرف الشعوب الإفريقية وكرامتها، وأنشأ أسطولاً بحريًا لشحن العبيد من صفوة أبناء القارة في الأغلال والسلاسل إلى الغرب في رحلات بدون عودة، من جزيرة «غوري السنغالية» التي ستظل وما تحتوي عليه من دار العبيد التاريخية وغرفها وممراتها المظلمة وسلاسلها المعلقة، وسمة عار على جبين الغرب.

نعم قد دمر الاستعمار وخرب أكثر مما بنى وعمَّر.. بنى الجسم وفرغه من روحه.. غير من ثقافتنا الإفريقية، وتربيتنا الإسلامية، وحاول قطع كل صلة لنا بماضينا المجيد المشرق بنور الإسلام، فأغلق الكتاتيب القرآنية والمدارس العربية الإسلامية بأسلوب في غاية البربرية، وقيد بقاءها مفتوحة بشروط تعجيزية، وأحل محل تعليم اللغة العربية التي كان من المفروض أن تكون اليوم اللغة الرسمية للعالم الإسلامي كافة، تعليم اللغة الإنجليزية أو الفرنسية العلماني.

وبذلك تمكن الاستعمار من خلق حواجز لغوية بين الشعوب الإسلامية، وفرض نظام التجنيد الإجباري على الأفارقة لتمويل مشروعات حربية لا ناقة لهم فيها ولا جمل، لتحقيق أطماعه التوسعية، أو لإخماد ثورات وطنية في بعض أجزاء العالم الإسلامي، وبذلك نجح في خلق العدواة بين الشعوب الإسلامية.

ولهذا لم استغرب حين وقع بصري، وأنا طالب في الأزهر، على جملة في

الصفحة الأولى من كتب من سلسلة الشعوب الإسلامية الإفريقية، لكاتب عربي مشهور، تقول: «إن النفس في بلادنا لا ترتاح إلى كلمة السنغال».. وفي السطور التالية يعلل الكاتب هذا النفور، بأن السنغاليين كانوا يحاربون إلى جانب الجنود الفرنسيين في سورية لإجهاض ثورتها الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي.

كما اعتنى الاستعمار برعاية الأقليات المسيحية على حساب الأغلبية المسلمة، فكون عناصر منها ومن الأسر المسلمة، لكنها متغربة، في مدارس الإرساليات التبشيرية، أو في جامعات أوروبا، فرباهم على نمط الفكر الغربي، وغذاهم بألبانه الملوثة بفيروس كراهة الإسلام وثقافته وفكره، فتأهلوا لحمل راية الاستعمار في ثوبه الجديد مدعمين بالقواعد العسكرية لضمان استمرار هيمنته على المؤسسات التشريعية والتنفيذية والعسكرية والاقتصادية وتسخيرها لخدمة مصالحه.

فإذا كنت مثلاً تجيد القراءة لإشارات الظروف، وتفهم إيحاءات الملابسات التي وصلت بغير مسلم إلى سدة الحكم، على شعب تصل نسبة المسلمين فيه إلى ٩٥٪، فإن قراءتك وفهمك لا يمكن أن يقوداك إلى بدائل أخرى غير هذا الذي نقول، ويكفي دليلاً تعبيره بنفسه عن الجانب الخفي من رسالته الاستعمارية أثناء زيارته للمقر البابوي في روما، قائلاً: لا أستطيع أن أحول بين المسلمين وعقيدتهم، ولكن أستطيع أن أجعلهم أسوأ مسلمين في العالم.

من هذا العرض يتضح لنا أن الاستعمار، بتعاون مع عملائه، يشكل أخطر تحد يعوق مشاريع الأمة الإسلامية الحضارية، ويبدد جهودها لاستعادة دورها القيادي لشعوب العالم.

مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة المسلمة

إن مسيرة الأمة المسلمة، وما تعرضت له خلال تاريخها الطويل من عمليات التمدد والانكماش، أو المد والجزر، توحي بأن الحالة التي آلت إليها الأمة الإسلامية من التدني والذبول، والتقهقر والأفول، نتيجة لتغير الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية سلبًا من عصر إلى آخر، ما هي إلا كبوة فاجأتها في قارعة الطريق، وستقال من عثرتها، ولا يتصور بحال من الأحوال أن تكون نهاية لمسيرتها العريقة، بل هي كجمرة تراكم عليها رماد كثيف فظلت قابعة في عزلتها عن عوامل الانتعاش والاشتعال، تنتظر الفرصة الأولى من هبوب الرياح لتسفي عنها حجبها لتعود إلى التأجج والتوقد، وتكون مصدر النور والدفء، تبث في الحياة طاقة جديدة للاندفاع إلى تحقيق مزيد من سعادة الشعوب ورفاهيتها.

هذه الفرصة الذهبية تكمن في استعادة الأمة الإسلامية هويتها الإسلامية، التي تميزها عن غيرها من الأمم، وتعالج كل الأسباب التي شكلت للأمة جسر العبور إلى وضعها الحالي، وتستجيب لأمر ربها بسلوك طريق العلم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ١٠)، ويقول الرسول ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[١].

ويدعو الرسول ﷺ إلى العمل والعيش بعرق الجبين، فيقول: «**لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكم حُزْمَةً على ظهره خيرٌ له منْ أنْ يسألَ أحدًا فيعطيه أو يمنعه**»[٢].

كما يدعو إلى الوحدة والتآلف ونبذ الخلافات، فيقول ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر**

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري.

جسده بالسهر والحمى»[1]. ويدعو كذلك إلى كسر قيود العبودية لغير الله، والاندفاع في آفاق الحرية.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»؟!

فعودة الأمة إلي هويتها الإسلامية هي الضمان الوحيد لاستعادة مركزها القيادي وتجديد دورها الحضاري، ولا أرى ذلك مستبعداً إذا أحسن كبار علماء الأمة الإسلامية رعاية وترشيد الصحوة الإسلامية، التي بدأت تفرض نفسها في كل مكان حتى في المؤسسات التعليمية الغربية، ليرسموا معالم الطريق لنهضة الأمة الإسلامية، بعيدة عن كل مظاهر التطرف والتعصب الديني والتقوقع في إطار أفكار دينية ضيقة، ومراعية وسطية الإسلام، واعتماده روح الحوار الحر الهادف وسيلة للدفاع عن مبادئه، وإقناع الآخرين، وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) أخرجه البخاري.

الخطاب الدعوي لغير المسلمين

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي*

الخطاب الدعوي، له مضمون واحد، هو تبليغ ما حمله الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى الناس.. وله ضوابط تعين الداعية على أداء رسالته الدعوية، وتبعث غير المسلمين على الاستماع والتلقي.. وحين يكون خطابًا دينيًا، يكون قويًا لا يمكن مواجهته بأية حجة..

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد؛

فإن الدعوة إلى الله تعالى من أعظم الواجبات على الأمة الإسلامية، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام- ورسالة سيد الأولين والآخرين، محمد ابن عبد الله ﷺ.

فبالدعوة إلى الله تعالى ينتقل الإسلام من السلف إلى الخلف، ليتصل الماضي بالحاضر، ويمتد إلى المستقبل، ويبقى الإسلام ظاهرًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وبالدعوة إلى الله تنداح شجرة دين الله تعالى، وينتشر ضياؤها في جميع أنحاء الدنيا، مبددًا ظلمات الجهل، وناشرًا الخير والفلاح بين العالمين.

---

* باحث وأكاديمي.. وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد سابقًا (السعودية).

والأدلة على وجوب الدعوة إلى الله تعالى، وفضلها، وعظم ثوابها كثيرة:

منها قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ (يوسف:١٠٨)، وقوله جلت قدرته: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل:١٢٥)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤).

وقول الرسول ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»(١)، وقوله ﷺ يوم فتح خيبر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أعطاه الراية: «**انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»(٢).

وقد ظهر الاهتمام بالدعوة إلى الله تعالى، باعتبارها من أهم الواجبات الدينية منذ فجر الإسلام، فقد قام الصحابة رضوان الله عليهم بهذا الواجب وجعلوه من أجلّ غاياتهم، وأحلوه في الصدر من مقاصدهم، وعلى هذا النهج سار التابعون لهم بإحسان.

وارتبط انتشار الدعوة إلى الله في بعض الفترات بمدى قوة الدولة، وتعاظم إمكاناتها، وقدراتها على نشر الدعوة خارج حدود الدولة الإسلامية:

ففي عصر الدولة الأموية على سبيل المثال (٤١-١٣٢هـ)، انتشر الإسلام في بقاع

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه، من حديث سهل رضي الله عنه.

كثيرة من الأرض بسبب الفتوحات العديدة للمسلمين.

واستمر انتشار الدعوة في عهد الدولة العباسية (١٣٢-٦٥٦هـ).

وقد كان لانتشار اللغة العربية والعلوم الإسلامية، واتصال العلاقات بين الدولة الإسلامية، وغيرها من دول العالم وقتذاك، أثر واضح في ذلك.. كما كان للحروب والمعارك التي دارت بين العالم الإسلامي وبقايا إمبراطورية الروم أو القوى الصاعدة في أوروبا في نهاية العصور الوسطى، أثرها في انتشار الإسلام في البلاد التي كانت خاضعة للحكم الروماني وما تلاه، إذ كان لعلاقات السلم والحرب أثرها الكبير في التعريف بالإسلام في أوروبا وقتذاك، كما كان للعلاقات التجارية أثرها في انتشار الإسلام في أنحاء إفريقيا وآسيا.

ويهمنا في هذا المقام تأكيد حقيقة بقيت إلى وقت قريب مثاراً للجدل والمناقشة، وهي أن السبب في انتشار الإسلام في أرجاء الدنيا هو ما رآه الناس فيه من رحمة، وعدل، وخير، وكانت أهم وسائل التعريف به الدعوة إلى الله بالحكمة، وبالاتصال بين الشعوب، والانتقال بين البلاد الإسلامية وغيرها، وبقيام علاقات تجارية واجتماعية بين المسلمين وغيرهم من شعوب العالم، ولم تكن الفتوحات الإسلامية هي السبب الرئيس في تحول شعوب وأمم بأسرها إلى الإسلام.

وهذا ظاهر في العصر الحديث ظهوراً بيناً لا يحتاج إلى دليل، ففي الوقت الذي ضعفت فيه شوكة الدولة الإسلامية، ظهر دين الله في كثير من البلاد غير الإسلامية: في إفريقيا، وآسيا، وأوروبا، الأمر الذي يؤكد لنا أهمية الخطاب الدعوي، وأثره في انتشار الإسلام.

وفي النصف الثاني من القرن الميلادي العشرين، ظهرت الأهمية البالغة للخطاب الدعوي الموجه إلى غير المسلمين، وازداد أثر التعريف بدين الله بين شعوب الأرض

بمختلف وسائل الاتصال والانتقال، ولذلك فإن علينا أن نهتم بمضمون هذا الخطاب، وأساليبه، وضوابط توجيهه إلى الشعوب والمجتمعات غير الإسلامية، حتى يؤتي هذا الخطاب ثمرته الطيبة في هداية الناس إلى الدين الحق، ولدينا من بشائر النجاح والتوفيق بظهور الإسلام قول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٩).

وسنتناول مضمون الخطاب الدعوي لغير المسلمين في عالمنا المعاصر، وضوابطه التي ترشد مسيرة الدعوة خارج الوطن الإسلامي الكبير.

مضمون الخطاب الدعوي

الخطاب الدعوي -منذ أن قام به الأنبياء والرسل جميعًا- هو خطاب ديني، أي يتعلق بعقيدة الإنسان، والشريعة التي تنتظم حياته الاجتماعية.. وهذا الخطاب حمله أنبياء الله إلى البشر.. وفي دعوات الرسل والأنبياء السابقين، بيان واضح لمضمون الخطاب الدعوي، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (النمل: ٤٥)، وقد أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بتقوى الله تعالى، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ١٣١).

فالدعوة إلى عبادة الله وحده، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه، هي جوهر الخطاب الدعوي للناس جميعًا، فالرسل تبلغ رسالات الله إلى البشر، والرسالة هي الدين، وقد أمر الله تعالى الناس أن يقيموا وجوههم له: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ﴾ (الروم: ٣٠) ويقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ (الشورى: ١٣).

وفي الرسالة الخاتمة، رسالة محمد ﷺ نجد المضمون نفسه، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له، وطاعته فيما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١)، ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).. وقد أخبرنا الله تعالى باكتمال الدين، وتمام النعمة في الرسالة الخاتمة، فقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ (المائدة: ٣).

فالخطاب الدعوي كله -وأشرفه وأعلاه منزلة خطاب الرسل والأنبياء لأقوامهم، وخطاب النبي الخاتم ﷺ لأمته- هو خطاب ديني في الأساس، وجوهره الدعوة إلى دين الله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ ﴾ (الزمر: ٣)، وبهذا الخطاب علا شأن الأنبياء والرسل، حيث بلغوا الوحي إلى الناس، وبينوا لهم دينهم الحق، ودعوهم إلى طاعة الله فيما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه.

هذا خطاب الأنبياء والرسل جميعًا للناس، وبه سمت منزلة الأنبياء والرسل فوق مستوى الحكماء والمصلحين من الناس في كل زمان ومكان، فهم يبلغون رسالات الله، ويدعون إليه وحده، والدعوة إلى الله تشمل بيان العقيدة التي يؤمن بها الإنسان بقلبه، وينطق بها بلسانه، وتعمل بها جوارحه، وهي على الإجمال: الإيمان بالقدر خيره وشره، يقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

والشريعة في أصولها وأحكامها من الله عز وجل، بلغها أنبياؤه ورسله إلى الناس، يقول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨)، ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ (الجاثية:١٨).

فالشريعة هي ما شرع الله لعباده من أحكام العقائد، والعبادات والمعاملات، وذلك في الكتب المنزلة، والتي ختمت بالقرآن الكريم الذي حوى العقيدة، والأخلاق، وأحكام العبادات والتشريع، وهي المقاصد الكبرى إلى جانب المقاصد الأخرى التي اشتمل عليها القرآن، مثل: الإنذار، والتبشير، والوعد والوعيد، وضرب الأمثال، وبيان الحجة، وذكر القصص وسير الأمم الماضية.

والخطاب الدعوي يتضمن الشريعة بمعناها الكامل، أي المشتمل على ما أنزل الله في العقيدة والأخلاق والتشريع، وهو ما بلغه النبي ﷺ إلى الناس، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة:٦٧).. وقد أشهد خاتم النبيين محمد ﷺ أمته على تمام بلاغه لها في حجة الوداع، فقال: «**اللهم هل بلغت**» وردت أمته بأنه -ﷺ- بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، فقال الرسول ﷺ: «**اللهم فاشهد**»[١].

إن الخطاب الدعوي له مضمون واحد، هو تبليغ ما بلغه الرسل والأنبياء إلى الناس من وحي عن ربهم منذ أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وهذا المضمون هو الدين، وهو الرسالة الإلهية التي حملها الأنبياء والرسل بكل مضمونها من العقائد والشرائع والأخلاق.

لقد قام الحكماء والفلاسفة وأصحاب المذاهب الاجتماعية قديمًا وحديثًا بتوجيه خطابهم للناس من خلال لقائهم أو بواسطة تلاميذهم، أو ما تركوه من مؤلفات نقلت

(١) متفق عليه، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

عنهم، ولكن الخطاب هنا ليس خطابًا دينيًا، وليس دعوة إلى الدين، وإنما هو خطاب يتولى نشر مفاهيم معينة، اجتماعية، أو خلقية، أو سياسية، أو فلسفية، وقد تمس جوانب من العقيدة، أو تتصل بموضوعات تعد من الشريعة أو من الدين، ولكن الخطاب هنا ليس دينيًا في الأساس، وإنما هو خطاب اجتماعي أو فلسفي أو سياسي بحسب الهدف المقصود منه، وتظل لهذا الخطاب طبيعته المختلفة عن الخطاب الدعوي الذي جوهره الدين، وهو بكل مضمونه خطاب إلهي المصدر، فهو أعلى وأسمى من كل خطاب بشري، مهما كان موضوعه، أو هدفه، أو وسيلة إبلاغه للناس.

ويتمتع الخطاب الديني بتقدير خاص لدى المتلقي أو المدعو؛ لأن القاعدة أن هذا الخطاب هو تبليغ ما حمله الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه إلى الناس عن رب العزة.. وهذا الاقتناع لدى المتلقي يجعله مستعداً للاستماع، والاتباع والاقتناع أكثر مما نجده في سائر أنواع الخطاب البشري الذي يوجه إلى الناس، سواء أكان خطابًا اجتماعيًا، أم سياسيًا، أم فلسفيًا؛ إذ إن الاقتناع المسبق بأن ذلك الخطاب جوهره فكر بشري يجعله قابلاً للمناقشة، ويحتمل الخطأ، ويقبل الرد، لأن المتلقي يكون قادراً على تقويم الخطاب وصاحبه بلا أدنى حرج، وهذا ما حدث في تاريخ المذاهب والدعوات العامة -غير الدينية- قديمًا وحديثًا.

لقد كان الخطاب الدعوي الإسلامي في تاريخه الطويل خطابًا دينيًا كاملاً، وجوهره الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإصلاح النفوس، وتزكيتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وكانت وسائله في إقناع المدعوين، هي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل: ١٢٥).

وحين يكون الخطاب الدعوي دينيًا لا يلتبس به خطاب مذهبي، أو سياسي،

أو اجتماعي، يكون قويًا لا يمكن مواجهته بأية حجة، يقول تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ (الأنعام: ١٤٩)، ويقول سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ (الأنعام: ٨٣)، أي إن بلاغ إبراهيم عليه السلام.. لقومه كان يستند إلى حجة الله البالغة التي أيد بها إبراهيم عليه السلام، ولكن حيث ينحرف الخطاب الدعوي الإسلامي؛ ليمثل خطابًا سياسيًا، أو اجتماعيًا، أو مذهبيًا، يبدأ ظهور الضعف فيه؛ لأن الخطاب الديني يبلغ عن الله ورسله، بينما أي خطاب آخر يعبر عن فكر بشري قابل للمناقشة والرد من المتلقي.

خطاب غير المسلمين

في العقود الأخيرة ظهر بوضوح أن الخطاب الدعوي الإسلامي لغير المسلمين التبس بكثير من الأهداف والغايات التي يراد تحقيقها عن طريقه، وخرج في بعض الأحيان عن أن يكون خطابًا دينيًا، والتبس بغايات أخرى اجتماعية أو سياسية، حتى وإن استندت بتأويل ظاهر أو خفي، إلى نصوص الدين وأحكام الشريعة.

وقد واجهت الدعوة إلى الله خارج البلاد الإسلامية عقبات شتى بسبب ذلك؛ إذ يتمتع الخطاب الديني الخالص باحترام وتقدير لدى المخالفين في العقيدة، وتحميه أيضًا المواثيق الدولية، مثل ميثاق حقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨، والاتفاقيتين الدوليتين الصادرتين سنة ١٩٦٦م، ومال العرف الدولي إلى التسامح في شأن الخطاب الديني، أو الدعوة الدينية التي توجه إلى غير المسلمين، ونجح هذا الخطاب في التعريف بالإسلام في بلاد عديدة في أوروبا وأمريكا.

كذلك لم يلتزم الخطاب الإسلامي لغير المسلمين التزامًا حقيقيًا وكاملاً بوسائل البلاغ التي وردت في القرآن الكريم، وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ومن هنا تظهر الحاجة إلى بيان الضوابط التي تؤدي إلى إصلاح الخطاب

الدعوي لغير المسلمين، لا سيما خارج البلاد الإسلامية؛ ذلك أن دعوة الإسلام في تاريخها الطويل تحرز أقصى نجاحها حين يكون خطابها دينيًا في المضمون، إسلاميًا في وسيلة الدعوة والبلاغ.

المنهاج الصحيح في دعوة غير المسلمين:-

أولاً: الدعوة إلى التوحيد، وإلى أصول الشريعة:

ذكرنا أن الخطاب الدعوي لغير المسلمين، هو خطاب ديني في جوهره وأساسه، وأن ذلك الخطاب يتعلق بالعقيدة الإسلامية بكل مشتملاتها وعناصرها من الإيمان بالله وحده لا شريك له، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، فالله تعالى خلق الخلق، ليعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).. وأعظم ما أُمِر به الإنسان هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وأشد ما نُهي عنه الشرك، وهو دعوة غير الله معه، سبحانه وتعالى عما يشركون، يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٣٦).. فيجب على الإنسان أن يعرف ربه ودينه، ونبيه محمداً ﷺ ويعرف الله تعالى بآياته ومخلوقاته، ويعرف دين الإسلام بالأدلة.. والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد والطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

وأركان الإسلام التي أجمع المسلمون عليها أخذاً من حديث المصطفى ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام[1].

وكل ركن من هذه الأركان تشهد به وله آيات في القرآن الكريم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ١٨)،

(١) أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).. وفي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البينة: ٥).. وفي فريضة الصيام يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة: ١٨٣)، وفي فريضة الحج يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران: ٩٧).

وهكذا بين الله في كتابه الكريم بهذه الآيات وأمثالها دعوة التوحيد، وبين الفرائض الدينية على المسلم في عباداته، وفصلت سنة النبي ﷺ أمر العبادات.. فالشهادة بوحدانية الله على إخلاص العمل لله وحده، وعلى تجنب الشرك بالله: الشرك الأكبر والأصغر، الظاهر والخفي.. والصلاة علمنا إياها الرسول ﷺ تعليمًا عمليًا، فقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(١)].. وأمرنا الرسول ﷺ أن نأخذ عنه مناسك الحج كما أداها أمام عشرات الألوف من المسلمين في حجة الوداع، قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»[(٢)].. وتعلمنا الصيام مما ورد من سنته قولاً وفعلاً في أحكام الصيام.. وبين الرسول لنا أنواع المال الذي تجب فيه الزكاة، ومقدار ما يستحق منها، ومن يستحق فيها.

وبهذا البيان في القرآن الكريم، والتفصيل في السنة المطهرة، تم البلاغ واكتمل الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

---

(١) أخرجه البخاري وغيره من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فالدعوة إلى الله بين غير المسلمين تبدأ من قضية التوحيد وتنتهي إليها.. والتوحيد بداية كل عمل دعوي، واستفتاح لعلم كل مسلم.. ومن المؤسف أن يلحظ أن بعض الأفراد والجماعات العاملة في ساحة الدعوة الإسلامية تغفل هذا الجانب، أو لا لقى في سعيها وعملها الدعوي الاهتمام الذي يستحقه، مع أنه أول ما دعا إليه الرسل والأنبياء، وأول ما يقوم عليه بنيان المجتمع الإسلامي.. ويرجع سبب عدم نجاح كثير من جهود الدعاة بين غير المسلمين إلى أنهم لا يقدرون أولوية الدعوة إلى التوحيد:

فنجد جماعة تهتم بالسياسة أو الجهاد، وأخرى تهتم بالترغيب والترهيب، وثالثة تبدأ بالأخلاق، مع أن التوحيد والدعوة إليه هو مفتاح ذلك كله، وهو المنطلق المتين لوحدة المسلمين ولم شملهم.

ولا يعني البدء بالتوحيد إهمال غيره، أوحتى الانتقاص من أهميته، ولكنه يعني تقديم الأولى بالبلاغ لغير المسلمين، وهي أولوية يفرضها الشرع، ويؤيدها العقل.

فالمنهج الصحيح في دعوة غير المسلمين هو البدء بقضية التوحيد، وتجنب الشرك، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥).. وفي أهمية ذلك وقدره يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة:٧٢).. والدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك بكل صوره، هو ما دعا إليه النبي ﷺ أهل مكة ثلاث عشرة سنة.

والدعوة إلى التوحيد بين غير المسلمين، هي أهم وأعظم ما يوجه إليهم، لأن التوحيد هو دعوة كل الأنبياء، يقول تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ (العنكبوت:١٦)، ويقول تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٣)، وقال عيسى لقومه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (آل عمران:٥١).. وأرسل الله تعالى خاتم النبيين ليدعو جميع الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (الأعراف:١٥٨).

فالتوحيد هو دعوة الأنبياء منذ بعث الله الرسل، وهو مفتاح الدين كله بما يتضمنه من الأخلاق والتشريع.. وقد كان الرسل يدعون مع التوحيد إلى مكارم الأخلاق، كالصدق، والعفاف، وصلة الرحم، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، والقسط في الموازين، وكل ما يكون من القيم الخلقية مصلحًا لأحوال المجتمعات، ومؤديًا إلى تزكية النفوس.. وسأل أعرابي الرسول ﷺ، بم أرسله الله؟ فقال صلوات الله عليه وسلامه: «**أرسلت بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا**»[1].. وقد أوجز الرسول ﷺ قيمة الأخلاق باعتبارها جانبًا من الدين في قوله: «**إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[2].. وفي قوله ﷺ -على وجازته- دليل على أن الرسالات الإلهية كلها تتضمن إلى جانب الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

إن دعوة الرسل والأنبياء جميعًا بدأت بالتوحيد، والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والحرص على مكارم الأخلاق، وكان ذلك في كل الرسالات -كما أسلفنا- وهو الهدف الأساس من كل رسالة، وكل خير بعد ذلك على الفرد والمجتمع من توابع التوحيد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أول ما يؤمر به الخلق: شهادة

(١) صحيح مسلم، ومسند الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) أخرجه مالك وأحمد.

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، وفيه البداءة بالدعوة والتعليم بالأهم فالأهم».

فأول الضوابط في الدعوة إلى الله خارج ديار الإسلام، أن يكون البدء بالدعوة إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبهذا يكون الخطاب الدعوي دينيًا في الأساس.

ولا يلقى الخطاب الديني -إذا ما التزم الأسلوب القرآني في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن- لا يلقى معارضة كبيرة، فقد كفلت المواثيق الدولية في العصر الذي نعيش فيه، حقوق الاعتقاد والتدين، كما في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨م، والاتفاقيتين الصادرتين عن الأمم المتحدة سنة ١٩٦٦م الخاصتين بالحقوق المدنية والاقتصادية والسياسية للإنسان.

ولا يمكن أن تكون الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له خطرًا على أية دولة، يسوغ رفضها أصلاً، أو عدم السماح بها؛ إذ أن الاتفاقية الصادرة سنة ١٩٦٦م التي عنيت بالحقوق المدنية لا تعترض على حق الاعتقاد والتدين إلا إذا كان يشكل خطرًا أمنيًا أو صحيًا، بينما تملك الدول جميعًا الاعتراض على الخطاب السياسي أو الاجتماعي وفق الضوابط التي تضعها كل دولة.. ويمكن لهذه الضوابط أن تجرم، وتعاقب على الخطاب السياسي، أو الاجتماعي العام، وفق مصالحها هي إذا ما تجاوز هذا الخطاب المصالح العامة، أو ألحق الضرر بنظامها السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، بينما يقبل الآن في المجتمع الدولي -وبدرجة كبيرة من التسامح- الخطاب الدعوي إذا كان دينيًا في جوهره وأساسه.

وينبغي أن يراعي الدعاة المسلمون في خطابهم عدم امتهان عقيدة غيرهم، حتى

لا يؤدي الأمر إلى التخوف من العقيدة الإسلامية، ومحاولة التضييق على الدعوة إلى الله خارج ديار الإسلام، ففي القرآن الكريم بيان القاعدة الأصلية في ذلك، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٨).. فالامتهان أو السب ليس خطابًا دينيًا، وليس من أساليب الدعوة إلى الله، فقد نهانا الله تعالى عن سب الأصنام والأوثان التي يعبدها المشركون، حتى لا يسبوا الله عدواً بغير علم، ويغلق الطريق أمام الجدال بالتي أحسن، وهذا من أساليب الدعوة التي وردت في القرآن الكريم، ويكفي الداعية المسلم أن يعرض أصول العقيدة الإسلامية، وأركان الإسلام، وقيمه الخلقية، وأن يستند في ذلك إلى البراهين الحسية، وإلى الآيات الظاهرة للناس في خلق الله، وإلى ما ورد من نصوص في القرآن الكريم، والسنة المطهرة في شأن الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له.

وفي هذا المجال يجد الداعية إلى الله كثيراً من الآراء المنصفة التي صدرت من باحثين ومستشرقين -من غير المسلمين- ولا بأس من الاستشهاد بها في مواضعها تدليلاً على أن النظر العقلي حين يتجرد لاكتشاف الحقيقة، فإنه يصل إلى جوهر العقيدة الصحيحة التي يدعو إليها الإسلام، وهي التوحيد الخالص لله عز وجل.

إن البدء بالدعوة إلى التوحيد ليس أمرًا يمليه العقل فحسب، ولكنه كذلك سنة الأنبياء والرسل جميعًا، فلم يكن فيهم أحد بدأ بدعوة قومه إلى غير التوحيد من المذاهب الفكرية، أو الفلسفية.

ولما كانت رسالة الإسلام خاتمة الرسالات الإلهية للبشر، وقد تضمنت إلى جانب العقيدة شريعة كاملة يصلح بها نظام الاجتماع البشري في كل زمان ومكان، فإن الدعوة إلى التوحيد ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالدعوة إلى اتباع أحكام الشريعة منهجًا للحياة الاجتماعية والفردية.. وهنا ينبغي للداعية المسلم أن يعرض أصول أحكام

التشريع الإسلامي للاجتماع البشري الذي يقرر كرامة الإنسان، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وأن يشير إلى مبدأ المساواة بين الناس، وهو مبدأ يهدم دعاوى التفرقة العنصرية أو اللونية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويزداد المبدأ وضوحًا في قول النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**»[١]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**والناس بنو آدم وآدم من تراب**»[٢].

وبيان هذه المبادئ بحسب نصوصها من القرآن الكريم والسنة المطهرة، يفتح العقول في مجتمع غير المسلمين، ويمهد لانفتاح القلوب على دعوة الإسلام.

ومن المبادئ العامة في الشريعة الإسلامية، التي تتصل بالنظام الاجتماعي الإسلامي مبدأ الشورى، كما ورد في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكذلك مبدأ التكافل الاجتماعي بين القادرين في المجتمع وبين ضعفائه.

وهناك أمور عديدة تمثل أصول التشريع الإسلامي أصدق تمثيل، مثل صلة الأرحام، وحسن الجوار، ورعاية الأيتام في المجتمع، وغير ذلك من المبادئ الإسلامية العامة في شريعة الإسلام.. هذا إلى جانب اهتمام الدعاة المسلمين بعرض ما تنص عليه الشريعة الإسلامية من أحكام قطعية بشأن نظام الأسرة، وحقوق الزوجين والأبناء، وإقامة العدل في المعاملات بين الناس، وتحريم ما يؤدي إلى الربا، أو الغش، أو الاحتكار، أو الإضرار بالمصالح الفردية أو العامة، وهذا ما يتفق العقلاء في كل مجتمع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي نضرة.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إنساني على ضرره، ووجوب تجنبه.. فينبغي للدعاة أن يعرضوه ضمن الأصول العامة في المجتمع الإسلامي.

ولا شك أن نجاح الداعية المسلم خارج ديار الإسلام يتوقف على كيفية عرضه للمبادئ والأصول التي جاءت في الإسلام لتقيم المجتمع على أسس ثابتة تحفظ للإنسان كرامته، وتضمن له مساواته مع الآخرين، وأمنه على النفس والعرض والمال، وعلى كافة حقوقه في التعامل مع غيره.. ومن الأفضل أن يبتعد الداعية المسلم عن تفصيلات الأحكام الشرعية الاجتهادية التي تقبل الاختلاف في المرحلة الأولى من نشاطه الدعوي؛ لأن الأحكام الاجتهادية، سواء في العبادات، أو في المعاملات تحتاج إلى ثبات عقيدة المتلقي، وإلى قدر من المعرفة بالفقه وأصوله، ولا يتيسر ذلك لدى الأغلبية من غير المسلمين، فضلاً عن أن إثارة الجدل في شأن المسائل الاجتهادية التي لا يحكمها نص قطعي الثبوت والدلالة من القرآن الكريم أو السنة المطهرة، يبدد جهد الدعاة المسلمين، ويؤثر على تكامل جهودهم، أو يوقع الفرقة بينهم في ديار غير المسلمين.

ثانيًا: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يهتم الدعاة المسلمون في خارج ديار الإسلام بمبدأ إسلامي أصيل، وهو وجوب قيام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، ومن الواجب أن يقوم هذا الأصل في المجتمع الإسلامي بالذات، تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ولا شبهة في وجوب هذا الأصل في كل مجتمع إسلامي، والحكمة فيه أن يستمر إصلاح المجتمع، وأن تواجه المنكرات التي تظهر فيه عن طريق الدعوة إلى تركها كما تقضي الشريعة، وعن طريق ولاة الأمور بالعقاب عليها حتى يرتدع مرتكبوها، وبذلك لا يستفحل الشر، ولا يشيع المنكر.. وهذا على وجه الإجمال يتعلق بالمجتمع

الإسلامي، والأمر يختلف في غير ديار الإسلام، لأنهم لا يحتكمون إلى الشرع الإسلامي، وإنما يحتكمون إلى نظم وضعية يعتبرونها محققة لمصالحهم الفردية والاجتماعية، وقد تكون هذه النظم مما يحلل الحرام، أو يحرم الحلال، وقد تحمي هذا الأنظمة قيمًا وأخلاقًا تتعارض مع خلق الإسلام وقيمه.

ودون أن نفصل في شأن الموازنة بين الشرع الإسلامي والقيم الخلقية الإسلامية وبين هذه النظم الوضعية تسير عليها المجتمعات الأخرى، نستطيع أن نقرر أن أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير معروف في مجتمعات غير المسلمين، إذ العبرة في تحديد ما يجب على الشخص من تكاليف، وما يجب عليه الامتناع عنه، هي في القانون السائد دون غيره، ومن المسلَّم لدى علماء الأنظمة أن دائرة القانون لا تتسع مثل دائرة الأخلاق، وأن الهدف من القانون ليس الرقي بالإنسان أو تزكية النفوس، بل الهدف الرئيس هو حفظ السلام والأمن بين طوائف المجتمع وأفراده، فهدف القانون اجتماعي بحت، وليس أخلاقيًا أو دينيًا.

ويجب على الداعية المسلم في كل الأحوال أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حتى في ديار غير المسلمين، وهذا الواجب قائم حتى ولو اختلف النظر إلى المعروف وإلى المنكر في المجتمع غير المسلم، فالداعي إلى الإسلام يلتزم معيارًا واضحًا أمامه -وهو معيار الشرع- ولا يجوز له أن يترك هذا المعيار لأي معيار أو مقياس آخر.

لكن قيام الدعاة المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج ديار الإسلام يستلزم الحيطة والحذر، حتى لا يتسبب الدعاة في تعطيل نشر الدعوة في تلك المجتمعات.. وتقضي الحيطة بالا يلجأ الدعاة إلى إدانة المجتمع عامة وبطريقة مباشرة وشاملة، حتى لا تتحول الدعوة إلى خطاب اجتماعي عام، يتعارض مع ظروف هذا المجتمع وما يشيع فيه من منكرات تتصل بالأخلاق، أو تتصل بالمعاملات بين الناس.. ويستطيع الدعاة المسلمون أن ينشطوا في المجال الأخلاقي بالنهي عن منكرات

الفواحش وشرب الخمور، وإشاعة الفاحشة بين الجمهور، وذلك ببيان ضرر هذه المنكرات الذي يتعدى الأفراد.. وعليهم أن يتوجهوا بذلك إلى الأفراد ما أمكنهم ذلك، وإلى بعض شرائح المجتمع التي ترى هذه المنكرات ضرراً اجتماعياً أو صحياً.

كما أن الدعاة المسلمين مطالبون بالتعاون مع الأفراد أو الهيئات التي تحرص على منع هذه المنكرات بالذات، ولو كانت غير إسلامية، فهناك العديد من الجمعيات التي تسعى وتدعو للقضاء على بعض المنكرات الشائعة في المجتمعات غير الإسلامية، مثل: الزنى، والشذوذ الجنسي، وشرب المسكرات، ونشر العري والفجور في أوساط العامة.. ومن المفيد أن يتعرف الدعاة المسلمون على مجهود تلك الهيئات والجمعيات -ولو لم تكن جمعيات دينية- حتى يؤدي الدعاة المسلمون واجبهم دون اعتراض عام أو حظر من السلطات، ولا سيما أن الدعاة يخاطبون في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير المسلمين، إلى جانب المسلمين الذي يعيشون في البلاد غير الإسلامية، ولا يجوز لهم ترك هذا الواجب الدعوي المهم أو إهماله.

ويقف عمل الدعاة المسلمين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند حد النصح والإرشاد والموعظة الحسنة، دون التعرض إلى منع المنكر بالقوة.. وأبواب النصح والإرشاد واسعة بحكم وسائل الاتصال والإعلام المتاحة في تلك المجتمعات، المقروءة والمسموعة والمرئية، ولا يعد ذلك تقصيراً من الدعاة في منع المنكر؛ لأنهم لا يملكون السلطة التي تمكنهم من مصادرة المنكر، أو منعه بالقوة، ولا تستجيب السلطات في ديار غير المسلمين إذا طلبوا ذلك؛ لأن النظم الوضعية هي المعيار الوحيد في التحليل والتحريم والإباحة.

وليس من مصلحة الدعوة أو الدعاة أن يتعرضوا لمنع المنكر بالقوة في المجتمعات غير الإسلامية، لأن المنع باستخدام القوة من شأن ولاة الأمور، حتى في المجتمع المسلم، حتى لا يترتب على ذلك فساد أعظم من وجود المنكر.. ومع شيوع المنكر في المجتمعات غير

الإسلامية، واعتراف السلطات به، وإقرار الناس له، يكون الأجدى والأنفع أن يجتهد الدعاة المسلمون في النصح والإرشاد والموعظة الحسنة، وبكل طرق الاتصال والإعلام التي تتاح أمامهم، وهي في هذا العصر لها أثر كبير في الدعوة والبلاغ.

ومن ناحية أخرى، فإنه ينبغي للداعية المسلم دراسة النظم والأعراف والعادات التي تشيع في المجتمع الذي يدعو فيه، فقد يكون من هذه النظم والأعراف ما لا يخالف أصلاً شرعياً، أو نصاً قطعياً في الشرع الإسلامي، مثل برامج الرعاية الاجتماعية، أو الصحية، أو الثقافية.. وفي خصوص هذه البرامج، فإن مشاركة الدعاة المسلمين فيها تتيح مناسبة للدعوة إلى الله، أو ترشيد ما في هذه البرامج وفقاً للأصول الشرعية، وذلك أجدى من مقاطعة هذه الأعمال أو إدانتها بصفة عامة وشاملة.

ولا جدال في أن الداعي المسلم في ديار غيرالمسلمين يُشترط فيه العلم بالشيء الذي يأمر به وينهى عنه، حتى يكون على بصيرة مما يدعو إليه، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف: ١٠٨).

وينبغي أن يكون حليماً يروض نفسه على الصبر والحلم، وهذا ألزم في مجتمعات غير المسلمين؛ إذ قد ينال الداعي ما يكره من قول أو فعل حين يبذل نصحه، وقد أوصى الله تعالى نبيه بالصبر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر: ١-٧).

والداعية المسلم في بلاد غير المسلمين يملك تغيير المنكر باللسان والقلب، وفي الحديث الشريف: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].. والتغيير باليد هو المرتبة الأولى،

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ولكنه قد يؤدي -في مجتمع غير المسلمين- إلى منكر أشد منه، وقد يضر بالدعوة والدعاة، ولا ينبغي تغيير منكر إذا غلب على الظن أنه قد يؤدي إلى ما هو أشد نكراً، مما يقتضي من الدعاة المسلمين علماً بأحوال تلك المجتمعات من نصح وإرشاد لأهلها في النهي عن المنكر حتى يتغير إلى ما هو أخف منه، أو إلى ما هو معروف في الشرع.

وعلى الداعي المسلم أن يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر، ولا عليه أن لا يستمع إليه غالبية الناس، أو أن لا يستجيبوا لدعوته.. ولا يلزم الداعي أن يغلب على ظنه الاستجابة، حتى لا يتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦).

إن الدعوة إلى الله في بلاد غير المسلمين قد اتسع نطاقها في هذا العصر، تولى أمرها الحكومات والدول الإسلامية إلى جانب العديد من الهيئات والمؤسسات الإسلامية، فضلاً عن جهود علماء مسلمين، وقد أقرت المواثيق والأعراف الدولية بحق الاعتقاد والتدين، ويدخل في مضمون ذلك الدعوة إلى الدين الحق.. ولذلك فإن ما مر عن الخطاب الدعوي في مضمونه وضوابطه، قصد به أن يتعرف الدعاة المسلمون على أولويات الخطاب الدعوي في بلاد غير المسلمين، وأن تكون هناك ضوابط تعين الداعي على أداء رسالته الدعوية، وتبعث غير المسلمين على الاستماع والتلقي، حتى تكون الاستجابة بإذن الله.

وعلى الله قصد السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الطاقة الحضارية في عقيدة الأمة الإسلامية

الدكتور عبد المجيد عمر النجار*

إن العقيدة لا تفعل في النفوس لاستنباضها بمجرد كونها عقيدة تحمل في ذاتها طاقة الاستنباض، وإنما تحتاج في ذلك إلى شرط آخر هو الكيفية التي يكون بها تحملها، بحيث تدفع الإرادة إلى الفعل فيتم النهوض الحضاري.. وهذا يقتضي ترشيد الفهم العقدي والتفعيل الإرادي للعقيدة في النفس.

تمهيد:

لا تنهض الأمم من تخلّفها ولا تتحضّر من بداوتها إلا بعوامل تتأتّى لها تقوم مقام الدافع الذي ينقلها من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال. وإذا كانت عوامل النهضة والتحضّر متعدّدة ومتنوّعة، فإنّ أشدّها تأثيراً وأقواها فعلاً هو عامل الفكرة، التي تشكّل تصوّر الأمم لحقيقة الوجود والكون والإنسان والحياة.. فهذه الفكرة، في طبيعتها الفلسفية عامّة، وفي طبيعتها الدينية خاصّة، هي المحدّد الأكبر لمصير الأمم من التخلّف والتقدّم ومن البداوة والتحضّر، وذلك بحسب ما تكون عليه من تحديد للحقيقة في تلك العناصر الأربعة. ومصداق ذلك يبدو في أنّ كلّ التحوّلات

---

* باحث.. أكاديمي.. (تونس).

الحضارية الكبرى التي حدثت في تاريخ الإنسان، كانت ناتجة عن تحوّلات كبرى في تصوّر حقيقة الوجود والحياة، سواء كانت حضارات دينية أو غير دينية.

إلاّ أنّ تصوّر حقيقة الوجود والحياة ليس بكاف وحده، فيما ينطوي عليه من عناصر الحقّ الفاعلة، لكي يحدث التغيير الحضاري بالفعل، بل قد تبقى عناصر الحقّ فيه مضمرة في ضرب من الكمون حتى تتوفّر لها عوامل أخرى تطلقها من كمونها لتصبح فاعلة في تغيير أحوال من يؤمنون بها، وتتحقّق مقتضياتها الحضارية في الواقع.

ومن أهمّ تلك العوامل الكيفية الإيمانية، التي تحلّ بها تلك الصورة في النفوس فيما إذا كانت مجرّد تصوّر نظري باهت تزاحمه تصوّرات أخرى، أو كانت تصوّراً يبلغ درجة الإيمان الذي يستبدّ بالنفس ويأخذ بمجامعها، فيقوى على تحريك الإرادة ويدفعها إلى الفعل الذي يصنع التغيير الحضاري. ويذكر في هذا المجال كيف أنّ التصوّر الذي جاءت به المسيحية ظلّ ألف عام غير فاعل للتغيير الحضاري، إلى أن حلّ في نفوس العنصر الجرماني على نحو من التمكّن الإيماني فبدأ يصنع الحضارة الجديدة.

والحضارة الإسلامية لم يكن نشوؤها ناشزاً عن هذه السنّة الاجتماعية، ولم يكن خفوتها بعد ازدهارها ناشزاً عن ذلك أيضا. فقد جاء الإسلام يحدث ثورة في تصوّر حقيقة الوجود والكون والإنسان والحياة، ولما حلّ ذلك التصوّر في النفوس على نحو إيماني أخذ فيه بمجامعها، حرّك إرادة الفعل الجماعي، فنشأت الحضارة الإسلامية بمظاهرها المشهودة. وحينما تغيّرت كيفيّة التحمّل لذلك التصوّر في النفوس، تعطّل عن التحريك الإرادي، فتوقّف الفعل الحضاري، وآلت الأمّة الإسلامية إلى ما آلت إليه من وضع التخلّف.

إلاّ أنّ الأمّة الإسلامية إذا كانت تعيش اليوم على هذا النحو من التخلّف الحضاري، الذي تحاول جاهدة النهضة منه إلى حضارة جديدة فلا يحالفها التوفيق إلاّ قليلا، فإنّها أمّة تتوفّر في حقيقتها على مقدّرات للنهضة كثيرة، وأسباب للاستئناف الحضاري عديدة، بعضها معنوي وبعضها مادّي، ولكنّ مشكلتها أنّها لا تنتبه إلى بعض تلك المقدّرات والأسباب، ولا تحسن استثمار بعضها الآخر ليكون عامل دفع قويّ يخرجها من حال إلى حال، وتظل في أغلب الأحوال تبحث عن عوامل خارجية للنهوض لا تغني عنها في ذلك شيئًا، فأشبه أمرها: العيس التي يقتلها الظّمأ والماء فوق ظهورها محمول.

ومن بين مقدّرات النهضة الذّاتية الهائلة التي تتوفّر عليها الأمّة الإسلامية، ما تملك من تصوّر لحقيقة الوجود والكون والإنسان، وهو ما يتضمّنه التصوّر العقدي الإسلامي.. فهذا التصوّر هو الذي جاء به الإسلام ثورةً عصفت بما كان سائدًا في الأديان والمذاهب من التصوّرات في هذا الشأن، وأفضى إلى إحداث النهضة الحضارية المشهودة. وإذا كان هذا التصوّر العقدي قد تعطّل عن الفعل الحضاري منذ زمن، فإنّ ذلك ليس لفقدان ما يحمله في ذاته من الحقّ الدافع للتحضّر، فذلك الحقّ قائم فيه على الدوام، وإنّما هو لانحرافٍ في كيفيّة تحمّله قعد به عن الفعل، وما إن تصحّح تلك الكيفيّة حتى تتفجّر طاقته الحضارية.. فما هي تلك الطاقة الحضارية فيه؟ وكيف يمكن أن تفجّر لتحدث نهضة الأمّة بعد كبوتها الطويلة؟

أولاً: الطاقة الحضارية في العقيدة الإسلامية

إنّ الحضارة التي تتطلّع الأمّة الإسلامية إليها، تعني أن تنهض هذه الأمّة لتحقّق من جهة رقيًّا في علاقتها بالطبيعة، باستثمار مقدّراتها بالعلم والتقنية استثمارًا يفضي إلى التعمير في الأرض بما يعود على الإنسان بالنفع الميسّر للحياة والجالب للسعادة،

ولتحقّق من جهة أخرى رقيّا في الذات الفردية للإنسان، ماديا بالصّحّة والقوّة، ومعنويا بالعلم والفضيلة والسموّ الروحي والشعور بالعزّة والكرامة والأمن، وفي الذات الجماعية بالتعاون والتكافل والتراحم والتواصل الروحي في أخوّة جامعة.

وإذا كانت هذه النهضة للاستئناف الحضاري رهينة في حصولها لعوامل متعدّدة، فإنّ على رأس تلك العوامل يأتي التصوّر، الذي يحصل في الأذهان بشأن حقيقة الوجود الذي هو الدائرة الكبرى لكينونة الإنسان، والكون الذي هو مسرح حركته، والإنسان الذي هو موضوع فعله، والحياة التي هي مغزى وجوده. فتصوّر الحقيقة في هذه العناصر، هو الذي يحدّد مدى ما يمكن أن تحقّق الأمّة من شهود حضاري على النحو الذي وصفنا من ترقية الإنسان وتعمير الأرض. وبما أنّ هذا التصوّر محدّد لدى المسلمين في إيمانهم العقدي، فهل هو تصوّر ينطوي على طاقة من شأنها أن تدفع المسلمين إلى النهضة المبتغاة؟ وكيف يظهر ذلك إن كان؟

١- طاقة التعمير المادّي:

تتوفّر العقيدة الإسلامية في جميع فروعها على طاقة كبرى للتعمير المادّي، بحيث لا يمكن المؤمن بها الإيمان الحقّ إلا أن يكون ناهضاً في الأرض بالتعمير، وهو أمر تشهد به تجربة التاريخ، كما تشهد به ذات الحقائق العقدية فيما تتضمّنه من طاقة دافعة للتعمير في الأرض. أمّا تجربة التاريخ، فتتجلّى فيما نهض به المسلمون بدافع عقدي إلى إنشاء عمران مادّي متعدّد الجوانب، ثريّ النتائج، كان أحد وجوه الحضارة الإسلامية الزاهرة. وأمّا طاقة التعمير في ذات الحقائق العقدية، فتتجلّى في جملة من المظاهر لعلّ من أبرزها ما يتمثّل فيما يلي:

أ/ شرفية المادّة:

كانت المذاهب والأديان حين نزل الإسلام تحقّر من شأن المادّة، وتصوّرها في الأذهان على أنّها وجود خسيس في ذاته بالقياس إلى الوجود العقلي الروحي، كما تصوّر الانشغال بها انشغالاً معرفيًا أو استنفاعيًا على أنّه منقصة في حياة الإنسان بالقياس إلى الانشغال بالتعقّل كما هو في الفلسفة اليونانية، أو بالتروحن كما هو في الثقافة الغنوصية، أو بالترهبن كما هو في المسيحية.

فلمّا جاء الإسلام قلب في تصوّره العقدي هذه المفاهيم، وجعل من الوجود المادّي وجودًا شريفًا في ذاته، وأسبغ عليه من علوّ الشّأن ما لم يكن له في أيّ مذهب سابق، وجعل الانشغال بالمادّة الكونية في سبيل تحصيل الحقيقة منها أو في سبيل الانتفاع بها مسلكًا محمودًا في التصرّف الإنساني، بل هو مندرج ضمن وظيفة الإنسان في الحياة وغايته من الوجود.

وكفى بالوجود المادّي شرفًا، كما جاء في التصوّر العقدي الإسلامي، أن جُعل هذا الوجود دليلاً على الوجود الأعظم، وهو وجود الله سبحانه، كما تتجلّى فيه صفاته على سبيل تجلّي المؤثر في الأثر، فأيّما مظهر من مظاهر المادّة إلاّ وهو يحمل من وجود الله تعالى وصفاته أثرًا دالاً عليه، وشاهدًا مذكّرًا به، وحبلاً موصلاً إليه. وكفى بهذا الوجود المادّي شرفًا أيضًا، أن جُعل في التصوّر العقدي الإسلامي مسرحًا لعمل الإنسان في حياة زائلة يتحدّد به المصير في حياة دائمة، فهو مقدّمة لتلك الحياة، ومزرعة لها يتحدّد الحصاد فيها بما يُزرع في عالم المادّة من الزرع.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تحدّد لعالم المادّة هذه الدرجة من الشرف، وتبرّئه ممّا علق به في العقائد السابقة من الحقارة والخسّة، فلا غرو أنّ المؤمن بذلك سيدفع به إيمانه إلى ضرب من السلوك المادّي يتعامل فيه مع مادّة الكون تعاملاً يقبل فيه عليها

إقبالاً على ما هو برفعته وعلوّ قيمته يثري الحياة ويعمّرها، آنيًا بالاستنفاع المادّي، وأخرويًا بحصاد ثمرات ذلك التعمير. وأين من هذا مسلك أولئك الذين هجروا عالم المادّة فلم يعمّروا فيه شيئًا، إذ هو في معتقدهم عالم خسيس لا يغني في إثراء الحياة فتيلاً؟ وأين منه أيضًا مسلك أولئك الذين حصروا الوجود في عالم المادّة ونفوا ما سواه، فغرقوا فيه لمّا توهّموا أنّ هذا العالم هو غاية الحياة، فأرهقوه بمطالبهم المجحفة التي أفضت به إلى ما ينذر بدمار وشيك، كما يتبدّى في الأزمة البيئيّة الراهنة.

ب / الاستعلام المادّي:

لا يتمّ في العالم المادّي تعمير إلاّ إذا علمت القوانين التي تحكم ذلك العالم، في تركيبه وسيرورته، فالعلم بذلك هو المفتاح لكلّ نهضة تعميرية مادّية، وليس لمن لا يملك ذلك العلم مطمع في تلك النهضة. وقد جاءت العقيدة الإسلامية توجّه المؤمنين إلى عالم المادّة لاستعلام قوانينه، وجعلت ذلك -في نطاق طلب العلم عامّة- أحد الفروض الواجبة على المسلم. وفي القرآن الكريم، من الحثّ على التدبّر في آفاق الكون والتفكّر في آيات الله فيه، ما يبلغ من الاستفاضة مبلغًا يفيد التأصيل لمقصد أصليّ من مقاصد المعتقدات الإسلامية.

وإذا كان التوجيه العقدي الإسلامي لاستعلام حقائق المادّة وقوانينها، يهدف من بين ما يهدف إلى حصول العلم بما وراء تلك الحقائق والقوانين من حقائق الغيب باعتبارها شاهداً عليها وموصلاً إليها، فإنّ ذلك من شأنه أن يجعل الدافع لاستعلام حقائق المادّة دافعًا مضاعفًا، إذ يصبح مكتسبًا لصبغة دينية عقدية مباشرة، يكون بها التقدّم في اكتشاف قوانين الطبيعة المادّية هو في ذات الوقت تقدّمًا في معرفة الله تعالى والإيمان به، وذلك ما يوحّد حركة العلم كلّها في اتّجاه واحد، فتتضاعف قوّتها

وتثرى حصيلتها، على نحو ما حصل في الحضارة الإسلامية حينما تقدّم تقدّمًا كبيرًا المنهج العلمي التجريبي، وأثمر علومًا كونية غزيرة باعتبار أنّ ذلك كلّه هو -كما بيّنه الإمام ابن تيميّة رحمه الله- من باب العلم الشرعي الذي أمر الله تعالى به، والذي يقرّب منه، ويزيد من ترقية الإيمان به.

وإذا كان الأمر في العلم بحقائق الكون المادّية على هذا النحو، كما وجّهت إليه العقيدة الإسلامية، فكيف لا يندفع المؤمن بهذه العقيدة في طلب العلم المادّي باكتشاف قوانين الطبيعة، والحال أنّ ذلك الطلب هو بالإضافة إلى ما يحقّق من نفع مادّي، يقرّب من الله تعالى بتقوية الإيمان به من خلال الوقوف على شواهد وجوده وصفاته المتجلّية في كلّ قانون من قوانين الكون وكلّ حقيقة من حقائق المادّة، إذ هي ليست كلّها إلا آيات ذلك الوجود وتلك الصفات؟ إنّ ذلك ما حصل بالفعل في الحضارة الإسلامية، التي نهضت فيها الأمّة باستعلام الكون كما لم تنهض بذلك أمّة سابقة، وما كان الدافع إليه إلا دافعًا عقديًا فجّر في النفوس طاقات العلم فنهضت تستعلم مادّة الكون.

جـ/ الاستنفاع الكوني:

إنّ العلم بالقوانين الكونية المادّية، وإن كان في ذاته يعدّ فضيلة مقدّرة باعتباره موصّلاً إلى العلم بالله تعالى، فإنّه يعدّ كذلك أيضًا لأنّه يتوقّف عليه السعي الإنساني لاستنفاع المادّة الكونية واستثمارها في تحقيق الحياة وتنميتها. وقد جاء هذا الاستنفاع مقصدًا أساسيًا في العقيدة الإسلامية، إذ جُعل فيها معبّرًا عنه بالتعمير في الأرض، أحد العناصر الأساسية في الوظيفة التي كلّف الإنسان بأدائها في الحياة، فجاء السعي في الأرض لاستثمار مقدّراتها بناء على ذلك أحد التكليفات الشرعية التي كلّف بها الإنسان ضمن الأمانة التي حُمّلها فحملها مختارًا.

والمقصود بالاستثمار المادّي للمقدّرات الطبيعية، ارتفاق تلك المقدّرات في كمّياتها وكيفياتها لتحقيق المنفعة المادّية للإنسان، المفضية لترقية حياته ورفاهيتها، مأكلاً وملبسًا ومسكنًا ومركبًا وزينة، بما يعود عليه في ذلك كلّه بالسعادة والبهجة، وفق ضوابط في ذلك كلّه تحول دون أن يصبح الرفه المادّي هو الغاية العليا من الحياة، تنتقص من قيمة الإنسان بما يجعله مساويًا للأنعام، كما تحول أيضا دون أن يصبح جائرًا على مادّة الطبيعة بالتحطيم والتخريب والتبديد.

إنّ الاستثمار المادّي للطبيعة بهذا المعنى، جاء في العقيدة الإسلامية جزءًا من وظيفة الوجود الإنساني، فما وُجد الإنسان إلاّ ليكون خليفة في الأرض. وهذه الخلافة لا تتمّ إلا بعمارة الأرض والابتغاء من فضل الله فيها وفق منهج غايته العليا الفوز برضوان الله تعالى في حياة أخرى يكون فيها نعيم دائم.. فهذه العمارة المادّية هي جزء من غاية الحياة التي تبلغ منتهاها بالنعيم الخالد، وتكون هذه مقدّمة لتلك ومزرعة لها، وذلك ما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥). فهذا الأمر بالسعي في الأرض للانتفاع المادّي هو في حقيقته تكليف بعمارة الأرض عمارة ذات غايتين: قريبة هي تحقيق المنفعة المادّية، وبعيدة هي تحقيق النعيم الخالد عند النشور إلى الله، وهو ما يتبيّن به البعد العقدي في الاستنفاع المادّي للطبيعة الكونية.

وإذا كان هذا الاستنفاع المادّي لمقدّرات الكون في العقيدة الإسلامية على هذا النحو الذي غدا فيه تكليفًا تعبّديًا يقرّب من الله تعالى، فلا جرم أن يكون الإيمان بتلك العقيدة ينطوي على طاقة إرادية دافعة إلى إنجازه على أرض الواقع، وهو ما كان له مصداق بيّن في التاريخ، إذ ما إن اعتنق المسلمون تلك العقيدة حتى انطلقوا في الأرض يسعون فيها بالتعمير المادّي فأنجزوا من عظيم العمران ما هو معلوم. ولم تكن

أغلب الأمم على ذلك العهد إلاّ على ثقافات ومعتقدات قعدت بها عن ذلك، من عقلانية يونانية تحقّر من شأن المادّة، وكهنوتية مسيحية تزهّد في الانتفاع بها، وغنوصية شرقية تدعو إلى التخلّص منها.

إنّ في العقيدة الإسلامية طاقة تعميرية مادّية كبرى، تجمع بين الإعلاء من شأن المادّة والرفع من قدرها، وبين استعلام قوانينها وحقائقها، وبين استنفاعها واستثمار مقدّراتها، فتكون بهذا الجمع قد استكملت في النفوس دوافع النهضة بالأمّة المؤمنة بها نهضة التعمير، فمثّل ذلك مخزونا مستديمًا للدفع الحضاري، إن لم يكن في حالة فعل كما حصل في حقبة الازدهار من تاريخها فإنّه يكون في حال كمون لا يفقد فيه دافعيته، فما إن يستثار حتى يعاود الفعل، وهو الوضع الذي تبحث فيه الأمّة على أسباب للنهضة تخرج بها من تخلّفها، وتدفع بها إلى التحضّر، فذلك المخزون العقدي هو أقوى أسباب نهضتها الكامنة.

٢- طاقة الترقية الإنسانية:

تحمل العقيدة الإسلامية من معاني الإعلاء من شأن الإنسان وأسباب الترقّي به في سلّم الكمال ما يجعل من هذا الترقّي مقصداً أصليًا من مقاصدها مكمّلاً للمقصد الأوّل المتمثّل في استعمار الأرض.. فالترقّي بالإنسان في ذاته واستعماره المادّي في الأرض، يكتملان ليكوّنا معًا الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وهي غاية الخلافة في الأرض، خلافة تقوم على أساسين: العمارة المادّية في الأرض، والترقية الذاتية للإنسان وفق منهج العبودية لله تعالى كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦). ولما كانت العقيدة الإسلامية تنطوي

على مثل هذه المعاني في ترقية الإنسان، فإنّها تكون لا محالة مشتملة على طاقة كبرى من شأنها الدفع بالإرادة إلى النهضة الحضارية في شقّها الإنساني كما كانت لها طاقة في الدفع إلى النهضة الحضارية في شقّها المادّي، وذلك على نحو نورد تاليًا من التفصيل:

أ/ ترقية الذات الفردية:

من أصول العقيدة الإسلامية تكريم الذات الإنسانية.. فالإنسان بمقتضى إنسانيته، مجرّدًا عن أيّ عارض من عوارض الجنس واللّون والعرق والدين وغيرها، هو كائن كريم الذّات رفيع الشأن، وذلك ما أصّله قوله تعالى بوضوح وقطعية: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ومن تكريم الإنسان في عقيدة الإسلام أن خُلق في كيانه المادّي والمعنوي في أحسن تقويم، وخلقت من أجل مصلحته الأكوان كلّها وجعلت مسخّرة له، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (لقمان: ٢٠)، بل إنّ الإنسان لم يخلق أصلاً إلا من أجل نفعه، نفعًا بنعيم موقوت في الحياة الأولى، وبنعيم دائم في الحياة الأخرى، انتفاء في ذلك لأيّ معنى من معاني العبثية والصدفة والخطيئة والنقمة، كما هو شأن الاعتقاد في كثير من المذاهب والأديان.

وبناء على هذه القيمة الرفيعة، التي قدّر عليها الإنسان، فإنّ العقيدة الإسلامية جاءت تجعل أساس تكليفه أن يرقّي ذاته الإنسانية بالسموّ الروحي إلى الأفق العليا في حبل موصول بالله تعالى يقترب به إليه، إخلاصًا في العبودية لله، وتخليصًا للنفس من الشرور والآثام، وتطهيرًا للروح من الأدران، وصقلاً للعقل بالعلوم. وهذه الترقية

للذات هي التي ستكون من العناصر الأساسية في تحديد المصير الأخروي، فيكون ثوابًا أو عقابًا بقدر ما ينجز الإنسان منها أو يقصّر فيها، قال عز وجل: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (طه:٧٦)، كما أنّها هي التي ستكون أساس التفاضل بين بني الإنسان في الحياتين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

وباعتبار ذلك، فلا جرم والعقيدة الإسلامية على هذه الحال من تكريم الإنسان والتكليف بترقية ذاته، أن تحدث في نفوس المؤمنين بها الدافع الإرادي لتزكية النفس، وأن تفجّر فيهم أشواق الكمال، فيسعوا إلى إشباعها بالسعي في اكتسابه، وتلك نتيجة منطقية صدّقها الواقع التاريخي، إذ ما إن اعتنق المسلمون هذه العقيدة حتى انطلقوا في مجاهدة النفوس لتزكيتها بالعلم والفضيلة وإخلاص الوجه لله تعالى، حتى نشأت من ذلك نماذج من أفراد الناس بلغوا في درجات الكمال مبلغًا مشهودًا، وهم وإن لم يكونوا كلّ الناس فإنّهم كانوا كثيرًا من الناس، وإن لم يكونوا على سواء بين الأجيال فإنّهم كانوا كثيرًا في كلّ الأجيال على عهود الازدهار، وقد كان ذلك ملمحًا أساسيًا من ملامح التحضّر الإسلامي الزاهر.

ب/ ترقية الذات الجماعية:

كما تتضمّن العقيدة الإسلامية طاقة كبيرة لترقية الذات الفردية للإنسان، فإنّها تتضمّن أيضًا نفس الطّاقة لترقية الذات الجماعية.. فهذه العقيدة لا تجعل هدفها الخلاص الفردي، الذي ينجو فيه كلّ فرد في خصوص ذاته باستجابته للتكاليف المطلوبة، وإنّما تجعل هدفها الهيئة الجماعية للإنسان أن تنهض بوظيفة مشتركة خلق

من أجلها الإنسان النوع؛ ولذلك فقد كانت التكاليف الدينية تكاليف جماعية في أغلبها، سواء في طبيعتها أو في طريقة تحمّلها وإنجازها.

ويرتكز هذا البعد الجماعي في المضمون العقدي الإسلامي على ذات ما يرتكز عليه البعد الفردي الذي شرحناه آنفا، وهو تكريم الكائن الإنساني والإعلاء من شأنه وجعله معقد الحركة الجماعية في ذلك المضمون، بحيث يكون كلّ منشط جماعي لبني الإنسان في سبيل القيام بمهمّة الخلافة في الأرض موجّهًا بما يحفظ للذّات الإنسانية من الكرامة، وما يحقّق لها من العلوّ والرفعة.

وعلى هذا الأساس، جاءت العقيدة الإسلامية تتضمّن مجموعة من القيم الإنسانية ذات الطابع الجماعي، وتجعلها هدفًا تترقّى إليها الحركة الجماعية، فيحقّق الإنسان من الرقيّ الجماعي بقدر ما يحقّق منها، ويتقدّم بالتالي في القيام بوظيفته المكلّف بالقيام بها بقدر ما يتقدّم في الالتزام بتلك القيم، والحفاظ عليها، وإنجاز مقتضياتها الواقعية، في خضمّ الحركة الاجتماعية العامّة.

ومن أبلغ الدلالات في هذا الشأن، ما جاء في فاتحة الدعوة الإسلامية من اقتران بين الدعوة إلى أصول العقيدة وعلى رأسها التوحيد، وبين الدعوة إلى هذه القيم الاجتماعية، كما بدا ذلك في السور المكّية الأولى التي تتضمّن التكليف بالتكافل الاجتماعي، إطعامًا للمساكين ورحمة باليتامى والضعفاء من الناس، كما تتضمّن التوجيه إلى كفالة الحرّية الدينية والفكرية، تلازمًا في ذلك مع الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإيمان بيوم الحساب.. ففي ذلك الاقتران ما يدلّ على البعد الاجتماعي المكين في أصول العقيدة الإسلامية.

وبالإضافة إلى قيمة التكافل الاجتماعي المادّي والمعنوي، الذي يُحفظ فيه الضعفاء، وقيمة الحرّية في الرقاب والمعتقدات والأفكار، تتضمّن العقيدة الإسلامية

قيمًا اجتماعية أخرى كثيرة، لعلّ من أهمّها قيمة التعاون بين بني الإنسان من أجل تنمية الحياة على الرغم من تنوّع الشعوب والقبائل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ (الحجرات: ١٣). ومنها قيمة العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، وإلغاء كلّ عوامل التفاضل بينهم سوى عامل واحد هو عامل الجهاد لتزكية النفس المعبّر عنها بالتقوى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (الحجرات: ١٣).. ومنها قيمة الشورى، التي يتحلّى بها الناس على نحو موسّع في إدارة كلّ شؤون الحياة الجماعية، منعًا للقهر والاستبداد من قِبل بعضهم على الآخرين، وذلك ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الشورى: ٣٨).. ومنها قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تحفظ مسيرة المجتمع المتقدّمة في الخير من أن تنحرف بها السبل.

إنّ هذه القيم الاجتماعية، لـمّا كانت تمثّل أحد الأبعاد الأساسية للعقيدة الإسلامية، فإنّها لمّا تشرّبها المسلمون ضمن ما آمنوا به من تلك العقيدة، فإنّهم بالدافع العقدي نهضوا يحقّقون منها في واقع الحياة الاجتماعية أقدارًا كبيرة، لئن كانت تتفاوت بين قيمة وأخرى وبين فترة زمنية وثانية إلاّ أنّها في الجملة كانت تمثّل خطّ تقدّم ظلّت تترقّى به الذات الاجتماعية للأمّة طيلة عهد الازدهار الحضاري، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر، إلاّ أنّنا يمكن أن نذكر رمزًا شاهدًا عليها وملخّصًا لما حقّقت الأمّة في وقت مبكّر من الترقّي في تكريم الإنسان والعدل والمساواة بين أفراده، ويتمثّل ذلك الرمز في أنّه في عهد الأمويين كان يولّىٰ الإمارة الدينية الروحية للحجّ، وهو أكبر تجمّع إسلامي على الإطلاق، عطاء بن أبي رباح، وكان هذا الرجل أسود اللون، أفطس الأنف، أعور، أعرج، مفلفل الشعر، ثمّ أعمى في أواخر عمره.. لقد سقطت من

الاعتبار كلّ العوارض، وبقيت قيمة الإنسان متجلّية فيما حقّق من تزكية النفس بالعلم والتقوى أساسًا وحيدًا للتقدير.. ولنا أن ندرك من هذا الرمز، المسافة التي قطعتها الأمّة في الترقّي الاجتماعي إذا علمنا أنّ مثل هذا الرجل لم يكن قبل بضعة عقود من السنوات يحظى إلاّ بما يحظى به العبيد وذوو العاهات القعدة من الحقارة والدونية والإهمال.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ العقيدة الإسلامية في تصوّر الوجود والكون والحياة تنطوي من المعاني على ما يشكّل طاقة هائلة في الدّفع إلى النهوض الحضاري، سواء فيما يتعلّق بالتعمير المادّي في الأرض، أو في ترقية الذات الفردية والجماعية للإنسان. وقد تبيّنت تلك الطاقة على النهضة بالامتحان المنطقي المسفر عن علاقة اللزوم بين ذات التصوّرات العقدية وبين آثارها في النهضة الفعلية، وبالامتحان التاريخي المتمثّل في التجربة الحضارية الإسلامية التي أثمرتها العقيدة الإسلامية.. ولكن ما هي الكيفية التي يمكن أن تتفجّر بها تلك الطاقة العقدية، لتثمر نهضة بالفعل، بعدما تكون أسباب تلك النهضة كامنة بالقوّة، تترقّب العوامل التي تخرجها إلى الواقع؟

ثانيا: التفعيل الحضاري للعقيدة الإسلامية

إنّ أصول العقيدة الإسلامية ظلّت محفوظة في إيمان الأمّة على مرّ الزمن، بما فيها البعد الحضاري تعميرًا في الأرض وترقية للإنسان.. ولكن لماذا لا تعمل هذه العقيدة على دفع المسلمين إلى النهضة الحضارية بعد طول تخلّف وتكرار المحاولات للنهوض من ذلك التخلّف كما كان الأمر في النهضة الحضارية الأولى، التي أحدثتها العقيدة الإسلامية عند نزولها؟

الجواب على ذلك أنّ هذه العقيدة لا تفعل في النفوس لاستنهاضها لمجرّد كونها عقيدة تحمل في ذاتها طاقة الاستنهاض الحضاري كمسلّمة منطقية في تأدية المقدّمات

إلى نتائجها، وإنّما تحتاج في ذلك الاستنهاض إلى شرط آخر هو الكيفية التي يكون بها تحمّلها كعقيدة إيمانية.. فلكي تتفجّر الطاقة الحضارية لتلك العقيدة في النفوس فتدفع إلى آثارها في الواقع، يلزم أن يكون الإيمان بها، تصوّرًا وتصديقًا، على كيفية من الصفاء في التصوّر ومن العمق في التصديق بحيث تدفع الإرادة إلى الفعل فيتمّ النهوض الحضاري، وذلك ما كان حاصلاً في إيمان الأجيال التي صنعت الحضارة الإسلامية المزدهرة.

ولمّا بدأت كيفيّة الاعتقاد يداخلها الخلل في التصوّر والتصديق بعد قرون من الحضارة، بدأ الفعل الحضاري الإسلامي يفتر شيئًا فشيئًا، لتراجع العقيدة عن موقع الدفع في النفوس، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من التخلّف.. ثمّ لم تستطع تلك العقيدة أن تعاود الدفع لبقائها على الكيفية الطارئة التي أقعدتها عن الفعل، فتواصلت حال التخلّف بالرغم من الجهود المبذولة للنهضة.

وقد انتهى الأمر إلى هذا الوضع الذي عليه الأمّة الإسلامية اليوم متمثّلاً في طاقات وقدرات للنهضة ضخمة الأحجام متعدّدة الأنواع، ولكنّها في أغلبها معطّلة عن الفعل، قاصرة عن الدفع لإحداث النهضة. وعلى رأس هذه الطاقات والقدرات تأتي الطاقة العقدية، فهي طاقة نهضة فاعلة تتوفّر عليها الأمّة، ولكنّها لم تُستنهض بعد لتستعيد كيفيتها الإيمانية التي تصبح بها عامل نهوض حضاري فعلي يدفع بالمسلمين في حركة تتقدّم بهم في مساري التعمير المادّي والترقّي الإنساني على حدّ السواء. ونحسب أنّ تلك الكيفية الإيمانية الدافعة لا تتمّ إلاّ بتوفّر عنصرين أساسين يغيّران من الوضع الإيماني الذي عليه عقيدة المسلمين اليوم إلى وضع تصبح فيه هذه العقيدة فاعلة في النفوس بحيث تدفع إلى النهوض الحضاري، وهما: ترشيد الفهم العقدي، والتفعيل الإرادي للعقيدة في النفوس.

١- ترشيد الفهم العقدي:

كان المسلمون في العهد الإسلامي الأوّل يتلقّون مفاهيم العقيدة مباشرة من معين الوحي، قرآنًا وسنّة، وكان إيمانهم بها يشمل الإيمان بكلّ ما أمر الله به ونهى عنه، بحيث يتنزّل كلّ ذلك في التصديق به والإذعان له على سواء، ما غلبت عليه الصبغة النظرية التصوريّة كالإيمان بوجود الله ووحدانيته والإيمان بالبعث والحساب، وما غلبت عليه الصبغة العملية كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والسعي في العلم والكدح في الأرض بالتعمير وإماطة الأذى عن الطريق. وإن يكن بين ذلك ترتيب، ولكنّه ترتيب في نطاق دائرة جامعة هي دائرة العقيدة الإيمانية، تشرّبًا في ذلك كلّه بما شرح النبيّ ﷺ من مفهوم لتلك العقيدة وذلك في قوله: «**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لاإله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[١].

وبعد فترة من الزمن بدأ يطرأ على هذا الفهم للعقيدة بعض التغيّر؛ ذلك أنّ العقيدة أصبحت مناطًا لعلم قائم يتصدّى لما تعرّضت له القضايا الأساسية فيها من التحدّي الخارجي والداخلي، وهي بالأساس قضايا الألوهية والنبوّة والبعث. وبما أنّ هذه القضايا ذات الصبغة النظرية الغالبة كانت هي المحاور التي يدور عليها علم العقيدة ضرورة أنّها هي التي كانت محلّ التحدّي، فإنّ سائر القضايا العقدية الأخرى، وخصوصًا تلك التي كانت تغلب عليها الصبغة العملية، لم تجد لها مكانًا في هذا العلم لكونها لم تكن هدفًا بيّنًا للتحدّي.

وبمرور الزمن وأيلولة الفكر الإسلامي عمومًا إلى الفتور، بدأ يستقرّ في الأذهان شيئًا فشيئًا أنّ مفهوم العقيدة كأنّما هو مقتصر على تلك القضايا التي تضمّنها علم العقيدة وتمحّض للبحث فيها والذّبّ عنها. وساعد على ترسيخ هذا المفهوم

(١) أخرجه مسلم.

النسق المدرسي التعليمي، الذي انتهى إليه علم العقيدة، والذي جمد عليه دون مزيد نموّ وتوسّع كسائر العلوم الإسلامية الأخرى لمّا آل التحضّر الإسلامي عمومًا إلى الانحدار. وانتهى الأمر إلى أن انسحب أو كاد من الوعي العقدي للمسلمين تلك القضايا العقدية ذات الصبغة العملية من مثل السعي في الأرض بالتعمير اكتشافًا للقوانين الطبيعية واستثماراً للمقدّرات المادّية، ومن مثل المجاهدة للترقّي الإنساني الفردي بالعلم والفضيلة، والجماعي بالتكريم والحرية والتكافل والتعاون والتراحم، وهو الأمر الذي أفضى إلى أن أصبح الإيمان العقدي يكاد يقتصر على الغيبيات دون المشهودات، ففقدت العقيدة بذلك طاقتها في النفوس على أن تحرّك الإرادة إلى العمل الإنجازي، فتراجع الفعل الحضاري الإسلامي، واستقرّ الأمر على ذلك النحو إلى العهد الحاضر.

وفي سبيل إعادة الاعتقاد إلى نصابه، الذي يكون به فاعلاً فيحدث في النفوس الدفع إلى النهضة، يستلزم الأمر ترشيد الفهم العقدي في مستويات عدّة أهمّها ما يلي:

أ- ترشيد الصدور:

مصدر العقيدة الدافق الحيّ هو الوحي، قرآنًا وسنّة، فهما الملهم المباشر للاعتقاد في صورته الشمولية الصافية الفاعلة، وحينما أصبحت العقيدة علمًا مدرسيًا توارثه المسلمون جيلاً عن جيل إلى عهود الجمود، أصبح الخالفون في هذه العهود يقصدون في سبيل أخذ عقيدتهم وتصحيحها أقوال العلماء السابقين وشروحهم وتقريراتهم، وهي التي داخلتها دواخل الجدل، بل داخلتها مقتبسات من ثقافات أخرى في خضمّ المعركة الدفاعية التي كان يخوضها علم العقيدة، وأصبح كلّ ذلك كأنّما هو فاصل في تشرّب المفاهيم العقدية بين المسلمين وبين المصدر الأصلي من قرآن وسنّة.

ومن المعلوم أنّ آراء العلماء وشروحهم وتقريراتهم، مهما يكن من سدادها واندراجها في نطاق مقتضيات تعاليم الوحي، فإنّه لا يمكن بحال من الأحوال الاستغناء بها عن معين الوحي، وعن الرجوع المباشر له؛ ولذلك فإنّه في قضيّة الحال لا مناص من أن تعاود الأمّة في سبيل ترشيد اعتقادها الارتباط المباشر بالقرآن والحديث، ليكونا المعين الأصلي للاعتقاد، وتكون آراء العلماء وشروحهم مُعينًا ومُستأنَسًا، على خلاف ما هو حاصل في هذا الشأن منذ زمن.

وحينما يصبح الوحي هو المصدر المباشر للاعتقاد، فإنّ حقائق العقيدة تقع في النفوس على صورتها الصافية الشاملة كما كانت تقع في نفوس الجيل الذي تلقّى الوحي عند نزوله، دون أن تخالطها وساطة من الشروح الإنسانية التي تخضع للاعتبارات الظرفية في إبراز بعض دون بعض، وتقديم معتقدات وتأخير أخرى، ممّا يؤدّي إلى تشوّش الصورة العقدية الإسلامية في تكاملها وشمولها. هذا وإنّ المسلمين على اختلاف درجاتهم في المعرفة، لهم القدرة على الاتّصال المباشر بالقرآن والحديث واستفادة العقيدة منهما، وإن يكن ذلك على اختلاف بينهم في درجة الاستيعاب وحسن التحمّل الإيماني.. وحينما يصبح الوحي هو المرجع المباشر للجميع، ويغدو ذلك سنّة ماضية، فإنّ الكفاءة على الاستفادة ترتقي شيئًا فشيئًا، وترتقي معها كيفيّة التحمّل الإيماني للعقيدة في أبعادها التصورية والعملية.

وحينما يرشد الفهم العقدي بصدوره عن مورده الأصلي، وذلك بالارتباط المباشر بالقرآن والحديث على النحو الذي وصفنا، فإنّ كيفيّة جديدة للإيمان العقدي تحصل في الأذهان؛ ذلك لأنّ الاتّصال المباشر بالوحي يجعل للمعتقدات من الوقع في النفوس ما لا يكون لها لو أخذت بواسطة شروح إنسانية، إذ الوحي يلقي بمعانيه بقوّة في نفوس قاصديه من المؤمنين، فتقع تلك المعاني موقعًا مكينًا من شأنه أن يحرّك

الإرادة الفاعلة فتنهض لإنجاز المقتضيات العملية التي تقتضيها العقيدة بمفهومها الشمولي، وذلك هو ما كان يتمّ على العهد الإسلامي الأوّل الذي شهد النهضة الحضارية، وهو المغزى الذي أراده والد فيلسوف الإسلام محمد إقبال، فيما رواه عنه من نصيحته الواعية العميقة المعبِّرة عن الروح الثقافية الإسلامية، بأن يقرأ القرآن الكريم لكي يستوعب معانيه وينفعل بها، معتبراً إيّاه كما لو كان ينزل عليه من الله تعالى لأوّل مرّة.

ب- ترشيد المدلول:

لقد أصبح مفهوم العقيدة كما بينا سابقًا يشبه أن يكون في أذهان المسلمين متمحّضًا للإيمان بما هو غيبي ذو طبيعة تصوّرية نظرية من مثل الإيمان بالله واليوم الآخر، مستبعداً منه أو يكاد كلّ ما هو ذو طبيعة عملية من أوامر الله ونواهيه، إذ أن هذه أصبحت تندرج تحت مسمّى الشريعة وأخرجت من مسمّى العقيدة، وبذلك انفصل في الأذهان ما هو غيبي نظري عمّا هو مشهود عملي، ليقدّم الأوّل في ميزان القيمة الإيمانية وفي ميزان الاهتمام ويؤخّر الثاني، وهو ما انعكس بجلاء فيما انتهى إليه الفكر العقدي لدى الأكثر من المسلمين من مفهوم للإيمان يقوم على اعتبار حقيقة الإيمان تنحصر في التصديق القلبي دون العمل بالجوارح.

إنّ هذا المدلول للعقيدة أدّى، فيما أدّى، إلى ارتخاء الإرادة في الإنجاز العملي لأوامر الدين ذات الصبغة العملية، ما دام ذلك لا يقدح في اعتقاد المسلم قدحًا يفضي إلى نقضه. وفي سبيل ترشيد هذا المفهوم، ينبغي أن يُرسّخ في أذهان المسلمين أنّ العقيدة يمتدّ مفهومها ليشمل الإيمان بكلّ ما أمر الله به ونهى عنه من أعلى تلك الأوامر وهو الإيمان بالله تعالى إلى أدناها وهو إماطة الأذى عن الطريق كما جاء في الحديث النبوي الآنف الذكر، فتحلّ إذن كلّ تلك الأوامر

والنواهي في الأذهان على أنّها من مفردات العقيدة الإسلامية، التي يكلّف الإنسان بتحمّلها تصوّرًا وتصديقًا.

ويقتضي هذا المفهوم فيما يقتضي، أن يندرج في أذهان المسلمين مجدّدًا ضمن مفهوم العقيدة، تلك الأوامر والنواهي ذات الصبغة العملية التطبيقية لتنتظم في ذلك المفهوم جنبًا إلى جنب مع تلك التي هي ذات صبغة غيبية نظرية، وإن يكن ذلك على نحو من التراتب بينها، فإذا وحدانية الله تعالى والبعث والحساب، يجاورها على صعيد الاعتقاد التكافل الاجتماعي من رفق باليتيم وإطعام للمسكين، والتعمير في الأرض من سعي فيها للعلم بقوانينها، ومشي في مناكبها للابتغاء من فضل الله فيها، ومن تكريم للإنسان بتحقيق حريته وحفظ حقوقه، وذلك على نحو ما نجد من بيان في القرآن الكريم تقترن فيه على نفس الصعيد الإيماني هذه التكاليف كلّها، كما ورد ذلك في السور المكّية المؤسّسة للعقيدة الإسلامية.

كما يقتضي هذا المفهوم فيما يقتضي، أن يصبح راسخًا في الوعي الإيماني للمسلم أنّ كلّ ما يعمل فيه عقله بفكر وكلّ ما تأتيه جوارحه من عمل إنّما هو مؤطّر بإطار عقدي شامل، حتى إذا ما أتى يجتهد في وضع خطّة للتنمية الاقتصادية على سبيل المثال، أو أتى ينفّذ إقامة عمران مدني، كان ذلك كلّه متنزّلا في وعيه ضمن إطار عقدي، على معنى أنّه يكون شاعرًا شعورًا عميقًا بأنّه يفعل ذلك كلّه إيمانًا بما أمر الله تعالى به ونهى عنه، على نحو ما يشعر به حينما يؤدّي صلاته أو صومه، وحينما يذكر ربّه ويتوجّه إليه بالدعاء من أنّه إنّما يفعل ذلك إيمانًا بأوامر الله ونواهيه.

وقديمًا كان الإمام الغزالي رحمه الله، على وعي عميق بهذا الشأن حينما لاحظ في الأمّة مبادئ انحراف في مفهومها العقدي، وذلك لمّا بدأت تفصل بين ما هو عقدي إيماني وما هو شرعي فقهي، ولمّا أصبح الكثيرون يؤدّون الواجبات الدينية

العملية في غير ربط لها ربطًا قويًّا بمغازيها العقدية، فقام قومته الإصلاحية لتعديل هذا الميل بالدعوة إلى الوصل بين ما انفصل، فألّف في ذلك كتابه الذائع الصيت: (إحياء علوم الدين)، مناديًا فيه بأن تندرج في وعي المسلمين مجدّدًا كلّ التكاليف الدينية في إطار الاعتقاد، لتصبح صادرة عن المسلم فكرًا وعملاً باعتبارها إيمانًا وليس باعتبارها مجرّد أفكار وأعمال، وهو ما بدا فيما صدّر به كتابه ذا الصبغة الفقهية العملية بمبحث عقدي، وفيما صدّر به كلّ فصل من فصوله الفقهية العملية بتوجيه إيماني عقدي، فقد كان رحمه الله يعالج في الأمّة وضعًا بدأ فيه تصوّرها العقدي ينفصل فيه الإيمان عن العمل، ممّا أدّى إلى تراجعها الحضاري. وذلك العلاج الذي طلبه الغزالي للأمّة في سبيل إنقاذها من التراجع الحضاري، ما زال هو العلاج المطلوب لها اليوم في سبيل نهضتها الحضارية.

وليس بخفيّ أنّ المسلم لمّا تتكيّف عقيدته في النفس على هذا النحو من شمول الاعتقاد لكلّ أوامر الله ونواهيه، ومن الوصل بين الإيمان والعمل، وبين الغيب والشهادة، وبين التصوّر والسلوك، على سواء في اندراجها ضمن العقيدة، فإنّ ذلك من شأنه أن يكون له دافعًا قويًّا نحو الإنجاز العملي لمقتضيات التكليف في تعمير الأرض وترقية الإنسان على نحو ما حدّدنا لهما من المعاني سابقًا، إذ ذلك كلّه يصبح حالاً في النفس محلّ التكليف العقدي الذي يؤدّي الإخلال به إلى إخلال بالعقيدة، مع ما يعنيه ذلك من إخلال بذات التديّن قد ينتهي بصاحبه إلى الكفر من حيث طلب الإيمان، وإلى الهلاك من حيث طلب النجاة.

فترشيد المفهوم العقدي على النحو الذي وصفنا، إذا ما أصبح وضعًا عامًّا تندرج فيه الأمّة كافّة أو الأغلب من أفرادها كما كان الأمر في عهودها الأولى، فإنّ حيوية سوف تسري فيها، ودمًا جديدًا سوف يحرّك إرادتها لتنهض مقبلة على تعمير الأرض

وترقية الفرد والمجتمع، فيكون ذلك بداية لاستئناف حضاري يتطوّر بالتراكم إلى أن يؤتي أكله المنشود.

ويجدر أن نذكر في هذا الصدد أنّ اليابان لمّا كان العمل المتقن يحلّ في عقيدة أهلها أعلى الدرجات منها، فإنّها استطاعت بذلك أن تنهض نهضتها الحضارية المشهودة، وأن تستأنف تلك النهضة بعد كلّ نكسة تصيبها.. كما نذكر أيضا أنّ اليهود لمّا كانت العودة إلى أرض الميعاد وتعميرها بدولة صهيون تحلّ في عقيدتهم المحلّ الأرفع، وصلوا في النهضة إلى ما وصلوا إليه.. فكلّ ذلك إنّما يؤكّد كيف أنّ الوصل بين الإيمان والعمل على صعيد الاعتقاد يفضي إلى حركة نهضة واقعية حتى وإن كان الأصل باطلاً، فكيف إذا كان هو الحقّ المبين؟!

٢- التفعيل الإرادي للاعتقاد:

إذا كان ترشيد الفهم العقدي يمثّل مرحلة مهمّة في التفعيل الحضاري للعقيدة الإسلامية، باعتبار أنّ صحّة التصوّر العقدي هو الشرط الأساس لكلّ فعالية لذلك التصوّر، إلاّ أنّ ذلك الترشيد في الفهم ليس بكاف وحده في إحداث الدفع الحضاري؛ ذلك لأنّ هذا الدفع له علاقة بالإرادة الفاعلة. فالصورة الفكرية مهما تكن صحيحة في ذاتها فإنّها إذا لم تكن بالغة مبلغ التأثير في الإرادة لتدفع إلى العمل، فإنّها تبقى محدودة الأثر في السلوك الواقعي.

وهذا المعنى هو الذي عناه ابن خلدون في تحديده للكيفية الإيمانية التي ينبغي أن تكون عليها عقيدة التوحيد حتى تفضي إلى الفعل، إذ يقول: «إنّ المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي، وإنّما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيّف بها النفس»[١]. فهذه الصفة التي تتكيّف بها النفس هي التأثير،

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٢٥، (مطبعة دار الشعب، القاهرة، د.ت).

الذي يكون للتوحيد في الإرادة لتدفع إلى الفعل.

ولكي يكون للعقيدة تأثير في الإرادة ينبغي أن تعالج بجهد آخر غير جهد التصحيح والترشيد. وقد كان هذا الجهد في الأجيال الإسلامية الأولى يتكفّل به ذلك الزخم الإيماني الذي دفعته دفعة قويّة الدعوة النبوية، فامتدّ أثرها على مدى أجيال، وذلك على نحو ما يبدو في قصّة ذلك الصحابي الذي سأل النبيّ ﷺ في غزوة أحد قائلاً: «أرأيت لو قتلت أين أنا؟ قال: **في الجنّة**، قال: فألقى تمرات كانت في يده، ثمّ قاتل حتى قتل»[1].

فالدفع النبوي لعقيدة الجزاء، لم يمهل هذه العقيدة بين أن تكون فكرة صورية وأن تؤدّي إلى سلوك عملي حتى بمقدار ما يتمّ هذا الصحابي أكل تمرات كان يأكلهنّ.. وكذلك كان الأمر في مجمل العقيدة الإسلامية على مدى أجيال من المسلمين.

ولكن بعد مرور زمن بدأ التصوّر الإيماني العقدي يتراخى عن إحداث هذا الدفع الإرادي للفعل، ثمّ تطوّر الأمر إلى أن أصبح يكاد لا يفعل من ذلك الدفع شيئًا، وإنّما هي عقيدة صورية تمثّل تصديقًا حكميًا لا تتكيّف به النفس، كما عبّر عن ذلك ابن خلدون. وهذه هي الحال التي عليها المسلمون اليوم، وهو ما يستدعي بذل جهد إضافي لجعل هذه العقيدة مكيّفة للنفس، محرّكة للإرادة، كي تحدث النهضة في واقع الحياة. ولعلّ من أهمّ ما يتمّ به ذلك أمرين: الأوّل، الجزم الاعتقادي.. والثاني، الإحياء الروحي للاعتقاد.

أ- الجزم الاعتقادي:

لا يبلغ الإيمان بالعقيدة مبلغاً يصير به دافعًا إلى الفعل إلاّ إذا تمّ على صورة من اليقين الجازم بحقّانية هذه العقيدة في متعدّد أبعادها، بحيث لا يمكن أن تتعرّض

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد.

إلى أيّ لون من ألوان الظنّ أو الريب. ولا يكون ذلك اليقين الجازم ذا قيمة في هذا الشأن إلاّ إذا كان يقينًا واعيًا حاصلاً عن اقتناع ذاتي بعد معاناة للتدبّر والتفكّر والاستدلال؛ ولذلك فإنّ علماء المسلمين كانوا محقّين لمّا اشترطوا في الإيمان بالعقيدة أن يكون إيمانًا ذاتيًا ناشئًا بالنظر، واعتبروا الإيمان الموروث بالتقليد إيمانًا غير معتدّ به، فما ذلك في شطر كبير منه إلاّ لكون هذا الإيمان لا يبلغ من النفس مبلغ الدفع إلى العمل، أو هو سرعان ما يتراخى عن ذلك الدفع إن حصل منه.

والصورة الإيمانية الحاصلة اليوم لدى المسلمين، هي صورة حاصلة عند أكثرهم بالتقليد الوراثي، وهي عند بعضهم تشوبها ظلال من الظنّ الذي يميل عند بعض منهم إلى الشكّ، وذلك بفعل مؤثّرات من الغزو الثقافي العنيف الذي تتعرّض له الأمّة. وهي لذلك صورة لا تبلغ في مجملها الدرجة المطلوبة من اليقين، ولا الدرجة المطلوبة من الوعي بذلك اليقين، وهو من أهمّ أسباب قصورها عن الدفع إلى الفعل المحدث للنهضة في الواقع، فدعت إذن الحاجة إلى معالجتها لتبلغ المطلوب في اليقينية والوعي.

ولعلّ من أهمّ السّبل إلى ذلك، استنهاض الفطرة الكونية في المسلمين، وذلك بالتوجيه إلى التدبّر في آفاق الكون للوقوف على آيات الله فيها، فذلك من شأنه أن يعمّق في النفوس الإيمان بمفردات العقيدة كلّها، إذ ليس منها إلاّ ما له شواهد يقينية في تلك الآفاق، كما أنّ من شأنه أن يجعل ذلك اليقين يقينًا واعيًا بما يكون حاصلاً عن تدبّر في الآيات، وتفكّر في المخلوقات، واستدلال بها على الحقّ العقدي كلّه.

وليس المبرّر لفعالية هذا المسلك هو فقط كونه مسلكًا قرآنيًا متمثّلاً في ذلك التوجيه القرآني الواسع إلى النظر في الآفاق في سبيل الإيمان بالعقيدة، توجيهًا لا تنال منه الأيّام بل لا تزيده إلاّ تأكيدًا، وإنّما نجد له مبرّرًا أيضًا في هذا التقدّم العلمي

الكبير في اكتشاف حقائق الطبيعة وقوانينها، وما أصبح لذلك في العقول المعاصرة من قوّة في الحجّة وقدرة على الإقناع. فهذه الحقائق العلمية الكونية تغدو إذا ما يُسّرت للتأمّل من قبل المسلمين وسيلة فاعلة في ترقية الإيمان بمجمل العقيدة الإسلامية من درجة الظنّ إلى درجة اليقين الجازم، ومن درجة التقليد إلى درجة الاستدلال الواعي، ولا غرو فقد كانت تلك الحقائق مدخلاً واسعًا لكثير من الملحدين إلى الإيمان، فكيف إذا يسّرت لتصبح للمؤمنين مسلكًا لتعميق الإيمان وتوعيته؟

ومن السبل إلى ذلك أيضًا، استنهاض الفطرة النفعية في نفوس المسلمين، بالمعنى الإيجابي للنفعية، وذلك بتوجيه الأنظار إلى التأمّل في الآثار النافعة لمجمل العقيدة الإسلامية كما تتبيّن منطقيًا وكما تبيّنت تاريخيًا، وذلك من مثل ما تثمره هذه العقيدة من أمن نفسي واجتماعي، وما تفضي إليه من ترقية للإنسانية ترقية روحية، ومن تعمير في الأرض يعود بالنفع العميم عليها، وذلك إذا ما وقع تحمّلها على الوجه الصحيح الذي تحمّلته به الأجيال الإسلامية الأولى.

وليس المبرّر لهذا المسلك هو فقط كونه مسلكًا قرآنيًا في توجيه الأنظار إلى مفردات العقيدة في سبيل الإيمان بها الإيمان الصحيح الراسخ توجيها يستدلّ بالآثار العملية النافعة على ما في تلك المفردات من الحقّ، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤)، وإنّما مبرّره أيضا ما أصبحت عليه العقلية المعاصرة من تقبّل للحجّة العملية النفعية، في الإيمان بالمعتقدات النظرية، وكذلك ما تبيّن للناس من فشل للأديان والمذاهب في تحقيق السعادة الواقعية للإنسان بالرغم ممّا حقّقه بعضها من الرفاه المادّي العريض.

وحينما تُستنهض في نفوس المسلمين الفطرة الكونية والفطرة النفعية، لتوجّه كلّ

منهما في الاستدلال على العقيدة الإسلامية بالأقدار المناسبة لأوضاع العقول حسب مستوياتها، فإنّ هذه العقيدة ستحلّ في النفوس على وضع جديد تكون فيه على قدر من الجزم في اليقين والوعي فيه، بحيث تصبح تلك النفوس متكيّفة بها على حدّ تعبير ابن خلدون، فيمتدّ من ذلك التكيّف أثر دافع للإرادة الفاعلة، فإذا حركة تدبّ في جسم الأمّة تسعى إلى النهضة الحضارية في معناها الذي وصفناه سابقًا.

ب- الإحياء الروحي للاعتقاد:

إنّ الجزم الاعتقادي الذي تحدّثنا عنه آنفًا مسلكًا لتفعيل العقيدة الإسلامية، هو مسلك ذو طابع عقلي، إذ هو تعميق للاقتناع العقلي بتلك العقيدة بطريق التدبّر في آفاق الكون والآثار العملية للاعتقاد، إلاّ أنّ ذلك المسلك العقلي لتفعيل العقيدة، وإن كان مسلكًا ضروريًا في التفعيل، إذ الاقتناع العقلي الواعي بحقّانية العقيدة هو المدخل الأساس لكلّ تأثير في الإرادة، فإنّه قد لا يكون كافيًا لتحريك تلك الإرادة، خصوصًا حينما تطول عهود الانفصال بينها وبين العقيدة كما هو شأن المسلمين في وضعهم الراهن، حيث ظلّت عقيدتهم لا تحرّك إرادتهم لتحدث الفعل الإنجازي زمنًا طويلاً.

وفي هذه الحالة، فإنّه يكون من الضروري أن يظاهر المسلك العقلي لتفعيل العقيدة في نفوس المسلمين مسلك آخر هو الإحياء الروحي للاعتقاد في تلك النفوس، وذلك بأن يتّجه المسلم في سبيل تقوية الإيمان إلى تحمّل عقيدته تحمّلاً روحيًا بالإضافة إلى تحمّلها العقلي. ففي الإنسان من القوى التي تجعل النفس تتكيّف بحقائق العقيدة ما هو أزيد من قوّة العقل في صرامته المنطقية، وذلك من مثل القوّة الروحية التي تنبني على الأحاسيس والعواطف، وتمثّل قوّة ذات شأن في الرّبط على الحقائق العقدية بحيث تجعلها عامل دفع للإنجاز العملي.

وحينما خاطب القرآن الكريم المسلمين بحقائق العقيدة، فإنّ خطابه لهم في سبيل التصديق لها والانفعال بها لم يقتصر على المسلك العقلي، وإنّما اتّجه بالإضافة إلى ذلك إلى مجامع النفس في أبعادها العاطفية المختلفة، من مثل حبّ الله تعالى والشوق إليه، والخوف منه والرجاء فيه، وانتظار ثوابه والطمع في غفرانه، ليكون ذلك كلّه دوافع للإيمان وروابط تمكّن له في القلب فتدفع به إلى السلوك. ومظاهر هذا المسلك منتشرة في القرآن الكريم انتشاراً واسعًا لا تقلّ عن انتشار مسلك الاستدلال العقلي، وقد كان ذلك مناطًا لجهود الإمام الغزالي رحمه الله في حركته لإحياء علوم الدين، فكان كتابه المترجم بهذا الاسم مشتملاً على فصول واسعة في هذا الشأن.

ولما كان الوضع الاعتقادي للمسلمين يميل إلى أن يكون وضعًا يقوم على التصوّر العقلي الجافّ، الذي تأثر بحركة علم العقيدة الذي اتّجه منذ وقت مبكّر إلى الصرامة المنطقية في تقرير العقيدة، فإنّه مع ترشيد هذه الوجهة العقلية على النحو الذي وصفنا تدعو الحاجة إلى أن يدعَم بإحياء روحي، تجلّل فيه الحقائق العقدية على تنوّعها بمعاني حبّ الله تعالى والخوف منه، والطمع في النجاة يوم الحساب والخوف من الهلاك فيه، والفرح بالنجاح في القيام بوظيفة الخلافة والحزن من الإخفاق فيها، وما إلى ذلك من هذه المعاني الروحية التي من شأنها أن تكون ظهيراً لذلك المنهج العقلي ليثمرا معًا فتأخذ تلك العقيدة في نفسه موقعًا مكينًا، فتدفع به إلى الفعل في الواقع، وتكون من هناك بداية النهضة.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ الأمّة الإسلامية تتوفّر على طاقة حضارية كبرى، متمثّلة فيما تتضمّنه عقيدتها من أبعاد يرتبط فيها ارتباطًا مكينًا الإيمان بالله واليوم الآخر بالتعمير في الأرض علمًا واستنفاعًا، وبالترقّي الإنساني فرداً ومجتمعًا، ممّا يمثّل عاملاً أساسًا من عوامل النهضة من تخلّفها لاستئناف شهودها الحضاري. وهو أمر تتضافر

في الاستدلال عليه اللازمة المنطقية والشهادة التاريخية على حدّ سواء.

كما يتبيّن أيضًا أنّ تلك الطاقة ظلّت منذ عهد بعيد في طور كمون لا تفعل في الدفع إلى النهضة شيئًا، إلاّ أنّها مع ذلك تحمل في ذاتها من قابلية الفعل ما لو عولج ببعض الجهد، بأن ترشّد عقيدة المسلم في مصدرها وفي مفهومها، وبأن تفعّل بيقينية عقلية واعية وبإحياء روحي شامل، لانطلقت قوّة جبّارة تدفع بالمسلمين في حركة حضارية تنهض بها من كبوتها.

فالأمّة الإسلامية تتوفّر في عقيدتها على طاقة حضارية هائلة لو استُنهضت لنهضت بها.. كما تتوفّر في أرضها، وفي جغرافيتها، وفي فطرة شعوبها على أقدار هائلة من أسباب النهوض الحضاري. فمتى تنتبه إلى تلك الطاقات والمقدّرات لتنهض بها من تخلّفها الذي طال ليله، وتستأنف بها حضارتها التي طال انتظارها؟

من مقومات نهوض الأمة المسلمة

الدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي*

من الجنايات العظيمة على العقل المسلم، أن جعلت القدرة على الاستنباط والفهم حكرًا على أفراد محدودين مما أورث العقل العقم وصادر حقه في التفكير والإبداع في عصر جدت فيه كثير من القضايا واتسعت ميادين العمل وتغيرت المشكلات.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن الله سبحانه تكفل بحفظ دينه، فحفظ لعباده أصْلَي الدين، وهما: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.. وحقق ما وعد به رسوله عليه الصلاة والسلام من ظهور الدين وغلبته، ولو كره الكافرون والمشركون..

وما يزال الله سبحانه وتعالى يبعث بين كل حين وآخر من يجدد للأمة أمر دينها، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»(١).

---

* مدير جامعة الإيمان (اليمن).

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، برقم ٤٢٩١.

كما أن من سننه سبحانه: أن يظل الحق مع صراع دائم مع الباطل، ولكل أنصاره وأتباعه وجنوده وحزبه.. وكلما صدق أصحاب الحق وأخلصوا لله سبحانه وتعالى في أعمالهم، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم في سبيل نصرة دين الله سبحانه، أيدهم الله تعالى بنصره، وكانت لهم الغلبة على أعدائهم.. وكلما أدركهم الوهن والضعف، وتأثروا بعرض الدنيا وزينتها، وقل إيمانهم، ورقت عبادتهم، فإن الدولة تكون لعدوهم عليهم.

وما يزال الله سبحانه يتدارك هذه الأمة بتوفيقه ورعايته كلما انتابها الضعف، وهذا يحمل على الرجاء وعدم اليأس في إدراك رحمة الله سبحانه -إن شاء الله- للأمة في وضعها الراهن، وأنه مهما أحاطت بالأمة عوامل الانهيار فلا بد من عودة حميدة إلى دين الله سبحانه، يعود به للأمة عزها ومجدها ومكانتها.. وتحتل الصدارة في قيادة الإنسانية إلى بر الأمان وخاصة وقد وصلت الإنسانية اليوم إلى حافة الهاوية، وظهر عوار الأنظمة البشرية، وأفلست كل النظريات -البعيدة عن وحي الله- عن جلب أي سعادة للإنسان، مما جعلته يتخبط في ضلالات التيه وظلمات الحيرة..

وقد أودعت في هذا البحث، ما يمكن أن يبعث الأمل في أن يعود للأمة دورها من جديد في إنقاذ البشرية مما وصلت إليه.. وقد سرت فيه على النحو التالي[*]:

- بيان العوامل التي أدت إلى انحسار المسلمين عن الإسلام حتى أصابهم ما أصابهم..
- قدرة الأمة المسلمة على أن تنهض بواجبها من جديد، لما عندها من مقومات..

(*) نظراً لحجم البحث وبتفويض من الباحث قمنا بتجاوز بعض القضايا التي رأيناها مستوفاة إلى حدٍ ما في مساهمات أخرى.. (الناشر).

عوامل الضعف والانهيار التي أصابت الأمة الإسلامية

لقد نزلت بالأمة المسلمة عوامل وأسباب كثيرة أدت في مجموعها إلى ركود العقل، ووصوله إلى مرحلة العقم الذي عجز بسببه عن الإبداع والابتكار، كما عجز عن مواجهة المستجدات والتحديات، كما أصيب أيضاً بالعجز عن مواكبة الجديد في الفكر الإنساني، حتى أصيبت الثقافة بركود وجمود، وكل ذلك بدا واضحاً بعد أن انهارت الخلافة الإسلامية، وانحسرت سيادتها، وتمزقت الأمة الإسلامية إلى أشلاء، وظهرت القوانين الوضعية في ديار المسلمين، فطغت على شريعة الإسلام، وبرزت النعرات الجاهلية، واصطنعت الحدود بين المسلمين، وارتفعت دعوات القوميات، وأصبح الحكم في أيد تلوثت بالولاء للغرب أو للشرق، وتنكرت لأبناء جلدتها، واستخدمت كل وسائل البطش للوصول إلى الحكم والاستئثار به، والاستمرار عليه، وأجهضت كل توجه من شأنه أن ينازعها الأمر، أو يفسد عليها دنياها، فحصل بذلك اغتيال الأمة التي كانت صاحبة الريادة والسيادة، التي أرادها الله لها بما اختار لها من الدين.. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ (آل عمران:١١٠).

وبذلك كانت صاحبة الحق في حمل الرسالة إلى البشرية.. تلك الرسالة التي هي مصدر الهداية والسعادة والخير للإنسانية في الدارين.. وقد كانت الأمة الإسلامية قبل أن يصيبها ما أصابها، ذات مقومات، حفظت عليها دينها، وحفظت عليها لغتها ووحدتها، وحفظت عليها كثيراً من أخلاقها وآدابها المتميزة، وحفظت عليها هويتها من الضياع والانطماس، ومنحتها القدرة على الاستمرار على الرغم مما أصاب أحوالها في فترات متأخرة من التشوه، والنقص، وانتشار الجهل، وظهور البدع، والغلو في التبعية والتقليد، والافتتان بكل وافد عليها من الغرب، حسنه وقبيحه.

ومن أهم عوامل الدمار والفساد التي لحقت بالأمة الإسلامية:

١- ارتداد كثير من العرب بعد رسول الله ﷺ.

٢- إحياء القوميات والنعرات التي فتت الأمة.

٣- زحف التتار على العالم الإسلامي وتحطيم كل شيء فيه.

٤- تألب جيوش الصليبيين وغيرهم عليها.

٥- فرض القوانين الوضعية.

٦- غزو الحضارة الغربية، وما جاءت به من ثروات وترف وفساد.

٧- قيام الحكم الاستبدادي.

٨- ضياع الخلافة الإسلامية وتقطع أوصالها إلى دويلات ذات حدود وقوانين وأنظمة وأنماط متباينة.

لقد أصيبت الأمة الإسلامية بانتكاسات في أخلاقها وقيمها فغلبت عليها الأنانية، وأصيبت بداء حب الدنيا والخلود إليها، وتملكها حب الرئاسة والملك والتهالك عليه، حتى ماتت فيها الغيرة التي كانت في أسلافها، وانتهت في نفوسها الحمية على الإسلام، فلا يستثير غضبها حرمة تنتهك، ولا عرض يستباح، ولا أرض تسلب، ولا شعوب تشرد من ديارها، ولا مجازر تحل بأبناء دينها، ولا ديار تهدم على شيوخها وأطفالها ونسائها، واكتفت في كل أحوالها بحضور المؤتمرات والندوات، وإصدار القرارات والتوصيات التي ضاقت بها مخازنها دون أن يكون لها أثر في واقع الأمة المخزي.. وهذه العوامل كانت كافية لاستئصال الأمة الإسلامية، والقضاء عليها.

ومع ذلك كله خرجت هذه الأمة العظيمة في فترات مضت من تاريخها من تحت هذا الركام، ومن بين هذه العواصف سليمة، معافاة، قوية، نشيطة، تنفض عن نفسها

آثار غبار الموت وتراب القبر.. واستأنفت سيرها في طريق الإيمان من جديد، في عزم وثقة وروح جديدة.. تسري في عروقها وخلاياها.. وحماسة منقطعة النظير، واعتصام بالله تعالى، واستمساك بدينها، ويقينٌ بنصر الله.

إن من أخطر العوامل أيضًا التي اغتالت مقومات المسلمين:

١- أنهم فقدوا الثقة بأنفسهم وبدينهم، عندما بهرهم الإبداع المادي الذي تفوق فيه أعداؤهم، وأصغى كثير من العامة، وممن له ثقافة غير شرعية إلى الشبهة القائلة: بأن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين، حتى أصبحوا يقدسون كل شيء يأتي من الغرب، دون تفريق بين الضار والنافع، حتى ظنوا أن الحضارة تتمثل في إشباع الغرائز وإرضاء الشهوات.

٢- احتكام المسلمين -في الغالب- إلى القوانين الوضعية، والآراء البشرية التي لا تمت بصلة إلى شرع الله تعالى، بل تضاد الشرع وتتصادم معه، وجلها من وضع أعداء الإسلام كالقوانين الفرنسية والإنجليزية وغيرها، وانساقوا وراءها عن طريق التقليد الأعمى، وبالتالي أعرضوا عن الاحتكام إلى شرع الله سبحانه..

٣- فتن المسلمون بالقوى البشرية المتصارعة في الشرق والغرب، فانحازت طائفة إلى النظام الرأسمالي، وأخرى إلى النظام الشيوعي.. غير آبهين بالأسس الإلحادية التي قام عليها النظامان، وملقين وراء ظهورهم ما أوجب الله تعالى عليهم من البراءة من أعدائه وتولي أوليائه..

إن من العوامل التي هدت كيان الأمة الإسلامية، وأبعدتها عن مصادر تشريعها، أن كثيرًا من علمائها جعلوا جل همهم في خدمة فروع الشريعة، حتى طغى ذلك على الاهتمام بالأصول، فصارت النظرة إلى الكتاب العزيز والسنة المطهرة نظرة ثانوية، وصارت الدهماء مشدودة إلى الفروع أكثر منها إلى الأصول، وربما كان كثير من

مسائل الفروع التي قضوا فيها حياتهم لا أهمية لها في واقع المسلمين وحياتهم، ولا تعالج شيئًا من مشكلاتهم التي يعانون منها، على أنه لا يمكن نكران أهل الفضل والعلم الذين دافعوا عن دين الله، وحفظوا شرعه، ونشروا العلم، ووقفوا في وجه الملحدين والظلمة المفسدين، كما لا يمكن أن يصل اليوم إلى مرتبتهم أحد كما نحسب، ومع هذا فإن بشريتهم لم تعصمهم من الوقوع في بعض الأخطاء، فاجتهاداتهم ليست وحيًا منزلاً معصومًا، بل هي مجرد استنباط للأحكام الشرعية من الأصول التي سبروا غورها، واستخرجوا كنوزها، وقربوا بفعلهم كثيرًا من أحكام الشريعة للناس، إلا أن كل هذا الذي فعلوه لا يصل إلى مستوى أن يكون مصدرًا من مصادر الشريعة، كالكتاب والسنة، حتى تقدس كما يقدس القرآن والسنة.

ولذلك فإن تقديس هذه الفروع، واعتبارها كالنصوص القطعية التي لا تقبل النقض ولا النقص، وأنها قواعد أبدية حَجَر على الناس الاجتهاد، وصار كثير من أهل العلم يرى أن باب الاجتهاد قد أغلق، وأنه لا يحق لأحد أن يلجه مهما كانت علومه، ومداركه، وذكاؤه وقوة استنباطه، وهذه من الجنايات العظيمة على عقول المسلمين، أن جُعلت القدرة على الاستنباط والفهم، والغوص في أسرار الكتاب والسنة، حكرًا على أفراد محدودين في تاريخ الأمة الإسلامية، مما يورث العقم في العقل المسلم، ويصادر حقه في الإبداع والتفكير، في عصر جدت فيه كثير من القضايا، واتسعت فيه ميادين العمل، وظهرت فيه مشكلات لم يعرفها أسلافنا.

فإذا وقف العالم حائرًا أمام هذه القضايا، لا يعمل عقله في التأمل في نصوص الكتاب والسنة، وقواعد الإسلام العامة، ليخرج بأحكام جلية تهدي الناس إلى الصواب وإلى رأي الإسلام في هذه الأمور، فإن الإسلام يتهم بالعجز والقصور وعدم القدرة على مسايرة الأزمان، بينما كلام الله الذي جعله الله كتاب هداية للبشرية إلى

يوم الدين، هو الكلام الذي لا تتبدل أحكامه، ولا تتغير بتغير الأزمان واختلاف الأماكن، لأنه كلام المحيط علمًا بما كان، وما يكون.

ومن جناية هذا المنهج على الإسلام -أعني تقديس العلوم الفرعية في الشرع- أن دب التعصب المذهبي في صفوف المسلمين، حتى آل الأمر إلى إصدار أحكام التكفير والتفسيق، وتغير توجه المسلمين واهتماماتهم، وتقطعت أوصالهم.

وبذلك أصبح كثير من عامة المسلمين يدركون ما خلفه علماؤهم من جناية عليهم بهذا المنهج الذي قعد بالمسلمين عن التفكير والصدارة التي بوأهم إياها دينهم، وأن تقدم الآخرين في الإبداع المادي، إنما كان نتيجة لإعطاء العقل حقه في التفكير والإبداع، والانطلاق في التأمل في نواميس الكون وأسرار الخلق، فصاروا ينظرون إلى هؤلاء العلماء نظرة ازدراء واحتقار ناتجة من ردة الفعل عندما نظروا إلى أحوالهم وأحوال أعدائهم، وكان من نتائجها:

أن العامة صاروا يتحررون من تبعيتهم لهؤلاء العلماء، وينبذون سلطانهم، ويتيهون في كل واد، ويعمهون في كل ضلال، ولا يتقيدون بشيء من سلطان الشرع، أو إرشاد الهداة من الدعاة الصادقين.. واستغل قوم هذه الحال، فوجه الاتهام إلى الدين الإسلامي نفسه، بانه دين جمود.. وألصقوا هفوات العلماء وأخطاءهم بالدين نفسه، وهذه من أعظم الجنايات التي تؤدي إلى غرس الشك في نفوس العامة بدينهم، وانتزاع الثقة من نفوسهم، وارتمائهم في كل هاوية، تتخطفهم شياطين الإنس والجن، التي تدعو إلى التحرر من الدين، والاتجاه إلى تقليد الأمم التي خدع الناس بما وصلت إليه من الرقي المادي.. ونبت في هذا الوضع المؤسف من ينادي بفصل الدين عن الدولة، وبفصل العقائد عن شؤون الحياة.. إلى غير من الدعوات الهدامة التي أمعنت في تمزيق الأمة وتقطيع أوصالها.

وعندما غابت دولة الإسلام، ولم يبق له من يحميه، ويذود عن حياضه ويقمع أهل البغي والفساد، وانفرط عقد الأمة الإسلامية، واشرأبت أعناق المفسدين، وأصحاب الشهوات، واختلطت الأمور، وتفاقم الشر، وصارت أبواب الإسلام مفتوحة لكل من يدخله دون حماية من أعدائه، ولا رعاية لأوليائه، ولا تمييز للخبيث من الطيب، انتمى إليه كل من يدعي الإسلام، وهو من أعدائه مثل:

١- الذين يشككون في أصوله ومبادئه وقواعده وتشريعه وتاريخه، ويعملون على نشر كل ما تكن صدورهم من قيح وصديد، فيختلقون الشبهات والأباطيل والافتراءات، ويشيعونها في أوساط البسطاء من عامة الناس، فيتركونهم في حيرة وشك من أمر هذا الدين.

٢- وانخرط فيه من لا يتحرج من إعلان كفره وردته بين المسلمين، لعلمه أنه لا يوجد من يردعه، لأنه لا يوجد للإسلام من يغار عليه ويحمي كيانه وحياضه من أمثاله.

٣- ودخل في سلك جماعته من يتهكم ويسخر ويلمز تشريعاته، وشعائره وأحكامه، ويطعن فيها، وينتقص منها.

٤- ودخل فيه أيضاً من فتنوا بما عند الغرب من الأوضاع والأنماط والقوانين وأساليب الحياة العامة والخاصة، حتى صارت أمور الإسلام في نظرهم محل انتقاص.. تراهم يرفعون من شأن أعداء الإسلام، ويضفون على ما عندهم هالة من التمجيد والثناء، ليفتنوا بذلك المسلمين.

٥- وضوىٰ تحت لواء الإسلام كل من أخلص ولاءه لأعداء الإسلام، وآثر القوانين الوضعية على القرآن والسنة، ممن لا هم لهم سوى البحث عن إشباع رغائبهم، وتحقيق مصالحهم على حساب كل شيء في دين الله.

ولا شك أن وجود مثل هذه الفئات في جسم الأمة، مما يفت في عضدها ويهد كيانها، ويوهن قواها، وينخر في جسدها.. وتجد سائر المسلمين -إزاء هذه الفئات-

إما غافلاً عن كل هذا، لا يملك إحساساً ولا شعوراً بما يجري.. وإما عالمًا بذلك، غير أنه لا يعبأ به، ولا تتحرك له غيرة على دينه.. وإما مدركًا لكل هذه المخاطر، عنده غيرة على دين الله سبحانه، ولكنه لا يملك إلا إرسال العبرات والأنات والزفرات.. وإذا التقى مع مثله بث كل ما في نفسه من الأسى والألم، فلا يملك إلا التباكي والتشاكي.. كل ذلك بسبب غياب السلطة التي تقوم بحماية دين الله عز وجل، وتسهر على مصالح المسلمين بالشكل المطلوب.

أسباب قدرة الأمة على استعادة دورها الحضاري

إن من أهم الأسباب التي تجعل الأمة الإسلامية قادرة على أن تقوم من جديد بدورها الحضاري، كونها تحمل عقيدة التوحيد الخالص.. العقيدة التي تحترم العقل، وتدفعه إلى البحث في كل مجال علمي نافع، ولا تضع عليه أغلالاً تمنعه من الانطلاق لاكتساب كل ما في وسعه أن يصل إليه، إلى جانب كونها لا تؤلهه، أو تجعله معصوماً من الخطأ والزلل، لأنه مخلوق له حدوده البشرية التي لا يستطيع أن يتجاوزها.. وهو في الأمور الغيبية وأمور التشريع، محكوم بحكم الله المحيط بكل شيء علماً، والمنزه عن كل نقص وعيب سبحانه وتعالى.

وهي عقيدة لا تهمل جانب الخلق الفاضل الذي يسمو بالإنسان إلى أسمىٰ ما يمكن أن يصل إليه البشر..

وهي عقيدة من أبرز سماتها الرحمة التي لا إفراط فيها، والعدل الذي لا تفريط فيه، تدعو إلى المحبة بين أبنائها، وتحمل على القيام بالواجبات بعزيمة لا تعرف الضعف ولا التواني.. ولا يعتريها استسلام لعجز أو كسل، وهي قائمة في تشريعاتها على اليسر ورفع المشقة.. مراعية في ذلك الضعف البشري، وقدرة الإنسان المحدودة. لا تدع مصلحة لفرد، ولا أسرة، ولا جماعة، ولا أمة، إلا راعتها وحمتها

وأحاطت بما يصونها ويحميها من أي اعتداء.

إنها عقيدة تلازم الفرد أيًا كان نوعه، أو ثقافته، أو مكانته الاجتماعية، أو جنسه، أو مسؤوليته.. تذكره في كل أحواله بربه، وصلته بمن حوله من الأفراد والأسرة والمجتمع، وبالإنسان من حيث هو، وصلته بالكون كله، تسمو به دائمًا في مدارج الكمال، وسلم التقوى، كلما كان موصولاً بربه في عبادته ومراقبته، لا ينفك في كل أحواله من عبوديته لربه ووقوفه عند حدوده، وقيامه بفرائضه، ومراعاة ما يجب عليه من حقوق للآخرين، والكف عن إيصال الأذى إليهم، وتحمله على العطاء والبذل للآخرين مما وهبه الله من علم، أو خبرة، أو رحمة، أو مال.. فهو مصدر خير وعطاء، أينما توجه حارس لدين الله، غيور على حدود الله، حافظ لحقوق خلق الله.

إن خير شاهد لخيرية هذه الأمة وقدرتها على بناء حضارة من نوع متميز وانتشال البشرية من الحضيض الذي سقطت فيه، والوهدة التي تردت فيها، ما صنعه المسلمون في ماضيهم عندما كانوا على غاية من الاستمساك بدين الله والاهتداء بهديه، فقد نشروا الرحمة بين بني الإنسان، وأقاموا العدل في أجمل صوره، وتعاملوا بسمو الأخلاق التي تجلت في مثلها العليا، وأدرك الإنسان حلاوة الحياة، وراحة النفس، وانشراح الصدر، وحفظ الكرامة، ونيل الحرية التي لم تمس في أي حق، أو عرض، أو مال، أو رأي، أو غيرها، في ظل دين الله والحكم بشرع الله.

إنها العقيدة التي تصون صاحبها من الطغيان عندما يصبح صاحب ثراء، وتحفظه من الوقوع في البغي حين يتمكن من تصنيع آلات الدمار، وتحميه من السقوط في إنكار الذات الإلهية، والميل إلى الإلحاد، والتنكر لنعم الله، إذا مكنه الله سبحانه من معرفة أسرار الكون، واستخراج كنوزه، ولا يتحول إلى وحش مفترس لكل ما حوله إذا صار صاحب نفوذ يبسط سلطانه على كل ما حوله، بل يزداد في كل هذه الأحوال

خضوعًا لله، واستسلامًا له، وذلاً بين يديه، واعترافًا بفضله، وإدراكًا لحقه من الحمد والشكر وكمال العبودية، ورحمة بعباده.

هذه الأسباب وغيرها هي التي تمنح الأمة المسلمة الحق في حمل لواء الحضارة من جديد، وتجعلها وحدها المؤهلة لإنقاذ البشرية مما وصلت إليه، لأن ما بيدها من الخير هو الذي يمكن أن يخرج البشرية من الحيرة والاضطراب والقلق والتيه التي تعيشها.

وعلى الأمة المسلمة ينطبق قوله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١)، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا﴾ (البقرة: ١٤٣).

إن الأمة الإسلامية اليوم ليست في حاجة إلى شيء بعد هذا الركود الذي أصابها والنوم العميق الذي استحكم بها، إلا إلى قيادة صادقة مؤمنة، راسخة العقيدة، قوية الإيمان بنصر الله وتأييده، وبالقوة الكامنة في الأمة المسلمة، تأخذ بأسباب النصر التي أرشد الله عز وجل إليها في كتابه الكريم، سواء منها بأسباب المادية أو المعنوية، وتنبذ كل صور الجاهلية البعيدة عن منهج الله، والتي ما أغنت عن الأمة الإسلامية ردحًا من الزمان شيئًا، والتي حاولت من خلالها في عبث ولهو أن تستعيد فلسطين، وتزيح عن نفسها آثار الذل والمهانة والهزيمة والعار التي لحقتها، دون جدوى، لأنها خرجت عن المنهج الذي سار عليه أسلافها في إحياء معالم الدين، وصد هجمات أعدائه، والانتصار للحق والعدل.

وما يزال المسلمون يخرجون من محنة إلى محنة أشد منها، ومن انتكاسة إلى أخرى أقبح منها، ومن هزيمة إلى أنكى منها.. كل ذلك لأنها لم تمض في الطريق

الصحيح، ولم تستلهم أساليب ووسائل النصر من وحي ربها وهدي نبيها ﷺ.

لقد فرطت الأمة تفريطًا بالغاً، يوم أن أهملت جانب الإعداد الذي أمرها به ربها سبحانه وتعالى في كتابه، عندما أصبح همُّ بعض الحكام ضمان الاستمرار في الحكم والسيطرة على العقول والنفوس، والمبالغة في التسلط على العباد والبلاد، وعدم إعطاء أي فرد الحق في محاسبة المسؤولين على تصرفاتهم، مما جر البلاء والدمار على كل شيء، وفرضت الطاعة العمياء على الإنسان في الخير والشر، والطاعة والمعصية، والحق والباطل.. إن أحداث التاريخ والتجارب والدروس التي مرت بالأمة في الفترة القريبة من حياتها، أو صلتها إلى مرحلة اليقين أن: خصومها وأعداءها، الذين كانوا يمنون أتباعهم وأولياءهم الأماني الكاذبة الشيطانية، ما كانوا إلا مخادعين لهم، فقد كشروا اليوم عن أنيابهم، وأظهروا مكامن حقدهم وغيظهم، وبرزوا على حقيقتهم، وهذا كله كان يكفي في التنبيه عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة: ٢١٧)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨).

وهذا الإدراك للمخادع، كفيل بأن يحمل من عنده مُسكة عقل من المخدوعين على تغيير تفكيرهم وتعاملهم مع أعدائهم، ولعلها تورث يقظة وانتفاضة.

المعين الذي لا ينضب:

وفي كل فترة من فترات الضعف والسقوط والانهيار في حياة المسلمين، يقيض

الله سبحانه من يستنهض الهمم، ويستثير الحمية، ويشعل العواطف، ويلهب الحماس، ويدعو إلى العودة إلى دين الله، ويستنجد بالمسلمين للنهوض بواجبهم نحو حماية الدين والغيرة عليه، والذود عن الأعراض والدماء، والدفاع عن الأرض المسلوبة، والوقوف في وجه المغتصب الغازي، فتعود الكوامن الخيرة الدفينة في النفوس إلى الحياة من جديد، ويهب المسلمون بعد تذكر ماضيهم المشرق ومجدهم المسلوب، وتاريخهم الناصع بالمواقف الحميدة، فيستعيدون ماضيهم بثقة وعزيمة صادقة.. عندما توجد القيادة الصادقة مع ربها.. المخلصة لدينها، الواثقة بوعد الله سبحانه، القادرة على جمع كلمة المسلمين، المترفعة عن حطام الدنيا وسفاسفها، الساعية إلى الغايات العالية النبيلة، التي لا ترى لنفسها غاية سوى نيل مرضاة الله تعالى، والموت في سبيل إعلاء كلمته، طلبًا للدرجات العلى من الجنة.

وما قيمة الحياة التي يرى فيها المسلم الأشلاء تتمزق، والدماء تنزف، والمساجد تهدم، والإسلام يتعرض لكل نقيصة، والمسلمين يمتهنون ويستضعفون في كل مكان! كيف تطيب الحياة في مثل هذه الحال لمن في قلبه مثقال ذرة من إيمان! إنه في مثل هذه الحال تكون الغلبة لصالح الإسلام والمسلمين، وتأتي عناية الله ورعايته وحمايته ونصره لهم عندما يصدقون معه.. وهذا هو الواجب المرتقب بعد الحال التي نشاهدها، والذي لا يمكن أن يقوم به المسلمون إلا إذا أخذوا أنفسهم بالعزائم وداسوا تحت أقدامهم حب الدنيا، والحرص عليها، والرغبة في رغد العيش، وصرفوا أنظارهم عما حولهم من سعة الحياة، ووفرة المال والجاه، وحتى يكون الموت عندهم أحب إليهم من الحياة عند عدوهم، وحتى يكفوا عن الكلام الذي أكثروا منه، وامتلأت به صفحاتهم ومؤتمراتهم، وندواتهم، وكتبهم، وإعلامهم، ويحولوا كل ذلك إلى عمل دؤوب مصحوب بالصمت والجد، والإخلاص، ونكران الذات، وتحديد الأهداف،

والغايات السامية النبيلة، وتجديد ما بعث من أجله رسول الله ﷺ: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

إنه على الرغم من العوامل العاتية التي أصابت أمة الإسلام، إلا أن عندها من الخصائص التي لا تتوفر عند غيرها، ما يجعلها أهلاً لاستعادة مجدها وحضارتها، وإمامتها للعالم، ووصايتها على البشرية إذا ما وجدت فيها القيادة الربانية.. ومن أعظم ما يؤهلها لذلك: ما تعيشه الدول المتمدينة اليوم من خواء في الجانب الإيماني، الذي صارت بفقده تائهة حائرة، تذوق ألوان الشقاء.. فالغرب الذي بلغ ما لم تبلغه حضارة في الرقي المادي، يعيش اليوم أعتى الجاهليات التي لا تعرف سوى النفع المادي، ولا تبحث إلا عن لذة النفس ومتعتها، ولا تفكر إلا في إشباع الغرائز والشهوات.. وأصبح الدين لا وجود له في شعور الفرد، ولا في تفكيره، ولا مكان له في حياته، وهذا لا شك مما يحملها على البحث عن المخرج من هذا الوضع الأليم، ومن الشقاء المحيط بها، ولن تجد العلاج إلا في دين الله الحق.. عندما يوجد له حملة صادقون، ودعاة مخلصون.. وقادة ربانيون، يحملون في نفوسهم هم إنقاذ البشرية من التخبط الذي تعانيه، ويقومون بدورهم الحضاري المرتقب.

إن العالم اليوم -الذي وصل في الاختراعات والابتكارات والصناعات المتنوعة وألوان الرقي، واستخراج خيرات الأرض، ومعرفة أسرار الكون، والصور المتنوعة من الرفاه والسعة في العيش- يعيش في غابة من القلق والاضطراب، والأمراض النفسية، مما يحمل كثيراً منهم على التخلص من الحياة عن طريق الانتحار وغيره، وتنتشر العداوات الطاغية على حياتهم، والتنافس المدمر، والتسابق في التفنن في صناعة آلات الحرب والدمار التي ما رأيناها يوماً ما، تحمي عرضاً أو تصون حقاً.

وسبب كل ذلك أن كل ما تقدم من الإبداع المادي، والتفنن في الصناعات وآلات

الحرب، لما كانت العقول التي وصلت إليه، واخترعته، ملوثة بالكفر والإلحاد، ونكران نعمة الله وجحودها، مبتورة الصلة بوحي الله، لا تلوي على شيء سوى المصلحة الذاتية، والأنانية والأثرة، حتى أخذت تتسلط وتدمر وتطغى وتفسد، لم يبق في نفسها أثر لرحمة أو رأفة أو رقة.

وهذا من أعظم الأدلة على أن سعادة الإنسانية لا تكمن في كثرة المال، ولا الصناعات المتعددة، ولا الابتكارات المتجددة، ولا الجاه ولا السلطان، إذا لم تكن محكومة بالإيمان، وإذا لم يكن هناك اعتصام بحبل الله واستمساك بدينه واهتداء بهديه.

فالمسلمون يوم أن حكموا العالم -ومتاع الحياة الدنيا زهيد عندهم- كانت قلوبهم عامرة بالإيمان، موصولة بالله عز وجل، تغمرهم السعادة.. ويملأ قلوبهم حب العدل، والرحمة والإنصاف والإيثار.. يكرهون كل مظهر من مظاهر الجور والظلم والعسف، فأمن تحت ظل حكمهم المسلم والذمي، والقوي والضعيف، والقريب والبعيد، وذاقوا طعم السعادة.

ومعنى هذا كله، أنه لا منقذ للعالم من التعاسة التي خيمت على قلوبهم وأجوائهم ومجتمعاتهم وعلاقاتهم، ولن يجدوا لها علاجًا فيما بين أيديهم مما توصلوا إليه، ولن يكون العلاج الذي يمنح السعادة، والرضا وسكون النفس والأمن، إلا في دين الله عز وجل، الذي أكرم الله به من أكرم من عباده، والذين يُنتظر منهم أن يقوموا بواجبهم من جديد في إنقاذ البشرية.. لأن دينهم هو دين الرحمة الذي لا يرضى بالظلم من أحد على أحد.. كل هذا بعد أن انكشف عوار الحضارة التي قامت على النظرة المادية البحتة، التي أهملت جانب العبادة والأخلاق.

الدور الحضاري المرتقب للأمة المسلمة

إن الذي يريد إصلاح مثل هذه الأوضاع التي آلت إليها أحوال المسلمين وغير المسلمين، لا ينبغي أن يتعامل معها بردود الفعل غير المتأنية، ولا المدروسة، المتسمة بالطيش والغضب عن كل شيء من حوله.. وإنما الواجب أن تؤخذ الأمور بشيء من الدراسة الواعية، والبصيرة النافذة، والعقل الهادئ، واستقصاء الأسباب والنتائج، وسلوك المسلك الذي يصلح ولا يفسد، ويوصل إلى الغاية المحمودة، فلا يعالج الفساد بفساد أقبح منه.

وهذا هو الذي يجب أن يبدأ به الدعاة المصلحون، والعلماء الربانيون اليوم، لاستدراك ما فات، وإصلاح ما عطب، ورأب ما صدع، لإعادة الثقة بالدين من جديد إلى نفوس الناس، وردهم إلى جادة الصواب، وإغلاق منافذ الشر، والوقوف والتصدي لكل الدعوات الهدامة المفسدة، المشككة في دين الله تعالى، وإبراز محاسن الإسلام وكنوزه وعظمته، وشد الناس إليه، وغرس المحبة له، والتفاني في القيام به وحمايته، والدفاع عنه حتى يعود للمسلمين مكانتهم بين الأمم، وحتى يعيدوا لتاريخهم المشرق الناصع دوره ورونقه وبريقه، ويقشعوا عنه كل السحب التي طرأت عليه فلبدت أجواءه.

إن من أعظم مقومات المسلمين التي لاينضب معينها، ما جعل الله عز وجل في الشريعة التي أكرمهم بها من خصائص تميزت بها عن غيرها، وهي خصائص لا تفارق الشريعة، ولا تنفك عنها.. وتلك هي:

١- **الربانية**.. فليست من وضع البشر القاصر، العاجز، الجاهل، المحكوم بنزعات وعواطف وميول.. قد تعصف بفكره عن الجاده، وتميل به إلى الأهواء، وتحمله على أن ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس.. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

٢- **العالمية**.. فليست محصورة على طائفة أو قوم أو جيل معين.. قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١).. وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود**»[1].

٣- **الشمول**.. فما من قضية في شأن الدين والدنيا، إلا استوعبها دين الله عز وجل، إما بنصوص قاطعة في الدلالة، أو بقواعد وأصول وأدلة عامة تندرج تحتها قضايا كثيرة.. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨).. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل:٨٩).. وفي الأثر عن سلمان رضي الله عنه قال: قيل له: «قد علمكم نبيكم كل شيء، حتى الخراءة».. قال: فقال: «أجل...»[2].

٤- **اليسر**.. فهو الدين الذي جاء برفع المشقة عن الإنسان ورفع الحرج، وقامت كل أحكامه على اليسر وعدم التكليف بما لا يطاق، قال الله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (المائدة:٦).. ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج:٧٨). ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦). ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥).

٥- **الخلود**.. فقد تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الدين إلى يوم الدين، مهما تكالب عليه الأعداء، وهبت عليه العواصف العاتية.. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ

(١) متفق عليه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن.

نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف: ٨-٩).. وقال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»[١]، وفي رواية أخرى بلفظ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس..**»[٢]، كما ورد بروايات أخرى.

ومن خصائص هذا الدين: شدة ارتباط المسلم بكتاب الله سبحانه، وملازمته لتلاوته، وتدبره لآياته التي تدعو إلى إعمال العقل.. وملازمة الفكر والنظر والتأمل، سواء في آيات الله المتلوة، أو آياته في النفس البشرية، أو في الكون الفسيح، وإلى حسن الانتفاع بالسمع والبصر وسائر الحواس التي تميز بها الإنسان عن الحيوان، وتنعى على الذين عطلوا هذه الآلات، فلم ينتفعوا بها حتى وصفهم الله سبحانه بأنهم شر الدواب عند الله، وأنهم ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾.. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان بالعقل، واستخلفه في الأرض، وشرفه على سائر المخلوقات، فإن أولى الناس بمعرفة هذه النعم الجليلة، وتقديرها حق قدرها، وإنزالها منزلتها هو المسلم، الذي لا يخرج عن منهج الله، لا يستعلي على ما ألزمه الله به من الخضوع له سبحانه، وتسخير ما حوله، طبقًا لإرادته سبحانه.

أما حث الإسلام على العلم، فما رأينا الإسلام كرم أحداً كما كرم أهل العلم والمعرفة بالله عز وجل، الذين رفع الله درجاتهم، وحصر الخشية منه فيهم، وألزم الناس

(١) البخاري في الاعتصام ١٤٩/٨، ومسلم رقم ١٩٢١، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، «١٠٣٧».

بالرجوع إليهم وسؤالهم.. كما رغب الإسلام في نصوص كثيرة في طلب العلم، ورتب على ذلك ثوابًا عظيمًا.

ولما كان الله عز وجل قد بث في النفس البشرية، وفي الكون آيات تجل عن الحصر، وكان التأمل والتدبر والتفكر فيها مما يوصل إلى الإيمان به سبحانه، ويثبته ويقويه في نفس المؤمن، فإن الله دعا عباده في كتابه العزيز إلى النظر في ملكوته، وعرض كثيراً من آياته للدلالة على عظمته، وكمال قدرته وبديع صنعه سبحانه.

من مقومات الأمة الإسلامية

ومن مقومات الأمة الإسلامية:

١- أنه إذا وجد دعاة صادقون يقومون باستجاشة عاطفة المسلم، وإيقاظ عقله عند الغفلة والانحراف، بما يحمله على الاستجابة والعودة إلى الجادة، فإنه سرعان ما يستجيب ولو بنسبة معينة، كما تجد عند المسلم المقصر في عبادته، والمرتكب لبعض الآثام غيرة على الدين عندما تنتهك حرماته، فتجده لا يتوانى عن المسارعة إلى الدفاع عنه إذا ما هيجت عواطفه، وشد إلى دينه، وذكر بربه سبحانه.

٢- أن الإسلام أزال فوارق الجنس واللون واللغة وغيرها من الأمور التي تؤدي إلى التمزق والاختلاف، والتناحر والتفاخر والتعالي.. فجاء الإسلام لتوحيد البشرية في ظل عقيدة واحدة لا قيمة عندها لشيء غير التقوى، التي تحمل المرء على كمال العبادة، وحسن السلوك، واستقامة الخلق، وإقامة العدل، والكف عن الأذى، وتمقت كل سلوك منحرف عن منهج الهدى والحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات: ١٣)، مما أدى إلى التلاحم والتآخي والمودة والتعاون على البر والتقوى، ونبذ العصبيات الجاهلية، وأسباب الفرقة.

وهذه الميزة، حملت أفواجًا من الناس على المسارعة إلى اعتناق هذا الدين، فارة بنفسها من قهر وتسلط وإذلال من يحكم البشرية بغير دين الله، مستندين إلى تشريعات بشرية جعلت الناس طبقات متفاوته، وجعلت من بعض الطبقات عبيدًا أو قطيعًا من الحيوان الممتهن المسخر لشهوات الحكام والطبقات العليا في المجتمع على زعمها.

وهذه الميزة أيضًا هي التي أقضت مضاجع الأعداء، فسلكوا سبلاً شيطانية كثيرة لقصد تفتيت بنية المجتمع المسلم، وإضعافه، بل ظهرت دعوات قامت بإكراه الشعوب على اعتناق المبادئ الوضعية البشرية مثل الشيوعية، التي قامت على الدماء والأشلاء فبذلوا جهودًا كبيرة كثيرة في سبيل تشويه هذا الدين، وإخراجه في غير صورته الحقيقية، وقدموه لمن يجهلونه على أنه دين تخلف وهمجية وعنف، كل ذلك خوفًا من أن يزحف الإسلام على ديارهم، أو يزحف عامتهم إلى الإسلام، لما يعرفون عن الإسلام من تأثيره الذاتي على فطرة الإنسان، فهم دائمًا يقولون إنه العدو المرتقب، الذي لا يخافون غيره، ولا يرهبون سواه.

ولذلك نجدهم يستخدمون الأساليب التي من شأنها أن تدمر الإنسان وتنهي مقوماته الفطرية حتى لا يبقى فيه عامل من عوامل قبول الحق والخير والهدى، بل يصبح حيوانًا يلهث وراء الشهوات وإشباع الغرائز.

٣- أن الإسلام -لما كان دين الحق لا يخشى مما عند غيره من معارف وثقافة- فإنه غير منكفئ على نفسه، رافض ما عند (الغير)، منغلق في تفكيره، وثقافته، بل يقبل الاستفادة مما عند غيره من الخير إذا كان متوافقًا مع عقيدته وهديه وأخلاقه وقيمه، فهو يحيط هديه بسياج منيع من القيم والآداب والأخلاق والقواعد والأصول.. وفي إطار ذلك كله، يقبل أو يرد ما عند غيره، ويفتح للعقل آفاقًا واسعة من العلوم والمعارف.

٤- أن دينها اتصف بالوسطية في كل شيء، فلا إفراط فيه ولا تفريط.. ومن

وسطيته: عدم الغلو في جانب العبادة، أو جانب المادة، فهو يعطي الجانب العبادي حقه الذي يصل إلى مرحلة الكمال، ويعطي الجانب المادي حقه الذي يصل إلى مرحلة إشباع الرغبة وقضاء الوطر دون إسراف ولا تقتير: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (الحديد: ٢١)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ولا يقبل الغلو في أيهما، قال تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ ﴾ (الأنفال: ٦٦)، ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)، ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١)، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ (القصص: ٧٧).

وهذه السمة تمنح الأمة التوازن في حياتها، وتحفظها من الشطط في الجانب المادي الذي يحول أفرادها إلى حيوانات، وفي الجانب العبادي الذي يعطل عليها حياتها ويصرفها إلى الرهبانية.

ومما جاء في السنة، إنكار رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون رضي الله عنه رغبته في التبتل: أنه قال له: «**يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا أفما لك فيَّ أسوة..؟**»[1]، كذا في رواية عائشة رضي الله عنها، وفي الحديث أنه قال له: «**يا عثمان إني لم أومر بالرهبانية، أرغبت عن سنتي**»[2].

(١) أخرجه أحمد، ٦/٢٢٦.

(٢) وأخرجه الدارمي، ٢/١٣٣، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وهذه القواعد التي أرساها الإسلام في منهج الحياة للمسلم، حفظت المسلمين من أن تتخطفهم الاتجاهات المغالية في أي مجال، لأن الإسلام أشبع رغبة المسلم في كل الجوانب دون أن يطغى جانب على آخر، مما أحدث التوازن والاعتدال والتكامل في حياة المسلم، ولذلك فإن الصوفية التي غالت في الجانب العبادي والعزوف عن الدنيا والرغبة عن العلم بكل أشكاله، واكتفت بأنواع من الذكر والرقص والسماع إلى غير ذلك من الصور التي أساءت إلى الإسلام، أوجدت شرخًا في حياة المسلمين، وصورت الإسلام على أنه دين الخمول والركود وتبديد الطاقات في غير مكانها أو إخمادها، في الوقت الذي يتسابق أعداء الإسلام في مجال الاختراع والإبداع واكتشاف أسرار الكون، مما جعل المسلمين يعيشون في كل حياتهم عالة على أعدائهم، عزلاً عن السلاح إلى جانب عوامل أخرى أشرنا إليها سابقًا، إلا أنه من رحمة الله سبحانه بهذه الأمة أن هذه النظرة القاصرة ظلت محصورة في فئات من المسلمين، وإلا فإن الجناية كانت أعظم.

وجناية أخرى وشرخ آخر في حياة المسلمين أوجده الذين استجابوا للإغراء والشهوات فبالغوا في هذا الجانب، وخرجوا عن حدود الشرع، حتى صارت العبادة عندهم أمرًا ثانويًا، لا مجال له في اهتماماتهم، مما أدى إلى الشطط في الجانب الآخر.. والكل بعيد عن وسطية الإسلام المتكاملة المتوازنة.

وعلى ما أصاب المسلمين من عوامل هدم وفدت عليهم من هنا وهناك، فإن المسلمين ما تزال عندهم قدرة على العودة الصادقة إلى دين الله، إذا ما وجد من يوقظ فيهم الحس الإيماني، ويثير فيهم النخوة على دينهم وأعراضهم وثرواتهم ومقدراتهم ودمائهم...

كما أن العوامل التي حفظت عليهم هويتهم الشخصية تشكل قوة كامنة،

وبركانًا مطمورًا يمكن أن يتفجر في أي وقت، إذا ما جد أيضًا من يحسن استغلاله في الدفاع عن دين الله سبحانه، والشواهد في حياة المسلمين كثيرة، فمن تذكر أحوال المسلمين أيام التتار، ثم التحول المفاجئ في حياة المسلمين يجد دليلاً ناصعًا على ذلك.

وكذلك استنهاض صلاح الدين الأيوبي لهمم المسلمين وصدق دعوتهم إلى العودة إلى دين الله عز وجل، ثم خوض المعارك بهم التي آلت إلى عز ونصر وتمكين للمؤمنين، شاهد آخر.

وكل هذا يعني أن المسلمين اليوم على ما هم عليه من أحوال يدمي لها القلب، لو يجدون دعوة صادقة، وقيادة رشيدة، وقدوة صالحة، لاستعادوا أمجاد ماضيهم، لا بالكلام والتغني به فحسب، بل بالعودة الحميدة إلى الدين، والبذل لحمايته، والقيام بالمهام المناطة بهم كأمة أراد الله سبحانه لها أن تكون رائدة هادية مصلحة مجاهدة عادلة، تسعد بمنهجها وسيرتها وحضارتها الإنسانية كلها، وترفع عن كاهل الإنسان الشقاء والدمار والقلق والاضطراب والظلم والعسف والجور والتسلط، الذي حل به بسبب إقصاء الإسلام عن قيادة البشرية، ووضع الزمام بأيد تجردت عن كل مظاهر الرحمة والهداية، وقطعت صلتها بالوحي الإلهي، وصارت أقبح من الوحوش الضارية، سلبت الإنسان أبسط حقوق الإنسانية، وحولت حياته إلى جحيم لا يطاق.

كل ذلك بسبب غياب الهدي الرباني..

كما أن العدو ما برح يسير في طريقه، وجبلته التي طبع عليها، والتي أخبر الله عز وجل عنها من شدة عداوته للحق وأهله، واستمراره في حربه لهما، ومحاولته الدؤوبة في إخراج المؤمنين من دينهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة:٢١٧).

إن الفتنة التي يحرص أعداؤنا على إشاعتها بين المسلمين أشد وأنكى وأفتك بحياة الأمة من التكاليف التي يمكن أن يبذلونها لحماية دينهم وأنفسهم ومصالحهم وصد الفتنة والشر، كما أخبر الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:١٩١).. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:٢١٧)، وقال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال:٣٩).

إن النظام العالمي الجديد، الذي يسعى وراء الهيمنة وإحكام القبضة التي لا تترك أحداً من البشر، إلا تسلطت عليه، ما رأى المسلمون بعد ظهوره سوى الضربات الموجعة المتتالية عليهم في كل مكان، وبصور مختلفة، وأساليب شتى، إلى جانب ما يواجهونه من الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.

فهل آن الأوان لصدق العودة إلى دين الله، والأخذ بأسباب النصر، وتقديم التضحيات؟! إنه الأمر الذي نرجو أن يتحقق بعد الدروس والعبر المتتالية.

• وخلاصة القول:

أن الله عز وجل قد تكفل بحفظ الدين، ونصر أوليائه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١).. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...﴾ (النور:٥٥)..

والنصر والتمكين الذي تحقق لهذه الأمة في فترات مضت، سوف لا يتأخر عند وجود أسبابه وموجباته في أي مكان وفي أي زمان.

وإذا كان الله عز وجل قد وعد أولياءه بالنصر -﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾- فقد توعد أعداءه بالأخذ والنكال والهزيمة والعذاب في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢). ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ (الطلاق:٨-٩).. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨).

وربما كان شدة الطغيان والعناد والاستكبار والإفساد في الأرض من العدو، من أسباب نصر المؤمنين.. ليبتلي الله عز وجل من يخلف المعذبين المنهزمين، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٢٩). قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأعراف:١٠٠)، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٣-١٤).

إلا أنه لا ينبغي تجاوز سنن الله عز وجل في النصر والهزيمة، فنصر الله عز وجل لأوليائه، لا يمكن أن يتحقق للقاعدين عن نصرة دين الله، الذين لا يعرفون سوى الأماني والدعاوى التي لا وجود لها في الواقع، ذلك أن الله عز وجل قد أبان في كتابه السنن التي بها يهب النصر لعباده إذا ما قاموا بها..

وأهل التوحيد الصادقون، الذين على أعناقهم تقوم المسؤولية في نصرة دين الله تعالى، يتعين عليهم أن يحققوا صدق دعواهم، ويقيموا عليها الأدلة والبراهين، وأن لا يأخذهم اليأس والقنوط من نصرة الله ورحمته، وأن لا يظنوا أن النصر يأتي للمؤمنين بمجرد انتسابهم إلى دين الله، فذلك خروج عن منهج الله وسننه في النصر والهزيمة، وعليهم أن يتذكروا قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ (محمد:٧)، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (الحج:٤٠)، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد:٤)، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧).

إضافة إلى أن حجم الصراع القائم اليوم بين الحق والباطل يحتاج إلى تكاليف باهظة، مما يوجب إعادة النظر فيما تحتاجه المرحلة القادمة من عدة في: الإيمان الصادق والعتاد المكافئ المقدور عليه، والداخل تحت الطاقة التي لا يكلف الله العباد بغيرها..

فإن الأمراض الفتاكة التي انتشرت اليوم بين المسلمين، وعدم الأخذ بالسنة الإلهية في الإعداد المادي، لا تمت إلى عوامل النصر بصلة، بل هي من عوامل الهزيمة.

هذا.. ونسأل الله تعالى أن يأخذ بنواصي عباده المؤمنين إلى أهدى السبل وأقومها، حتى يتحقق لهم وعد الله.. إنه ولي ذلك والقادر عليه..

سائلاً الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله عملاً خالصًا لوجهه.. متقبلاً، إنه حميد مجيد.

والحمد لله رب العالمين.

رفد عقائدي وثقافي لحضارة العصر

الدكتور عدنان محمد زرزور*

نحن لا نؤمن بصدام الحضارات ولكن بحوار الثقافات وتعارف الشعوب.. وننظر للعالم على أنه منتدى للثقافات.. ونرى أن الحضارة الغربية بوصفها حضارة هيمنة لن يقف في وجهها سوى حضارة إنسانية تقوم على الحق وليس على القوة.. ولم يعرف التاريخ حضارة قامت على روح المساواة سوى الحضارة الإسلامية.

نكتب الآن بين يدي قرن ميلادي جديد سوف يتشكل فيه عالم الغد الذي تشهده أجيال وأجيال. وقد جرت عادتنا -في العالم الإسلامي على وجه العموم- بالتأريخ بالميلاد من وقت ليس ببعيد. أو جرت هذه العادة بتقديم التأريخ به على التأريخ بالهجرة النبوية! علماً بأننا إنما دخلنا «التاريخ» بهذه الهجرة يوم أصبحنا (أمة) وصار لنا (دولة)، أو يوم صار النظام الاجتماعي والسياسي في المدينة المنورة بيد المسلمين، بعد أن كان هذا النظام في مكة بيد قريش، أو تقوده قريش. وربما كانت عادتنا الجديدة إحدى الدلالات أو المؤشرات على خروجنا من نطاق التاريخ.. هذا الخروج الذي يمكن تفسيره هنا بفقدان الإرادة، أو بتواري ما يمكن تسميته بالسياسة الإسلامية في توجيه الأحداث و(صنع التاريخ)!

وغني عن البيان أن دخولنا في هذه الحالة كان في أعقاب انحلال الرابطة العثمانية

* باحث.. وأكاديمي.. (سوريا).

-بغض النظر في هذا السياق عن أية أحداث وملابسات- لأننا في الوقت الذي خسرنا فيه الرابطة الإسلامية لم نربح الرابطة القومية؛ فقد رُسمت خارطتنا السياسية في هذا القرن بالأيدي الاستعمارية كما هو معلوم (في معاهدات: سايكس-بيكو، وتركمان جاي وكلستان وغيرها) حتى ليمكن وصف هذه الخارطة -التي ما نزال نكرسها بين ظهرانينا حتى اليوم- بالخارطة الاستعمارية، مع الإشارة إلى أن الدعوة القومية في بواكيرها الأولى كانت ذات مضمون إسلامي، لأنها جاءت في مطلع هذا القرن رداً على سياسة التتريك، التي حاول فرضها نفر من ملاحدة الأتراك. وما تزال تلك الأيدي الاستعمارية ترسم السياسات وتتحكم في الأحداث. وهكذا خسرنا الجغرافيا وخرجنا من نطاق التاريخ.

ولا أعتقد أن في وسعنا أن نرفع عن أنفسنا وطأة الصهيونية والاستعمار والدوران في فلك الاستكبار العالمي بدون العودة إلى كيان واحد جامع يعفّي على آثار تلك الخارطة.. بل إن مثل هذاالكيان العربي الواحد والإسلامي الجامع شرط موضوعي لا لاستيعاب الحضارة القائمة بإيقاعها الخاطف في التقنية والمعلومات والكشف والاختراع، فحسب؛ بل هو شرط كذلك -وإلى حدٍّ كبير- للمشاركة والمزاحمة من جهة، وللتقدم نحو حلِّ ما باتت هذه الحضارة تحمله من هموم وما أفرزته من مشكلات من جهة أخرى.

إن في وسع الثقافة الإسلامية وقيم الإسلام الحضارية أن تتقدم بحلولها لمشكلات المخدرات والجريمة والانتحار والقلق ومشكلات المرأة والأسرة والأمراض الناجمة عن الانحلال... ولسائر المشكلات المتصلة بالعقيدة والثقافة والجانب السلوكي والقيم ونظام الحياة.

ومن المفارقات العجيبة -في سياق هذا الحديث عن الجغرافيا والتاريخ- أن الكيان الصهيوني نجح في الربط بين هذه العناصر الثلاثة: الدين؛ التاريخ؛ الجغرافيا، على

الرغم من المغالطة والتعسف الشديدين، في حين أننا لم ننجح في الربط بين هذه العناصر حتى الآن، على الرغم من أن هذا الربط عندنا طبيعي وواقع، ولا يمكن عده مجرد رد فعل على ما قامت به الحركة الصهيونية في التاريخ الحديث. ولا مجال عندنا للارتياب في أن تكريس الجغرافيا الاستعمارية عبر قوى التبعية والتجزئة سوف يحول دون عودة التاريخ العربي الإسلامي إلى الظهور مرة أخرى؛ خصوصاً ونحن نعيش عصر التكتلات الكبرى والدول العملاقة؛ وثورة المعلومات؛ ونندلف إلى عصر العولمة و« منطق » السوق!

بل قد يدخل العالم الإسلامي إلى هذا العصر بين سائر الكتل الدينية الثقافية الحضارية في العالم -وتتقارب عندنا وتكاد تتطابق حدود خارطات الدين والثقافة والحضارة- عصر الحروب الحضارية، كما « بشرنا » بذلك بعض المنظرين، على رأسهم الكاتب الأمريكي صمويل هينتيغتون على جه الخصوص. ويعود السبب في هذه البشارة(!) فيما نقدر إلى أن شعور العودة إلى الذات أو إعادة اكتشافها في البلاد العربية والإسلامية في أواخر القرن الحالي هو الذي سوف نعبر به إلى القرن القادم، متسلحين في مقاومة العولمة أو عدم قبولنا بالهيمنة بالعامل الثقافي الديني في المقام الأول.

لقد لاحظ هذا « هينتيغتون » فيما يبدو حين خص الحضارة الإسلامية بالنصيب الأوفر من هذه الحروب الحضارية، أو ما أسماه صدام الحضارات؛ نظراً لمفارقة هذا العامل في الحضارة العربية الإسلامية عنه في الحضارة الأوربية المسيحية (الكاثوليكية على وجه التحديد من وجهة نظره) تمام المفارقة، أوعلى نحو لا يقبل الهيمنة أو الإلحاق أو الهضم أو الاستيعاب. والواقع أن الحضارة الغربية بوصفها حضارة هيمنة واستكبار -وبخاصة ذراعها الأمريكية أو في طبعتها الأمريكية- لن يقف في وجهها سوى حضارة إنسانية تقوم على (الحق) أو على الانضمام والمشاركة، وليس على (القوة) أو الضم والإلحاق! ولا يوجد في العالم اليوم، ولم يعرف التاريخ كذلك

حضارة تحمل هذه السمات، أو قامت عقائدها ومبادئها ودارت عجلتها على روح المساواة بين الأفراد والأمم والشعوب -حتى اشتركت شعوب وأعراق متعددة في صنعها- سوى الحضارة العربية الإسلامية.

ولا ندع هذه الملاحظة قبل أن نضيف إلى هذا العامل وصفًا آخر -في سياق الحديث عن الشعوب والأعراق- فنقول: العامل «الإثني» الثقافي الديني، إشارة إلى دور القوميات في العالم الإسلامي في هذه المقاومة. وغني عن البيان أن في وسع الشعوب قاطبة أن تعتمد في هذه المقاومة على جميع خصائصها الوطنية والقومية والدينية. وليست الخصائص القومية للعرب وسائر الشعوب الإسلامية موضع خلاف. ومعلوم أن انتشار الإسلام في العالم لم يكن في العالم الجديد أو في بقاع ليس لها تاريخ في العالم القديم.. ولكنه انتشر في المنطقة التي شهدت أعرق الأمم والشعوب، وأقدم المدنيات والحضارات.

فإذا أضفنا في هذا السياق ما شهدته المسيرة الفكرية لهذا القرن، وما أكدته وانتهت إليه في نهاية المطاف من خصوصية العلاقة بين العروبة والإسلام، وأنها علاقة موضوعية وليست تاريخية -فقط- كما ظن بعضنا في بعض المراحل(!) أدركنا أننا سوف نعبر إلى القرن القادم وقد انتهت المعارك المصطنعة بين القومية والدين في العالم الإسلامي، وأدركنا كذلك أن في وسعنا أن نقاوم العولمة ونرفض الهيمنة بكل ما نملكه من اللغة والتاريخ والثقافة والتراث.

ولكن هل في هذا كله ما يدل على أن المواجهة هي قدرنا الجديد؟ أو القديم الجديد؟ وهل نحن قادرين على ذلك في ظل غياب تعاون اقتصادي حقيقي، وحد أدنى من التنسيق السياسي في هذه المرحلة على الأقل من مراحل المواجهة والمقاومة؟ وقد يُخشىٰ من أن يوظف الاختراق السياسي -والضعف الاقتصادي- لمد أجل

الاختراق الفكري أو التشويه الثقافي الذي لحق بنا في السنوات العجاف من هذا القرن، قبل أن نبدأ رحلة العودة إلى الذات في ربعه الأخير(!) وبحيث يتم تطويق هذه العودة والاحتيال عليها بمسميات وشعارات وممارسات كثيرة كالأصولية في المقام الأول، أو على سبيل المثال، بعد أن شهد القرن الذي نودعه نعوتًا ومسميات أخرى كانت تطلق على الذين تبنوا في وقت مبكر هذا الخيار أو هذا الشعار، وأعني خيار الإسلام والعودة إلى الذات، مع اعتقادنا بأن الاختراق أو التشويه المذكور بات محاصراً ومعزولاً من قبل جماهير العرب والمسلمين إلى حد كبير.

إن المسألة الثقافية هي التي تهمنا في هذا السياق دون سائر المسائل الأخرى، لأنا نود الحديث عن مدى قدرة العقيدة والثقافة الإسلامية على الإسهام الحضاري، أو التقدم لحل مشكلات هذه الحضارة؛ انطلاقًا من عدم تسليمنا -أصلاً- بصدام الحضارات الذي نُبشَّر به ويراد فرضه علينا! نحن لا نؤمن بصدام الحضارات، ولكن بحوار الثقافات أو بتعارف الأمم والشعوب، كما نطق بذلك النص القرآني الخالد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ (الحجرات:١٣).

إننا ننظر إلى العالم على أنه «منتدى» للأمم والشعوب، والثقافات والحضارات. ولهذا فإننا حين نجد أنفسنا في موقع (المواجهة) المفروضة من قبل (الآخرين) نرفض أن نضع هذه المواجهة في إطار الصراع أو الصدام المحتوم.. كما نرفض أن يكون مغزاها وعاقبتها إلغاء (الآخر) أو نسخ حضارته والتعفية على ثقافته. وهما المقولتان اللتان بشر بأولاهما «هينتغتون» وبالثانية «فوكوياما» حين أعلن عن نهاية التاريخ.. أي موت جميع النظم والثقافات الفاعلة سوى النموذج الثقافي الأمريكي!

ولكننا نفهم من ذلك أننا الأمة القادرة على المنافسة وتقديم الحلول والبدائل،

أو الشراكة المقنعة في الثقافة والأخلاق ونظام القيم! ونفهم كذلك أننا أمة حين تتسق في كيان جامع فإنها تملك من الخصائص والمزايا ما يؤهلها ليس فقط للانتصار في صراعها الحضاري الممتد مع اسرائيل والمشروع الصهيوني، بل للوقوف في وجه الاستفراد الأمريكي بالحياة والأحياء؛ وبخاصة إذا كتب لنا النجاح في التنسيق مع العدوة الأخرى للبحر المتوسط، أو مع شعوب القارة الأوروبية التي تمثل الوجه (الثقافي) للحضارة الغربية، بوصف هذه الشعوب الصانع الحقيقي لهذه الحضارة، خصوصاً وأن الفجوة بين جانبي الأطلسي مرشحة للاتساع أو المزيد من الاتساع، وأن الفجوة بين جانبي المتوسط مرشحة للمزيد من التضييق، بحكم عوامل كثيرة لا مجال هنا للحديث عنها.

نحن لا نتحدث هنا عن الوراثة أوالبديل الحضاري، ولكن عن مبدأ الظهور والمزاحمة لفترة تطول أو تقصر، وعن «ثقافة» إنسانية جديرة بأن يُبَشَّر بها ويُدعىٰ إليها بوصفها ثقافة «مفصلة» على (الإنسان)، إن صح التعبير، وقادرة من ثم على حل مشكلاته على الأرض، لأننا نعتقد -في ضوء معطيات الوضع الراهن- أن أجل حضارة العصر ليس بالقصير، لا لما تتمتع به من قوة مادية جبارة، نتيجة لما حققته من سبق علمي تقني في آلة السلم وآلة الحرب على حدٍ سواء، ولكن لأنها محصلة قرون من عمل العقول والتجارب، وجهود خارقة رعتها وغذتها، وما تزال ترفدها بأسباب البقاء والنماء. بالإضافة إلى أنها حضارة تحاول دائماً أن تجدد نفسها عن طريق نقد الذات، والمراجعة والتصويب الدائمين لمناهجها وبرامجها.. بوصف هذه المناهج والبرامج من عمل العقول، وحصيلة لنظام معرفي يوصف عادة بـ«العلماني» لبيان مدى عقلانيته وإنسانيته، أو التأكيد على هاتين السمتين في مقابل الغيب والدين ومعارف الوحي.

فإذا ذكرنا مع ذلك «ديمقراطية» هذه الحضارة؛ بمعنى قيامها على الحرية،

وإشاعتها لمبدأ تكافؤ الفرص؛ أدركنا أطرافًا مهمة من أسباب قوتهاوصمودها؛ فهي قادرة على الإفادة من جميع عقول أبنائها وخبراتهم وتجاربهم، بل لعلها تعدت ذلك إلى قدرتها على «توظيف» سائر العقول والخبرات في العالم الإسلامي وسائر ما يعرف بالعالم الثالث. وبغض النظر في هذا السياق عن دورنا نحن أو دور «سياساتنا» وأوضاعنا في هجرة هذه العقول والخبرات التي أضحت «تهجيراً» على الحقيقة.. حتى إذا جاز لنا أن نصف هذه العقول بالإنسان المصنَّع (!) فإن في وسعنا أن نضيف إلى ذلك: الإشارة إلى دور خططهم و«سياساتهم» هم في مصادرة ثرواتنا من المواد الخام!

ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الحضارة دهرية، أو أن حركة التاريخ توقفت عندها أو عند بعض مشاهدها وتحولاتها! فهي ليست استثناء من سنة التداول أو التعاقب بين الحضارات! لأن القوة المادية لا تحمي حضارة من السقوط إذا اتسع نطاق الدمار النفسي والعقلي الذي يلحق بـ«إنسان» هذه الحضارة، أو إذا فشل في الحفاظ على أسس نهوض وتوازن المجتمعات وقيام الحضارات، والتي يمكن تلخيصها في هذا السياق أو التعبير عنها بالضروريات الخمس التي تحدث عنها علماء أصول الفقه في الإسلام. ولنا في سقوط النظام الماركسي الذي كانت تحميه قوة نووية جبارة، مثال وعبرة.. فهذا النظام الذي ارتاد الفضاء، عجز عن حل مشكلات الإنسان على الأرض! قبل أن تطويه صفحات التاريخ.

أما المراجعة والتصويب ونقد الذات، فإن أثر ذلك كله في بقاء الحضارة ومد أجلها أهم وآكد، بغض الناظر عن حدود هذا الأجل أو الأمد، لأن مسالة الزمان هنا نسبية وتخضع لجملة من الشروط الموضوعية المتعلقة كذلك بالشعوب الأخرى المتطلعة إلى القيام بدور حضاري مأمول أو مرتقب. ومع ذلك فإن من الملاحظ أن هذه المراجعة تجري ضمن إطار لا يمكن التسليم بصحته، من جهة، وفي نطاق

مجموعة من القيم والمفاهيم -التي أفرزها هذا الإطار- ارتقت في حياة «القوم» إلى درجة الثوابت أو المسلمات التي لا تقبل المراجعة، من جهة أخرى. وهنا يأتي عطاء الإسلام والثقافة الإسلامية، كما سنتحدث بعد قليل.

ويتمثل الإطار المذكور في طبيعة البناء الثقافي -المادي- الذي يدل على أن ارتقاء القوم في التعامل مع الطبيعة واكتشاف سننها وتسخير قوانينها، لم يصاحبه تقدم مماثل أو على المستوى نفسه في التعامل مع الإنسان؛ لا أقول على الرغم من وحدة «المنهج العلمي» في هذين التعاملين(!) ولكن أقول: بسبب وحدة هذا المنهج؛ لأن الإصرار على المنهج التجريبي في جميع أنواع العلوم والمعارف انبنى عليه إهمال البعد الروحي من جهة، وتنكب المعرفة التي جاءت من طريق الدين والوحي من جهة أخرى.

ولسنا هنا في معرض التماس الأعذار -التاريخية والموضوعية- للقوم أمام ممارسات الكنيسة ومعارفها «الدنيوية» التي كانت مفروضة عليهم، وكانت مناقضة للعقل والعلم، ولكن في معرض التأكيد على أن هذا المنهج حتى لو تمت مراجعته، وعاد «القوم» ليعقدوا مصالحة مع الدين، كما تدل مؤشرات أواخر هذا القرن، فإن ذلك لن يغير من الأمر من شيء، ما لم تجر الإفادة من الثقافات الأخرى، ومن الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص.. لأن المصالحة مع المسيحية سوف تعيد «القوم» مرة أخرى إلى محاولات الجمع -الفلسفي- بين النص والعقل، أو إلى وضع أحدهما في مقابل الآخر! وهذه الأخيرة هي نفسها المعادلة التي كانت وراء قيام العلمانية والمنهج السابق. ولهذا فإننا ننظر إلى هذه المصالحة على أنها عديمة الفائدة أو الأثر، والأرجح أن تتم في الإطار العلماني -الراسخ- نفسه، وقد سبق للكنيسة أن قبلت هذا الحل أو «تكيفت» معه في وقت سابق، وإلا كنا أمام حركة ردة أصولية دينية إلى قرون «القوم» الوسطى!!

أما أبرز القيم والمفاهيم التي أفرزها هذا النمط الثقافي أو هذا الإطار -ولا مجال هنا للاستقصاء والشرح- فهي الإفراط الشديد في مفهوم الحرية الشخصية، والتطور المزعوم في الأخلاق والفضائل، أو فكرة نسبية الأخلاق وعدم ثبات القيم، ومفهوم الكبت الذي أشاعه التربويون، والذي يمكننا عده نتيجة للإثارة وليس للضبط (الطبيعي) أو الوُجاء! إلى جانب الأهواء والغرائز التي باتت تتحكم في صناديق الانتخاب، حتى وصل الأمر إلى إباحة الإجهاض والشذوذ وعقود الزواج بين المثلين. وتؤكد هذ المفاهيم -وغيرها كثير- أن المشكلة تكمن في وضع التشريع أو قواعد التحريم بيد المجتمع، نتيجة للنظام العلماني أو لـ «علمنة» المجتمع والحياة.. من السياسة إلى الجسد! وحتى دخلت هذه الحضارة في عصر الغرائز، وهو العصر الذي يمثل آخر مرحلة من مراحل سيادة حضارة من الحضارات على مسرح التاريخ.

وتكفينا الإشارة هنا -بكلمات عابرة- إلى أبرز المشكلات التي باتت تعاني منها شعوب هذه الحضارة -وإن كان يشاركها في بعضها كثير من الشعوب الأخرى- وهي: المخدرات، والعنف، والجريمة، والأمراض الناجمة عن الجنس والانحلال (الإيدز)- وإن شئت قلت: فقدان المناعة الفردية والحصانة الاجتماعية- والتفكك الذي اجتاح الأسرة أو نظام الأسرة! و«العنف» وعدم الإحساس بالمسؤولية الذي بدأ يتفشى بين طلبة المدارس، إلى جانب الترف، والشيخوخة، وفقدان المبررات، وغلبة الحياة الاستهلاكية بوجه عام.

ومن الجدير بالملاحظة في هذا السياق أنه في الوقت الذي تسحق فيه المجاعات والفقر والحروب والأوبئة والظروف القاسية القارة الإفريقية، وفي الوقت الذي تئن فيه أوروبا والولايات المتحدة تحت وطأة المخدرات وسائر المشكلات السابقة التي أشرنا إليها، فإن فرصة العقيدة الإسلامية ونظام الإسلام تبدو مواتية؛ لأن كل واحدة من القارتين سوف تكون بحاجة إلى الإسلام للأسباب الخاصة بها -وما يزال الخطاب

القرآني إنسانيًا وعالميًا كما سنوضح بعد قليل- ولا نعتقد أن هذا الوضع يتمتع به في العالم اليوم أي دين أو ثقافة -وحضارة- كما تتمتع به الثقافة الإسلامية وشريعة الإسلام. وغني عن البيان أنه لا يوجد في العالم كذلك دين يتمتع بحضور بارز أو انتشار واسع في ثلاث قارات سوى الإسلام.

وننبه هنا إلى أننا لا نتحدث في هذا السياق -أو في هذه المرحلة- عن دخول الأوروبيين وغيرهم إلى الإسلام، ولكن عن العبور باتجاه قيم الإسلام الثقافية والحضارية، بغض النظر عن نسبة الداخلين في الإسلام اليوم وغدًا أو بعد غد! علمًا بأن التحول إليه الذي يتم على مستوى المفكرين والقادة على وجه الخصوص، لا يُقبل تفسيره من خلال المركزية الأوروبية وعقدة التفوق، أو من خلال الروح التي عبر عنها «أوليفيه روا» بقوله: «فمن يعتنق الإسلام في الوسط المسيحي إنما يختار سيكولوجياً بنية ملة تتلاءم، بعامة، مع طبيعته كهامشي أو متحمس أو زهدي حقيقي، أي مستوحد»[1]!!

والسؤال الذي يطرح نفسه أخيراً، يدور حول الأسباب التي «أخرت» حصاد هذه المشكلات أو النتائج حتى الآن، على الرغم من العمر المديد لهذه الحضارة؟

ونقول في الجواب: إنه ما كان لهذه النتائج أن تظهر في عقود الحماسة وردود الأفعال، وفي ظل حركة التوسع و«الفتح» والكشوف الجغرافية والمبرر الاستعماري على وجه العموم. وليس في أيدينا ما يدل على أن تلك المفاهيم خلصت إلى حياة الأوروبيين حقيقة في هذه العقود، حيث كان أمام الأوروبي رسالة (استعمارية) ينهض لأدائها في العالم وفي آسيا وإفريقيا على وجه الخصوص! حتى إن أوروبا شهدت مضاعفة عدد سكانها خلال خمسين عامًا فقط (في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: ١٨٥٠-١٩٠٠)، في حين بدأت تعاني بعد قرن واحد (في

---

(١) تجربة الإسلام السياسي، ترجمة نصير مروّة، دار الساقي، ط٢، ١٩٩٦م، ص١٦.

النصف الثاني من القرن العشرين) من الشيخوخة وتناقص السكان، على الرغم من حاجتها إلى زيادة السكان في ضوء آثار الحربين العالميتين ومعطيات أخرى كثيرة.

ولم يكن لتلك النتائج أن تظهر كذلك في ظل التناقضات والتحديات الداخلية الحادة التي شهدتها الحضارة الأوروبية، والتي بلغت ذروتها في حربين كونيتين طاحنتين في النصف الأول من هذا القرن. حتى إذا امتدت بالأوروبيين حياة السلم والأمن في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ظهر من علل ثقافة «القوم» وآثارها ونتائجها في النفس والمجتمع ما ليس بمنظور، أو ما كان بمعزل عن الظهور! ولهذا يمكننا عد النصف الثاني من هذا القرن -الذي شهد صعود الماركسية والمذاهب الاشتراكية والوجودية.. وولادة الحرب الباردة!- المجال الحقيقي لاختبار صحة أحكام الثقافة الأوروبية، وصواب مناهجها وقيمها في التعامل مع النفس الإنسانية.

كما يمكننا عد السنوات الممتدة بين أواخر القرن الحالي وأوائل القرن القادم، وأعني الفترة التي يمكن قياسها بعمر جيل من الأجيال، فترة حاسمة في إعادة النظر في هذه القيم والمناهج؛ وذلك في ضوء الأمراض التي أفرزتها،والمشكلات التي أفضت إليها. ولم يعد كافيًا ولا ممكنًا بعد اليوم التصدي لعلاج هذه الأمراض والمشكلات بزيادة المخصصات المالية أو برفع عدد الأسِرَّة في المستشفيات لعلاج مرضى الإيدز ومدمني المخدرات على سبيل المثال! بل لا بد من التماس العلاج في الأسباب والمقدمات؛ أي في الثقافة وطبيعة القيم وقانون التحريم والتحليل!

إن علاج مشكلات بهذا الحجم لا يمكن بغير مراجعة المناهج والقيم التي انطلقت منها هذه الحضارة والمفاهيم الثقافية التي أشاعتها حول الدين والغيب والروح والمادة، والحرية، والفن، والأخلاق، والأسرة، والسياسة، وصناديق الانتخاب، وحق التشريع.. إلخ. يقول جوليان هكسلي: «إن عصرنا الحالي القلق الذي جاء بعد حربين عالميتين، يشهد اليوم انهيارًا شاملاً للمعتقدات السائدة والمفاهيم الحالية

الشائعة... كما يشهد قناعة متزايدة بأن النظرة المادية الخالصة لا يمكن أن توفر أسسًا صالحة للحياة الإنسانية»[1].

ونصل هنا للحديث عن الدين، الذي يوفر هذه الأسس الصالحة للحياة الإنسانية؛ ونتحدث عنه بالقدر الذي يومئ إلى «قدرته» على التصدي لمشكلات الحضارة القائمة أو لمشكلات العالم المعاصر، ومن زاوية النقد الذي قدمناه لهذه الحضارة؛ لبيان أن «العقلانية» و«الإنسانية» -وحقوق المواطنة- التي التمسها «القوم» خارج الكنيسة -والتي ما زالت تبتعد بهم حتى وصلت إلى المشكلات التي أشرنا إليها- موجودة في رحاب الإسلام، ولكنها لم تخرج بهم -في هذه الرحاب- عن الفطرة والاعتدال، ولن تسلمهم وسائر الأمم والمجتمعات إلا إلى خير.. ولا حاجة إلى التذكير بأن عقلانية الحضارة -العلمانية- المعاصرة وإنسانيتها إنما تقررت على خلفية رفضها للسلطان الكنسي الذي وقف في وجه العلم، ولمعارف الكنيسة (الدنيوية) ونصوصها (الدينية) التي ناقضت العلم والعقل.

ونبدأ أولاً بالإشارة إلى مدى الحاجة الملحة للإسلام وللثقافة الإسلامية بوجه عام، وفي هذه اللحظة التاريخية على وجه الخصوص، بوصفه دينًا يلبي حاجة الإنسان الفطرية إلى الإيمان والاعتقاد.. عقيدة التوحيد التي تشوبها شائبة أو لا تحتاج لتأويل! في الوقت الذي يمثل مصالحة حقيقية مع العقل والعلم، ومواءمة تامة بين الوحي والعقل، وتوازنًا مدهشًا بين الدنيا والآخرة، حتى إن لغة الأرقام -وإن كان لها مدلول في هذا السياق- تفيد بأنهما ذكرتا في القرآن الكريم بعدد متساوٍ من المرات (خمسة عشر ومائة مرة لكل منهما).

(١) نقلاً عن كتاب: تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها للأستاذ الباحث والمفكر محمد جابر الأنصاري، ص٣٤٢. وقد وصف الدكتور الأنصاري «هكسلي» بالمفكر الإنساني التطوري.

أما الأسس الصالحة التي يوفرها الإسلام للحياة الإنسانية فإنها تكمن أو تنطلق من تعامله الشامل والمتوازن مع النفس الإنسانية، ومن بناء جميع قيمه وأحكامه وفق «الطبيعة الذاتية» للإنسان، مبرأة من النظرات القاصرة للعصور، ومن ردود أفعال الأقوام!

بل يمكننا أن نأخذ من آيات القرآن وأحكام الإسلام المعيار أو المقياس الذي نقيس به صحة المبادئ والعقائد والأحكام؛ هذا المقياس الذي يتمثل في مدى تعامل هذه المبادئ والأحكام -وإن شئت قلت: الثقافات بوجه عام- تعاملاً شاملاً ومتوازنًا مع النفس الإنسانية: سواء أصنع الإنسان آلات أم لم يصنع، وسواء مضى على تلك المبادئ والقيم مئات السنين أو عشرات الأيام!!

وقصدنا بالتسوية الأولى: عدم الربط بين تقدم الإنسان في باب الوسائل، أي في شق التعامل مع المادة والطبيعة، وتقدمه في باب القيم والمبادئ والأهداف، أي في شق تعامله مع النفس أو مع الذات. ولا مجال عندنا للارتياب في أن (التقدم) الحقيقي للإنسان لا يقاس بالتقدم -أوالسبق بعبارة أدق- في باب الوسائل، بل بالتقدم في باب القيم والأهداف.. بل إن هذه الوسائل في السلم والحرب إن لم «تضبط» بقيم التقوى والإيمان بالله واليوم الآخر، وأن (الخلق) كلهم عيال الله -وسائر القيم والمبادئ والأهداف الإنسانية- فإنها لا تعدو أن تكون أكثر شحذًا للأنياب وإطالة للمخالب! وما إخال الاستكبار في الأرض والرعب النووي وتحطيم النفوس الآدمية، شيئًا غير هذا.

وقصدنا بالتسوية الثانية إخراج فكرة (الزمن) أو التهوين من شأنها في باب الحكم على العقائد والأفكار ونظم الحياة، لأن المفاضلة هنا ليست بين القديم والجديد أو التراث والمعاصرة! أو بين درجات أو «طبقات» الحداثة وما بعد الحداثة!!! ولكن بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.. وما تستقيم به حياة الإنسان وما تضطرب أو

لا تستقيم.. ولا يضير الحق أنه قديم، ولا يمكن للباطل أن يزهو بأنه جديد أو أنه يمثل آخر «طبعة» من طبعات الفكر، لأن عالم الأفكار ليس كعالم الأزياء! وقديمًا قالوا: إن الحق قديم. وأعتقد أن في تواري الماركسية وسقوط الإلحاد والوجودية خلال بضعة عقود خير شاهد –في هذا القرن– على ما نقول. وننبه هنا إلى أن فكرة (الزمن) هذه خالطتها فكرة (التطور)، بل اقترنت بها في عرف كثير من الباحثين –وفي النسق الماركسي على وجه الخصوص– وهذا الاقتران عندنا بحاجة إلى مراجعة وتصحيح! فقد تكون آخر طبعة من طبعات الفكر في هذا النسق «التطوري» تافهة أو مرذولة! إذا استعرنا هذ المفردة الأخيرة من أبي الريحان البيروني!

ثانيًا: أما عقلانية الإسلام وإنسانيته، فإنها تمثل أبرز الدعائم والأسس التي قام عليها (النص القرآني) حتى إنها –فيه– لا تحتاج إلى تفسير وتأويل؛ فضلاً عن التماسها والبحث عنها خارج (النص)، كما حصل في التاريخ الأوروبي!

وكما أشرنا قبل قليل، بل إن اجتهاد المجتهدين وتفسيرالمفسرين وتأويل المتأولين سوف يقع في دائرة الخطأ إذا تخلى عن العقلانية، أو قصر في التعامل مع البعد الإنساني في ذلك الخطاب.

ونريد بإنسانية الخطاب: قيامه على أسس واعتبارات (إنسانية) –أو آدمية– أي أنه لم يقم على أي لون من ألوان الاعتبارات المحلية أو البيئية أو الموقوتة؛ ومن ثم فإن عدم التزام (الناس) –الناس في أي عصر– بمضمون هذا الخطاب، سوف يفضي بهم إلى مثل المشكلات التي أشرنا إليها، والتي تئن تحت وطأتها اليوم مجتمعات كثيرة؛ وهذا معنى أن حياتهم لن تكون طيبة وإن اعتقدوا ذلك لبعض الوقت أو في بعض العصور: قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل:٩٧)، أي إن السعادة الحقيقية والحياة الطيبة لن تكون من نصيب المجتمعات

التي تخلت عن العبادة والإيمان، ففقدت بذلك معنى الوجود ومبرراته، أو التي عملت غير صالح من الأعمال، بل «ارتكبت» الفواحش والآثام كالقتل، والزنا، والشذوذ، والخمر ،والمخدرات، وسائر ما حرمه الإسلام.

ومن هنا كانت القاعدة القرآنية في التحليل والتحريم -كذلك-: الخبيث والطيب.. قال تعالى في وصف النبي ﷺ ووصف الشريعة التي نزلت عليه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف:١٥٧)، أي إن ما كان من جنس الخبيث -في أي باب من أبواب الأقوال والأفعال والأخلاق والعوائد...إلخ- فهو حرام، وسوف يبقى حرامًا إلى يوم القيامة، وأن ما كان من جنس الطيبات -في أي باب كذلك- فهو حلال، وسيبقى حلالاً إلى يوم القيامة. حتى كان في مقدورنا أن نستدل بالتحريم على الخبيث.

ولنا أن ننظر في ضوء ذلك في حال المجتمعات الإنسانية التي (خاضت) في الخبيث وأصرت عليه.. ونذكر في هذا السياق فقط بالإيدز والمخدرات -أو بالطاعون الأسود والأبيض- وأثرهما في تهديد المجتمعات الإنسانية وتحويل حياتها إلى جحيم! قانون الحياة الطيبة في الإسلام إذن: الحال الطيب، أما الحياة (الخبيثة) فتقوم على الحرام الخبيث.. أيًا كانت العقول التي تبرره أو تزينه وتحامي عنه؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ (المائدة:١٠٠).. لأنه في المحصلة الأخيرة أو في النهاية ليس أكثر من «أهواء» قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية:٢٣)؟!

وإذا جاز لنا أن نسمي كل ما يدخل في نطاق التحريم والتحليل «أشياء»، فإنه لا يمكن النظر أو الدعوة (لتعديل) أحكام القرآن (!) إلا إن جاز على «الطبائع» التي خلقت عليها الأشياء أن تتبدل! وعلى طبيعة الإنسان، أو على خلقه وتكوينه

-في أشواقه وضروراته- أن تُنسخ أو تُعدل! وهيهات...

بقي أن يقال: إن الخطاب القرآني إذا كان «مفصلاً» على الإنسان -إن صح التعبير- بمعنى أن «واقع» الإنسان في زمن بعينه وبيئة بعينها ليس هو الحاكم على هذا الخطاب، أو أنه لم ينزل رعاية لهذا الواقع واستجابة له.. فهل يعني ذلك إنكار تعدد هذا الواقع عبر الزمان والمكان؟

ونقول في الجواب: لا، لأنه ليس في وسع أحد إنكار هذا التعدد... ولكن أثره -أي هذا التعدد- ليس في السماح بالقفز على «طبيعة الأشياء» التي أشرنا إليها قبل قليل.. بحيث ينقلب الخمر والزنا والشذوذ والمخدرات -ربما عبر التطور المزعوم كذلك- من التحريم إلى التحليل! وإن شئت قلت: إن هذا الأثر ليس في الضروريات أو في قواعد التشريع وأصول الأحكام، ولكن في صور الفهم لهذه الأصول والقواعد، وفي شروط تنزيلها على هذا الواقع المتعدد للشعوب والأقوام، والمتغير -أو المتطور- عبر العصور والأزمان، حتى كأن القوانين والشرائع المتعددة في أي خطاب بيئي وزماني يقابلها الفهوم والآراء المتعددة في خطاب القرآن الإنساني والعالمي...

ولا شك في أن صور الفهم والتنزيل -المتعددة عبر الزمان والمكان- تعني عقلية الخطاب أو عقلانيته، خصوصاً إذا علمنا أن تلك الأصول والقواعد ذاتها جاءت «معللة» أو معقولة المعنى، كما يقول علماء الأصول... حتى إنها -وقد نزلت في لحظة تاريخية معينة قبل مئات السنين- أشارت إلى التقاء العقل بها، ودلالته على ما دلت عليه حين يتجرد من تلك الأهواء! وكلما اتسعت عند الإنسان دائرة النظر والفكر والتدبر، وارتقت به التجارب وضروب المعاناة خلال العصور؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص:٨٧-٨٨)، أقول: «ارتقت»، وأعني الارتقاء الحقيقي، لأن الإنسان قد يتصور ذلك وهو ينتكس ولا يرتقي...

وها هي الشيوعية القريبة أقامت مجتمعًا لم تكن فضائله أكثر من رذائل موقوفة التنفيذ، لأن وعودها في الإصلاح كان أساسها ومنطلقها تجريد اللص من السلاح، وإخلاء الصندوق من المال المطموع فيه! فضلاً عن حجرها على العقل حجرًا بات -عندنا على الأقل- مضرب الأمثال! فأين هي الأخلاق التي تعفِّي -وحتى تضارع- على أخلاق وفضائل الشريعة؟ وأين هو العقل الذي يقف في مقابل النص أو الدين؟

وربما كانت إشارتنا حول التقاء العقل مع هذه الشريعة، أو انتهائه إلى أحكامها على هذا النحو، أحد الأسباب المهمة التي تقف وراء إشادة القرآن بالعقل الإنساني، واحتفائه به، وتعويله عليه على نحو غير معهود في خطاب سائر الأديان.. بل في خطاب الفلاسفة في بعض الأحيان! ولا نجد في هذا السياق خيرًا من الاستشهاد بما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، قال رحمه الله: «... ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئًا من الزراية بالعقل أو التحذير منه، لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

«ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه. ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق

والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة، وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام المجمل؛ إذ هي جميعًا مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء»[1].

ولا يحسن أن ننهي الكلام في هذه المسألة قبل أن نشير إلى قضية هامة في الفكر الإسلامي لها علاقة بكل هذا الذي نقول من جهة، وتبرز في الوقت نفسه مدى قدرة العقيدة الإسلامية على حل معضلة الإيمان والاعتقاد في الفكر الديني المسيحي من جهة أخرى. وإن شئت قلت: في الفكر الذي أنجب العلمانية والمنهج العقلي، أو قام بتقديم «الحل العقلي والعلمي»، إن صح التعبير.

وهذه القضية هي المعجزة أو المعجزات؛ فقد لعبت المعجزة دورًا رئيسًا في الدعوة إلى الإيمان بالمسيحية، وبوصف المعجزة -في المسيحية وسائر الأديان السابقة- أمرًا مناقضًا للعادة، ومخالفًا للمألوف من سنن الكون وقوانين الطبيعة، كما يقولون. وغني عن البيان أن المعجزات -هذه- لا تخاطب العقل، بل هي إلى تجاوزه وإبطال عمله أقرب، أو أنه -أي العقل- ليس معنيًا بأمرها بإقرار أو إنكار في أحسن الأحوال.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه المعجزات قد وقعت في الماضي، وأن «القوم» مطالبون بالإيمان اليوم -أو منذ انقضاء عصر المسيح وسائر «الرسل»- بحكم هذا الوقوع؛ أدركنا طرفًا مهمًا من مشكلات الإيمان والاعتقاد في الفكر الأوروبي؛ وبخاصة مع اضطراب النقل وعدم صحة الأسانيد، لأن هذه الأسانيد لم تثبت أمام قواعد النقد (العلمي) وقواعد التوثيق؛ كما أوضح ذلك الفيلسوف «اسبينوزا» في رسالته في اللاهوت والسياسة. وأدركنا كذلك معنى وأسبابَ كثيرٍ من مقولاتهم في هذا الباب، وهي

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، للأستاذ العقاد رحمه الله، ص٧-٨، المكتبة العصرية، لبنان.

كثيرة معلومة لدى المختصين، وإن كان من أبرزها في هذا السياق -فيما نقدر- مقولة إمام الفلسفة النقدية «كانْت» في قسم العقل إلى نظري وعملي! وزعمه أو ظنه أن الدين لا يمكن أن يبنى على العقل! ولكن على قواعد من الأخلاق، وأن عقيدة ما وراء الطبيعة ليست من اختصاص العقل -النظري- ولكن من اختصاص العقل العملي، أي أن الإيمان يقوم على التسليم أو مجرد التسليم ليس غير.

وكأنّي «بكانْت» بهذه المقولة يشير إلى معجزات دينه وشفاعة قدّيسيه.. لأن الغالب على المرء أن يفكر في «الدين» من حيث يشعر أو لا يشعر على النحو الذي نشأ عليه أو انتهى إليه. لا غرو أن يكون هذا التقسيم لا محل له في العقيدة والفكر الإسلامي، خصوصًا وأن معجزة الإسلام الكبرى، أو التي جُعلت مناط الإيمان والاعتقاد، وهي القرآن الكريم، هي المعجزة التي يعمل العقل لفهمها، وليست هي المعجزة التي توقف عمل العقول! بل إن وقوف (الإنسان) على آفاق هذه المعجزة وميادينها، بوصفها معجزة عقلية عملية بيانية في وقت واحد، يكون بمقدار إمعانه أو إعماله للعقل لا بمقدار إهماله! وبمقدار ما يقف عليه -عبر العصور- من قوانين الكون وسنن الطبيعة، لا بمقدار ما يتم -أمامه- من وقفها أو تعطيلها، وأخيرًا بمقدار ما يترتقي في سلم النقد وبلاغة اللسان في لغة العرب، وفي سائر لغات الشعوب والأقوام.

بل لعل ما قدمناه قبل قليل يذكرنا أيضًا بأن (الشريعة) أو الأحكام التي تحدثنا عنها، مَثَلُها مَثَلُ المعجزة! فهي الشريعة التي يعمل العقل لفهمها وليست هي الشريعة التي تبطل عمل العقول.. لأن الشرح والتفسير، أو الفهم والتنزيل، وهي المهمة التي تسمى (الاجتهاد) أو تشكل فحواه، تدل على أن (العقل) عندنا ليس نقيض (النص) أو أن أحدهما يوضع في مقابل الآخر.. بحيث يجب علينا أن نتخير أو ننقسم! لأن الاجتهاد يمثل عمل العقل في النص. فإذا وقفنا على الأصول والقواعد التي تضمنها هذا النص ولحظنا قبل ذلك الطبيعة العمومية للخطاب القرآني؛ علمنا

مدى الساحة الواسعة التي تركها القرآن ليملأها العقل الإنساني بتجارب العصور.. ويمثل عمل العقل في هذه الساحة -في ضوء تلك القواعد- الشق الثاني من عمل العقل في الشريعة.. هذا فضلاً عن العمل الذي وكله الإسلام للضمير الإنساني، في جميع الأحوال، وفي الوقت الذي قام بتربية هذا الضمير والارتقاء به إلى المقام الذي لا تخطئه الذرة الواحدة من خير أو شر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧-٨).

هذا هو الذي دل عليه قول النبي ﷺ في الحديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١]، وقوله في الحديث الآخر: «**الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها**»[٢]، في دلالة واضحة على اعتداد الإسلام بكل ميراث الإنسانية ومنجزاتها في الحكمة ومكارم الأخلاق.. سواء أكانت نبوية سابقة، أم عقلية سابقة ولاحقة. وإن من السهل على العقل أن يدك أن هذه هي طبيعة الدين الذي نزل مصدقًا لما بين يديه من (الكتاب) ومهيمنًا عليه.. والذي جاءت أحكامه عامة وممتدة إلى يوم الدين.

من هذا الموقع العقلي والإنساني، ومن موقع الانفتاح -هذا- على الحضارات والثقافات، وأن علاقة الخطاب الإسلامي بـ(الآخر) علاقة إتمامية تكاملية وليست إقصائية عدمية، تأتي فكرة هذه السطور حول رفد الحضارة المعاصرة، ومحاولة تصحيح مسارها، والمواءمة بين تقدمها التقني الهائل حقًا والذي لم يسبق له مثيل، والذي عبرنا عنه بتعاملها مع المادة والطبيعة؛ وبين قيم الإسلام وأحكامه الخالدة في التعامل مع الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم «٢٧٣»، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد صحّ عن الحسن البصري وسفيان الثوري وغيرهما قريبًا منه.

وإذا كنا نحن المسلمين قد «تخلفنا» في حياتنا وسلوكنا عن هذه القيم والأحكام منذ سنوات طويلة، فإن علينا ألا نطمع في سنوات قريبة أو مماثلة في أن نجلس على مقعد السيادة في التاريخ! فلا أقل من أن نعود لتجسيد قيم الإسلام يومًا بعد يوم.. وأن نرى هذه القيم قد أخذت طريقها إلى عقول الذين صنعوا الحضارة الراهنة وقلوبهم، والذين لا يزالون يملكون الفعل والقدرة على التصرف و(الإرادة) التي يملونها على حركة التاريخ. ويومها سوف يجدون صفاء أرواحهم لا في المخدرات ولكن في العقيدة والإيمان، ويجدون أفئدتهم لا تُطمس، وسُرُج عقولهم لا يُطفئها الدين، بل تتألق بنور الوحي، وسوف يجدون مطالب أجسادهم لا تُستبعد ولا تُستقذر! لكن فقط تهذب وتضبط.. ويعاد بها إلى الزواج والفطرة ونظام الأسرة، أو إلى رحاب (إنسانية الإنسان)... بل آدميته، لأنه لا آدمية حيث لا أسرة!

أما نحن -العرب والمسلمين- الذين قد يحتل الإسلام مواقع متقدمة علينا في عالم الغد، بل سيفعل ذلك -إن شاء الله- في ضوء الثوابت والمؤشرات ومعطيات التاريخ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة:٣٣)، فإن مصابرة طويلة وتضحيات جسامًا تنتظرنا على الطريق قبل الوصول إلى عصر الولايات المتحدة العربية أو اتحاد الجمهوريات الإسلامية!! بدءًا بالانتصار على النفس، وفي «معركة تحقيق الذات»، بحسب عبارة أستاذنا «محمد المبارك» رحمه الله، وعلى كل العوامل التي تشدنا إلى الخلف من القبلية والطائفية وسائر عقد التاريخ وحزازاته ومشكلاته.. ومرورًا بالمعركة الحضارية الشرسة والممتدة مع الصهيونية وإسرائيل والاستكبار العالمي.. وأخيرًا مع العولمة المتوحشة، أو التي ليس لها ضمير، والتي تريد تحويل العالم إلى صالة قمار! حتى نصل إلى وعد الله الذي لا يتخلف.. والذي يعد أقوى الحوافز للوصول إلى عصر الظهور والتمكين في الأرض.

ويملك المثقفون، أو في وسعهم في أول المراحل، أن يكرسوا الوحدة اللغوية الثقافية للأمة، وأن يتداعوا في ظل العامل الثقافي الذي تحدثنا عنه إلى (عقد ثقافي/اجتماعي)، أو عقد اجتماعي يسلم بحق الاختلاف، وبالتعددية الاجتهادية، وبالديمقراطية الحقيقية، والشورى، وحقوق الإنسان، كما يسلم بمسألة الحرية وحدودها ولزوم العدل الاجتماعي، مع تجاوز الفهوم التراثية المغلوطة والمعاصرة القاصرة، والتي لا تزال تحجب الحقيقة وتشوّه صورة الإسلام.

كما يملك السياسيون تحقيق حدٍ أدنى من المصالحة والتنسيق بين الأنظمة والدول العربية والإسلامية.. وصولاً إلى «إحياء» التكتلات الإقليمية والقومية والدينية/الحضارية، أو نفخ الروح فيها.. وبخاصة جامعة الدول العربية التي لم تتطور بعد أكثر من نصف قرن مر على إنشائها! إن لم تكن قد شهدت بعض التراجع، في الوقت الذي كان من الممكن -أو الواجب- أن تتحول إلى اتحاد للدول العربية، وكذلك الحال في منظمة المؤتمر الإسلامي التي كان من الممكن أن تتحول إلى جامعة للدول الإسلامية! أو منظمة للتضامن الإسلامي على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية.

فإن لم يكن هذا ولا ذاك -من هذه الآمال والطموحات العظام- فلا أقل من أن تنجح منظمة المؤتمر الإسلامي في تغيير اسمها على الأقل، أو بعد هذه السنوات الطوال.. بحيث يكون «الإسلام» وصفًا للدول وليس للمؤتمر! فربما عكس هذا التغيير قناعة بعض الأنظمة في أن شعوبها ما تزال مسلمة في جميع الأحوال، وأنها ترفض (علمنة) الحياة والسلوك في كل حال!

والحمد لله رب العالمين.

الوراثة الحضارية.. شروط ومقومات

عمر عبيد حسنه*

المنهج الذي نراه في النظر إلى مسألة الوراثة الحضارية يقتضي التعرف على الذات بمؤهلاتها الحضارية، والتعرف على (الآخر) بما يمتلك من أدوات السبق والغلبة، وتحديد موقع الأمة من مسيرة الحضارة، والمدخل الذي يمكن أن تلج منه.

التعامل مع مسألة الوراثة الحضارية، والنظر في تجلياتها على أكثر من موقع، ليس من الأمور البسيطة، أو السهلة التناول، على الرغم من الفضاء الحضاري الكبير، الذي قد يتيح أقداراً من الحركة والنظر، حيث إن الباحث هو جزء فاعل ومنفعل بهذا الفضاء الواسع، ذلك أن حركة الحضارة وتجلياتها المتنوعة تخضع لسنن ونواميس في الأنفس والآفاق، وتتداخل فيها عناصر متعددة، وتتدافع فيه أقدار، ويتشابك فيها الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر، والمستقبل.. الماضي الذي يشكل جذور الحضارة الممتدة في العمق، والحاضر الذي يشكل مستقبل الماضي، بكل ما انتهى إليه هذا الماضي، كما أنه

* مدير مركز البحوث والدراسات.. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قطر).

يشكل في الوقت نفسه ماضي المستقبل، الذي يشكل آفاقه ومؤشراته واستشرافاته وتحولاته، وتخطيطاته.

لذلك نقول بأن: أي استشراف للمستقبل وتتبع لمسيرة الحضارة ومآلاتها لابد له من استشراف الماضي، والإحاطة بدراسة الحاضر ومعرفة تأويله لاكتشاف كنه الحضارة وقوانين الحركة وعوامل التأثير في هذا المسيرة. وذلك يقتضي التوفر على مجموعة تخصصات وخبرات وأدوات بحثية متوازية مع مركب المسألة الحضارية، إضافة إلى امتلاك الرؤية الثقافية أو الفلسفية أو العقدية عن الكون والإنسان والحياة، وعدم الاقتصار في ذلك على عالم الشهادة، بحيث تكون تلك الرؤية قادرة على الإجابة بشكل شاف عن عالم الغيب الذي هو في الحقيقة مصير الإنسان النهائي أو مستقبل المستقبل والمحطة الأخيرة لمسيرة البشرية، لأن الحضارة هي في الحقيقة المصب النهائي أوالثمرة والمحصلة النهائية لهذه الأمور مجتمعة، لذلك فهي أبعد ما تكون في تحقيقها وإنجازها عن مجال الرغبات والأمنيات والشعارات بكل ما تورثه من الحماس والتوثب والانفعال -وإن كان الحماس مطلوباً كحافز- كما أنها أبعد ما تكون عن المصادفة والعبث والانفلات من قوانين الحركة الاجتماعية وسننها.

لذلك أكدت الرؤية الإسلامية، أو معرفة الوحي بتعبير أدق، منذ الخطوات الأولى لمسيرة الحضارة الإسلامية على أهمية التعامل مع السنن الجارية بعيداً عن اعتماد العبث والمصادفة والسنن الخارقة في عملية البناء الحضاري والوراثة الحضارية على حد سواء، وأن ذلك يخضع لسنن وقوانين ثابتة ومطردة لا تحابي أحداً، منوطة بعزمات البشر، كما أنها تخضع لموازين العدل والأمن التي تحقق

لها الحماية والامتداد، على الزمن، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء: ١٢٣): موازين عادلة..

وقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة: ٧٨): إحساس وحماس بدون إدراك وتبصر، وتلاوة بدون تدبر وعمل. وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٦٢).

وما لم تُدرك هذه السنن الجارية المطردة الثابتة التي تقع ضمن عزمات البشر، وتشكل في حقيقتها أبعاد التكليف الإلهي لحمل أمانة الاستخلاف والقيام بأمر العمران، وتُستَبعد السنة الخارقة التي لا يملكها إلا الله، والتي تؤكد من وجه آخر على مدى الاطراد في السنن الجارية، حيث لا يستطيع خرقها إلا الذي خلقها، فسوف يستمر المسلمون في غرفة الانتظار، خارج الحاضر والماضي والمستقبل.. وما لم يدركوا ذلك فهم يكرسون التخلف، ويعانون العجز والتخاذل، ويهربون إلى ماضيهم يفاخرون به للتخلص من مركب النقص وحالة العجز، وقد يلجأون لتسويغ واقعهم بتقطيع الرؤية الإسلامية والانتقاء من معرفة الوحي ما يكسبهم الاطمئنان الخادع الناشئ عن أقدار من التدين المغشوش، البعيد عن إدراك حقيقة الدين ومقاصده ودوره في بناء الحضارة وهدفه في إلحاق الرحمة بالعالمين، وهو الغاية التي من أجلها كانت البعثة والنبوة.

والأمر الذي لا بد من الاعتراف به والتأكيد عليه هنا، أن مسألة الوراثة الحضارية لا يمكن أن تتحقق إلا بإدراك سيرورة الحضارة المعاصرة ومعرفة عللها، وبعبارة أدق: عواقبها، والتعرف على قوانين الحركة التاريخية والاجتماعية،

وامتلاك القدرة على مدافعة سنة بسنة أو قدر بقدر، والتمكن من عملية التسخير لهذه السنن، والقيام بالتغيير والتحويل لوجهة الحضارة، ولحماية مسيرتها وتحقيق مقاصدها المأمولة، وذلك أكبر من أن يعالج بمقال أو كتاب أو يقتصر على جهد باحث في زمن معين أو مكان معين، نظراً لطبيعتها المركبة، وتداخل عواملها المتعددة، وتطور معارفها المتنوعة، وما يقتضيه ذلك من توفر الاختصاصات المتعددة، والأدوات البحثية المناسبة، والرؤية الثقافية التي تؤطرها وتحدد منطلقاتها وتبين مقاصدها، كما أسلفنا.

فمجرد التقريرات من أن الحضارة، نشوءاً وسقوطاً، تحكمها قوانين وسنن، دون التمكن من التخصصات التي تحيط بهذه السنن وفاعليتها وعوارضها، وتوفر الإرادة والقدرة على مدافعتها بسنن أخرى، وقراءة أمراض الحضارة ومعرفة أسبابها ونتائجها وكيفية معالجتها، لا تخرج عن كونها شعارات وأمنيات وومضات حماس لا تغير من الواقع شيئًا، بل لعلها تزيد من حالة الاستنقاع الحضاري، وتوبِّخ أصحابها، لأنها تقضي على الهاجس أو ما يسمى بالقلق الحضاري الذي يشكل المهماز والمحرض لكل إنجاز ووراثه حضارية.

لذلك نؤكد على أن محاولتنا في تقديم بعض الملحوظات وإبصار بعض الملامح، لا تخرج عن فتح هذه الملف الكبير، واستدعائه للنظر والاهتمام، والمساهمة في إدراك أبعاده وآثاره على الحاضر والمستقبل، وإثارة بعض الجوانب، لعلها تقوم بدور ما يسمى بالوسيط الكيميائي الذي يحدث التفاعل المطلوب ويحرض وظائف العناصر المعطلة، ويحقق النتائج المرجوة، وبذلك نساهم في تحقيق النقلة المطلوبة في الوعي الإسلامي، الذي إذا ما تحقق فسوف يحرك الطاقات، ويعيد الفاعلية المنطفئة، لتستأنف الأمة المسلمة دورها

الغائب من جديد في الشهود الحضاري، والإسهام في العطاء الحضاري العالمي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

منهج النظر:

والمنهج الذي نراه للنظر في هذه القضية يقتضي:

أولاً: التعرف على الذات تماماً، بكل أبعادها، بما يمكن أن نصطلح عليه: «الإمكان الحضاري» الذي يؤهل الأمة المسلمة للقيام بالدور المطلوب لإلحاق الرحمة بالعالمين.. وسوف نحاول ما أمكن تجاوز المنهج الوصفي أو التقريري للإمكان الحضاري إلى تقديم رؤية في كيفية تفعيل هذا الإمكان ليقوم بالدور المطلوب.

ثانيًا: ومن ثم التعرف على (الآخر) بكل إنجازاته الحضارية، وإشكالاته أو إصاباته، كشريك حضاري يمتلك أدوات السبق والغلبة والحضور في كل المواقع، وهذا يقتضي تأسيس منهج لفهم الحضارة الأوروبية المعاصرة، بأبعادها الفلسفية وتاريخها الثقافي ومنظومتها المعرفية وإنتاجها المادي الذي جاء ثمرة لذلك كله.

ذلك أن هذه الحضارة تشكل حضوراً في كل المواقع، ونكاد نقول: في كل بيت، تفرض أنماطها الاجتماعية والسياسية و الإعلامية والمعرفية، وتغرق الأسواق بإنتاجها المادي، وترتهن الناس بسبقها الحضاري، وتحاول من خلال دعوتها إلى العولمة احتياز العالم بخبراته وطاقاته وثقافاته، الأمر الذي يجعل التداول الحضاري والدوران الحضاري يتم داخل دائرة الحضارة نفسها، ويدور على محورها وفي فلكها.

ثالثًا: ومن ثم تحديد موقع الأمة المسلمة من مسيرة هذه الحضارة، والدور الذي يمكن أن تساهم به لإعادتها إلى الجادة ونشر رسالتها وربط الإنجازات العلمية والتقنية بأهدافها، وتخليصها من حالة العلم المدمر، أو العلم الذي لا ينفع، الذي استعاذ منه الرسول ﷺ، والذي يقتصر على أشياء الإنسان ويمثل وسيلة الإنجاز المادي لكنه في الوقت نفسه يؤدي إلى العاقبة السيئة (الوأد الحضاري).

نعود إلى القول: بأن الوراثة الحضارية ليست أماني وأحلام يقظة، ومكوث في غرفة الانتظار، وعدول عن السنن الجارية في الحياة والأحياء إلى السنن الخارقة، وترك ما نملك والتطاول إلى ما لا نملك، والتطلع إلى المنقذ الذي يهبط من السماء ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلمًا، ولو كان ذلك كذلك لكانت الحياة ضروبًا من الفوضى والاختلال والظلم والانحلال الحضاري وانعدام المسؤولية وعبثية التكليف وانطفاء روح المنافسة والإبداع والإنجاز وموت الفاعلية، حيث يستوي الماء والخشب، والأحياء والأموات، والعلماء والجهلاء.

فالحضارة أمانة استخلاف، وعزمة بناء، وتراكم معرفي، واكتشاف للسنن الفاعلة في الأنفس والآفاق، وممارسة لعملية التسخير، وامتلاك للشروط والمقومات الضرورية للقيام بأعباء الاستخلاف والعمران التي تشكل المحور الأساس للتكليف الإلهي للإنسان والمجال الحقيقي للمسؤولية عن العمل.

من مرتكزات الإمكان الحضاري

لذلك فالوراثة الحضارية تقتضي توافر مجموعة شروط ومقومات، أو بعبارة أدق مؤهلات اصطلحنا على تسميتها (بالإمكان الحضاري)، الذي يشكل الأدوات الحضارية التي تمكن الإنسان -وهو محور الحضارة وهدفها ووسيلتها في الوقت نفسه- أن يُعْمِلَها في محيطه، فيتحقق الإنجاز الحضاري.

- **امتلاك النص السماوي السليم:**

وقد يكون في مقدمة الأدوات والمقومات الحضارية، أو الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة المسلمة وتتفرد به، وتفتقده الأمم والحضارات الأخرى، السائد منها والبائد، هو النص السماوي السليم الخاتم الخالد والبيان النبوي المعصوم، الذي استوعب رصيد النبوة التاريخي وأصَّل لسنن سقوط الأمم ونهوضها، أو قوانين الحركة التاريخية والاجتماعية، واعتبر ذلك منهجًا خالداً جاريًا على الأمم جميعًا دون محاباة، نافذاً في كل زمان ومكان، واستحضر تاريخ الأمم السابقة كمختبر عملي ودليل على صدق السنن التي شرعها الله وبيان اطرادها، بل اعتبر السير في الأرض والتوغل في التاريخ مصدراً للمعرفة السننية التي تمكن الإنسان من رؤية المستقبل في ضوء هذا الاطراد، والتحقق بمزيد من الكشف لآيات الله وسننه في الأنفس والآفاق، حتى يتأكد الإنسان من أحقية هذه السنن التي هي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية الصارمة، حتى تقود الإنسان المسلم المؤمن بها إلى اليقين، وتمكنه من ممارسة الحضارة وتجنب علل الأمم السابقة وأسباب سقوطها، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣)، وقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨): التوجه صوب التاريخ الإنساني وعدم الاكتفاء بالتجربة الذاتية حتى ولو حرسها الوحي، والتوجه صوب المستقبل في رحلة كشف وتسخير تمتلك الأدوات البحثية والقوانين السننية للنظر والوصول إلى اليقين والبرهان على صدق هذه السنن.

ولا شك أن امتلاك النص السماوي السليم الخالد، المجرد عن قيود الزمان والمكان، القادر على الإنتاج في كل زمان ومكان، المتواتر (المنقول بطريقة علمية تفيد اليقين)، يعتبر من أهم مرتكزات الإمكان الحضاري للأمة المسلمة.. النص الذي مايزال قادراً على الإنتاج.. ولا يتسع المجال هنا للحديث عن الإقبال على الوحي الإلهي والإيمان به، الذي يكاد يكون يومياً، في أكثر بلاد الحضارة تقدماً، وأشدها تخلفاً، في وقت معاً، الأمر الذي يشير إلى تجرده عن قيود الزمان والمكان الحضاري، إضافة إلى أن رحلة العلم الكبيرة والمذهلة والمتقدمة جداً لم تستطع أن تلحق أو تسجل إصابة واحدة على هذا النص الخالد، الأمر الذي يشهد له بالصحة والخلود، وتأكيد ما ورد بتعهد الله بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

هذا النص الذي تحقق له النقل المنهجي مشافهة وكتابة، ورواه الجمع عن الجمع، الذي يحيل العقل تواطؤهم على الكذب، يعتبر من وجهة علمية وثائقية ومنهجية وتاريخية أقدم وثيقة تاريخية وردت بطريق علمي، في الوقت الذي تعوز النصوص الأخرى، دينية كانت أوغير دينية، هذه الوثائقية، الأمر الذي دعا الكثير من علماء الأديان المقارنة والتاريخ إلى اعتباره الوثيقة الوحيدة للتعرف على تعاليم الأديان وشرائعها وأقوامها، بطبيعة كونه وثيقة منهجية وليس بسبب الإيمان به، وهذا يشير إلى إحدى خصائص القرآن المعيارية في الاعتراف بالكتب السابقة والهيمنة عليها.

وقد تكون المشكلة الحضارية أو المأزق والمعوق الحضاري اليوم، في كيفية تعامل المسلمين مع هذا النص الخالد، الذي أُنزل لإحداث تغيير، وبناء حضارة، وأداء رسالة، وإلحاق رحمة بالعالمين، وكيفية تنزيله على واقع الناس وتقويم سلوكهم به وتحقيق مقاصده وأهدافه في الحياة، حيث أُنزل ليُتدبر

ويُعمل به، فجعل الناس من تلاوته وطباعته وتسجيلاته عملاً، ذلك أن التلاوة والطباعة والتسجيل والتوثيق والنقل الصحيح لا تخرج في النهاية عن أن تكون وسائل، فلا يجوز أن تنقلب أهدافًا.. فإذا لم تُعمل في تحقيق الأهداف والمقاصد، تفتقد قيمتها كوسائل أيضًا، لذلك نرى ازدياد من يحملون القرآن من الحفظة، وشيوع الطباعة، وانتشار الكاسيت، في الوقت الذي نرى فيه تراجع العمل وفشو الأمية العقلية والتخلف الحضاري.

لذلك حتى تفيد الأمة المسلمة من هذا الإمكان الحضاري الأساس، لابد لها من المراجعة وإعادة النظر وتغيير منهج التعامل، لأن ما نحن عليه من التخلف والركود هو دليل فساد منهج التعامل.

- خلود النص:

ولعل من الإمكان الحضاري الذي تتميز الأمة المسلمة، والذي يمنحها القدرة على التجدد والتجديد و متابعة الإسهام والعطاء العالمي، خلود النص الإلهي الذي يدفع الأمة باستمرار إلى الاجتهاد وإعمال العقل في استشراف المستقبل، ووضع الأوعية والتخطيط لحركة الأمة ضمن أطر القيم الشرعية التي أسستها معرفة الوحي، والاجتهاد في إيجاد الحلول للمشكلات والأزمات الطارئة، وجعل التفكير فريضة إسلامية، والاجتهاد في تنزيل القيم على الواقع دينًا ومصدر تشريع، كما جعل التجدد والتجديد أحد التكاليف الشرعية الكبرى، وأن هذا التجديد من طبيعة هذا الدين ولوازم خلوده لنفي نوابت السوء، والعودة إلى الينابيع الأولى، وتقويم مسيرة الأمة بقيم الدين، والحيلولة دون اختلاط التعاليم الشرعية بالتقاليد الاجتماعية وتحويل القدسية من النص الإلهي لاجتهادات البشر.

والتجدد والتجديد والاجتهاد حركة مستمرة للنقد والتقويم والتصويب وتوسيع دائرة الرأي وبعث الحيوية المستمرة، وهو مسؤولية الفرد والجماعة والأمة، وهو تكليف شرعي استجابة لقول الرسول ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» (أخرجه أبو داود في الملاحم)..

ولعل هذا هو الذي ضمن سلامة الرؤية والاحتفاظ بالإمكان الحضاري على الرغم من فترات الركود والجمود وسيادة التقليد الجماعي، ذلك الركود الذي يدعو الإنسان إلى تقديس التقاليد، والعجز عن الالتزام بالتعاليم، والتحول من الأفكار إلى الأشياء.

- عقيدة التوحيد:

و من أبرز ثمرات النص السماوي السليم وعطائه الخالد، عقيدة التوحيد، التي تشكل أهم مقومات الإمكان الحضاري الذي تمتلكه و تتميز به الأمة المسلمة، التي ترتكز إلى الفطرة، وتحرر ضمير الفرد من المخاوف والهواجس، وتخلص نفسه من اليأس والقنوط والإحباط، كما تحرر عقله من الخرافات والأوهام والإيمان بالمصادفة والبروج والخوارق، وتعتقه من تأله البشر، وتَنْسخ الطواغيت، وتحقق المساواة بين الخلق، وتوقف تسلط الإنسان على الإنسان، وتخلصه من جميع أنواع العبوديات والكهانات الدينية، وتأمنه من الخوف على حياته ورزقه، وتمنحه الثقة والتحمل، لأنه يرتكز إلى القوة المطلقة القادرة على كل شيء، وتمنحه الإرادة وتبعث فيه الفاعلية.

لكن المشكلة في الغواش التي لحقت بعقيدة التوحيد فتحولت وأُخضعت في مناهج تدريسها وبحثها إلى لون من الفلسفة بمعارفها وأدواتها البحثية

الجدلية، وطروحاتها النظرية، وعواطفها الباردة، وقطيعتها مع العمل والسلوك، وإخراجها من دائرة الأخلاق التي تميزها أوتميز النبوة عن الفلسفة، كما غشيتها غواش الإرجاء والجبرية.

- الأنموذج التطبيقي للنص السماوي:

والأمر المميز للإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة المسلمة، والذي يؤهلها للقيام بدور حضاري مأمون في الحضارة المعاصرة، هو ما تمتلكه من الأنموذج التطبيقي المعصوم للنص السماوي في واقع الناس، وتحويل الفكر إلى فعل، وتجسيد القيم في حياة الناس والامتداد بها من خلال عزمات البشر، وشمولية هذا الأنموذج لمساحات الحياة جميعًا، نصرًا وهزيمة، قوة وتمكينًا، ضعفًا وانكسارًا، دعوة وبلاغًا، دولة وحكمًا، حربًا وسلمًا، عبادات ومعاملات، علاقات اجتماعية ومسالك فردية، حرامًا وحلالاً، اتفاقًا واختلافًا، وحيًا وعقلاً...

هذا الأنموذج التطبيقي، أو هذه التجربة العملية لتطبيق القيم في واقع الناس، الذي تم في حياة الرسول ﷺ، وبحراسة الوحي في التسديد والتأييد، والامتداد به في القرون المشهود لها بالخيرية من الرسول ﷺ بعد توقف الوحي، والذي هو من حيث دقته وصوابيته أشبه ما يكون بالتجربة المعملية في العلوم التجريبية، يمكن أن يشكل مرجعية وأنموذجًا للتطبيق، يحمي المسيرة من الضلال والانفلات والفهوم المنكوسة، أو يشكل، عندما يستصحب، هداية للأجيال.

لكن المشكلة، كل المشكلة، عندما يتحول هذا الأنموذج من وسيلة إيضاح مُعِينة على تنزيل القيم على الواقع ، وتقديم رؤية عن حلول وأوعية لحركة

الحاضر، إلى معوق يحبس الناس أنفسهم من خلاله، أو يعجزون عن تجريده عن قيود الزمان والمكان، وتوليده في الواقع المتجدد، وبذلك يعجزون عن تحديد الموقع المناسب من هذا الأنموذج، ليشكل لهم اقتداءً واقتباساً لحالتهم الواقعية.. أو بمعنى آخر امتلاك القدرة على وضع الحياة المعاصرة بظروفها وإمكاناتها بالموقع الصحيح من مسيرة الأنموذج، والاستضاءة والاقتداء بهذ الموقع في هذه المرحلة، مع الإبصار الكامل لكل أبعاد الأنموذج ومراحله.. أما أن تمارس عملية التدين بشكل من الاقتداء الأعشى، بحيث ونحن نعاني الهزيمة نقتدي بمرحلة النصر، ونحن نمارس الدعوة نقتدي بخطاب وتعامل المعركة، ونحن لانأمن الفتنة على أنفسنا نتطاول للقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فيتحول بذلك قتالنا لتكون فتنة، وتلك هي الإصابة الكبرىٰ.

وقد تكون المشكلة الأساس إدراك مواصفات خطاب الوحي في الكتاب والسنة، والإحاطة الكاملة بمحل التنزيل، فإذا لم يتوفر المحل لا يتحقق التكليف ولا تنزل الأحكام، فلا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها.

- وراثة التجربة التاريخية للنبوة:

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، اعتبار الرسالة الإسلامية حلقة في السلسلة الحضارية لرسالات السماء، ولبنة في البناء الحضاري لمسيرة النبوة، اعتبرت الأمة المؤمنة بالنبوة تاريخياً أمة واحدة ممتدة الجذور منذ بدء الخلق وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢)، وبذلك كانت الرسالة الإسلامية هي اللبنة الأخيرة التي حققت الكمال والاكتمال، وأضافت إلى رصيدها التجربة التاريخية للنبوة وتحولات الحركة الاجتماعية والتاريخية بدون قطيعة أو انغلاق على الذات.

فالأمة المسلمة وريثة الأمم، والرسالة الإسلامية وريثة النبوة.. وهذا العمق الحضاري لا شك أنه يؤهل الأمة، لو كانت في مستوى إسلامها، أن تقدم إسهاماً حضارياً متميزاً، مستوعباً للموروث جميعه، محيطاً بالواقع بكل أبعاده ومساحاته، قادراً على إلحاق الرحمة بالعالمين، وهي الغاية التي من أجلها كانت الرسالة.

- التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية:

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، والذي يمكنها من العطاء الحضاري، ما تمتلكه من التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية الغنية، التي ساهمت فيها جميع الأجناس والألوان والأقوام، فجاءت مشتركاً إنسانياً تأبىً على العنصرية واللونية والجنسية والقومية والتعصب، وخضعت للنصر والهزيمة، والنهوض والسقوط، فجاءت تجربة تضاريسها غنية بكل النماذج البشرية وبكل التجارب والمواقع الحضارية، إضافة إلى القيم المعيارية المتأتية من معرفة الوحي التي تحدد الانحراف والاستقامة، والقصور والتقصير.. وتمتاز هذه القيم بأنها خارجة عن وضع الإنسان ومسوغاته وانحيازه لإنتاجه، الأمر الذي يجعل من هذا المخزون الضخم رديفًا ودليلاً حضاريًا لتقويم مسيرة الحاضر وإبصار المستقبل.

- إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة:

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة ويؤهلها للقيام بالدور الحضاري المعاصر: إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة، وتمحور الخطاب بكل نماذجه وأبعاده حول إعادة بناء الإنسان، محور الحضارة ومعيارها، والارتكاز في ذلك إلى رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فكان بين الوحي المنزل من عند

الله، وبين الإنسان المخلوق من الله، تواعد والتقاء، ذلك أن الذي خلق أعلم بمن خلق، فلا يمكن أن يأتي تشريعه وتعاليمه متجاهلاً لحاجة أصلية أومصطدمة بكينونة الإنسان نفسه، وأن يأتي التكليف متجاوزاً طاقة الإنسان واستطاعته.

يضاف إلى ذلك أن أعظم مرتكزات الإمكان الحضاري في هذا الملمح، أن الإسلام منح الإنسان حرية التدين والاختيار، وترتب على ذلك أن جعل ميزان الكرامة والتميز كسبياً من صنع الإنسان: «التقوى والعمل الصالح»، ولم يجعله قسرياً فيعتمد الفوارق البشرية التي لا يد للإنسان في إيجادها أو نفيها كاللون والجنس والقوم والذكورة أو الأنوثة، وبذلك أصبح باب الإنجاز والبناء الحضاري مفتوحًا للجميع، وميدان السباق والتنافس على فعل الخير الذي يعتبر المهماز الحضاري هو سبيل الارتقاء والتميز، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣)، وبذلك ألغى الفوارق والحواجز والحدود، ودعا الإنسان أينما كان، فكان خطابه عالميًا منذ اللحظة الأولى لحركة الدعوة، في الوقت الذي لم تقم بعد دولة المدينة أوالجزيرة أو المناطق المحيطة جغرافيًا بجزيرة العرب، وجاء ذلك الإنجاز الحضاري الإسلامي مشتركًا عالميًا يمثل إنسانية الحضارة الإسلامية، وجعل الأجناس والأقوام والبلدان عوامل عطاء حضاري، ووسائل تكامل وتعاون، فبدّل الحوار والتعاون بالصراع والاقتتال.

- الوحي مصدر القيم والمبادئ.. والعقل أداة البرامج:

ومن الإمكان الحضاري، أن معرفة الوحي تضمنت قيماً هادية ومبادئ عامة ورسمت السياسات والمسارات الكبرى، وضبطت المسيرة بنسب متوازنة وقيم أخلاقية ثابتة، وتركت أمر وضع البرامج و رسم الخطط والتنزيل على

الواقع بحسب قضاياه ومشكلاته و استطاعاته من مهام العقل ووظائفه، وفي ذلك طلاقة للعقل، وحرية لحركته، واعتماد له في الاجتهاد ودراسة الواقع محل تنزيل النص، وتقدير الاستطاعات المتاحة في ضوء الظروف المحيطة للنهوض بالمجتمع والارتقاء به من مرحلة إلى أخرى.. فليست القيم الإسلامية قوالب حديدية تصب فيها العقول وتحاصر لتفتقد وظيفتها في التفكير والكشف التي خلقت من أجلها.. فالحضارة كسب وإنتاج بشري ضمن إطار معرفة الوحي، التي تبين المنطلق، وتحدد الهدف، وتضع الإشارات الهادية على الطريق، لتحمي الإنسان من السقوط.

لذلك تمتعت الأمة المسلمة بنوع من المناعة والممانعة الحضارية من الذوبان والسقوط، ونهضت من كبوتها أكثر من مرة وفي أكثر من موقع، واحتفظت بالإمكان الحضاري ليعاود دوره كلما وفرت الشروط والظروف، ودليلها إلى ذلك كيفية توفير شروط وظروف ميلاد مجتمعها الأنموذج، المجتمع الأول، لأن نهوض أي مجتمع مرهون بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما يقول إمام دار الهجرة رحمه الله.

- الطاقة الروحية المتجددة:

ومن الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة المسلمة، والذي يؤهلها للقيام بدور متميز ورائد لإلحاق الرحمة بالعالمين، الطاقة الروحية المتجددة المختزنة في الإيمان بالإسلام، التي تغذيها التعاليم والعبادات الإسلامية، والإقبال المتزايد على الإسلام، على الرغم من كل ظروف المسلمين، من مواقع حضارية شتى، ومستويات ثقافية وعلمية متعددة.

فهذا الضخ الروحي والثقافي والمعرفي للقرآن الكريم، وبيانه النبوي، نبع

لا ينضب، حيث لا تتم عبادة المسلم إلا بتلاوته، سراً وجهراً وسماعاً وتأملاً وتدبراً، في يوم المسلم وليلته، إضافة لتحقيق الولادة الجديدة للأمة في كل عام، حيث يسعى المسلمون من شتى البقاع إلى أرض النبوة للعيش ولو لأيام على أرض ولادة المجتمع الأول، الذي حمل الحضارة للعالمين، وحقق المساواة والتكافل مع (الآخر)، وألغى فوارق وحواجز الزمان والمكان، وما يصاحب ذلك ويسانده من توجهات للمسلمين من مواقعهم إلى بيت الحرام، محور حركة الحجيج، في اليوم خمس مرات، يستهلون من خلال هذا التوجه كل معاني الخير، ويجددون العزيمة على متابعة الطريق، إضافة إلى الدخول في دورة روحية متجددة في صيام رمضان الذي يعكف فيه الناس على الذات لإعادة صقلها بالقرآن والارتقاء بها عن الغرائز والشهوات...

إن هذه الطاقة الروحية المتجددة والمستمرة العطاء والصقل، إلى جانب العبادات الأخرى، تصوغ الفرد المسلم صياغة أخرى ليبقى فاعلاً معطاءً مؤثرًا لغيره، متحملاً لكل المصاعب، متأبيًا عن القلق والإحباط والسقوط والانكسار، حمالاً للحب والخير للآخرين، مسؤولاً عن ذلك أمام الله، مستذكرًا ذلك في عبادته، رابطًا نجاته بتنجية (الآخر)، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» (أخرجه البخاري).

إن هذه الطاقة الروحية المتأتية من طبيعة الإيمان، الذي تغذيه العبادة ويستجيب له السلوك، هي التي تشحذ الهمم وتمنحها الصبر والاحتمال والاحتساب، وتجدد الشباب الحضاري للأمة المسلمة.

- امتلاك الطاقة المادية المطلوبة لنمو الحضارة:

ومن الإمكان الحضاري أيضاً، أن معظم أنواع الطاقة المادية المتعددة، التي

تقوم عليها الحضارة وتأمن لها نموها وحركتها، مركوزة في بلاد الأمة المسلمة، من خامات، ومعادن، ونفط، ومساحات زراعية، وتنوع مناخات، وصحارى وجبال، وأنهار وبحار، وثروات حيوانية، وأيد عاملة، الأمر الذي يؤدي إلى نوع من التكامل الذي يمكن الأمة من القيام بالدور الحضاري المأمول.

ولئن كانت الأمة في بعض اللحظات التاريخية عاجزة، تنتابها حالة حياة الكَلِّ الذي يعيش عالة على مولاه أينما يرسله لا يأتي بخير، وتفتقد حياة العَدْلِ الفاعلِ البصير المنتج، التي تجعل منها منجماً فقط ومصدراً للمواد الأولية لتغذية مصانع الحضارة العالمية الغالبة، وسوقًا لاستهلاك منتجاتها بلا وعي، فلا يمنع ذلك من أن توفر هذه الطاقة يمنح قدرات كامة يمكن إذا ما توفر لها أقدار من الحرية والوعي ورفع عن رأس إنسانها الحصار والقمع والاستبداد السياسي وما يورثه من القلق النفسي، أن تتحول من نقمة استدعت (الآخر) للسيطرة والتحكم والاستحواذ، إلى نعمة تفيض الخير على نفسها وتساهم بارتقاء حضارة العالم.

ومن الإمكان الحضاري الذي يندرج في هذا المساق أيضاً، توسط الموقع الجغرافي لبلاد المسلمين، وامتلاك الممرات الدولية، ومواقع التواصل بين الثقافات والحضارات، والمخزون التراثي الذي يشكل ذاكرة الأمة ويمنحها القدرة على العطاء والحوار والتبادل الثقافي والمعرفي.

- الرصيد الكبير من الأدمغة والسواعد الإسلامية في الحضارة المعاصرة:

ومن الإمكان الحضاري الذي يشكل نوافذ أمينة على الحضارة الغالبة اليوم وطلائع متقدمة لأمة الإسلام، و مخزون جاهز يمكن الإفادة منه في إطار (الآخر)، ذلك الرصيد الضخم من السواعد -العمال الفنيين الذين يساهمون

بتحريك عجلة الحضارة- ومن الأدمغة التي تتوفر على الاختصاصات العلمية في شعب المعرفة جميعًا، والذين يساهمون برسم مسارات الحضارة وإدارتها، ويشكلون حيزًا كبيرًا من البناء الحضاري لحضارة (الآخر).. إنهم يعيشون في جوف الحضارة، ويصبون خبراتهم وطاقاتهم في مجراها، ويتمتعون بخبرات ورؤى تؤهلهم للامتداد بالحضارة إلى الوجهة الصالحة، كما تؤهلهم للوراثة الحضارية، لأنهم أكثر إدراكًا لأزمات الحضارة المعاصرة وأمراضها.

وقد لا يتسع المجال هنا لبحث أسباب هجرة الأدمغة والسواعد من أمتها وبلادها، وطردها من هنا واجتذابها من هناك، وكيف أن ذراع الحضارة الغالبة اليوم هو الذي يمتد لكل المواقع الجغرافية لاقتناص الخبرات والخيرات، وإغرائها بالحرية والمردود المالي، ويوفر لها المناخ العلمي، في الوقت الذي يساند مؤسسات الاستبداد السياسي وأنظمة القمع التي تتناقض مع قيمه الحضارية بحسب الظاهر، فتهاجر هذه الطاقات، لتشكل دماء جديد ومتجددة في شرايين الحضارة الغربية، تضمن لها السطوة والديمومة والاستمرار واحتواء حركة الحضارة والإحاطة بمواقعها.

فاليد التي تؤمن عوامل الجذب من هناك هي نفس اليد التي تؤسس لعوامل ومناخات الطرد من هنا، حتى تجاوز أمر الهجرات اليوم السواعد والأدمغة إلى هجرة الأجنة، حيث الكثير من النساء تحاول الهجرة والولادة في بلاد الحضارة الغالبة لتضمن لجنينها الجنسية والمستقبل الواعد -حسب الظاهر- بعيدًا عن مناخات التسلط والاستبداد السياسي، علمًا بأن هذه الهجرات تشكل أكبر قدر من الاستنزاف الذي يفوق استنزاف الخامات واستعمار الأرض وتكريس التخلف والتبعية والتأسيس لتقسيم العالم إلى تابع ومتبوع، ذلك أن استنزاف

الخبرات التي وصلت إلى مرحلة العطاء بعد أن صرفت عليها بلدانها الأموال الطائلة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، يمكن أن يكون أكبر مشكلة حضارية تعاني منها الأمة، لكن هذا لا يمنع من التفكير بكيفية التعامل معها والإفادة منها في مواقعها الحضارية، بعد أن أصبح العالم قرية واحدة أو كاد.

إن هذا الرصيد الكبير من الأدمغة والسواعد والأقليات المستقرة في بلاد حضارة (الآخر) يمكن أن يتحول إلى حل بدل أن يكون مشكلة ويشكل أزمة، لأن هذا الرصيد يشكل خبرات جاهزة ومستمرة ويعتلي منابر مؤثرة وله نصيب وافر ومساحة كبيرة من الحركة الحضارية وإمكانية توجيهها، إضافة إلى تلك الأقليات المسلمة -وهي جزء من الأمة المسلمة، والأمة غيرالدولة- التي لو فكرت بدورها ورسالتها في تلك المجتمعات واستطاعت أن تقوم بعملية الاندماج والتأبي عن الذوبان، أمكنها أن تشكل مناخات وقابليات وممرات هائلة لدور الأمة المسلمة وعطاء الحضارة الإسلامية.

لكن إذا بقي الأمر على حاله، وبقيت هذه الجاليات جزراً معزولة عن محيطها، يتعاورها الخطباء والمتحمسون الذين يرتحلون إليها يشحنون عواطفها ويلهبون مشاعرها ويعجزون عن التبصير بدورها ومعالجة مشكلاتها في مجتمعها، فسنبقى نراوح في أماكننا، ونكرس تخلفنا ونزداد تراجعاً.

ذلك أن هذه الأدمغة وتلك السواعد والمواقع التي تساهم بجغرافية الحضارة الغربية وديموغرافيتها، لابد لها من المساهمة بدورها الثقافي الفاعل الذي يتيح قدراً أكبر وممرات معبدة لدور الأمة المسلمة في عالم الغد.. ويبقى هذا المجال معطلاً عن العطاء كسائر مجالات الإمكان الحضاري طالما نحن متخاذلون عاجزون غير راشدين في إدراك كنوزنا التي تملأ جيوبنا وتنتظر أن تستيقظ عقولنا وتستعاد فعاليتنا.

- الاعتراف بالأخر:

ولعل من الإمكان الحضاري الملفت، ما أكدته القيم الإسلامية أو معرفة الوحي في الكتاب والسنة وتضمنته التجربة الحضارية الإسلامية التاريخية، من الاعتراف (بالآخر)، وعدم إقصائه أو إلغائه -ليس على مستوى الفكر وإنما على مستوى الفعل أيضاً- واستمرار الحوار معه، ودعوته إلى الحق، وأكدت على طريقة وأسلوب الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، والتعامل معه بدون شروط مسبقة ومسلمات مبهمة، بل البدء برحلة مشتركة في التعاون والبحث عن الحق من مواقع واحدة متساوية، والاستناد إلى أهمية معرفة (الآخر) قبل حواره.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران:٦٤)، أبلغ مدى يمكن أن ينطلق فيه ويصل إليه الحوار، إضافة إلى الاعتراف ببعض الفضائل التي عليها (الآخر) واستصحابها.

- معرفة (الآخر):

والحديث عن الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، كما يقتضي البحث في الإمكانات المتاحة للأمة، لابد أن يقتضي أيضاً الحديث عن الظروف المحيطة أو عما يسمى (بالآخر)، سواء كان غالباً مسيطراً بثقافته وحضارته أو كان شريكاً، لأنه بشكل أو بآخر أحد الأبعاد التي تتعامل معها الرسالة الحضارية للأمة، ذلك أن الدور الحضاري للأمة -كما أسلفنا- ذو بعدين: بعد يرتكز على الذات ومعرفة إمكانها بدقة، وبعد يتوجه إلى معرفة (الآخر)، وليس مجرد الاعتراف به، لأنه هو محل الدعوة أو المجال الحضاري لدور الأمة أو لرسالة الإسلام، لأنه إذا ما استجاب فسوف يصبح من الأمة، وينسلك بنفس الدور.

وأي تفكير بدور حضاري للأمة في عالم اليوم أو عالم الغد لابد أن يضع في اعتباره معرفة (الآخر) والإحاطة به: عقيدته، وثقافته، وفلسفته عن الحياة، وتاريخه، وواقعه، ومشكلاته أو أزماته التي يعاني منها، وإدراك أسبابها، وعلى الأخص إذا كان يقود الحضارة الغالبة التي نعيش ثمراتها وتنعكس علينا آثارها وأزماتها وأمراضها بشكل أو بآخر.

هذه المعرفة بشكل عام هي السبيل الصحيح للتعامل مع (الآخر)، أخذاً وعطاءً، تأثراً وتأثيراً.. وإذا كانت جدوى ذلك أو تجليات ذلك غير واضحة تماماً فيما مضى، فثورات الاتصالات والإعلام التي تمكن وتمهد للوصول إلى مرحلة العولمة ،تجعل ذلك واقعاً ضمن إطار الضرورات الحضارية أو الفروض الحضارية.. ولا نرى أنفسنا بحاجة إلى الدخول لغرفة الانتظار المكتظة لنزيدها رقمًا لا قيمة له في التربص وترقب سقوط حضارة (الآخر) لحسابنا أو لسواد أعيينا -كما يقال- حتى ولو لم نتوفر على أدنى شروط الوراثة الحضارية.

لدرجة يمكن أن نقول معها: إن المساحات التعبيرية التي تحدثت عن (الآخر) في معرفة الوحي، وتاريخه وعقيدته وتعامله ومناقشته والعواقب التي قد ينتهي إليها إذا لم يبحث عن الحق، تكاد تفوق المساحات التعبيرية التي تحدثت عن عقيدة التوحيد والعبادة والتكاليف الشرعية المطلوبة من المسلم أو توازيها.

هذا البعد من الاعتراف بـ(الآخر) وطلب الحوار معه من مواقع متساوية، والاعتراف بما يمتلك من الفضائل والإيجابيات، وعلى الأخص أن الإسلام ليس دين جنس أو لون أو حكراً على أحد، يمنح آفاقاً وإمكانات حضارية تؤهل

الأمة -لو كانت في مستوى إسلامها وعصرها- للقيام بدور حضاري غائب أو مفقود على مستوى الذات و(الآخر).

وحسبنا أن نقول هنا: إن الحضارة الغربية أو حضارة الغالب، في أحد وجهيها، تعاني من إشكاليات كبيرة وتأزم إنساني مخيف وفوارق اجتماعية ومآس كبرى تهدد مستقبلها، إلى درجة أن هذه الأزمات والإشكاليات لم تعد تقتصر عليها وإنما أصبحت تلك العدوى أو الوباء الحضاري والاجتماعي تصيب العالم جميعه، بأقدار متفاوتة، ذلك أن المشكلات والأزمات أصبحت عالمية، وأصبحت همَّ الجميع، فالعولمة العتيدة لن تقتصر على العطاء والاحتواء الحضاري والثقافي، وإنما على توريث وإشاعة المشكلات والأزمات أيضًا.

ولا شك أن فهم (الآخر) لا يتأتى بدون تخصص في المجالات المتعددة لتُؤَدى الشهادة الحضارية على وجهها السليم، حيث لا ينفع مع الحضارة المكث والانتظار لسقوطها بسبب أمراضها، ولا حتى بالتأبي عن دخول غرفة الانتظار والاستعاضة عنها برجم الحضارة دون أن ندري أننا بهذا الرجم والرفض نصيب أنفسنا أيضًا.

من ملامح الحضارة المعاصرة

وقد يكون من المفيد هنا تقديم بعض الملامح المساعدة على رؤية الحضارة الغالبة في حقيقتها، وبالتالي المساهمة بمنح أقدار أو آليات لكيفية التعامل معها، وتحديد الدور الممكن للأمة المسلمة.

- حضارة تكتشف أمراضها:

ولعل في مقدمة هذه الملامح التي تأذن باستمرار الحضارة لغياب البديل في

المدى المنظور: إحساسها بأمراضها وفزعها منها.. وليس الإحساس فقط، وإنما الإدراك لمستقبلها وخطورتها والتفكير المستمر في سبيل علاجها وكيفية معافاة الحضارة منها، إلى درجة يمكن القول معها: إن معرفتنا بالأمراض الحضارية اليوم، التي نكتب ونخطب فيها، ليست من كشفنا وبحثنا وتحليلاتنا، إنما هي قراءة في إحصاءات وكتابات ودراسات أصحاب الحضارة نفسها، فأهل الحضارة هم الذين يكتشفون أمراضها بأنفسهم، ونحن قد نمثل في ذلك رجع الصدى، إضافة إلى أن الحضارة المتسلطة والغالبة اليوم ليست مصابة بعمى الألوان والصلف المردي، وإنما تسعى لاكتشاف أمراضها ومداواة نفسها بنفسها، وهذا لا شك سوف يمد بعمرها وسطوتها.

كما أن الحضارة المعاصرة، تجاهد حتى لا تصل إلى مرحلة الشيخوخة الحضارية وألا تنطبق عليها نظرية الدورات الحضارية الخلدونية المعروفة، لأنها تحاول استيعاب واستدعاء الشباب الحضاري واحتواءه من كل العالم لتتقوى به على شفاء نفسها وضمان استمرارها.

فإذا كانت الحضارة تأفل في مكان لتظهر في آخر، وتهاجر من موقع وقع فيه الانحلال الحضاري أو الانقراض الحضاري لغلبة مرحلة الغريزة والاستهلاك إلى موقع مؤهل للوراثة الحضارية، بما يمكن أن يسمى بعملية التداول الحضاري أو سنة التداول الحضاري التي يؤكدها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، فإن الخطورة تكمن في أن الوجهة الكونية للحضارة المعاصرة أو وجهة العولمة تحاول أن تجعل التداول الحضاري والهجرات الحضارية تتحرك على محورها وفي فلكها وضمن مجالها وتحكمها.

وقد لا يكون مستهجناً أن نقول: إن الدورات الحضارية التي قال بها

علماء الحضارة، لم تعد تتعاقب اليوم وإنما تتجاور في إطار الحضارة نفسها وفي الوقت نفسه، في محاولة لتحديد الخلل ومواجهته ولو بأدوية مستوردة من سواعد وأدمغة من رصيد الحضارات الأخرى.. وإذا كانت الحضارة تشرق من مكان وتغيب في آخر -كما أسلفنا- فإن الحضارة المعاصرة الغالبة اليوم تحاول السيطرة على المشرق والمغرب معاً، لتكون الحركة الحضارية في إطارها، بل لعلها تحاول هضم الحضارات جميعاً والتقوي بها، وصبغها بصبغتها الحضارية.

ونحن لا نقول هذا لنساهم بتشكيل ذهنية الاستحالة والسقوط في العجز والتوهين للفرد والأمة المسلمة، وإنما لننقذ الأمة من ذهنية السهولة التي تعيشها، لتبصر المناخ الذي تعيشه، وتعرف سبل التعامل معه، وتخرج نفسها من غرفة الانتظار، وتسعى في توفير شروط الوراثة الحضارية أوالمساهمة الحضارية، على الأقل في المرحلة الأولى.

- الارتهان الحضاري:

والأمر الذي لابد من الاعتراف به وتجاوز عقدة الفخر بالذات، أن الحضارة الغالبة حققت سبقاً حضارياً وإنجازاً في المجال المادي تصعب مجاراته ومجاوزته، إن لم يكن ذلك مستحيلاً، لسطوتها وتحكمها وامتصاص الخبرات العالمية جميعها، وإنهاك وتوهين البدائل والمنافسين.

وأن هذا السبق الحضاري يورث لوناً من الارتهان الثقافي للأمم الأخرى، بحيث لا يمكنها تجاهله أو إلغاؤه أو رفضه، ذلك أن الكثير من هذا السبق والإنجاز بدأ يغرق حياتها ويصبغ ثقافتها، لذلك فالأمم التي لا تمتلك ممانعة حضارية ولا تمتلك ما تعطي وتنطوي على ثقافات هشة سريعة العطب، مهيأة للذوبان بسرعة في الأمم الأخرى، والدوران في فلك الحضارة ذات السبق..

فالرفض لها ورد الفعل يبقى نوعًا من التأثر بشكل أو بآخر، وإن بات التأبي عنه يكاد أن يكون في خانة المستحيل اليوم.. والمقارنة التي نمارسها اليوم هي نوع من التعامل مع سطح الحضارة دون النفوذ إلى كنهها وإبصار الدور الحضاري للتعامل معها.

رؤية في كيفية بناء دور الأمة الحضاري

فإذا كان السبق الحضاري، وخاصة في المجال المادي وما يحمل في طياته من أبعاد ثقافية يشكل لوناً من الارتهان، فإن مجاراة الحضارة ومسابقتها في هذا المجال وردم فجوة التخلف يكاد يصبح من المستحيل، لمحاولة الحضارة الغالبة استيعاب جماع الحركة الحضارية والاجتماعية في جوفها، ولحالة العجز والتخاذل وانطفاء الفاعلية التي تعيشها الأمة المسلمة.

فما هو إذن الدور الحضاري للأمة في عالم الغد، وما مشروعها الحضاري للمستقبل؟

- تحديد الموقع الممكن من مسيرة الحضارة المعاصرة:

ابتداءً نرى -وفي ضوء مجموعة تلك التجليات الحضارية- أن الأمة المسلمة بما تمتلك من إمكان حضاري سبقت الإشارة إليه، لابد لها أن تحدد موقعها بدقة من مسيرة الحضارة المعاصرة، وتدرس الفراغ الكبير الذي تعاني منه تلك الحضارة، لتمتد فيه، وتقدم قيمها ورسالتها الإنقاذية لحركة الحضارة المادية، مستلهمة رسالات النبوة التي تحملها للعالمين، ذلك أن الأنبياء جميعًا لم يسابقوا أقوامهم من الملأ والكبراء فيما هم فيه، ويتحدوهم بالإنجاز المادي، من نحت البيوت وإقامة الأهرامات وكنز الأموال والاستغراق في الاستهلاك

واللذائذ والتأله وتعبيد الناس، وإنما تقدموا لهم بالدور المفقود في حياتهم، والمطلوب لسعادتهم وإلحاق الرحمة بهم.

لقد أدركت النبوة تاريخياً المدخل الصحيح للتعامل مع الحضارات القائمة، بحيث أصبحت تشكل حاجة وعلاجاً ومصيراً.

فالدور الحضاري للأمة يتطلب، بعد تحديد الموقع، تحديد المداخل الحضارية أيضاً ، ومنح الحضارة حاجتها المفقودة ، والنفخ فيها بالروح المفقودة، لاسترداد إنسانية الإنسان، والتحول من الاهتمام بأشياء الإنسان، وهي مهمة بلا شك، إلى التوجه لترقية خصائص الإنسان وتحقيق سعادته، لأنه معيار الحضارة الحقيقي.

- التخصص في شعب المعرفة:

الوراثة الحضارية المأمولة لا تتأتى دون شروط ومقومات.. و هذه الشروط الموضوعية لا يمكن تحصيلها وضبط نسبها وتحديد موقعها ودورها بدقة، وتقويم نتائجها، واكتشاف إصاباتها، وأسباب عدم بلوغها أهدافها بدون إدراك أهمية التخصص في شعب المعرفة المتعددة.. وليس إدراك ذلك فقط، وإنما الانخراط فيه وممارسته واعتباره ديناً من الدين، ووسيلة من وسائل إظهار الدين، وأن الفقه به من الفقه في الدين -بمدلوله الواسع- استجابه لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة: ١٢٢).

وعند توفر التخصصات وتحقيق الكفاية من المتخصصين في المجالات جميعاً، يتحقق تقسيم العمل وإتقانه والإبداع فيه، وتتغير شبكة العلاقات الاجتماعية، ويسقط شبح ووهم الرجل الملحمة الذي يفهم بكل شيء، ويعود

الخطباء والمتحمسون إلى مواقعهم، ويبرز الفقهاء والخبراء ليأخذوا مواقعهم في الشهادة على العصر والقيادة للمجتمع، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤).

وهذه التخصصات المتنوعة التي تعتبر من فروض الكفاية على الأمة جميعاً، تتحول مسؤوليتها لتصبح من الفروض العينية لمن يختارها، بحيث يدرك أنه إنما يحقق مقاصد الدين في الحياة، فينمو وينبغ ويتقن ويكتشف فيها، وهو مستشعر أنه يترقى بالثواب كلما ترقى بتخصصه، حتى لا تغلب عليه مناخات التخلف فيغادر تخصصه ويتحول إلى الوعظ الديني، بمفهومه الحسير، الذي قد لا يحسنه، أو لا يختلف فيه كثيراً عمن يتلقى عنه، وبذلك يساهم بفصل الدين بل بعزله عن الحياة.. وهذا يقتضي إعادة النظر بفقه فروض الكفاية، وتصويب مفهومها، الذي تشبع بالكثير من عقلية التخلف والتقليد والتوارث الاجتماعي، حتى أخرجت من ساحة الفقه والحياة، واقتصرت على مفهومها على حالات الوفاة وتشييع الجنائز.

ذلك أن إشاعة التخصص وتغيير شبكة العلاقات الاجتماعية سوف يقتضي تقسيم العمل، ويؤكد أهمية التكامل الحضاري، ويؤدي إلى التحول إلى العمل المؤسسي الذي تتوافر له كل الاختصاصات المطلوبة، ويتخلص من الرجل المؤسسة أوالصورة المؤسسية التي تكون في خدمة الرجل، ليصبح الرجل في خدمة المؤسسة.

و ما لم ندرك أهمية التخصص وما يؤدي إليه من تقسيم العمل أو إتقانه وإبداعه، فإن الدعوة إلى العمل المؤسسي يبقى محاولة لاستنبات البذور في الهواء.

وتبقى ملحوظة لابد من ذكرها هنا، وهي أن الفروض العينية، أو ما يجب أن يُعلم من الدين بالضرورة، تحمي المسلم المتخصص من الآثار السلبية المترتبة على الانقطاع للتخصص الدقيق الذي تشكو منه ثقافة الحضارة المعاصرة.

- إعادة النظر في كيفية التعامل مع النص:

ومن الشروط المطلوبة لبناء الأهلية للوراثة الحضارية، إعادة النظر في كيفية التعامل مع النص أو مع معرفة الوحي بشكل أعم، والتحول من الاقتصار على البحث والدراسة حول إثبات النص وتحقيقه وسنده -وقد بلغ ذلك شأواً لم يدع استزادة لمستزيد، وتلقته الأمة بالقبول، وشهد له العلم بالتوثيق، إلى درجة يكاد يكون الأمر محسومًا- إلى التفكير بكيفية إعمال النص في الحياة وتنزيله على الواقع وتقويم مسيرته به، إضافة إلى أهمية فقه مواصفات الخطاب القرآني والبيان النبوي أثناء عملية التنزيل على الواقع، وإعمال النص في حياة الناس، لأن غياب هذا الفقه يوقع الدعاة والعاملين في تقديم الإسلام كوريث حضاري للكثير من الارتباك والتناقض والتباين والتعميم، ولا نقول غياب التمييز بين الألوان، فهناك -كما هو معروف- خطاب للدعوة له مواصفات خاصة، وخطاب للتعبئة والمعركة، وخطاب للنصر، وخطاب للانكسار والهزيمة، وخطاب على مستوى العقيدة، وخطاب على مستوى الدولة والعلاقات الاجتماعية، وآخر لكيفية الحوار والتعامل مع (الآخر).. وهكذا.

فإذا لم نتحقق بفقه مواصفات الخطاب وفهم محل تنزيله بدقة، فيمكن أن نقع بمضاعفات وإحباطات وإخفاقات تتيح المجال لحضارة وثقافة (الآخر)، لأن:

وضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف في موضع الندا

- فقه الاستطاعة:

ويترتب على هذا الفقه لمواصفات الخطاب، أو يستلزم، ما يمكن أن

نصطلح عليه بفقه الاستطاعة، أو فقه المحل المراد تنزيل الخطاب عليه، لأن أبعاد التكليف إنما تتحدد بمدى الاستطاعة، وما كان خارجاً عن الاستطاعة فهو خارج عن التكليف ابتداءً في هذه الحالة، فالله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، ويقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن:١٦)، فإذا لم تتوفر الاستطاعة لا يرد التكليف.. وهذا لا يخل بمفهوم أن شريعة الله والتكاليف الشرعية بمجموعها واقعة ضمن طاقة الإنسان واستطاعته بشكل عام.

وعليه فإن الاستطاعة هنا تعني تطبيق الأحكام الإسلامية التي تقع ضمن حدود استطاعة المكلف ولو فاته تطبيق بعضها بسبب عدم استطاعته.. وببذل الاستطاعة يترقى الإنسان في تطبيق الأحكام، فيصبح الصعب مستطاعًا، والمستحيل صعبًا، وهكذا.. وحال الأفراد كحال المجتمعات في هذا.

لذلك يمكن القول: إن الإسلام يبدأ مع الناس ويتعامل معهم من الحال التي هم عليها والاستطاعات التي يملكونها، فإذا طبقوا من الأحكام ما يطيقون، أي ما يقع تحت استطاعتهم فقد طبقوا الإسلام المكلفين به في هذه المرحلة، حيث لم يكلفوا بما لم يطيقوا.

لذلك فكل مجتمع يطبق الشريعة بحسب إمكاناته، ويتأهل بهذا التطبيق إلى الارتقاء إلى استكمال التطبيق وتوفير الاستطاعات، حيث لا يمكن القول والادعاء في ضوء ذلك الفقه، بأن المجتمع غير مؤهل لتطبيق الإسلام، وأنه بحاجة إلى تأهيل، فالتأهيل يتم بالإسلام نفسه للارتقاء والاستكمال، وليس بقوانين وشرائع أخرى، حيث يستحيل عقلاً وواقعًا أن يؤهل مجتمع

بقوانين وقيم ومفاهيم لتطبيق قيم وشريعة ومفاهيم أخرى.

لذلك فإن من شروط الوراثة الحضارية، إلى جانب فقه مواصفات الخطاب، فقه المحل، أو فقه الحالة التي عليها الناس، أو الاستطاعة.

- **إحياء سنة الحوار:**

ومن الشروط المطلوب توفرها لتقوم الأمة بدورها المأمول وتهيأ للوراثة الحضارية وإلحاق الرحمة بالناس، إحياء سنة الحوار، بأبعاده وآدابه ومواصفات خطابه، ومتطلباته من معرفة (الآخر)، والتدرب عليه من خلال الخطاب القرآني نفسه، ذلك أن المساحة التعبيرية التي شغلها (الآخر) في القرآن تكاد -كما أسلفنا- تفوق المساحة التي تحدث عنها بالنسبة للعقيدة والعبادة والأخلاق في الإسلام، لأن هذه المرتكزات الإسلامية تأصلت وتحققت بالحوار نفسه.

وقد عرض القرآنُ (الآخَر) بكل آرائه ومعتقداته وممارساته، ابتداءً من الحوار مع إبليس رأس الشر وانتهاءً بكل الأنواع المخالفة، ذلك أن الحوار هو أحد الأبواب العظيمة للدعوة، والسبيل لإيصال الحق من قنواته الطبيعية في الإقناع والبرهان وأدب التعامل.. فالإنسان هو المخلوق المختار الذي لا ينفع معه الإكراه، وعلى الأخص أن التدين يعتبر أرقى مجالات الحرية والاختيار.

ونحب أن نوضح: أن الحوار مع (الآخر)، وإتاحة الفرصة لتبادل الرأي، للوصول إلى قناعات معينة، أو للوصول إلى صيغ مشتركة للتفاهم والتعاون، هو مطلب إسلامي، وإحدى وسائل الدعوة والبلاغ المبين، شريطة أن يوفر للحوار شروطه، من إتاحة الفرص المتكافئة ، وتحرير موضوع الحوار، والالتزام

بآدابه وأخلاقه، بل هو أكثر من مطلب إسلامي، أو أحد خيارات المسلم، إنه تكليف شرعي، يقع تحت مدلول قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل:١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)، ذلك أن الدعوة إلى دين الله، وسبيله، محلها ابتداءً: (الآخر).

ولم يقتصر القرآن على الأمر بالمجادلة، وإنما نص على أسلوبها، واشترط أن تكون بالتي هي أحسن، وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونحسب أن المبادرة بالحوار، والدعوة إليه، يجب أن تبدأ من عند المسلمين، وأن يكون المسلم أكثر حرصاً عليها من (الآخر).. ولعلنا نرى في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)، تكليفًا شرعيـًا لا يخص عصراً بعينه، ولا حادثة بعينها، ولا يجوز أن يعتبر سبب النزول قيداً لخلود النص وتجرده عن قيود الزمان والمكان.. فمقتضى خلود النص يعني: أن التكليف جار وقائم في كل زمان ومكان.. والدعوة إلى الحوار، واللقاء بـ(الآخر) ومحاججته بالتي هي أحسن، وظيفة المسلم، لإلحاق الرحمة بالناس.. وما يمتلك المسلم من قيم سماوية معصومة منزلة من رب العالمين وتجربة تاريخية فذة، وشخصية حضارية وثقافية تجعله في موقع مكين، يدفعه إلى الإيجابية، وطلب الحوار، ويجعل مكاسبه من الحوار مقدرة ابتداءً، ذلك أن (الآخر) سوف يتأثر على كل حال.. وليس بالضرورة أن تظهر النتائج بشكل سريع، فكثير من الصحابة رضوان الله عليهم سمع القرآن لأكثر من عشر سنوات، وكان الحوار بالقرآن،

وكان المحاور الرسول ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وجاء إيمانه متأخراً، ومع ذلك أبلى في الإسلام بلاءً حسنًا، وانتصر هذا الدين على يده، في معارك كثيرة، فكرية أو فقهية أوعسكرية، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢).

لذلك لا نرى عذراً ولا مصلحة في إقفال باب الحوار مع (الآخر)، أو نفيه أو إلغائه مهما كانت الأسباب.. وقد يكون من الخطورة بمكان ترك المبادرة لغير المسلمين، لتنظيم ندوات الحوار وتحديد أهدافه وموضوعه، واستدعاء بعض الإسلاميين لملء المربعات المرسومة لهم مسبقًا، بحيث تنتهي ندوات الحوار لتصب في مصلحة (الآخر) في نهاية المطاف، خاصة إذا كان الكثير من الإسلاميين المدعوين ممن استنبتوا على التربة الإسلامية، وغرسوا فيها لهدف، حيث جعلت مهمتهم توهين القيم الإسلامية ومقاربتها بقيم الحضارة الغربية، التي تمثل (الآخر) في الحوار الدائر اليوم.

والأخطر من ذلك، فيما يسمى اليوم: ندوات للحوار بين الإسلام والغرب، أن يدعى للحوار والمشاركة وتمثيل الإسلام، أو الطرف الذي يحاور عن الإسلام، في هذه الندوات، بعض العلمانيين الذين يسكنون جغرافياً في العالم الإسلامي، لكنهم في الحقيقة مسكونون بالغرب، ثقافة وحضارة ومنهجًا، مرتهنون للغرب في كل شيء.. لأنهم لا يمثلون الثقافة والحضارة الإسلامية، لقلة بضاعتهم فيها، من جانب، ولأنهم منحازون بطبيعة دراستهم وثقافتهم للغرب، من جانب آخر.

لذلك فالحوار معهم ليس حواراً مع (الآخر)، وإنما هو لون من النرجسية الثقافية، والتخاطب مع الذات، فالمؤسسات الغربية ومراكز البحوث والدراسات

والجامعات، عندما تدعوهم فهي لا تدعو (الآخر)، وإنما تدعو تلامذتها، وخريجيها، وحاملي ثقافتها، وتحاور بهم نفسها، وعلى ذلك فهي تزداد جهلاً بالإسلام والعالم الإسلامي، وتعجز عن فهمه من الداخل، وتأخذ صورة مشوهة، وتفسيرات بعيدة عن الحقيقة.

ولا نزال نذكر بهذه المناسبة، بعض ما نشر في أعقاب أحداث كبيرة ومنعطفات تاريخية مرت ببعض بلاد العالم الإسلامي، ولم يكن الغرب يتوقعها، أو يضعها في اعتباره، كيف أن العلمانيين المثقفين في العالم الإسلامي، كانوا وراء التضليل الذي وقع فيه الغرب، بسبب اجتهاداتهم وأفكارهم وتحليلاتهم، لأنهم في الحقيقة لا يمثلون الأمة المسلمة، ولا يعبرون عن رأيها، وإنما هم يمثلون العمالة الثقافية للغرب.

لذلك فإن الاعتماد عليهم بالفهم والتفاهم مع العالم الإسلامي، أدى إلى سوء الفهم واستمرار العجز عن إدراك حقيقة الإسلام، وحقيقة الصحوة الإسلامية، وأهدافها، ودوافعها، وتكريس الصورة المغلوطة عن عالم المسلمين.

- إحياء المنهج السنني:

ومن الشروط المطلوبة لقيام الأمة بدورها في العطاء والتأهل للوراثة الحضارية، إحياء وتأصيل المنهج السنني كمبدأ قرآني، واعتبار السنن الجارية هي أساس لكل كشف واختراع وتسخير وارتقاء وتغيير ونهوض ومداخلة وتعامل، والتحول من انتظار حدوث السنن الخارقة للإنقاذ إلى التعامل والتفاعل مع السنن الجارية المرتبطة بعزمات البشر، والتيقن بأن الحياة لم تخلق عبثًا ولا مصادفة، وإنما كل شيء خلقه الله بقدر.. فلكل شيء في هذه الحياة سنة وقانون ينتظمه.. ومهمة الإنسان في الاستخلاف والعمران كشف هذه السنن

وتسخيرها والارتكاز عليها في مسيرته الحضارية.. وهذا الاعتقاد هو أساس الإبداع والتقدم العلمي، وبدون هذ المنهج السنني تبقى محاولات النهوض كالضرب في الحديد البارد.

وقد عرض القرآن نماذج لهذه السنن المطردة كسنة الأجل، وسنن التدرج، وسنن التداول الحضاري، وسنن التغيير، وسنن السقوط والنهوض، وهذه السنن جميعها خاضعة لسنة تعتبر من الأهمية بمكان، هي سنة التدافع أو المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ..﴾ (البقرة:٢٥١).. ولولا هذا التدافع وإمكانية دفع سنة بسنة وقدر بقدر، لكانت الحياة عبارة عن قوالب حديدية تصب فيها حركة الإنسان كسائر المخلوقات المبرمجة غريزياً، بعيداً عن أية إرادة وقدرة.

وهذا المنهج السنني لن يتأتى أو يتأسس إلا بفقه النص والاهتداء به، والاستجابة له في السير بالأرض، والتعرف على سنن السقوط والنهوض.. فالمؤمن ليس الذي يستسلم للقدر، وإنما المؤمن الحق هو الذي يدفع القدر بقدر أحب إلى الله، كما يقول ابن القيم رحمه الله.

- تأسيس الشورى وتأصيل مناهج النقد والتقويم:

ولا يمكن أن تتحقق الأمة بالدور المطلوب للوراثة الحضارية إذا لم تستشعر أهمية الشورى ولم تؤصل مناهج للنقد والتقويم والمراجعة والتمييز بين القيمة والذات والأفكار والأشخاص، فتعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال، وتحويل هذا الشعار المعلق على المنابر والمحبوس في الكتب والمؤلفات إلى واقع معيش، والاهتداء بمنهج القرآن والسنة في التقويم، والسيرة ومرحلة خير القرون في التنفيذ.

ذلك أن المشكلة التي نعاني منها على أكثر من مستوى، ولأسباب لا مجال لذكرها هنا، تضخيم الذات على حساب الفكرة، بحيث انقلبت الموازين تماماً، فأصبح الرجال معيار الحق، وأصبحت الذات معيار القيم، وحلت محل العقل والفكر، والقوة معيار الحق والصواب، وسبيل الحل، إلى درجة أدت إلى استدراج الكثير من العاملين للإسلام إلى معارك وقتال بلا عدو، وترك السلاح الفاعل الذي يملكونه إلى التعامل مع السلاح المغلول الذي لا يملكونه، فعاد التصنيم وعادت الصنمية بصور أخرى، وأصبح الذي يملك الفكر والرأي لا يملك القرار، ولا علاقة له بصاحبه، والكثير ممن يملك القرار لا يملك الفكر والرأي، ويتحكم بالخلق بسبب قوته، وانفصل السلطان عن القرآن في كثير من تاريخنا الحضاري.. والأمل الباقي أن الأمة لا تزال منحازة إلى القرآن، الأمر الذي يمنحها قابلية النهوض، ويحتفظ لها بالإمكان الحضاري.

إن الدورات الحضارية الخلدونية وسنة التداول الحضاري نالت من الدول المسلمة المتعاقبة ولم تنل من الأمة، التي استطاعت الامتداد بالإسلام والاحتفاظ به وإقامة المؤسسات البديلة عن الدولة لتعيد النهوض والتجديد، ذلك أن الأمم والشعوب أقوى من الدول والحكومات، والقيم والمبادئ أبقى من السياسات، والنبوات والعقائد أقدر من الفلسفات.

- إطلاق حرية الاجتهاد الفكري:

ومن الشروط المطلوب توفرها حتى تستطيع الأمة أن تسترد دورها في الشهادة الحضارية على الناس وإلحاق الرحمة بالعالمين، إطلاق حرية الاجتهاد الفكري على أوسع مدى، واحترام التخصص والخبرة وتقديم أهل الخبرة (الحل والعقد) على أهل الثقة (المتحزبون)، حيث لا ثقة بمن لا خبرة

ولا اختصاص له.

وهذا الاجتهاد وتحريك العقول، وتوسيع دائرة الرأي والتشاور والتفاكر والتثاقف، والحوار الداخلي، والحوار مع (الآخر)، هو الذي يحرك رواكد الأمة، ويطلق طاقاتها المعطلة، ويثير فاعليتها، ويشحذ همتها، ويذهب بغثائها، ويثبت صوابها، وينقلها من موقع التلقي والأخذ إلى موقع المساهمة والعطاء الحضاري العالمي، ويحول دون امتداد (الآخر) في المواقع التي تعاني من الفراغ الثقافي.. وسوف لا يتحقق ذلك إلى أن تتنادى الدولة والأمة في العالم الإسلامي إلى كلمة سواء فيما بينها، فتتحول بعض الدول من مواجهة الأمة إلى التكامل معها، بحيث تدرك أنه بمواجهتها للأمة وقيمها ومواريثها الثقافية إنما تكسر أسلحتها بأيديها وتزداد ارتهانًا لـ (الآخر) وعجزًا عن أي عطاء أو مساهمة حضارية.

وهذه الحرية في الاجتهاد، هي استجابة وتحقيق لخصائص القرآن في الخلود والامتداد، ولازمة من لوازم بعث التجديد والتجدد واكتشاف الأمراض، الذي يعتبر ديناً وتكليفاً شرعياً.

- التحول من ذهنية التعبئة والحماس.. إلى ذهنية الفقه والاختصاص:

ومن شروط النهوض وامتلاك القدرة التي تمكن الأمة من القيام بدورها الحضاري في عالم الغد، والإفادة من الإمكان الحضاري المركوز في أرضها ومواريثها الثقافية، التخلص من ذهنية التعبئة والحشد والحماس، والتحول إلى ذهنية الفقه والاختصاص.. التحول من مرحلة التكديس إلى مرحلة الإنتاج، ومن مرحلة التحشيد إلى مرحلة بناء الوعي، ذلك أننا -فيما أرى- استغرقنا وقتًا طويلاً ولا نزال في عمليات التعبئة والحشد والغضب والحماس غير

المدروس وغير المخطط له، أي دون إبصار المرحلة التالية التي تستوعب هذا الحماس وتلك التعبئة، ووضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة في ضوء الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، فأدى هذا إلى زراعة الألغام الاجتماعية في جسم الأمة، والانفجارات غير المدروسة أو المحسوبة، والتحرك أحيانًا تحت رايات عمية من حزبية وطائفية، الأمر الذي أوقع بإحباطات كبيرة وإهدار لطاقات خيرة، كان العاملون للإسلام أول ضحايا هذه الانفجارات، وأصبحوا ألغامًا ذات جاهزية تزرع هنا وهناك، وتصفى الكثير من الحسابات الإقليمية والدولية بتفجيرها في الوقت المناسب.

ونحن مع الأسف لا نعي الدرس ولا نفيد من العبرة أونحقق الوقاية الحضارية، ونستمر في التعبئة، فأكفأنا أعلانا صوتًا وأكثرنا ضجيجًا، ونظن أن الشديد بالصرعة، وكلما سقطنا في موقع فتش المتحمسون والخطباء على موقع آخر لم يسقط بعد، لنساهم سلبياً بإسقاطه (!) وبذلك نعيد مآسينا وتجاربنا، ونلدغ من الجحر مرات ومرات، ونفلسف الهزائم بأنها من قدر الله، ونعفي أنفسنا من التبعة والمسؤولية، ونلقي بتبعة الفشل على القدر.

- التخطيط لدور الأدمغة و السواعد المهاجرة:

ومن الشروط المطلوبة للنهوض وامتلاك الأمة القدرة على القيام بالدور الحضاري المأمول لإلحاق الرحمة بالعالمين، وتقديم عطاء حضاري متميز وغائب عن حضارة اليوم، التخطيط لدور ذلك الرصيد الضخم من السواعد والأدمغة، الذين يعيشون في جوف الحضارة المعاصرة -كما أسلفنا- ويشكلون ركائز أساسية في بنيتها، وكيف يمكن أن نحقق الوعي لهذا الرصيد برسالته الحضارية، وكيف نخطط لبناء مرجعيته الإسلامية ونحقق له الارتكاز

الحضاري، ونعينه على فهم دوره في إعطاء الحضارة المعاصرة طعمها المفقود، والمساهمة بقيادة مسيرتها من الداخل إلى خير الإنسانية.

وبتعبير أدق: كيف يمكن أن يشكل هذا الرصيد نماذج حضارية متميزة ومختلفة عن الأنموذج القائم، تبصر دورها، وتشكل طلائع العمل الحضاري الإسلامي لأمتها؟ كيف يمكن لهذه الأجنة الحضارية أن تنمو وتمثل وليداً حضارياً جديداً، يخرج من رحم الحضارة الغربية؟ خاصة وأن هذا الرصيد موجود في كل المواقع، وكل التخصصات، وكل المعامل والمخابر والمصانع، كما أن هذا الرصيد يمكن أن يكون هو الجسر الحضاري الذي تمر من خلاله القيم الحضارية الإسلامية لعقل وروح وساعد الحضارة المعاصرة.

و من جهة أخرى كيف يمكن للأمة الإسلامية أن تفيد من هذه الخبرات والطاقات النافعة في جامعاتها ومستشفياتها ومخابرها ومعاملها ومراكز دراساتها؟ كيف يمكن أن تستضيف هذه الطاقات لتشكل روافد علمية وتخصصية وخبرات عملية لنهوض الأمة المسلمة، ويشكل هذا الرصيد دليلها الحضاري للتعامل مع الحضارة المعاصرة؟

لكن وللأسف الشديد فإن شيوع صور الاستبداد السياسي والقمع الأمني المنتشر في بعض بلاد العالم العربي والإسلامي، كان ولا يزال وراء طرد هذه الخبرات، والحيلولة المستمرة دون الإفادة منها، وتقديمها لقمة سائغة خالصة (للآخر)، فلا ننتفع منها في بلادها الأصلية، ولا ننتفع منها في داخل الحضارة المعاصرة.

وليست حال الأقليات المسلمة المنتشرة في العالم جميعه بأقل شأناً في عملية التغيير الحضاري العالمي وحمل رسالة الإسلام إلى العالم، لو تحقق لها

الوعي المطلوب بدورها واستشعرت مسؤولياتها عن إظهار دينها، وإنقاذ الحضارة من أزمتها ، وأمراضها، بتقديم نماذج عمل عن البديل المأمول، تمارس الاندماج في حضارة العصر، وتتأبى عن الذوبان.

وإذا كان عمالنا أعمالنا -كما يقال- فليس حال الذين يتولون أمر ترشيد وتوعية هذا الرصيد بأحسن حالاً منه، في كثير من الأحيان، حيث لايقدمون لهم شيئاً من أدله العمل ولا من كيفية التعامل مع الحضارة المعاصرة، وما هي رسالتهم فيها، وإنما يخطبون ويخطبون، وتمر السنوات وتتغير عناوين المؤتمرات والملتقيات -بصرف النظر عن أهمية وجدوى هذه الطروحات- والخطباء هم الخطباء المسافرون إليهم، مهما اختلفت الموضوعات المطروحة والظروف المحيطة والمشكلات القائمة والمعاناة الكبيرة..

والذي يتيح الفرصة الأفضل للمسلمين الذي يعيشون في داخل الحضارة المعاصرة، أن تلك الحضارة هي محصلة جهود بشرية متنوعة وليس من صناعة جنس بشري واحد، أو جغرافيا واحدة، إلى جانب حرصها على الإفادة من جميع الخبرات والتراكمات السابقة، حتى إن القائمين عليها هم من عناصر شتى، ويشكل المسلمون فيها حيزاً كبيراً في شتى المجالات الفنية والمعرفية، وهم رصيد جاهز، لو أحسنا التعامل معه لأدى الدور الحضاري المتميز في عالم الغد.

- القراءة الدقيقة لمركب الحضارة المعاصرة:

ولعل من الشروط الأساسية المطلوب توفرها للأمة المسلمة حتى تقوم بدورها في عالم اليوم والغد، قراءتها الدقيقة والمتخصصة لمركب الحضارة المعاصرة التي تتقدم بخطى حثيثة صوب العالمية، وتوطن نفسها لاستيعاب

جميع الخبرات والطاقات واحتوائها في مواقعها.. وهي تسعى اليوم للتحكم والسيطرة على أفق الحضارة، على فجرها ومغيبها معًا، بحيث تجعل الدورات الحضارية الخلدونية دائرة جميعها على محورها، متجاوزة في جوفها، وليست متعاقبة يخلف بعضها بعضًا، فهي التي تحاول أن تيسطر على المنبع الحضاري والمصب في الوقت نفسه، وتجدد شبابها بالإفادة من خبرات العالم، وتكتشف أزماتها وأمراضها بنفسها، وتحاول أن تعالج نفسها بعيداً عن الصلف والعتو.

فهي الحضارة الغالبة المتحكمة، ذات السبق المادي، حيث طوت اليوم عصر الميكانيكا لتدخل حقبة العصر الإلكتروني بكل آفاقه وإمكاناته وأبعاده، لذلك نرى المُنْتَج والمُسْتَهلَك حيثما كانت هويته وجغرافيته يصب في مجراها، ويوظف لخدمتها، ويساهم بارتقائها المادي، فهي الحضارة ذات السبق والامتداد على المدى المنظور.

لذلك لا مندوحة للأمة المسلمة حتى تستطيع أن تقوم بدورها وتبلغ رسالتها وتنقذ البشرية من أزمتها، من قراءة دقيقة لهذه الحضارة، ومن ثم تحديد الموقع الذي يمكن أن تحتله، والمدخل الذي يمكن أن تلج منه، والمفقود في الحضارة الذي يمكن أن توفره، ذلك أن منازلة الحضارة المعاصرة اليوم في جانبها المادي هو نوع من الانتحار، والمزيد من هدر الطاقات وضلال السعي، والعبث بالإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة، وتكريس الذيلية، والنكوص عن حمل الأمانة.

فالأمة المسلمة بما تمتلك من الأمور المفقودة في الحضارة الغربية، ومن المعالجات الشافية لأمراض الإنسانية، ومن الرصيد العظيم والمتنوع للحضور الإسلامي في داخل الحضارة المعاصرة، فإنها في الموقع القادر على أن تكون

دليلاً حضارياً ينقذ الحضارة المعاصرة من أزمتها وأمراضها، ويوجهها صوب تحقيق إنسانية الإنسان وإلحاق الرحمة به.

وتبقى العبرة بالعواقب والمآلات وليس بالنتائج القريبة والمنظورة، فالوراثة الحضارية لها شروطها التي لابد من توفرها، من الصلاح والإصلاح، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء :١٠٥)، ويقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف :١٣٧).

والانقراض الحضاري له سننه وقوانينه، فالبقاء للأصلح في نهاية المطاف وليس للأقوى، وحتى لو قلنا البقاء للأقوى، فالأصلح هو الأقوى بكل المعايير وإن بدا لنا في ومضة سحر عيوننا غير ذلك، فلا يلبث أن يبطل السحر: ﴿...وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه :٦٩).

والحضارة المعاصرة بمقدار ما تشكل لنا تحدياً وأزمة بمقدار ما تمنحنا إمكانية لتوظيف تقنياتها لخدمة رسالتنا وإظهار ديننا الذي هو دين الإنسانية عامة، الذي يحمل الرحمة والخير للعالمين، تساهم الأمة بالفعل الحضاري الإنساني، وبتوجيه عجلة الحضارة الوجهة السليمة.

فالوراثة الحضارية باتت لا تعني التعاقب أو التداول والنفي والإقصاء بعد هذه الثورة المعلوماتية الاتصالية والإلكترونية، بمقدار ما تعني القدرة على التحرك من داخل الحضارة لتغيير وجهتها، حيث لم تعد الحضارة حكراً على أحد وإنما هي مشترك إنساني وتراكم معرفي، والأصلح هو الأقدر على تحديد وجهتها، وإن تحكم فيها وعبث بها بعض الجبابرة والمستكبرين إلى حين، ذلك أن الاستكبار ذاته هو الذي يستدعي البديل الحضاري الذي يحتل

غرفة القيادة الحضارية، ويسير بها وفق هدايات الوحي المعصوم لإلحاق الرحمة بالعالمين، التي من أجلها جاء رسول الإسلام والإنسانية، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وبعد؛

فهذه الإمكانات التي أتينا على ذكرها، والتي يمكن أن تصنّف في إطار النعم، والطاقات المهيأة لتسخير الإنسان وتوظيفه لها، واغتنامها في بناء حضارة إنسانية راشدة، سوف تتحول إلى نقم إذا لم يتوفر الإنسان الراشد القادر على التعامل معها وحسن توظيفها واستثمارها وتعظيم دورها.

فهي في غياب الإنسان الراشد تصبح أشبه ما تكون بالأموال الوفيرة التي تملأ جيوب القاصرين والسفهاء فتكون وبالاً عليهم أو وسيلة لاستغلالهم واستدعاء الأوصياء.. لذلك يبقى المطلوب دائماً:

كيف نعد إنسان الحضارة، ونسترد فاعليته ورشده، قبل التفكير بأشيائه وإمكاناته الحضارية؟

والله ولي التوفيق.

الشهادة الإصلاحية للأمة المسلمة

الدكتور فريد الأنصاري*

الأمة المسلمة ذات مناعة تكتسب بها قوة الاستمرار وإمكان النهوض المتجدد، إذا توفرت الشروط التاريخية.. إنها تمتلك الرصيد الذي يعاني الغرب من فقدانه.. وهذا مَعْقد الأمل فيها، فإذا كان اليوم بالفكر فإنه غداً سيكون بالفعل.. فأول الفعل إمكان.

مما يبعث الأمل في النفوس أن هذه الأمة -رغم الانحطاط الذي تعيشه اليوم على عدة مستويات- ذات مناعة ذاتية ضد الانحلال التام والتفتت الوجداني المؤدي إلى الانقراض! وذلك لخاصية (الشهادة) التي فطرها الله عليها، فكانت بذلك أمة (وسطاً): ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

ومن أهم مقتضيات هذه (الشهادة) كون الأمة ذات طبيعة تقويمية نقدية إصلاحية، تحمي قيمة التدين، وتدافع عن الوجدان الخلقي في المجتمع ضد التمييع المفهومي والسلوكي للقيم الاجتماعية.. هذا التمييع الذي يؤدي إلى التحلل

---

* باحث.. وأكاديمي (المغرب).

والانقراض عادة! وتلك من سنن الله الماضية في خلقه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ (الإسراء: ١٦).

إن الأمة الإسلامية بإحيائها لهذه القيمة في نفسها اليوم -رغم ما تجد في سبيل ذلك من صعاب وتحديات- لا تضمن لنفسها (أمانًا) في عالم الغد فحسب، ولكن تضمن بإذن الله -فوق ذلك- موقعًا رياديًا على المستوى الحضاري القيمي، من حيث امتلاكها لهذه الإرادة الفطرية التلقائية، التي تجعلها مصدرًا عالميًا (للخير) بمعناه القرآني، قال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤). وقال ﷺ في حديث متواتر المعنى: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**»(١).

وما ذلك كله إلا لأن من أصول التعبد في الإسلام -من حيث هو دين- الشهادة الإصلاحية أو الدعوية، القائمة على حماية الوجدان الديني للمسلمين، ورعايته، أو استنباته في بيئة غير المسلمين، خدمة لدين الله، وتعميرًا للقلب بعمران العبادة، ومن هنا كانت (الشهادة الإصلاحية) بهذا المعنى شعورًا فطريًا في بيئة الاجتماع البشري الإسلامي. ومعلوم أن التعبد هو الغاية الأولى من التدين، والقصد الأصيل من الخلق. وهذا معنى كلي استقرائي قطعي من النصوص الشرعية. والمقصود (بالتدين): هو إقامة الدين على المستويين الفردي والجماعي. إلا أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن إقامة الدين على مستوى الجماعة لا يمكن أن تتم -لا في التصور ولا في الواقع-

---

(١) هذا اللفظ متفق عليه عن معاوية، وروي بألفاظ أخرى عن عمر، والمغيرة، وثوبان ، وأبي هريرة، وقرة بن إياس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وعقبة بن عامر، في الصحيحين وكتب السنن والمسانيد، وكلها روايات صحيحة واردة في (ص.ج.ص)= صحيح الجامع الصغير للألباني من رقم (٧٢٨٧-٧٢٩٦).

إلا بعد إقامته على مستوى الفرد، لأن المقصود في النهاية هو خضوع الإنسان لإرادة الله الواحد القهار، وذلك هو معنى (التعبد) الجامع لكل ذلك، حيث إن الشريعة -بل الشرائع الإلهية- إنما جاءت لتخرج الإنسان عن داعية هواه حتى يكون عبداً خالصًا لله. قال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦-٥٧).

والعبادة: معنى دال على الخضوع التام لله قلبًا وقالبًا، بالرجوع الدائم إليه سبحانه في كل ذلك. وأكثر ما يتجلى هذا في (العبادات المحضة) كما يعبر الفقهاء، من صلاة وصيام وزكاة وسائر أركان الإسلام الخمسة، فتسمية المرء (عبدًا) و(عابدًا) إنما على هذا تقع بالقصد الأول، ولا تقع على غيره من العبادات إلا تبعًا؛ ولذلك قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠). والحصر في الآية الأولى (نص) في هذا المعنى بتعبير الأصوليين، ولذلك كان هو الغاية من كل عمل اجتماعي، أو ثقافي، أو إعلامي، أو اقتصادي، أو سياسي، أو نقابي، لا ينبغي أن يغيب عن الذهن، باعتبار أن كل ما ذكر -وما في معناه- إنما هو وسائل له. فإذا ضاع هذا الضابط من الذهن، أو غاب هذا القصد في العمل، انحرفت حركته عن (الإسلامية) إلى الحزبية الضيقة، أو المصلحية الآنية، أو العلمانية الجاحدة، أو الطائفية الضالة! وجامع ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١).

وهذا معنى كلي مبثوث في الشريعة، بل إنه هو معنى الشريعة من حيث هي شريعة إلهية، تربط الأرض بالسماء! واستقراؤه يدل على ذلك. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (آل عمران: ٦٤). وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: ١٤).

وتلك سنة الله في إرسال الرسل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥). والعبادة هي -كما ذكرنا- الائتمار والانتهاء بأمر الله ونهيه، والتفاني في طاعته بما شرع من عبادات محضة بالقصد الأول. ومن هنا كانت أولى صفات عباد الرحمن أنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ (الفرقان:٦٣-٦٤)، ولذلك كان من أضاع هذه المعاني دخل في الغي: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ (مريم:٥٩). إذن فخلاصة الأمر الديني في النفس والمجتمع واحد، هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ (البينة:٥).

ولو تتبعت هذ المعنى في السور والآيات لاضطرك ذلك إلى سرد القرآن كله! وهو في الحديث النبوي لا يقل كثرة وتواتراً من حيث (كلي المعني) عما ورد في الكتاب، وهنا أسوق حديث جبريل المشهور، فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فاسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال:

يا محمد! أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**، قال: صدقت.. فعجبنا له، يسأله ويصدقه! قال: فاخبرني عن الإيمان، قال: **أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر**،

وتؤمن بالقدر خيره وشره.. قال: صدقت.. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**.. قال فأخبرني عن الساعة، قال: **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**.. قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: **أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**.. ثم انطلق، فلبثت مليًا. قال: **يا عمر أتدري من السائل**؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1].

فالعبارة الأخيرة دالة بعمومها على أن ما ذكر في الحديث هو (كل) الدين! لدلالة النكرة المضافة إلى الضمير (دينكم) على الاستغراق والشمول.. والمتأمل في نص الحديث يجد أن مآل الدين فيه إنما هو العمل، وأن أهم الأعمال فيه إنما هي (الصلاة)، فالإيمان مضمون عقدي ينحصر في أركانه الستة المذكورة، فهو الذي يعطي للعمل صحته وصدقه، وكلما كانت معانيه مستشعرة في (الإسلام) بمعناه في الحديث؛ كان العمل أحسن، حتى إذا كانت المطابقة في أعلى صورها كان (الإحسان) الذي ليس إلا نتيجة لعمران الإسلام بالإيمان إلى درجة الامتلاء!

ثم يتأكد هذا التفسير العملي للحديث بما ورد بعد من سؤال عن الساعة، فقال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**» ليؤكد ضرورة الأخذ من الدين بالعمل، فيؤول الأمر في النهاية إلى (الإسلام) الذي ورد ههنا بمعنى الأركان الخمسة. وقد أشرنا إلى أن أهمها على الإطلاق هو الصلاة! لكونها أعظم عبادة عند الله، ولأنها الشعار الدائم للمسلم في حياته الفردية والجماعية. ولذلك كانت (كليتها) أعظم الكليات في القرآن والسنة على الإطلاق! ومن هنا قول النبي ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم**

---

(١) أخرجه مسلم.

الصلاة، **فمن تركها فقد كفر**»[1] وقوله ﷺ: «**بين الكفر والإيمان ترك الصلاة**»[2]. وقوله أيضاً: «**بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة**»[3]. ولذلك كان: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة! فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله!**»[4]، فكأنه عليه الصلاة والسلام اختزل الدين كله في الصلاة! حتى إنه كان من آخر وصاياه ﷺ: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم! الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[5].

إن قصدنا من هذا الاستطراد في إيراد نصوص الصلاة هو بيان أن جوهر التدين عبادة، وأن العبادة -كل العبادة- صلاة، بمعناها الوجداني، أعني ذلك الاتصال الروحي بين العبد وربه، فهذا الوجدان -الذي يتحقق أكثر ما يتحقق في الصلاة- هو المطلوب بذاته في سائر معاني الدين وأعماله، و(الشهادة الإصلاحية) للأمة المسلمة إنما هي قائمة على هذا الأساس.

وهو معنى في غاية الكلية في الدين، ويكفي أن تفتح أبواب الصلاة في الصحيحين وكتب السنن لتتأكد من ذلك، وما أوردنا من النصوص كاف بحمد الله.

---

(١) أخرجه احمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه الألباني في (ص.ج. ص): (٤١٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي عن جابر، وصححه الألباني ٢٨٤٩.

(٣) أخرجه مسلم وغيره عن جابر.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، والضياء عن أنس وصححه الألباني ٢٥٧٣، وقد أخرج نحوه بوجه صحيح أيضاً كل من أحمد وأبي داود والنسائي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً، كما أخرجه عن تميم الداري كل من أحمد وأبي داود وابن ماجه والحاكم، وأخرج نحوه عن ابن مسعود أيضاً الإمام النسائي، وكل ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ بوجه صحيح، انظر صحيح الجامع: ٢٥٧١، ٢٥٧٢، ٢٥٧٣، ٢٥٧٤.

(٥) أخرجه عن أنس كل من أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان، وأخرجه عن أم سلمة كل من أحمد وابن ماجه ، كما أخرجه الطبراني عن ابن عمر، وصححه الألباني ٣٨٧٣.

وقد يقول قائل: إن هذه من البدهيات، فنقول: نعم، إنه معلوم من الدين بالضرورة؛ لكن حركات الصحوة الإسلامية المباركة بتأكيدها الشديد لبعض الوسائل من باب (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) أخفى هذه الحقيقة على كثير من العاملين في إطار الدعوة! فصارت كثير من الوسائل مطلوبة لذاتها، وكأنها هي الدين كله! وأصبحت الموالاة والمعاداة تتم على أساس الوسائل، لا على أساس الغايات، وهذه طامة كبرى!

ومن هنا إذن كان التدين من حيث الجوهر وجدانًا تعبديًا، أو بمعنى آخر عملاً بالطاعة وبعدًا عن المعصية. ولذلك وجب أن يكون كل عمل إصلاحي قائمًا على هذا المعنى، ذاتًا وغاية.

فأما الغاية فقد سبق القول: إن التعبد هو الغاية من الخلق، وأما الذات فلأن العمل الإصلاحي هو في ذاته عباده، لا يخرج عن بنية التدين، فهو عمل دعوي يسعى إلى إقامة الدين. ومن هنا حرص الشارع على بناء المجتمع الإسلامي بناء تكون أسسه الداخلية ذات طبيعة إصلاحية، أي أن وجدانه يرفض المنكر بطبعه ويعزله. وهذا راجع إلى (إسلاميته)، أي انتمائه إلى الإسلام كدين. فالأمة المسلمة مهما يكن من أمر هوانها وانحطاطها، فهي -ما دامت مسلمة- تحتوي على عناصر نقدية في بنيتها الداخلية، لتجاوز انحطاطها. إنها تسعى بشكل طبيعي عبر الزمن لإقامة الشخصية الحضارية لذاتها، على عينها ووحيها. وهي لذلك أمة غير قابلة للذوبان في المحيط العالمي الفاسد، بل إن لها القدرة الذاتية على التأثير فيه! إن (العولمة الثقافية) لن (تحتوي) أمة تملك القرآن الكريم والسنة النبوية، ولو كانت لا تتعامل معهما -في كثير من الأحيان- إلا على مستوى اللاشعور!

من هنا إذن كان من لوازم التدين الشهادة الإصلاحية على الناس. وهو مضمون

واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي به كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

إن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من حيث هو (شهادة إصلاحية) واجب شرعي، يتعلق عيناً بذمة كل فرد من أفراد الأمة، على سبيل التعبد العيني! وهو كلية قطعية، نستفيدها من الاستقراء القطعي لدلالة النصوص عند تحقيق مناطاتها في واقعنا هذا.

أما الاستقراء فقد ثبت هذا المعنى من خلال نصوص كثيرة واضحة، نشير ههنا إلى بعضها من مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ووصف الله بني إسرائيل بما لعنهم، فقال الله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٨١).

وقد تواتر وجوب ذلك –معنى– عن النبي ﷺ في مثل قوله فيما رواه عنه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، إذ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم**»[١]، وأيضاً ما رواه عنه ﷺ جرير ابن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: «**ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، هم أعز وأكثر ممن يعمله، ثم لم يغيروه؛ إلا عمهم الله تعالى بعقاب منه!**»[٢]، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه

(١) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه الألباني ٧٠٧٠.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان وصححه الألباني ٥٧٤٩.

سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر، لا يُغَيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه!**»[1] وقال ﷺ: «**إن من أمتي قومًا يعطون مثل أجور أولهم: ينكرون المنكر!**»[2]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يسأله ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرِقْتُ من الناس**»[3] وكذا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ﷺ قال: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[4]. ثم قوله ﷺ: «**إذا عُملَت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»[5]، وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشرِبَها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.. والآخر أسودَ مُربَادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، إلا ما أشْرِب من هواه!**»[6]... إلخ.

والأحاديث في هذا المعنى وشبهه، من وجوب النصح للأمة وأئمتها وعامتها

---

(١) أخرجه أحمد.. وأخرجه باختلاف في اللفظ أبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني برقمي ١٩٧٣، ١٩٧٤.

(٢) أخرجه أحمد وصححه الألباني ٢٢٢٤.

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان وصححه الألباني ١٨١٨.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) أخرجه أبو داود عن العرس بن عميرة، وحسنه الألباني ٦٨٩.

(٦) أخرجه مسلم.

ولكل مسلم، لا تكاد تنحصر، فهو معنى استقرائي قطعي، إذ يشكل قوة معنوية متواترة، وكلية في أعلى مراتب الكليات، بتعبير الأصوليين!

والقارئ لهذه النصوص يجد أن من بينها ما يفيد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفائي، من مثل ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ الآية، وقوله ﷺ: «**إن من أمتي قومًا...**» الحديث؛ وهو معنى صحيح، لكن القول بالعموم أيضًا صحيح، أعني عينية الوجوب على كل مكلف، وإنما ذلك على حسب وضع الزمان وأهله -كما سنفصل بحول الله- ولذلك وردت صيغ أخرى تقتضي العموم من مثل قوله ﷺ السابق: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي...**» الحديث، وكذلك قوله ﷺ السابق: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه...**» الحديث، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام: «**من رأى منكم منكراً..**» الحديث؛ كلها صيغ دالة على العموم، بل إن أغلب ما ورد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو صيغ عموم، دالة على إلزام سائر المكلفين به! ويتبين ذلك عند تحقيق المناط كما ذكرت، وبيانه كما يلي:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره عملاً إصلاحيًا وجهاديًا، لا يمكن أن يكون له حكم تشريعي جزئي قار، باعتبار أن الفساد يزيد وينقص في الأمة من جيل إلى جيل، ومن مكان إلى آخر، ومن هنا كان واجبًا كفائيًا باعتبار آخر، تمامًا كحكم الجهاد في سبيل الله، وهذا إنما هو فرع منه! أعني أن الجهاد في سبيل الله صورة جزئية من كلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك كان حكمهما واحداً.

فمن خلال النصوص السالفة يتضح جليًا أن (وجوب التغيير) متعلق بشرط، هو (رؤية المنكر): «**من رأى منكم منكراً**» أي حضره و(شهده) كما في بعض الروايات

المذكورة: « **كان من شهدها** » الحديث، أي حضرها. فالكفائية هنا متصورة عندما يكون حصول المنكر جزئيًا في المجتمع، فكأن (من رأى) هذه تدل على أن المنكر إنما هو ذلك الواقع بالجزء، أي في مكان ما وحال ما. فمن شهد ذلك المنكر حينئذ هو الذي يتعلق الوجوب بذمته، باعتباره ينوب فيه عن الأمة الغائبة عنه. وهذا فهم سليم، لكن لا يتحقق مناطه إلا في مجتمع إسلامي صالح على الإجمال حيث الفساد لا يقع إلا بصورة جزئية.

أما وأن الحال في كثير من مجتمعاتنا هذه غير الحال في السابق، حيث إن المنكر صار من (عموم البلوى) فلا أحد باستطاعته الزعم أنه لا يشهد منكرًا ما في كل دقيقة بل ثانية! يحدث في هذا المكان أو ذاك! خاصة إذا أضفنا إلى معنى شهود المنكر ما ورد في الحديث المذكور: « **إذا عُملت الخطيئة في الأرض؛ كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها** » فحقق مناط هذا على واقع تحكمه وسائل الإعلام الفضائية ليل نهار! ويحاصره غول الفجور من كل مكان، وعلى كل الأصعدة والمستويات! الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية.. .إلخ.

ومن هنا أصبح واجب تغيير المنكر المتوقف على شرط (من) متعلقًا بعموم كل مكلف على سبيل الاستغراق والشمول! لصدقه فعلاً على جميع المكلفين في هذا الزمان، كل حسب وسعه.. والأحاديث السالفة وغيرها إذا نظر إليها مجتمعة أفادت هذا المعنى، لما تتضمنه من تهويل وتعظيم لهذه الفريضة في الدين، وما صحب ذلك من الوعد والوعيد العظيمين: « **والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم** »، ونحو ذلك مما لا حاجة إلى إعادته وتكراره.

ووجوب الأمر بالمعروف مع وجوب تغيير المنكر -في الحقيقة- هما أمران متلازمان، وإنما انفرد تغيير المنكر بالذكر لما للمنكر من خطر -إذا فشا في المجتمع- مؤد إلى قتل الحاسة النقدية للأفراد، التي هي سر حماية التدين في الأمة. ومن هنا كان الوعيد شديدًا -كما رأيت- في حق كل من تخلى عن واجب التغيير بما يستطيع من الوسائل الحكيمة الممكنة لديه.

ولا بد بعد هذا من بيان أن تغييرالمنكر لا تدخله (رخصة إسقاط) أبدًا! وإنما الترخص فيه يحصل في وسائله الممكنة، ولا يسقط حق الله فيه بإطلاق! وقد يفهم العكس من حديث: «**من رأى منكم منكرًا**»، إذ درج بعض الشراح على تفسيره بأن الواجب فيه يتوزع على حسب المناصب السياسية في المجتمع، فجعل واجب التغيير باليد من نصيب السلطة التنفيذية، أي الحكومة، والتغيير باللسان من نصيب السلطة التشريعية، أي البرلمان، والتغيير بالقلب من نصيب العامة أي الشعب، محاولين الوصول إلى أن المقصود به السكوت! ولهذا السبب خاصة أحببنا الوقوف مع هذا الحديث وقفة أطول من مجرد الاستشهاد على كلية تغيير المنكر. ونورد ذلك بحول الله في صورة مسائل فقهية، هي كالتالي:

المسألة الأولى: أن قوله عليه الصلاة والسلام: «**من رأى منكم منكرًا**»، لفظ دال على العموم كما بينا آنفًا، وتخصيصه بغير موجب، من موجبات التخصيص المشروعة عند الأصوليين، تحكم! فلا يزال على عمومه إذن، حتى يرد دليل التخصيص، بل هوخطاب للأمة جمعاء، لكن طبعًا على تفاوت في المسؤولية -لا ينكر- من حيث متعلق الوجوب، وقد تبين أن ذلك شامل لكل الأفراد في هذا الزمان، وأن الكفائية فيه ظرفية كما أن العينية كذلك، وعموم البلوى بالمنكر، يقتضي عموم الحكم! وهو الوجوب، وهو حال زماننا لا مراء! وقد تبين أن درجة الفجور في الأمة قد استوجبت

في كثير من الأحوال تدخل السنة الكونية؛ مما يؤذن بالخراب والعياذ بالله! فيكون تغيير المنكر بذلك من (المستعجلات)، الشبيهة بالحالات الطبية الخطيرة، فكل المسلمين إذن معنيون بهذا الحديث وما في معناه مما سبق ذكره.

المسألة الثانية: أن التغيير باليد ههنا يقتضي أمرين:

الأول: أن التغيير (باليد) لا يقصد به الجارحة، أي العضو المعروف، وإنما المقصود به كلي الفعل البشري المادي والوجداني! أي كل طاقاته الفعلية، الظاهرة والباطنة. وقد دأب كثير من الناس -مع الأسف- على تفسير التغيير (باليد) على أنه العمل العنيف والتدخل المادي الأهوج، لتغيير المنكر؛ الشيء الذي يزيد من التمكين للمنكر وترسيخه، بله أن يغيره! أو بمعنى آخر: أن التغيير باليد معناه الانخراط الوجداني الكلي في حركة تغيير المنكر، فيكون مغيراً له بكل إمكاناته المادية والبدنية والمالية واللسانية والنفسية والعصبية ومواهبه الشعورية والفكرية... إلى غير ذلك مما اكتسبه أو فطر عليه من طاقات، منضبطًا في كل ذلك طبعًا بالضابط الشرعي الثابت أبداً بقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٤). فهو لذلك شامل لكل ما ذكر بعد في الحديث من تغيير باللسان أو القلب.

وليس التغيير باليد هو الفعل المبني على العنف كما قد يفهم من ظاهر الحديث. ودليلنا على هذا التفسير اللغة والسياق. أما اللغة فإن لفظ اليد يطلق في العربية ويراد به التأكيد، كما تقول في الشيء (صنعته بيدي) وأنت تقصد (بنفسي) وهو معنى دال على الكلية، أي الانخراط الكلي في الفعل، ولذلك عبروا (باليمين) لمثل ذلك. أما السياق فإن استعمال (اليد) ههنا جاء على سبيل (الرمز) فقط إلى معنى الحركة، دل عليه لفظ (اللسان) «**فإن لم يستطع فبلسانه**»؛ فإن الفهم الحرفي السطحي

للسان يحيل إمكان تغيير المنكر به! وهو أمر واضح جلي، وإنما المقصود تغييره بالكلام. واللسان هنا رمز له. فكذلك كانت اليد رمزاً للحركة، إذ قد يغير المرء المنكر برجله إذا سعى إليه ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ٢٠)، فهو إذن وظف كل طاقاته وإمكاناته، (فسعى) إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويؤكد هذا المعنى أيضًا أن التفسير الحرفي للحديث سيترك مجالات ووسائل أخرى مهمة في تغيير المنكر غير واردة بإطلاق في العمل الإصلاحي، وقد علم أن الأنبياء والمصلحين قد فعلوه، من مثل التغيير بالحراسة والسهر ليلاً، والتغيير بالمال، وكذا التغيير بشتى أنواع المساعدة البدنية، أو غير ذلك من الأفعال الممكنة مما لا يدخل تحت المعنى (الحرفي) لليد أو اللسان أو القلب! فيكون ما صرنا إليه إذن هو الأصوب والمتسق مع ما قررناه. وعليه فيكون الساهر -مثلاً- على مؤسسة علمية، أو خيرية، أو إعلامية.. إلخ، تستغرق كل وقته وفكره وجهده وبدنه، وتملأ وجدانه وشعوره من حيث كلي الاهتمام، كل ذلك وشبهه يكون فيه المرء (مغيراً بيده).

الأمر الثاني: أن التغيير باليد -بالمعنى المذكور- هو العزيمة في الاستجابة لمعنى الأمر المقتضي للوجوب: (فليغيره!) وأن الانتقال منه إلى غيره إنما هو من قبيل الرخصة، والرخصة لا تصح إلا بشروطها كما هو معلوم في الأصول، وهو تحقق العلة الموجبة للانتقال إليها من العزيمة، وإلا ما صح التيمم بحضرة الماء مع انعدام مانع استعماله.. إذن فليس من اختيار المرء أن يغير بما شاء من وسائل اليد أو اللسان أو القلب على سبيل التشهي! لأن الانتقال من وسيلة إلى أخرى مشروط بعدم الاستطاعة (فإن لم يستطع)، وهو من قبيل قوله تعالى في سياق خصال كفارة

الظهار: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ (المجادلة: ٤) وذلك بعد تحقيق عدم الاستطاعة في ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أولاً، ثم في ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ثانيًا! فلا ينتقل من درجة إلى أخرى إلا بشرط تحقيق العجز الموجب لذلك الانتقال. وهو كلام سار في كل درجات تغيير المنكر من اليد إلى اللسان إلى القلب.

وتحقيق عدم الاستطاعة لايتم إلا بالتأكد الفعلي من ذلك، ولا يصح التوهم، ولذلك قال الفقهاء بالنسبة لعادم الماء للوضوء: (ينبغي طلب الماء) فلا يكتفي بالظن أنه غير موجود، فلا بد إذن من محاولة التغيير باليد، بالانخراط الكلي في الدعوة، حتى يثبت القدرة على الفعل أو العجز، فينتقل بعد ذلك إلى الوسيلة التي تليها.

المسألة الثالثة: أن الانتقال من التغيير باليد إلى التغيير باللسان هو انتقال من الكل إلى الجزء؛ لأن العمل باللسان جزء من العمل باليد -بناء على ما فسرنا- إذ الكلية البشرية تتضمن من بين طاقاتها الطاقة الكلامية. لذلك كان الأمر بالتغيير باليد شاملاً لكل الطاقات التي من بينها طاقة الكلام، أو اللسان. فالمعنى إذن: أن من لم يستطع توظيف كليته فليوظف جزئيته، ولا شك أن أهم تلك الجزئيات هي اللغة أي الكلام! وإنما قامت الرسالة الإسلامية على (الكلام)، وهو النص القرآني والحديثي، فلذلك كان اللسان أفضل ما يوظفه من لا يستطيع الانخراط الكلي في حركة تغيير المنكر، لأنه الوسيلة الأكثر نجاعة من بين طاقات الفرد الجزئية، فيدخل فيه الكلمة الناصحة، والموعظة المؤثرة، والفتوى الهادية، والخطبة اللاهبة، والنصيحة الحكيمة، والمقالة المرشدة.. .إلخ، من شتى ضروب الكلام المسموع والمكتوب، فكل ذلك من وظائف اللسان، يتعين النوع منه على الناس كل حسب مستطاعه وإمكاناته.

المسألة الرابعة: أن التغيير بالقلب فعل من الأفعال، وليس سكونًا، كما ذهب إلى ذلك بعضهم، وذلك لأمرين: الأول: طبيعة هذا الدين، والثاني: سياق اللغة..

فأما الأول فإنه لا يجوز في حق الرسول ﷺ أن يقر أمته على السكوت على المنكر، بمعنى السكون السلبي تجاهه، فلا بد من التغيير مهما كان ضئيلاً. وقد رأيت الآيات والأحاديث مجمعة على هذا، لما تتضمنه من وعيد شديد في حق تارك التغيير. وأما الثاني: فإن لفظ التغيير (فليغيره) مفهوم بوضوح من قوله: « **فإن لم يستطع فبقلبه** » أي: فليغيره بقلبه! وهذا التقدير مما لا يختلف عليه اثنان، والتغيير كما تعلم (حركة) وليس سكوتًا أو سكونًا، بل إنه نقل الشيء من حال إلى حال، ولا معنى للتغيير غير ذلك.

فالمقصود بالتغيير بالقلب إذن إحداث (تحول)، إلا أن الفرق بينه وبين سابقيه من التغيير باليد واللسان أن هذا التغيير باطني (قلبي) أي ذاتي، وهذه إشارة مهمة منه عليه الصلاة والسلام إلى طبيعة المنكر، تفيد أن المنكر ذو طبيعة متعدية، فإن لم تغيره غيَّرك، ولا وجود لاحتمال وسط، أي لا منزلة بين المنزلتين. ولذلك فإنه يستحيل عقد هدنة مع الشيطان، فكلما تقابل الحق والباطل في موطن إلا وجب تدافعهما حتمًا. وذلك يقع إما بفعل الإنسان (الفعلي)، أو بفعله (القولي)، أو بفعله (القلبي). ذلك أنك حينما تعجز تمامًا عن استعمال الوسيلتين الأوليين، فاعلم أنك مهدد بأن تكون ضحية المنكر، وتقع تحت إغوائه وتأثيره؛ لذلك وجب إذ عجزت عن تغيير غيرك أن تقوم بتغيير ذاتك؛ لأن رؤيتك للمنكر مع السكوت تؤدي إلى التأثر به ولو بنسبة قليلة، وهي مسألة نفسية مفادها أن التعود على رؤية الأشياء تطبع النفوس عليها فتألفها مع التكرار.

وكل رؤية مع عدم الإنكار تحدث في القلب أثرًا، قد لا يشعر به المرء منذ الوهلة الأولى لقلته وخفائه، لكن تواتر ذلك يؤدي في النهاية إلى أن يصبح المنكر في الشعور النفسي أمرًا عاديًا، أو (طبيعياً)، فإذا حصل ذلك دخل الخطر إلى مرحلة أخرى وهي

مرحلة تحبيب المنكر! وهو أمر مشاهد محسوس في وقتنا هذا إذ عليه تقوم نظرية (الإعلانات الإشهارية)، في المجال التجاري.

فالرسول ﷺ إنما كان ينبه بالتغيير بالقلب على خطورة (التطبيع النفسي) مع المنكر، فأمر بالتغيير القلبي، أي (تحريك) القلب تجاه المواجهة الداخلية، والمقاومة الذاتية للمنكر، تمامًا كما هو جهاز المناعة الصحي القوي (المتحرك) في الجسم البشري لمقاومة الأمراض والجراثيم، فهو إذن (حركة) لكنها غير مرئية، هذا ما تشهد به كثير من النصوص مما ذكرنا. وقد سلف قوله ﷺ: «**إذا عُملت الخطيئة في الأرض.. .إلخ**» وهذا ظاهر -بالاصطلاح الأصولي- فيما نحن فيه. و(النص) -باصطلاحهم دائمًا- في ذلك هو قوله ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نُكتَ فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.. والآخر أسودَ مُرْبَادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه!**»[1]، فهذا تفسير قاطع لكل الاحتمالات البعيدة، والتأويلات الفاسدة.

ومن هنا نخلص إلى صحة الدعوى من أن أمره ﷺ بتغيير المنكر عام شامل لكل مكلف في نفسه، شهد منكرًا، أو سمع به، وقد رأيت بنص الحديث الصحيح أن من سمع كان كمن شهد في خصوص هذا السياق، وهو بتحقيق مناطه اليوم يكون واجبًا عينيًا بذمة كل مكلف في ذاته تجاه نفسه والآخرين، وجوبًا لا تسقطه رخصة إسقاطًا تامًا، وإنما تتباين مراتبه حسب مؤهلات الفرد وإمكاناته، كما بيناه بما لا شبهة بعده تشوش عليه والحمد لله.

---

(١) سبق تخريجه.

ومن هنا إذن نخلص إلى أن الأمة المسلمة ذات مناعة خاصة، تكتسب بها قوة على الاستمرار في أحلك الظروف، وإمكان النهوض المتجدد، إذا توافرت الشروط التاريخية لذلك.. فهي إذن أمة المستقبل لا شك.. إنها تمتلك الرصيد الذي يعاني الغرب اليوم –وغداً– من فقدانه: الخلق الاجتماعي الديني، الذي هو أساس تماسك المجتمع.. إن الغرب لا ينسى أبداً أن أهم أسباب انهيار الحضارة الرومانية فشو الفاحشة في الناس، إلى درجة امتلأ المجتمع باللقطاء؛ حتى صار وضعهم (عاديًا)! فكان منهم جيل لا يعترف بأي قيمة خلقية، ثم صار –بفعل تناسخ الأجيال الطبيعي– في مواقع القيادة، ومراكز القرار والتوجيه الشامل للحضارة الرومانية، فدمروا روما: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (مريم:٥٩).

وهذا سر الأمل في الأمة المسلمة التي تمتلك سر الاستمرار، لأنها (خير أمة).. فإذا كان ذلك اليوم إنما هو (بالقوة)، فإنه غداً بحول الله سيكون (بالفعل)، فأول الفعل إمكان.

الإسلام ومعركة الحضارة

الدكتور فهمي جدعان*

إن أي دور إسلامي مستقبلي في حياة العالم لن يتم إلا بإعادة بناء عوالم الإسلام الذاتية وبإعادة تشكيل صورة المسلمين، فالتجربة المبدعة الجاذبة هي التي تمنحهم القوة الثقافية والحضارية الجديدة بأن تكون موضع تقدير وتأثير.

ليس يخفى على أحد أن مصطلح الحضارة ينتمي إلى تلك المصطلحات التي يتعذر الاتفاق على تحديد ماهيتها وطبيعتها بدون أن يتسرب اللبس والفوضى إلى التحديد المختار، أو أن يختلط بمصطلحات أخرى. وهو فضلاً عن ذلك أحد المصطلحات التي تتصدر اليوم اهتمام الأوساط العلمية والأكاديمية. وانتشاره الأوسع يجري في البيئات الثقافية التي تستند إلى مرجعيات فكرية شاملة، أي إلى أسس «أيديولوجية». وأكثر التحديدات قبولاً يجعل من الحضارة جملة المبدعات الإنسانية التي تنجزها جماعة مدنية مخصوصة في حقول العلم والأفكار والمعتقدات والنظم والمؤسسات والمصنوعات التقنية والمنتجات الفنية والأدبية والقيم وفق نظرة شاملة للعالم.

* باحث.. أكاديمي.. (الأردن).

وفي العالم الإسلامي، يجري الاستخدام لهذا المصطلح بما يقرب من هذا التحديد، وبما يوجهه على نحو أخص تلقاء ما يسمى بـ «الموقف الحضاري»، أي النظرة الشاملة والوضع المشخص بإزاء موضوعات الحضارة وأشيائها، وبإزاء الإنسان والوجود والعالم على وجه الإجمال.

وفي ضوء هذه الرؤية، يجري التقابل بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارات الحية الأخرى، وبخاصة الحضارة الغربية التي لا يشك أحد في أنها تقع اليوم في موقع «حضارة ظافرة» تمثل تحديًا بالغًا لجميع الحضارات القائمة.

بطبيعة الحال لا أحد يستطيع الزعم، على وجه الحقيقة والواقع المشخص الحي، أن عالم الإسلام يَمْثُل اليوم أمام حضارة الغرب بما هو «حضارة مشخصة حية» تنهض في وجه تلك الحضارة -بالمعنى الذي حددته آنفًا للمصطلح- وتضاهيها بـ «سلطات حضارية» ذات سمة متفردة. والعامل الوحيد من عالم الإسلام الحضاري الذي يَشْخص أمام الحضارة المعاصرة -أعني الحضارة الغربية الظافرة- يتمثل على وجه التحديد في ما أسميته بـ «الموقف الحضاري»، وهو موقف تتحدد ماهيته وأعراضه في منهج في النظر وفي عناصر اعتقادية شاملة ترتبط بتصورات فكرية ومفاهيم فلسفية -أو شبه فلسفية- في الإنسان والوجود ومبدأ الخلق ومنتهاه، فضلاً عن طرائق الفعل والسلوك والقيم. ولأن هذا الموقف الحضاري، ولأسباب ليس ههنا موضع الخوض فيها، اتخذ سمة «الإقصاء»، أو «التقابل الصراعي» في العلاقة بـ «القوة» و«الهيمنة الغربية»، فقد نجم عن ذلك أن بؤرة الفاعلية ومركز الاهتمام قد أصبحا يدوران أولاً وآخرًا حول مسألة «الصراع الفكري» و«جدل الغايات والمقاصد»، وتضارب المبادئ النظرية والفلسفية في العمق أحيانًا وعند الأطراف وحدود التماس أحيانًا أخرى.

والناظر المدقق في الأساس الذي يستند إليه أصحاب «الموقف الحضاري» من مفكري الإسلام المعاصر ومصلحيه وحركاته، لا يغفل عن حقيقة أساسية هي أن

هؤلاء يستندون في بناء موقفهم إلى عاملين اثنين: الأول: ديمومة العقيدة واتصالها واستمرارها ووحدتها، والثاني: العامل السكاني الذي يجعل من المسلمين قوة بشرية هائلة في حدود المعمورة.

لا شك في أن هذين العاملين يمثلان شرطين عظيمين وضروريين في أي حِراك حضاري إسلامي شامل ممكن، لكن الحقيقة هي أنهما شرطان غير كافيين. فثمة من وجه أول شروط أخرى يتعين توافرها، وثمة من وجه آخر مخاطر حقيقية تتهدد هذين العاملين كليهما.

فمن الوجه الأول ينبغي تقرير القول: إن الموقف الحضاري لا بد أن يجد نفسه عاجزاً عن إنفاذ رؤيته ومقاصده في غياب العلم والنظم والتقنية والفن المبدع والقيم الحية الفاعلة. ومن الضروري -مبدأ لأي تقويم أو إصلاح أو نهضة- أن نعترف بأن غياب هذه العناصر أو ضعفها، في جملة عوالم الإسلام على وجه العموم، يفت من عضد الموقف الحضاري ويضعف من عزيمته. وحتى لا نقع في أي سوء فهم لأنفسنا ولما يدور حولنا، لا بد أن نسلم بأننا لا نملك اليوم زمام حضارة ذاتية حية فاعلة، وبأن «أشياء الحضارة» جميعًا تأتينا من حضارة خارجية هي الحضارية الغربية. ويستوي الحال هنا في أمر العلوم والنظم والتقنيات والمبدعات الفنية، بل والقيم نفسها. إذ كل ذلك يردنا أو يهجم علينا من الخارج. ومعنى ذلك أننا نفتقر إلى عنصر جوهري من العناصر المؤسِّسة للحضارة هو عنصر «الإبداع الحضاري». ذلك أن الحضارة لا تستقيم إلا حين يصبح أبناؤها «مبدعين» لأشيائها. أما حين تقف أحوالهم عند استهلاك منجزات حضارة أخرى، فإن أي رجاء في أن يكون هناك بناء حضاري ذاتي جديد سينقطع تمام الانقطاع.

بيد أننا سنكون على قدر عظيم من السذاجة إن نحن اعتقدنا أننا نستطيع أن نتوجه تلقاء عنصر «الإبداع»، ونتخذ قراراً متعاليًا بالأخذ به وبتوظيفه. ذلك أن هذا

العنصر ليس مُعْطىً جاهزًا ماثلاً بين أيدينا أو بين ظهرانينا. فالحقيقة هي أنه ثمرةٌ أو محصّلٌ أو نتيجةٌ لجملة من الأوضاع والظروف والمعطيات العامة والخاصة في حياة الأمة والأفراد. وليس ثمة شك في أن توافر قدر عال من الرخاء القومي، وانتشار قيم الحرية والعدالة والنزاهة ونشدان الخير العام، والمشاركة الحقيقية المادية والمعنوية لقوى الإبداع بحسن توزيع الثروة والسلطة، هي عناصر جوهرية مُشَكِّلة لحالة الإبداع.

والحقيقة أن الصعوبات المعنوية والتقنية التي تقف في وجه الحِراك الحضاري الإسلامي هي صعوبات جسيمة. ومع أن أبواب اليأس ينبغي أن تغلق، إلا أن الإقرار بالواقع هو أمر ضروري، إذ هو المبدأ الذي يهيئ الأسباب لتغيير هذا الواقع.

ويتوجب علينا في هذا المقام ألا نغفل عن عنصر أساس في مسألة النهضة الحضارية لعالم الإسلام. وهو أنه في «الحالة الإسلامية» لا ينبغي التهوين من قدر مفهوم «الأمة» في أية فاعلية تتصل بهذه النهضة. لا شك في أن البناء الحضاري المؤتلف أو المتجانس لا يفترض اليوم، بالضرورة، ما يمكن أن يسمى بـ«المدينة الموحِّدة»، أعني المدينة المركزية التي تعتبر من الوجهة «الجغرافية - السياسية» مبدأ وحدة العالم الحضاري.

فالحضارة الغربية الحديثة لا ترتد إلى «مدينة» واحدة، وإنما إلى مدن ومراكز حضارية عديدة ومتباعدة. لكن مبدأ «الغرب» -بما هو الواحد المتجانس ذو الأصول المشتركة والمقاصد المتقاربة والقيم المتماثلة- مبدأ أساسي في البنيان الحضاري الغربي.

وفيما يتعلق بعالم الإسلام، لا أحد ينكر أن هذا العالم يرتد إلى تشكيل جغرافي سياسي متنوع، وأن «مدنه» متعددة، وأنه يتعذر رد هذه المدن جميعًا إلى مدينة واحدة موحِّدة، مثلما كانت عليه بغداد مثلاً في المرحلة التي بلغت فيها الحضارة

الإسلامية نقطة الأوج. إن البديل الوحيد لمبدأ «المدينة الموحدة» -في أي حِراك حضاري إسلامي شامل- هو بكل تأكيد مبدأ «الأمة». وهو مبدأ روحي ثقافي تواصلي قيمي، يمكن توظيفه في إسناد عملية التحضير والإبداع، دون ربطه ربطًا عضويًا بمفهوم «الوحدة السياسية» لعالم الإسلام الحضاري.

ولأن هذا المفهوم يحمل قدرًا عظيمًا من الإشكاليات الصعبة التي يتعذر تجاوزها -سياسيًا- في ظروف العالم القائمة، فإنه لا بد من الاستناد إلى «المدن الوطنية» وتوفير الشروط الموضوعية فيها من أجل مساعدتها على أداء دورها في عملية الحراك الحضاري المبدع. ومن الجلي هنا أنه تقع على عاتق الدولة مهمة غير عادية تتمثل في رعاية هذه الشروط وضمانها لتصبح عملية التقدم الحضاري ممكنة.

ومن الوجه الثاني: يتعين علينا أن نعترف بأن مخاطر كونية تعترض الآن سبيل التشكل الحضاري الجديد بعالمه العقيدي والسكاني، وهما المبدآن اللذان نوهت بأهميتها في أي بناء حضاري إسلامي جديد. والحقيقة أن هذا الوجه من المسألة قد بات الآن أكثر تعقيداً مما كان عليه في العقود أو القرون الأخيرة. فنحن نشهد اليوم نجوم فلسفة جديدة تنهض في وجه جهود الإبداع الذاتي الحضاري لدى الأمم والحضارات القديمة، أو لدى «حضارات الأطراف» التقليدية. هذه الفلسفة هي فلسفة العولمة. وتحدياتها للمواقف الحضارية الذاتية جليلة جسيمة.

لقد بات أمرًا جليًا أن العولمة هي التجسيد المشخص لانتصار «الليبرالية الجديدة» بوجوهها المختلفة: الاقتصادية والإعلامية والثقافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية. وقد ولّد هذا الانتصار جملة من الظواهر الكونية الشاملة: انتشار تكنولوجيا العالم الرأسمالي الليبرالي المتقدم، وفرض اقتصاد السوق، وهيمنة الشركات العملاقة، وتعاظم السلطة الإعلامية المعززة بتقدم وسائل الاتصال وانتشارها الواسع وهيمنتها المرعبة، وانتشار الأشكال والقيم والسلطات الثقافية

والفنية الليبرالية واختراقها للأشكال والقيم والنظم في المجتمعات والأمم التقليدية، وبدء تفكك البنى الاجتماعية والثقافية القديمة، ونجوم الفوضى والاضطراب في قيم هذه الجماعات والثقافات.

ولم تفلت عوالم الإسلام من التأثيرات الحقيقية لهذه الظواهر جميعًا، بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال. فنحن نشهد اضطراب أو انهيار الاقتصاديات المزدهرة لبعض أصقاع عالم الإسلام تحت ضربات «السوق الحرة» غير البريئة. وتستسلم بعض الأقطار الإسلامية لضغوط القوى والشركات الدولية العملاقة، وتفتح أسواقها لها على مصراعيها، فتستورد كل شيء ولا تنتج ولا تصدر شيئًا. ويعاني بعض بلدان العالم الإسلامي من أحوال الفساد أو سوء التدبير والإدارة، ويغرق بعضها في مديونيات عالية تجعل منه أسيرًا لمتطلبات الصندوق الدولي والدول الدائنة، وتنخفض معدلات الإنتاج والتنمية في بعض الأقطار الإسلامية إلى أدنى الدرجات، وتزداد الفاقة، وتنتشر قيم الليبرالية المتطرفة بقوة وسائل الإعلام السمعية البصرية، التي تخترق الحواجز والأبواب والبيوت لتحدث الفوضى والارتباك والحيرة والشك وجملة من أشكال الفساد الأخلاقي والقيمي والاجتماعي المدمرة. وفي الوقت نفسه تشتد الضغوط المحلية ولا نشهد إلا جهودًا ضئيلة في وضع وإنفاذ سياسات في «الدفاع» الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

وواقع الحال أن هذه الظواهر جميعًا تجري على أراضٍ منعزلة أو متعازلة. وكل بلد أو قطر أو دولة يقابلها أو يعاني منها أو يحياها «على حدة». وبطبيعة الحال لا يمكن القول: إن انتشار ظاهرة العولمة يمكن أن ييسر سبل قيام حضارة جديدة هنا أو هناك في ضوء الظروف والمعطيات القائمة حاليًا أوالمرئية على المدى المنظور.

إن المقاصد والغايات التي نصبها الإسلام لنفسه لا تنحصر في حدود أولئك الذين اهتدوا به وجعلوه مبدأ للاعتقاد والفعل في حياتهم، وإنما تتجاوز ذلك إلى

حدود وآفاق شاملة. فالسمة «الكونية» له هي سمة مقومة لطبيعته الذاتية ولحراكه الإنساني العام. ولقد ارتبط «الانتشار الإسلامي» في التاريخ بمفهوم «الهداية». ولم يتسن لهذا المفهوم أن يستقر ويتجسد في الواقع المشخص بالطرائق السلمية وحدها، وإنما اتخذ أيضًا طابع «الفتح» والقوة لأسباب يمكن تحديدها ودراستها في سياق آخر. وقد فعل ذلك كثيرون.

وبطبيعة الحال لا يستطيع أحد من المسلمين اليوم تسويغ اختيار سبيل آخر غير سبيل التفاعل والحوار والمناهضة الآمنة في علاقة عالم الإسلام بالعوالم الحضارية الأخرى، وبخاصة العالم الحضاري الغربي.

ومن المؤكد أن أولئك الذين يتشبثون بالقسمة الراديكالية للعالم وبحتمية الصراع العنيف بين أجزائه وأصقاعه وعوالمه، لا يملكون شيئًا من الأدوات والشروط الضرورية التي تسوغ مثل هذه العلاقة. ومفكرو قوى الهيمنة والسيادة الكونية هم وحدهم الذين يملكون هذه الآليات. أما المسلمون فلا شيء في عوالمهم يهيئهم لمثل هذا «الموقف الحضاري» التقابلي الحاد. والخيارات التي لا تمت بصلة إلى خيار «الصراع الكوني» العنيف هي وحدها التي تقع في متناول أيديهم.

والواقع أن الذي يجري في العالم اليوم هو: معركة حضارية حقيقية. ومع أن قرار إعلان الحرب هو قرار غير معلن، إلا أن ما يجري على أرض الواقع لا يكذب ذلك. ومن الواضح أن الأسلحة المستخدمة في هذه المعركة غير متكافئة، وأن القوى التي تنتج هذه الأسلحة وتستخدمها تملك تفوقًا كونيًا هائلاً، حتى إنها باتت تفرض منطقها وإرادتها ومقاصدها في جميع قضايا الصراع -والسلم أيضًا- في كل أنحاء الكون المسكون. وليس سرًا أن عوالم الإسلام تشقى بالمقاصد الاستراتيجية للقوى التي تملك أسباب الهيمنة والسيادة في الصدارة والواجهة.

كما أن من المؤكد أن منطق الصراع والهيمنة لا يأذن بصعود قوى جديدة كونية « ذات ماض صراعي » يوقع الخلل والاضطراب والخوف في الذاكرة الغربية الحديثة. ومثل هذا « الوعي التاريخي » هو الذي يوجه اليوم عالم الإسلام تلقاء ما أصحبت العادة تجري على أن يسمى بـ « الدور الحضاري للإسلام »، وهو دور ذو طابع « رسالي » يجعل من الإسلام والمسلمين « شاهداً » و« نذيراً » و« هادياً » و« مبشراً » بالحقيقة والخير.

لكن إذا سلمنا -كارهين- بأننا لا نملك اليوم حضارة إسلامية شاملة حية يمكن أن « تدافع » أو « تناهض » أو « تقابل » الحضارات الإنسانية الأخرى -وبخاصة الحضارة الغربية منها- وإذا سلمنا، كارهين أيضاً، بأن الصعوبات النظرية والمادية في وجه قيام هذه الحضارة على المدى المنظور هي صعوبات حقيقية، فكيف يتأتى لنا أن نؤدي « دوراً حضارياً » خاصاً بنا في الساحة الكونية وفي « معركة الحضارة » التي يقودها الغرب اليوم؟ وهل نستطيع -وهذه حالنا- أن نسهم في معالجة مشكلات الحضارة القائمة -إذ أن لها مشكلاتها- أو أن نقوم بمهمة هداية البشرية وقيادتها؟

تلك أسئلة جوهرية تحتاج إلى أجوبة بصيرة نافذة. وهي تحتاج، على نحو أخص، إلى أجوبة تذهب مذهب الأمانة والصدق والنزاهة، حتى ولو كانت وقائع هذا المذهب مما يجري في الاتجاه المضاد لرغباتنا وأمانينا.

والحقيقة أننا قبالة هذا الضرب من الأسئلة -وهي أسئلة ثارت كثيراً ودائماً- لا نملك إلا السير في أحد طريقين:

الأول: هو طريق « النوايا والأماني ».

والثاني: هو طريق « الوقائع الصلبة والجدوى ».

الأول هو طريق « خداع الذات »، والثاني: هو طريق « مجابهة الذات » ومجاهدتها.

الأول هو طريق الركون إلى تجربة «الحضارة الإسلامية» التليدة الماجدة، والثاني هو طريق الانطلاق من المعطيات المشخصة الراهنة ومما تعد به للمستقبل. كثيرون -منذ عقود عديدة- ذهبوا ويذهبون المذهب الأول، لكن هذا المذهب لم يؤد إلى شيء. والحقيقة أنه لا يمكن أن يؤدي إلا إلى «أحوال نفسية متفائلة»، لا أكثر ولا أقل، هي لا شك، أحوال مفيدة، لكنها لا تغير شيئًا ذا بال من واقع الأحوال. إذ إن الأمور بأسبابها وعللها وفواعلها الحقيقية، لا بالأماني الطيبة. ومن المؤكد أن اختيار النظر والمراجعة واتباع الطريق الثاني هو الذي ينبغي أن يكون نصب الأعين وموضع التقييم والاستبصار.

ثلاثة شروط جوهرية لا مفر من توافرها لمن يرجو إحداث أثر في (الآخر): الكفاية الذاتية، وآليات الغلبة، و«الرسائل» الموجَّهة.

فمن وجه أول، ثمة حقيقة فجة صارخة تلهج بها جميع الألسن في كل ثقافات البشر، وهي أن من فقد شيئًا يعجز عن إعطائه لغيره، وأن من كان في حالة عوز أو فاقة أو عجز لا يستطيع أن يقدم شيئًا لمن ليس هو في مثل هذه الحالة.

ومن وجه ثان، يتعذر تصديق الاعتقاد بأن: «المغلوب» يستطيع أن يؤثر في «الغالب». وتظل كلمة ابن خلدون خالدة، وهي: أن المغلوب هو الذي يقلد الغالب على الدوام. وأبناء الحضارة الظافرة، أو الغالبة، لن ينظروا إلى «المغلوبين» أبدًا بما هم مبدأ لقيمهم وحياتهم وحقائقهم وسلوكهم، وقصارى ما يمكن أن يأخذوا به من عندهم لا يتجاوز أحد شيئين: مواد الثروة، أو عناصر (الفلوكلور).

ومن وجه ثالث -ولو سلمنا أن الحضارة الظافرة، بفضل هذه الأسباب أو تلك، رضيت بأن «تستمع» إلى شهادة «الأغيار» أو «دروسهم» أو مبادئ «هديهم»- لا بد من إثارة السؤال التالي:

ما هي «الرسائل» أو «القيم» أو «المقاصد» التي يريد هؤلاء «الأغيار» تقديمها لأبناء تلك الحضارة؟ وهل هذه الحضارة نفسها عارية عن هذه «الرسائل»، أو عاجزة عن أن تنتجها هي نفسها وفقًا لآلياتها الخاصة ومنطقها الذاتي؟

حين نتكلم على دور «رسالي» للإسلام في العالم الحضاري المعاصر يقع في بالنا في الدرجة الأولى الفضاءات الإنسانية التي تتوافر فيها حالات تماس إنساني وجغرافي بين المسلمين وبين هذه الفضاءات. وبكل تأكيد تتجه أبصارنا إلى العوالم التي تحمل سمة «الإشكال»، أي التي تمثل بالنسبة للمسلمين منبع تحد أو تقابل أو منافسة أو تدافع صراعي. وهي تتجه على نحو أخص صوب الحضارة الغربية، حيث -ابتداءً- الصراع ممكن، والتفاعل ممكن. وبكل تأكيد أيضًا لا بد أن يقع في خاطرنا فضاءات أخرى كتلك التي تنتمي إلى العالم البوذي، والعالم الهندوسي، والعالم الكونفوشي. وبعضها يشهد صراعات دامية بين حين وآخر.

ولأن مبدأ التقابل المختار مع هذه الفضاءات ليس هو مبدأ الصراع الراديكالي العنيف، فإن العود إلى الشروط الثلاثة التي سقتها قبل قليل يصبح أمرًا لا مفر منه.

بيد أن الذي ينبغي أن يتقدم كل وجوه النظر في المسألة -أعني في دور الإسلام والمسلمين في الحياة الحضارية الحديثة والمعاصرة والقابلة- هو أن عليهم أن يتنبهوا إلى قضية جوهرية، هي في طبيعتها وضع استراتيجي يتصل بمسألة الاعتقاد أو النظرة الشاملة إلى العالم، وبالأساس الإبستيمولوجي أو المعرفي الذي تستند إليه هذه النظرة.

فالحقيقة هي أن سمة «الثقة الاعتقادية» لا تلزم المسلمين وعقيدتهم وتصورهم للعالم والأشياء وحدهم، وإنما هي تلحق بجميع الرؤى الحضارية الشاملة، سواء أكانت هذه الرؤى مما أسميته في كتابي (الطريق إلى المستقبل) برؤى «حضارات الأعماق»،

أو بروز «حضارات الظواهر».

إن أتباع الهندوسية وأتباع الكونفوشية مثلاً يتعلقون تعلقًا إيمانيًا راسخًا بمبادئ معتقداتهم وبأصول حضاراتهم الفلسفية أو الدينية.. وثقتهم في «سلامة» أو «صحة» معتقداتهم لا تختلف كثيراً عما هو الحال عن غيرهم، من المسلمين أو غير المسلمين. والأمر نفسه يقال في حالة الذين يتعلقون بمفهوم مسيحي للحضارة الغربية، بل وأيضًا بمفهوم «حداثي» أو «ليبرالي» أو «ليبرالي جديد» لهذه الحضارة.. إن الجميع يقفون على قدم المساواة في تعلقهم «الإبستيمولوجي» بمبادئ حضاراتهم وبوجوهها الذاتية. وبكل تأكيد لا يعتقد أحد من أتباع هذه العقيدة أو تلك، أو من أبناء هذه الحضارة أو تلك أن ما هو متوافر عند الآخرين هو «أسمى» و«أرفع» أو «أصح» أو «خير» مما هو عندهم. ومعنى ذلك أن ثمة، في العالم الذاتي والخاص لكل حضارة من هذه الحضارات الكبرى، سياجًا واقيًا يؤدي وظيفة إيديولوجية، صريحة أو ضمنية، تحمي من أوضاع الاختراق الفكري أو الأخلاقي أو العقيدي التي يمكن أن تُنْفذها رؤى الحضارات «الغريبة».

لا شك في أن هذا السياج الواقي يضعف أو يتداعي في كثير من الحالات الفردية أو الجمعية -على وجه الخصوص بتأثير وسائل الاختراق الإعلامية الحديثة- لكنه يظل قائمًا ماثلاً. وهذا الوجه من الأمر هو الذي يعلل المقاومة التي تبديها الحضارات أو الثقافات الضعيفة في وجه الحضارات أو الثقافات القوية الداهمة.

وإذا كانت حالات «الاهتداء» -أعني التحول العقيدي من «رؤية حضارية» إلى رؤية حضارية أخرى- حالات مألوفة في كل المواطن الحضارية الإنسانية القائمة، فإنها تظل في حقيقة الأمر الظواهر «الأقل» لا الظواهر «الأعظم»، لكن مخاطر التسارع فيها ستكون أعظم في القرن القادم.

ولهذا الوجه من المسألة وجه آخر. ذلك أن مفهوم «التحويل الاعتقادي»، أو «الاهتداء» أو «التبشير» أو «الدعوة»، قد أصبح يجد له اليوم نظيراً في العالم المعاصر، هو مفهوم «الحق في الاختلاف»، أو «التعددية» بأشكالها المختلفة: الدينية أو العقدية، أو السياسية، أو المذهبية، أو الثقافية، وغير ذلك. وبطبيعة الحال، تشير كل القرائن والوقائع إلى أن عمليات «التحويل العقيدي» -ويلحق بها عمليات «التطهير العرقي»- هي عمليات غير مقبولة حين تتم بطرائق غير آمنة، أي بطرائق الإرغام والقسر والإكراه والعنف. بيد أنه لا أحد ينكر حق كل إنسان في أن يدعو غيره إلى ما يعتقد به. فهذا الحق مصون كل الصون حين يتم ذلك بالرضى والأمان والطرق الحسنة. وآليات ذلك كله الحوار والإقناع والجدل والمثل الطيب على وجه الإجمال. لكن «القوة الثقافية» التي تحملها هذه الرؤية أو تلك، وطبيعة الحامل البشري لهذه القوة، هما اللذان يملكان إحداث الأثر الحقيقي في غاية الأمر.

ههنا يقفز أمام أنظارنا السؤال الذي لا يكاد أحد يكف عن إثارته والعودة إليه: ما هي حال المسلمين من أمر هذه القوة الثقافية الذاتية؟ وما الذي يمكن أن يقدموه لـ «الأغيار» مما ليس لديهم، أي مما لا يوجد لدى هؤلاء الأغيار؟

ويلحق بهذه المسألة سؤال آخر: إذا كانت الحضارة المعاصرة الظافرة تشكو من صعوبات أو أزمات أو مشكلات عميقة، فهل يعود لأبنائها هي أمر معالجة هذه الوجوه من القصور أو الخلل، أم يعود إلى أبناء حضارة أو ثقافة أو اعتقاد آخر آت من خارج هذه الحضارة؟

تقضي النزاهة ويقضي الصدق بأن نقر بأن القوة الثقافية الذاتية لعوالم الإسلام اليوم لا تأذن للمسلمين بأن يؤدوا الدور الذي يرجونه من أمر إصلاح العالم. ومن الضروري هنا أن نجري تمييزاً حقيقياً بين الإسلام وبين المسلمين. فنحن نتكلم على المسلمين، أي على واقع تاريخي قائم. ولا نتكلم على الإسلام في ذاته. ومن

الضروري أيضاً أن نقول: إن «الآخرين» و«الأغيار» لا يعبأون كثيراً بمضمون الإسلام نفسه، وإنما الذي يمسهم عن كثب، أولاً وآخراً، المسلمون على أرض الواقع، بمحاسنهم ومساوئهم. و«صورة» المسلمين في العالم اليوم ليست صورة إيجابية، فهي معطوبة علميًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وعسكريًا، وقيميًا أيضًا. ومعنى ذلك أن التمثل بها أو احتذاءها والاقتداء بها، أو إجلالها ووضعها في موضع الريادة والسبق والقيادة، هي أمور غير واردة عند «الأغيار» على المدى المنظور.

فالمسلمون لا يملكون العلم ولا التقنية ولا الإدارة والتنظيم ولا شيئًا تقوم عليه الحضارة المعاصرة ولا يستغني عنه أبناؤها. وقصارى ما يستطيع المسلمون التعلل به تجاه الحضارة المعاصرة هو القول: إن هذه الحضارة فاقدة للمثل العليا والقيم النبيلة والأخلاق الحميدة، وأنها في شكلها الليبرالي الجديد قد فقدت إنسانيتها وباتت عاجزة عن أداء أي دور أخلاقي تحضيري. وهي اعتراضات ونقود توجهها المسيحية الغربية نفسها إلى هذ الحضارة، مثلما يوجهها كثير من فلاسفتها ومفكريها في شكلها الليبرالي الجديد، تعبأ بها.

قبالة هذه الأحوال، ما الذي يستطيع المسلمون أداءه وفعله؟ علينا أن نتخلى تمامًا عن دعوى الاعتقاد بأن المسلمين يستطيعون أن «يتدخلوا» في القواعد المؤسسة والأطر الذاتية والمضامين المادية والأخلاقية للحضارة الغربية من أجل تعديلها وإعادة تشكيلها. فهذا وهم كبير. إذ أن صانعي هذه الحضارة الغالبة، لن يتقبلوا أي «درس» علمي أو أخلاقي أو فني من أية جهة أخرى، وبخاصة من جانب أبناء الثقافات أوالحضارات «المغلوبة». فهم يعتقدون أنهم الأجدر بإصلاح بيوتهم، وهم أيضًا يزعمون بأن حضارتهم -على علاتها- هي الأجدر والأحق بأن تنتشر في كل أرجاء المعمورة. وهذه هي ماهية «العولمة» و«الليبرالية الجديدة» ومفهوم «خاتم البشر».

وفي المقابل لا بد من الإقرار بأن «البيت الإسلامي» ليس في حال تدعو إلى

الاطمئنان، فهو يشكو من علله الذاتية المشخصة، ومن أوضاع الحصار الكونية، ومن قهر التخلف العلمي والتقني والاقتصادي والعسكري. أي أنه بيت يحتاج إلى إعادة البناء والتشكيل وتقوية الأسس والدعائم والبنيان.

وليس المقصود أبداً أن يصبح الوجود الإسلامي خطراً يتهدد العوالم الأخرى -إذ لن يأذن له بذلك، فضلاً عن أنه لا يملك الأدوات والوسائل الناجعة- وإنما القصد أن تعود إلى العليل علامات الصحة والعافية والقوة، لا من أجل قهر (الآخرين) وغلبتهم وإنما من أجل أن يصبح قادراً على «الإبداع» والتأثير، فالصحة والعافية والقوة شروط ضرورية للإبداع والتأثير.

وليس المقصود فقط الإبداع في مجال العقيدة والاعتقاد، وإنما في كافة «أشياء الحضارة»: العلم، والفكر، والنظم، والمؤسسات، والصناعات، والمبدعات الفنية، وجملة ما يمت إلى ظاهرة الحضارة بصلة. وعلى عاتق الدولة السوية النزيهة ومواطنيها الأحرار ومؤسساتها الطيبة السليمة يقع عبء توفير الشروط الضرورية للإبداع، وفق مبادئ وقيم الدولة المدنية الحديثة الموصولة الأواصر بوجوه «التراث الحي» الفاعل.

إن أي دور إسلامي مستقبلي في حياة العالم وتطوره وتقدمه لن يتم إلا بإعادة بناء عوالم الإسلام الذاتية وبإعادة تشكيل صورة المسلمين وفعلهم في بلدانهم الخاصة وفي العالم من حولهم. والتجربة المبدعة الخلاقة الجاذبة هي وحدها التي تمنحهم القوة الثقافية والحضارية الذاتية الجديرة بأن تكون موضع نظر وتقدير وتأثير وتمثل. وذلك وحده، في وجوهه الواقعية المشخصة، هو الذي يأذن للإسلام والمسلمين بأداء دور فاعل في التاريخ الحضاري الآتي.

سبيل إخراج الأمة

الدكتور محسن عبد الحميد*

إن الأنصبة البشرية من معاني أسماء الله الحسنى مركوزة في فطرة البشرية، غير أن تلك الأنصبة لم تظهر في الحضارات الأخرى إلا مفرقة مبعثرة، بينما ظهرت في حضارتنا مجموعة في منظومة متناسقة انتهت إلى جمع الفضائل؛ لأن الوحي هو الذي قادها ونظمها.

تمهيد في معنى الحضارة

اختلف الباحثون، تبعًا لمدارسهم الاجتماعية والتاريخية، في معنى الحضارة (Civilizaion)، والمدنية (Citizen)، والثقافة (Culture). فهم قد يجمعون بينها وقد يفرقون. فبعضهم يعطي الحضارة معنى شمولياً كليًا يشمل نشاطات الإنسان كافة. وبعضهم يحصر المضمون الحضاري بمعنى الثقافة، ويستعمل المدنية بمعنى الحضارة التي تمثل الجانب المادي وحده. أي أنهم يذهبون إلى أن الحضارة مرادفة للمدنية، والثقافة تمثل الجانب الفكري والنشاط الإنساني والذوق الفني[1].

---

* باحث.. أكاديمي.. (العراق).

(١) قصة الحضارة «ول ديورانت»، المقدمة ١/ ٢، ٩، ١٠؛ روح الحضارة الإسلامية ومميزاتها، د.محمد عبد الهادي أبو ريدة، ص٣؛ التغير الحضاري وتنمية المجتمع للدكتور محي الدين صابر، ص٤٠٠ وما بعدها.

وعند دراستنا المعمقة لآراء المدارس الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والنفسية[1]، نجد أن الاتجاه العام واضح في الأخذ بخميرة هذه الآراء، وهو أن الحضارة «كلٌ عام» يتمثل بالنشاط الإنساني في عمله الدائب للوصول إلى حياة راقية أكثر من سابقتها في مجالات الأفكار الإنسانية والتقدم التقني وتسخير المادة تسخيراً ينتهي إلى سعادة الإنسان، وتربية ذوقه الجمالي أمام روعة الوجود، بدءاً من الإنسان إلى ما حوله من قوانين الحياة وسنن الكون.

فمظاهر الحضارة لا بد أن تشمل النظام السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والتربوي، والديني، والفكري، والعلمي، والعسكري، والفني.

ويؤكد «ديورانت» على هذه المعاني الشاملة في كتابه «قصة الحضارة»[2].. إذن فمحصلة الحضارة الإنسانية هي المزج التام بين كلمات (الحضارة) و(الثقافة) و(المدنية)، ويمكن أن يزاد عليها للتوضيح لفظ المعرفة الإنسانية لتلك النشاطات كلها. وهي كلمة (Knowledge).

والحق أن الباحث الذي يراقب سير الحضارة في أسسها المعرفية ومظاهرها ومنجزاتها وعلاقتها بتسخير الحياة والطبيعة، لا يخرج من هذا الفهم الشمولي لسير الحضارة الإنسانية.

الحضارة الإسلامية

والحضارة الإسلامية، ينطبق عليها هذا القانون الاجتماعي والحيوي، فهي لا تخرج عن الأنشطة الإنسانية وتفاعلها لأداء خلافة الله تعالى في الأرض[3]من أجل

---

(١) الحضارة، مجموعة المحاضرات التي قدمت إلى المجمع العلمي العراق، من ١١/٤ إلى ١٩٩٦/١٢/٢٣م.

(٢) المرجع السابق، ص٩.

(٣) روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.. قال الطبري: فكأن تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾: من يخلفني في الحكم بين خلقي، ١/٢٠٠، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

تحويل الوحي الإلهي، عقيدة وشريعة ونظام أخلاق، إلى تغيير وبناء وعمران في مجالات الحياة كافة، مستفيدة من حركة الأمم والشعوب الحضارية لخدمة بني الإنسان؛ مسلمين وغير مسلمين، من مبدأ أن الخالق هو رب العالمين وليس رب المسلمين فحسب.

وإذا أردنا أن نفك هذا التعريف إلى عناصره الأولى، قلنا: إن الإنسان هو وسيلة العمل والتغيير. ومن أجل أداء دوره في الأرض، أرسل خالقه تعالى الأنبياء والمرسلين، كي يحقق خلافته في الأرض. أي أن الخطاب الأساس هو لله تعالى، والإنسان منفذ لذلك الخطاب.. فخطاباته حتى لو تعددت فلا بد ألا تخرج على أصول خطابه الأخير للبشر، وهو الدين الذي أرسله الله تعالى للوجود كله مع النذير البشير الأخير، محمد بن عبد الله ﷺ.

فإذن، فالحاكمية الحقيقية في هذه الأرض هي للرب الإله سبحانه، والتي تمثل إرادته الأزلية الكونية أو الشرعية في الوجود. وحاكمية الإنسان تدور في بناء جزئيات حركة الحياة في إطار «الكل» الحضاري حول الإرادة الربانية الأزلية التي وضعت حقائق معرفية وجودية جاهزة أمامه، كي لا يتجه صراعه في الحياة لإنشاء الحضارة إلى العبثية والعدم، حين ينقل ذلك الصراع من داخل المادة والمعرفة المادية إلى داخل عالم الغيب والمعرفة الغيبية، فيتيه في محاولة إدراك تلك الحقائق، فلا ينتهي الطريق به إلا إلى التماس الفكر اللاسببي، بل الخرافي، في بناء المعرفة والحقائق، فتأخذ الحضارة طابعًا ميتافيزيقيًا منحرفًا، فتلحق بحركة الإنسان وعمله أضرارًا بالغة.

أما تحويل الخطاب الإلهي (الوحي) إلى حركة وحياة، فيحتاج من الإنسان إلى جهد عقلي مكثف، مدرك لقوانين المعرفة والطبيعة والحركة الاجتماعية في كل عصر،

يجدد الحياة في حدود إدراك القطعي واللاقطعي من النصوص، والتماس مقاصدها ومآلاتها، والتحليل الدقيق لشبكة شريعتها في ظل التمييز التام بين أصول العقيدة وفروعها، وعدم التعصب للمذاهب القديمة والحديثة، وتجاوز نظرية «ليس في الإمكان أبدع مما كان» في عالم المجتمع والحضارة.. وفي ظل إدراك حركة الزمان وتغير ظروف الحياة، والاستفادة القصوى من حركة الحضارات التي لا تتقاطع مع الانطلاقة المعرفية الإسلامية الأصيلة، والخروج الكامل من منهج حفظ وعرض النصوص فحسب، إلى مجال التفقه الأصولي لها ولما حولها، والذي نبه الله تعالى إليه في كتابه الكريم بقوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ (التوبة:١٢٢)[١].

أما الجانب القيمي في هذه الحضارة، فيتحقق عندما يدرك المسلمون إدراكًا شاملاً متكاملاً متوازنًا أن لكل من أسماء الله الحسنى نصيبًا في صيرورة الكيان البشري في بناء الحضارات، فلا يجوز أن يطغى نصيب على آخر، لأن طغيان جانب على آخر يؤدي إلى انحراف الفعل الحضاري، فعندذاك يستلب الإنسانُ الإنسانَ، ويطغى عليه الاغتراب المريض عن نفسه وعما حوله من المخلوقات، فيخرج عن دائرة الإنسانية الرحبة.

دور الأمة المسلمة في عالم الغد

إلى تلك الأهداف الكبيرة التي حددناها في تعريفنا الحضارة، يتوجه دور أمتنا الشاهدة في عالم الغد.

ومن البدهي أن يبدأ هذا الدور من مذهبية إسلامية سديدة، واضحة المعالم،

(١) الظاهرة العامة في القرآن الكريم الفقه وليس الحفظ.

محددة الاتجاه. إذ من نافلة القول أن يدعي أي باحث: أن الانتقال الحضاري في أي مجتمع أو حضارة، لا بد أن ينطلق من أسس واضحة، يخضع لها بالتالي إلى المنطق الداخلي الذي يربط بين أجزاء تلك الحضارات.

وتنوع الحضارات عبر التاريخ كان نابعًا من هذا المبدأ الجوهري الذي حدد لكل حضارة سماتها الخارجية المتصلة بالتطور الباطني لتلك الحضارة.

وحضارتنا الإسلامية التي قادت أوسع حركة حضارية شاملة قرونًا عدة، بموجب ذلك القانون المطرد، بدورها لها منطق داخلي مترابط متوازن، يشكل (المذهبية الكونية) التي تجيب على مشكلة الإنسان أمام الكون وخالقه، وفي داخل حركة الإنسان نفسه، وتبقي على خصائص أمتنا في تطورها الخاص بها، مع عدم التقاطع مع كل ما هو خصائص إنسانية مشتركة، لا سيما أن حضارتنا على مدى تطورها كانت حضارة إنسانية مفتوحة، تجمع دائمًا فضائل الحضارات، من منطلق قول النبي ﷺ: **«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»**[1].

والسر في ذلك أن الأنصبة البشرية من معاني أسماء الله الحسنى، مركوزة في فطرة البشرية، غير أن تلك الأنصبة لم تظهر في الحضارات الأخرى إلا مفرقة مبعثرة، بينما ظهرت في حضارتنا مجموعة في منظومة متناسقة، انتهت إلى جمع تلك الفضائل، لأن الوحي الرباني الصحيح هو الذي قادها ونظمها.

على أن تنوع مذهبيات السوق الحضاري من المسلمات البدهية التي تحدد ملامح

---

(١) سنن الترمذي، علم ١٩، مع شرحه: تحفة الأحوذي، ٣/٣٨٢، دار الكتاب، بيروت؛ وسنن ابن ماجه، باب الحكمة، ٢/٢٨٩.

الحضارات. والدليل الواقعي على ذلك أن الفرد الذي يعيش في مجتمع ما لا يمكن أن يكون هو المجتمع نفسه، على الرغم من الملامح والسمات التي أعطاها أياه. فكيف يكون مجتمع ما أو حضارة ما نسخة مكررة من ذلك المجتمع أو تلك الحضارة؟

ومن هنا فإن الباحثين المنصفين يلاحظون أن التنمية الحضارية التي طبقت في مجتمعاتنا الإسلامية في العصر الحديث لم تؤت ثمارها المنتظرة، لأنها كانت تقليداً محضًا لما حصل خارج العالم الإسلامي من حركات التغيير النابعة من الحضارة الغربية التي تختلف اختلافًا جوهريًا في مصادرها ومناهجها المادية، وتطور تاريخها وأعرافها عن حضارتنا الإسلامية[١].

إن الوجود الحقيقي للإنسان هو كيانه الثقافي والاجتماعي المتميز عن الوجودات الأخرى. فمنهج التغيير الحضاري الإسلامي يريد أن يوجد للإنسان المسلم وجوداً حقيقيًا لا وجوداً أوليًا مكتوبًا في الجنسيات أو دفاتر النفوس، بينما وجوده الحقيقي يكون عبداً للآخرين، كوضع الأمة الإسلامية اليوم.. فهي لظروف تاريخية معينة من الخمود والجمود والسقوط وإهمال سنن الله في الوجود، وجهل حقائق الإسلام، وعدم فهم طبيعة المرحلة، وقعت فريسة للحضارة الغربية التي تريد أن تبتلغ الكيان الحقيقي للحضارات والثقافات وأصالة الأمم والشعوب، لأنها لا تؤمن إلا بطريق واحد، وتصر على أن كل من لا يلغي ما كان عليه تاريخه وحياته الحاضرة ويمشي في موكبها بدائي ومتأخر[٢].

أي أن «على الجميع أن يعتقدوا أن ثقافتهم المحلية وشخصيتهم المحلية غير ذات

(١) من أجل توضيح هذه الفكرة راجع: «المسلم في عالم الاقتصاد» لمالك بن نبي.

(٢) نظريات التنمية المعاصرة، نصر محمد عارف، ص ٤١٦؛ الإسلام والصراع الحضاري، للدكتور أحمد القديدي، ص٥٠، ٥٦، منشورات كتاب الأمة.

مفهوم، وأنهم لا يستطيعون بناء حضارة أو صناعة أو ثقافة، وأن عليهم من أجل ذلك أن يكونوا متحضرين، وأن يقبلوا أدوات الغرب وأنماطه وقيمه.. ومن أجل ألا يستطيع جيل قط أن يصل إلى استقلاله في مواجهة الغرب، الحاكم المطلق على العالم، ينبغي أن تدمر فيه كل قواعده الأساسية الإنسانية، وأن يحول إلى إنسان غث وفارغ ومغسول ومكنوس ومدهون، مثل قبر الكافر مزدان بالظاهر أما في الباطن فغضب لله عز وجل»[1].

فإذا أردنا أن نخطط للغد الحضاري من منطلق مذهبياتنا الإسلامية، نجد أن الأساس المعرفي لها، لا بد أن ينطلق، لا من الغوص في التاريخ وما أنتج فيه من معارف مرتبطة بالزمان والمكان، تمثل صراعات المصالح والغرائز في هذه الأرض، ولا من علم الكلام القديم ومادته المعرفية التي تتصل بمشكلات عصره، ويتعامل مع لاهوتيات أجنبية مرت بدهاليز العقل المنفرد في صراعاته اليومية، لتحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح الذاتية، تنشد حب الانتصار وليس الحرص على الوصول إلى الحقيقة، لاسيما في الفترات المتأخرة؛

ولا من فلسفات قديمة دخلت في العالم الإسلامي تحت مظلة الجمع بين النقل والعقل، انفردت بفهم الوجود من خلال عقل مادي لا يتجاوز عالم الشهادة، فهي فلسفات وثنية، لا تليق بالإنسان المكرم، ولا يشرفه أن يكون تلميذاً لها[2]؛

ولا من معرفة إشراقية تعتمد على رياضات وتجارب فردية قد تختلط فيها الإلهامات الرحمانية مع النزعات الشيطانية، وتتقدم نحو الفناء مع نسيان الوجود

(١) العودة إلى الذات، علي شريعتي، ص٤١، ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا، ط الزهراء، الإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٢) الكلمات، سعيد النورسي، ص ١٤٤، ٦٤٤، ٦٤٨، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط سوزلر، استانبول.

شطحًا، أو الفناء مع إنكار الوجود اتحادًا[١].

وإنما ننطلق من الوحي الإلهي إلى الحاضر والمستقبل، ذلك الوحي المستقل عن الزمان والمكان، المتجسد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، من خلال ضوابط تفسير النص الإلهي والنبوي، التي أجمع عليها علماء الإسلام، وهي ضوابط اللغة وتفسير القرآن بالقرآن والنقل الصحيح عن النبي ﷺ وأصحابه، وقراءة الكون قراءة علمية معاصرة، وقوانين العقل، والمعرفة الإنسانية والاجتماعية والنفسية المتجددة في التعرف الحقيقي على الله تعالى والكون والحياة، ونواميس حركة الحياة[٢].

إن منهج الوحي الإلهي (القرآن والسنة)، منهج صاف مباشر يخاطب الكينونة الإنسانية مجتمعة، ويوقظ فيها الفطرة النظيفة. وهو كلٌّ شمولي لا يضع خطوطًا فاصلة بين الحس والعقل والحدس، وإنما يجمعها على صعيد واحد، يأخذ بعضها برقاب بعض، ليشكل المنهج الذي تتولد منه وحدانية الخالق في ذاته وأسمائه الحسنى وحاكميته المطلقة في الوجود.

وهو الذي يقدم القدوة العظمى في الوجود، الذي هو ثمرة الكائنات، والمخلوق الأرقى، والذي تجسدت فيه معاني الأسماء الحسنى في إطار التحمل البشري، تجسداً كاملاً متوازيًا متسقًا، كي تتمحور حوله الحضارة، من أجل ألا تتغلغل في النظريات المثالية الطوبائية، وإنما تتطور أبدًا في حدود واقعية تشدها إلى حقائق الحياة، ومثالية تقربها من الكمال المنشود.

وبالرغم من كل ذلك، فإن مذهبية الإسلام لا تضع النبوة مكان الإنسان وقواه في اكتشاف معالم عالم المادة وتسخيرها، وإنما تضع أمام الإنسان مجالاً زائدًا لا يمكن

---

(١) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، ٢١٨/١٠، ط المغرب.

(٢) راجع في معرفة هذه الضوابط تفصيلاً كتابنا: «تطور تفسير القرآن- قراءة معاصرة».

للعقل أن يلجه، حتى يستكمل معرفته الكونية ويتوجه إلى خالقه، فلا يتحول إلى عبادة الأنداد التي تستعبده وتسحقه وتسلب آدميته تحت عجلة الاستلاب والطغيان[1].

وهو الذي يقود الإنسان للإيمان بحياة أخرى، توضع فيها موازين القسط، ويضعه أمام مسؤولية كبيرة يتعلق بها مصيره، لأن ذلك اليوم، هو يوم تحقق العدالة الإلهية، ويوم تحقق الكمال تجاه النقص الذي حصل في الدنيا.

ومسؤولية الآخرة لا تعني انتفاء المسؤولية في الدنيا، إذ لكل منها دوره في النفس والمجتمع، ومسؤولية الأولى هي مقدمة للمسؤولية في الحياة الأخرى[2].

وهو الذي كرم الإنسان وجعله خليفة في تنفيذ خطابه وجعله موضعًا لقبول تجليات أسمائه الحسنى، وصيره مثالاً مصغرًا ونموذجًا للكائنات بأسرها، وزوده بالاستعدادات اللازمة لتسخير الوجود، وجعل بينه وبين ما حوله توازنًا رائعًا، ليتحرك نحو التغيير والبناء الحضاري، متحرراً من جوانب الهدم في الذات، موجهًا غرائزه في مساربها الصحيحة، التي لها استعدادات دائمة للرقي والتوجيه السديد. فحيوانية الغرائز يوجهها الإدراك ويضبطها الشعور.. وانحراف العقل تضبطه يقظة الوجدان الذي يربيه الوحي الإلهي من خلال النظام العبادي الذي يوصله إلى مرحلة التقوى[3].

ويلخص سيد قطب رحمه الله دراساته النفيسة حول الإنسان، فيقول: «ومن ثم

(١) تجديد الفكر الإسلامي للمؤلف، ص ١٤٦.

(٢) الإسلام والتنمية الاجتماعية للمؤلف، ص ٢٦.

(٣) الإنسان في القرآن الكريم للعقاد، ص ٩، ١٥-١٧، ٤٨، وحقيقة الإنسان بين القرآن الكريم وحقائق العلوم، ص ١٧٠.

فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلو على قيمة الإنسان أو تهدر من أجلها قيمته»[1].

وإذا انطلق البناء الحضاري الرصين من تلك المذهبية الكونية الإسلامية المتوازنة، فحينئذ لا يجعل القوة نقطة الاستناد في الحياة الحضارية، ولا يهدف إلى تحقيق المصلحة الذاتية في كل شيء، ولا يتخذ الصراع دستوراً للحياة، ولا يلتزم التعصب العنصري رابطة للجماعات.

لماذا لا يفعل ذلك؟

يجيبنا الإمام سعيد النورسي رحمه الله تعالى، بعد استقراءاته العميقة في الحضارة العقلية المتمردة المعاصرة:

«لأن شأن القوة الاعتداء، وشأن المنفعة هو التزاحم، وشأن الصراع هو النزاع والجدال، وشأن العنصرية التجاوز على الآخرين»[2].

وإذا رجعنا إلى مساحة التاريخ الواسعة التي أشغلتها الحضارة الإسلامية، رأينا أن هذه المقولات الصائبة المستقرأة تنطبق عليها تماماً.

فهي لأنها كانت حضارة ربانية قامت بإرادة الله تعالى وتوجيه وحيه، لم تتخذ من القوة نقطة الاستناد الأساسية في الحياة البشرية، وإنما استعملت القوة قيمة أخلاقية متوازنة مع قيم الحق والعدل والرحمة والرأفة، لأن الطغاة والمجرمين المتحكمين في رقاب البشر لم يكونوا يرتدعون عن الشرك والمظالم عن طريق الدعوة السلمية والنصائح المفيدة والإرشاد القويم، فكانوا يحتاجون إلى قوة تحول بينهم وبين الانفراد

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص ١٢٤.

(٢) الكلمات، ص ١٤٦.

بالمستلبين والمظلومين من الشعوب المقهورة، لإنقاذهم من جورهم وإعادة كرامتهم إليهم وإشعارهم بإنسانيتهم ثم الإقرار لهم بحرية التدين: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وهي لم تهدف إلى تحقيق المصلحة الذاتية على حساب الشعوب والأمم، وإنما جاء إنشاؤها أصلاً رحمة للعالمين.

ولذلك سرت خيراتها إلى الشعوب والأمم، شرقًا وغربًا، واستلذ الناس طعم المساواة الإنسانية في شريعتها الإنسانية الرفيعة وقضائها المنفذ العادل، ويشهد لذلك المختصون الأجانب من غير المسلمين.

وهي ثالثاً لم تتخذ الصراع دستوراً للحياة، لأن الله تعالى شرع للإنسان قانون التدين، ودعاه إلى الحوار والجدل: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهي رابعًا لم تلتزم التعصب العنصري رابطة للجماعات، وإنما انطلقت من أن الجميع عيال الله ومخلوقات الله، وهم أخوة في الإنسانية، لا يفضل أحد أحداً إلا بقدر قربه من خالقه وطاعته لسننه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ ﴾ (الحجرات: ١٣).

ولقد كان هذا المبدأ أساسًا في الاعتراف بـ(الآخر) المسلم، و(الآخر) اليهودي، و(الآخر) النصراني، و(الآخر) المجوسي. وهو الذي انتهى إلى التعدد في داخل الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة كلها.

يقول الأستاذ المؤرخ الدكتور عماد الدين خليل: «لنتذكر مثلاً أحادية الماركسية

ومصادرتها للفكر (الآخر) وعقيدته ودينه، ولنتذكر أيضًا محاولة الكاثوليكية الأسبانية المسيسة على يد فرديناند وإيزابيلا ورجال الدين، تلك التي ألغت أمة كاملة من الحساب. لنتذكر هذا قبالة تنوع النسيج الديني في معظم مساحات التاريخ الإسلامي، حيث أتيح للنصراني واليهودي والمجوسي والصابئ والبوذي والهندي... إلى آخره، أن يعبر عن نفسه، وأن يقول كل ما يريد أن يقوله، وأن يمتلك مقومات الديمومة والبقاء والامتداد في بيئة إسلامية لم تمارس في الأعم الأغلب أية مصادرة أو قسر أو نفي لعقائد الآخرين»[1].

إذن فالحضارة الإسلامية بمذهبيتها الشاملة وخصائصها المتنوعة، موجودة وجوداً قويًا، اعترف بها مؤرخو الحضارات من غير المسلمين، وكتبوا فيها وفي مؤسساتها وإنجازاتها المجلدات الضخمة، غير أنها تحتاج اليوم إلى مراجعة وتقويم وتجديد، من أجل رفدها بحياة جديدة، تستطيع أن تحمل المسلمين خاصة والإنسانية عامة، كما حملتهم وأسعدتهم بالأمس.

ولكن قد يسأل الباحث: كيف يمكن أن تتم تلك المراجعة وذلك التقويم والتجديد؟

أقول يتم ذلك -في رأيي- إذا اتبعنا الأسس الآتية:

أولاً: الانتقال من الفكر الإسلامي القديم إلى الوحي الإلهي ثم النزول من الوحي الإلهي إلى العصر الحاضر.

وقد أشرنا إلى جانب من ذلك في صفحات سابقة، والآن نذكر تفاصيل أخرى

---

(١) إسلامية المعرفة «الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين»، ص ٦٤، ع٥، س ٢، صفر١٤١٧هـ. واليهود في الدولة الإسلامية، للدكتور عبد العزيز الدوري في حولية «القضية الفلسطينية والصراع العربي اليهودي»، ١/٧٩-١٣٠.

حول هذا الموضوع الخطير:

نعم نتوجه إلى الفكر الإسلامي القديم في مجالاته كلها لنقوم بعملية مسح شاملة.

فالنظام السياسي الذي ولده صراع «صفين»، صنعته نوازع الإنسان وفكره الاجتهادي، صوابًا أو خطئًا، حسب المرحلة المتاحة يومئذ، والذي انتهى إلى ظهور الخوارج والمرجئة والشيعة والباطنية، تلك الفرق التي صبغت التاريخ الإسلامي بصبغة الصراع الطائفي والتحريفي المتطرف أسلم البعض إلى إدخال البدع في الدين، وانتهى بالآخرين إلى الخروج النهائي من الإسلام (الباطنية).

والنظام الاقتصادي الذي ولده النظام الوراثي، انتهى في جانبه الإسلامي إلى إحداث أكبر تنمية اقتصادية في العصر الوسيط، وأسلم المجتمع من خلال جانبه المنحرف (الوراثة) إلى تحكم الملاك في رقاب الفلاحين وأدى ذلك إلى ظهور التفاوت في الثروات، فخرج النظام بذلك على عدالة التوزيع، وتحقيق الكفاية لجميع أفراد المجتمع.

والاختلاط الفكري بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأجنبية الدخيلة، انتهى من جهة إلى صراع فكري دموي حاد بين المعتزلة العقلانيين في تأويل النصوص وأهل الحديث المتمسكين بظواهرها.

ومن جهة أخرى اتجه إلى إحداث صراع فكري حاد بين المعتزلة والأشاعرة، وأهل الحديث والأشاعرة، الذين أرادوا ابتداءً إعادة نوع من التوازن بين العقل والنقل، ثم انغمسوا في العقليات المتأثرة بالفلسفة وانتهوا في العصور التي تلتها إلى خروقات واضحة في إدخال نظريات عقلية مجردة إلى الفكر الإسلامي.

وما يسمى بالفلسفة الإسلامية التي حمل لواءها أمثال الفارابي وابن سينا

وأضرابهما، لم تكن فلسفة إسلامية حقيقية، وإنما كانت فلسفة لجماعة من المسلمين لم يكوِّنوا فكراً إسلامياً، ولم ينطلقوا من قواعده القرآنية، بل هم قد خالفوا أصوله، لأن عقلياتهم كونتها ثقافات غريبة قيدتها ظروف وأوضاع فكرية معينة، لا تمت إلى أصول الإسلام بصلة.

والسبب في كل ذلك الانحراف الفلسفي، شرود العقل، لأنه انفرد بالأساس المعرفي لمناقشة قضايا الوجود بموازينه المحدودة ومنطلقاته المفردة الخاطئة[١].

وأما النظريات الصوفية وطرقها التي سادت في إطار الفكر الإسلامي القديم، فقد كانت نتاج الغنوصيات والنظريات الإشراقية التي انتقلت إلى المجتمع الإسلامي يومئذ من الأنظمة الروحانية الأجنبية التي كانت تعتمد على الرياضات الروحية المكثفة التي أفقدت الإنسان التوازن في كيانه، وانتهى من جهة إلى زعم كشفيات لا ضابط لها، زعمت الفناء في الله، وأنكرت حقائق الأشياء ضمن نظريات الحلول والاتحاد، وادعت في حالات معينة أن الإلهام هو مصدر يستقل بالمعرفة الوجودية بمعزل عن الوحي الإلهي[٢].

إذن فمن الأخطاء القاتلة: أن نسحب صراعات الماضي الفكرية والسياسية إلى حاضرنا ومستقبلنا.. ومما هو أكبر من ذلك أن نضع ذلك الفكر بدل الوحي الإلهي المنزل الذي لا يراجع ولا يناقش.

وقد أدى الخلط بين الفكر والوحي في تاريخنا إلى إلحاق أضرار فادحة بحركة

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالي، ص ١٥٠؛ والجانب الإلهي من التفكير الإسلامي للدكتور محمد البهي، ص ٢٥٩، ٣٣١؛ ورسائل إخوان الصفا، ٤٢/٤، نقلاً عن: من الكندي إلى ابن رشد، ص ١١٥، للدكتور موسى الموسوي؛ والفكر الإسلامي وتقويمه وتجديده، ص ٩٧ وما بعدها للمؤلف.

(٢) المكتوبات، مصدر سابق، ص ١٠٥، ١٠٦، ٥٦٠، ٥٦١؛ ونشأة الفلسفة الصوفية، للدكتور عرفان عبد الحميد، ص ٦٦، ٧٣، ٨٠، ٩٠.

المجتمع الإسلامي، وانتهى إلى صراعات عنيفة، انمحت فيها السماحة، وانقطع الحوار الأخوي، واختفى الاجتهاد، وقدم كل طرف نفسه، وكأنه هو الذي يمثل الدين الحق، وغيره خارج عليه. وكان من نتائج تلك الصراعات المنحرفة، تقييد حركة الفكر وفرض الجمود عليه، والنكوص إلى الماضي، وإيقاف حركة التاريخ وتجديد الحضارة والتقدم بهما إلى الأمام.

ومن هنا، فعلى كل عصر، إن أراد أن ينطلق إلى بناء الحاضر والمستقبل أن يبدأ من الوحي الإلهي، ويتقدم إلى إيجاد فكر إسلامي جديد، مناسب لطبيعة المرحلة والظروف المحيطة بها، كي يوجد مسارب واضحة وصحيحة للالتزام والتنفيذ والتطبيق في ضوء التطورات الجديدة، وضمن الأصول القاطعة أو الراجحة الدلالة في تفسير نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

على أننا يجب أن ندرك أن رصيدنا الحضاري الضخم ليس فكرًا اجتهاديًا مرحليًا فقط، وإنما فيه الجوانب التي رسمها الوحي الإلهي. فعند مراجعتنا لذلك الرصيد، بكل أبعاده وإنجازاته، لا بد لنا أن نتبنى خلاياه المشرقة الخالدة التي خططها ذلك الوحي المعصوم، ونقل الإنسان المسلم من خلاله إلى حياة وحركة وتغيير مستمر وتجديد دائم، فالوحدانية والربانية والإنسانية والعالمية والقيمية والواقعية والمثالية والعقلانية والعلمية والإبداع والسلام والخلود والحق والعدالة والوسطية والأصالة، هي صفات عالية تتجسد في مراحل تطور حضارتنا، انداحت موجاتها الصافية، ليس على العالم الإسلامي فحسب وإنما على العالم كله.

ثانيًا:

إن التغيير والتجديد الشاملين في الحضارة الإسلامية المنشودة المنقذة، لا بد أن

---

(١) انظر: من الفكر الإسلامي إلى الوحي الإلهي، لكاتب هذا البحث في مجلة «الأمة» الأردنية، ع٦، س أولى، ١٤١٩هـ/مايو ١٩٩٨م.

يبدأ من البنى التحتية، المعنوية منها والمادية، وليس بوصفات مؤقتة لملأ الثغرات الخطيرة في البنيان الفوقي، أي أن التجديد يجب أن يدخل في الخلايا العميقة، حتى تسترجع الأمة الإسلامية برمتها العافية. فمراكز التأثير الإلحادي واللاديني وتلامذتها من المسلمين، لم يتمكنوا من المجتمعات الإسلامية، ولم يعيقوا بناء حضارتها من جديد إلا من خلال فراغ داخلي شامل وعميق. يظهر ذلك من خلال جهل حقائق الدين وحكمته وجمود العقل وثمراته، والاستسلام إلى التفسير الخرافي لأحداث الكون وعدم فهم السنن الإلهية في الوجود، بجانب خواء الروح واضطراب الأحوال والهزائم النفسية، وتمكن الجهل والمرض من الأكثرية المسحوقة في الأمة الإسلامية.

إن إصلاح الأعماق سيؤدي إلى وحدة العقيدة، وتنوع الأفكار ويقظة العقل واستقرار الأحوال. وهو الذي سيساعد المسلمين في إيقاظ حضارتهم وبنائها بناءً جديداً، ويحصهم أمام التغريب والاستلاب الحضاري المعاصر.

وهذا المنهج هو الكفيل بإخراج المسلمين من المنظومة الإلحادية المادية الغربية إلى المنظومة الإيمانية الإسلامية، بمعناها الشامل.

وهو منهج الإسلام وطريقته في بناء الحضارة. وهو منهج وطريق مستقل يختلف جذريًا عن الأصول الرومانية اليونانية النصرانية اليهودية الإلحادية التي سيطرت على الحضارة الغربية، في معظم جوانبها ومؤسساتها الثقافية والفنية.

ثالثاً:

الحضارة الإسلامية عبر تاريخها المديد لم تلغ جهود الآخرين في بناء الحضارة الإنسانية، لأنها انطلقت من أن الإنسان – وليس المسلم فحسب– هو خليفة الله في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). بمعنى أن الإنسان شاء

أم أبى يحمل في فطرته نصيبه البشري من كل اسم من أسماء الله الحسنى، فهو من تلك الأرضية يتعامل مع قوانين الحياة، فينشئ الحضارة، بمعناها الواسع، من الحضارات البدائية إلى الحضارات المعقدة.

فالحضارة الإسلامية عندما جابهت حركة البشر من خلال حضارتها، كانت تقتبس من ثمرات تلك الأنصبة فتجمع فضائلها، كلما كان التوجيه سديداً، فمثلاً أخذت علوم اليونان ومنطقهم ومناهجهم في الفلسفة، إلا إنها لم تأخذ ملاحمهم، لأنها كانت تمثل صراع الآلهة مع البشر، بينما منطقها هي كان يقوم على أساس التوحيد الخالص، وفهم الكون فهماً عقلانياً.

وهناك قضية أخرى في مشروعية الحوار، وهي أن الله تعالى لم يحرم البشر من لطفه الدائم، فقد أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ونشروا التوحيد والشرائع والفضائل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨).

فعلى الرغم من الانحرافات والتحريفات التي دخلت على كثير من تلك المبادئ، غير أن آثارها ظلت تمتزج بنسيج التفاعل البشري، بعضهم مع بعضهم الآخر، مما فتح سبيلاً للاقتراب والتفاعل والتأثر، للجسور المشتركة من جهتين، جهة الفطرة، وجهة مبادئ وأحكام الرسالات السماوية.

ولقد وعى المسلمون ذلك وعياً تاماً، فأخذوا الحكمة والعلم والثقافة والفن والعمارة والذوق من الحضارات التي واجهوها عبر عصورهم. ولم يقفوا قط مغلقين أمام الثقافات الأخرى، بل انفتحوا انفتاحاً ذكياً منضبطاً في كثير من الأحيان أمام جهود البشر في البناء الواضح للحياة، في ظل ما يجعل المسلمين أكثر قوة وأكثر تقدماً وأكثر أصالة، حرصاً منهم على تقديم النموذج الإسلامي الأمثل.

الحضارة الغربية وغدنا القادم

وهذه المسألة في غاية الخطورة بالنسبة لنا، وهي كيفية مواجهة الحضارة الغربية، القوية الغنية العالمة المبدعة الطاغية، التي لا تعترف بحضارة أخرى غيرها، ولا تتحاور معها، ظنًا منها أنها نهاية التاريخ وقمة التقدم.

وهذه المواجهة قدرنا في يومنا وغدنا، لا مناص لنا فيها، للأسباب الآتية:

- لأنها حضارة خالطت نسيج حياتنا، ابتداءً من غرف نومنا حتى أضخم مؤسسة في مجتمعنا، خالطت حياتنا الفكرية والأدبية والفنية والعلمية وغيرها، بحيث نستطيع أن نقول: إنها كادت أن تخرجنا من منظومتنا الحضارية الراكدة المقلدة إلى منظومتها الفاعلة المبدعة بكل ما فيها من خير وشر.

- ولأنها تريد أن تلغينا وتلغي حضارتنا وتجعلنا كالآخرين تابعًا ذليلاً لها، لا سيما في ظل نظامها العالمي اليهودي الاستعماري الجديد[1].

- ولأن اتخاذ موقف جماعي مختار حازم، غدا ضرورة للحفاظ على أمتنا، هذا الموقف الذي لا بد أن ينبثق من عقيدتنا وأصول شريعتنا ونظام حياتنا وقيم أخلاقنا، وعمق حضارتنا، بشموليتها الإنسانية ومنطقها الداخلي، وتطورها التاريخي الخاص المنفتح، الذي لا يتقاطع مع كل جهد بشري خير.

وقد يستغرب القارئ، إذا صرحت بأنني أعتقد أنه لم تمر حضارة في تاريخ البشرية كانت أقرب إلى حضارتنا من الحضارة المعاصرة، على الرغم مما فيها من الإلحاد والإباحية والطغيان وسيطرة الأفكار اليهودية القيادية على كثير من مؤسساتها السرية والعلنية.

---

(١) في سبيل الإحاطة بهذه الحقيقة راجع كتاب: صدام الحضارات، لهنتجتون.

وأسباب ذلك ما يأتي:

أولاً:

إن الحضارات السابقة على الإسلام لم يكن في مصادرها إسلام صحيح واضح، وإنما المبادئ الباقية الباهتة المنحرفة للأنبياء والمرسلين السابقين هي التي تركت بعض الآثار في سلوك أفرادها وتطور أنماط سلوكها الاجتماعي.

بينما الإسلام يعد عند الباحثين المنصفين اليوم من أهم مصادر الحضارة الغربية:

أ- في التوحيد، حيث رفض العقلاء التثليث، فالفلاسفة والعلماء الذين اتهموا بالإلحاد في العصور الأخيرة، لم يكونوا ملحدين باعتبار إنكار الخالق، وإنما باعتبار رفضهم لمبادئ الكنيسة.

ب- إن منهج قراءة الكون واكتشاف قوانين الحياة منهج قرآني واضح.

جـ- رفض خطاب الكنيسة وإثبات الخطاب للإنسان، كان أثرًا إسلاميًا تدريجيًا في الحضارة الغربية، نتج عن احتكاك الغرب بعقلية الاجتهاد الإسلامي، سواء في الفلسفة أم العلم أم التشريع أم القيم، لكن قصارى ما في الأمر أن الغرب نتيجة لاضطهاد الكنيسة الدموي لأهل الفكر والعلم أنكر الخطاب الإلهي (الوحي)، الذي كان في نظره خطاب الكنيسة، أو الوحي الذي اصطنعه رجال الدين (الأكليروس) في أوروبا، في العصور الوسطى. ولو كان أمام هؤلاء وحي صادق عقلاني يخاطب الكينونة البشرية دون وسطاء، ما أنكروا ذلك الخطاب[1].

ثانيًا:

إن تفجير الإنسان لنصيبه الفطري من أسماء الله الحسنى، ولو مبعثرًا مقطوعًا في

---

(١) قصة الحضارة، لديورانت، ١٣/٣٦٤؛ وفي تراثنا العربي الإسلامي للدكتور توفيق الطويل، ص١٤، ١٤٢؛ ودور المسلمين في بناء المدنية الغربية، لحيدر بامات، وتراث الإسلام، بحث مارتن بلستر، ٢/٢١٤.

هذه الحضارة، أوسع وأعمق وأكثر انطباقًا على قوانين الوجود من أية حضارة سابقة. فعلى سبيل المثال، قيم الحق والعدل والجمال والحرية وغيرها موجودة في هذه الحضارة في سلوك الأفراد، ولكنها مبعثرة وغير متوازنة. أي أن السلوك الغربي قد لا يجمع تلك القيم في مكانين أو زمانين، لأنه يؤمن بنسبية الأخلاق والمنفعة الحاضرة، نتيجة لتوجيه الثقافات المادية المنحرفة فيها[1].

ثالثاً:

إن هذه الحضارة الغربية تقبل بالتعددية في نفسها. وهذه التعددية في حرية الفكر أدت إلى الإبداع المستمر، لا سيما في جو الانفتاح على الجميع وعدم مصادرة الآراء. وقضية إلغاء (الآخرين) لا تأتي من أعماق هذه الحضارة، وإنما تنتج من تسلط أصحاب المصالح من اليهود والاستعماريين، جامعي الثروات ومغتصبي الشعوب والأمم.

إذن فضرورة وكيفية المواجهة تتطلب منا أن نهضم حضارة الغرب في كلياتها وجزئياتها، وأن نكون حياديين تمامًا في دراستنا، وألا نقف موقف المهاجم أو الرافض كليًا لمادتها المعرفية ومنجزاتها، وإنما نبحث عن حالة التوازن الجواني والظاهري، والاعتراف والإقرار بالازدواجية المبدئية للعالم ثم محاولة التغلب عليها[2]، فحينئذ فقط نستطيع أن ندخل في حوار حقيقي مع هذه الحضارة.

وهذا الحوار الحقيقي الصريح مهما طال، لا بد أن ينتهي -في رأيي- إلى أسلمة هذه الحضارة -ولو على المدى البعيد- أو في الأقل بناء جسور مشتركة بين الحضارتين

---

(١) التثاقف الحضاري مع الغرب، بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة، للدكتور عرفان عبد الحميد، ص ٩، ع٥، س، ٢، صفر١٤١٧هـ - يوليو١٩٩٦م.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص٣٦.

قائمة على الثقة وتبادل الخبرات والتعاون العالمي في سبيل خير الإنسان.

كيف؟

- إن حوار التوحيد مع التثليث حوار عقلاني، يؤيد التوحيد فيه العقل والعلم المعاصر، وقراءة الكون بهما في الحضارة المعاصرة كفيلة بإلحاق الهزيمة بالتثليث.
- إن حوار ظاهرة النبوة مع الألوهيات المتجسدة في الأرض حوار عقلاني، لأن فرضية النبوة بشريًا فرضية عقلية. فمن يؤمن بالله ويدرك صفاته التفصيلية، يؤمن أنه من غير المعقول ألا تشمل عنايته أشرف مخلوقاته، في حين تشمل تلك العناية غاية الشمول عالم الجماد والنبات والحيوان.
- إن جوهر الحياة الأخرى في الإسلام والنصرانية واحد، غير أن القرآن الكريم كعادته يبني ذلك اليوم الغائب عنا على أساس عقلي وعلمي ويقدمه نتيجة منطقية حتمية لحياتنا الدنيا، ثم إن اللاعقلانيات الموجودة في تصوير النصرانية لليوم الآخر لا توجد في الإسلام.

على أن القرآن الكريم في الحديث عن هذه العقائد يخاطب الكينونة الإنسانية عقلاً وقلبًا وروحًا، فأدلته من خلال آياته تنساب في كيان العقلاء انسيابًا.

- إن حوار القرآن الكريم مع القوانين والمنجزات التي اكتشفتها هذه الحضارة حوار متطابق، فلا مشكلة ولا تصادم بين منهج القرآن في البحث العلمي والعلم المعاصر. بل إن العلم المعاصر قرآني تمامًا، كما يقول العلامة محمد أحمد الغمراوي رحمه الله[1].

---

(١) الإسلام في عصر العلم، ص ٣٢، ٤١.

- إن حوار القرآن الكريم مع إنسانية الإنسان في الحضارة الغربية، وإثبات وجوده، حوار مريح جداً لعقلية مفكري الغرب، لأن القرآن أقر للإنسان الكرامة والحرية والخلافة الإلهية، وترك له مساحة واسعة في الحاكمية، وهي اجتهاد العلماء في إطار الضوابط الأساسية الخالدة الفطرية لفهم النصوص. ولذلك فإن الفقه في معظم قضاياه الدنيوية فقه بشري ولكن مهتد بهداية الكتاب والسنة.

وهذا الفقه نفسه أثّر في القوانين الأوروبية تأثيراً بالغًا، لا سيما المذهب المالكي.. والقانون المدني الفرنسي في أكثر بنوده، يكاد يكون ترجمة حرفية من المدونة الكبرى للإمام مالك رحمه الله تعالى[1].

وإذا زدنا على ذلك دعوة الإسلام للتعارف والتعاون البشري، لم تبق مشكلة كبيرة في كليات دائرة العقائد وفهم الكون وطبيعة الإنسان.

والتطلعات البشرية لإقرار حقوق الإنسان، متطابقة مع الإسلام في معظم القضايا الحقة لوثائق حقوق الإنسان التي صدرت من الأمم المتحدة.

وأتذكر هنا أن جهازاً من أجهزة الأمم المتحدة أصدرت بنود وثيقة في عام ١٩٧٥م، لرفع التمييز العنصري ضد النساء، ووزعت هذه الوثيقة على الأعضاء فيها لدراستها، وشكلت لجنة في جامعة بغداد للنظر في تلك الوثيقة، وكنت أحد أعضائها، وكانت المذكرة تحتوي على أكثر من خمسة وثلاثين بنداً، فوجدنا أن أكثر من ثلاثين منها متطابقة مع الشريعة الإسلامية، والبنود القليلة غير المتطابقة كان الحق فيها لجانب الإسلام، كالطلاق وتعدد الزوجات، وقد كتبنا مذكرة تفصيلية بشأن ذلك.

إن الحوار الإسلامي مع الحضارة الأوروبية في كليات المذهبية الإسلامية في الكون

(١) المقارنات التشريعية، للدكتور سيد عبد الله علي حسين، ط١، الحلبي، القاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

وخالقه والحياة والمجتمع أثبت نجاحه الأكيد، والدليل القاطع على ذلك أن كثيراً من الفلاسفة والمفكرين والعلماء والمثقفين الغربيين عندما تسنت لهم ظروف مناسبة لدراسة الإسلام، قبلوه وآمنوا به. وهم اليوم يدافعون عنه وينشرون مبادئه.

وأوضح الأمثلة على ذلك: اللورد هدلي، ويكثال، وجرمانوس، وجان بردوا، وايتين دينيه، وغارودي، وموريس بوكاي، وغيرهم كثير.

وهذا النجاح التاريخي في الحوار مع الحضارة الغربية قد بدأ، ولكن على مستوى الأفراد وعدد من الجمعيات الإسلامية في الغرب. ولكن هذه بداية متواضعة تبشر بإمكانية النجاح الكبير في المستقبل.

ويوم أن تعيد الأمة الإسلامية صياغة حضارتها المتكاملة من جديد، وتربي أجيالها في ظلها، وتسخر خيرات بلادها في سبيل تقوية دولها ومجتمعاتها، وتدخل الحوار المصيري مع الحضارة الغربية، سواء بطاقاتها المتفجرة في بلادها أم بقوة كيان الأقليات الإسلامية في بلاد تلك الحضارة، والتي ستتأثر حتماً بقوة ووحدة تلك الصياغة، حينئذ سيكون الإنقاذ جماعياً شاملاً للحضارة المعاصرة في مذهبياتها المادية وعلومها الصرفة وعلومها الإنسانية الغزيرة، وشحنها بقوة عقيدتنا وشمولية شريعتنا ورقي نظامنا الأخلاقي، في ظل منهجنا العقلي والعلمي في فهم الوجود.

فهذا هو قدرنا في هذا العصر، فنحن نحتاج إلى الحضارة الغربية في مناهجها العلمية ومنجزاتها المادية، وفي جوانب من فلسفاتها وأفكارها التفصيلية عن عالم النفس والمجتمع والحياة والتاريخ والاقتصاد والصراعات الحضارية وغيرها.

وهي تحتاج إلينا لانتشالها من مذاهبها المادية بقوة منهجنا العقلي المستند إلى الوحي الإلهي الصادق. وتحتاج إلينا لإخراجها من عفن الإباحية، بروحانية نظامنا

الأخلاقي الجامع للقيم المتماسكة التي لا تتبعثر يمنة ويسرة. وهي كذلك تحتاج إلينا لتبصيرها بمركز الإنسان المكرم عند الله، الخليفة المسخر، لا المتصارع، الذي يمكن أن يعيش في سلام ووئام مع إخوانه من بني البشر.

على ألا نكتفي بالأفكار المجردة، بل نقدم لهم النموذج الأرقى للقدوة التي يمكن أن تدور حولها الدوائر الحضارية، وهو رسول الله ﷺ المثل الأعلى للكائن الحي في الوجود، والجيل الأول من صحابته الذين رباهم في مدرسة العبودية لله وحب الإنسان لأخيه الإنسان.

وهذا لا يكون إلا إذا قدمنا إلى أهل الحضارة المعاصرة تاريخنا بكل أبعاده، مبرءاً من التشويه والتحريف، بعيداً عن التعظيم الخطابي الذي يفتقر إلى الأدلة العلمية.

والتقدم الفردي لا يكفي في هذا السبيل، وإنما لا بد أن يتمثل هذا في إطار جهد جماعي ضخم يشمل العالم الإسلامي كله، متجسداً في المعاهد الحضارية والتاريخية المتنوعة التي تحتضن المؤرخين الموثقين والمحققين الأثبات والمفكرين المحللين، بلغات عالمية عدة، وتخصص لها ميزانيات ضخمة كتلك التي تخصص في الغرب للمراكز التبشيرية والاستشراقية لإفساد عقائد وأفكار الشعوب والأمم.

المسلمون والنظام العالمي الجديد

ولسائل أن يقول:

كيف يمكن أن تتحقق كل تلك الأماني ونحن محاطون في عالمنا الإسلامي بالنظام العالمي الصليبي اليهودي الاستعماري الجديد، في الهيمنة على العالم وملاحقة كل ما يقدم المسلمين خطوات إلى الأمام ويعيد إليهم وحدة عقيدتهم وتضامن أممهم؟

ذلك أن الغرب في مخططاته كلها، السرية والعلنية، قد عقد العزم على ألا تقوم

الأمة الإسلامية مرة أخرى، وألا تنتصر في أي مجال من مجالات الحياة مرة أخرى[1]، تلك مقرراتهم، واعترافاتهم تشهد على ذلك[2].

فالجولة في هذا العصر لهم، والقوة بأيديهم، قوة المال، قوة العلم، وقوة التخطيط والدهاء وقوة الجنس، وهم متعاونون في ذلك، عاقدون العزم على تحقيقه.

فكيف يمكن بعد ذلك التفكير بالخلاص، والانتصار في هذه المعركة الضروس مع هذه القوى الكاسحة؟

أقول مع العقلاء، أصحاب الهمم: نعم، يمكن ذلك بكل تأكيد، لما يأتي:

- الحضارة الغربية ليست دولة واحدة، بعقيدة إيمانية راسخة واحدة، وإنما هي كيان ضخم، تعمل فيه جراثيم الفناء من داخلها، وفيها تناقضات فلسفية وسياسية واقتصادية كثيرة، وفيها مذاهب دينية متعددة قابلة للانفجار في لحظات تاريخية حاسمة تدمر كل شيء[3].

- الحضارة الغربية، وإن تبدو اليوم لمن ينظرون إلى ظاهر من الحياة، ذات قطب واحد، تسيرها الولايات المتحدة الأمريكية، غير أنها تختزن في أعماقها صراعًا شديدًا، بدأت كوامنه تظهر إلى السطح منذ هذه الأيام، فطغيان أمريكا، ومواجهة أوروبا، وغطرسة النازية في أعماق الشعب الألماني، وتململ الديغولية في فرنسا، سينتهي

(١) تحدث عن هذه القضية بعمق «الفرد كانتول سمث» في كتابه الخطير: «Islam In Modern History»، وهذا الخبير المخابراتي الغربي عاش في العالم الإسلامي من عام ١٩٠٨ إلى ١٩٣٥م وانتقل من تركيا إلى بيروت إلى القاهرة إلى الهند، ونشر هذا الكتاب في عام ١٩٥٥.

(٢) التحدي الإسلامي للغرب، ديفيد برايز؛ القرن الأمريكي، هنري لويس؛ درع الصحراء وفضيحة النظام العالمي الجديد، نورد دايفز؛ النظام العالمي الجديد، فؤاد عشا؛ الفرصة التاريخية، ريتشارد نكسن؛ والنظام العالمي الجديد–ملامح ومناظر، د.شفيق المصري.

(٣) راجع في هذا: أفول الحضارة الغربية، لشبنغلر؛ وسقوط الحضارة الغربية، كولن ولسن؛ والحضارة في الميزان، لتوينبي.

في النهاية إلى صراع موجه إلى قلب الحضارة الغربية، يستنفد قواها. أما إذا زدنا في الصراع ظهور القومية الروسية وشعورها بالضعف والمهانة، فإنه سيزيد الطين بلة.

لقد وصل الاستلاب اليهودي لأمريكا حالة خطيرة، بحيث استولوا على بؤر القرارات الخطيرة في البيت الأبيض ووزارة الدفاع والخارجية والمخابرات المركزية ومجلس النواب والأعيان (الكونجرس)، وتغلغلوا في المؤسسات الإعلامية والثقافية والفنية والاقتصادية[١]، فبدأ يؤدي ذلك إلى حقد شعبي عارم مبطن، يمكن في يوم ليس بعيداً أن ينفجر انفجاراً قوياً ينهي سيطرة اليهود على أمريكا، وتتحول تحذيرات جورج واشنطن وفرانكلين إلى واقع محسوس.. وهكذا الحال في أجزاء أوروبا، لا سيما فرنسا وألمانيا.

في منظورنا لعالم القرن الواحد والعشرين، نلاحظ قوى أخرى بدأت تظهر إلى الوجود من الآن، فالقوة الاقتصادية الهائلة لليابان، وقوة الصين العسكرية والبشرية الضخمة ذات الأصول الشرقية للحضارة، ستشكلان في المستقبل أزمة كبيرة أمام وحدة المصالح الغربية.. فالشعب الياباني لا يمكن أن ينسى توقيع صك الاستسلام الذي فرض عليه، لا بشجاعة الأمريكان وبطولاتهم وإنما بمفاجئة وحشية القنابل الذرية، وأما الصين فمرشحة تماماً للانتقام والوقوف أمام القوة الطاغوتية للحضارة الغربية بقيادة أمريكا.

- وأما الأباحية الجنسية وأمراضها الخطيرة وإدمان الحشيش وأنواع المخدرات الأخرى،

(١) راجع في هذا الكتاب الوثائقي الخطير: من يجروء على الكلام، للسناتور الأمريكي السابق: بول فندلي.

فقد أدت إلى تحطيم الشباب في داخل دول الحضارة الغربية، وأسلمتهم من الآن إلى حالة من الضياع والعبثية والتمرد، فإنها ستضعف الشعوب الغربية، وتلحق بها أشد الأضرار الصحية والاقتصادية والنفسية، مما يعجل بنهاية طغيان هذه الحضارة وحيويتها الذاتية.

فإذا كانت الأوضاع الحضارية في الغرب تتوجه من القوة إلى الضعف، فإنه بالعكس من ذلك في العالم الإسلامي، فإنها تتوجه من الضعف إلى القوة، للأسباب الآتية:

أولاً:

بعد أن انتهى تصور المسلمين في القرون الأخيرة إلى تواكلية مميتة، وجهل بسنن الحياة، وتعصب طائفي ومذهبي، أي نفق مظلم ضيق، وبعد أن استسلموا إلى الجهل والجوع والمرض، بدأت منذ قرن بذور النهضة تنمو شيئًا فشيئًا في أرجاء العالم الإسلامي، تجلت في التعرف على حقائق الإسلام، والتخلص من الاستعمار، وتسخير الثروات، والتخطيط لبناء الحياة ونشر العمران، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، حيث ظهرت الدول الحديثة بمؤسساتها العلمية والاقتصادية والسياسية والتربوية.

وهذا بحد ذاته -على الرغم من عدم وضوح الرؤية الإسلامية الشاملة- خطوة تقدمية في الانتقال من حياة البداوة والتأخر إلى حياة المدنية والتقدم.

ثانيًا:

الشعور بالانتماء إلى الأمة الواحدة، سواء الأمة العربية المسلمة أم الأمة الإسلامية الواحدة. فمظاهر التضامن والشعور بالمصير الواحد والاطلاع على المشاكل العامة والخاصة والتعاون العسكري وتبادل الخبرات وإنشاء المؤسسات كجامعة الدول العربية

ومؤتمرات القمة العربية والمؤتمر الإسلامي وغيرها من التجمعات والمؤتمرات، كلها دليل على بدأ عودة الوعي إلى الأمة.

ستقول: تلك المظاهر ضعيفة، لم تعمل كثيراً من أجل العالم العربي والإسلامي، وهو خاضع لتوجهات دول الاستعمار في بعض الحالات.

أقول: نعم إن هذه المؤسسات قد ظهرت، وسيكون تطورها إلى القوة وصنع القرار الموحد بقدر مستوى تطور العالمين العربي والإسلامي نحو الإسلام، وامتلاك الوعي الكامل، ثم الاستقلال عن السياسات الاستعمارية.. ومجرد ظهور هذه المظاهر دليل على الاعتراف بالأفكار الكامنة وراءها. أما إصلاحها وتخليصها من السيطرة الأجنبية، فسيتحقق يوماً من الأيام. وبوادرها قد بدأت، حيث دعا المؤتمر الإسلامي الثامن إلى عدم الدخول في معاهدات عسكرية مع العدو الصهيوني.

ثالثاً:

ظهور وعي شعبي عام في الأمة الإسلامية، نتيجة لحالة اليقظة الطبيعية، واستجابة للتحديات القائمة، يدعو إلى الإصلاح أحياناً وإلى الثورة أحياناً أخرى، وإلى الجهاد الشامل ثالثة. وعلى الرغم من أن هذا الاختلاف أعاق المسيرة في الماضي، إلا إن العقلاء نتيجة لضغط الكوارث الكبيرة التي حلت بالأمة، اعتباراً من نهاية الأربعينيات إلى اليوم يدعون إلى المصالحة بين القوى القومية والوطنية والحركات الإسلامية، وبدأ الحوار الفردي والجماعي في أماكن عدة، وذكّر هؤلاء بعضهم بعضاً أن الجسور المشتركة بيننا كثيرة، على كل طرف أن يسير نحو (الآخر) عليها.

إن المرتبطين بأرض الإسلام ينظرون إلى يومٍ تتحد فيه الجهود للدفاع عن أصالة الأمة ومصالحها.

وقبالة ذلك، خفتت كثيراً حالة الاتهامات المتشنجة المتبادلة بين تلك الأطراف المتحاورة، بينما انفضحت في العالم الإسلامي كله حقيقة الشيوعية التي كانت مرتبطة بمصالح الاتحاد السوفيتي، الدولة المقبورة، وظهر الوجه الحقيقي للماسونيين، لا سيما في عصر العلو اليهودي الصهيوني الكبير وطغيانه ومؤامراته على الأمة الإسلامية.

على أن القوميين والوطنين بدأوا يتراجعون عن مواقفهم المتشددة السابقة في عزل الإسلام عن الحياة، وظهر عصر الدفاع عن النفس، ومغازلة الإسلام، وقبول قيادة الإسلام الحضاري، وخصوصية الأمة وعدم السماح بذوبانها في الحضارة الغربية.

والدلائل كلها تشير إلى أن المثقفين والمفكرين يتوجهون في العالم الإسلامي إلى الإسلام بخطوات ملحوظة، وسيأتي يوم قريب بإذن الله تعالى، ينضم فيه الجميع إلى القافلة الإسلامية، وحينئذ ستتوجه الجهود إلى البناء في ضوء الإسلام الشامل، عقيدة وشريعة وأخلاقاً، والذي يضم الكل في توجه حضاري واحد.

وهذا يبشر بسقوط اللادينية (العلمانية) إن شاء الله تعالى في العالم الإسلامي كله.

رابعاً:

لقد حاولت القوى الطاغوتية الغربية بكل الوسائل الشيطانية زرع بذور الشك في أعماق كثير من الحكام ضد الإسلاميين، فلم يعاملوهم معاملة أبناء الوطن المخلصين، ولم يتحملوا معارضتهم السلمية البناءة، فصنعوا بتدبيرٍ ودفع من أعداء الإسلام مجازر وحشية للجيل الإسلامي الصاعد، وحشروا البقية في أعماق السجون، ليقضوا فيها ربيع أعمارهم. وهكذا حرمت تلك المجتمعات من طاقات هائلة مخلصة، كان

من الممكن أن تكون في خدمة حركة الأمة الإسلامية إلى الأمام، لإنشاء حضارتها وحياتها المستقبلية، كي تستطيع أن تحافظ بها على أصالتها واستقلاليتها.

إن مواقف هؤلاء الحكام -لا سيما الثوريين منهم- قد دفعت بشباب الإسلام في تيارات معينة إلى التشنج والعنف، مما أساء إلى الحركة الإسلامية العالمية إساءة بالغة، فوصمتها دوائر الاستعمار والصهيونية بالإرهاب والعنف، ودعت الحكام في مؤتمرات دولية معروفة إلى تصفية جيوبها والقضاء المبرم عليها، والتمكين لمزيد من اللادينية والبعد عن الدين، ظناً منهم أنهم بذلك سيبعدون الأمة عن إسلامها، فأدت سياساتهم إلى عكس ما أرادوا، حيث اشتعلت جذوة الإسلام في نفوس الجيل الجديد.

وهكذا ضاعت جهود من الطرفين، كانت جديرة بأن تصب في صالح حركة الأمة الإسلامية.

لقد غدا التفاهم بين الحكام وبين الفصائل الإسلامية، وحتى القومية والوطنية المرتبطة بمقدسات الأمة وقضاياها المصيرية، ضرورة حتمية، من أجل إنضاج الحركة الحضارية، لتقوية أمة الإسلام لمواجهة مشاكل المستقبل والوقوف أمام النظام العالمي اليهودي الجديد، الذي يريد ابتلاع مصالح الأمة الإسلامية وإخضاعها إلى طغيانها العالمي.

إن الثقة يمكن أن تعود بين الحكام والمحكومين، إذا أشرك الحكام أبناء الأمة في صنع القرار، وتركوا العنف الدموي، وتراجعوا عن اعتبار كل معارض عدواً تجب تصفيته.

والحركات الإسلامية إذا حاولت من جهتها أن تتخلص من عقدها الصدامية

السابقة، ونسيت المآسي التي حلت بأبنائها وبمجمل قضايا الأمة المصيرية، وتركت تكفير الحكام وعدتهم ابتداءً مسلمين، ثم عملت على نشر الوعي الإسلامي بين أبناء الشعب من خلال وسائل معاصرة مؤثرة، متعاونين مع الحكام المخلصين الواعين، أو ناصحين لهم، وصانعين جسوراً مشتركة من التفاهم على الأولويات، بينهم وبين المسلمين الآخرين على تنوع اتجاهاتهم، حينئذ يظهر للجميع أن الإسلاميين ليسوا خطراً على الحكام وعلى قضية التقدم.. حينئذ يفهم الناس أن دعاة الإسلام لا يؤمنون بتوجيه القتال إلى إخوانهم في الداخل، وإنما يؤمنون بتوجيهه إلى صدور الأعداء في الخارج.

أما في الداخل، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما يرضي الله تعالى والعمل الدؤوب لصياغة الأجيال صياغة ربانية إسلامية أخلاقية عالية، واستمرار الحوار البناء مع من لا تزال رؤيتهم غير واضحة بشأن حتمية الحل الإسلامي.

خامساً:

لقد أثبت الفكر العلمي في العالم الإسلامي، في ظل الاستمداد العلمي والتقني الحديث، أن علماء المسلمين في الاختصاصات المتنوعة، لا يقلون ذكاءً وقدرة عن زملائهم الغربيين، بل يبرزون أحياناً ويتقدمون عليهم في جامعاتهم ومراكز أبحاثهم، ويثبتون كذلك جدارة فائقة في اختصاصات علمية دقيقة تختص بالتقنية العالية والذرة وما إلى ذلك، فانتبهت إليهم مراكز البحث العلمي في الغرب وأغرتهم بالبقاء، فاستقر هناك عشرات الألوف من العلماء والمهندسين والأطباء والفنيين والأساتذة المختصين حتى في العلوم الإنسانية، ولا سيما أن الأوضاع السياسية للبلاد الإسلامية غير مستقرة، وكرامة الإنسان المسلم غير مصانة، ومراكز الأبحاث العلمية في أخرى ليست متقدمة، والاستعدادات الأولية في بعضها الآخر غير موجودة أصلاً.

غير أن الذين رجعوا إلى بلادهم أحدثوا نهضة حضارية كبيرة، في حدود الممكن، ويعني ذلك أن هناك إمكانية كبيرة جداً للترقي العلمي واسترجاع المنهج التجريبي في بلاد الإسلام، مع توفر الاستقرار السياسي وعودة احترام الإنسان، وتخصيص ميزانيات ضخمة للأبحاث العلمية.

وحينئذ سيرجع العلماء المهاجرون إلى بلادهم ويشتركون مع إخوانهم في الداخل في إحداث مدنية علمية إسلامية رصينة، إذا أحسن المسؤولون التخطيط والتنسيق والتوجيه في ظل موازين الإسلام، والمنجزات العلمية المعاصرة.

سادساً:

إن من أعظم مرتكزات التقدم الحضاري، أن توجد في الأمة التي تريد أن تتحضر وتبدع في المدنية، إرادة النهوض الحضاري، لأنها تشعر بتأخرها وسقوطها أمام الأمم الأخرى.

وهذه الروح موجودة بأجلى مظاهرها في أمتنا الإسلامية، منذ أن بزغ نور الإسلام على جنباتها الواسعة.

وتلك الروح العالية والهمة القعساء في نشدان التقدم هي التي صنعت حضارتنا عبر التاريخ، وخدمت الإنسانية بأنوار المعارف العالية والأفكار السديدة.

ولقد صحت أمتنا اليوم، فنظرت إلى ما حولها، ورأت الفارق الكبير والبون الشاسع بينها وبين الأمم المتقدمة في المدنية، فهبت في بلدانها إلى اللحاق السريع بركب المدنية، مع قسوة الظروف وتعدد عوامل الإعاقة في الداخل والخارج، والشعور بالأخطار الكثيرة التي ستلحق بالأمة أفدح الأضرار إن تقاعست عن رفع قواعد البناء الجديد.

على أن ما تم إلى الآن، على الرغم من تواضعه، علامة مضيئة مشجعة بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن تتحقق في ظل إرادة التصميم والنهوض، وفي جو الحرية الفكرية التي لا تنمو الحضارات على الوجه الأكمل إلا في ظلها.

سابعًا:

إن التقدم الحضاري المؤثر والهائل في أية أمة يحتاج إلى خصوبة الطاقة والقوى الكامنة في بيئتها الطبيعية. والأمة الإسلامية بحمد الله تعالى، تمتلك تلك الطاقات، بأوفر وأجلى مظاهرها.

فأراضي العالم الإسلامي، يقع معظمها في المناطق المعتدلة، وتمر بها بأنهار وبحار متعددة، تحيط بها المحيطات الشاسعة، بنيت على شواطئها عشرات الموانئ السوقية العظيمة، توصلها بجميع القارات من حولها، وتختزن ثروات هائلة من المعادن والمراعي والمزارع والغابات والثروات الحيوانية، بحيث يمكن أن تكتفي ذاتيًا بما فيها من كنوز، وتسيّر نفسها بنفسها، دون حاجات حقيقية إلى ما حولها من مظاهر الحياة، إلا في التقنية الحضارية المعاصرة التي حصلت على كثير منها والتي لا يستحيل عليها توريد الباقي.

وتلك الطاقات لو استغلت استغلالاً علميًا متوازيًا، لأدت إلى تنمية شاملة في أنحاء العالم الإسلامي كله، لا سيما في ظل التساند والتعاون والتخطيط المشترك، ووحدة المصير، كتلك التنمية التاريخية الكبرى التي وجهتها مذهبية الإسلام في الحياة في العصور العباسية والأندلسية الزاهرة، مع فارق الزمن والخبرة والتقدم.

إذن فأسباب النهوض والتقدم متوفرة في عالمنا الإسلامي، من مذهبية إسلامية شاملة واضحة المعالم، وثروات ونعم لا تحصى، وضعها الله تعالى بين أيدينا، وكتل بشرية تجاوزت المليار والربع مليار، بكل إمكاناتها الجسدية والعقلية والروحية.

وإذا كنا قد عرضنا بحثنا في إطار الصراعات المادية والتطورات الحضارية وعوامل النصر والهزيمة في حياة الأمم، فلا بد لنا، ألا ننسى أن إرادة الله هي التي تدير هذا الكون، وأن أسرار أفعاله فينا وفي الأمم لازمة، وسننه جارية. فمن يدري ما يخبئ تعالى لعباده المؤمنين المظلومين الذين جعلهم شهداء على الناس؟

فلا بد أن تظهر إلى الوجود «أمة الشهادة» مرة أخرى، لإضاءة حياة البشرية، وتذكيرها بخالقها وإلهها وقيادتها إلى الخير.

فلا بد ألا ننسى الفعل الإلهي والتوكل عليه، ومن ضمن التوكل اتخاذ الأسباب، وتجديد الإيمان، وإدامة التخطيط، والعمل الدؤوب، لأداء حق الخلافة والأمانة، وبناء الحياة الإسلامية المتوازنة، على الأقل في بلادنا، حتى نكون نموذجًا للآخرين، فنخدم بذلك أنفسنا وغيرنا من الأمم المتخبطة في عفن الإلحاد والإباحية والضياع.

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

الدور الحضاري المستقبلي للأمة..
موقع منظمة المؤتمر الإسلامي

الشيخ محمد علي التسخيري*

الأمة المسلمة؛ كانت دائماً منطقة ساخنة تهتم بها الأمم، وتتفاعل مع الأحداث، وتترك أثرها القوي أو الضعيف على مجمل المسيرة الإنسانية، وهي تقف اليوم على عتبة تحول كبير يتطلب التخطيط السليم والمواجهة الإيجابية الفاعلة.

لا بد قبل الحديث عن الدور الحضاري للأمة في عالم الغد، من إلقاء نظرة سريعة على واقع الأمة اليوم، بل وربما احتجنا إلى استعادة هذا الواقع عبر تاريخه الطويل المجيد.. إلا أن الطبيعة المقدمية تفرض علينا الاقتصار على التاريخ القريب، وليكن القرن الرابع عشر الهجري وبعضاً من قرننا الحالي، وهو ما يوافق القرن العشرين الميلادي تقريباً.. ففي هذه الفترة المليئة بالأحداث، نجد أن الأمة الإسلامية قد مرت بثلاثة أدوار رئيسة هي:

---

* رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية (إيران).

الدور الأول: دور الاستعمار والاحتلال:

فالأرض الإسلامية احتُلَّت كلها تقريبًا، إما احتلالاً مباشرًا كما هو الحال بالنسبة للعراق وسوريا ولبنان والأردن وشمالي إفريقيا وغيرها، أو بشكل غير مباشر كما هو الحال بالنسبة لتركيا وإيران حيث تمكن الاستعمار لفرض كل ما يريد بقوة العملاء الرسميين له. وتمتد هذه الفترة من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية تقريبًا.

الدور الثاني: دور الاتجاه القومي:

فبعد سقوط ألمانيا الهتلرية، بدأت وتيرة ما يسمى باستقلال الدول والحكومات في العالم الإسلامي والتحرر من براثن الاستعمار. ولكن صاحب ذلك اتجاه قومي عارم، حيث ظنت الشعوب المتحررة أن الاتجاه القومي هو البديل الأفضل للحالة الاستعمارية.

الدورالثالث: دور الاتجاه الإسلامي الشمولي:

ويبدأ هذا الدور تقريبًا من نهاية الستينيات الميلادية، حيث تنامى الشعور بقضية الإسلام والوحدة الإسلامية، وظهرت بوادر صحوة إسلامية شاملة لها مظاهرها وآثارها، ومن أهم هذه المظاهر الإحساس بوحدة المنطلق والمسير والهدف، مما يؤدي للإحساس بوحدة الشخصية لهذه الأمة.

وربما أمكننا القول: إن هذه الحالة هي الوليد الجديد بعد مرحلة جنينية مطولة نسبيًا لكل ما قامت بها الحركات الإسلامية السياسية والاجتماعية، المحافظ منها والمتحرر، والمنطلق منها على أساس وعي كامل للمسيرة، أو المنطلق على أساس إحساس بالظلم والضغط، وعلى اختلافها في الفهم والأسلوب والهدف، إلا أنها كلها نمّت هذا الجنين في رحم هذه الأمة الولود وأنتجت هذه الصحوة المباركة.

وكان الظلم الاستعماري، وخواء الاتجاهات القومية، وضغط النظم الدكتاتورية، وقيام الكيان الصهيوني، عوامل مساعدة قوية في ظهور هذه الصحوة.. وربما كان

ظهور منظمة المؤتمر الإسلامي على أثر الجريمة الكبرى التي أقدمت عليها الصهيونية بإحراق المسجد الأقصى، مظهراً وعاملاً على تنامي هذا الشعور الشمولي الإسلامي.. كما أن مما لا ريب فيه أن انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩م... وانهيار المعسكر الشيوعي الإلحادي، شكل عوامل كبرى في تنميتها واتساعها.

ولسنا ننسى هنا المسيرة العلمية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة، فإن لكل من هذه الجوانب موقعها الكامل في تشخيص موقع الأمة، إلا أن ما ذكرناه يمثل الشكل العام لهذه المسيرة.

وعبر هذه النظرة السريعة، ندرك أن الأمة المسلمة رغم ما ابتليت به من نكبات، كانت منطقة ساخنة تهتم بها الأمم، وتتفاعل مع الأحداث، وتترك أثرها القوي أو الضعيف على مجمل المسيرة الإنسانية بكل تفاعلاتها. كما ندرك أنها وهي تقف على عتبة تحول زماني كبير، لتشعر بتحديات كبرى تتطلب منها التخطيط السليم للمواجهة الإيجابية الفاعلة.

الدور الحضاري للأمة في عالم الغد

إننا إذا لاحظنا العناصر التالية، أدركنا بكل وضوح ضرورة اتخاذ دور فاعل في المسيرة الحضارية الإنسانية يتناسب وحجم هذه الأمة ومسؤوليتها الحضارية:

■ **أولاً: الموقع الحضاري الذي أراده الإسلام لهذه الأمة:**

ويمكن تلخيص ذلك بالعبارة القرآنية الشريفة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، ولا ريب في أن الوسطية هنا تعني القمة في المثل الحضاري، وخصوصاً بعد ملاحظة التقارن بين شهادة الأمة على الناس وشهادة الرسول ﷺ على الأمة، ونحن نعلم أنه ﷺ خير قدوة وأكمل إنسان يتمتع بكل صفات الإنسان.

فإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى، هي أن الإسلام جاء لكل الإنسانية ولكل العصور، دينًا خالداً ينظم للبشرية مسيرتها الحضارية التكاملية، أدركنا أن الإسلام يريد لهذه الأمة أن تحتل موقعها الريادي في كل عصر.. والحديث في هذا المجال واسع.

■ **ثانيًا: الإمكانات الحضارية التي تتمتع بها هذه الأمة، من حيث:**

أ- الطروحات الفكرية والاجتماعية التي استمدتها من الإسلام، والتي أثبتت قدرتها الرائعة على تخطي العصور وإعطاء الحل الناجع لمشكلات الإنسان.

ب- الثروة العلمية والفكرية الهائلة التي ورثتها من تاريخها المجيد.

جـ- الموقع السياسي والجغرافي والاقتصادي الذي تحتله، حيث تمتلك أكثر المناطق حساسية وتمتد في قلب العالم عملاقًا يعمل أعداؤه على أن ينام وتتحرك أطرافه للإنطلاق على مختلف الصعد.

د- الطاقات الإنسانية الكبيرة التي تمتلكها وتستطيع تجميعها وتعبئتها لصنع الغد الأفضل.

■ **ثالثًا: مقتضيات الواقع:**

ذلك أن البشرية اليوم تسير نحو تنافس الأمم في صنع الحضارة الإنسانية، وهو مضمون اتفاق الأمم كلها على جعل العام ٢٠٠١ الميلادي عام (الحوار بين الحضارات) باقتراح من رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية، رئيس الدورة الثامنة لمنظمة المؤتمر الإسلامي. وبطبيعة الحال فإن التوالي الحضاري في المعسكر (الآخر) يتطلب منا تواليًا حضاريًا إسلاميًا نستطيع معه أن نعيش على ظهر الكوكب وإلا فالفتنة والفساد، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٧٣).

وهنا نقول:

إن الأمة تواجه تحديات يمكن أن نجملها بالتحديات السياسية، والعلمية، والاقتصادية، والثقافية، والعقائدية، والاجتماعية، والمعلوماتية.

ومن أهم التحديات السياسية: اتجاه العالم إلى عصر القطب الواحد المسيطر على مجمل السياسة العالمية.

ومن أهم التحديات العلمية: هذا التقدم العلمي الكبير للغرب، والذي يستغله لفرض هيمنته في مختلف الصعد على العالم.

ومن أهم التحديات الاقتصادية: فكرة العولمة الاقتصادية، التي لا تبقي لأمة قدرتها على السيطرة على اقتصادها، وإنما تربط ذلك بمجمل الوضع الاقتصادي العالمي، ولا ريب في أن القدرات الهائلة للغرب لا تفسح المجال للقدرات الصغيرة الأخرى.

ومن أهم التحديات الثقافية والعقائدية: هذا الهجوم الثقافي والأخلاقي والعقائدي الكبير على كل أبعاد شخصية هذه الأمة، وربما شكلت العلمانية أهم مظاهره وأشدها اتساعًا.

كما أن أهم التحديات الاجتماعية: هذا التخطيط الرهيب لتغيير تعريف العائلة وحذف دورها الاجتماعي الركين.

وأخيرًا فإن التحدي المعلوماتي اليوم، يدع العالم الإسلامي منحصرًا في زاوية ضيقة من سيطرة معلوماتية واسعة.

وكل هذا يتطلب تخطيطًا واقعيًا مخلصًا للمواجهة الإيجابية الفاعلة -كما أسلفنا- ويلقي مسؤولية كبرى على عاتق منظمة المؤتمر الإسلامي باعتبارها تدعي تمثيل الأمة بكل جوانبها وبشكل رسمي، كما يلقي بمسؤوليات أكبر على عاتق أكبر الفئات غير الرسمية بلا ريب.

نظرة على منظمة المؤتمر الإسلامي واقتراحات لتفعيل دورها العالمي

مرت عقود ثلاثة على ذكرى إحراق المسجد الأقصى بأيدٍ صهيونية عام١٩٦٩م، وقد ثارت لذلك مشاعر المسلمين وعم الغضب كل العالم الإسلامي ضد الكيان الصهيوني الغاصب، وكانت ردة فعل المسؤولين في العالم الإسلامي وبدوافع سياسية مختلفة قد تمثلت في إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، لتحقيق التضامن الإسلامي والعمل على ترشيد أحوال الأمة الإسلامية في مختلف المجالات.

وكمنظمة عالمية، استطاعت هذه المنظمة أن تعقد لحد الآن ٢٥ مؤتمرًا لوزراء الخارجية وثمانية مؤتمرات للقمة، وعشرات المؤتمرات الفرعية والتخصصية، وأنشأت بعض المؤسسات الفرعية في مجالات تخصصية، وبذلت مئات الملايين من الدولارات سعيًا لتحقيق أهدافها.

والسؤال المطروح هنا هو:

هل استطاعت المنظمة أن تحقق الهدف المعلن الذي أنشئت لأجله؟

وفي مجال الإجابة، ربما نجد من يفرط في التفاؤل فيتصورها من أنجح المنظمات، ومن يمعن في التشاؤم فيراها لم تحقق أي شيء غير إهدار الأموال والأوقات وتضييع الآمال، ودعم الاتجاهات الرسمية، إلا أن الحق يقتضينا التأمل أكثر فأكثر لنقف على صخرة الحقيقة.

وإذا درسنا الموقف من جوانبه، وتأملنا النتائج والقرارات التي صدرت من الاجتماعات العديدة، وتتبعناها في مجال التطبيق العملي، والآثار المترتبة عليها، نجد أن هناك فرقًا شاسعًا بين المسارين السياسي والاقتصادي من جهة، والمسار الثقافي من أخرى، طبعًا كما نعتقد نحن، وللآخرين ما يعتقدون.

ولسنا هنا بصدد التفصيل في دراسة المسارين السياسي والاقتصادي، غير أننا

نستطيع القول بإجمال: إن المنظمة لعبت بعض الأدوار السياسية، ولم توفق في أكثرها لعوامل عديدة.

فبالنسبة لفلسطين، كانت قراراتها من حيث المجموع أفضل من غيرها، وربما بلغت قرارات بعض المؤتمرات العشرين صفحة، تناولت فيها القضية الفلسطينية من جميع الجوانب، وأعطت رأيها بصراحة فيها. إلا أن الملاحظ أن هذه القرارات كانت تذوب عند التطبيق، فلا تجد لها الاستجابة الكافية، فكل دولة كانت تتخذ مسارها تجاه القضية، وتمشي لوحدها على ضوء ارتباطها، الأمر الذي كان ينعكس حتى على نفس هذه القرارات، فتعمل على التراجع عن المواقف المبدئية السابقة، حتى عاد الأمر كما نشهده اليوم من الذل والمساومة والإذعان لكل الضغوط، وبالتالي الاعتراف بالعدو الغاشم.

وبالنسبة لقضية الحرب العراقية الإيرانية، لم تستطع المنظمة أن تفعل شيئًا رغم أنها اتخذت بعض الخطوات. وكذلك الأمر بالنسبة للاعتداء العراقي على الكويت.

وربما تحقق الإجماع الإسلامي تجاه قضية البوسنة والهرسك كأقوى ما يكون، واستطاعت المنظمة أن تتخذ منها بعض المواقف القوية، إلا أنها لم تحقق المطلوب بشكل كامل. وها نحن نراها عاجزة عن التدخل بشكل قوي في قضية كوسوفا كما كانت عاجزة عن المساهمة في الحل في قضيتي الصومال والنزاع الأريتري الأثيوبي، وكذلك قضية كشمير وغيرها.

أما على الصعيد الاقتصادي، فإن إنجازاتها يمكن أن تتلخص في القيام ببعض المشاريع الاقتصادية المفيدة للعالم الإسلامي، وفي طليعتها البنك الإسلامي للتنمية وغيرها، في حين بقيت بعيدة عن تحقيق هدف السوق الإسلامية المشتركة، بل إنها لم تستطع أن تفعل شيئًا أمام السقوط المريع لأسعار النفط مثلاً.

بعد هذا لنركز على المسار الثقافي لهدف المنظمة، لنعرف مدى ما حققته

من نتائج.. ويمكن أن نقسم الإنتاج الثقافي إلى حقول:

■ **الحقل الأول: المراكز الثقافية التي تم إيجادها، أو الدعوة لذلك، وأهمها ما يلي:**

أولاً: الجامعات الإسلامية: قرر مؤتمر القمة الإسلامية الثاني المنعقد في لاهور في الباكستان في فبراير ١٩٧٤م، إنشاء جامعتين إسلاميتين في أفريقيا، إحداهما في النيجر لتخدم البلدان الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية، والثانية في أوغندا لتخدم البلدان الناطقة بالإنجليزية. ويذكر أن في لاهور جامعتين إسلاميتين.

كما قرر المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م إنشاء الجامعة الإسلامية في ماليزيا، وقرر المؤتمر الإسلامي الرابع عشر لوزراء الخارجية المنعقد في داكا في بنغلاديش في ديسمبر ١٩٨٤م إنشاء الجامعة الإسلامية في بنغلاديش.

وأوضاع هذه الجامعات مختلفة، فجامعة النيجر قبلت لحد الآن بعض الطلاب، ولكن لما كانت الصعوبات المالية تواجهها بقوة مما أدى إلى حصول اضطرابات بين الطلبة، دعت السلطات المحلية لإغلاقها في بداية السنة الدراسية (١٩٩١- ١٩٩٢م)، وقد تم القيام ببعض الخطوات العملية لإعادتها إلى النشاط.

وجامعة أوغندا بدورها تم افتتاحها عام ١٩٨٨م، أي بعد أربعة عشر عاماً، وتضم حالياً ثلاث كليات، ويقدر عدد طلابها بـ ٣٠٢ طالب، وما زالت تعاني من نقص مالي. وكانت جامعة ماليزيا العالمية هي المشروع الأكثر نجاحًا، حيث افتتحت عام ١٩٨٣م وفيها الآن أكثر من ٨٠٠ طالب، كما أن هيئة التدريس فيها تزيد على ٥٠٠ عضو، وأخيراً فإن جامعة بنغلاديش الإسلامية تحوي الآن ١٣٠ طالبًا، وتعاني من نقص مالي أيضًا.

ثانيًا: المراكز الإسلامية التابعة، وهي:

أ- مسجد الملك فيصل والمؤسسات التعليمية الثقافية التابعة له في انجمينا في تشاد.

ب- المعهد الإقليمي للدراسات والبحوث الإسلامية في تمبكتو في مالي.

جـ- المعهد الإقليمي للتعليم التكميلي في إسلام آباد في الباكستان.

د- المركز الإسلامي في غينيا بيساو.

و- المنظمة الإسلامية الدولية للمرأة ودورها في المجتمع الإسلامي.

ز- المعهد الإسلامي للترجمة في الخرطوم.

والملاحظ أن هذه المراكز تمت الموافقة على إنشائها في أحد المؤتمرات الإسلامية، لهدف نشر الثقافة الإسلامية، وهي عادة ما يتم التعاون في تمويلها بين المنظمة ودولة المقر، ولكنها لم تصل بعد إلى الحد المطلوب، طبعًا على اختلاف بينها فيما حققته من خطوات.

وكمثال على ذلك، نجد أن موضوع المنظمة الإسلامية الدولية للمرأة -رغم أهمية موضوعه إذ يتناول قضية ترشيد دور المرأة في المجتمع الإسلامي- بقي خلال سنتين قيد الدرس والمداولة.

فقد طرح لأول مرة في الاجتماع العاشر للجنة الإسلامية للأمور الاقتصادية والثقافية والاجتماعية باقتراح من الباكستان، وأوصىٰ المؤتمر الرابع عشر والمؤتمر الخامس عشر لوزراء الخارجية بتشكيل لجنة متخصصة لدراسته، واجتمعت اللجنة في أكتوبر ١٩٨٥م في إسلام آباد ودرست الموضوع، وقدمت النتائج إلى الاجتماع السادس عشر لوزراء الخارجية، الذي كلف الأمانة العامة بتهيئة مشروع الميثاق، وقد قامت الأمانة العامة بذلك، وعرضته على الاجتماع الثامن عشر، وتتابعت تأييدات وزراء الخارجية

في مؤتمراتهم التالية: (التاسع عشر، والعشرين، والحادي والعشرين) مع الترحيب باقتراح مقدم من الجمهورية الإسلامية الإيرانية لاستضافة اجتماع للخبراء لدراسة هذا الموضوع.

وقد سعت الأمانة العامة في الاجتماع الحادي والعشرين لوزراء الخارجية لطرح مشروع قرار يخلط بين هذه المنظمة وموضوع دور المرأة في المجتمع الإسلامي، مما كاد أن يؤدي إلى حذف الفكرة في النهاية، إلا أن نشاط الوفد الإسلامي الإيراني حال دون ذلك.

وقد عملت الجمهورية الإسلامية الإيرانية على متابعة هذا الموضوع، إيمانًا منها بأهمية الموضوع، ولكن نشاط بعض الدول القوية في المنظمة حال دون الوصول إلى قرار حاسم، إلى أن انعقد مؤتمر القمة الثامن بطهران، وتوج الجهود بصدور قرار متوازن عن المرأة، ولكنه ما زال ناقصًا، وما زلنا ننتظر رأي مجمع الفقه الإسلامي حول نتائج دورة طهران، وقد دامت دراسته أربع سنوات!! هذا وما زال الطريق طويلاً أمام المنظمة لتصدر قراراتها القوية في قضايا (الشباب أو الأطفال) وغيرها.

■ **الحقل الثاني: المواضيع العامة:**

وتندرج تحت هذا العنوان المواضيع التالية:

١- مشروع المبنى الجديد لجامعة الزيتونة بتونس.

٢- وضع تقويم موحد للشهور القمرية والأعياد والمناسبات الإسلامية.

٣- مشروع إنشاء مركز إسلامي للتدريب والبحوث الطبية المتقدمة في بنغلاديش.

٤- مشروع الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي.

٥- مشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان.

٦- مشروع القيام بخطة لمكافحة المفاسد الأخلاقية.

٧- موضوع الموقف الموحد تجاه الاستهانة بالمقدسات والقيم الإسلامية.

٨- مشروع استراتيجية العمل الإسلامي المنسق في مجال الدعوة.

٩- موضوع رعاية الطفل وحمايته في العالم الإسلامي.

١٠- التآخي بين الجامعات الفلسطينية في الأراضي المحتلة والجامعات في الدول الأعضاء.

١١- تدريس مادة تاريخ وجغرافية فلسطين في الدول الأعضاء.

١٢- الوضع التعليمي في الأراضي الفلسطينية المحتلة والجولان السوري.

١٣- تقوية وضع الجامعات في الأراضي المحتلة.

١٤- دراسة مشكلات التعليم في الأراضي المحتلة.

١٥- المحافظة على الهوية العربية والطابع الإسلامي لمدينة القدس الشريف.

١٦- تدريس المعلومات حول الجماعات المسلمة في البلقان والقوقاز في مادتي التاريخ والجغرافيا.

١٧- تقديم مساعدات لمسلمي كوسوفا وسنجق.

١٨- حماية التراث الثقافي والمؤسسات التعليمية في البوسنة والهرسك.

والملاحظ في هذه المشاريع قبل كل شيء، أنها تناولت في أغلبها قضايا مهمة جداً، ولها آثارها الواسعة على مستوى العالم الإسلامي، إلا أنها بدورها اختلفت من حيث حماس الدول الأعضاء لإنشائها وتنفيذها، وبالتالي اختلفت من حيث المصير والنتيجة، وها نحن نذكر بعض الأمثلة على ذلك:

أ- مشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان:

فمشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان في الإسلام، مر بكثير من اللجان والمؤتمرات منذ بدأت فكرة كتابته رسمياً عام ١٩٧٩م، حيث قرر المؤتمر الإسلامي

العاشر لوزراء الخارجية تشكيل لجنة مشاورة لإعداد لائحته، وقد أحيلت إلى المؤتمر الحادي عشر، حيث قام بدوره بإحالتها إلى لجنة قانونية، وعرض النص المعدل على مؤتمر القمة الثالث، لكن هذا المؤتمر أحاله إلى لجنة أخرى، ووافق المؤتمر الرابع عشر للخارجية في داكا على المقدمة وأول مادة فيه، وأحال بقية المواد على لجنة ثالثة، ثم تتابعت المؤتمرات مؤكدة عليها، إلى أن عقد اجتماع طهران في ديسمبر ١٩٨٩م وأعد الصيغة النهائية التي تمت الموافقة عليها نهائيًا في المؤتمر التاسع عشر بالقاهرة، وهكذا تكون قد مرت بعشر مؤتمرات للخارجية، وثلاثة للقمة، بالإضافة لجلسات الخبراء التي كان آخرها في طهران، وقد تشرفت برئاسة هذه الجلسة الأخيرة، كما شاركت في جلسات غيرها كرئيس مناوب أو عضو مسؤول.

والحقيقة فإن النتيجة كانت رائعة من حيث الجانب النظري، إلا أن المشكلة الأساسية تكمن في التطبيق على صعيد العالم الإسلامي، تمامًا كما هي المشكلة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ولكن على الصعيد العالمي كله.

فقد أصرت بعض الدول الأعضاء على أن يقيد تنفيذ هذا الإعلان بما إذا كان ينسجم مع القوانين الداخلية لها، وهذا أمر غريب حقًا.

وعلى أي حال، ينبغي السعي الجاد لضمان التنفيذ بمختلف الطرق، ولا يتم ذلك إلا من خلال إنشاء لجنة محايدة لمراقبة حقوق الإنسان على ضوء اللائحة الإسلامية، وهذا ما ندعو إليه بقوة.

ب- الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي:

وهومشروع مهم جداً، انطلق من مؤتمر القمة الثالث، وأكد عليه مؤتمر القمة الإسلامي الخامس في الكويت عام ١٩٨٩م عبر مشروع قدمته السنغال، وشكلت لذلك لجنة للخبراء الحكوميين، حيث عقدت ثلاثة اجتماعات شاركت في بعضها،

بل وقمت بتهيئة الفصل الثاني من المشروع، وهو فصل (الأهداف). وهكذا قامت هذه اللجنة في اجتماعها المنعقد بالقاهرة عام ١٩٩٠م بدراسة الخطة، وتوالت الاجتماعات حتى تم وضع مشروع متكامل رفع إلى مؤتمر القمة السادس في داكار، وتم العمل على ملاحظة السبل الكفيلة بتطبيقه عبر خطة تنفيذية، ولم تصل هذه الخطة بعد إلى الحد الكامل.

وقد قام المؤتمر السابع بالدار البيضاء بالمصادقة على مشروع قرار برقم CS/DR/15 تمت فيه التوصية على وضع هذه الاستراتيجية موضوع التنفيذ، عبر دراسة الخطة التنفيذية من قبل اللجنة الدائمة للإعلام والشؤون الثقافية، وطلب من الدول اتخاذ الخطوات اللازمة لإدخال هذه الاستراتيجية ضمن سياساتها الوطنية في المجالات الثقافية والتعليمية والتربوية.

وعلى أي حال فما زال هذا المشروع باقيًا على الصعيد النظري ينتظر صياغته بشكل مشروع عملي تنفيذي، مثله تمامًا كمثل اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان.

ج- مشروع وضع خطة لمكافحة المفاسد الأخلاقية:

مر هذا المشروع بعقبات كثيرة وضعتها بعض الدول الأعضاء، لأنه يتنافى مع ما هي عليه من السماح لبعض السلوكيات غير الأخلاقية، من سماح مثلاً لبيع الخمور، وترويج للسفور، وفسح المجال للقمار والبلاجات الخليعة، وأمثال ذلك من أنماط الانحراف السائد في بعض أرجاء العالم الإسلامي.

ورغم كل العقبات، فقد أصررنا على طرحه في المؤتمرات، حتى تمت الموافقة على صيغة معدلة منه، حذفت منها كل عبارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخففت مواده حتى كادت تفقده فاعليته.

والحقيقة، أن القرار لم يترك أي أثر على صعيد إصلاح الأوضاع الأخلاقية، نظراً لفقدان العزيمة اللازمة لتحويل هكذا مشروع إلى واقع التنفيذ.

د- موضوع الموقف الموحد من التجديف والاستهانة بالمقدسات الإسلامية:

وهذا الموضوع انطلق من خلال الآثار العالمية التي تركتها فتوى الإمام الخميني بحق المرتد المجرم سلمان رشدي، الذي عمل من خلال كتابه المشؤوم (الآيات الشيطانية) على الاستهانة بأهم المقدسات الإسلامية، وقد ساندته في موقفه التآمري كل الدول الغربية، معبرة عن حقدها ضد الإسلام والمسلمين. إلا أن الفتوى أفشلت هذه المؤامرة، بل حولت الموقف إلى تجلٍ جديد للوحدة الإسلامية بوجه أعداء الأمة الإسلامية... وقد عرض الموضوع على المؤتمر الثامن عشر لوزراء الخارجية بالرياض عام ١٩٨٩م. فأصدر بيانه التاريخي حول (العمل المشترك إزاء أنماط الاستهانة بالقيم الإسلامية)، وقد أيد المؤتمر الإسلامي التاسع عشر عبر أحد قراراته هذا الاتجاه، وطالب بالوقوف أمام نشر هذا الكتاب الضال.

إلا أن ضغط الدول الغربية وتقاعس البعض من الأعضاء أضعف هذا الموقف، الأمر الذي تجلى في إدخال عناصر أخرى في هذا القرار، مثل مؤامرة الكيان الصهيوني لتدمير المسجد الأقصى، والضغوط الهندية الهادفة إلى هدم مسجد البابري، فضمت إلى موضوع كتاب الآيات الشيطانية. وهذه المواضيع وإن كانت بنفسها مهمة، إلا أن ضمها لهذا القرار يضعفه بلا ريب.

هذا وقد صدر عن كل من المؤتمرين الـ(٢٠، ٢١) للخارجية قرار يطالب الأمين العام بدراسة إمكانية إعداد وثيقة قانونية دولية لكفاية احترام القيم والمقدسات الإسلامية في برنامج عمل مجمع الفقه الإسلامي.

وفي المؤتمر الثاني والعشرين للخارجية الذي تبعه مباشرة المؤتمر السابع للقمة، تم تأكيد البيانات السابقة.. وبعد التنديد بالاعتداءات الصهيونية على المسجد الأقصى

والمسجد الإبراهيمي، والاعتداءات الهندية التي أدت إلى تدمير مسجد البابري، والاعتداءات الصربية على الأماكن المقدسة في البوسنة والهرسك، تم التأكيد على ضرورة إبرام الوثيقة القانونية الآنفة الذكر.

وهكذا نجد أن المنظمة تتردد بين الإقدام والإحجام في كثير من المواضيع، ومنها هذا الموضوع، وبدلاً من تقوية موقف المؤتمر الثامن عشر، راحت المسيرة تضعف من خلال ضم موضوعات مهمة أخرى كلها تستحق قرارات مستقلة إليه حتى يمكن تغطيته بالأحداث، وصرف الأنظار المركزة على الغرب في ذلك.

هذا في حين يصعّد الغرب من دعمه لهذه المؤامرة، ويستقبل رؤساؤه هذا المجرم، ويمنحه المكافآت والأوسمة كبطل للحرية التعبيرية، بل ويحاول تشجيع أمثال تسليمة نسرين المعتدية أيضًا على المقدسات في المسيرة، دون أن يأبه بالموقف الإسلامي الرافض.

■ **الحقل الثالث: المؤسسات المتفرعة:**

وهي مؤسسات شكلتها المنظمة، وتعتبر الدول الأعضاء بشكل طبيعي أعضاءً أيضًا في هذه المؤسسات.. وتبلغ في الحال الحاضر سبع مؤسسات في المجالات الثقافية والاقتصادية، وتقع مقراتها في بلدان مختلفة. وها نحن نقدم نبذة مختصرة عن أهم مؤسستين ثقافيتين فيها وهما:

أولاً: (الارسيكا) مركز الدراسات التاريخية والفنية والثقافية الإسلامية باستانبول:

وقد أنشئ هذا المركز بقرار من المؤتمر السابع لوزراء الخارجية، وتمت الموافقة على نظامه الأساسي في المؤتمر التاسع، وبرنامجه العملي في المؤتمر العاشر، وافتتح عام١٩٨٢م. وللمركز نشاطات متعددة منها:

- إصدار ٤١ كتابًا في الشؤون التي يختص بها.
- إصدار ٣٤ نشرة إخبارية.

- إنتاج شريطين وثائقيين حول الفنون الإسلامية.
- إقامة ٨٩ معرضاً في مجالات الفنون والصور التاريخية.
- شارك في أو نظم ٢٤ ندوة في مختلف المناطق.
- نظم ٨٨ محاضرة علمية في مركزه باستانبول.
- يقوم بأعمال اللجنة التنفيذية للجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري.

هذا ويعتبر المركز من المراكز الناجحة، إلا أنه ما زال يعاني من النقص المالي، وكذلك ما زال يهتم بكثير من الأمور الجانبية، في حين توجد قضايا مهمة جداً لم يتطرق إليها بعد.

ثانياً: مجمع الفقه الإسلامي:

وهو مجمع فقهي عالمي، تشترك فيه كل الدول الإسلامية على مستويات تمثل فيه كل المذاهب الإسلامية السبعة (الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي والإمامي والزيدي والأباضي) وتسوده روح حرة إلى حد جيد، ويدرس في كل عام قضايا مستجدة مهمة. وأتشرف بتمثيل الجمهورية الإيرانية فيه، بل وتمثيل كل أتباع ومدارس المذهب الإمامي في العالم... وقد عقد لحد الآن إحدى عشرة دورة في مدن مختلفة، درس فيها عشرات المواضيع المهمة.

ونظراً لأهمية هذا المجمع، وبطلب من مندوب الجمهورية الإسلامية الإيرانية فيه، فقد تفضل سماحة قائد الثور الإسلامية في إيران فامر بتشكيل «مجمع فقه أهل البيت»، ليقوم إلى جانب دراسة القضايا المستجدة دراسة معمقة، بالإشراف على الدراسات المعدة لهذا المجمع وأمثاله.

ويعد هذا المجمع من أفضل المشاريع التي أقدمت عليها المنظمة على الإطلاق، ولنا تعاون مستمر معه.

■ **الحقل الرابع: المؤسسات التخصصية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي:**

وهي مراكز متخصصة تعمل في إطار المنظمة، لكن انتماء الدول الأعضاء لا يتم بشكل طبيعي، بل هي حرة الانتماء وعدمه، ولها مقرات في بلدان متنوعة، وها نحن فيما يلي نشير إلى أهم مؤسسة فيها وهي:

(**الأسيسكو**) المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

وقد طرح مشروع تأسيس هذه المنظمة في الاجتماع العاشر للخارجية، وتمت الموافقة على نظامها الأساس في الاجتماع الحادي عشر، ووافق مؤتمر القمة الثالث عام ١٩٨١م على تأسيسها، وعقدت اجتماعها التأسيسي عام ١٩٩٢م، وانضمت إليها آنذاك ٢٣ دولة، وتستهدف ما يلي:

أ- تمتين أواصر التعاون التعليمي والعلمي والثقافي بين الدول الأعضاء.

ب- إقامة السلام والتفاهم عبر الاستفادة من مختلف الوسائل.

جـ- تجسيد معالم الثقافة الإسلامية في البرامج الدراسية في مختلف المستويات.

د- إحياء الثقافة الإسلامية الأصيلة ورد الشبهات.

هـ- الدفاع عن الهوية الإسلامية للمسلمين في الدول غير الإسلامية.

هذا وقد انضمت الجمهورية الإسلامية إليها عام ١٩٩٤م، فبلغت الدول المنتمية ٣٩ دولة.

أما المؤسسات الأخرى فهي:

- الاتحاد الرياضي للتضامن الإسلامي، ومقره في الرياض.
- اللجنة الإسلامية للهلال الدولي، ومقره في بنغازي بليبيا.
- الاتحاد العالمي للمدارس الدولية، العربية الإسلامية.
- لجنة تنسيق العمل الإسلامي والدعوة.

وخلاصة الأمر، أننا نجد للمنظمة تأثيراً لا بأس به في المجالات الثقافية، وربما فاق هذا التأثير بكثير آثارها الاقتصادية والسياسية، إلا أنه لم يصل مع هذا إلى الحد المطلوب من منظمة عالمية تحمل أهدافًا كبرى، وتعمل على الرقي بمستوى أبناء الأمة في مختلف المجالات، ذلك أن التوعية الحقيقية تتطلب العمل على تعميق المفاهيم الإسلامية الأصيلة حول الوحدة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، ونشر الفضائل، وإيجاد التوازن المطلوب على مختلف المستويات، وحذف كل مظاهر الفساد الأخلاقي والسياسي والثقافي والاقتصادي، وإحياء الشعار الإسلامية بما لها من روح حقيقية، وبالتالي على إيجاد المجتمع الإسلامي الأصيل الواحد والفرد المسلم الملتزم، وهذه أمور لم تستطع المنظمة القيام بها مع الأسف.

ولعل أهم الأسباب التي أقعدتها عن تحقيق أهم وظائفها تكمن في أنها تستمد قوتها من أعضائها، وبعض من هؤلاء الأعضاء لا يصوغون سياساتهم بحرية كاملة، بل على أساس الخضوع للمصالح الوطنية أو الحزبية أوالقومية المغلقة، مكتفين من الإسلام ببعض الصفات السطحية.

هذا بالإضافة إلى أن المنظمة تسير عادة وفق المجالات المسموح بها من قبل الدول، وما تخضع له من التصور وبعض الاعتبارات، وذلك يمنع المنظمة من القيام بدورها الفاعل في التوعية الإسلامية، أو الارتفاع بمستوى المرأة، أو محاربة الفساد الأخلاقي، وأمثال ذلك.

■ كيف تتم عملية التفعيل؟

رغم اعتقادنا في أن الحالة الطبيعية هي الوحدة السياسية والقانونية لكل العالم الإسلامي، إلا أن ملاحظة الظروف القائمة تجعلنا نفكر في البدائل، ومنها هذه المنظمة. إن هذه المنظمة كبديل، تستطيع أن تلعب أدواراً أكبر على الساحة الدولية في

القرن الحادي والعشرين شريطة أن تتوفر في أعضائها إرادة التغيير المطلوب . .

إن المنظمة يجب أن تحقق المستويات التالية :

أولاً : الانسجام الداخلي المطلوب عبر التقدم في المسارات الاقتصادية والثقافية والسياسية، وتجاوز المنافع الضيقة، نحو الأهداف العليا .

ثانيًا : معرفة القدرات الهائلة التي تمتلكها الدول الأعضاء، والعمل على الاستفادة الأفضل من هذه الإمكانات الضخمة .

ثالثاً : التدخل بكل قوة في الأحداث العالمية خصوصًا بالنسبة لما يرتبط بالعالم الإسلامي .

رابعًا : التعاون الدولي في مختلف المجالات، والإسهام الواسع في حل المشكلات الحضارية القائمة .

ومن الطبيعي أن تحقيق هذه المستويات لن يتم إلا إذا توفرت الظروف التالية :

١- إعادة النظر بكل جدية في النظم التي تحكم نشاطاتها، والآليات القائمة، واعتماد آليات فاعلة تمتلك القدرة التنفيذية المطلوبة، وتعلو على العقبات المصلحية الضيقة، لتفرض الواقع المطلوب، ولا ريب في أن هذا المعنى بحاجة إلى إرادة قوية للتغيير .

٢- امتلاك القدرة المالية المطلوبة، والاكتفاء الذاتي المالي دون انتظار المعونات الإضافية التي تتبرع بها هذه الدول أو تلك، وإلا بقيت تابعة ذليلة لمطامعها، وقعدت عن تحقيق آمالها الكبرى .

٣- اعتماد عنصر العقوبات الرادعة للدول المتقاعسة عن القيام بواجباتها .

٤- اعتماد فكرة إشراك الجماهير والمنظمات غير الحكومية في مجال تحقيق

الأهداف المطلوبة، ولو من خلال الضغط على حكوماتها للانسجام مع الخط الإسلامي العام.

٥- الاتجاه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية للدول الأعضاء، وتطهير العالم الإسلامي من كل الظواهر غير الإسلامية، وهو هدف كبير يعلنه الجميع ولكنهم يتوانون عن تحقيقه.

وفي خاتمة المقال نود أن نقول:

إن المؤتمر الثامن للقمة الإسلامية في طهران، شكل نقلة نوعية لعمل المنظمة من حيث قوة التماسك التي ظهرت في المؤتمر، والصدىٰ الإعلامي الذي تركه، والقرارات المتقدمة التي وافق عليها، وقبل ذلك من حيث تحديه لسياسات الاستكبار العالمي.

وكان للخطاب الهام الذي ألقاه قائد الثورة الإسلامية في إيران، واقتراحاته البناءة لتسلم الدور اللائق بالمنظمة في نظام الاقتدار العالمي، وكذلك الخطاب الذي ألقاه رئيس المنظمة السيد الخاتمي، الأثر الكبير في اتجاه منظمة المؤتمر الإسلامي نحو مستقبل أفضل واقتدار أسمىٰ.

إلا أن ذلك كله -كما قلنا- يتوقف على استمرار الإرادة وقوة التصميم وروح التحدي، التي يجب أن يتحلىٰ بها أعضاء المنظمة كي تستطيع تحقيق هذه الأهداف.

نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا جميعًا لتحقيق مرضاته؛

إنه السميع المجيب.

الإسلام وقدرته على التنافس الحضاري

السيد محمد حسين فضل الله*

نحن أمام التطور العلمي للشعوب لا نجد أي عقدة من الانفتاح عليها والتعامل معها، بل نضع أمامها جملة من الأسئلة الحضارية عن رسالة العلم وغاياته ومدى إنسانيته وخدمته للبشرية.

الحديث عن الإسلام وقدرته على التنافس الحضاري، يختزن في داخله معنى الامتداد في الزمن.. وإن قصة أي فكر، سواءً كان فكرًا دينيًا رساليًا أو علمانيًا أو أي شيء متعارف في وصف الفكر، لا يمكن مقاربته وفق منطق الغالب والمغلوب، أو من موقع عقدة الضد مع (الآخر).. فالمسألة ليست عملية صراع مادي في أصوله ومعطياته، بل هي مسألة فكر، وفي الفكر لا يصح الحديث عن غالب ومغلوب، ولا يمكن تصنيف الصراع الفكري في إطار مفاهيم الهيمنة والغلبة. إن المسألة فيما له علاقة بالفكر هي مسألة منافسة وأدوات حوار وعمل تمكننا من دخول العقل، والعقول تعرف لغتها جيدًا، من خلال انفتاحها على فكرٍ يخاطب فكرًا، وعلى كلمة تحمل فكرًا وتنقله بشفافية وبمحبة.

---

* مفكر.. وباحث.. (لبنان).

وعندما ينطلق نقاش الأفكار فلا يعود من مكان للعصبية، لأن العصبية تفتك بالفكر وتحول الاختلاف الفكري إلى مناخ لتبادل الأحقاد والأحقاد المضادة.

والفكر ليس شيئًا خُلق مع الإنسان منذ ولادته، بل هو مادة ننتجها ونتوارثها. ونحن نعرف أننا قد نتخلى عن ما أنتجناه إذا اكتشفنا أنه لا يمثل صلاح الحياة، وقد نتخلى عن بعض ما ورثناه لنستبدله بما هو أفضل وأنفع، لذلك فإن الإسلام منذ البداية لم ينتشر بالإكراه أو بالهيمنة والإلغاء، وإنما قال للذين يختلفون معه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).. فلغة الفكر هي لغة دليل يقابل دليلاً، وليست لغة انفعال وعاطفة. ومشكلتنا في (الشرق) أننا أدخلنا الفكر في مشاعرنا ولم ندخله في عقولنا، وبذلك أصبحنا نفكر بطريقة غرائزية وغير عقلانية، فتحول الاختلاف فيما بيننا إلى خلاف ونزاع وربما إلى صراع.

قدرة الإسلام على التنافس الحضاري

ثم إن مسألة قدرة الإسلام على التنافس الحضاري، قد تبدو من خلال هذا العنوان غريبة بعض الشيء، لأن القدرة على التكلم عن أي فكر يدخل ساحة التنافس معناه: أن هذا الفكر يريد الدخول من جديد إلى ساحة المنافسة، ونحن نعرف -من خلال تاريخ الفكر والدين وتاريخ حركة الصراع- أن الإسلام عندما بدأ، بدأ في ساحة مثقلة بما قد لا يسمى فكرًا في الساحة الإسلامية، وإنما يسمى انتماءً في ساحة الدعوة الإسلامية، وربما كان هناك فكر في المنطقة التقىٰ به الإسلام بعد ذلك، وهو الفكر الديني المختلف فيما هي اليهودية والنصرانية.

وتحرك الإسلام في التاريخ، وواجه الكثير من ألوان الفكر بمختلف تنوعاته، لا سيما عندما دخلت الترجمة إلى الساحة الإسلامية، ولم يتعقّد الإسلام من الفكر (الآخر)، بل احتواه واستوعبه، وعمل على الحوار معه، ووصل إلى نتائج إيجابية على مستوى الدعوة.

فقد رأينا أن السلطة الإسلامية تحركت في مدى تلك القرون الأربعة عشر وبقي إلى جانبها اليهود والنصارى والمجوس، وربما بقي بطريقة وبأخرى بعضٌ من التيارات اللادينية. فالإسلام لم يلغ (الآخر) في حركته في الواقع الثقافي والسياسي، بينما نجد أن التجربة في الأندلس عندما انتصر غير المسلمين على المسلمين، ألغوا الإسلام كله في كل الأندلس، لهذا فإننا نتصور أن هذه التجربة الحضارية للإسلام استطاعت أن تصنع الحضارة للعالم كله كأفضل ما تكون الحضارة، في مدى مائة سنة. ونحن نقرأ في مذكرات (نهرو)، وهو رجل يحمل الكثير من الفكر، أنه يعبر عن الحضارة الإسلامية بأنها أم الحضارات الحديثة، لأنها هي التي أعطت الغرب التجربة كوسيلة للمعرفة إلى جانب الوسيلة التأملية العقلية السائدة، وذلك من خلال تجارب الفلاسفة والعلماء أمثال ابن رشد وغيره.

الإسلام مجتمع التنوع:

إذًا نستطيع القول بالإجمال: إن الإسلام نجح في تجاوز حركة التنافس الحضاري على المستوى الثقافي والسياسي والاجتماعي، واستطاع مجتمعه الحضاري أن يكون مجتمعًا متنوعًا يضم إلى جانب المسلمين اليهود والنصاري والمجوس وغيرهم.. بل إننا نستطيع التأكيد بأن أول مجتمع إسلامي، كان يمثل البذرة الأولى للدولة الإسلامية، كان مجتمعًا متنوعًا يتحرك على أساس أسلوب المعاهدة بين أفراد المجتمع الذين يختلفون في خلفياتهم الدينية أو مرجعياتهم الفكرية. فقد عقد النبي ﷺ عندما جاء إلى المدينة معاهدة إلفة بين جميع أفراد المدينة من المهاجرين والأنصار من الأوس والخزرج، وضم اليهود آنذاك إلى هذه المعاهدة، فجعل حقوقهم كحقوق أفراد المجتمع الآخر، وكانت تلك أول وثيقة حقوقية في المجتمع المتنوع، الذي يتكامل أفراده في القضايا المشتركة حتى مع اختلافهم في الدين والفكر.

وقد نجد الكثير من اليهود والنصارى الذين يتعقدون من فكرة نظام الذمة، لأنهم

يتصورون أن النظام الذي يحكم علاقة المسلمين باتباع الأديان الأخرى في دولة الإسلام هو نظام الذمة، التي قد يتصورونها نوعًا من أنواع التصنيف الذي يحول غير المسلم إلى إنسان من الدرجة الثانية في المواطنة والحقوق.. ونحن لنا رأي آخر لا نريد الدخول فيه لأن المجال ليس مجاله الآن.. وقانون الذمة يمثل أسلوبًا حضاريًا لم يعرفه العالم من قبل، وهو لا يمثل -كما يُظن- اضطهاداً لإنسانية الإنسان، أو امتهانًا له، لكن سواء قبلنا الذمة أو لم نقبلها، فإن أول من سنَّ «العقد الاجتماعي» كأسلوب إسلامي في بناء العلاقة مع (الآخر) ومن خلال أتباع الأديان الأخرى كان الإسلام، ذلك من خلال صيغة المعاهدة التي قد يصطلح على تسميتها حديثًا بـ«العقد الاجتماعي».

ولذلك فإننا نتصور أن الإسلام نجح نجاحًا كبيرًا في مسألة حركة التنافس الحضاري، واستطاع أن يصنع حضارته على أفضل صورة تحفظ للإنسان إنسانيته ولصاحب المعتقد معتقده. ولكننا نحاول -ولو بشكل مختصر- الإشارة إلى العناصر المكونة للقدرة الإسلامية على دخول حركة التنافس الحضاري، لا سيما أن هناك من يقول بوجود فرق بين المراحل التي استطاع الإسلام أن يقطعها في دائرة التنافس.

مكامن القوة الحضارية في الإسلام

وقد يتصور بعض الناس أن هذا العصر هو عصر نهاية الإيديولوجيا، وأن المسألة لم تعد مسألة عقائد تحكم الإنسان، ولكنها أصبحت مسألة قوىً تتحكم به بأساليبها الخاصة، فليس هناك شيء اسمه صراع العقائد ولكن هناك صراعًا من نوع آخر، إنه صراع المصالح، فقد يقول قائل: إن الإسلام يعيش من خلال الواقع في موقع الضعف، والمجتمعات الأخرى تعيش في موقع القوة، فكيف يمكن للإسلام التفكير بدخول دائرة التنافس الحضاري في هذا العصر؟ وهنا قد نحتاج إلى دراسة مكامن القوة الحضارية في شخصية الإسلام كقوة تتحرك في خط الحضارة.

- إنسانية الإسلام:

وعندما نبحث عن هذه العناصر، فإننا نلتقي في البداية بإنسانية الإسلام.. فالإسلام إنساني في نظرته إلى الإنسان كله، وهو لم ينطلق من أية حالة عرقية أو قومية، فقد ولد في المنطقة العربية ولكنه لم يحمل القومية العربية -بالمفهوم العرقي العنصري- كعنوان لحركته ليكون غير العرب ملحقين سياسيًا أو ثقافيًا بالعرب. فقد كان القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام عربيين، ولكن الإسلام جاء إلى الإنسان كله، لأنه رسالة إنسانية جامعة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات:١٣). فقد أطلق الإسلام الإنسانية في بُعدها الواسع، ولكنه لم يلغ خصوصيات الإنسان الوطنية والقومية والعرقية، فلكل شخصية عرقية خصائصها وعناصرها التي تميزها عن الأخرى، لكن هذه الخصوصيات لم تكن يومًا حائلاً دون اعتناق الإسلام والاهتداء بهديه.

وهكذا عندما نتحدث عن كل المميزات الإنسانية التي تميز شخصًا عن آخر، فالإسلام لم يلغ الخصوصيات الإنسانية وإنما نظمها وأنسنها: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾. فعندما تتحرك خصوصية كل إنسان في موقع معين، فعلى كل خصوصية أن تخاطب الأخرى بما عندها من خبرة وتجربة في ما تحتاجه الخصوصية الأخرى، ليتحقق الانفتاح المطلوب الذي يفتح الخصوصيات بعضها على بعضها الآخر، ويجعلها تتناغم فيما بينها.. والتعارف ينطلق من خلال التناغم، والتناغم ينطلق من خلال الحالة التي يعيشها كل إنسان في تفاعله مع الإنسان (الآخر) من خلال فكره وخبرته وعلمه أو ما إلى ذلك. فخصوصياتنا الجغرافية والقومية واللغوية، هي خصوصيات من أجل إغناء التجربة الإنسانية، التي تتعارف فيها خصوصية مع خصوصية أخرى وتتفاعل من خلالها بعضها مع بعض، لكون النتائج للإنسان الذي يجمع الخصوصيتين ويحقق خلاصة هذا التفاعل بين الخبرات وبين الثقافات.

ولهذا كان الإسلام إنسانيًا: «**لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**»[1].. والتقوى لا تمثل حالة منغلقة في الإنسان، فهي تحركه في الحياة من خلال مسؤوليته أمام الله.. ومن خلال هذه المسؤولية، تكون المسؤولية عن الإنسان كله والحياة كلها. لذلك فالفكر عندما ينطلق فإنه يتوجه إلى كل الإنسان، ويخاطبه كجوهر وذات فاعلة ومهتدية، ولهذا نجد في القرآن نداءين في ما ينادي به الله، هناك نداء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهناك نداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.. وهذا النداء ليس نداءً بالمعنى الطائفي الذي يُتاجر به الناس، ولكن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ الذين التزموا الإيمان فكرًا وعاطفة وحركة، بحيث ينطلق الإيمان ليتحرك في خط المسؤولية للإنسان.. فهذه القاعدة الأولى لمنطق القوة في الحضارة الإسلامية.

- **الإسلام دين توحيد في العقيدة والمجتمع:**

وهكذا نجد أن الإسلام هو دين توحيد في العقيدة، ودين توحيد في المجتمع. فأما في الأولى، فهو الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له ولا مثيل، فنحن نستحضر الله في الوجدان الإنساني وليس بالعين المجردة، لأن العين إذا حدقت في ما نتمثله استغرقت فيه وحولته إلى صنم، أما عندما نستحضر الله الواحد الذي خلقنا وتعهدنا بالرعاية والرحمة والمحبة، فإننا ننفتح على عالم روحي يغني كل وجودنا، فنشعر بالأمن والطمأنينة معه وبرعايته وحبه. فالله الواحد هو رب العالمين وليس رب فئة دون أخرى، لا يستطيع أحد أن (يعلّب) الله داخل كنيسة أو مسجد. فالإنسان لا يحتاج إلى شخص معين ليقربه إلى الله، فالله دعانا لأن ندعوه ونحادثه

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان وأبو نعيم في الحلية: «يا أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى...» وأخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وصححه الألباني؛ (الناشر).

دون وسيط، حيث يخاطب الإنسان بكل حنان ورأفة: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:١٨٦)، فقولوا لي ما تريدونه من دون الخضوع لأي وسيط، كائنًا من كان هذا الوسيط، شيخًا أو قسًا أو كاهنًا أو غير هؤلاء... فالله هو رب العالمين، وعندما يتحدث عن رسوله ﷺ يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ:٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، فهو رسول للعالمين وليس رسول فئة دون أخرى.

وبذلك أكد الإسلام جانب الوحدانية لله في معنى الوجود والقدرة، وبلغ الرسول أن ينشر مفهوم التوحيد على كافة المستويات، التوحيد في العبادة والوحدة في المجتمع، فلا فرق بين أحد وآخر إلا بما يقدمه في سبيل الله ومن أجل الإنسان.. ونلتقي بذلك بحديث الرسول ﷺ وهو يشير إلى ما يعانيه المجتمع من تميز في العلاقات ومفاضلة بين الناس: «**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم والله لو سرقت فاطمة بنت محمد** -ولن تسرق فاطمة بنت محمد- **لقطعت يدها**»[١].

وهكذا نلاحظ أن الإسلام لم يُشرع لطبقة دون طبقة، فقد شرع للإنسان كله، فليس هناك في الإسلام تشريع طبقي، للأغنياء دون الفقراء، أو لأصحاب الجاه دون الذين لا يملكونه، فاعلى شخص في المجتمع يخضع للتشريع الإسلامي في حقوقه وواجباته بالدرجة نفسها التي يخضع لها أصغر شخص، فالعدالة تقتضي خضوع الجميع لله ولشرعه بالمستوى نفسه.

---

(١) أخرج الترمذي في سننه وابن ماجه في صحيحه: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيْمُ الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها». وأصله في الصحيحين: (الناشر).

- **عقلانية الإسلام:**

والنقطة الثالثة في هذا الإطار، هي عقلانية الإسلام، فالإسلام أعطى للعقل قيمة ومكانة بحيث كرّم به الإنسان، وهداه من خلاله إلى سبل الحياة في ما يستطيع إخضاعه من وسائل الحياة، لأن هناك أشياءً يملك العقل الوسيلة للوصول إليها، وأشياء أخرى لا يملك الوسيلة إليها.

فالعقل يدرك وجود الله من خلال طبيعة المعادلة التي تعتبر –حسب الاصطلاح الفلسفي– أنَّ ممكن الوجود، الذي لا يكون وجوده وعدمه حتميًّا، لا بد أن يستمد وجوده من الخارج، لأنه لا يحمل في داخله حتمية وجوده، إذاً لا بد من وجود خالق للوجود. فهذا ما يستطيع العقل أن يدركه ويجب أن يسعى لإدراكه، ولكن ما هي خصائص هذا الخالق وما هي عناصر كينونته؟ فهذا غيب لا يستطيع العقل إدراكه، لأنه لا يملك الأدوات المعرفية للوصول إليه. لذلك نقول: إن العقل هو الذي نستطيع الاستدلال به على وجود الله وعلى نبوة النبي عليه الصلاة والسلام وعلى إمكانية اليوم الآخر، فالعقل في الإسلام هو حجة الله، وهناك تعبير يقول: «العقل رسول من داخل، والرسول عقل من خارج»، لذلك فالعقل أساسي في الإسلام.

ويرى الكثير من علماء الكلام: أنه إذا كان ظاهر القرآن يعطي شيئًا، والعقل القطعي يرى أن هذا الشيء مستحيل، فلا بد من تأويل ظاهر القرآن لمصلحة العقل، لذلك فإن الإسلام يؤمن بالعقل ويخاطبه ويُعلي من شأنه، وهناك حديث يقول: **«لما خلق الله العقل قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحسن منك، إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب»**[1]، لأن التفكر يغني المعرفة بالله، ويجلي الحجب عن الأبصار، لذلك ليس الإيمان فوق

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الدار الإسلامية، طهران، ١/٢/٩٦، رواية ٤.

العقل، بل هو نتيجة طبيعية لإعمال العقل، لأن العقل هو الذي يركز للإيمان عقيدته حتى ولو لم يتمكن من مرافقة الإيمان إلى كل آفاقه، حيث لا يملك العقل أي وسيلة للمعرفة فيه.

- **الإسلام دين العلم والعقل:**

وهكذا نجد أننا عندما نتحدث عن العقل فإننا نتحدث عن العلم، فالعلم في الإسلام فريضة: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»(١)، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).. والعلم ليس له حد يقف عنده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).. لذلك فالعلم هو أساس التفاضل الإنساني فيما هي القيمة الإنسانية في معنى الإنسان.. والعلم هو الوسيلة التي تعيننا على كشف أسرار الكون والحياة، لذلك فالأمة الجاهلة لا يمكن أن تعي حقيقة الإيمان العميق.

ولذلك فنحن أمام كل التطور العلمي للشعوب التي تقدمت علينا بفعل اشتغالها بالعلم وتخلفنا عنها بفعل انشغالنا بالتخلف والجهل، لا نجد أي عقدة من الانفتاح عليها والتفاعل معها، بل قد نضع أمامها جملة من الأسئلة الحضارية عن رسالة العلم وغاياته ومدى إنسانيته وخدمته للبشرية والحياة.

ولذلك فنحن لم نضع أي تحفظ على أي إنتاج علمي، وتحفظنا ينحصر في دائرة استخدام العلوم وإنسانية وظيفتها.. نحن عندما طُرحت مسألة الاستنساخ وثار الكثيرون على فقهاء المسلمين ليحرموها، قلنا: إن الاستنساخ بحد ذاته لا يمثل مشكلة من حيث المبدأ، ولا يمثل نفياً للعقيدة الدينية التي تقول: إن الخالق هو الله، لأن هذه التجربة لا تحوّل الإنسان إلى خالق، بل إن الإنسان من خلال الاستنساخ يستهدي القانون الذي وضعه الخالق لإنتاج الحياة في الكائنات الحية، في الإنسان والحيوان والنبات.

---

(١) البحار، ٢/٩/٣١، رواية ٢٠.

فالعلماء يؤكدون أنَّ الكائن الحي يبدأ من خلية تشتمل على ستة وأربعين من (الكروموزومات)، وهذه بدورها موزعة بين النطفة والبويضة، وجاءت تجربة الاستنساخ لتجمع بين عناصر الخلية في ظروف اصطناعية، فقد أخذت خلية حية ثم فرّغت البويضة وأودعت فيها، فكان هناك ستة وأربعون تمامًا كما هو طفل الأنبوب، وهذا لا يعتبر خلقًا يتجاوز القوانين المودعة في مخلوقات الله، لأن الأمر كي يكون كذلك لا بُدَّ من خلق قانون جديد خارج دائرة القوانين الإلهية لإنتاج الحياة، وهذا ما لم يستطيعه الإنسان في كل اكتشافاته واختراعاته. فالإنسان إنما استهدى القوانين التي اكتشفها في الكائنات، ومع ذلك عندما طُرحت مسألة استنساخ البشر، قلنا بوجوب النظر إلى المسألة من الزاوية الوظيفية الأخلاقية، وطرحنا أسئلة عن المفاسد الأخلاقية والاجتماعية والحقوقية التي تلزم من ذلك، وكم هي المصالح، فإذا كانت المفاسد أكثر من المصالح عندها تقع الحرمة الشرعية، وإذا كان العكس، فلا إشكال في حليّة العملية، فكل ما كانت مفسدته أكثر من نفعه فهو حرام، وهذه هي المعادلة التي نبني على أساسها رأينا في الموضوع، علمًا أننا لم نعش هذه التجربة من قبل.

- الإسلام دين العدالة:

أما النقطة الأخرى في الجانب الحضاري في الإسلام فهي العدالة، ففي الإسلام العدالة مطلقة، ولا دين لها ولا مذهب ولا قومية ولا عرق، فالعدالة لكل الناس، للمؤمنين وللكافرين على حد سواء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)، فالله يأمر بالعدل والإحسان، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، وقد ورد في بعض الأحاديث المأثورة في السنة النبوية الشريفة: «**أن الله**

أوحى إلى نبي في بني إسرائيل في مملكة جبار من الجبارين : أن ائت هذا الجبار فقل له : إني لم أستعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال ، وإنما استعملتك لتكف عني أصوات المظلومين، فإني لم أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً»[1]، فتعاليم الله تؤكد أن الكافر أو المشرك بالله إذا كان له عليك حق فعليك أن لا تظلمه حقه، فالعدالة هي لكل الناس.

- **التوازن في الإسلام:**

وهكذا نجد أن من عناصر الإسلام التوازن، فهو يوازن في تشريعاته بين السلطة والجماعة، والفرد والمجتمع، فللفرد حقوقه التي تمتد إلى أن تقف عند حدود المجتمع، وللسلطة حقوقها التي لا يمكن لها التعدي على حقوق المجتمع. لذلك فالسلطة في الإسلام لا تملك حقًا إلهيًا مطلقًا.

ونحن نقرأ في نهج البلاغة عن الإمام علي رضي الله عنه وهو في موقع الخلافة أنه قال للناس: «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»[2].. الحاكم هنا يطلب من الناس دراسة سلوكه وحكمه وسيرته، فهذه هي مسألة السلطة في الإسلام، إن الإسلام لا يعطي صاحب السلطة سلطة مطلقة على طريقة ما كان يعرف في أوروبا بالحكم الإلهي، الذي يُعبّر فيه مزاج الحاكم عن إرادة الله.

---

(١) البحار، ١٢/٣١/٤٦٤، رواية: ٣٦.

(٢) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، دار التعارف للمطبوعات، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، خطبة ٢١٦، ص٢٥٤.

وهكذا نجد وجود التوازن بين المادة والروح، فالإسلام ليس ماديًا بالمطلق وليس روحيًا بالمطلق، ولكنها روحية تجد روحها في المادة، ومادية تجد سموها في الروح، ولذلك فنحن ننتقد المصطلح الموجود في لبنان عندما يتحدثون عن مقامات وقيم روحية وإرشاد روحي، ونقول: إن هؤلاء مثلنا يحملون فكر الروح ولكنهم لم يتحولوا إلى روح، فلكل منهم مادة قد تعيش كل سلبيات المادة وربما تنفتح على إيجابيات الروح، لذلك ليست عندنا مقامات روحية، بل مواقع إنسانية تتخصص بالدين الذي هو مزيج من المادة والروح، ونحن من القائلين: إن الدين خُلق للإنسان ولم يخلق الإنسان للدين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)، فالدين جاء لحماية الإنسان من نفسه ومن غيره ولكي ينظم له حياته.

- مرونة الإسلام وقدرته على الانفتاح:

وهكذا نلاحظ اشتمال الإسلام على المرونة والقدرة على التكيف في مسألة التشريعات الإسلامية، ونحن نقول: إن الأخلاق الإسلامية ليست مثالية بالمطلق إذا كان المقصود بالمثالية ما يتعالى على الواقع ولا نستفيد منه.. فالإسلام واقعي في سننه الأخلاقية، فمثلاً عندما نواجه بعض الحالات في الواقع السياسي الذي نعيش فيه، حالات اضطهاد للناس من قبل أجهزة مخابراتية أو أجهزة أعداء، فلو قُدم الإنسان إلى المحقق وطلب منه أن يفضح أسرار شعبه أو دولته وقيل له أحلف بالله -ونحن نعرف أن الكذب حرام- وقد يحرم على الإنسان قول الصدق ويباح له الكذب في حالات خاصة، لأن الله حرم الكذب كخاصية إفساد للإنسان وأراد له الصدق، لأنه يرتفع بمستواه، إلا في مواطن معينة يتحول الصدق إلى أداة سلبية ضد مصلحة الإنسان، فيجوز الكذب في هذه الحالة التي يتقدم فيها الأهم على المهم.

ونحن نقول: إن الأخلاق الإسلامية متحركة، كالغيبة مثلاً، فهي محرمة، ولكن مثلاً إذا جاءك إنسان يستشيرك في مسألة وكنت تعرف أشياء سلبية فيمن يستشيرك عنه، فهنا الحديث عن خفايا الشخص هو غيبة، ولكن لو أغلق باب النصيحة لاختل نظام العالم، ولذلك نقول: إن من مستثنيات الغيبة إعطاء النصيحة.

وهكذا، فإن الأخلاق والقيم الإسلامية ليست مثالية بل واقعية، فهي بقدر ما تلتصق بالمبادئ، إلا أنها تتوازن لما فيه صلاح الإنسان.

ثم هناك الانفتاح، فالإسلام هو دين منفتح على العلوم والمعارف، ولذلك رأينا كيف استقدم الإسلام العلوم الأخرى من مناطق غير إسلامية بواسطة الترجمة وترك للحوار المجال الواسع في هذا الاتجاه.

- الإسلام دين القوة:

وهكذا أراد الإسلام للناس أن يأخذوا بأسباب القوة، ولكن القوة التي تحمي الإنسان ولا تسقطه، ولهذا عندما ندرس آيات القتال في الإسلام: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٠)، ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ (النساء: ٧٥)، نجد أن القتال في الإسلام هو وقائي تارة ودفاعي أخرى، تماماً كأي بلد يتحرك في خط مواجهة الأعداء.

وعلى ضوء هذا، هناك عناصر أخرى تعني أن الإسلام عندما يدخل ساحة التنافس الحضاري، فإن لديه القدرة على أن يأخذ دوره في الحياة إذا تهيأت له الظروف الملائمة، لأنه يختزن الكثير من الغنى في العناصر الحضارية التي يمكن للإنسان أن يعيش معها براحة وسعادة، وهذه هي مسألة الحضارة.

إن قيمة أية حركة حضارية هي بمقدار ما ترفع مستوى الإنسان وتعالج مشاكله،

ونحن نتصور بفعل التجربة وبفعل المكونات الداخلية للإسلام، أنه قادر على الاستمرار في العصر الحاضر ودخول معترك التنافس مع التيارات الأخرى كما كان في الماضي.

الإمكانات الموضوعية لقدرة الإسلام على التنافس الحضاري

وهنا نحاول ولو بشكل مختصر أن نتحدث عن الإمكانات والقدرات الموضوعية للعالم الإسلامي، فهناك عدة مفردات تؤهل العالم الإسلامي أن يمتد في الجانب الحضاري: الموقع الجغرافي الاستراتيجي في وسط العالمين القديم والحديث، وامتلاكه للإمكانات المادية الكبيرة التي يقوم عليها الاقتصاد العالمي في مناحي متعددة منه، وامتلاكه طاقة بشرية كبيرة، إذ يعد سكان العالم الإسلامي بمئات الملايين المهيئين للتعبئة والتوظيف في كافة المجالات الإنتاجية والحيوية، ثم امتلاكه للثروات العينية والطبيعية على اختلافها.

فالواقع الإسلامي الموضوعي، يمتلك المؤهلات والمكونات الطبيعية لإقامة كيان حضاري يملك الكثير من الغنى المادي والبشري الذي يستطيع من خلاله تحويل هذه الخطوط الفكرية والتشريعية والمفاهيمية إلى واقع حي نابض متحرك قادر على المنافسة والتحدي.

المعوقات الموضوعية أمام الأمة الواحدة

أما عن الموانع من توظيف الإمكانات الذاتية والموضوعية في مشروع الأمة الواحدة، فهناك الموانع الذاتية ومنها: عدم وجود رؤية جامعة للأمة الواحدة، فالمسلمون ممزقون مع العلم أن الإسلام يدعوهم إلى الوحدة وإلى الاعتصام بحبل الله جميعًا، و: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[1]، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟

(١) البحار، ٧٤/٢٠/٣٣٨، رواية ١١٩.

﴿ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران:١٠٣)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون:٥٢)، والرسول ﷺ يقول: «**من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين، فلم يجبه فليس بمسلم**»[1]، مما يعني أن الإسلام يعني في شخصية المسلم أن يعيش كل التفاعل الفكري والشعوري والعملي مع المسلم الآخر.

- مجتمع استهلاكي:

لقد تحول المسلمون من منتجين إلى مستهلكين، ومن مبدعين إلي مقلدين، وهذا ما نلاحظه في كل نواحي الحياة الاقتصادية أو الأمنية والعسكرية، فنحن نستهلك السلاح والغذاء وكل أدوات الحياة، ونتحرك تحت تأثير المصارف الدولية التي تفرض علينا نمط اقتصادنا كما تفرض علينا حركة هذا الاقتصاد بما قد يخلق لنا المشاكل الداخلية والخارجية.

- غلبة الإقليميات والمناطقيات:

إن غياب الوحدة وسيادة الإقليميات والمناطقيات والعشائريات، هو من أهم معوقات الوحدة عندنا، فقد أصبح لكل منا دائرة مغلقة، سواء كانت وطنية أو قومية أو عشائرية أو إقليمية.

ونحن نقول: إن الإسلام لا يمنع مسألة الدوائر ولكن هناك فرقًا بين دائرة مغلقة وأخرى منفتحة، وقد كنا نقول دائمًا -ونحن في لبنان- إن لبنان هو الوطن الأبدي والسرمدي، ولكننا رأينا ماذا أنتجت هذه الفكرة الخيالية اللاواقعية سياسيًا وأمنيًا، لأن العالم كله تحول إلى قرية واحدة.. ليكن لنا لبناننا ولكن لينفتح على المنطقة العربية، ولتنفتح المنطقة العربية على المنطقة الإسلامية، ولتنفتح المنطقة الإسلامية

---

(١) [م.ن]، ٧٤/٢٠/٣٣٩، رواية ١٢٠.

على العالم وهكذا.. فمشكلتنا هي الدوائر المغلقة، الذات، والعائلة، والبلد المغلق، والقومية المغلقة، إلى آخر ما أتقناه من حالات الإغلاق والانغلاق.

- **العصبيات والمذهبيات:**

لقد تحول الاختلاف من أطره العلمية المنتجة إلى أطر عصبية ومذهبية، وسادت لدينا قيم سلبية من قبيل التعصب والنزاع والقهر والغلبة والاستبداد، مقابل قيم العدالة والحرية والإنسانية والتنمية والعقل والإنتاج.. ونحن نعرف جيداً أننا أمة تعتقد أن العبودية لله الواحد وتنبذ الأصنام بكل أشكالها، ومع ذلك نصنع في كل مرحلة صنماً هنا وصنماً هناك، في كل هذا العالم الثالث، لنتعبد له بطريقة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية.

- **التراث المختلط الفوضوي:**

وهكذا نجد التراث المختلط الفوضوي، الذي يمنع الأمة من تأصيل تراثها، وكذلك يمنعها أن تتحرك من موقع الأصالة.. ومن الموانع والمعوقات الموضوعية: الغزو الاستعماري المستمر بأشكاله المتعددة، الثقافي والاجتماعي والإعلامي والأمني، وهنا نحن نتحرك على أساس أننا لا نملك أمرنا، ولعل الخطورة ليست في أننا لا نملك أمرنا من الخارج، بل في أننا لا نملكه من الداخل أيضاً، فقد أصبحنا مدمنين على الخضوع (للآخر)، فنحن ننطلق بوجوه مستعارة وعقول مستعارة، حتى أن (الآخرين) قالوا: إنه لدينا مشكلة مع اللبنانيين، وقد قالها لي أحد السفراء: مشكلتنا مع اللبنانيين أنهم يحدثوننا عما نريد ولا يحدثوننا عما يريدون[1]، فقد لا نملك قوة أمام القوة الكبرى، ولكن إذا استطاعوا محاصرتنا بأجسادنا فلن يستطيعوا محاصرة فكرنا، فعلينا أن نخلق في داخلنا بذرة الرفض لكل ظلم

(١) ولعل هذا يصدق على كثير من بلاد العالم الإسلامي. (الناشر).

واستكبار، فالحرية ليست مرسوماً تعطيه دولة، ولكنها إرادة يعيشها الإنسان في نفسه وطريقة عيشه.

وهناك حديث للإمام جعفر الصادق (ع)، وهو يتحدث عن الحرية، فيقول: «إن الحر حر على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر استبدل باليسر عسراً»[1]. كن حراً في داخل الزنزانة، وقد تكون عبداً وأنت في الهواء الطلق.

قدرة الإسلام على الإسهام في الحضارة الحديثة:

هناك من يقول: إن الحضارة في الإسلام أمر نظري.. وهذا التوهم يفترض أن الإسلام يشتمل على مفاهيم لا يمكن لها أن تتحول، عبر وسائل عملية، لما يمكن أن نسميه: حركية الحضارة في الواقع الإنساني.

وربما يستشهد هؤلاء بالواقع الإسلامي الذي يحياه المسلمون الآن في ما يبدو من آثار التخلف على تجربتهم المعاشة، بينما هم يتحدثون عن المفاهيم الحضارية من دون أن تتمثل في أوضاعهم وعلاقاتهم ومواقفهم ومواقعهم، في الوقت الذي تتطلب فيه المسألة الحضارية مجتمعاً يملك الوسائل التي تحول المفاهيم الحضارية إلى واقع، كما كان ذلك بارزاً في التاريخ الإسلامي عندما كان الإسلام يحكم الواقع ويفرض سلطته وثقافته وحركته السياسية على الواقع العالمي آنذاك.

لقد استطاع الإسلام أن يصنع حضارة علمية سياسية اجتماعية في مدى أقل من مائة عام، وقد لا حظنا أن الإسلام في تلك المرحلة انفتح على الحضارات الأخرى وأعطاها من خصائصه العناصر المميزة.

ونحن نعرف أن الحضارة الغربية، والأوروبية بالذات، التي هي نقطة انطلاق

(١) البحار، ١٣٩/١٨/٨٢، رواية ٢٢.

الحضارة الغربية، أخذت كثيراً من نظريات المعرفة والاجتماع عن التجربة المعرفية والاجتماعية الإسلامية، التي كانت تمثل ريادة التجارب الدولية والحضارية ومصدراً من مصادر الغنى الحضاري الشامل.

وهذا مع ما عبر عنه لالا نهرو في كتابه «لمحات من تاريخ العالم»، عندما قال: إن الحضارة الإسلامية هي أم الحضارات الحديثة.

لذلك استطاع المسلمون أن يقوموا بتأسيس الحضارة الإسلامية في المشرق، وأن يسهموا في بناء مداميك الحضارة في الغرب، وتجربة الأندلس تبقى شاهداً على كل هذه الرؤية الحضارية، وكذلك تجارب غيرها من المناطق في العالم. ولكن من الطبيعي أن كل حضارة، وبسبب عوامل متعددة ومعقدة، تصاب ببعض الأمراض التي تؤدي بها إلى الوهن وتعرضها إلى الاحتضار أو حتى الموت، لا سيما عندما يكف القائمون عليها عن تجديد أسباب الحياة لها، ولكننا في الوقت نفسه، نجد أن هناك لمعات ولمحات حضارية بدأت تبرز في كثير من المجتمعات الإسلامية، وتبشر بأن هناك عملاً دؤوباً من أجل استكمال تكوين أسباب استيلاد الحضارة الإسلامية من جديد.

إننا عندما نجد أن المسلمين هم الذي أطلقوا حركة العلم، وقادوا حركة التطور، وأسهموا في تعميم الأخلاق الإنسانية، وأوقدوا حركة التفاعل الحضاري مع الحضارات الأخرى، نعرف أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة نظرية مفهومية، وإنما هي حضارة واقعية أثبتت فاعليتها وموضوعيتها وواقعيتها من خلال التجربة الإسلامية الحضارية عبر التاريخ.

ومن ناحية أخرى نقول: إن المفاهيم الحضارية الإسلامية تؤكد على الجانب العلمي والعملي معاً، وعلى العلاقات المحكومة بالقيم.. وهذه المفاهيم هي مفاهيم واقعية عملانية وليست مفاهيم مثالية ضبابية غائمة.. ومن الممكن جداً أن ننزل إلى

الواقع من جديد لنعيد إنتاج الروح الحضارية المفقودة، وربما رأينا مظاهرها تتبدى في أماكن كثيرة من واقعنا الراهن، لكن طبيعة الظروف القاهرة التي منعت وتمنع هذه الحضارة من أن تتحرك في الواقع الإسلامي بفعل ضغوط حالات التخلف التي فرضت على المسلمين، والتي استمرت من القرون السابقة وحتى الآن، إضافة إلى إكراهات الاستكبار والكفر العالمي، اللذين يعملان على منع المسلمين من أن يأخذوا بأسباب القوة، كل ذلك يؤخر التجربة الإسلامية عن أخذ مكانتها المتقدمة في التجربة الحضارية الإنسانية المعاصرة، ولكن مع ذلك نجد أن المسلمين بدأوا بالتخطيط، وفي أكثر من تجربة، لإعادة الإسلام إلى واقع الحياة، للإسهام بشكل فاعل في حل أزمة الحضارة الحديثة المتفاقمة.

إن الإسلام يطرح القيم الروحية والإنسانية الحية على الحضارة الحديثة، ويطرح فكرة التوازن التي ترسي العدالة المفقودة في الحضارة الحديثة، فهو لا يصادر الفرد لحساب المجتمع، ولا المجتمع لحساب الفرد، وإنما يقيم التوازن العادل بينهما، بحيث لا تطغى مصالح أحدهما على الآخر، بل يتكاملان بما يعزز التجربة الإنسانية ويغني التجربة الحضارية.

ويؤكد الإسلام على التوازن بين المادة والروح وهكذا بين الدنيا الآخرة، بحيث يسهم في سد الفجوة المرعبة التي أنشأتها الحضارة الحديثة بين روح الإنسان وجسده، والتي حولت الحضارة إلى هيكل أصم لا روح فيه بعد أن أخذت الإنسان باتجاه البعد الواحد وهو البعد المادي، بينما أطلق الإسلام الإنسان ببعديه المادي والروحي، استناداً إلى فلسفته ونظرته للإنسان ككائن لا تحدد أبعاده المادة وحدها وإنما ترسم إطار حدوده ورحابتها الروح أيضاً، فهو بهذا المعنى قبضة من طين ونفخة من روح الله.

لنفكر معًا:

نحن نملك الكثير من عناصر القوة، والكثير من عناصر الحركة، والكثير مما يمكن أن يُوصل لنا إنسانيتنا، ولكن مشكلتنا هي (التنبلة)، فنحن نخاف أن نتغير، ونشعر بالغربة عندما يرفع (الآخرون) الوصاية عنا، لذلك تعالوا نتفاهم:

كيف نؤصل إنسانيتنا؟ وكيف نعمق حريتنا؟

وكيف نكون نحن و(الآخرون)، لا أن يكون (الآخرون) ونحن؟ ونحن دائمًا في الشرق نقول للآخرين: فكروا عنا في اقتصادنا، وسياستنا، وفي أنظمتنا التربوية، والاجتماعية، وفي كل مجالات حياتنا.

لماذا لا نواجه مشكلتنا بصراحة ويكون لدينا الجرأة أن نقول لكل الآخرين: تعالوا لنفكر معًا، لا لتفكروا عنا، فإننا نملك عقولاً وفكرًا ووعيًا نستطيع من خلاله أن نحقق ذواتنا ونصل من خلاله إلى أهدافنا ووحدتنا، فتلك هي المسألة: أن تؤمن بإنسانيتك فهذا أول الفتح، لكن أن تهمل إنسانيتك فهذا أول السقوط.

والحمد لله رب العالمين.

البعد الإنساني المفقود في الحياة المعاصرة

تفاعل طاقات الروح والجسد.. والتقاء الآخرة بالدنيا

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٩).

الدكتور محمد فتحي عثمان*

> إن الحضارة المعاصرة قد بدا خللها أول ما بدا في كيان الأسرة، فاضطربت علاقات الزوجين وعلاقات الأبناء.. وباضطراب كيان الأسرة، فزع كثير من الشباب إلى تكوين عصابات يثارون من خلالها لما فاتهم من المودة والرحمة.

أعيش في الولايات المتحدة منذ اثني عشر عامًا، ومن قبلها عشت في بريطانيا قرابة سبع سنوات.. هكذا عشت في قلب الحضارة المعاصرة وفي أكثر أقطارها تقدمًا، وأشهد بكل صدق لكل ما رأيت واستمتعت به، من روائع التقدم العلمي والفني والتنظيمي.

ولكن أبناء بلدان هذه الحضارة المعاصرة وكل من عاش فيها أو زارها تتصاعد

---

* *باحث.. أكاديمي.. (مصري، يقيم في أمريكا)*

شكاواهم من فجوة تتفاقم في بنية حياتهم، ويستطيعون بسهولة أن يرصدوا ظواهرها، من فردية مسرفة أدت إلى شيوع الرشوة والفساد الإداري، على الرغم من تقدم التنظيم وتزايد القوانين، والدأب على محاولة الهرب من الحياة على الرغم من أفانين تيسيرها وتوفير الجهد الإنساني باستغلال الآلات العاملة بالكهرباء والمواد البترولية وغيرهما من فحم طال استخدامه زمنًا، أو طاقة ذرية اكتشفت حديثًا ويتزايد الإفادة منها في الأغراض السلمية مع الزمن، ناهيك بالأعراض القتالية.

وقد ضاعف من النجاح في توفير الجهد الإنساني اتساع نطاق استخدام الحاسوب الآلي و«البرمجة الكمبيوترية»، حتى عم الفزع من استهلاك القرن الحادي والعشرين وفق التقويم السائد في العالم، قبل أن يتمكن العلماء والتقنيون من إدخال رقم «٢» في حساب السنوات في شبكات «الكمبيوتر» العالمية المنتشرة في شتى أنحاء الأرض مما عرف بمعضلة (Y 2K)!

وقد ترتب على هذه الأفانين في ترتيب الجهد الإنساني إتاحة قدر أكبر من الفراغ لدى شعوب البلدان المتقدمة، تنوعت أفانين اللهو لأجل تمضيته والاستمتاع به، وتنوعت أساليب الاقتراض والتداين لاقتناء الآلات والأجهزة الميسرة للحياة والموفرة للجهد الإنساني، وللاستمتاع بوقت الفراغ الناجم عن ذلك، فيما يتزايد بصورة مهولة من أفانين اللهو والمتعة والتسلية!

ومع كل هذا التقدم في الكشف والاختراع والإبداع، لا تزال مجتمعات البلدان المتقدمة في الحضارة المعاصرة تشكو من «الملل» و«الرتابة» و«السأم boredom»، مما يدفع بكثير من الشباب فيها إلى الهرب من تلك الحياة إلى «هلوسة» المخدرات، أو «تهيّج» العنف والجريمة، مما شملت غوائله الأطفال الصغار والعجائز الكهول، ذكورًا وإناثًا! وفشلت جهود علماء النفس وأطبائها Psychologists, Psychatrists في

معالجة هذه البلايا النفسية والاجتماعية، على الرغم من تقدمها في بعض الجوانب بغير جدال.. ولربما يندفع المرء إلى الانسحاب من الحياة تمامًا بالانتحار والحكم على نفسه بالإعدام!

ومنذ قرابة نصف قرن، انعقدت ندوة بمعاونة اليونسكو في نيودلهي بالهند، امتدت من ١٣-٢٠ من ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥١م لمناقشة: «المثل الأعلى الإنساني وفلسفة التربية في الشرق والغرب»، وقد افتتح الندوة مولانا أبو الكلام أزاد وزير التربية في حكومة الهند وقتذاك، وكان مما جاء في كلمته: «المرآة التي صنعها الإنسان تعكس جميع مظاهر الكون من غير أن تعكس ذاته الخاصة... إن الإنسان قد أدرك من أسرار الكون أكثر مما أدرك من الأسرار التي تعنيه هو نفسه... ولن يتمكن الإنسان من إيجاد حل ملائم لمعضلاته الفردية والاجتماعية، والقومية والدولية، **قبل أن يعرف حق المعرفة طبيعة كيانه الخاص، وقبل أن يحدد المكان الذي يشغله في العالم الأكبر**... والقرآن يعلن أن الإنسان خليفة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ (البقرة: ٣٠).. إن الفلاسفة العرب حتى في شرحهم لأرسطو، يبدو التأثير المسيطر عليهم في كتاباتهم هو فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض، فابن سينا وابن رشد أرسطيان في الفلسفة الميتافيزيقية أحيانًا كثيرة، ولكن اتجاههما الروحي الإنساني يحثهما على الاعتراف بأن المعرفة والسلطان اللذان يستطيع الإنسان بلوغهما لا يمكن تحديدهما. وقد أفاض في ذلك علماء التوحيد المسلمون كالغزالي والفخر الرازي وغيرهما».

وأشار كلارنس هـ. فوست عميد كلية العلوم الإنسانية بجامعة استانفورد Stan ford المبرّزة بين جامعات الولايات المتحدة ورئيس شعبة التربية في مؤسسة فورد، إلى الاهتمام بـ «**تسلسل الأحداث Process**» في الدراسات الإنسانية والعلوم

الاجتماعية، و«استعمال المعرفة المكتسبة بهذه الطريقة في بعض الظروف الخاصة **من أجل بلوغ غايات سريعة بوسائل محددة**... وفي هذا الاهتمام بتسلسل الحوادث والطريقة التي تحدث فيها الأشياء أو التي يمكن إحداثها فيها، **يُوَجَّه عقل الباحث والمربي إلى الخاص والزمني لا إلى العام والأبدي، وإلى أن هدف البحث عامة وهدف التعليم خاصة هو إيضاح العلاقات السببية في سلسلة متصلة الحلقات، لا الوصول إلى مبادئ عامة خالدة**. ومثل هذه السلسلة، هي في نظر مدرسة كبرى ذات نفوذ واسع، هي المعرفة الحقيقية الوحيدة. ويعتبر هؤلاء أن السعي وراء مبادئ أزلية باطل عقيم، فهم ينكرون وجود مثل هذه المبادئ، وحتى إذا افترض وجودها **فهي بعيدة عن المعضلات الحسية المباشرة التي تستلزم حلاً سريعًا**، ومن ثم فإنها خالية من كل قيمة عملية، وصارفة للفكر عن مواجه المعضلات المباشرة»!

وذكر ج.ب. مالا لازيكيرا أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبو في سيريلانكا عن وجهة النظر البوذية: «لكي يُسهم الدين عمليًا في سعادتنا، **يجب أن يكون له أثره في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية** على حدٍّ سواء، ويجب ألا ينحصر في الكنيسة أوالمعبد، ويقتصر على نهار الأحد أو السبت. إنما عليه أن يغمر كياننا كله، شأن الهواء الذي نستنشقه! إنه **ليس ثمة قواعد أخلاقية فردية تتميز عن القواعد الأخلاقية الجماعية**. ومن أوخم عواقب عصرنا الآلي ذلك الرجل المتوسط Average Person الساذج العاري من كل ثقافة ومثل أعلى، والمغلق بالنسبة لكل ما يتجاوز مصلحته الشخصية البحتة، الذي أسهمت أدوات التسلط الحديثة على الجماهير الشعبية من وسائل الإعلام الضخمة في تعميم نموذجه في عالم اليوم!... وسلوك الطريق القويم، يعني بصفة أساسية الإقلاع عن الانتهازية Opportunism، ولا يحقق ذلك إلا بمقدار ما نعطي الموجب الأخلاقي أساسًا عميقًا في الإنسان، يتجاوز المصالح الشخصية العاجلة المتغيرة. **إن السنن الأخلاقية التي**

لا تنبثق من نظرة معينة للكون ومن مثل أعلا لحياة أكثر تكاملاً وكمالاً، لا يمكن أن تكون لها قاعدة راسخة وأساس متين».

ونقل الأديب الفرنسي أندريه روسو في حديثه خلال تلك الندوة عن الدكتورة تيريز بروسي تلك الكلمات الهادية: «إن المعضلة التي تحدق بنا أكثر من غيرها في أيامنا، هي معضلة وضع علم للإنسان Anthropology لا يكون مقصوراً على علم الحيوان الإنساني، **بل يكون علم الإنسان بكافة جوانبه، شاملاً لكل ما ينطوي عليه من قيم روحية، مدروسة من وجهة النظر الفردية والاجتماعية في آن واحد.** فالإنسان في الواقع قد انتزع من المادة سر قواها الكونية (من نواح متعددة)، لكنه لم يحقق هو في نفسه مقابل ذلك جهد اكتشاف مماثل لكي يتواصل مع ضميره مع جميع إمكاناته في إشاعة التفاهم والحب».

[للراغب في التفصيل، هناك ترجمة عربية لندوة اليونسكو التي أعدها أنطون خوري نشرتها اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة مع دار النشر للجامعيين في بيروت، ولم يبين عليها تاريخ النشر].

وهكذا أشار العلماء والمفكرون الذي كانوا يمثلون مختلف البلدان والديانات والثقافات في تلك الندوة إلى الحقيقة التي روتها الأناجيل المتداولة عن المسيح عليه السلام: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه أو خسرها» (لوقا٩ :٢٥)، «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة من الله» (لوقا٤ :٤). وأبرزت تلك الحقيقة رسالة القرآن الخاتمة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠)، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)، وقال الله: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ (الروم:٦-٧)، ﴿... فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴾ (طه:١٢٣-١٢٤)، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (النجم:٢٩-٣٠).

إن الطاقة الروحية خصيصة إنسانية جوهرية منذ خلق الله الإنسان، وهي ميزته الكبرى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الحجر:٢٩)؛ (ص:٧٢)، وهي إذ تشع في كيان الإنسان كله، تتفاعل مع طاقاته العقلية والنفسية والبدنية، فينتج عن هذا التفاعل المركب السلوكي الإنساني الرشيد المتميز: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة:٩). وتعطيل هذه الطاقة الكبرى، يصرف طاقات الإنسان الأخرى إلى الانكفاء على ذات الإنسان وخدمة المصالح الدنيوية القريبة العاجلة التي تدركها حواسه في مداها المحدود، وهكذا ينحسر نطاقها وتقل فعاليتها وكفاءتها وإن لم تنعدم تمامًا، لكن يظهر خلال عملها من العيوب ما يتزايد مع الأيام -شأن أي آلة تُعطَّل إحدى مقوماتها الأساسية- فلا تسير كما ينبغي: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء:١٨-٢٠).

فطاقات الإنسان الجسدية والنفسية والعقلية تعمل في غيبة هداية الروح، ولكنها تعمل قاصرة متخبطة، يتخللها نقص الكفاءة وعيب تعطيل مكوِّن إنساني أساسي، ويتفاقم ذلك مع الزمن، وتبدو آثاره جلية على الاستقرار والتوازن في نفس الفرد وبين أفراد الأسرة وأفراد المجتمع، فيقترن النجاح المادي بالضنك والعُسر في جنبات النفس

والمجتمع. ويعيش الإنسان سجين أهوائه، فينقطع ما بينه وبين الناس، وينطلق عارمًا في خدمة ذاته وأنانيته، فيستوحش الناس منه ويستوحش هو من الناس، ويتذبذب مع غرور النجاح ويأس الفشل، لأنه يعيش ومركز اهتمامه وتفكيره وعمله (ذاته)، ومداه الزمني (اللحظة) التي هو فيها أو ما يتجاوزها بقليل، فيكون دائمًا «**فقره بين عينيه**» -كما أوضح حديث الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي وغيره[1]- في حين تضئ هداية الروح حين تتفاعل مع طاقات الإنسان النفسية والعقلية والجسدية مسالك الحياة، فلا يطغيه البطر، ولا يتهاوى إذا أصابه فشل: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد:٢٣)، ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ (آل عمران:١٥٣)، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣).

وقد أبرز حديث رسول الله ﷺ نعمة الاستقرار والتوازن في نفس المؤمن، مما يضاعف فعالياته وإنتاجيته ويعمق سكينته وسعادته: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[2]. وليس الصبر هنا صبرًا سلبيًا انهزاميًا، إنما هو صبر مقرون بالمصابرة والعمل الدؤوب لتعويض ما فات، إذ خسارة معركة لا تعني خسارة الصراع كله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:٢٠٠). وهكذا يعني الصبر استمراراً في السعي مع

(١) أخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همَّهُ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة.. ومن كانت الدنيا همَّهُ جعل الله فَقْرَهُ بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له».

(٢) أخرجه مسلم.

محاولة تجنب ما أوقع في العثار من قبل، فتتسع الآفاق أمام الفرد وأمام الجماعة إذ تتواصى بالحق والصبر: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر:٣).

وتتجلى آثار الطاقة الروحية مع سائر طاقات الإنسان النفسية والعقلية والجسدية في تعامله مع (**الآخرين**)، إذ يخرج من انكفائه على ذاته وأنانيته التي تصور (الغير) عدواً لدوداً ما (غيراً)... وأول ما يظهر ذلك في مجتمعه الصغير: في الأسرة نواة المجتمع الكبير. فيوقن الزوجان أنهما خلقا معاً ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (النساء:١)، الأنعام:٩٨، الأعراف:١٨٩، الزمر:٦)، وأن في الزواج والأسرة سكينة ومودة ورحمة هي من آيات الله (الأعراف:١٨٩، الروم:٢١)، وأن هذه تتجاوز وتفوق أي مدى يبلغه تفصيل الحقوق والواجبات بين الزوجين، وتدار أمور الأسرة بينهما ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾ (البقرة:٢٣٣). وينشأ الأولاد على التربية الاستقلالية الصحيحة التي لا تقطع ما أمر الله به أن يوصل وتحفظ حق الوالدين وحقوق الناس.. فلا تعني الثقة بالنفس أو الرضا عنها Self-Esteem الأنانية والغرور والعجرفة.. كما لا تعني الرقه والدماثة السكوت عن الحق أو الفزع من عواقبه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان:١٧-١٩).

إن الحضارة المعاصرة قد بدا خللها الروحي أول ما بدا في كيان الأسرة نواة المجتمع، فاضطربت علاقات الزوجين، وعلاقات الآباء والأبناء. وأدت الأنانية وغياب هداية الروح التي تخرج الإنسان من سجن الذات وتوسع آفاقه وتضاعف فعالياته، إلى الانطلاق وراء شهوات الجسد الموقوتة، وإهمال كيان الأسرة الدائم، وما تحققه من سكينة نفسية واجتماعية دائمة متجددة نتيجة «المودة والرحمة» و«التشاور

والتراضي»، ونتيجة التراحم المتبادل المتواصل بين الوالدين والأبناء. ولم تعد العفة الجنسية والأمانة الزوجية قاعدة لحياة الأسرة والمجتمع.

وتجلى هذا الخلل في سلوك الصغار والكبار من حيث العمر أو الوضع الاجتماعي. وباضطراب كيان الأسرة، مع اضطراب نفوس الأفراد، فزع كثير من الشباب إلى تكوين عصابات Gangs، يحققون فيها ما تخلّف من تضامن الأسرة وتكافلها.. ويعوضون بترويج المخدرات واستعمالها وبالعنف والجريمة ما فقدوه من تراحم الأسرة وتساندها.. ويثأرون لما فاتهم من المودة والرحمة بإشاعة الرعب والفزع في المجتمع بأسره!

وإذا كان تفاعل الطاقة الروحية مع سائر طاقات الإنسان سيخرج الفرد من قوقعة أنانيته إلى التعامل بالخير والمعروف مع الأسرة والأهل، فإن من شأنه أن يمد نطاقه إلى التعامل مع (الغير)، أيًا كان، وإلا كانت أنانيته من نوع آخر! فالناس جميعًا أكْفَاء وأنداد، كلهم فيهم -بحكم إنسانيتهم- ما نفخ الله في الإنسان من روحه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

«**فالبوصلة الروحية» جوهر إنساني شامل عام**، سواء جرى استعماله أو إهماله من صاحبه.. واحترام إنسانية كل إنسان بمجموع طاقاته واجب كل إنسان.. وهكذا تتعمق مشاعر المساواة والتعاون والتضامن بالنسبة للبشر أجمعين، ولا تكون فلسفة نظرية أو حكمًا قانونيًا أو فضيلة قومية!

إن الأخلاق «العلمانية»، التي تستند إلى الفلسفة العقلية، أو الإلزام القانوني، أو التقاليد القومية، مع كل منطقها وأساليبها، لم تستطع النفاذ إلى عمق الروح، أو اتساع الجماهير، أو الاستمرارية خلال مختلف الظروف بالنسبة للفرد. فكثيرًا ما تدفع أزمات النفس وأنانيتها أو جور الآخرين، إلى استباحة الرذائل وحقوق (الغير)

وتكديس الأموال والتنكر لحقوق المحرومين وحقوق المجتمع ككل، لا سيما إذا كان النفع الشخصي يبهر ويسحر ويشل كل منطق للفلسفة أو القانون أو التقاليد!

إن عمق الروح الإنسانية له غوره، الذي لا يبلغه غيره!

إن «العلمانية» لم تقتصر على أن يتولى مناصب الدولة الأكفاء لا المنتمي لعقيدة ما كما نشأت في أصلها، ولم تنكر حق الروح في إدارة الدولة فحسب، ولكنها أصبحت تعني عزل الروح عن طاقات الإنسان النفسية والعقلية والبدنية في أي مجال عملي أو اجتماعي، وهذه مصيبتها ومصيبتنا بها في مجتمعاتنا المعاصرة!

والحق أن تقرير الروح في الإنسان لا يعني بحال عزله عن علاقته بغيره، بل يوسع نطاقها ويعمق جذورها.. ولا يعني بحال انصرافه عن العمل في الدنيا، بل يؤكد استمراريته في مختلف حالات المد والجزر، والنجاح والفشل. ولم يقل أحد إن التميز الروحي هو أساس تولي مناصب الحكم، فالكفاءة قرينة الأمانة في تولي أي عمل والقيام بأي مسؤولية: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥). لكن هذا لا يعني بحال أن يخلو شاغل المنصب ذو الكفاءة العقلية من الجوهر الروحي للإنسان، كإنسان، وهذا ما ذهبت إليه العلمانية في تطرفها، وأخذت به الحضارة المعاصرة، فبرز الخلل في نفس الفرد وكيان الأسرة وعلاقات المجتمع والإنسانية كافة، وتضخمت الفردية حتى سحقت توازن النفس والأسرة والمجتمع جميعًا: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢).

لقد أدركت الحضارة المعاصرة مدى الخلل الذي أصابها من تجاهل «نفس الإنسان»، فاتجهت إلى دراسة «النفس» ولكن على أساس معملي يعتمد الملاحظة والتجربة وحدهما، فكشفت عن جوانب هامة، ولكن قصرت وسائلها ومناهجها عن

إدراك البعد الروحي للإنسان في أعماقه الغائرة، وعنيت فقط بـ « تسلسل الأحداث لاستعمال المعرفة المكتسبة بهذه الطريقة من أجل بلوغ غايات سريعة بوسائل محددة »، واتجهت إلى « الخاص والزمني لا إلى العام والأبدي... وأصحبت هذه هي المعرفة الحقيقية الوحيدة »، وإلى « المعضلات الحسية المباشرة التي تستلزم حلاً سريعاً »، على حد التشخيص الدقيق لعميد كلية العلوم الإنسانية بجامعة « استانفورد » في ندوة اليونسكو في نيودلهي... ومن ثم فقدت هذه الدراسات والبحوث القدرة والفاعلية في حل المعضلات العاجلة والآجلة على حدٍّ سواء! ذلك أن الخاص والزمني لا يمكن مواجهتهما مواجهة صحيحة فاعلة إلا على أساس العام والأبدي!

بل إن ما توصل إليه بعض علماء النفس من نتائج جديرة بالاهتمام والتأمل، قد استغلت لتبرير الانحراف بدلاً من تعليله. ومن ذلك ما توصل إليه ألفرد آدلر Adler العالم والطبيب النفسي النمسوي (ت١٩٣٧م) من أهمية « السيطرة » كدافع نفسي، وما قد تؤدي إليه من مركب نقص عند من يحرمها Inferiority Complex، وما توصل إليه سيجموندفرويد Freud طبيب الأعصاب النمساوي مؤسس مدرسة التحليل النفسي Psychoanalysis (ت١٩٣٩م) من أهمية « الجنس » كدافع، وما قد يؤدي إليه الكبت والقمع Suppression بدلاً من التوجه الصحيح والإعلاء.

استخدمت مثل هذه النظريات -وأحياناً الفلسفات- لتبرير الجنوح والتسلط والعدوان أو التمرد، ولتبرير التسيب والانحلال وطرح قيم العفة والشرف وحرمة الأسرة.. وصارت المرأة مجرد « سلعة » جنسية تستخدم لترويج السلع الأخرى، وامتدت غوائل ذلك إلى الأطفال، وأصبحت العلاقات الجنسية لا تعني الزواج.. وتزايدت حالات الحمل والولادة عند المراهقات.. ومع كل هذه الاستباحة للفرار من الكبت، تزايدت جرائم الاغتصاب، حتى في قرارة البيوت أو قارعة الطريق في رابعة النهار. كذلك دوّت طلقات الرصاص، وسالت دماء القتلى حتى في المدارس، وبين

الأطفال! وارتفع نذير البابا بول بأن عزل «الجنس» عن دوره في جمع الذكر والأنثى في وحدة «الأسرة»، وتحقيق استمرار النوع الإنساني، وتدعيم علاقة الزوجين بعد أن يصيرا أبوين، «من شأنه أن يقوض استقرار المجتمع من الأساس»!

ولم تسعف المدرسة الأسرة الواهنة المضطربة في حمل عبء تربية الأجيال، وانحسر استعمال مصطلح التربية «Pedagogy»، وجرى الاصطلاح على استبدال التعليم به «Education».. وليت هذا «التعليم» قد تحقق.. فالتصعيد «الآلي» للطالب أوالطالبة إلى الفرق الأعلى ينتهي بتخريج من لم يتعلم، فضلاً عن افتقاد «التربية»!

كتب د. ويليم ك. كيلباتريك Williem K.Kilpatriek أستاذ التربية –أو التعليم– بكلية بوسطن وصاحب كتاب: «لماذا لا يميز جوني بين الصحيح والفاسد «Why Jonny can't tell Right from Wrong?»، كتب مقالاً في جريدة لوس أنجلس تايمز بتاريخ ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٩٣م تحت عنوان: «تخريج أميين أخلاقيين Turning out Moral Illiterates»، جاء فيه: «كثير من شباب اليوم يصعب عليهم رؤية أي بعد أخلاقي لتصرفاتهم... ولذلك عدة أسباب، من أبرزها النظام الفاشل للتعليم الذي يتحرَّج من تعليم الأطفال القيم الأخلاقية المتوارثة التي كفلت ترابط الأمريكيين كمجتمع وثقافة. فقد أدخلت إلى المدارس منذ ٢٥ عامًا محاولة تحت عنوان: «اتخاذ القرار Decision Making»، وهي تدعو الأطفال إلى أن يقرروا لأنفسهم بأنفسهم ما هو الصحيح أو الفاسد، وحل هذا محل «تعليم القيم السلوكية Character Education». وقد كان المدرسون في الأربعينيات مثلاً يقلقون حين يرون أطفالاً يمضغون العلك (اللبان)، لكن ما يقلقهم اليوم هو السرقة والاغتصاب! إن منهج «اتخاذ القرار» اليوم يضع أمام الطلاب مسائل شائكة تترك لديهم الانطباع بأن «الأخلاقية» مشكلة، وأن مسائل الصواب والخطأ من الوجهة

الأخلاقية هي دائمًا موضع جدل واختلاف!... وتفترض الطريقة المتبعة في منهج «اتخاذ القرار»، أن **الطلاب سيصلون إلى النتائج الأخلاقية الحميدة إذا ما أتيحت لهم الفرصة لذلك**، ولكن النتيجة الواقعية هي **الارتباك الأخلاقي**. وقد أظهرت دراسة على مستوى الدولة كلها تناولت ألفًا وسبعمائة من طلبة الصفوف بين السابع والتاسع، أن غالبية من الذكور تعتبر الاغتصاب مقبولاً في ظروف معينة.. ومن المذهل أن طالبات كثيرات أقررن ذلك!

وهذا الضرب من الأمية الأخلاقية تشجعه برامج لتعليم «القيم» Values Education Programs **لا تزيد إلا قليلاً عن كونها مقررات لتعليم «الرضا عن النفس Self-Esteem»**... وهي مبنية على افتراض غير مسلَّم **أن الطفل الذي يشعر بالرضا عن نفسه لن يرغب في عمل شيء خاطئ!** ويمكن أن يقال: إنه من المعقول كذلك افتراض النقيض، فيقال: إن الطفل الذي لا يضع نظرته إلى نفسه موضع النقد قط سينتهي إلى أنه لن يعمل بحال شيئًا سيئًا أبدًا! ومثل هذا القبول الساذج للنفس الذي يتولد في أغلبه عن عقلية تحثه على «**ألا يحدد وجهة معينة أو يصدر حكمًا معينًا وإنما المهم أن يشعر دائمًا بأنه مستريح لما يختاره من سلوك**، قد ساد التعليم العام خلال الأعوام الثلاثين الماضية!... (وهذه) الفلسفة منذ الستينيات قد أمدت بالوقود -بالدرجة الأولى- ذلك الانفجار في تعاطي المخدرات وممارسة الجنس بين المراهقين»!

علينا نحن المسلمين، مع كل مؤمن بالروح كجوهر للإنسان، أن نبصِّر الحضارة المعاصرة بالخلل في أسس بنيانها الذي أدى إلى انحراف هذا البنيان أكثر من انحراف برج بيزا في إيطاليا.. وأن هذا الخلل يتعذر تداركه مع مضي الزمن، وينبغي الإقدام على ذلك قبل أن ينهار البناء كله على البشرية جمعاء!

لقد وجه المفكر الهندي المبرز «رادا كريشنا» الذي كان نائب رئيس الهند عند انعقاد ندوة اليونسكو في نيودلهي ١٩٥١م، هذه الكلمات المنيرة في خطابه الافتتاحي:

«إن التجربة الدينية وحي رباني، ووعي داخلي، وتحرر مطلق. وهذا الوعي هو ما يسمونه **المعرفة**، ونقيضه الجهل، أي الانحصار ضمن الحدود الضيقة للحياة العقلية الحسية... **وليست التجربة الدينية قضية إيمان بسلسلة من المعطيات، وإنما هي انتفاضة الكيان الإنساني بأكمله إزاء المشكلات التي تطرحها العلاقات البشرية في الواقع اليومي**. إنها طريقة في العيش والحب والحكمة... **إن وجود المبدأ الإلهي في حالة كامنة عند جميع البشر يبقي الخلاص ممكنًا**... إن الإنسان **ينطوي على عنصر روحي يجعل منه كائنًا متميزًا**... الإنسان أكثر من كائن عقلي أوتاريخي. إنه فيض من نور الإله، **وتشع مقومات الإنسان ومميزاته من روحه وكأنها المركز**...».

ترى هل تعي الحضارة المعاصرة هذه الحقيقة، التي أكدتها قرون متطاولة من رسالات الأنبياء عليهم السلام، وأفكار الفلاسفة، وبحوث العلماء وكشوفهم، فتتدارك في غدها الأخطاء المروعة في أمسها، وتعود إلى «البوصلة الروحية» للإنسان، لتعرف وجهتها، وتميز الخطأ من الصواب؟!

هذا ما يلح عليه المسلمون، ويتطلعون إلى أن يقدموا فيه المثل والقدوة إلى عالم الغد، حتى يتحقق التوازن واستقامة المسير واطراد النمو للفرد والجماعة، ويعود للأسرة دورها الحيوي الجوهري بالنسبة للفرد والجماعة على السواء: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

الدين والحضارة

مختار عزيز*

إن خيار السلبية أو الرفض خيار مستحيل غير قابل للتحقيق في الواقع بحكم طبيعة هذا العصر الذي نعيشه، حيث اختزلت المسافات وتحطمت الحواجز وبات لا مجال للانغلاق والعزلة المخالفة أصلاً لروح وحضارة الإسلام العالمية المنفتحة والمبشرة.

اتسمت مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بعودة الاهتمام، على نحو ملحوظ في كتابات المفكرين والاستراتيجيين الغربيين، بالدين كمكوِّن أساس ومصدر إلهام للحضارة الإنسانية، بعد رحلة شاقة ومضنية، استغرقت حركة الإنسان، ووسمت ثقافاته بسمات معينة منذ عصر النهضة وحتى تاريخنا الراهن، حيث تشاغل الإنسان بالعلوم المجردة، وانبهر بالتقنية الحديثة والفلسفات الوضعية، حتى كاد يحولها إلى أصنام تعبد من دون الله.

ولما كان للغرب المعاصر دور متغلب في صياغة حضارة هذا العصر، وبسبب تأثير ما كانت عليه العلاقة في بداية عصر «النهضة» بين الغرب والدين من قطيعة، وما سادها من جفاء، وما انتهت إليه من انفصام كامل بين ما هو روحي وما هو عقلي،

* باحث.. (ليبيا)، الأمين العام لمركز دراسات العالم الإسلامي في قبرص.

بين ما هو عقدي وغيبي وما هو حياتي واجتماعي وسياسي، لهذا كله سادت نزعات واتجاهات فكرية وفلسفية تولدت عنها تيارات اجتماعية وسياسية حاول أصحابها أن يهمشوا دور الرسالات السماوية في تكوين تصورات للكون والحياة والمجتمع، وسعوا إلى تكريس تفسيرات تخلص إلى أن تلك الظاهرة الدينية أو «ظاهرة التدين» ما هي إلا نقيصة من نقائص أو خصائص المجتمعات البدائية المتخلفة، ومن ثم فالدين باعتباره هذا لا مكان له في عالم اليوم.

ولعلنا نذكر أن بواكير أطروحات علم الاجتماع كانت تعد بأن الدين سينتهي، وأن الله لن يكون موجوداً خلال بضعة عقود من الزمان. إنها مرحلة قد انتهت مخلفة وراءها رصيداً هائلاً من خبرة الإنسان الذي خلقه الله سبحانه أكثر شيء جدلاً، وتحول إلى خصيم لله تعالى، وها هو إنسان القرن الواحد والعشرين يعيد قراءة نفسه ويبحث في أرففه القديمة، وبين ثنايا أسفاره التي ظن يومًا أنها ضروب من الهلوسات الغيبية، ليجد أن الدين كان على مر العصور روح العالم.. وكما يتهاوى جسد الإنسان بعد خروج الروح منه، فإن العالم ينهار إذا ما زال الدين عنه.

إن بلورة مفهوم للحضارة انطلاقًا من إدراكنا لرسالة الإنسان على ظهر الأرض، التي غايتها عمارة الكون، هو السبيل لتحقيق العدل بين الناس جميعًا وإقرار قاعدة المساواة بين بني البشر بدون تمييز أو تفضيل إلا بالتقوى والعمل الصالح. في هذا الإطار من الفهم للقيم المستندة إلى نص ديني وروحه، يمكننا القول: بأن التمايز بين الحضارات لا يعني بالضرورة التنافر والتنابذ ومن ثم الصراع بالنتيجة، وهنا يكمن اختلافنا مع «الحتمية الغربية» الجديدة التي يروج لها بعض مفكري الغرب الذي أسس حضارته المعاصرة مرتكزًا إلى فلسفتين اقتصاديتين اجتماعيتين رئيستين، جمع بينهما قاسم مشترك -على الرغم من تناقضهما- هو إنكارهما لدور الدين خارج نطاق المعابد، وتناقضهما مع المنطلقات المعرفية والتوحيدية لله والكون والحياة والإنسان.

ولما كان أكبر تحد تواجهه الليبرالية الرأسمالية في هذه المرحلة هو الانهيار المفاجئ لنقيضتها الشمولية الاشتراكية واختفاء منظومتها العالمية، أو ما يعبر عنه في السياسة باختفاء العدو التقليدي للغرب، فقد كان لا بد للقوى الغربية السياسية ومنظومة تحالفاتها ومؤسساتها من إيجاد مبرر لاستمرارها يضمن المحافظة على مصالحها عبر خلق عدو بديل، وتضخيم صورة خطر جديد هو الإسلام في هذه المرة، بعد أن أعدت لهذه المرحلة عدتها، بأن استطاعت أن تظهر وكأنها أقرب إلى الدين من نقيضتها الشمولية الاشتراكية، بل إنها حامية للمسيحية وصاحبة لوائها، وأن تروج لزعمها بأن جولة الصراع القادمة والتي ليس منها بد ستكون حتماً بين حضارة الليبرالية الغربية المتسمة بنزعة الهيمنة العالمية كقائدة لجموع المسيحيين في العالم، وبين حضارة الإسلام وكل القوى المرشحة للوقوف في وجه إخضاع العالم وسكانه إلى عبودية «الليبرالية».

إنه حقًا أوضح تطبيق لنظرية «الإمبريالية الحضارية»، التي وضعها عالم الاجتماع الأمريكي «فيكتور بالدريج» وخلاصتها: إن كل حضارة لها قيمها الخاصة. وهي تساند هذه القيم حين تهاجم قيم المجتمعات الأخرى، وهذا الهجوم قد يصل أقصى مداه فيتحول إلى إمبريالية حضارية، أي محاولة من مجتمع ما لفرض قيمه على مجتمع آخر.

هكذا يلجأ جهابذة الفكر الاستراتيجي في دوائر الإمبراطوريات الكبرى، إلى استخدام طاقة الدين والمشاعر الدينية لخلق استقطاب جديد يبرر سياساتهم التوسعية وحروبهم وسياسات استلحاقهم القصري للحضارات والثقافات الأخرى.

فهل نحن –وبعد أن انتهت حقبة الحرب الباردة– ندخل مرحلة يعيد فيها الفكر الليبرالي الغربي إنتاج نظرية «السلم الروماني Pax Romana».

وهل حقًا أن خطوط التماس والصراع الحقيقية والحتمية هي بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية؟

أو هل يمكننا أن ننهي للإنسانية انتهاء المخاطر وزوال كل التحديات التي تواجه السلام والتسامح والمحبة وقيم العيش المشترك، وتراجع خطر الحروب وقيم الأثرة والأنانية والاستعمار بألوانه ومظاهره المختلفة باسترجاع الدين لدوره في صياغة حركة الشعوب والأمم وما تنتجه من حضارات وثقافات؟!

المؤسف في الأمر هنا، أنه لا يمكن لمخلص إلا أن يجيب بالنفي على هذا السؤال.. فإذا كان خطأ الإنسان بالأمس ناجمًا من قصوره في فهم الدين مما أدى به إلى نبذه كليًا، فإن جرم إنسان اليوم ينجم عن تزييفه لقيم الدين وإضفائه مسوحًا دينيًا على أيديولوجيات عنصرية واستعلائية، وإضفاء طابع التشدد والتعصب على شعائر العبادة وحياة الناس الاجتماعية، والترويج لأفكار التفوق العرقي وهلوسات عديدة لا يتسع المجال لذكرها. وإذا كان لي أن أعقد مقارنة هنا بين فداحة اختيار إنسان الأمس المستكبر والمتلهي عن الدين، وبين مخاطر وآثار التشوهات العنصرية التي تلصق بالدين في عالم اليوم، فإنني لا شك ميال إلى إدانة الأخيرة أكثر لشدة ما تحمله من مخاطر إلى مستقبل الإنسانية بما يتوفر لها من طاقة أيديولوجية قادرة على تعبئة الناس ودفعهم إلى ممارسة التعصب والكراهية والانغلاق على الذات، وهو ما يتعارض مع مجمل القيم السماوية الحقة.

إن الطاقة التخريبية -إن جازت العبارة- التي من الممكن أن تنجم عن تحريف دور الدين، أو إساءة تفسيره واستخدامه، تفوق بكثير ما يمكن أن ينجم عن تحييد الدين أو تجريده من بعده الاجتماعي والأخلاقي، كما حدث خلال رحلة قرن مضى من عمر البشرية.

إن تصحيح مفهوم الحضارة وتقويم دلالته، هو طريقنا الأكيد إلى إقرار التعدد الحضاري والتنوع الثقافي، تأسيسًا للتعايش السلمي والتسامح بين أمم وشعوب الإنسانية.. فالحضارة هي اجتهاد وإبداعات العقل البشري في عمليات تحديه

واستجابته لشروط عصره الزمنية والمكانية، محتكمًا في ذلك إلى ميزان الشريعة، متأثرًا بثقافته، والتراث الذي خلفته له الرسالات السماوية المتعاقبة، سلبًا أو إيجابًا.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

في هذا الشأن يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله: «إن الحضارة تنبعث بدافع العقيدة الدينية، ولذلك فإن علينا أن نبحث في كل حضارة عن أصلها الديني».

أليست المسيحية التي تحاول اليوم الليبرالية الغربية التمسح بها، هي ذات المسيحية التي تم قصفها ودكها دكًا منذ قرون عديدة من قبل أرباب الفكر الغربي، بشقيه الليبرالي والشمولي؟!

وهو عينه السؤال الذي نوجهه إلى رموز قادة الفكر المسيحي الغربي ورجال الكنائس الغربيين، ونحن نراهم يصطفون طوابير متحفزة لخوض جولة الهجوم الغربي الراهنة على الإسلام والعالم الإسلامي، تارة تحت لواء «حقوق الإنسان» وقانون الاضهاد الديني الذي استصدروه من الكونغرس، وتارة أخرى تحت مسمى حماية الحريات الفردية وحقوق الأقليات.

وإذا ما تأملنا خطاب رموز الفكر المسيحي المعاصر، المجيّش في الحملة الراهنة، لوجدناه خطابًا مهجنًا يقوم على مزج العلمانية (اللادينية)، منهجًا وقيمًا فلسفية اجتماعية، بمفردات ومنطلقات دينية من حيث لا يجمع بينهما رابط، ولا تصل بينهما صلة، وهي حالة لا يحتاج المتأمل فيها إلى جهد كبير ليتوصل إلى حقيقة أن هذه الحضارة الغربية وبرغم عنفوان طغيانها المعاصر وقوتها الاقتصادية والمادية الظاهرة والمتغلبة، هي حقيقة في حالة أزمة أو مأزق، تجعل الإنسان الغربي في أمس الحاجة إلى البحث عن ذاته، وهنا يكمن دور الأمة الإسلامية.

العولمة والتفاعل الحضاري

فالأمة الإسلامية وبما حُمِّلت به من رسالة عالمية خاتمة، لا يمكنها إلا أن تكون حاضرة في أي عصر، مشاركة في حضارته مشاركة إيجابية، ومن ثم فسؤال البعض حول موقف المسلمين من العولمة: أهو قبول أو رفض؟! استلحاق أو سلبية؟! هو سؤال يخرج عن دائرة المنطق من ناحيتين:

الأولى أن الأمة الإسلامية مكلفة بحمل رسالة الإسلام إلى الناس وتحقيق واجب الشهادة بإقامة النموذج السليم لترجمة شريعة القرآن، أسرة ومجتمعاً ونظام حياة ونموذجًا حضاريًا، ومن ثم فإن عدم تقديم ذلك النموذج وإقامة المثل في حياة مجتمعاتها هو نكوص عن أداء واجب الرسالة والأمانة.. وهو بافتراض أن تقبله أو تقع فيه قلة قليلة، فلا يتصورن أحد أن تقع فيه جموع المسلمين وهي تتلو كتاب الله الذي تعهدته العناية الإلهية بالحفظ إلى يوم الدين.. ولهذا فالاستلحاق الغربي للعالم الإسلامي متعذر، مهما بلغت قوة التأثير في إطار هذه العولمة وما حملته من تحديات ترتكز في مجملها على قوة وسائل المدنية الحديثة.

- وأما الثانية، فإن خيار السلبية أو الرفض، خيار مستحيل غير قابل للتحقيق في الواقع بحكم طبيعة هذا العصر الذي نعيشه، حيث اختزلت المسافات وتحطمت الحواجز والحدود، وبات لا مجال فيه للانغلاق أو العزلة التي هي أصلاً مخالفة لروح وحضارة الإسلام العالمية المنفتحة المبشرة.

فتفاعل المسلمين مع عصرهم ومع محيطهم، وتحقيق التعارف بين حضارتهم وحضارات الإنسانية الأخرى، هي حتميتهم وقدرهم، أوجبته عليهم الرسالة العالمية الخاتمة التي آمنوا بها وحملوا لواء حضارتها جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر!

أما وسيلتهم فهي الدعوة وتحقيق المثل والنموذج، وإقامة العدل والمجادلة بالتي هي

أحسن.. وفي زعمي، إذا كان التكليف بالشق الأول ينصرف إلى عموم المسلمين وجموعهم، فإن واجب الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ينصرف إلى أهل الذكر من العلماء والمفكرين والمثقفين القادرين على الوفاء بمسؤوليات هذا الواجب. عبر مختلف القنوات والوسائل التقليدية والحديثة.. وتاريخ حضارتنا الإسلامية قد أورثنا تراثًا هائلاً وإبداعات مشرقة في هذا السبيل، يمكن استلهام خبراتها، واقتباس إشراقاتها بما يتفق مع روح ووسائل عصرنا الراهن تحقيقًا للتعارف والتعاون بين حضارات الإنسانية لما فيه خيرها وصلاحها.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة رحمه الله في تفسير آية الجعل الإلهي :-

«إن التعارف يوجب التعاون في رفع الحق وخفض الباطل، وسيادة الفضيلة والمساواة العادلة بين الناس، وأن يدفع الظلم عن كل بني الإنسان، وأن يقف أهل كل إقليم أنفسهم لمساندة الضعيف في أي أرض من أرض الله، حتى لا يفسد الظلمُ أهلَ الأرض».

وما الذي تحتاج إليه الإنسانية المعذبة في عالم اليوم أكثر من هذا، إحقاقًا للحق، ونشرًا للعدل، وهما ركيزتا السلم؟

الحوار

من هنا يكون الاجتماع على مائدة الحوار واجبًا شرعيًا لذاته، لأنه يحقق فريضة التعارف، وهو واجب لوظيفته المتوخاة وهي التعاون في مدافعة الباطل ومجاهدته، والانتصار للحق وتغليبه، ونشر قيم العدل بين الناس سواء.

- فالحوار بهذا المفهوم إذن غاية في حد ذاته نزولاً عند حكم شرعي.. وهو وسيلة التعاون بين المتباينين لتحقيق القيم العليا والغايات الجامعة.

أما قاعدته وإطاره فهي مواطن اللقاء، من حيث الأساس المشترك بين الأديان وهو

التوحيد الخالص، الذي لا يخالطه الشرك الظاهر أو الشرك الخفي الذي يتجسد في طاعة الناس بعضهم بعضًا من دون الله.

- وهنا نلحظ ما يميز المحاورة عن المفاوضة، التي تحمل من المضامين السلبية أكثر مما تحمله من مضامين إيجابية، وسمتها الأساسية الافتقار لروح وإطار التعاون في العلاقة بين طرفيها أو أطرافها، بل هي أداة من أدوات الصراع وإن كانت وظيفتها إيجابية، وهي تجنب النتائج الوخيمة التي تنجم بحدوث الصدام.. وقد خلصت مناهج البحث الحديثة من دراستها لظاهرة الصراع وعلاقات القوة والقدرة إلى وضع علم بات يعرف بعلم التفاوض.

إن حرص المتحاورين على مسار ومصير الحوار هو ما يوجب وضع منهجية ضابطة لأعماله، باعتباره رسالة مشتركة في الديانات السماوية، وهو الذي يجعلنا نعقد مثل هذه المقارنة ونجتهد في تحديد الأسس التي يجب أن يبنى عليها في هذه المرحلة من مراحل أطواره، وبما يميزها عن سواها من المراحل، وبما يكفل للمتحاورين مقومات النجاح في إرساء قواعد التعاون في مواجهة المستجد من التحديات، التي يجب أن ينطلق الحوار من تحديد أولوياتها، وترتيب أسبقياتها، مراعيًا تعدد زوايا النظر في ذلك.. ومشاركة جميع الأطراف في وضع أجندة الحوار، يعزز فعالية المشاركين فيه، ويقوي أواصر التعاون من خلاله.

يمكن إيجاز هذه المنهجية في النقاط التالية:-

- **أطوار ومراحل الحوار السابقة، استنفدت أغراض وغايات المجادلات العقدية**، وتناولت، باستخدام الأدوات والمناهج الفلسفية والكلامية، أغلب الرموز والمقدسات والتصورات الدينية عند كل فريق من قبل الفريق الآخر، وقد بلغت تلك الحصيلة المتراكمة من التراث ذروتها في المرحلة التي سبقت تحولاً في موقف الكنيسة

الكاثوليكية من الإسلام باعترافها به كدين سماوي، وهو ما يمكن التعارف على تسميته بمرحلة الحوار السلبي، الذي اتسم بتحصن كل فريق في خندق إطاره المرجعي، ليقذف الفريق الآخر بكل ما يمكن أن ينفي شرعية وجوده، في ظل موقف رفض (الآخر) الذي كانت تقفه الكنيسة.

- **إن وضع التصورات العقيدية والأحكام الشرعية على أجندة الحوار، كموضوع للمراجعة، من شأنه أن يعود بالحوار خطوات كبيرة إلى الوراء،** ويفسح المجال (لظاهرة الانقضاض) في الحوار لتبرز من جديد، فتحجب عنا ضوضاؤها الإيقاع الطبيعي للتعاون، فينقلب إلى مناظرات بيزنطية لا غاية ترتجى منها ولا نهاية.

- **ينبغي تجنب الوقوع في أسر عقلية (الجزر المنعزلة)،** المصابة بعمى الأطر المرجعية، فالمحاور المصاب بهذا الداء غالبًا لا يرى إلا الإطار المرجعي الذي يعمل ضمنه، ولا يقر بوجود سواه.. والانغلاق على الذات المتضخمة هي السمة الأساسية لخطابه.. واستلحاق الآخرين به هي وسيلته لتحقيق ذاته، وهو ينظر إلى كل أبعاد الكرة الأرضية بصفتها أطرافًا.. أما حيث يقف هو ذاته، فذلك هو المركز، يتغافل عن حقيقة كروية الأرض، فلا يرى إلا (الأنا) حيثما امتد بصره.. والعقلية التي تتسم بمثل هذه الخصائص هي التي يمكن أن يخفي الأصبع الشجرة عن نظرها.. ومثالها الأوضح في مرحلتنا المعاصرة صاحب نظرية نهاية التاريخ.

- **ضبط الحوار بمنطلقاته الكامنة في القواسم المشتركة بين أطرافه،** وجعله خالصًا للمعلن من أهدافه، متنزهًا عن الغرضية التي قد تنزع لتحويله إلى مفاوضة يسعى كل طرف فيها لانتزاع تنازلات أو مكاسب على حساب الآخر وكأنها مباراة صفرية (Zero- Sum- Game) أو مساومة تجارية على طريقة (Win- Win Approach).

- **الحوار إرادة مشتركة، ومبادرات متقابلة، تتجه لخدمة غايات جامعة،** ووسائله تتلمسها الجهود الفكرية لأطرافه متوافقة، والتعاون في الميادين التطبيقية خير وسيلة إيضاح لتعليم الناس دروس التسامح.

- **المشاركون في الحوار ورثة أنبياء،** يتأسون بسيرهم الذاتية، ويقتدون بمناهجهم الربانية، ويستخدمون مصطلحاتهم الدينية، ويتمثلون في التخاطب أساليب الرسل التي اتسمت بالحكمة والموعظة الحسنة والتسامح، ويتقيدون بمسؤولية البلاغ، ولا يسرفون في تأويلها حتى تتحول إلى وصاية على الناس.

حقوق الإنسان

تأسس العمل الدولي في مجال حقوق الإنسان باعتبارها قضية إنسانية تهم البشرية جمعاء في إطار المنظمة العالمية (الأمم المتحدة)، التي تتكون من دول وبمبادرة من دول، وهنا تجدر الإشارة بذلك الجهد الدولي الذي استطاع أن يجعل من تلك الحقوق والحريات العامة للأفراد شرعية دولية، وركيزة أساسية من ركائز النظام القانوني الدولي، اكتسبت فيه الحجية القانونية والأخلاقية برغم أنها ظلت قاصرة عن بلوغ مرامها بما ورثته عن ذلك النظام من قصور في إقامة سلطة عادلة تملك من الأدوات والوسائل ما يمكنها من فرض القواعد القانونية المستقرة بالقوة اللازمة على مخالفيها.

كما أن الفكرة (حقوق الإنسان) قد تم تحجيمها والانحراف بها عن غاياتها النبيلة عندما تم اغتصابها من قبل قوى دولية متغلبة لتستخدم كأداة أيديولوجية في الصراع خلال مرحلة الحرب الباردة بين القطبين التقليديين في النظام الدولي المنهار، حتى ينتهي الأمر إلى وأدها كليًا في ساحات الممارسة العملية بعالم الجنوب، عندما قرنت مع بدعة «المصالح الحيوية» التي لا يحدها حد ولا يقيدها قيد، فتوسلت بازدواجية المعايير لتحقيق غايات غير نبيلة، فإذا بالغاية الأخلاقية -بغض النظر عن

أساسها الأيديولوجي- تتحول عن مكانتها باعتبارها قيمة إنسانية مطلقة، لتكون وسيلة رخيصة للابتزاز والبلطجة الدولية، فمنيت رحلة الحضارة الإنسانية بإخفاق كبير، ولم تبلغ غايتها، ولم يكن من العسير على ذي بصيرة أن يتوصل إلى نتيجة أن الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وجعله خليفة في الأرض، لانجاة له من زيغ نفسه: ﴿ ... إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ... ﴾ (يوسف:٥٣)، ولا عاصم له من انحرافات هواه إلا بتحكيم الشرائع المنزلة والتزام مقاصدها الكلية.. أما النزعات اللادينية والاجتهادات الوضعية فمهما تسامت لن تستطيع أن تسمو على محدودية المكان والزمان و(الأنا).

ومن هنا تأتي الحاجة إلى إعادة النظر في أصول القيمة وتأصيلها، وتظهر الضرورة لتحقيق التعدد في الأطر والوسائل، حتى لا يحتكر أحد حق التحدث باسم المبدأ لنبيل (حقوق الإنسان)، فمن شأن الاحتكار في هذا الشأن كما في غيره أن يوقع صاحبه في ذات المنزلق الذي وقعت فيه الحضارة الغربية.

ثم إن الجهود الدولية، كما سبق الإشارة، بحكم غلبة الطبيعة الحكومية عليها، تصدر في حالتي التعاون والخصام عن أولويات ومصالح تتسم بالتغيير والتبدل من جهة وتعكس موازين القوى بين أطراف تلك العلاقات الدولية، أكثر مما تعكس المساواة في مراكزها القانونية أو العدالة في توازن مصالحها، وهي في كل هذا ترتبط بشبكة تفاعلات ذات أبعاد مركبة، منها ما هو استراتيجي أو اقتصادي أو سياسي، وتحكمها ضوابط بقدر ما تدنو بها من الواقعية، فهي تنأى بها عن المبادئ السامية والمثل العليا.

ومن ثم فتطوير وتفعيل الهيئات غير الحكومية (الأهلية) التي تنشط في هذا الميدان وعلى نحو مستقل ومواز للجهود الحكومية، والعمل على تطوير جهودها

بتقديم إضافات نوعية، من شأنه أن يثري الجهاد الإنساني في سبيل هذه الغاية، ويسد في ذات الوقت فراغًا خطيرًا، فسح المجال لقوى واتجاهات لا دينية لتتمدد في ذلك الفراغ بإطلاق المبادرة تلو الأخرى لتقليص حيز الدين المهمش أساسًا، ولتتمادى على حساب آخر ما تبقى للدين من قدسية في التشريعات الحياتية ألا وهو حيز الأسرة والعلاقة الزوجية.

والعمل الأهلي، أو كما يطلق عليه في عالمنا اليوم المجتمع المدني، هو من الأمور التي كانت رائدة في مضمارها حضارتنا الإسلامية.

نخلص من هذه المراجعة لحالة التحدي والاستجابة التي يعيشها مسلمو اليوم، في محيطهم الإنساني، إلى أنها مشاركة إيجابية في تدافعات هذا العصر، لا مجال للتقاعس عنها، أو التهاون في أداء واجباتها، كما لا غنى للحضارة الإنسانية عن إسهامات الحضارة الإسلامية فيها، لما تستند إليه من وحي منزل فيه شفاء ورحمة للإنسانية الحايرة.

وسبحان الله القائل: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨). صدق الله العظيم.

الإســلام والبـرود[1] في الغــرب*

الدكتور مراد ولفرد هوفمان**

ترجمه عن الإنجليزية: أ.د.عبد الهادي محمد عمر تميم

تتطلب الاستراتيجية الدعوية للمسلمين في الغرب تحليلاً مستنيراً للثقافة والمعتقدات الغربية المعاصرة، ومن ثم طرح المعالجات التي يقدمها الإسلام بصورة مقنعة بوصفه دواء.. فالإسلام يمكنه أن يقدم ما يحتاجه أمر إنقاذ الغرب.

الجاليات الإسلامية في الغرب

الميول والمؤثرات:

بغض النظر عن الجزء الأوروبي من تركيا والعاصمة أسطنبول، يقدر عدد المسلمين في أوربا بنحو ثلاثين مليوناً، نصفهم يعيشون في البوسنة والهرسك وكسوفو (سنجك وبازار)[2]، بينما يعيش النصف الباقي في أوربا الغربية. أما في أمريكا

---

(١) قصد من كلمة «البرود» استعمال مجازي في مواجهة مفهوم جارلس رايخ «اخضرار أمريكا».

* تدور الورقة حول المفهوم الإسلامي وما يطرحه من حلول لمشكلات الحضارة الغربية - المترجم.

** سفير سابق.. اعتنق الإسلام (ألمانيا).

(٢) حتى هذه اللحظة لم يتضح كم من المليوني كوسوفي مسلم سيستطيعون البقاء في مواجهة التطهير العرقي الذي يمارسه الصرب، وهل سيتمكنون من العودة إلى ديارهم!

الشمالية فإن عدد المسلمين -وهو ينمو باستمرار- يتراوح بين ستة وثمانية ملايين، بينهم عدد كبير من الأمريكيين السود.

لقد تنامت أعداد المسلمين في أوربا الغربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية إثر هجرة (٢,١) مليون تركي إلى ألمانيا ونحو (٤) ملايين من المغاربة في فرنسا، و(٣) مليون باكستاني وبنغالي في بريطانيا. وأغلب هؤلاء من العمال غير المهرة. ومن الطبيعي أن تختلف وضعية هؤلاء وتأثير وجودهم عن أوضاع وتأثير الوجود المسلم في أمريكا الشمالية، حيث يتألف المجتمع المسلم هناك -بدرجة كبيرة- من الطلاب والأكاديميين المهاجرين إضافة إلى المواطنين السود الذين اعتنقوا الإسلام في مراحل مختلفة.

وفي أوربا كان الوجود المكثف لمسلمين ينتمون إلى مجموعات عرقية محددة سهل تمييزها أمراً في غير صالح هذه الجماعات في ظل واقع يتضافر فيه التعصب العرقي مع مشاعر العداء للإسلام التي ترجع جذورها إلى أحداث تاريخية ظلت في ذاكرة المجتمع قرون عدداً.

فالألمان على سبيل المثال، يتذكرون أن الدولة العثمانية ظلت طوال المدة الواقعة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر تمثل الخطر الأكبر الذي يتهدد النصارى في وسط أوربا.

ومنذ ذلك الوقت اعتبر الإسلام ديناً تركياً، واعتبر القرآن توراة الأتراك وإنجيلهم. وتنعكس هذه الحقيقة سلباً على مجتمعات العمال المهاجرين الذين تستضيفهم كلٌ من النمسا وسويسرا وألمانيا.. أتراهم يحاولون بهجرتهم هذه المسالمة في ظاهرها تحقيق ما عجزت عنه سيوفهم المقوسة الحادة عندما حاصروا فينا؟! هكذا يتساءل البعض الآن بقلق.

كما أن ذكريات الاحتلال الاستعماري وما شابه من سوء معاملة لتلك الشعوب يزيد الوضع سوءاً بالنسبة للمغاربة والجزائريين والتونسيين في فرنسا، وبالنسبة لمسلمي شبه القارة الهندية في بريطانيا، بينما تقف قضية فلسطين وأسلوب تناول أجهزة الإعلام الصهيونية لها عقبة كبرى أمام مسلمي أمريكا الشمالية.

٢- في ظل هذه الظروف، نجد أن **أوضاع الجاليات المسلمة في الغرب** تختلف اختلافًا كبيراً، وتختلف تبعاً لذلك فرص الدعوة المتاحة لها.

أ/ **التقوقع** (أو التحول إلى مجتمعات مغلقة مثل الغيتو اليهودي):

ينزع كثير من المهاجرين المسلمين، خاصة أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة (للغات بلدان المهجر)، إلى تكوين مجموعات عرقية مغلقة تقوم تحت ظروف الصدمة الحضارية التي تعيشها بتوفير الخدمات الاجتماعية الأساسية لأفرادها، وتمنحهم كذلك ما يفقدونه من إحساس بالانتماء للوطن. وفي هذه المرحلة يبدأ التراث الشعبي ويتضمن الدين، في التحول إلى عامل أهم بكثير عند أفراد الجيل الأول من المهاجرين مقارنة بما كان عليه الحال في بلدانهم الأصلية.

ولما كان أفراد هذا الجيل قد غادروا بلدانهم في الأساس لأسباب اقتصادية أكثر منها سياسية، فإنهم عادة ما يعتزمون الرجوع إلى بلدانهم بمجرد جمعهم لما يكفيهم من المال.

وبالتالي فإن هذا الجيل لا يركز كثيراً على المؤسسات والتنظيمات الدينية، بل لم يفكر في القيام بالدعوة في الوسط غير المسلم الذي يعيش فيه. وبدلاً عن ذلك كان أفراد الجيل الأول يحاولون الدفاع عن مظاهر عاداتهم الخاصة في الموسيقى والطعام والأعياد والأزياء والقيم الاجتماعية، واستمروا في الاهتمام بأوطانهم، خاصة المنتمين منهم إلى بلدان قريبة من أوربا مثل بلدان شمالي إفريقيا وتركيا.

وقد شهدت أمريكا الشمالية أيضاً تطوراً مماثلاً ولكن بدرجة أقل، تمثلت مظاهره في بعض المساجد الخاصة بالهنود أو العرب أو السود.

على أن الجاليات المسلمة في أمريكا الشمالية، إذا استبعدنا التصنيف على أساس ديني، هي أوفر حظاً بكثير من حيث الاندماج في المجتمع والانفتاح عليه. وقد حقق كثير من المنتمين إلى هذه الجاليات، المؤهلين أكاديمياً، نجاحاً مشهوداً في مجالات تخصصاتهم. ونسبة لأن البلاد الأصلية لمسلمي أمريكا الشمالية بعيدة جداً، فإن كثيراً منهم، لأسباب تتعلق بخياراتهم السياسية، لا يعتزمون، أو ليس متاحاً لهم، العودة إلى أوطانهم.

ب- تكوين جزر للاحتماء:

لقد تبين أن الجيل الأول من المسلمين المهاجرين يخفق عادة في تحقيق حلم العودة إلى الوطن، ولعل السبب الغالب هو أن ابناءهم (أي الجيل الثاني من المهاجرين) يرفضون العودة معهم إلى الوطن.

ويشعر أفراد هذا الجيل بالتمييز ضدهم سواء في بلد المهجر أو في موطن آبائهم، إذ أنهم في كثير من الأحيان، لا يتقنون أياً من لغتي البلدين بالقدر الذي يمكنهم من المنافسة، لذا فإن الجاليات المسلمة عندما تواجهها مثل هذه الظروف تقرر أن تنشئ لنفسها البُنى الأساسية الخاصة بها. ومن أمثلة ذلك بناء المراكز الإسلامية، وتشييد جوامع مكتملة بمآذنها بدل مساجد صغيرة في الأفنية الخلفية للأدوار العلوية.

هذا هو الحال في الوقت الحاضر، في كل مكان تقريباً في أوربا، من فنلندا (التي تعيش فيها جاليات مسلمة إريترية وصومالية) والسويد، إلى هولندا وبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا. وفي ألمانيا وحدها أدى هذا الاستعداد لإنشاء هذه المؤسسات وتوفير

الأموال اللازمة لها إلى ظهور نحو ٢٥٠٠ مركز إسلامي بحلول عام ١٩٩٨م. ومعظم هذه المراكز تمثل قوميات بعينها وتعتبر أقواها نفوذاً المؤسسات التركية ملي قورس (Milli Gorus) وحركة سليمان ليلار (VIKZ) والحركة النورسية (ويرجع الفضل في تأسيسها إلى المفتي الكردي الراحل سعيد النورسي).

وتقوم التنظيمات المذكورة بالدعوة الآن، ولكن ذلك -للأسف- يكاد ينحصر في إطار مجهود دفاعي مقتصر على المجتمع المسلم.

هذه الجزر الإسلامية يجري تكوينها نتيجة لمجهودات أشخاص يفرضون على أنفسهم التزامًا قوياً، ولتوفر موارد مالية، حيث تنشأ تبعاً لذلك هذه التجمعات التي تخص قوميات بعينها كالأتراك والبوشناق والألبان والإثيوبيين، فتمنحهم الشعور بأنهم في بلادهم وتعينهم في المحافظة على إسلامهم. إن باعثهم القوي على الدفاع عن تلك التجمعات المنظمة يجعلهم لا يستطيعون بذل مجهود حقيقي للتمييز بين ما هو مجرد عادات ذات صلة بحضاراتهم وبين ما هو نابع من الشرع الإسلامي. ولذلك نجد أن الانقسامات الطائفية الموجودة في الهند وتركيا تستمر في بريطانيا وألمانيا إلى الحد الذي يربك بل وينفر مواطني الدول المضيفة من الراغبين في التعرف على الإسلام.

وهذا يفسر عجز ملايين المسلمين المقيمين في أوربا الغربية عن جذب أعداد أكبر من سكان الدول المضيفة لاعتناق الإسلام، إذ لم يقدر مليونان من الأتراك في ألمانيا على اجتذاب أكثر من ستين ألف ألمانياً لاعتناق الإسلام، وذلك خلال مدة لا تقل عن ثلاثين عاماً. وللأسف لا ينتظر من هذه الحصيلة إلا أن تستمر سلبية ما استمرت غالبية الأتراك في ألمانيا في التركيز على إعادة أسلمة تركيا التي تستمد سياستها من مبادئ كمال أتاتورك، بدلاً من التركيز على نشر الإسلام في ألمانيا نفسها.

ومرة أخرى نجد أن الصورة في أمريكا الشمالية أكثر إشراقاً. فالأمريكيون السود، باعتبارهم ليسوا من المهاجرين، ليست لديهم بلدان أخرى يركزون مجهوداتهم عليها.. بل حتى المسلمين المهاجرين، خاصة أولئك القادمين من فلسطين وسوريا والعراق ولبنان ومصر، فإنهم متمسكون بحقوقهم ومنظمون في تعاملاتهم رغم الحواجز العرقية، وقادرون من الناحية الفكرية على التأقلم مع المحيط غير المسلم الذي يعيشون فيه.. وتشمل البنيات الخاصة بهم مدرسة الدراسات الاجتماعية العليا الإسلامية في ليزبيرغ، والجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية (ISNA)، ومجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (CAIR)، والخدمة الإعلامية الإسلامية (I.I.S) في لوس أنجلوس.

وليس ما ذكرنا سوى نزر يسير من المؤسسات والتنظيمات الإسلامية الموجودة هناك، والتي تلبي حاجة الواقع من حولها وتضطلع، على خير وجه، بمهمة شرح دين الإسلام لمن يهتم بذلك.

جـ) التحدي:

وفي كلتا القارتين (أي أوربا وأمريكا الشمالية) تواجه المسلمين ذات التحديات. إذ يتعين على الجيل الثالث أن يكوّن مجتمعات إسلامية كاملة الاندماج، بحيث لا تسيطر عليها عناصر عرقية بعينها.

ويجب على هذه المجتمعات المتكاملة ان تقلل شيئاً فشيئاً من التركيز على ذواتها، وأن تزيد من اهتمامها بالعالم من حولها حتى تتمكن من نشر الدين الحنيف.

ما هو الهدف؟

١- توكيد الذات:

إن مسلمي أوربا الغربية، كما تقدم معنا، خلافاً لإخوانهم في أمريكا، يسعون فقط إلى أن يلقوا التسامح في البلدان المضيفة، وأن يُعاملوا وفق ما تقتضيه مبادئ القانون والعدالة. ويعد هذا الطموح المحدود أمراً معتاداً لمثل هؤلاء المهاجرين الذين لا يسهل عليهم الحصول على وضعية المواطنة في البلدان التي اختاروها لإقامتهم، كما هو الحال في ألمانيا مثلاً.. ومادام الواحد منهم يحذر خطر الإبعاد، فإنه يكون عادة بعيداً عن مجال الثقة بالنفس وتوكيد الذات.

وعليه فإنه ليس من المبالغة القول: بأن معلومات الأوربيين اليوم عن الإسلام، على الرغم من وجود ملايين المسلمين بينهم، لا تزيد كثيراً عَمّا كانوا يعرفونه عن الإسلام عندما كانت معرفتهم بالشرق مستمدة بالدرجة الأولى من آداب الاستشراق وقصص المغامرات. إنه لواقع محزن، بيد أنه عين الحقيقة.

٢- التفاؤل:

على أن القصور في العمل الدعوي في القارة القديمة لا يعود إلى ضعف أوضاع المهاجرين أو تدني مستوياتهم التعليمية أو انشغالهم بأنفسهم أو بأوطانهم فحسب، بل إن هناك أيضًا قدراً كبيراً من التشاؤم الانهزامي.. ففي ظل مشاعر العداء المتأصل للإسلام في أوربا[١] يبدو واقعياً أن نفترض أن أقصى ما يطمح إليه المسلم هناك هو أن يقابل بالتسامح، وأسوأ ما يتوقعه هو أن يمارس ضده التمييز المصحوب بالعنف.

(١) يعتبر نورمان دانيال أكبر العلماء المهتمين بآثار ومظاهر العداء للإسلام الذي ترسخ في الأذهان عبر القرون.

٣- التعقل التكتيكي:

ربما يكون من التعقل التكتيكي ألا يُبالغ في الطموحات وألا يستعجل في تحقيقها. فأوربا، على أية حال، لم تكن يوماً مكاناً للتعددية الدينية، بل إنها عُرفت بعدم التسامح الديني. وكان ذلك مبنياً على حماسها للتبشير بالمسيحية وتحقيق السيادة، بحيث أصبح الظهور المفاجئ لدين جديد (الإسلام) يمثل مشكلة نفسية كبرى على المستوى الجماعي.

ومما يزيد الأمور سوءاً أن الإسلام، خلافاً لليهودية على سبيل المثال، هو الدين عينه الذي اعتبر أكبر خطر يتهدد المسيحية، وطرحاً مناقضاً لها، لمدة تزيد على ألف سنة. فهل آن الأوان للترحيب بالهرطقة (أي الإسلام في رأيهم)، بل ورعايتها؟

ولا يمكن حتى من الناحية النفسية أن تنسى أوروبا بين عشية وضحاها تراكمات السنين من آثار الدعاية الغربية الخبيثة المعادية للإسلام، والتي استمرت من أيام الحملات الصليبية مروراً بالحقبة الاستعمارية إلى القرن العشرين.

كذلك ليس من العقلانية في شيء أن نفترض أن إقامة المآذن إلى جنب الكاتدرائيات يمكن أن يصادف قبولاً فكرياً في الغرب أو أن تروق لأهله رؤية هذه المآذن.. وحتى إذا تقبل بعض أهل الغرب، على غيظ ومضض إقامة المآذن القصيرة هنا وهناك، فإن الاعتراض على الأذان، أي ما يتضمن من شهادة أن محمداً رسول الله، يظل على أشده إلا في حالات نادرة معظمها في مناطق نائية مثل منطقة فينكس (في أريزونا بأمريكا).

وفي ظل هذه القابلية لنشوب صراع، فإن من الحكمة عدم إثارة المخاوف بفرض

التغيير في عقائد راسخة لأناس بُرمجت عقولهم لعدة قرون ضد الإسلام، وذلك من خلال حملات التشويه المنظمة.

ويتبين أن الحذر أمر جوهري خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن الإسلام يبدو حال انتشاره خطراً يتهدد أسلوب الحياة في الغرب فأحكامه تطال كل طرائق الحياة من الذاتوية (Individualism) المفرطة إلى مذهب المتعة والهوى، وهو أيضاً يمنع التدخين وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

إن التخوف من ردة فعل شعبي عام حال تحقق نجاح سريع ومؤثر هو أمر له بالفعل ما يبرره.. وهذا ما يفسر ظاهرة تصاعد النزعات اليمينية كما هو الحال في ألمانيا وفرنسا، وكذلك التنامي المقلق للجماعات النصرانية المتطرفة، الميّالة إلى المصادمة والتي تنطلق من أرضية عداء سافر للإسلام.

وفي حين لا يعتبر العداء للإسلام أمراً غير مقبول من الناحية السياسية. فإن العداء للسامية اليهودية يعد من المحرمات.. أما العداء للسامية العربية فلا.

٤- تحدي التنوير:

إن التشاؤم بشأن الفرص المتاحة للدعوة الإسلامية يبدو مبرراً على نحو أقوى في ظل القبول الواسع الذي تلاقيه وجهة النظر الحديثة القائلة: بأن الإنجازات الغربية التي تحققت في أعقاب حقبة التنوير هي قيم عالمية ينبغي اتباعها على مستوى العالم.

وفي هذا إشارة إلى ديمقراطية وستمنستر (Westminster) ومبادئ النظم الجمهورية والعلمانية والعلمية (أي اتباع منهج العلوم الطبيعية في سائر حقول

المعرفة) والصيغ الغربية لحقوق الإنسان التي تتضمن مبدأ تحرير المرأة ومساواتها بالرجل. بل حتى ذوي العقلية المؤيدة للتعددية في حقبة ما بعد الحداثة يفترضون دون استثناء أن الإسلام في الأساس لا يتوافق مع هذه الأجندة الداعية إلى العولمة الثقافية والسياسية.

٥- ليس التسامح.. بل التقبل:

لكن وعلى الرغم من كثرة المعوقات، فإنني أدعو بشدة إلى أن يسعى المسلمون في كل مكان لا إلى أن يُقابلوا بالتسامح فحسب، بل إلى أن يلقوا التقبل ويجدوا القبول لدى المجتمعات المضيفة.

وقد أدرك «يوهان ولفغانغ فن جوته» منذ مائتي عام أن من يقابل فقط بالتسامح فقد قوبل في واقع الأمر بالإهانة: (يجب أن يكون التسامح موقفاً انتقاليًا فحسب، يفضي في آخر المطاف إلى القبول. أما مجرد التسامح فهو يرقى إلى أن يكون إهانة)[١].. بالطبع فإن التعددية الحقيقية كما تبينها الآية[٢]، تأمر بالاعتراف المتبادل، وأن تتقبل الأطراف المعنية بعضها بعضًا على أساس المساواة.

ويعد هذا الهدف ذا أهمية جوهرية، لأن القبول فقط وليس مجرد التسامح هو الأصل في الأسلوب الذي يجب أن يُنظر به إلى الأقليات المسلمة ونشاطاتها بوصفها أمراً طبيعياً تماماً.. ولن يصبح الإسلام في مأمن إلا بعد الحصول على هذا الوضع الطبيعي.

---

(١) John Wolfgang Von Goethe, Vol. VI Maximen und Reflexionen, No. 121.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه...﴾ (المائدة:٤٨).

٦- الوضع السوي:

يمكن مشاهدة ما يعنيه الوضع السوي من منظور التعددية الدينية في دمشق والقاهرة وعمان واسطنبول وكذلك في أمريكا الشمالية.. أما في أوربا وبعد قرون من الحروب الداخلية بين الطوائف المسيحية، فقد غدا من المعتاد، على الأقل، أن ترى كنائس الكاثوليك والبروتستانت قبالة بعضها أو جنباً إلى جنب في قلب المدينة.. ولا يمكننا أن نتحدث عن التطبيع إلا إذا قام مسجد في ذات المكان إلى جانب الكنيستين، سواء في أوربا أو في أمريكا الشمالية.

وقد أعطت الكنيسة الكاثوليكية مثالاً جيداً على ما يمكن أن يتضمنه مفهوم التطبيع، فخلال انعقاد المجلس الثاني للفاتيكان في مطلع الستينيات وصلت روما إلى حد اعتبار الإسلام وسيلة صحيحة موصلة إلى النجاة والخلاص، إلا أن روما رفضت ولا تزال ترفض الإقرار بأن محمداً ﷺ هو الهادي والقائد لمن سلك هذا الطريق القويم.

وأعتقد أنه لن يكون للحوار بين النصرانية والإسلام معنى، ولن يكون حواراً بين ندّين إلا بعد الإقرار بنبوة محمد ﷺ والإيمان بأن القرآن هو كلام الله.

ما يحتاجه الغرب

١- الطلب مقابل العرض:

والذي أراه، من وجهة نظري الخاصة، أن الدعوة الإسلامية سوف تحقق تقدماً في الغرب فقط إذا تم تقبل الإسلام وصار أمراً مألوفاً.

والتطبيع المنشود لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نُظر إلى المسلمين ليس على أساس أنهم مجموعة تطلب شيئاً (التسامح، المواطنة، الحماية القانونية، القبول) فحسب، بل

على أساس أنهم أناس لديهم شيء جوهري يمكنهم تقديمه، شيء يفتقده الغرب دون أدنى شك، ويحتاج إليه إذا أراد لحضارته البقاء.

وتتطلب الاستراتيجية الدعوية السليمة للمسلمين في الغرب، وبالذات الجيل الثالث من المهاجرين، بادئ ذي بدء تحليلاً مستنيراً للثقافة والمعتقدات الغربية المعاصرة، وعلى ذلك الأساس يتم طرح المعالجات التي يقدمها الإسلام بصورة مقنعة (طرح الإسلام بوصفه دواءً).

٢- نصر أجوف:

ربما يكون الغرب قد حقق نصراً أيديولوجياً وعسكرياً واقتصادياً على الشيوعية، وأمست الولايات المتحدة الأمريكية منذ غروب شمس الاتحاد السوفيتي السابق القوة العظمى الوحيدة على المسرح الدولي.

كما أن العولمة التقنية والاقتصادية ربما تكون طريقاً ذا اتجاه واحد يقود من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق. وقد يكون الغرب أيضاً هو المتفوق على المستوى العالمي من حيث دخل الفرد ونسبة المتعلمين في المجتمع، ومتوسط الأعمار، والعناية بحقوق الإنسان بما في ذلك المشاركة السياسية.

كل ذلك قد يكون مسلمًا به لكن هذه الجنّة الغربية التي أخذت تقرع الأجراس إيذانًا بانتهاء التاريخ (وفقاً لما يقول به فرانسيس فوكوياما)، وتدق طبول الحرب تأهباً للصراع مع الحضارات الأخرى (وفقاً للصورة التي يرسمها صمويل هنتنغتون)، هذه الجنة الغربية برغم كل ذلك، تعاني صراعًا عميقًا يرتبط بأسباب وجودها، وذلك من الجهتين النظرية والعملية.

٣- التخلي عن المسيحية:

لكي نفهم الوضع الأخلاقي للعالم الغربي، لابد أن ندرك التفرد الذي تتسم به الحضارة الغربية المعاصرة في التاريخ الإنساني العالمي. فهي تمثل أول مجتمع على الإطلاق يعيش دون أن يرتبط ارتباطاً فعلياً بمجال الظنيات. والمجتمع الغربي هو أيضاً أول مجتمع يعيش الإلحاد عملياً (أو على الأقل يتبع مبدأ لا أدري حيال الغيبيات) على أساس معرفي.

إن أوربا قد دخلت بدرجة أكبر من الولايات المتحدة في عهد ما بعد المسيحية. لقد تراجعت المسيحية في أوربا إلى الحد الذي لم تعد معه عاملاً فاعلاً، لا في السياسة ولا في الاقتصاد، وليس لها سوى تأثير ضئيل في حقل العلوم (تقنية الجينات). وقد اضمحل أثر المسيحية كذلك على أخلاقيات الأفراد.

وعلى الرغم من أن العديد من مناحي الحياة العامة لا تزال تندثر باندثار المسيحية، فإن المادية المطبقة ومذهب التنكر الفلسفي للعينات ونسبية الأخلاق، هي الآن المظاهر التي ترسم ملامح الواقع الأوربي في كل مجال تقريباً.

وعلى الرغم من وجود جيوب هنا وهناك تبشر ببعث مسيحي جديد، فقد بلغ اندثار المسيحية في الغرب حداً جعل ما كان مشتركاً بين العساكر المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى من إيمان بالله وإيمان بالوحي أكثر بكثير -حتى في أحلك ظروف الصراع- مما هو مشترك بين المسلمين ومعظم شعوب الغرب في هذا العصر.

٤- عهد ما بعد المسيحية:

ليس المقصود من هذه العبارة أن المسيحية قد تلاشت، فقد استمر بقاء الكنائس

كمؤسسات، ولا يزال للبابا جماهير رهن إشارته، وسوف تستمر الآثار طويلة الأجل للعقيدة المسيحية لبعض الوقت.

إن هناك في الواقع حركات شعبية إنجيلية بروتستانتية، وآثار من الأصولية المسيحية الميالة إلى المصادمة والعنف وخاصة في الولايات المتحدة. وهناك محاولات من بعض رجال الدين المسيحي لتطويع المسيحية لتلائم أساليب وتقنيات عصر المعلومات، أملاً في جعل المسيحية أوثق صلة بمعطيات هذا العصر.

وبالطبع كما تنبأ القرآن، فإن المسيحيين الحقيقيين الملتزمين هم الذين يبدون الاستعداد للتعاون مع المسلمين في الشؤون الاجتماعية على المستوى المحلي (وينطبق ذلك على البروتستانت أكثر منه على الكاثوليك أو الأرثوذكس).

ويعلم هؤلاء المسيحيون الملتزمون أنهم قد صاروا بدورهم أقلية دينية في الغرب، فهم بالتالي يعيشون ذات الظروف التي يعيشها المسلمون، إذ أن كلتا المجموعتين تبحران في خضم من الإلحاد يزداد باطراد.

وهناك أيضاً ضرب من التشرد الديني، وهو ظاهرة مشاهدة على امتداد العالم الغربي: شباب ضلوا طريقهم في الحياة وشعروا بخوائها، فراحوا بالتالي يبحثون عن الإحساس بالدين وعن المجتمع المتدين وعن أثر الدين في الحياة، فهم يتنقلون من تبعية كاهن إلى آخر، ومن نحلة غامضة إلى أخرى، بما في ذلك النُسخ الغربية من البوذية والشامانية.

٥- إخفاق «مشروع الحداثة»:

إن ردود الفعل المذكورة وغيرها، لا تعدُ -ولعلها لن تفعل أبداً- حتى الآن، بتغير

ثوري واسع النطاق في المشروع الغربي، مشروع الحداثة، وهو الناتج المستمر لما أطلق عليه عصر العقل وفترة التنوير التي ارتبطت به في القرن الثامن عشر.

إن محاولات المسلمين لمجابهة هذا الوضع يجب أن تنطلق من تحليل متعمق لهذا النموذج المفرط في نجاحه، الشديد في خطورته.

أ) وقفة أخرى مع فترة التنوير:

لقد كان تاريخ التطور الفكري في الغرب وفي العالم الإسلامي متزامناً، حتى عصر النهضة، الذي قل فيه الاهتمام بالدين في الغرب وانصب على الفرد.. ولكن اللحظة الحاسمة جاءت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما بدأ مفكرو أوربا في التحرر التدريجي من سيطرة الكنيسة، بإعلائهم من شأن العقل الإنساني، واعتبار حكمه هو الفيصل في أمور الدين.

وكان أشهر الشخصيات التي سلكت هذا الطريق هم بالطبع فلاسفة من أمثال رينيه ديكارت (١٥٩٦م – ١٦٥٠)، وغوتفريد فيلهلم ليبنتز (١٦٤٦–١٧١٦)، وديفيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦)، وإيمانويل كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤)، إضافة إلى عدد من كبار الكتاب مثل فرانسوا فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨)، وغتهولد إفرايم ليستغ (١٧٢٩ – ١٧٨١)، وجوهان ولفغانغ فون جوته (١٧٤٩–١٨٣٢)، والملك فردريك الثاني (فردريك العظيم) ملك بروسيا (١٧١٢ – ١٧٨٦).

لم يكن هؤلاء ملاحدة، بل كانوا يعتقدون بمذهب الربوبية، وهو الإيمان بإله واحد، ولكن من خلال التأمل والتدبر.

ولم يكن هدفهم القضاء على الدين، بل كانوا يرمون إلى تحرير الإنسان من نير العقائد التي أمسكت بخناقه، ومن الظلامية والضبط والتقييد والرقابة الصارمة التي

مارستها ضده الكنيسة المسيحية. ونظرًا لتمسك دعاة الحركة التنويرية بمبدأ حرية الفكر والتسامح وتحكيم العقل، فليس من المستغرب أن يكون بين أنصار الحركة التنويرية من اعترف بتفضيله نظريًا للإسلام دون أن يعتنقه، لما فيه من عقلانية على المسيحية بأفكارها التي تستعصي على المدارك، وعقيدة التثليث التي تتبعها. ومن أمثال هؤلاء (ليسنغ) و(فردريك الثاني) و(جوتة).

ب) من التنوير إلى العدمية* :

تحول انعتاق الحركة التنويرية في القرن التاسع عشر من سلطة الكنيسة –للأسف– إلى انعتاق من الدين نفسه. فلم تنبذ فقط عقائد الكنيسة باعتبارها غير عقلانية، بل اعتبر الإيمان بوجود الله نفسه أمراً غير عقلاني، وبدأت حاكميه الله تُستبدل تدريجياً بالحرية الذاتية للبشر، التي أصبحت بذلك الفيصل في قياس كل الأمور. بل أصبح العقل نفسه ديناً، وصار العلم لا يقل في تزمته وقلة تسامحه عن الكنيسة، وطُرح العلم بوصفه تصويراً صادقاً للحقيقة منزهاً عن الخطأ.

وهكذا أدى كفر الإنسان بربه إلى تأليهه لنفسه أو للدولة، مثلما آلت إليه الحال في الأنظمة الفاشية والشيوعية لاحقاً.

وكان أهم الشخصيات على هذا الطريق المفضي إلى الهلاك: لود فيج أندرياس فيورباخ (١٨٠٤–١٨٧٢)، وكارل ماركس (١٨١٨–١٨٨٣)، وتشارلس داروين (١٨٠٩ –١٨٨٢)، وفردريش نيتشة(١٨٤٤ – ١٩٠٠)، وسيجموند فرويد (١٨٥٦–١٩٣٩). كان هؤلاء هم الآباء الروحيين لكوارث عجيبة حلت بأوربا خلال القرن العشرين.

(*) العدمية مذهب يسفه القيم التقليدية ويقول بعبثية الوجود – المترجم.

وعندما أعلن نيتشة أخيراً أن (الله) قد مات[١]، فإنه لم يقتل (الله) بل طرح تشخيصاً مفاده أن فكرة الإله قد انتهت وزالت من قلوب الملايين وسوف يستمر الأمر كذلك. وسرعان ما أدرك الناس أنه إذا كان (الإله) قد مات فكل شيء قد صار مباحًا.

وفقط في هذه المرحلة مع نهاية القرن العشرين ظهرت بشكل مستقل الأفكار السياسية لهوبز الداعية إلى الذاتوية (Individualism) غير الخلقية.

ج) خصخصة الدين:

وحيال هذه التوجهات دخلت الكنيسة معركة خاسرة ولا تزال تخسر إلى اليوم.. والأسوأ أن بعض الكنائس البروتستانتية تأقلمت مع هذا المزاج السائد إلى حد القبول بتنازلات تخرجها عن نطاقها مما أضر بها أبلغ الضرر. وهكذا نجد أن أغلب البروتستانت في ألمانيا لم يعودوا يؤمنون بألوهية يسوع ولا بعذرية أمه السيدة مريم. ومن الأشياء التي لا تصدق في هذا السياق أن بعض وعاظهم أعلنوا صراحة أنهم من الشواذ جنسياً، أو أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت. وضمن هذا السيناريو أصبح الدين في الغرب ذاتياً وانتقائياً بالكامل، وأمراً خاصاً في مجمله.

د) الليبرالية المدمرة:

وما أن نحُّوا (الإله) عن عرشه بوصفه مصدراً وضامناً للأسس الخلقية، حتى تفشت النسبية الخلقية والانحلال الاجتماعي، على نحو مثير للقلق. لقد جنت الليبرالية على نفسها بالتأكيد بإطلاقها لأهواء لا رقيب عليها، دون أي إطار خلقي ضابط. وبينما تتاح لأشخاص استثنائيين ممارسة حياة خلقية مستقلة مستمدة من

---

(١) Friedrick Nietzsche. Die Frohliche Wissenschaft, Book 5, Werke, Vol.1 p 489.

القانون الطبيعي أو من فهمهم للكرامة الإنسانية، فإن عامة الناس لا يبدو أنهم قادرون على الالتزام بمستوى خلقي لائق بمعزل عن الدين. إن أغلبهم يغتبط بسلوك الطريق الذي يرى أنه يحقق له السعادة، كما يقول وليام أُفلَس.

إن الانحلال الأخلاقي، كما يرمز له بمحرقة اليهود (الهولوكوست)، هو الظاهرة التي اتضحت شيئاً فشيئاً خلال القرن العشرين لتصل إلى درك الانهيار الخلقي في حالتي الفاشية والشيوعية، والتعصب للقومية العربية، والاستغلال الرأسمالي.

هل كانت صدفة أن القرن العشرين شهد أشرس الحروب في تاريخ البشرية، استخدمت فيها الأسلحة الكيماوية والذرية، وجرت فيه محاولات مروعة لإبادة مجموعات كاملة من السكان مثل المزارعين في روسيا السوفيتية، واليهود، والغجر، والشواذ جنسياً، في ألمانيا النازية، والمسلمين في يوغسلافيا السابقة؟ هل كان صدفة أن عجزت الكنائس والبابا ومواثيق حقوق الإنسان في إيقاف ذلك المد المدمر؟

هـ) معالجة النفس:

يخدع بعض المراقبين الغربيين أنفسهم بالاعتقاد بأن ما يرونه لا يعدو أن يكون انتقالاً طبيعياً من مجموعة من القيم والأخلاق إلى مجموعة أخرى، في عالم دائم التغير.

هذا الاعتقاد غير صائب لسببين:

الأول: هناك قيم لكل زمان لا يعتريها التغيير (مثل حب الإنسان لأطفاله، اعتنائه بوالديه، والنفور من قتل الأبرياء، وعدم الإقدام على ممارسة التعذيب تحت أي ظرف).

الثاني: أن بعضاً مما يسمى بالقيم الجديدة، والتي يمجدها شباب هذا العصر، غير مقبولة بذات القدر الذي تتعارض به مع القيم الخالدة التي مثلنا لها في النقطة الأولى. وكمثال لذلك: أن تزعم إمراة حامل أن بطنها ملك لها، ليكون ذلك مسوغاً لقتل الجنين الذي في رحمها.

وينطبق ذلك على ما يسمى «الحق في الخوف» بمعنى عدم المخاطرة بأي شئ من أجل مصلحة المجتمع. وما يسمى «بالحق في السكر right to intoxication» الذي تدعيه جماعات من أحزاب «الخضر»، فيبررون بذلك الاستخدام السوي والسيء لمواد سامة.

والنتيجة هي أن المجتمع الغربي من سان فرانسيسكو بأمريكا إلى برلين بألمانيا صار الآن يتسم بما يلي:

■ تفكك الأسرة على نحو ينذر بالخطر (معدلات طلاق مذهلة، أمهات وحيدات، أطفال تخلى عنهم ذووهم)، هذا ينذر بانهيار المجتمع بأكمله.

■ ويصحب ذلك استغلال الأطفال والمواد الإعلامية الفاضحة، والممارسات الجنسية المنحرفة والمخالفة للقانون، والجرائم التي تقع في الأوساط المدرسية بين الطلاب، ومعدلات لا تقل ترويعاً من جرائم الأحداث.

■ تعاطي المخدرات قد انتشر في العالم الغربي إلى حد أصبح معه إدمان المخدرات مثل: الكحول والسجائر والماريجوانا والكوكايين والهيروين وعقار الهلوسة (KSD)، والمخدر المسمى بسبيد (أي السرعة)، والمخدر المسمى لكشري (أي البهجة)، متغلغلاً في بنية المجتمع الغربي، على أن الإدمان ليس كيماوياً فحسب، فهناك التلفاز والإنترنت اللذان يمكن أن يعتبرا ضرباً من ضروب الإدمان أيضاً.

■ كما سرت أيضاً عدوى الذاتوية حيث بدأ الإنسان الغربي يعيش بيئة مشبعة

بوسائل الإعلام في عالم كأنه مدينة واحدة عملاقة، فإذا هو فيها مخلوق وحيد قابع أمام شاشة الحاسوب يعيش عالماً أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، بل وينغمس في الجنس عبر الهاتف أو الحاسوب.

و- سيطرة النزعة الاقتصادية على المجتمع:

يعزو الخبراء في الغرب هذه الظواهر بصفة رئيسة إلى تأثيرات الاقتصاد الرأسمالي التي تجعل من الإنسان أداة تخدم متطلباته كتحقيق الفعالية، والضبط الأمثل للإنتاج، والسعي إلى تحقيق أكبر قدر من الأرباح، وزيادة الإنتاجية. ويقول الخبراء: إن المجتمع يفقد ترابطه خلال هذه العملية، وإن «البرود» أخذ يعتري العلاقات الإنسانية حتى غدت أضعف بكثير من حالها قبل وقت قصير.

وبدلاً من «اخضرار أمريكا» الموعود، فإن ما نشاهده هو برود في أسلوب عيش الأمريكيين. ما يهمهم هو ما تحققه الأسهم.. وفي ظل هذا الوباء الذي عم فينا، فإن هناك أزمة وقت[١]، والوقت يعني بالتأكيد المال.

ما يمكن أن يقدمه الإسلام

١- البروليتاريا الروحية:

إن ما وصفته -بأمانة- يعني بوضوح تام أن هناك أزمة تعصف بالغرب، وهي أزمة ثقافية وجودية، على الرغم من إنجازات الغرب في ميادين الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والاقتصاد، والتكنولوجيا.

وهي أزمة يمكن أن تأذن بسقوط الغرب بعد فترة لا تطول كثيراً بعد سقوط الغريم

(١) William Ophuls, P.152.

الأول للغرب (أي الشيوعية) حوالي عام ١٩٩٠م. أما اليوم فليس ماكان يسمى بالبروليتاريا الاقتصادية التي نظمها ماركس هي التي تهدد الغرب، بل إن مصدر الخطر المحدق به هو البروليتاريا الروحية (كما يقول والتر ليبمان) التي ترعرعت لمدة مائتي عام تحت مظلة التحديث.

٢- في سبيل نموذج ديني:

باعتبار أن المحنة الخلقية التي يمر بها الغرب ترجع جذورها إلى نحو مائتي عام، يتضح لنا أن الأثر المطلوب لايتأتى إلا عن طريق نقد جذري لعقلية الحداثة.. فإذا أمكن بنجاح إفاقة حركة التحديث من أوهامها، أصبح متاحاً للإنسان الغربي عندئذ فقط أن يغير أسلوب تفكيره.

إن إنقاذ الغرب من إلقائه بنفسه إلى التهلكة بتخدير نفسه يتطلب بطبيعة الحال إعادة تأسيس الروابط الوجدانية، عن طريق طرح أفكار «الألوهية» و«المقدسات» من جديد، وإصلاح الدين بوصفه تفاعلات طبيعية للحالة الإنسانية، على أن يصحب ذلك نبذ للعلم الواقعي لافتقاره للأسس العلمية السليمة.

إن المطلوب بعبارة أخرى هو نموذج ديني جديد لفهم العالم. وقناعتي أن الأمل معقود على الإسلام في تحقيق ذلك إن شاء الله[١].

أ/ الأديان الشبيهة بلغة الاسبرانتو* لن تجدي شيئاً:

إنني لا أنكر أنه يمكن من الناحية النظرية للمسيحية أن تنقذ الغرب من انحداره

(١) تقل الإسهامات التي تضارع أعمال رودلف أوتو في هذا المضمار.

* الاسبرانتو هي لغة اصطناعية صنعها البشر وليست لغة طبيعية ورائدها هو العالم زمنهوف Zamenhof – المترجم.

الحالي نحو هاوية الهلاك، ولكنني لا أعتقد أن المسيحية يمكن أن تحقق هذا الهدف في الواقع العملي، إذ أن هذه العقيدة فقدت الكثير من مصداقيتها في الغرب. ولا يبدو أن المسيحية تتمتع الآن بذلك القدر من الحيوية الذي تحتاجه لتغير مسارها الحالي. وأجدني في ذات الوقت مقتنعاً بأنه ما من نظام فكري بوسعه أن يرتقي بالمستوى الخلقي للغرب، لا البوذية ولا مذهب الليبرالية التنويرية القائمة على أساس القانون الطبيعي. إن الخيارات الخلقية تتطلب دوافع أخلاقية من القوة بحيث لا تتوفر إلا في دين لا تزال تدب فيه الحياة، وهذا أمر يدركه الإنسان بالفطرة.

إن الأديان الكاذبة أو الأديان الشبيهة بلغة الأسبرانتو لا يمكنها تحقيق المطلوب.

ب / بوسع الإسلام أن يفي بالمطلوب:

أعتقد أن الإسلام يوفر كل ما هو مطلوب لإنقاذ الغرب، على الرغم من السلبيات التي يعاني منها العالم الإسلامي نفسه، مثل مختلف المعوقات والأمراض المتفشية في المجتمع المسلم، كالأمية، والفقر، والفساد، والظلم الاجتماعي، والتعذيب، والجمود، والشقاق، والتعصب، والاستبداد، والتمييز ضد النساء بما يخالف تعاليم القرآن، وتنامي الاتجاهات المادية.

أما كون الإسلام قادراً على إنقاذ الغرب على الرغم من هذه النقائص المتفشية وسط أهله فأمر يمكن الاستدلال عليه من التحليل الذي سيرد في المباحث التالية.

٣- «البرود» يعتري أمريكا:

في مطلع السبعينيات كان جيل الرفض والحيرة وشذاذ المجتمع من الهيبز في المدن يحلمون «باخضرار أمريكا»[(١)]، ولكن ما كنّا نشاهده هو أن أمريكا أخذت «تبرد»

---

(١) انظر الحاشية، ص ١.

شيئاً فشيئاً، وأن درجة حرارة المجتمع في الغرب ظلت تنخفض بصورة ملحوظة وسط جيل السيبر[1] فأينما وقع بصرك رأيت ما يخالف وصية المسيح عليه السلام: «أحبب جارك كما تحب نفسك».

ورأيت أيضاً تنافساً شرساً، وأناساً يتدافعون كل يسعى في سبيل سعادته الفردية في عالمه الخاص كـ (الشرنقة).

أ / الدفء يسري في أوصال أمريكا:

ينظر الناس بعين الإعجاب إلى المسلمين تقديراً لترابطهم الاجتماعي، ويفيض الدفء حال التئام شملهم عندما يعانق الأخ أخاه. وينظر الناس غير مصدقين إلى المراكز الإسلامية التي تبنيها الجمعيات الإسلامية بنفسها، ويتطوع عمال البناء منهم بالعمل خلال عطلة نهاية الأسبوع. وكم من مهتد للإسلام اعتنقه بسبب ما شعر به من صفاء قلوب المسلمين. إن المسلمين يجردون الدين من الخصخصة، وكثير من اليافعين يحبون ذلك.

ب / الترابط العرقي:

إن التعصب العرقي الذي يعاني منه الغرب لا ينحصر في الولايات المتحدة وإسرائيل فحسب، فالمهاجرون المسلمون كثيراً ما يتعرضون للتمييز العرقي والديني. ويتمثل هذا التمييز مثلاً في أخذ معلومات تفصيلية إضافية للركاب منهم من قبل سلطات الأمن بالمطارات.

ولا يمكننا أن نزعم أن الإسلام قد تمكن من القضاء على التمييز العرقي تماماً.. ولكننا نعلن مع جيفري لانغ أنه ليس على الأرض دين آخر بلغ ما بلغه الإسلام في

---

(١) الذي يعيش في العالم الخيالي لشبكات الحاسوب - المترجم.

محاربة هذا الشر[1] .. إن استمرار وجود مساجد السود في أمريكا يمكن أن يعزىٰ إلى موقع المسجد، أكثر منه إلى وجود تفرقة عنصرية. ونسبة لحساسية المعتنقين الجدد للإسلام في بريطانيا وفرنسا وألمانيا لهذا الموضوع فإنهم يرفضون الإغراء المتمثل في تأسيس جمعيات تستند إلى الأصل العرقي. وبدلاً عن ذلك فإنهم يؤسسون اتحادات للمسلمين في بريطانيا وفرنسا وألمانيا ويعقدون الاجتماعات للمسلمين الناطقين بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية. وقد كان عدم أهمية الأصل العرقي عند المساهمين سبباً اجتذب الكثيرين إلى الإسلام فاعتنقوه.

جـ/ مؤمنون أحرار:

يتعامل الشباب في الغرب بنفور شديد مع أشكال السلطة الهرمية (الكهنوتية). وهم يرون أن تحاشي الإسلام للأشكال التنظيمية التي تتسم بها الكنيسة أمر جدير بالملاحظة والاهتمام.

وفي الواقع فإن أي من العبادات المفروضة على المسلم لا تتطلب وجود مسلم آخر ليشهد أداءها. ويمكن لأي فتى بالغ دون العشرين، ويعرف تلاوة القرآن، أن يؤم الناس في الصلاة إذا لم يكن الإمام حاضراً. ويمكن لكل مسلم أن يختار المذهب الذي يريد اتباعه*.

فحامي المسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام في مكة ليس (بابا)، وليس الزواج شعيرة (مقدسة).

وما من شك في أن المسلمين بإنكارهم إمكانية وساطة شخص ثالث عند الله

(١) Jeffrey Lang 1997 P. 154.

* يقصد المذاهب الفقهية – المترجم.

تعالى، يقدمون أنفسهم بوصفهم المؤمنين الذين يتمتعون بأكبر درجة يمكن تصورها من الحرية والانعتاق. لاشيء يمكن أن يتدخل بين المسلم وخالقه، لا كاهن ولا رهبان. وما أن يستوعب الشباب هذه الفكرة حتى تأخذ بمجامع قلوبهم.

د/ اللاعقلانية الدينية:

لا يعتز الغرب بشيء اعتزازه بالعقلانية، وهو ينحاز بطبيعة الحال إلى عالم العقل. وقد علمهم فيلسوف الحَيرة المتناهية في الغرب «أمانويل كانت» أن وجود الله لا سبيل إلى إثباته بالعقل المحض.. إن الاستدلال العقلي هو آخر ما يلجأ إليه الإدراك البشري[1].. ولكن «كانت» أيضاً ظل يرى أن البشرية لا يمكنها المضي دون أن تنصب لها إلهاً يكون نتيجة للتفكير العقلاني[2].. ومن المثير للسخرية أن عدداً كبيراً من الناس يتصرفون الآن كما لو كان «كانت» قد أثبت عدم وجود الله، وكما لو كان العلم القائم على الإدراك الحسي معصوماً من الخطأ.

هـ/ العقلانية الدينية:

على أنه يمكن ببساطة إقناع أنصار المذهب اليقيني بأن العقائد الأساسية للمسيحية مثل الخطيئة الأولى، والحلول الإلهي في عيسى (عليه السلام)، وتكفيره عن الغير (على الصليب)، والثالوث –وفي أفضل الأحوال لا تعدو هذه العقائد على كونها ألغازاً– يسهل إقناع هؤلاء الغيبيين بأن هذه العقائد تتدنى من الناحية العقلية حال مقارنتها بعقيدة التوحيد في الإسلام، أي الصورة النقية لمنطق وحدانية الله وتفرده. وربما يكونون متأثرين في هذه المرحلة بالفكرة التي تستمد من مختلف الظواهر الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية، دليلاً تستبعد على أساسه إلى أقصى حد

(١) Immanuel Kant 1881.

(٢) نفس المرجع.

احتمال عدم وجود الله[1].. ولربما يدركون في نهاية المطاف أن العلم بدوره، وقد أضحى الآن طرحاً أيدلوجيا في حد ذاته، يستند فقط إلى أسس تجريبية[2].

ومنذ ذلك الوقت بدا بعض الناس، بعد أن انتهوا عن وصف الدين بأنه غير عقلاني، بدأوا يدركون أن الإسلام هو الأكثر عقلانية بين كل الأديان، إذ أنه دين من يبصرون ويتفكرون ويتدبرون، وهو ما يتوافق بالتأكيد مع اتجاهات الحداثة الباحثة عن عقلانية الوجود.

و/ التوازن البنيوي:

لا يعد إفراطاً في التشاؤم أن يقال: إن إدمان المخدرات، بما فيها الكحول والنيكوتين، قد وصل إلى معدلات مدمرة في الغرب.

لقد انتشرت المخدرات الآن في كل مكان، من المدارس الثانوية إلى الأنفاق. وقد تفشت المخدرات في أحياء بعض المدن الأمريكية إلى حد جعل رجالاً يلقون أسلحتهم بعد أن يئسوا من إمكانية السيطرة عليها. وفي ظل هذا الوضع فإن المسلمين الملتزمين يمثلون، بما عرفوا به من تيقظ وتوازن شامل، بارقة الأمل الوحيدة في القضاء على المخدرات. وفعلاً كانت عقود مكافحة المخدرات في العديد من المدن الأمريكية الكبيرة من نصيب منظمات إسلامية، بعد أن ثبت أنها وحدها القادرة على محاربة المخدرات بوسائل ودية وفعاله في ذات الوقت. وهي عملية تبدأ من خلف القضبان.

ومن ناحية أخرى بدأ التدخين هذه الأيام يتحول إلى شيء لا يمثل الطابع الأمريكي، بل غدا يعتبر أمراً غير لائق من المنظور السياسي. ألا يجب اعتبار المسلمين محقين بل ووطنيين في مثل هذه الظروف، وهم الذين عرف عنهم قلة التدخين حتى

---

(١) Richard Swinpurn.

(٢) Henry Atlan, Gaston Bachelard.

لا يكاد يشاهد له أثر في أوساطهم؟

س/ الأسرة تحت الجهر:

أخذ الفزع ينتاب المتنبهين من المراقبين في الغرب عند تفكيرهم في ما سيحدث للصغار بسبب انهيار الأسرة. إن فكرة مقدم جيل مريض ترعبهم. وفي ظل هذه الأوضاع، نجد أن المسلمين -وهم يرفعون من شأن الأسرة ويعلون مقامها فوق سائر المؤسسات الاجتماعية- هم أصحاب رسالة يجب أن يصغي لها الجميع: إن تصدع الحضارات يبدأ وينتهي عند مستوى الأسرة.

ح/ خيار الحياة:

نجد أن كثيراً من المحافظين في أمريكا وأوربا منزعجون من كون الإجهاض قد أصبح مقنناً في كل مكان تقريباً. وفي ألمانيا وصل الأمر إلى أن يدافع الأساقفة الكاثوليك عن الوظائف الإدارية التي يؤدونها في عملية الترخيص بالإجهاض. أما الإسلام فلا يجيز الإجهاض إلا إذا كان هناك خطر مؤكد يحدق بحياة الأم، فيقدم بذلك حلاً وسطاً خلقياً. أو ليس أجدى للمحافظين في الغرب أن يتحالفوا مع الإسلام من أن يفجروا عيادات الإجهاض؟

ط/ لا تشدد ولا إباحية:

يبدو أن الغرب ظل منذ زمن الرسل[*]، بطرس، وبولس، والراديكالي أُغسطين، يتردد بين تيارين، أحدهما متشدد يدعو إلى اعتبار النساء شياطين، والثاني يدعو إلى الانغماس في الملذات الجنسية دون ضابط ولا رقيب ولا حياء. بينما نجد أن الإسلام قد ساعد على دمج النشاط الجنسي في حياة المسلم باعتباره شكلاً من أشكال العبادة

(١) رسل بمعنى دعاة ومبشرين في المصطلح المسيحي وليس بمعنى أنبياء - المترجم.

دون تشنيع بالنساء أو بالزواج ودون الغلو في تقديس الزواج. هذا النهج المتوازن، الذي يأخذ بعين الاعتبار فطرة الإنسان، يفسر لنا لماذا ظلت الرهبنة وحرق الساحرات ظواهر مقتصرة على الغرب.. ويمكن للتميز الذي يتمتع به الإسلام في هذا الجانب الشديد الأهمية بوصفه ديناً وسطاً، أن يعني الكثير بالنسبة للمجتمع الغربي.

ي / تحرير المرأة المسلمة:

إن المرأة الغربية لا تنشد التحرير والعدالة الاجتماعية وتحقيق الذات فحسب، بل تطالب بوضع حد للاستغلال الجنسي الذي تتعرض له بوصفها أداة للمتعة. ونظراً لما آلت إليه الحال من وجود مستمر للمواد الإعلامية الجنسية والسيطرة الصريحة للعامل الجنسي على الإعلانات التجارية، فقد يصبح من الواضح في الغرب أن النساء المسلمات يسعين للحصول على ذات النتائج التي تبتغيها المرأة الغربية، ولكن المسلمة في مسعاها هذا أكثر نجاحاً بكثير من الغربيات في صون كرامتها من خلال التمسك بتعاليم الشرع الإسلامي.

ك / التصدي للشذوذ الجنسي:

ما من شك في أن تفشي الشذوذ الجنسي في أي مجتمع هو دليل على التفسخ الحضاري لذلك المجتمع، وإنذار مبكر ينبئ بأن الحضارة آخذة في الانحطاط. وفي الغرب لا يعتبر الشواذ جنسياً والسحاقيات أناساً منحرفين بل يعتبر توجههم هذا واحداً من خيارات متعددة، كل منها يصلح بنفس الدرجة ليكون خطاً يتبعه الفرد خلال مسيرة حياته. ويقوم الشواذ جنسياً بترويج «خيارهم» هذا على نحو يتسم بالعدوانية، وهم في ذلك يطلبون الاعتراف ويحصلون عليه بوصفهم أقلية تحتاج إلى الحماية، كالنساء والسود. وفي سان فرانسيسكو بأمريكا تحول سكان اثنين من أحياء المدينة بكل من فيها إلى شواذ جنسياً. أما في أوربا فقد أوشك الشواذ على الحصول

على «حق» الزواج، ومن ثم التمتع بكل الحقوق المترتبة عليه.

وفي ظل هذا الواقع تبدأ الأغلبية «المستقيمة» من المجتمع في الاستعداد للمواجهة وقد انتابها الخوف على مؤسسة الزواج، وربما لاحظوا أن الإسلام في هذا المضمار أيضاً يسلك طريقاً وسطاً: حين يتعاطف مع «المولودين» بميول جنسية مثلية ولكنه يرفض في ذات الوقت بإحلال الشذوذ أو المثلية الجنسية لتكون أسلوباً بديلاً للحياة.

وغني عن القول: إن الإسلام إذا طبق تطبيقاً سليماً يكون علاجاً للمخاطر الفتاكة الناشئة عن مرض الإيدز[١].

ل / مشكلة زيادة الوزن:

يعاني الإنسان الغربي من القلق بسبب خوفه من زيادة الوزن وارتفاع معدلات الكوليسترول في دمه - لذا فهو في بحث دائم عن وصفات تنظيم الغذاء والأدوية «السحرية» للسمنة.. أما آن لهؤلاء أن يفهموا الإسلام كدين مقنع عند اكتشافهم لفريضة الصوم وقواعدها؟

م / التعايش مع ضغوط الحياة:

يرزح الإنسان الغربي تحت وطأة الضغوط ولا ينجو منها حتى أطفال المدارس والمسافرين لقضاء عطلاتهم. لذا يبقى هناك احتمال أن يزور الإنسان الغربي طبيب الأمراض النفسية والعصبية لكي يتعلم كيف يواكب ظروف حياته. إن التأمل الفلسفي (يوغا)، ومراسم تقديم الشاي الياباني، تعتبر بعضاً من الوسائل التي يرجع إليها الأفراد الذين يشكون من وطأة الضغوط. إن أمثال هؤلاء يمكن أن يجدوا الدواء

---

(١) Malik Badri.

الشافي لعلتهم في أسلوب التركيز والتدبر المنتظم الذي تنطوي عليه صلاة المسلمين والحالة العقلية التي تصحبها (الإسلام هو الاستسلام لله تعالى، والتقوى هي إدراكنا لإحاطته -عز وجل- بنا) .

ن / تفعيل الرأسمالية :

ظل المجتمع الغربي منذ ظهور الرأسمالية والاشتراكية يتردد بين النظامين. أما المسلمون فالقرآن يدعوهم إلى احترام حق الملكية الفردية، لذا فهم بطبيعة الحال مناهضون لمبدأ الجماعية ولكنهم أيضاً يرفضون النزعة الاستغلالية التي تتسم بها الرأسمالية، وذلك بتمسكهم بمبدأ العدالة الاجتماعية تحت كل الظروف. ويتمسك المسلمون أيضاً باستخدام رأس المال فقط في صيغ الشراكة التي تحتمل الربح والخسارة، دون معاملات ربوية[١] وهم بذلك يساعدون في الدفاع عن الروح الاستثمارية التي تعتبر حيويتها أساساً تقوم عليه الرأسمالية (وبفقدانها يصاب النظام الرأسمالي بالتشبع والركود)[٢].

٤- الكم مقابل الكيف :

يمكن للمسلمين على العموم أن ينبهوا شركاءهم في الغرب إلى أن أهم فرق بين عالميهم هو موقف كل منهما من مسألة الكم والكيف. فمن الواضح أن الغرب يهتم بالجوانب الكمية إلى الحد الذي جعلهم لا يدعون شيئاً ذا قيمة (مالية) حقيقية إلا وحسبوه بالمعايير الكمية، أي جعلوه رقمياً. وهناك إنكار عام في الغرب لوجود أية قيم لا يمكن حسابها بالمعايير الكمية، أو وجود أشياء لها قيم روحية فحسب. وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن الأساس في حياة الإنسان الغربي هو ما يملك، في حين أن

(١) Khurshid Ahmed.

(٢) Umer Chapra, 1985, 1992.

حياة المسلم توجه اهتمامه إلى حياته وكينونته[1].. إن الشرق، بما فيه العالم الإسلامي، على الرغم مما يخضع له من سيطرة في هذا الجانب، لا يزال يمثل المنطقة التي يعلي فيها الناس من شأن النواحي الكيفية (أو النوعية) في كثير من جوانب حياتهم ويعتبرونها أعلى قدراً من الجوانب الكمية، ولا ريب في أن هذه الحقيقة، أي كون الإسلام يهتم بالتحديد بنوعية الحياة، سوف تثير انتباه الكثيرين.

٥- الإسلام هو الحل:

لقد تعرضت فيما سبق إلى أربعة عشر علاجاً يمنحها الإسلام للغرب، وتقديم الإسلام على هذا النحو، أي بوصفه علاجاً لكثير من علل الحضارة الغربية، هو بالطبع الاستراتيجية المثلى للدعوة لدين الله.

أ/ الاعتراف بوجود المرضى:

من المعروف أن العلاج لا يوفر لمريض ما لم يعترف هو أولاً بوجود المرض. ولكن للأسف، على الرغم من التحليلات الذكية مثل كتابات داني بيل ووليم أوفلس، فإن القليل من الغربيين يدركون فداحة الأزمة الحضارية التي تمر بها بلادهم.. فأغلب أهل الغرب قد أعماهم غرور المباهاة بالانتصار. لذا فمن المتوقع من الناس تغيير اتجاههم في منتصف الطريق ولكنهم ماضون قدماً في غيهم يعمهون.

ب/ تناول حبة الدواء:

إن مجرد الاعتراف بالمرض لا يكفي لعلاج المريض، بل يتعين عليه تناول الدواء الموصوف والموضوع على المائدة إلى جانبه. إن جزءاً من المشكلة التي يواجهها الغرب تتمثل في أنه، وللأسف، غير قادر على متابعة التبصر الذي يعينه على التطبيق. إن

(١) William Ophuls P. 47.

تخاذل الغرب عن التصرف أو تأخره في ذلك خلال فترة ارتكاب الصرب لفظائعهم في البوسنة والهرسك وكوسوفا، نتيجة لسقوطه الخلقي أيضاً، كان شاهداً على هذا الوضع. وقد أصاب رومان هرزوغ رئيس ألمانيا الاتحادية من ١٩٩٤ – ١٩٩٩م، إذ قال: «إن مشكلتنا ليست معرفية، بل هي مشكلة تطبيق».

جـ/ علامات على الجدران:

يحدثنا القرآن عن أقوام كثيرين أخفقوا في فهم أعراضٍ ظهرت داخل مجتمعاتهم، وعرضوا عن كل النذر حتى تهاوت حضاراتهم على نحو مأساوي. وإني لفي ريبة من أمر هذا البرود الذي اعترى الغرب، وأظن أنه بدوره سوف يعجز عن استجماع الشجاعة الكافية لإحداث إصلاحات جذرية.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الغرب، رغم انتصاره على الشيوعية، قد يكون هو نفسه في طريقه إلى زوال في هوجة سكر يدمر فيها نفسه.. فهو ضحية لتناقضاته الداخلية وأكثرها فتكاً هو الشرك، وذلك بتأليهه للبشر. إن حدوث كل ما ذكرناه هو أمر محتوم ما لم يعترف الغرب مرة أخرى بالمقدسات والحقائق الغيبية، ويؤمن بالله، ويبدأ من جديد في العيش وفقاً للقيم المطلقة والهدي الرباني، الذي بُلّغ للبشرية في القرآن المبين، وعززته سنة خاتم النبيين ﷺ.

في استشفاف عالم الغد

منير شفيق*

الدور الحضاري للأمة المسلمة يتجلى حين توضع في موضع القدوة الحسنة على مستوى العالمين، وتقدم بديلاً إيجابيًا، مقابل ما يواجه العالم من مشكلات كبرى، من أخطرها: تكريس ثقافة الانحلال واحتقار كل ما له صلة بالأخلاق.

يظل كل حديث عن الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، كما كل مشروع للعمل أو كل استراتيجية يراد منهما أن يؤثرا في واقع الغد، ضربًا من ضروب التدخل في شؤون الغيب، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، فالغد دائمًا في حكم الغيب، هذا من حيث المبدأ والأساس، وهذا ما يستدعي أن نكون شديدي الحذر والتحوط عند ولوج هذا الطريق، ولكن الذي يسمح بأن يجترئ المرء على التوقع المستقبلي أو استشفاف بعض ما سيحمله الغد إنما هي السنن، التي وضعها عالم الغيب تبارك وتعالى في الإنسان، وفي الآفاق، وفي الكون والمجتمعات.. فما دام الحراك في المادة يتم عبر السنن التي وضعها الله فيها ولها، فهذا يعني إمكان توقع الحراك القادم، بهذا القدر أو ذاك، وبإذن الله، من خلال معرفة السنن الحاكمة لهذا الحراك.

---

* باحث.. كاتب.. *(فلسطين)*.

وما دامت ولادة الظواهر الجديدة أو المكونات الجديدة تتمان عبر سنن تمسك بالأسباب والنتائج، فهذا يعني إمكان إعادة توليد الظاهرة أو مكونات محددة اعتماداً على تلك السنن والأسباب والنتائج، أي تدخل في شؤون الغد، استناداً إلى سنن الله سبحانه وتعالى وتسليماً لمشيئته أن يسمح بالتكرار للحراك أو الظاهرة، بالمعنيين الآلي البسيط أو المركب المعقد، يقول الله جل جلاله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٦٢).

إن خلق العقل مع خلق الإنسان وجعله إنساناً عاقلاً يعني عند التأمل في حكمة الخلق وجلاله وعظمته، أن يمتلك الإنسان القدرة على الخروج من عالم الغريزة إلى عالم الفعل الواعي، أو قل أن يذهب بعقله لمعرفة السنن في الطبيعة والمادة كما في نفسه ومجتمعاته، وهي معرفة حين تتم بصورة صحيحة، تجعل الإنسان قادراً على صنع الآلة واستخدامها وإحداث التغيير الواعي عبر إدراك السنن ومجاراتها، ولكن يظل ذلك دائماً مرهوناً بإذن الله.

ومن ثم يكون الشرط عند تدخل المسلم في عملية التغيير الواعي، أن يكون شديد الحذر والتحوط، لأن ما يمكن أن تحمله العملية في غدٍ، سواء أكانت توقعاً لحركة المادة أو المجتمع أم كانت تدخلاً للتأثير في تلك الحركة، يظل رهناً بمشيئة الله تعالى، الذي إن أراد جرت سننه على ما خبرنا وعرفنا، وإن أراد تدخل مما يغير في مجرياتها.. ولكن هذا الحذر وذلك التحوط، وهما من الإيمان، ما ينبغي لهما أن يقعدا المسلم عن البحث في معرفة السنن، والسعي لامتلاك القدرة على التغيير، أو عن الانكباب في محاولة استشفاف توقعات يحملها غد استناداً إلى السنن الجارية، فهذا من الإيمان، أيضاً لأنه تعاط مع سنن الله، وامتثال لما جاء في النص أو في الفقه من حث على التأمل والتفكر والعلم والعمل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ...﴾ (فصلت:٥٣).

ثمة نقطة في هذا السياق تحتاج إلى إثارة عاجلة، وهي ضرورة التفريق بين السنن الحاكمة في عالم المادة والحياة العضوية، وتلك السنن الحاكمة في الإنسان فرداً ومجتمعات.. فالسنن الأولى أي المتعلقة بعالم المادة والحياة العضوية، عدا ما يجري في الدماغ، ربما أقل تعقيداً وأسهل تناولاً وتدخلاً من تلك السنن الخاصة بالإنسان والمجتمعات وما يحفهما من مشكلات وقضايا.

ولعل السبب الأساس في هذا التفريق النوعي يعود إلى عنصري الوعي والإرادة، فضلاً عن مجموعة العناصر المادية والمعنوية، الموضوعية والذاتية، في عالم الحراك الإنساني والتدافع البشري، فالسنن هنا لا تعمل مثل مثيلاتها في المادة الصماء أو الحياة العضوية الغريزية إلا في حدود ضيقة، وفي بعض المجالات أكثر من بعضها الآخر، ولكن حتى ضمن هذه الحدود وتلك المجالات يبقى تدخل الوعي والإرادة حاضراً.. والأهم يبقى تداخل مجموعة كبيرة من العناصر المؤثرة في الظاهرة الواحدة وحركتها سمة مميزة فريدة، تجعل الإمساك بالسنن الحاكمة في الحياة الإنسانية مسألة شديدة التعقيد، وأحيانًا تصل إلى حد بعيد المنال إلى ما يقرب من المحال، الأمر الذي يجعل التحكم بالحراك الإنساني أو حتى إجراء توقعات مستقبلية أمرين معقدين جداً يحفهما خطر الوقوع في الخطأ والزلل جنبًا وخلفًا.

ولهذا يتسم كل تناول للدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد بقدر مقدر من المغامرة، التي تحف كل اقتراب من مجهول وغير مسبوق.. فالمجهول هنا آت من تعدد الاحتمالات التي يحملها الغد، إيجابًا وسلبًا، على كل طرف من أطراف التدافع الإنساني العام، ولا سيما تلك الاحتمالات التي قد تجابهك وهي خارجة عن فعلك وتأثيرك.

أما غير المسبوق فمأتاه أن الحاضر والمستقبل اللذين يواجههما أي مشروع حضاري، حتى ولو كان مثل المشروع الإسلامي ذي التاريخ العريق والتجارب السابقة،

يتشكلان من عناصر وأطراف صراع غير مسبوقة من نواح عدة، الأمر الذي يشكل معادلات في الصراع ذات جدة، بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وقد تخرج بألوان من التدافع العسكري والاقتصادي والسياسي والثقافي والحضاري غير مسبوقة نوعًا وكمًا وميزان قوى.

ولا يغير من هذه الحقيقة ما يحف التدافع الإنساني من ثوابت عبر التاريخ، بل إن تجليات تلك الثوابت لا يمكن أن ينظر إليها بأنها هي نفسها إلا من حيث الجواهر، ولكن التجلي والشكل هنا يعطيان التدافع جدة وخصوصية أبدًا، وهذا من سنن الله تبارك وتعالى في الإنسان والمجتمعات وهو ما يمكن أن نقرأه في أنفسنا والآفاق إذا ما أمعنا في التاريخ وتبدل الأحوال وتغير المكان والزمان: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

كيف يبنى توقع مستقبلي؟

ربما لجأ البعض إلى قراءة المستقبل القريب والمتوسط استنادًا لنص في القرآن أو السنة، وهي نصوص لا يجوز تطبيقها على مجموعة من الناس محددة بعينها أو على شخص بعينه أو على حقبة تاريخية بذاتها، أو على تدافع ما أو ظاهرة ما، إلا إذا حدث الأمر وانتهى وأصبح واقعة تاريخية، أي انتهى، وبهذا يمكن أن يستند إلى النص. أما عدا ذلك فثمة تعريض للنص (للكذب) والعياذ بالله، حين يطبق على شخص بعينه كأن يقال مثلاً: فلان هو المهدي، أو يقال: أولئك هم الذين يقصدهم النص.. ومن ثم تأتي الوقائع القاسية، أو الرحيمة، لتكذب هذا التطبيق.. طبعًا الذنب هنا يقع على من طبق النص، والنص من ذلك براء.

ولهذا يجب أن يبقى النص في مثل هذه الحالات عامًا غير مقيد بزمان أو مكان أو شخوص أو جماعات، أو وقائع أو ظواهر معينة. هذا ما يجب أن يتنبه إليه من

يتعاملون مع علامات نهاية العالم أو مجيء الآخرة حين يستدلون بعلامات تظهر في عصرهم وزمانهم ومكانهم بأنها هي تلك ، أما في الحقيقة فقد شبه لهم.

من هنا إذا كان الحديث عن المستقبل عامًا مطردًا غير مقيد بزمان ومكان وأفراد وقوم بعينهم، صح اللجوء إلى ما في النص من رؤى أو توقعات مستقبلية، وهذا أمر من الإيمان، حيث يتقيد بعموميته، دون تطبيقه على حالات محددة، وإلا كان العكس، تخمينًا بعيدًا عن القطع واليقين.

على أن محاولة قراءة عالم الغد ضمن حدود مستقبل قريب أو متوسط، وعلى الرغم مما يحمله ذلك دائمًا من مخاطرة ومغامرة على مستوى الفكر والمشروع، فإنها ممكنة أومشروعة إذا ما استندت إلى قراءة تاريخية دقيقة للسنن العامة، ثم إذا ما اعتمدت قراءة علمية دقيقة لوقائع الحاضر واتجاهات حركته وموازين قواه، ورجّح احتمالٌ أو أكثر من بين عدة احتمالات لنتائج التدافع في مختلف المجالات، لكن مع ذلك يجب أن يظل الحذر والتحوط مصاحبين لمخاطر القراءة المستقبلية أو لاستراتيجية نضعها للتأثير في المتغيرات الآتية، كما يجب قبل هذا أو ذاك ألا ننسى أن فوق كل ذي علم عليم، وأن فوق السنن واضعها ومدبر جريانها والمتحكم في تعرجاتها، فرياح التغيير سلبًا أو إيجابًا، قد تأتي من حيث لا نحتسب، وحسبنا أن نتذكر دائمًا أن للعقل محدوديته، ولميزان التقدير اختلالاته، وأن الأعمار والأقدار بيد الله.

أما إذا وضعنا كل ذلك في الحسبان، فإن من الممكن بل الضروري أن نركب هذا المركب الصعب في تناول الدورالحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، كما محاولة التعرض للإمكان الحضاري للأمة، والأهم لتقديم رؤية استراتيجية لكيفية استرداد دورها في الشهادة على الناس والقيادة لهم وإلحاق الرحمة بهم، والمساهمة في معالجة أزمة الحضارة المعاصرة، وهو ما سعى مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، الوصول إليه بين دفتي هذ الكتاب الجامع.

وإنه لطموح، أي طموح! بل إنه الطموح لو اطلع عليه أحد من غير المسلمين في العالم، ولا سيما من قادة الدول الغربية، لأمسك بشعر رأسه يشده شداً وهو يصرخ: كيف يفكر هؤلاء وأمتهم على الحال التي هي عليه والعالم من حولهم على الحال الذي هو عليه، فنظرة سريعة إلى موازين القوى العسكرية أو إلى القدرات المالية والاقتصادية والتنظيمية والتعبوية، أو إلى العلوم والتقنية والإعلام وثورة الاتصالات.. وإلى ما هناك من المقومات التي تسمح لأمة ما بأن تحتل موقع القيادة في العالم أو موقعًا مرموقًا بين مواقع لأمم أخرى في قيادة العالم.

لا شك في أن قراءة الواقع العالمي ضمن معطياته الراهنة، واتجاهات حراكه كما تبدو على السطح عمومًا، لا تسمح بوجود حتى معقولية في نظر غير المسلم، ولا سيما القوى المسيطرة أو المسحوقة، لطرح مثل هذه الأسئلة، ومثل هذالطموح الذي يعتبر أن الإجابة عن تلك الأسئلة يجب أن تكون بالإيجاب، ولا يبقى إلا أن نعرف كيف نحقق ذلك؟

لا شك في أن الطموح هنا يستند إلى أهلية الإسلام، من حيث هو إسلام قرآنًا وسنة وفقهًا وحضارة وتجربة تاريخية، بأن يضطلع بدور الريادة، بل واجب المسلمين أن يجعلوه دائمًا في موقع الريادة في التطبيق العملي.. كما يمكن أن يستند إلى مجموعة عناصر الإمكان أو القوة الكامنة في الأمة الإسلامية وحركتها المستقبلية، إذ أصبحنا نتحدث عن ألف وخمسمائة مليون إنسان، وفي غد سنتحدث عن آلاف من ملايين المسلمين وإذا كان الخير في أمة محمد ﷺ فكيف حين تصبح هذه الأمة الغالبية الغالبة من البشر؟ ومن ثم إن النظر إلى الخريطة الجغرافية لهذه الآلاف من الملايين، كما الخريطة السياسية، والخريطة المتعلقة بالإمكانات المادية والثروات الكامنة في الأرض والأخرى المتوفرة الآن، كما النظر في اتجاهات النمو التعليمي، ناهيك عن تصاعد وتيرة الصحوة الإسلامية نفسها، فذلك كله يسمح أيضًا بأن يحمل ذلك

الطموح وتطرح تلك الأسئلة باعتبار أن الإجابة الإيجابية عنها مسألة لها ما يسوغها.

لكن ما أن ننتقل من الاستناد إلى أهلية الإسلام من حيث هو إسلام، ومن الاستناد إلى ما هو كامن في الأمة إلى البحث في إمكان تحقق ذلك في مستقبل قريب أو متوسط، ولنصطلح على القريب بعشرين سنة وعلى المتوسط بخمسين سنة، أو إلى البحث في كيفية تحقيق ذلك أو في الاستراتيجية التي يمكن أن تؤدي إليه، فإننا نبدأ بركوب المخاطرة وندخل في التعقيد ومن ثم الحاجة إلى الحذر والتحوط، وبالمناسبة يجب أن نعتبر عشرين سنة أو خمسين سنة ليستا شيئًا في عمر الشعوب والحضارات والتدافع العالمي، على الرغم من أنهما على مستوى الإنسان الفرد تشكلان آماداً طويلة، مما يولد في هذا الإنسان الضعيف العجول ألوانًا من الفزع واليأس.

وهذا ما يجب ألا نسمح له بأن يشغب على برودة أعصابنا ونحن نقدر موازين القوى ومعادلات الصراع واحتمالات المستقبل القريب والمتوسط ضمن عشرات السنين القليلة آنفة الذكر، فإذا كانت القراءة المتعلقة ببحث إمكان تحقيق الإمكان أو بحث استراتيجية تحقيق الهدف تقود إلى رؤية واستراتيجية تتسمان بطول النفس وطول الأمد، فإن من الخلل أن يعيل صبرنا ويضيق صدرنا فنرى عشرين سنة أو خمسين سنة أمداً طويلاً، وإنما يجب أن نوطن أنفسنا على استراتيجية طويلة النفس والأمد، ولكن مع دعاء دائم أن يجعل الله البعيد قريبًا والعسير يسيراً.

أين مكمن الخلل في واقع الأمة؟

يتجه الكثيرون –إن لم يكونوا الأكثرية الكاثرة– من أصحاب الإجابة عن السؤال: أين مكمن الخلل في واقع الأمة؟ إلى رؤيته فيما يمكن تسميه عمومًا بالعامل الذاتي في الأمة، أي في الوعي، أو في العقيدة، أو في التربية، أو في الأخلاق، أو في «جمود الفكر و الفقه»، أو في البنى الاجتماعية الأساسية، بما في ذلك بنية القبيلة والعشيرة والعائلة والنظرة إلى المرأة وما إلى ما هنالك من مدارس، ولا يختلف في وضع

الإشكال الأساسي في هذا العامل الذاتي أو ذاك كثير من الإسلاميين والعلمانيين، وإن اختلفوا في العلاج.. فبينما يرى الإسلاميون -على اختلاف في البرامج- الجواب بالعودة إلى الإسلام، يرى العلمانيون -وهم أطياف متعددة- الجواب بالأخذ بالتغريب والعلمنة والحداثة، وتهديم البنى التقليدية وبناء مجتمع مدني حديث ودولة حديثة..

ويشتهر هنا الجواب المدوي «لا تلقوا المسؤولية على مشجب الآخر أو الخارج، وابحثوا في أنفسكم فأنتم المسؤولون»، لتبدأ المعركة مع الذات، أي مع هذا العامل الذاتي أو ذاك، على اختلاف المرجعية والبرامج، ولا يبالغ المرء إذا قال: إن أغلبية الحكام والسياسيين والمصلحين والباحثين في مشاكل الأمة وهمومها والعاملين على التغيير يقولون بهذا الجواب ما أن يسمعوا بحديث آخر ، ولا سيما إذا أخذ الحديث بتناول إشكال النظام العالمي السائد ودوره في التحكم إلى هذا الحد، أو ذاك، بهذا بالبلد أو ذاك، أو في إجهاض حركة نهضة أو محاولة وحدة أو حتى محاولة تضامن، أما الذين يعطون لعامل النظام العالمي السائد دوراً هاماً أو ربما أولياً فهم قلة، أو على الأقل أصبحوا في هذه الأيام -زمن العولمة- قلة أكثر من أي يوم مضى.

ليس من موضوع هذه المقالة أن تناقش الآراء المختلفة في تحديد الخلل الأشد تأثيراً في واقع الأمة ومستقبلها، وإنما تطرح تشخيصها لهذه المسألة باعتبار ذلك الخطوة الأولى الضرورية في تحديد الاستراتيجية بعد تحديد مرجعيتك العقدية والفكرية وانحيازك الأساس وأهدافك النهائية.

عندما تكون أمة في حالة من الضعف والتفكك والتدهور في أغلب المجالات، يصبح من المشروع البحث في أسباب ذلك ومن ثم محاولة وضع استراتيجية لمعالجة تلك الأسباب والانتقال إلى حالة النهوض، ولكن ليس من السهل أن تحدد بالدقة الكافية تلك الأسباب، ولا سيما عند تحديد السبب الأول أو السببين الأولين أو الأسباب

الثلاثة الأولىٰ التي يمكن وضعها في منزلة الأولوية، لأنك كيفما وضعت يدك ستجد سببًا يمكن أن تعزو إليه أساس المشكل، وهذا يفسر ظاهرة التعدد الهائل في الاجتهادات في هذا المجال، ومن ثم ما يؤدي إليه كل اجتهاد من مشروع عمل أو استراتيجية عمل.

يجب أن يلحظ في هذا الصدد أن أغلب الأسباب التي يمكن أن يشار إليها هي ذات وجاهة، وثمة حاجة إلى معالجتها في عملية الإنهاض، ولكن المشكل في أنها ليست على مستوى واحد من حيث الدور فيما آلت إليه الأوضاع، أو من حيث الدور عند المعالجة في التأثير في عملية النهوض، ولهذا نرى أن تحديد الأولوية بين أسباب تدهور الأوضاع هو الذي يميز تحليلاً عن آخر واجتهاداً عن آخر، علمًا أن التمايز في هذا الصدد لا يلغي اعتراف كل تحليل بالأسباب الأخرى، إلا أنه لا يعطيها من جهة الأولوية، وليس الأهمية من حيث الأساس، المستوىٰ نفسه أو القدر ذاته.

تتبنى هذه المقالة بوضوح الاجتهاد القائل: إن عاملي النظام العالمي السائد، والتجزئة القومية على مستوى الأمة الإسلامية (والقطرية على مستوى الأمة العربية)، هما العاملان الأشد تأثيراً في الوضع الراهن للأمة، وهما العائقان الأشد عرقلة في وجه أن تستعيد الأمة دورها الحضاري الريادي، ومن ثم فإن كل مشروع عمل أو استراتيجية، لا يضعان معالجة هذين العاملين في صلبهما، إنما يصلحان جزئيًا بعض ما هو مطلوب عمله ولكن لا يغيران تغييراً جوهريًا في معادلة التدهور القائمة.

إن إبقاء عامل النظام العالمي السائد «ومن ضمنه الحركة الصيونية العالمية والدولة العبرية» يفعل فعله كما يشاء في التأثير في أوضاع الأمة على مستوى ميزان القوى، كما على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية والإعلامية والعلمية والتقنية، يعني أن الوضع العام في الأمة سيزداد تبعية ومن ثم سيزداد تدهوراً وتخلفًا

وتمزقًا وانحطاطًا، كما أن إبقاء عامل التجزئة الذي تولدت عنه دول قومية على المستوى الإسلامي العام ودول قطرية على المستوى العربي، ليفعل فعله ضمن حدود المصلحة الضيقة ومقتضيات الجغرافيا السياسية لكل دولة، وتفضيل العلاقة بالخارج على العلاقات البينية الداخلية فيما بين الأشقاء، بسبب ما يحف تلك العلاقة من عوامل الريبة والحذر، ومن تناقضات حدودية ومنافسات على القيادة والزعامة وغير ذلك مما يطول ذكره، يعني أن الوضع العام في الأمة سيزداد تمزقًا وفرقة وتبعية، ويمضي ليشل بعضه كما رأينا من خلال تجربة النصف الثاني للقرن العشرين.

النظام العالمي السائد

لو وضعنا جانبًا تلك الموضوعة المتهافتة التي تقلل إلى الحد الأقصى من أهمية تأثير القوى العالمية المتحكمة بالنظام العالمي السائد في أوضاع كل بلد من بلداننا الإسلامية، تحت حجة أن إعطاء أهمية أولى أو ثانية لهذا العامل في التأثير في أوضاع الأمة يعني «إعفاء أنفسنا من المسؤولية وإلقاء أخطائنا على مشجب الخارج».

ولما لم يكن هناك من يريد أو يجرؤ على إعفاء أنفسنا من المسؤولية أو التنصل من أخطائنا بإلقاء المسؤولية على مشجب الخارج ، فلا بد له من أن يستسلم أمام هذه الموضوعة التي أصبحت بمثابة سيف إرهاب، وإلا اتهم بتلكما التهمتين. ولكن أين موضوع دور العامل الخارجي، وعلى التحديد القوى الدولية الكبرى واستراتيجياتها العالمية، وعملها ضمن نظام عالمي فرضته منذ عشرات العقود (منذ قرنين تقريبًا) ليخدم مصالحها واستراتيجياتها، وذلك من خلال تقويم علمي موضوعي بمعزل عن إلقاء المسؤولية على من؟ أي نقرأ الواقع العالمي قبل حشر أنفسنا في الموضوع.

هذه الأساطيل العسكرية التي سيطرت على البحار والمحيطات منذ مائتي عام، وتلك الحملات العسكرية التي اقتحمت أغلب بقاع العالم وحولت معظم بلدانه إلى

مستعمرات، وتلك السياسات التي تحكمت في بناء دول المستعمرات وأنظمتها الاقتصادية والثقافية والتعليمية والاجتماعية، وهاتيك الأنظمة التي تحكمت في التجارة العالمية والمواصلات، وأقامت احتكاراً على العلوم والتكنولوجيا، ثم قاتلت باستماتة، وبقوة السلاح، وبكل ما تملك من قوى لإبقاء سيطرتها على المستعمرات.

وعندما كان لا بد للنظام العالمي الذي اتسم بوجود حفنة من الدول الاستعمارية تتحكم بغالبية بلدان العالم بعد تحويلها إلى مستعمرات، من أن يسلم باستقلال تلك المستعمرات الواحدة بعد الأخرى، إلا أنه حافظ على سيطرته العسكرية العالمية وانتشار أساطيله وقواعده العسكرية لتغطية البحار والمحيطات والأجواء وأهم النقاط الاستراتيجية، كما حافظ على النظام الاقتصادي العالمي الذي استمر بنهب المستعمرات التي أصبحت «العالم الثالث»، واستمر بالتحكم بالتجارة الدولية وحركة رؤوس الأموال وبتحديد شروط القروض، وبالتحكم في انتقال التكنولوجيا، وبقي قادراً على فرض الحصار السياسي والاقتصادي والإعلامي على هذه الدولة أو تلك أو مجموعة الدول، وأبقى التدخل العسكري المباشر وغير المباشر على الأجندة دون انقطاع.

إن من لا يقرأ تاريخ العالم خلال مائتي السنة الماضية، ومن لا يقرأ آليات عمل النظام العالمي السائد اقتصاديًا وسياسيًا وإعلاميًا، وإن من لا يقرأ اليوم الشروط التي يضعها كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي على دولنا العربية والإسلامية أو على دول العالم الثالث، بل على روسيا نفسها، ومن لا يدرك ماذا يجري من ضغوط سياسية واقتصادية وغيرها على تلك الدول، من قبل الدول الكبرى لا سيما أمريكا في هذه المرحلة، ومن لا يأخذ بالعبر من معنى فرض الحصار أو المقاطعة الاقتصادية من قبل أمريكا على عشرات البلدان والشركات، يحق لهذا القارئ العتيد لأوضاع الأمة أو للنظام العالمي السائد أن يشمئز من كل إشارة إلى دور العامل الخارجي وخطورة تأثيره في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل المنظور... لماذا؟ لأننا إذا

تناولناه بكل الموضوعية الممكنة ووضعناه ضمن أشد الموازين حساسية، وكانت النتيجة بأن تأثيره كبير وكبير جداً، فهل نكون قد عفونا أنفسنا من المسؤولية وألقينا أخطاءنا على مشجب الخارج؟

وهذان أمران مختلفان جدًا، طبيعة ومجالاً، فالأول بحث موضوعي علمي معرفي في قراءة النظام العالمي السائد، واستراتيجيات القوى المتحكمة فيه، وتأثيراتهما في بلدان العالم الثالث عمومًا أو في هذا البلد أو ذاك. إنه بحث في موازين القوى ولا علاقة له بمقولة على من نضع المسؤولية، أو بالتهرب من المسؤولية الشخصية، لأن هذه وتلك يجب أن تحددا ضمن مستويات أخرى وفي مقدمتها كيفية معالجتنا لإشكال النظام العالمي السائد واستراتيجيات القوى المتحكمة به، ولهذا فليطمئن الذين يخافون أن نعفي أنفسنا من المسؤولية، لأن ما يقع على عاتقنا من مسؤولية سيظل عظيمًا حتى لو قلنا: إن العالم الخارجي لعب ويلعب دوراً حاسمًا وأساسيًا فيما نحن عليه من أوضاع.

التجزئة.. والدولة القومية والقطرية

أما العامل الثاني والذي قد يفوق العامل الأول من حيث الخطورة في التأثير في أوضاع الأمة أو قد يوازيه، أو يأتي بعده مباشرة من حيث الأهمية، فهو عامل التجزئة وتشكُّل الدولة القومية على مستوى أغلب الدول الإسلامية والدولة العربية القطرية على مستوى البلاد العربية.

فعلى الرغم من أن كثيراً من هذه التجزئة الحديثة ولدت ضمن عامل التدخل الخارجي المباشر -على سبيل المثال: اتفاقية «سايكس بيكو» أو اتفاقية «باريس»- وعلى الرغم من أن بعضها جاء في إطار عوامل تاريخية متعددة، إلا أن ما يهم قراءته الآن هو أن الدول الإسلامية المعاصرة تشكلت ضمن معادلة التجزئة

هذه، وفي إطار النظام العالمي الذي أشير إليه أعلاه، وقد عمد هذا النظام على تكريس هذه التجزئة في أثناء حكمه المباشر كما في مرحلة الاستقلال، وإن كان هنالك من تغيير مسموح به فإنما هو إلى مزيد من التجزئة.

تشير تجربة دول الاستقلال القائمة على هذه التجزئة إلى أنها حملت في أحشائها كل التناقضات والمشكلات التي ورثتها من حالة التجزئة الاستعمارية السابقة، بما في ذلك الصراعات الحدودية والإقليمية، كما المشكلات الناجمة عن التفاوت في الأحجام والأدوار، والإمكانات، والنمو العددي الإنساني وما ينجم عنه، فيما ينجم من تناقضات بين الكبير والصغير من الأشقاء.

بكلمة: إن حالة التجزئة كرست أكثر مع قيام الدول الإسلامية والعربية الحديثة، لأن طبيعة الدولة، أية دولة، أن تركز على هويتها وسيادتها وحدودها ودورها ومصالحها الضيقة، وقد تذهب في ذلك بعيداً، إن لم توضع الكوابح والدوافع للتخفيف من غلو الإيغال في هذا الطريق.. ولعل هذا -من بين أسباب أخرى- يفسر ظاهرة تدهور العلاقات البينية فيما بين الأشقاء في مقابل تناميها مع الخارج، ويعطي إشارة لأسباب فشل قيام سوق مشتركة، أو عملة مشتركة، أو اتحاد اقتصادي وتضامن سياسي، أو تعاون عسكري، أو ثقافي، أو تعليمي، أو علمي، هذا دون التطرق إلى تنامي المنازعات الشقيقية هنا وهناك، وإلى إقامة الحواجز العالية على الحدود في وجه تنقل الأفراد أو البضائع أو الكتب أو المجلات والجرائد مثلاً.

عندما يكون على كل دولة، بحكم طبيعة الدولة القومية، أو القطرية، أن تقلع شوكها بيدها وأن تواجه العالم الخارجي بمفردها، سلبًا أو إيجابًا، فإن من الطبيعي أن تصبح في الموقف الأضعف، وتدخل هامش الهشاشة إلى الإنكسار، وهذا يفسر -فيما يفسر- ما آلت إليه أحوال الأمة بما في ذلك رحلة الفشل المتكرر مع محاولات النهوض حتى المتواضع على مستوى فردي أو مستوى جماعي تضامني.

(البعض) قد يستسهل القول: إن المشكلة في دولنا، فما الذي منعها من أن تتضامن وتتعاون وتتكافل وتنسق فيما بينها، وما الذي منعها من أن تطفئ نيران الصراعات فيما بينها دون الوصول إلى طموح الوحدة أو الاتحاد أو الجامعة الجامعة فعلاً؟ والجواب على عكس ما ينتظره السائل: «الموانع كثيرة وكثيرة جداً».

هذا (البعض) لا يدرك معنى النظام العالمي السائد واستراتيجيات الدولة المتحكمة فيه، وما قد يترتب على دولنا مجتمعة أو منفردة، أو ضمن مجموعة مصغرة، إذا دخلت في إطار تضامن فعلي يغير في المعادلة داخل بلداننا. هذا دون أن نطمح في أن يغير في المعادلة الإقليمية، لأن هذا (البعض) لا يقدر هذا أو يتجاهله، فيسهل عليه النظر من علٍ، ويظن أن المسألة سهلة في متناول اليد ولكن الآخرين لا يعون ذلك أو يعيدونه لأسباب تخصهم وفقًا لرأي المعارضة هنا أو هناك.

ولأن هذا (البعض) لا يتأمل جيداً في خطورة عامل التجزئة، وما ولده قيام الدول القومية والقطرية العربية من سياسات تتشكل بالضرورة، وبسبب طبيعة الوضع المادي والوجود القائم الجيو-سياسي وغيره بما يتجاوز نوع النظام أو الأيديولوجية، أو الفرد أو القوة المسيطرة، تراه يستسهل القول: إن المشكلة ذاتية بمعنى يمكن حلها بيسر وسهولة، أو هي متعلقة بنا وحدنا، ولكن على هذا (البعض) أن يتأكد إنه قد يفعل ما يفعله غيره جريًا وراء مقتضيات الدولة القومية أو القطرية، إذا ما امتطى صهوتها حتى ولو كان مشروعه العقدي والفكري والسياسي غير مشروعهم.

ولكن هل هناك من مخرج ما دام هذان العاملان هما الأشد تأثيراً في واقع الأمة وحركتها ومستقبلها، وهما من طبيعة موضوعية مثل أية عقبة مادية كأداء، أي من نمط غير النمط المتعلق بالوعي الذاتي أو الأخلاق أو البنية الاجتماعية، حتى ولو كان للوعي والأخلاق والتعبئة وحالة البنية الاجتماعية دور هام في مشروع المعالجة؟

وما المخرج إذا كان العلاج أشد تعقيداً وتركيباً مما يطرح أولئك التبسيطيون حين يعتبرون أن الإشكال فينا، وهم في العادة لا يقصدون عامل التجزئة والدولة القومية والقطرية فيتساءلون بكل تلك البراءة: ما الذي منع دولنا من التضامن والتكافل والتنسيق حتى في أدنى الحدود؟

الأمة المسلمة والدور الحضاري في عالم الغد

لا ينفصل الدور الحضاري الذي يمكن أن تلعبه الأمة الإسلامية في العالم عن المشروع النهضوي الذي تحتاج إليه من أجل إنقاذها مما هي فيه، ووضعها على (السكة) لحل المشكلات الرازحة تحتها، ورفع المعوقات التي تشدها إلى أسفل، ومن ثم انطلاقها لبناء حياتها الإسلامية التي تجعلها تعيش بمرضاة الله ولله. مما يفترض -فيما يفترض- أن تقوم أخلاق أبنائها وبناتها وفقًا للإسلام، وأن تحقق العدالة الاجتماعية في مجالات الاقتصاد وتكافؤ الفرص، وإقامة العدل بلا محاباة لأحد أو مجموعة معينة، ولكن هذا لا يكون على مستوى الأمة ودولتها (وفي العصر يجب أن نقول دولها) إلا إذا تضامنت مختلف دولها وبلدانها وتعاونت وتكاملت. والله سبحانه وتعالى يريدها أكثر من ذلك متحدة، تظل أمة واحدة تحت ظلالها.

على أن هذا لا يتحقق بالصورة الفاعلة إلا إذا خرجت من حالة التبعية للخارج، أو إذا كان الخارج مشلول الفعل والتأثير في قرارات دولها بحيث تكون فعلاً حرة القرار.. هنا تأتي معضلة النظام العالمي واستراتيجيات قواه المتحكمة به، إذ يحولان دون حرية القرار على مستوى الدولة الأصغر والأضعف، أو يضع كل من يختار قراراً يجد فيه «إضراراً» بالنظام العالمي تحت طائلة الابتزاز والتهديد والتشهير وصولاً إلى فرض الحصار أو التدخل العسكري، ومن ثم لا يأتي تحقق تضامن دول الأمة واستقلال قرارها فيما ينقلها إلى مواقع العزة والفعل في العالم

إلا عبر علاقة معقدة للغاية مع هذا العالم.

وإذا كان الثمن باهظًا بالنسبة إلى هذه الدولة أو تلك أوكان مهددًا للنظام، مالت الرياح إلى الابتعاد عن التضامن الفاعل، والقبول بما يشبه الحالة الراهنة، الأمر الذي يفرض الخلاص من تلك التبسيطية التي تحسب أن العالم الخارجي ثانوي أو محدود التأثير أو أن تأثيره لا يصل إلى مستوى التأثير في قرارات الدول التي باستطاعتها أن تقرر ما تشاء بغض النظر عن هذا العامل.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: ولكن هل للوعي الصحيح، والدور الذاتي، والقرار، ونوع الخيارات، أهمية في هذه المعادلة المعقدة؟ والجواب قطعًا: ثمة أهمية كبرى، ولكن ليس بمعزل عن تلك المعادلة أو التدافع والصراع وإنما في قلب كل ذلك، ومن خلال حسن معالجة كل ذلك.. وهنا تبرز أهمية الاستراتيجية أو الاستراتيجيات المختلفة للدول الإسلامية من جهة، وأهمية ما يمكن أن يطرأ على تلك المعادلة من داخلها، لا سيما فيما يمكن أن يقع بين دولها الكبرى من نزاعات وصراعات وحروب، وما ستتعرض له من عوامل التآكل والانحلال عندما يأمر الله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦).

المهم أن المعالجة أو الاستراتيجية أو كيفية تحقيق الانتقال إلى دور حضاري عالمي رائد، يتطلب اختراقًا أو عبورًا معقدًا متعرجًا طويل الأمد لهذه المعادلة العالمية، ولا يتم ذلك بناء على تجربة خمسين السنة الفائتة إلا عبر حسن استقاء العبر من التجارب المريرة، وحسن قراءة الواقع العالمي وموازين قواه، ومن ثم حسن وضع الاستراتيجية الإسلامية على مستوى كل بلد وفقًا لظروفه في إطار استراتيجية عامة على مستوى منظمة المؤتمر الإسلامي أو ما شابه.

وإن لمن البدهي أن يقال في مواجهة العامل الداخلي الأشد تأثيرًا في واقع الأمة

الراهن، والذي حدد أعلاه بمشكلة التجزئة وما ولدته من دول قومية على المستوى الإسلامي ودول عربية قطرية على المستوى العربي، ما هو شبيه بما قيل في مواجهة العامل الخارجي، لأن هذا العامل الداخلي يتسم بكل ما يتسم به العامل الخارجي من تعقيد وإشكالات، بل هو يتغذى منه في سلبياته ويغذيه، بل يشكل بالنسبة إلى كل بلد مسلم «عاملاً خارجيًا» بالضرورة كذلك، ما دامت الدول تتمتع بالاستقلال ولكلٍ ظروفها وخصوصياتها ومصالحها الضيقة.. إلخ.

كما أن من البدهي وتجنبًا للتكرار، أن يقال في معالجته ما قيل عن ضرورة استقاء العبر من التجارب المريرة التي عرفناها خلال خمسين السنة الماضية، وحسن قراءة واقع الأمة الإسلامية والإشكالات الناجمة، والدول القومية والدول القطرية فيها، وحسن وضع الاستراتيجية الصحيحة على مستوى كل بلد، في إطار استراتيجي عامة، بما يتجه إلى تحقيق التضامن والتكافل وصولاً إلى الخطط المشتركة والمشاريع المشتركة بما في ذلك مسائل الأمن القومي والتنمية وامتلاك التكنولوجيا، ناهيك عن قضايا الثقافة وتأكيد الهوية والتواصل بين شعوب الأمة.

كل ذلك من أجل استعادة العزة للأمة في العالمين. وهذا شرط حمل المشروع الإسلامي الحضاري لعالم الغد.. فلا مشروع حضاريًا يحتل موقعًا مرموقًا في العالم إذا كانت الأمة ممزقة، وإذا كانت مسلوبة الإرادة من قبل الخارج.. ولكن العزة لا تشكل قدوة حضارية بحد ذاتها إن لم تقم على العدل بين الناس وعلى تحقيق عدالة اجتماعية متميزة، وإن لم يتمتع الإنسان فيها بكرامته وحقوقه المختلفة بما في ذلك حق إبداء الرأي والنقد والإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحق المشاركة من خلال الشورى وصناديق الاقتراع، وغير ذلك على هذا المنوال.

الدور الحضاري من جانب الأمة المسلمة يتجلى أفضل ما يتجلى حين توضع في

موضع القدوة الحسنة على مستوى العالمين، وفي مختلف المجالات حيث تقدم بديلاً إيجابيًا فيه خير كل البشر، مقابل ما يواجه العالم من مشكلات كبرى مثل ما يجري من سيطرة عالمية على إرادة الشعوب، ومن نهب عالمي لخيرات البلدان المستضعفة، ومن استخدام سياسة القوة في العلاقة بين الدول، ومن اتجاه للتطور راح يعمق الهوة أكثر فأكثر بين الأغنياء والفقراء ويزيد من معدلات البطالة والجريمة والانحرافات زيادة مطردة، ومن تكريس لثقافة الانحلال والتفسخ واحتقار كل ما له صلة بالأخلاق الحميدة والقيم العليا، مع إعلاء لقيم الأنانية المستندة إلى شريعة الغاب والغرائز البدائية، وهو يستخفي وراء حرية الفرد، بينما في التطبيق العملي يخنق الفرد ويحرفه عن فطرته ويشوه علاقته الإنسانية بالأفراد الآخرين.. إنها فلسفة المادية في أقصى حالات غلوها وفي أقصى ابتعادها عن الدين وقيمه ومثله العليا.

إن المشروع الحضاري الذي يمكن أن تحمله الأمة المسلمة في عالم الغد، لا يقتصر على تقديم الإسلام للعالم تقديمًا سليمًا صحيحًا معتدلاً يتسم بالحكمة والرشد فحسب، وإنما أيضًا تقديم نظام عالمي بديل يجسّد المصلحة العليا لكل الشعوب، قويها وضعيفها، غنيها وفقيرها، نظام على مبادئ عالمية وعادلة وسليمة تنظم العلاقات فيما بين الدول، وترفع من كرامة الإنسان وحقوقه المختلفة، على الضد مما يمثله النظام العالمي الراهن.

خلاصة

إن ما تقدم لا يغطي إلا الإجابة العامة عن شرط انتقال الأمة المسلمة إلى أن تضطلع بدور حضاري ريادي، أو مهم، في عالم الغد، وهي إجابة مركزة على الوضع السياسي الاقتصادي–العسكري أساسًا للأمة، أو على وضعه ضمن معادلة التدافع وموازين القوى على مستوى عالمي، أي مسألة انتقال الأمة من حالة الاستضعاف إلى حالة العزة والمنعة والعطاء.

وإذا كانت عملية الانتقال هذه تحتاج إلى استراتيجية أو استراتيجيات بعيدة الأمد، تعتمد التدرج والنفس الطويل، ضمن طريق متعرج تحف به الإنجازات والنكسات، والنهضات والكبوات، فإن الإسهام الحضاري يمكن أن يقع جزئيًا في أثناء ذلك، وفي آماد قصيرة، أي منذ الآن، وكان كذلك طوال مائتي السنة الماضية.. ومن هنا يمكن أن يشار إلى إجابة عن السؤال حول الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، ضمن مستويات أدنى من مستوى الطموح الأكبر الذي يشترط عزة الأمة بادئ ذي بدء.

أما بالنسبة لتلك المستويات التي تشمل مجمل الجهود التي يبذلها العلماء والمجددون والمصلحون وحركات النهضة والمؤسسات الاقتصادية والجمعيات التي تعنى بالدعوة والصحوة ومعالجة هذا المرض أو ذاك، من الأمراض التي تعاني منها الأمة، فها هنا يأتي بعض الخير من كل جهد إسلامي، مهما كان متواضعًا ومحدود التأثير وجزئيًا، في عملية تعظيم الدور الحضاري الذي ما فتئت تلعبه الأمة الإسلامية وما زالت وستبقى على الرغم مما مر بها من حالات التبعية والاستضعاف والهوان والتشرذم والضياع، فقد ظلت هنالك منابر تضيء في الكثير من المجالات على مستوى الدعوة والصحوة، والاجتهاد، والثقافة والوعي، وتقويم الأخطاء الفردية، والنصح للحكام والأمة، وبناء الإنسان المسلم وتربيته، وما إلى هنالك من مجالات.

صحيح أن كل ذلك لم يرتفع بالأمة إلى مستوى الريادة الحضارية في العالم، ولكنه أرهص بها وقدم القدوة جزئيًا، وأبقى الحراك الإيجابي في الأمة مستمرًا ينهض بعد تعثر. وإذا تعثر مرة أخرى يحاول النهوض من جديد، فلا يقنط من رحمة الله حتى عندما يرى الجهود لا تنجز إلا جزئيًا وتقصر عن تحقيق الطموح الذي حملته البداية. الأمر الذي يسمح بالقول: إن القدر يغلي ويتحرك على الرغم من ثقل الغطاء الذي يكبته (العامل الخارجي)، وعلى الرغم من عظم المعوقات الداخلية التي تسهم

في إبقاء ذلك الغطاء ثقيلاً رابضًا على صدره.

أما الأمر الثاني الذي يتوجب قوله فهو: ألا نستصغر أي جهد مهما كان متواضعًا في عملية إنهاض الأمة، فننظر بالتقدير لكل جمعية خيرية، ولكل حركة دعوية، ولكل تربية لإنسان، ولكل دفع لمنكر أو ضلال، ولكل أمر بمعروف، ولكل ما يمكن أن يسد ثغرًا من الثغور، التي يأتي منها الأعداء والأمراض أو الانحرافات، لأن في كل ذلك جهدًا مقدرًا في عملية الانتقال المرجوة، ذلك لأن عملية الانتقال ستأتي من بعض أوجهها عبر محصلة عامة لكل هذه الجهود، على مستوى الأمة، وليس عبر جهد واحد، على مستوى فرد بعينه أو جماعة بذاتها أو دولة بعينها.

وبهذا نكون أمام منظورين أو استراتيجيتين لتحقيق انتقال الأمة إلى مرحلة الشهادة على العالم.. أو قل مرحلة الدور الحضاري الإسلامي الرائد في عالم الغد.. وهما:

- معالجة الإشكال في جانبه السياسي والاقتصادي والعلمي والعسكري، على مستوى تحقيق العزة للأمة في العالمين.
- وثانيهما العمل الدائب الذي ينجز إصلاحًا وإنهاضًا على مستوى فردي وجزئي، ويمس هذا المجال أو ذاك المجال، في هذا البلد أو ذاك.

مع التأكيد على أن المستوى الأول هو الحاسم في نهاية المطاف، بينما الثاني هو الذي يهيئ الأرض ويقلع الأعشاب ويزرع هنا وهناك، ويرفع المنائر، على محدودية تأثيرها، وسط ظلام مدلهم، حتى تبزغ الشمس بضوئها الباهر بعد التقاء متكامل بين المستويين، أي بين عمل الدول وعمل الشعوب في الأمة.

الإنسان صانع الحضارة

الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي*

المطلوب أن يكون المسلم متبعًا في العبادة، ومبدعًا في الثقافة والحضارة، لكنا عكسنا ذلك فصرنا مبتدعين في العبادة، مقلدين في الحضارة، فلا سلمت لنا العبادة، ولا اكتسبنا حضارة.

الإنسان صانع الحضارة، برقيه ترقى، وبتاخره تتاخر وتأفل، لكن التحضر عمل شاق طويل، يتطلب توفر إمكانات وشروط مواتية، لذا لم تقم حضارة بقرار، ولم تسقط بقرار، بل بتجمع أسباب كثيرة هنا أو هناك.

وإذا طرحنا سؤالاً عن الهدف أو الأهداف الكبرى للوجود البشري في الحياة، فيمكن أن نحدد هدفين كبيرين:

١- عبادة الله تعالى كما أراد وأمر.

٢- عمارة الأرض.

فالله تعالى يكرر في كتابه الكريم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

وعن العبادة يقول الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)،

---

* أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بالرياض.

وعن عمارة الأرض يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وأساس العبادة السليمة المقبولة، النص الصحيح، وعدم إحداث أي تغيير أو تبديل، ذلك أن الأساس فيها (الحظر) أي المنع، وأضرب مثلاً، فالصلاة فيها تكبير وقراءة قرآن، وركوع وتسبيح، وكل له مكانه الخاص، فإذا صلى مسلم فسبح واقفاً، أو قرأ راكعًا أو ساجداً، بطلت صلاته.. وهكذا الحج ومثله الزكاة، ذلك أن العبادة غير معللة، ومن ثم فالمطلوب فيها الاتباع: «**صلوا كما رأيتوني أصلي**»[1].. أما المعاملات فمعلّلة، والسياسة الشرعية قائمة على جلب المصلحة ودفع المفسدة.. لذا فالمطلوب أن يكون المسلم متبعًا في العبادة، ومبدعًا في الثقافة والحضارة، لكننا عكسنا ذلك فصرنا مبتدعين في العبادة، مقلدين في الحضارة، فلا سلمت لنا العبادة، ولا اكتسبنا حضارة.

أما عمارة الأرض فتتطلب معرفة آخر المستجدات في العلوم والمعارف، وعلماؤنا يقسمون الفروض إلى عينية وفروض كفاية.

العينية كالعبادات، أما فروض الكفاية فتجب على الأمة، فإذا قام بها بعضهم وإلا أثمت الأمة كلها، فإذا وجد علم أو معرفة أو حرفة أو صناعة، ثم لم يوجد في الأمة من يعرفها، فالأمة كلها آثمة. وقد وجدت أبا حامد الغزالي[2] -وهو فارس من فوارس العلم والثقافة- يتحدث عن العلم وأنواعه، لكنه نشر نظريته في ثلاثة كتب،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان برقم ٢٢٦؛ وفي الأدب المفرد ١/٧٦؛ والدارمي ١/٣٠٢؛ وابن حبان ٤/٥٤١؛ وابن خزيمة ٥/١٩٠؛ والبيهقي في سننه ٣/٣٠١؛ والدارقطني ١/٢٧٢.

(٢) متكلم وفيلسوف وأصولي وصوفي، ولد سنة ١٠٥١م، آمن بأن طرق الصوفية هي الطريق المؤدية إلى المعرفة والسعادة والحق. كان لآرائه أثر كبير في تطور الفكر العربي وفي اللاهوت المسيحي خلال القرون الوسطى أيضًا. أشهر كتبه: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، وله كتاب «المستصفى» في أصول الفقه، وقد ألف في نهاية حياته كتابًا ترجم فيه لنفسه -فيما يعرف اليوم بالمذكرات الشخصية- وأسماه «المنقذ من الضلال»، توفي سنة ١١١١م.

متى جمعت اتضحت نظريته:

١- فهو في كتابه (الإحياء) يقسم العلوم إلى شرعية، وهي ما استفيد من الأنبياء عليهم السلام، وغير شرعية، وهي ما أرشد إليها العقل، كالطب والحساب وأمثالها. والعلوم غير الشرعية هي من فروض الكفاية، فإذا خلا منها بلد سارع إليه الهلاك[١].

٢- وفي كتابه (أيها الولد) يتم نظريته قائلاً: .... أما من يقتصر علمه على العلوم الدنيوية دون الشرعية، فعمره يضيع فيما لا ينفع في الآخرة[٢].

٣- في كتابه (ميزان العمل) يقول: ..... من يقتصر على علوم الدين وحدها، فإنه لا يفهم من الدين إلا قشوره، بل خيالاته وأمثلته، دون لبابه وحقيقته، إذ لا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية، فإن العقلية كالأدوية للصحة، والشرعية كالغذاء. ا.هـ[٣].

ومن يتطلع إلى أن يكون له دور في الحضارة، فلا بد أن يكون له حضور متميز، كما ينبغي أن تكون لديه فكرة واضحة محددة تجاه الكون والحياة والخالق. يقول (اشفيتسر) في كتابه القيم (فلسفة الحضارة): «إذا أنتج المفكرون، في عصر من العصور نظرية في الكون ثمينة، فإن هذه الأفكار تتداول بين الناس تداولاً يؤدي إلى ضمان التقدم، وإن عجزوا عن ذلك بدأ الانحلال يدب على نحو أو آخر، فكل نظرية في الكون تجر وراءها نتائجها التاريخية» ا.هـ[٤].

(١) إحياء علوم الدين، ١٧/١.

(٢) أيها الولد، ص٢٢.

(٣) ميزان الاعتدال ص١٢٤، ولي على كلام أبي حامد تحفظ، ففي الإسلام أمور مهمة وأخرى أهم منها، لكن من الصعب القول بأن هناك لبابًا وقشورًا.

(٤) فلسفة الحضارة، الطبعة الثالثة، ص٦٩.

والقرآن الكريم يربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء، كما أن تجنب هذا الهدي والكفر به، يجلب التعاسة وسقوط الحضارات.

يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢). ويقول عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨).

ويمكن القول: بأن قصص القرآن -في مجموعه- يهدف لبيان: كيف تقدمت الأمم وسادت حين أخذت بهدي السماء، وماذا أصابها من تأخر وفساد حين تجنبت هذا الطريق.

«شيبتني هود وأخواتها»

من المعروف أن أبا بكر رضي الله عنه كان من جيل صاحب الرسالة ﷺ، وقد تطلع يومًا لوجه رسول الله عليه السلام ثم قال: أراك شبت يا رسول الله، فرد صاحب الرسالة ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها**»[1] ويقصد سورة هود، وأمثالها من السور التي تتحدث عن الأمم والحضارات السابقة.

ومن يقرأ سورة هود يجدها تتحدث عن ست حضارات تقدمت، كل واحدة أصابها مرض قاتل، حتى سقطت وذهبت.

فمن تلاعب بالموازين، إلى عبث بالأمن العام وإخافة للناس، إلى شذوذ جنسي قبيح، وتعاطٍ للزنى علنًا، دون حياء... إلخ.

---

(١) أخرجه الترمذي، ٥/٤٠٢، وقال حسن غريب؛ والحاكم ٢/٣٧٤، وقال: على شرط البخاري؛ وأبو يعلى في مسنده ١/١٠٢؛ وعبد الرزاق في المصنف ٣/٣٦٨؛ والبزار في مسنده ١/١٦٩؛ والبيهقي في شعب الإيمان ١/٤٨١.

ثم يسجل القرآن نهاية كل حضارة من هذه الحضارات.. والسؤال: إن بين عصر الرسالة وهذه الحضارات ألوف السنين، فلماذا شاب لها رسول الله ﷺ ؟؟؟

إن (السنن) لا تتغير ولا تتبدل، كما لا يمكن لأحد تجاوزها والقفز فوقها، وما أصاب تلك الأمم يمكن أن يصيب أمتنا، ومن هنا جاء خوف وفزع صاحب الرسالة ﷺ .

فما أصاب تلك الأمم والحضارات يمكن أن يضر بنا، فتكون حالنا كحالهم، فالله تعالى لا يحابي أحداً، وعدالته تأبى التمييز، وإن ادعى بعضهم أنه من شعب اختاره الله، وهو يُدَلّله ويعامله معاملة خاصة[1]!!!

ولعل من المفيد هنا ذكر حديث لصاحب الرسالة ﷺ، يرويه عبد الله بن عمر فيقول: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها، إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا.. ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان.. ولا خفر قوم العهد، إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم.. وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه، إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[2].

وهذا الحديث من معجزات النبوة، فيوم أن تحدث ﷺ، لم تكن خصلة قد وجدت، أما اليوم فكلها -بحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه- موجوده مشهودة.

---

(١) للمزيد يمكن مراجعة: تفسير التاريخ للكاتب ص ١٢٨، الطبعة الأولى.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن ٢/١٣٣؛ والبيهقي في شعب الإيمان ٣/١٩٧؛ والحاكم في مستدركه ٤/٥٨٢.

أمتنا والشهود الحضاري

ختم الله سورة الحج قائلاً: ﴿ ... وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨)، وهذا شرف عظيم لصاحب الرسالة وأمته، بما لم تطمح إليه أمة من قبل ولا من بعد.

يقول فارس هذا الميدان: «فالرسول عليه الصلاة والسلام يشهد على هذه الأمة، ويحدد منهجها واتجاهها ويقرر صوابها وخطأها، وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبيها، وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة، ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج، المختار من الله تعالى.. ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية، حتى إذا انحرفت عنه، وتخلت عن تكاليفه، ردها الله عن مكان القيادة، إلى مكان التابع في ذيل القافلة، ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر، الذي اجتباها له الله.

وهذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد، ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله..... بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية، التي اجتباها لها الله، وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض، والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها، ولكن مع حشد القوى والطاقات، والزاد الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله، فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدمًا إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض، ولا تكتفي بأن تقودها اللذائذ والمتاع وحدها، كما تقاد الأنعام، إن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، لكنها لا تقف عند هذه المدارج

الأولى، وكذلك يريدها الإسلام، في كنف الوصاية الرشيدة، المستقيمة على منهج الله تعالى » ا.هـ[1].

إن الشهادة شرف عظيم، وهي عمل كسبي لا تتحقق بالتخلف ولا بالكسل، فالريادة والقيادة في عالم اليوم، تتطلب عقيدة سليمة وثقافة حية وبيئة مناسبة، وتطلع حار للقيام بدور رائد في الحضارة.. إن عالم اليوم يقوده الغرب وحضارته، وهو لن يسلم لأحد حتى تكون لديه قدرات موازيه، وامتياز في جانب حضاري هو شحيح في حضارة الغرب.. وسأستعرض باختصار عوامل التحضر:

العوامل الدافعة للتحضر[2]

إن الذين يشتغلون في تفسير التاريخ، ويدرسون عوامل التحضر ينقسمون إلى:

١- جماعة تعتقد أن التحضر يتطلب جملة عوامل متضافرة، يسند بعضها بعضاً، كي تقوم حضارة وتتقدم.

٢- جماعة ترى وجوب توفر عامل أساس واحد، يكون قطب الرحى، وكل ما سواه يعتبر ثانوياً.

لكن هؤلاء لم يتفقوا على عامل واحد، فهناك من آمن بالجنس (العرق) وهناك من ركز على العامل الجغرافي (من الأرض والمناخ)، وهناك من اعتمد العامل الاقتصادي (كالماركسية)، بينما ركز بعضهم على العوامل الاجتماعية، ومن آمن بقوة عامل العقيدة، وعامل المعرفة، ودور البطل أو الشعب، والفتوحات العسكرية وأثرها، وأخيراً سلامة شبكة العلاقات الاجتماعية.

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/٦٣٢، الطبعة السادسة.

(٢) انظر في معركة الحضارة، د. زريق، الطبعة الرابعة، ص١٨٩؛ وفي فلسفة الحضارة، د.الشرقاوي، الطبعة الثالثة، ص١٥٢؛ وسقوط الحضارة، كولن ولسون، ص٣٤١، ٣٩٥؛ وتفسير التاريخ للكاتب، ص٢٧-٢٩.

وأخيراً لقد طرح توينبي نظرية أسماها (التحدي والاستجابة)، ملخصها[1]:

أن الإنسان بحاجة إلى تحد حتى يتحرك ويقيم حضارة -فهو إذن سلبي- وهذا التحدي ينبغي أن لا يكون قويًا، فيعجز الإنسان عن التعامل معه وتجاوزه، ويضرب لذلك مثلاً ببلاد الأسكيمو وأهل الصحراء، فيرى أن الإنسان هنا سيكون همه الأول أن يعيش فلا يموت جوعًا أو عطشًا أو بردًا.. وقوة التحدي قضية نسبية، فما يعتبره شعب أو أمة تحديًا قويًا، لا تعتبره أمة أخرى كذلك.. وأضرب مثلاً باليابان، فهي شحيحة الموارد، يسكنها أكثر من (١٢٥) مليونًا من البشر، وثلاثة أرباع أرضها جبلي، ومع ذلك فهي في مقدمة الدول المتقدمة الغنية.

وبالمثل فإن العراق يحوي أرضًا خصبة وله موارد نفطية كبيرة، وأنهاراً عدة ونفوس العاصمة طوكيو بقدر نفوس العراق جميعًا، ولكن أين العراق من اليابان!!

وهناك دول في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية تملك من الموارد ما شاء الله، وهي تستجدي المعونات والطعام والدواء.. إذن فصعوبة وسهولة التحدي نسبية.

أما الشرط الثاني، فأن لا يكون التحدي سهلاً فلا يحرك الإنسان، ويضرب لذلك أمثلة بالمناطق الاستوائية، حيث المطر الكثير، والشمس المشرقة، فلا يموت الإنسان جوعًا ولا عطشًا، وهذا الأمر فيه نظر، فالهند الاستوائية أقامت قديمًا حضارة، وهي اليوم تتحرك بقوة نحو ذلك.

كذلك يعاب على النظرية بشكل عام جعلها الإنسان سلبيًا، تحركه العوامل أو تقعد به.. والمفكر مالك بن نبي[2] يذكر أن عوامل التحضر أربعة:

---

(١) مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد شبل، ١/٩٨؛ وتفسير التاريخ للكاتب، ص٩٤.

(٢) مفكر عربي جزائري، ولد في قسنطينة في شرقي الجزائر، وأنهى دراسته الثانوية في تبسة، تخرج مهندسًا كهربائيًا من جامعة باريس، ثم عاد إلى الجزائر، فالقاهرة. نشر أكثر كتبه بالفرنسية، وترجم معظمها إلى العربية، ومنها: «الظاهرة القرآنية»، و«شروط النهضة الجزائرية»، و«مشكلة الثقافة»، «في مهب المعركة»، ولد عام ١٩٠٥م وتوفي عام ١٩٧٣م.

١- الأفكار وخاصة الدينية ٢- الإنسان ٣- التراب (الإقليم) ٤- الزمن[١].

أما (ديورانت) في كتابه الجيد (قصة الحضارة)، فيذكر أربعة عوامل للتحضر، اثنان يعودان للطبيعة (العامل الجغرافي والجيولوجي)، واثنان للإنسان (العامل النفسي والعامل الاقتصادي)[٢].

وقبل أن أنتقل إلى شيء آخر أود أن أقول: بأن التحضر مجرد وصف موضوعي وليس قيميًا، قد يكون نعمة أو نقمة على صاحبه.. ذات يوم عندما تقدم الغرب استعمر كافة القارات، وعامل البشر فيها كالبهائم، نهب الثروات فأفقر المستعمرات، ليبني لنفسه المدن والجامعات، حتى قال شيخ الوجودية (سارتر): إن الشعب في الغرب مشارك لحكوماته في النهب والسلب، على حساب الشعوب المستعمرة المغلوبة.. فما هي إذن عوامل التحضر؟؟؟

عوامل التحضر

أولاً: عامل الثقافة والفكر[٣]:

وأود اختصار الموضوع بنقاط:

١- كل شعب وكل أمة لها ثقافة وفكر، وقد لا يكون لديها حضارة، وفي العالم اليوم ملايين في آسيا وأفريقيا لهم ثقافاتهم الخاصة، لكنهم يعيشون خارج الحضارة، وإن استعملوا واستهلكوا بعض منتجات الحضارة.

٢- الثقافة هي صانعة الولاء، وتمنحه طواعية دون أي ضغط ولا إكراه.

---

(١) شروط النهضة، ترجمة: مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة عام ١٩٦٧م، دار الفكر، ص٩١.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١/٧، لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، ١٩٧٣م.

(٣) مدخل إلى الثقافة الإسلامية، الأمير الدكتور سعود بن سلمان آل سعود بالاشتراك مع د. نعمان السامرائي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص ١٥.

٣- تموت الثقافة أو تذبل إذا حصل انفصال بين الوعي والواقع.

٤- في الحياة قوانين يصعب تجاوزها: فالاستبداد في الحكم يفضي إلى تخلف العقول، وهذا التخلف يؤدي إلى تخلف التربية، وتخلف التربية يقود إلى نقد التراث (الديني)، وهكذا يظل الدوران في حلقة مفرغة، بالتنقل من المشاكل الثقافية إلى السياسية إلى التاريخية، لكن دون حسم مشكلة من هذه المشاكل.

٥- العالم قديمه وحديثه يشهد صراعات ثقافية وغيرها، فإذا وجد تدفق ثقافي أو (قصف إعلامي) وعلى أكثر من جبهة، وعجزت الثقافة المحلية عن المقاومة والاستيعاب فهناك احتمالان:

أ) أن تتفكك الثقافة الأضعف.

ب) أن تعدّل من آلياتها، وتكيف نفسها.

٦- كل ثقافة وفكر لا بد له من مرجعية، فالعقل البشري يصعب عليه العمل دون مرجعية تمنحه شيئًا من الأسس يستند إليها، وإلا حصل الانقسام، وتحولت الأمة إلى أمم.

٧- هل يمكن حل كافة الثقافات، ودمجها في ثقافة واحدة؟؟ لم يسجل التاريخ أن أمة تخلت عن ثقافتها كليًا واندمجت في ثقافة غيرها إلا إذا غيرت دينها وكافة معتقداتها، وغيرت لغتها وآدابها.

٨- مهمة الإنسان المثقف العمل الجاد لحل مشاكل أمته، فإذا تحول إلى مجرد (سمسار) لثقافة أخرى، فإنه يخون بلده، كما يخون أمانة العلم والثقافة.

إن بعض المثقفين في العالم الثالث اتخذ من العلم والثقافة سلمًا لتحسين وضعه، والحيازة على أكبر قدر من المغانم، متحالفًا مع رجال السلطة، مانحًا ظهره لشعبه وأمته.

٩- سلوك الإنسان يحدث منبثقًا عن فكر وثقافة، والأمة تنشئ حضارة كثمرة لعقيدة وثقافة، وكلما كانت العقيدة والفكرة والثقافة حية، كان التحضر أسرع وأعجل، فإذا تحولت الأفكار إلى مجرد أحلام، وصارت الثقافة مجرد كلام أو عرف، فإن العد التنازلي للحضارة يبدأ ويستمر، حتى تسقط الحضارة، أو تتحول إلى جسد لا روح فيه.

١٠- وهنا استحضر كلمات (فرانك أنلو) الرائعة حيث يقول: «راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات، راقب عاداتك فإنها تصبح طباعًا، راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك» ا.هـ[1].

وإذا كان هذا يصدق على الفرد، فهو يصدق على الأمة، فالتاريخ لم يسجل نهضة ولا تحضرًا جاء مصادفة دون تخطيط وتصميم وعمل جاد، يشارك فيه الحاكم والمحكوم على حد سواء.

١١- أسارع للقول: إن المقصود بالفكر والثقافة تكوين رؤية شاملة للوجود والحياة، والهدف من الوجود، لأن التحضر سلوك جماعي، يتجمع في وحدة ثقافية جامعة، تدفع بالأفراد نحو محصلة مشتركة في العمران المعنوي والمادي، وكل هذا يتطلب نوعًا من التجانس، يمكن أن أسميه (الإجماع الثقافي) وهو ما توفره العقيدة الواحدة، أما الإجماع السياسي، فتوفره قيادة (كارزمية) ذات مواصفات عالية جيدة، وأهداف مشتركة.

إن الأفكار هي (وقود) التحضر، وبدونها يصعب ذلك.

١٢- هذا الفكر وتلك الثقافة قد تكون دينية، منحدرة من مصدر غيبي، إما حقيقي أو وهمي أسطوري، أو أفكار بشرية، وهنا نلاحظ أن الدين هو الأقوى والأدوم،

---

(١) القيادة والتغيير، فرانك أنلو، ترجمة: بشير الجابري، ص٢٨.

لذا نجد الحضارات الكبرى قائمة في أساسها على دين، أو متطورة عنه، فإذا لم تكن كذلك، فربما سقطت الحضارة، حتى الدولة، دون عدوان خارجي (كما سقط الاتحاد السوفيتي قريبًا، وفي مدة قصيرة نسبيًا. وقبل ذلك سقطت الحضارة الرومانية).

١٣- يرى توينبي[١] أن انحلال الحضارات يرافقه ويزامنه عادة فساد كبير يدب في أرواح الناس، وتغير جذري في سلوكهم، وفي مشاعرهم، وكل حياتهم، حيث تختفي الصفات الجيدة والقوى المبدعة التي كانت تطفح بها نفوسهم في دور النمو والتحضر، ليحل مكانها فساد روحي، وفوضوية تشمل السلوك والأخلاق والعادات، وانحطاط يسود الآداب والفنون، وقد تفرض الأقلية المسيطرة بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة، أو عقيدة تختارها أو حتى دينًا تتبناه، لكنها تفشل في ذلك.. إن الفكرة والعقيدة عامل أساس في صياغة الكيان الحضاري، فتوحيد الله تعالى يطبع الحضارة الإسلامية بكل جوانبها، والنشاط الروحي يطبع الحضارة الهندية، بل حضارة جنوب آسيا بشكل عام.

١٤- وأخيراً يصعب علي أن أتجاوز ما كتبه الرئيس البوسني (علي عزت بيكوفيتش) في كتابه القيم (الإسلام بين الشرق والغرب)[٢] فقد كتب: الثقافة تمثل تأثير الدين على الإنسان، أما الحضارة فتمثل تأثير الذكاء على الطبيعة.. الثقافة صنع مستمر للذات، والحضارة تغيير مستمر للذات.. والحضارة تغيير مستمر للعالم.. الثقافة استمرار للتقدم الإنساني، والحضارة استمرار للتقدم التقني (المادي).

الثقافة تستهدف التقليل من حاجات الإنسان، فتتوسع آفاق حريته، أما الحضارة فتعتمد على المادة وتفرضها على الإنسان. الحضارة تمثل قوة على الطبيعة، والثقافة

---

(١) تفسير التاريخ للكاتب، ص ١٠٦.
(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، ص ٩٤.

تمثل القـوة الذاتيـة.. الدين والفكر والآداب هي مكونات الثـقـافـة، أمـا العلم والتكنولوجيا، والمدن والدول، فكلها تنتمي للحضارة.

الحضارة ليست خيراً بنفسها ولا شراً، لذا فالمتحضر يمكن أن يكون مستعمراً مستعبِداً، مشعلاً للحروب، محطماً للآخرين، سارقًا لأقوات الفقراء، مانعًا لهم من التقدم.

ثانيًا: الدافع الحضاري:

قد تتوفر للإنسان إمكانيات كبيرة لكنه لا يتحرك، ولا يستعمل هذه الإمكانات، وقد تكون الإمكانات والفرص شحيحة قليلة، ولكن قوة في نفس الإنسان تدفعه للبحث والعمل والتشبث، وقل مثل هذا في الشعوب والأمم. حتى بالغ بعضهم فعد التحضر من نصيب شعوب بعينها، وذهب آخرون أن شعوبًا أخرى غير مستعدة للتحضر وإن وافتها الفرص، لكن التاريخ يشهد بغير ذلك، ولا يصدق حدس العنصريين، وما يطرحون.

مايصدق على الفرد يصدق هنا على الشعب والأمة، واليابان خير مثال، فالدافع للتحضر تجاوز شح البلاد وقلة الخيرات، لصعود سلم التحضر، محمولاً على صاروخ، بينما هناك شعوب أخرى وأمم لديها الكثير الكثير من الفرص والإمكانات، وهي تراوح مكانها، إن لم تتراجع إلى مؤخرة القافلة.

إن الأفكار حين تحل في النفوس حلولاً إيمانيًا -ولو لطور ما- يكون حلولها الدافع النفسي للتحضر، والتغلب على المصاعب والأزمات.

إن الأفكار قد تسيطر على نفوس أصحابها فتدفع بالشعب أو الأمة نحو العمل الموحد، بشيء من إنكار الذات، وهنا أتذكر ما كرره مالك بن نبي يرحمه الله[1] من

---

(١) تفسير التاريخ، ص ٣٨.

أن الحضارة تبدأ روحية نشطة، يعمل أصحابها بجد وإخلاص ونكران ذات، فتحقق إنجازات كبيرة، ثم يعقبها مرحلة عقلانية، تفلسف المرحلة الأولى، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة تثور الغرائز، فتتفسخ الحضارة وتسقط، وهذا ينطبق انطباقًا عاليًا على الحضارة الإسلامية، كذلك يلاحظ لدى رواد الحضارة الغربية، مقارنة بأبنائها اليوم، وطمعهم وتطلعهم للكسب الشخصي، ولو على حساب الشعب والأمة.. إن رواد الحضارة أعطوا الكثير، واشتغلوا بجد ونكران ذات، ولكن الأجيال المتأخرة لا تحمل هذا الهم، بل همها الأول أن تكسب وتترف، ولا يهم إن كان ذلك على حساب الآخرين في الداخل والخارج، وفضائح الفساد تتوالى، وفي كل دولة، ومن الكبار قبل الصغار.. لقد ذهب الرواد، وذهبت معهم تلك الهمة العالية، والتفاني والإخلاص والعمل مع نكران الذات.

وكل حضارة تعرف الفارق الكبير بين الرواد المؤسسين، وذلك النفر البائس الفاسد المتكاسل، الذي يشهد عادة سقوط حضارته، وفي الأندلس عبرة وأي عبرة!!!

دخلنا أسبانيا وكل ما نملكه اثنا عشر ألف مجاهد، وسقطت الأندلس، فهاجر أكثر من ثلاثة ملايين، كانوا مهزومين في أعماق أنفسهم، قبل أن ينهزموا في معركة.

واليوم يتحدى عشرون مليونًا من اليهود أمتنا، وقد ناف عددها على المليار، فتتوالى علينا الهزائم كزخات المطر الغزير.

ثالثاً: البيئة الطبيعية:

الحضارة تقوم على أرض هي بيئتها الحاضنة لها، وهذه الأرض قد تكون سخية أو شحيحة، فالصحراء غير السهول، والبلاد التي تكثر فيها الأنهار والخيرات غير البلاد التي يضربها التصحر، فلا نبات ولا ماء ولا خيرات.

وكذلك المناخ له على الإنسان أثر كبير، وإن راح الإنسان يعمل للتقليل من

أهميته، بفضل الصناعة وما تنتجه، وقد تقدم ما قاله توينبي في نظرية (التحدي والاستجابة)، فالحضارات القديمة قامت بأحواض الأنهار، وفي السهول الخصبة، وقد اشترط توينبي لتحضر الإنسان وجود تحد، لا يكون صعبًا ولا سهلاً.

ولكن الإنسان هو صانع الحضارة، فإذا جد واجتهد، فقد يتغلب على الكثير من المصاعب.. ففي بعض البلاد جرى تحلية مياه البحر، واستخراج المياه الجوفية، والزراعة في البيوت المحمية، وخلق صناعة بتوفير رأس مال، وكل ذلك لم يكن متيسرًا قبل عقود.

إن مكننة الزراعة، ونشر المكافحة، والسياسة الواسعة المستعملة في تدجين الحيوانات، وتسميد الأراضي، كل ذلك أدى إلى فتح عظيم في الزراعة، ومثل ذلك وأكبر منه في الصناعة، وفي كل ذلك جرى التقليل من أثر البيئة، ولكن لكل شيء ثمن.

وأختم ما تقدم بقول (ديورانت)[1]: إن العوامل الجغرافية، على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقًا، إلا أنها تستطيع أن تبتسم في وجهها، وتهيئ سبيل ازدهارها.

إن الأرض لم تضق بسكانها، ولكن النفوس الشحيحة (الكزة) هي التي تضيق، وأراني أكرر مع الشاعر:

كلما أنبت الزمان قناة ركب الناس في القناة سنانًا

إن الحاصل اليوم عجيب غريب، فالأغنياء ونسبتهم في العالم عشرة بالمائة، يسيطرون من خيرات العالم على تسعين بالمائة، وفوق ذلك يسرقون وينهبون ويبتزون الفقراء، فيزداد الأغنياء غنى، في حين يزداد الفقراء فقرًا. إن الفقراء بحاجة إلى محراث وحاصدة وجرار، لكن القوي الغني يبيع عليهم دبابة وصواريخ لا يحتاجونها، أو أدوات تجميل لشعب جائع جاهل مريض.

---

(١) قصة الحضارة، ١/٤.

وختاماً:

في عالم اليوم سباق بين الأمم، سباق ثقافي وحضاري وتجاري اقتصادي وسياسي، والذي يتطلع إلى دور حضاري عليه أن يعد لذلك عدة، فلا بد من تقدم علمي، بحيث يعرف علوم العصر، ولا بد من توفير الأمن الغذائي لشعبه وأمته، ولا بد من احترام الإنسان والكف عن الاعتداء على حقوقه وكرامته، ولا بد أن يكون للأمة كلمة في قضاياها الكبيرة، فلم يعد من المستساغ أن يكون الحاكم هو كل شيء، وأن الأفراد مجرد أحجار يحركها كما يشاء، ومتى يشاء، وكيفما يشاء!!!

إن حضارة لا تحترم الإنسان، ولا تسعى لحفظ كرامته، ليست جديرة بالبقاء والاحترام.. لقد كانت القوة حارسة للشرعية، لكنها -بكل أسف- صارت صانعة للشرعية، ومخترعة لها، وهذا إن صح في الغابة، وبين الحيوانات، فلن يصح بين البشر وفي الحضارات.

إن العدل والرحمة هو تحتاجه الإنسانية اليوم، ولكن الموجود الظلم الكاسح، والتفاوت الكبير، واستغلال القوي لقوته، كي يقهر أخاه الضعيف الفقير، والواجب أن يأخذ بيده، وأن يكف الظالمين عن ظلمهم، وأن لا يفرق بين البشر، فكلهم لآدم، ومن التراب وإليه يعودون، وأختم البحث بقول الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩٠-٩١).

شرق أوسط أم عالم إسلامي؟!

أفكار حول المصطلح ومسائل الثقافة والتطبيع والنهوض

الدكتور وجيه كوثراني*

> الخوف ليس من الغزو الثقافي وإنما من الفقر والجهل، وسياسات التفرد والانقسام وحب السلطان، وسياسات التجهيل وتهميش النخب العلمية والثقافية، ودفع العلماء إلى الهجرة والباحثين إلى البطالة أو الجمود، أو التسبيح بمجد السلطان.

شاعت في الآونة الأخيرة، ولا سيما بعد حرب الخليج الثانية ونهاية الحرب الباردة، مفردات انتعشت من داخل مقولة « النظام الدولي الجديد » التي أطلقها الرئيس الأميركي السابق جورج بوش، واكتسبت معاني جديدة بالتلازم الظرفي مع التداعيات والنتائج العالمية والإقليمية التي ترتبت على ذلك. ومن بين هذه النتائج عربيًا دخول الصراع العربي-الإسرائيلي مرحلة جديدة، هي مرحلة الإعداد والتمهيد لـ « حل سلمي » عبر مفاوضات بدأت في مدريد، وتتابعت في اتفاقات ثنائية، وما زالت عبر مفاوضات متعثرة وصعبة ومتقطعة، لكنها في سياقها العام قد تسير نحو « حل سلمي ».

* مؤرخ.. أكاديمي.. (لبنان).

في هذا المسار، استخدمت مفردات «الشرق الأوسط الجديد»، والنظام «الشرق الأوسطي»، و«السوق الشرق الأوسطية»، والتطبيع.

ما يهمنا من زاوية -المقاربة الثقافية- لهذا المسار ما رافقه من تعبيرات في الخطاب الفكري-السياسي، الأمر الذي من شأنه أن يعطي للمفردة الحديثة والظرفية أبعاداً نظرية وتاريخية ومستقبلية، مبررة ومؤسسة لمشروع ما، أو معارضة له ومعترضة عليه.

وهذا يعني أن الخطاب الثقافي، يمكن أن يعطي المفردة السياسية، التي نشأت في ظرف زمني محدد، أبعاداً استراتيجية، بالمعنى الشامل لكلمة استراتيجيا، أي نظرة شاملة للتاريخ وحركته في الحاضر وباتجاه المستقبل.

وأمامنا، لتوضيح ما أقصده، ثلاثة نماذج عالمية من الخطابات الفكرية (الاستراتيجية)، التي رافقت الحدث الدولي وواكبت التداعيات الإقليمية الناجمة عنه، وحاولت أن تضفي على تفسير الحدث ودلالاته نظرات فكرية شاملة:

١- خطاب فوكوياما بشأن نهاية التاريخ.

٢- خطاب هانتنغتون: صدام الحضارات.

٣- خطاب شمعون بيرس: «الشرق الأوسط الجديد».

ومن المؤسف القول: إن الفكر الاستراتيجي العربي والإسلامي بصورة عامة، وباستثناء قلة من الكتابات الجدية، لا يزال يعيش مرحلة ردة الفعل على الحدث أو مرحلة التعليق عليه، بل إنه يفتقر من حيث المنهج إلى الصفة الاستراتيجية نفسها.. ولا شك أن لهذا الواقع المؤسف أسبابه التي لا ترتبط بمدى قدرة الباحث

في العالم الإسلامي الذاتية، بل بجملة من الأسباب، أهمها انعدام القرار المحلي أو هامشيته أو تبعيته، وهزال دور الثقافة والعلم في صناعة القرار السياسي.

وأرجح أن الخطاب الثقافي الذي واكب مفردات الشرق الأوسطية -مع استثناءات قليلة- غرق في أسلوب سجالي، ولم يقدم وجهة نظر بديلة تُحْمَل مَحْمَل «العالمية»، أي أن هذا الخطاب لم يصبح عالميًا، على غرار ما حدث للخطابات والنصوص التي أشرت إليها. وفي أية حال، قد يكون من الصعب، أو من المستحيل -كما أسلفت- أن يتم ذلك في ظل ما يعيشه العالم الإسلامي من ترد وتشرذم واستتباع واستفراد وحالة انعدام وزن.

تأسيسًا على هذه المقدمة، تطمح الورقة إلى تقديم وجهة نظر وتثير أسئلة عبر مدخلين:

١- مدخل تاريخي (مفهومي): ماذا يعني الشرق الأوسط والشرق أوسطية بالنسبة إلى تجربتنا التاريخية العربية-الإسلامية (المعاصرة)، التي حملت مشاريع وحدوية وإقليمية مختلفة ودلالات جيو-سياسية وثقافية معينة؟ وكيف عبرت هذه المشاريع عن نفسها على مستوى المصطلح والتوظيف السياسي في الدراسات والاستراتيجيات؟ وماذا تعني الشرق الأوسطية الجديدة، من زاوية ثقافية؟

٢- مدخل راهن ونقدي، يحاول أن يناقش مسألة التطبيع الثقافي، انطلاقًا من السؤال: هل التطبيع الثقافي مع إسرائيل ممكن، وأين هو مكمن الخطر في مجال قطاعات الثقافة، وبالمقارنة بين الوضعين؟

فكرة الشرق الأوسط وأفكار أخرى في التاريخ المعاصر، ودلالاتها في الحاضر

في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، شاعت مقولة الخلافة الإسلامية والجامعة الإسلامية، وتجاذبتها وظائفيًا قوى مختلفة المواقع والأهداف:

- السلطان عبد الحميد، لتقوية نفوذه السلطاني في العالم الإسلامي.

- مفكرون إصلاحيون، أمثال جمال الدين الأفغاني، لاستنهاض العرب والمسلمين في مشروع وحدوي ونهضوي.

- والإنجليز كذلك، في استراتيجيتهم ودبلوماسيتهم، لتأمين حرية العبور والتبادل في سوق إسلامية تمتد من شرقي المتوسط والخليج حتى الهند، وكامتداد لسياسة بريطانيا في غضون القرن التاسع عشر حيال ما سمي «المسألة الشرقية».

وفي الحرب العالمية الأولى، بل قبلها بأعوام، وصولاً إلى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ ومفاعيلها، برزت فكرة «الخلافة الإسلامية» بديلاً من الخلافة العثمانية. وقد تم ذلك في سياقات تاريخية معقدة تخللتها مستويات من الوعي القومي ومشاريع الدول القومية لدى العرب والأتراك والإيرانيين وشعوب أخرى في الشرق، كما اخترقها أو تقاطعت معها مشاريع مناطق النفوذ، ومعاهدات الإلحاق والتقسيم، وخطوط سكك الحديد، والمرافئ والممرات بين إيران والخليج والبحر الأحمر والشاطئ الشرقي للمتوسط.

وفي نطاق سياسات مناطق النفوذ هذه، استخدمت مقولة «الشرق الأوسط» في أدبيات السياسة البريطانية، ومقولة «المشرق» في أدبيات السياسة الفرنسية. وكانت هذه وتلك تعابير جيو-سياسية وجيو-استراتيجية حملت هموم مخططات الدول الأوروبية الكبرى تجاه «شرقها» بالمعنى الجغرافي، ومن ضمن استراتيجيا اقتسام

مناطق النفوذ فيما بينها، ولا سيما في إثر اكتشاف النفط في كل من إيران والعراق والجزيرة العربية.

ومنذ الأربعينيات وحتى الستينيات، وربما ما زالت آثار ذلك قائمة إلى اليوم، اجتاحت المنطقة أيديولوجيات قومية لها مشاريع أيضًا في الجغرافيا السياسية والبشرية، بعضها تحقق في إطار موازين القوى الدولية، وبعضها الآخر ما زال مشاريع مستقبلية تندرج في برامج أحزاب أو تصورات نخب مثقفين، من ذلك:

- **قوميات قطرية للدول الناشئة**، حيث حاولت نخب كل دولة أن تؤسس لكيانها تاريخًا وثقافة وحدودًا «طبيعية تاريخية» في الخطاب السياسي والتاريخي والثقافي، وفقًا لنموذج الدولة/الأمة.

- **قوميات إقليمية**، حيث جرت محاولات فكرية لتأسيس تصورات لأمم تتلاءم مع فلسفة المكان والبيئة الجغرافية لإقليم معين: مصر- وادي النيل، سورية الطبيعية، المغرب العربي...

- **قوميات تتراوح بين التصور الديني للأمة** (قومية الإخوان المسلمين)، **والتصور اللغوي والإثنولوجي لها** (قومية العروبيين)[1].

وكانت الثقافة المحلية، كإنتاج أدبي وفني وكخطاب فكري وتاريخي وفلسفي، في قلب هذه المشاريع، سواء كمادة موضوع ومعطيات، أو كأداة تثبيت وتبرير ودعوة انخراط وتعبئة.

وفي موازاة هذه الأيديولوجيات القومية، ظلّت تصعد إلى السطح أيدلوجيات وأفكار تصدر عن تصور أوسع لحدود القوميات ومداها الحضاري والتبادلي.

---

(١) قارن بشأن هذه التصورات كتاب: ناصيف نصار، «تصورات الأمة المعاصرة» بيروت، دار أمواج، ١٩٩٤م.

من ذلك مثلاً:

- **الدعوة إلى المتوسطية** كإطار جغرافي-تاريخي لحوض المتوسط، الذي نمت فيه حضارات وأمم تصارعت، لكن كان بينها دائمًا علاقات تبادل وتأثر وتأثير وتحديات واستجابات. وكان كل ذلك يتم في نسق من الخصوصية الجغرافية-التاريخية لدول المتوسط، والتي سماها بروديل «العالم المتوسطي»، والتي لا تظهر إلا عبر دراسة ما سماه «الفترات الممتدة» ومستويات التاريخ الثلاثة: الجغرافي-التاريخي الثابت، والحضاري المتغير ببطء شديد، والحدثي المتقلب بسرعة.

ومن ذلك أيضًا:

- **الدعوة إلى نوع من التنسيق والتعاون بين دول العالم الإسلامي.** ولقد سبق للمفكر الجزائري مالك بن نبي أن سمى هذا النوع من التنسيق «كومنولثًا إسلاميًا»، حيث توافقت الإسلامية هنا، كثقافة وحضارة، مع نهوض محور عالم ثالثي إفريقي-آسيوي (محور طنجة-جاكرتا) في مرحلة صعود حركات التحرر الوطني في العالم الثالث.

وإذا وضعنا الدعوات الأيديولوجية ذات الطابع الفكري والنخبوي جانبًا، والتفتنا إلى الواقع المؤسسي لأشكال التعاون والتنسيق، فإننا سنقع على إنجازين لا يستهان بهما على صعيد حركة التاريخ في العالمين العربي والإسلامي، وإن كانا يحملان نواقص كثيرة:

- قيام جامعة الدول العربية على مستوى البلاد العربية.

- قيام منظمة المؤتمر الإسلامي ومؤسساته على مستوى بلاد العالم الإسلامي سنة ١٩٦٩م.

ومهما يكن من أمر النواقص والسلبيات والعوائق، فإنه يمكن القول: إنه كان في قيام هذين الإنجازين، وفي إطار الممكن في ظل القُطْريات والدول الوطنية، تحقيق نسبي لقسط من فكرة الوحدتين: الوحدة العربية والوحدة الإسلامية.

لكن من المؤسف أنه لم يجر أي تطوير فعلي لهاتين المؤسستين على الرغم من وجود أنظمة وهياكل وخطط ومشاريع دراسات. وما حدث هو أن الأولى (جامعة الدول العربية) اخترقتها الأزمات القطرية والإقليمية ومشكلات الحدود والحروب الأهلية، فانفجرت بنية العلاقات القائمة بين الدول الدول العربية. وجاءت حرب الخليج الثانية لتقضي على ما بقي مما درجنا على تسميته «النظام الإقليمي العربي». وهذا ما أثر سلبًا بدوره في منظمة المؤتمر الإسلامي، التي قامت في الأساس لحماية القدس في إثر حريق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م.

أين تقع مقولة «الشرق الأوسط» في هذا الشريط السريع من تاريخ الأفكار والمؤسسات؟

من الملاحظ أن تعبير «الشرق الأوسط» الذي استخدم في الحرب العالمية الأولى كتعبير جيو-سياسي وجيو-استراتيجي بالنسبة إلى مناطق النفوذ الواقعة شرقي الدول الغربية، لم يستمر استخدامه لاحقًا إلا للتعبير عن وجود أزمة أو طرح موضوع -أي موضوع، أكان سياسيًا أو ثقافيًا- يمت بصلة إلى العالم الإسلامي، أو إلى أي مكان يراوح موقعه بين إيران وتركيا ومصر والمغرب، وأحيانًا تمتد الدلالة إلى الباكستان وبعض مناطق الشرق الأقصى. ولعل هذا ما نلاحظه في كتاب أميركي لافت، كُتِبَ في فترة ١٩٥١-١٩٥٣م، وصدر بعنوان «الشرق الأوسط في مؤلفات الأميركيين»[١].

(١) مجيد خدوري (تحرير)، «الشرق الأوسط في مؤلفات الأميركيين»، ترجمة عمر فروخ ومحمد مصطفى زيادة وجعفر خياط، القاهرة، مكتبة الأنجلو-مصرية، ١٩٥٢م.

في هذا الكتاب محاضرة للعالم جورج سارتون بعنوان «حضانة الشرق الأوسط للثقافة الغربية»، أُلقيت بناءً على دعوة من مكتبة الكونغرس الأميركية سنة ١٩٥١م، وفيها تحفظ يبديه سارتون تجاه تعبير «الشرق الأوسط».. ولعله من المفيد استعادته عبر النص الذي يورده سارتون، لدلالته اليوم على «ضلال» شيوع المصطلح في هذه المرحلة. يقول سارتون معلقًا على عنوان المحاضرة:

«ولكن حب الحقيقة يحملنا على أن نبدي تحفظًا، أو كما يقول المحامون: أن نقدم اعتراضًا.. إن الثقافة العربية التي كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون أخر (ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئًا يسيرًا)، قد درجت من مهدها، لا شك في ذلك. ولكن الفتوح الإسلامية حملت هذه الثقافة شرقًا إلى الهند وأواسط آسيا حتى الصين، ثم غربًا إلى أسبانيا ومراكش، أي إلى طرف العالم. فإذا نحن سمينا هذه الثقافة إذن، ثقافة الشرق الأوسط فحسب، فإننا نكون جئنا شيئًا غريبًا، إذ أن هذه الثقافة كانت امتدت في العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى. ولنذكر أيضًا أنه كان لهاتين التسميتين قبل كولومبوس واكتشاف أمريكا قيمة مطلقة، لأن العالم المعروف يومذاك لم يكن يتجاوز هذين الحدين. ففي القرن العاشر للميلاد أصبح القطر الأندلسي والقطر المغربي مركزين أصليين للثقافة العربية. بعبارة أخرى، كان جزء أساسي مما ندعوه بالشرق الأوسط يومذاك في المغرب الأقصى تمامًا، آخر العالم غربًا. وهكذا نجد أن التعبير: «الشرق الأوسط» تعبير مضلل.

فنحن دائمًا شعوب شرقية بالنسبة إلى جيراننا الغربيين، وغربيون بالمقارنة إلى الشعوب التي تعيش شرقنا. ولكننا نقبل هذا التعبير كما نقبل كلمات أخرى كثيرة، على إنها بقايا من جاهليتنا الماضية».. وفي الحاشية ملاحظة: «في الكتب الصينية

التي تتحدث عن أواسط آسيا والشرق الأوسط يستخدم تعبير أخبار البلاد الغربية» (ص٤٤-٤٥).

فإذا كان سارتون يقبل هذا التعبير بوصفه بقايا من تاريخ «جاهليته»، فهل يفترض بنا أن نقبله بوصفه من نتاج حاضر الأمر الواقع؟

إن هذا التعبير بدأ يكتسي -كما قلنا- دلالات ومعاني جديدة مع نهاية الحرب الباردة وحرب الخليج، والدعوة الأمريكية إلى نظام عالمي جديد، وخصوصًا مع بدء المفاوضات العربية-الإسرائيلية. وجاء كتاب شمعون بيرس «الشرق الأوسط الجديد» تعبيرًا عن مسارات سياسية في الصراع العربي-الإسرائيلي، ومحاولة بحث عن صيغة ملائمة لاندراج إسرائيل في منطقة ينزع عنها مواصفات الجغرافيا-التاريخية وسمات التاريخ الحضاري والثقافي، ويشدد فيها على الجغرافيا-الاقتصادية المعاصرة في نظام السوق العالمية، ليخلق فيها نواة سوق شرق أوسطية تتوسع بالتدرج انطلاقًا من إسرائيل كنواة ودورها كقوة جاذبة ومهيمنة اقتصاديًا وتكنولوجيًا وأمنيًا ومدنيًا.

وتقدم إسرائيل، وبتعابير أدبياتها، نفسها على هذا النحو: قاعدة تكنولوجيا متقدمة في شرق عربي وإسلامي «متخلف»، دولة «ديمقراطية» في وسط «دكتاتوريات»، قوة أمنية رادعة في عالم عربي وإسلامي «عدواني». فهي من هذه الزاوية تدعي حمل مشروع هدفه خلق «شرق أوسط جديد».

ويبدو أن هذا الدور يتقاسمه عمليًا ووظيفيًا حزبا الليكود والعمل. وما كتابا «الشرق الأوسط الجديد» لشمعون بيرس، و«مكان تحت الشمس» لبنيامين نتنيا هو إلا تعبيرًا عن استراتيجية إسرائيلية متكاملة تبحث عن سلام مشروط بغلبتين: الغلبة الاقتصادية والغلبة العسكرية. فـ«المكان» الأمني الذي يتحدث بنيامين نتنياهو عنه

هو الشرط المؤدي فعلاً إلى تكوّن «الشرق الأوسط» الاقتصادي الذي يتحدث شمعون بيرس عنه، أي أن الاقتصاد، مضافًا إليه «الردع الإسرائيلي المستديم»، هو الذي يشكل الحائط «الذي يضرب العرب رؤوسهم به». والرهان الإسرائيلي هو أن يحدث «انقلاب سيكولوجي» في موقف العرب من إسرائيل، لأن هؤلاء، كما يقول نتنياهو: «لن يضربوا رؤوسهم في الحائط إلى الأبد».

في مقابل الطرح الإسرائيلي، ماذا نجد لدى العرب والمسلمين عامة على مستوى الفكر السياسي (الاستراتيجي)؟

بدلاً من أن يبحث العقل السياسي العربي، عن «شرق أوسط» عربي-إسلامي-إفريقي-آسيوي (وليُسمح لنا باستخدام هذا التعبير على طريقة جورج سارتون)، فإنه يستسهل نسج العلاقات الثنائية مع إسرائيل، لتُعطى هذه الأخيرة دور اللاعب الرئيسي والمحوري في المشروع الشرق أوسطي الذي تتهيأ لقيادته بوزنها العسكري أولاً (رؤية نتنياهو)، وطموحها الاقتصادي والتكنولوجي ثانيًا (رؤية بيرس).

والواقع أن أمام العرب والمسلمين عمومًا أوراقًا مجمدة أو منسية، بل إن أمامهم نوافذ مغلقة يمكنهم لو فتحوها أن يطلّوا على محيط شرق-أوسطي، غير إسرائيلي وغير أمريكي. والتجربة التاريخية-الجغرافية التي هي في أساس علم الجيو-بوليتيك اليوم، تقدم معطيات قلما يستفيد العقل السياسي العربي منها، ولو من ناحية براغماتية.

من هذه المعطيات مثلاً، الأدوار الإقليمية الكبرى التي كان يقوم فيها تداخل وتشابك الدوائر العربية-التركية-الإيرانية. وهذه الأدوار تمثلت في قيام الدول الكبرى

في المنطقة، أو في تقرير السياسيات والاستراتيجيات في مناطق العالم الإسلامي. ويقصد بالعالم الإسلامي، من ناحية البعد الجغرافي-التاريخي، ذلك المحور الإفريقي-المتوسطي-الآسيوي الذي سماه مالك بن نبي: محور طنجة-جاكرتا (أيام باندونغ)، وسماه الجغرافي المصري جمال حمدان «الهلال الإسلامي».

وفي هذا الصدد، يسهل ملاحظة كيف أن هذا الهلال يربط بأطرافه وخطوطه وطرق مواصلاته ما بين المتوسط الأوروبي والأطلسي الإفريقي والشرق الأقصى الكونفوشيوسي. وهذا ما يلاحظه الباحث الاستراتيجي الأمريكي هانتنغتون عندما يشير -بهدف البرهنة عن نظريته في صدام الحضارات- إلى العلاقة التحالفية بين الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية، ومدللاً على ذلك بالعلاقة بين سورية وإيران من جهة والصين وكوريا من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر نقاش خلفية هذه العلاقة التي لا نحسب أنها ذات طبيعة ثقافية وحضارية فقط، فإن في الإشارة تنبيهًا للعرب وللمسلمين إلى أن النوافذ الممكنة للخروج من الدائرة الشرق أوسطية الإسرائيلية والأمريكية الضيقة تقع خارج الجدران الإسرائيلية.

ونضيف من خلال التجربة الجغرافية-التاريخية العربية الحافلة بالدروس الجيو-سياسية، أن دائرة العلاقات العربية-التركية دائرة غنية، على الرغم من إشكالات اليوم بشأن قضية المياه، وذكريات الأمس القريب غير السارة بشأن مسائل القوميات، وأن دائرة العلاقات العربية-الإيرانية هي أيضًا لا تقل غنى، لكن يبقى أن تتكون الدائرة «العربية-العربية» بعد أن انفرط عقدها قبل الاكتمال، ليتحقق شرط تمكن العرب من التعامل الإيجابي مع الدوائر الأخرى.

«تطبيع ثقافي» أم تشريط نفسي بسبب العجز الأمني الذاتي والاقتصادي؟

كانت الدراسات الصهيونية التي تناولت تاريخ فلسطين وإتنولوجيتها في مرحلة ما قبل سنة ١٩٤٨م، تشدد على كونها أرضًا «كوسموبوليتية» وذات ديموغرافيا تعددية بلا هوية حضارية أو ثقافية، وعلى أنها «موازييك طوائف وأديان وإثنيات» من دون طابع عام وجامع. والآن، ومنذ قيام إسرائيل، ومناطق «الشرق الأوسط» تخضع في الجامعات الغربية ومراكز الدراسات الإسرائيلية، ولدى الباحثين الإسرائيليين، لدراسات وفقًا للمنهج نفسه. والراجح أن دراسات برنارد لويس بشأن شعوب الشرق الأوسط تقدم «مرجعية علمية» لهذا النوع من الدراسات.

فوفقًا لهذه الرؤية، ينظر إلى «الشرق الأوسط» بأنه هو أيضًا «موزاييك قوميات وإثنيات وأديان». وبما أن إسلامية العرب تمنعهم -كما يرى لويس- من إقامة دولة قومية عصرية علمانية تمارس قطيعة مع الإسلام وتاريخه، على غرار ما فعلت الدولة الكمالية، فإن الشرق الأوسط، ولا سيما في قسمه العربي، يصبح مكانًا لتعايش جماعات إثنية ودينية لا يمكن أن ينتظم التعايش فيها إلا في إطار مصالح تديرها سلطة من خارج هذا المكان -أو تضبطها سلطة رادعة في المكان نفسه. وتراوح نظرة الثقافة السياسية الإسرائيلية إلى طريقة ضبط هذا المكان الشرق الأوسطي (العربي) بين «الجاذبية» الاقتصادية التي يعد بها مشروع «الشرق الأوسط الجديد»، الذي يتخيله بيرس وبعض العرب، وبين «الرهبة» التي يلوح بها مهددًا مشروع «السلام الممكن» الإسرائيلي القائم على الردع النووي عند بنيامين نتنياهو. واللافت أن مشروع باراك اليوم يجمع بحذق بين الرؤيتين.

لا شك في أن للثقافة دورها في هذا الرهان الإسرائيلي، لكن أي نوع من الثقافة؟ إن ما يدعوه الخطاب الإسرائيلي «انقلابًا سيكولوجيا» في ذهنية العرب، و«كفًا عن ضرب الرؤوس في الحائط» هو نوع من التدجين أو التشريط، وفقًا لمصطلح المدرسة السلوكية الأميركية. وهذا «التشريط» المراهن عليه ليس «تطبيعًا ثقافيًا» بالمعنى الذي يؤديه تعبير التطبيع، أي جعل الأمور طبيعية وعادية. إن العقل الاستراتيجي الإسرائيلي الحاكم يراهن على نشر نوع من حالة ذهنية أو سيكولوجية لدى العرب والمسلمين تكون بلا مضمون تاريخي ولا بعد وطني أو قومي، أي حالة «لا ثقافية»، حالة نفسية-يبولوجية تحوّل كل مواطن إلى فرد معزول، وتحوّل كل جماعة إلى أقلية مستفردة، وكل دولة إلى سلطة قامعة، وكل مجتمع إلى مشروع حرب أهلية.

والواقع يشير إلى أن إسرائيل ليست وحدها هي التي ستقوم بهذه المهمة، بل واقع حال العرب والمسلمين، ودور إسرائيل هو الدفع بذاك الاتجاه واستثمار معطياته إلى الحد الأقصى. ودروس التجربة اللبنانية مليئة بدلالات هذا الاستثمار ومخاطره في أثناء الحرب والاحتلال. كما أن التجربة الفلسطينية تقدم الآن معطيات مماثلة للاستثمار السياسي الإسرائيلي بـ«امتياز».

انطلاقًا من هذه النظرة الإسرائيلية المزدوجة إلى نسيج العلاقة مع العرب، فإن إسرائيل لا تملك ثقافة، بالمعنى الإنساني والعالمي، تصدرها إلى العرب، أو تخترق بها الثقافة العربية.

فالثقافة السياسية الإسرائيلية يتوزعها نموذجان أو اتجاهان:

١- ثقافة تقليدية وتلمودية، تتجه نحو أصولية يهودية متعصبة وغير قابلة للتعايش مع (الآخر)، وهي متواصلة في أصولها المرجعية ومصالحها الراهنة مع

الحركات الإنجيلية الأصولية الأمريكية التي انتعشت منذ عهد ريغان.

٢- ثقافة صهيونية (علمانية) مأزومة تحاول أن تكيّف وتفسر التراث اليهودي الديني، منذ انتصار عصر القوميات في أوروبا حتى الآن، في فكر سياسي «علماني» معاصر مبرر لنشأة دولة إسرائيل، ومواكب لتطورها، ومستجيب لحاجاتها في التوفيق بين العلمانية واليهودية وبين السياسي والديني، وبين حداثتها و«تراثها»[١].

وأعتقد أن لا هذه ولا تلك ثقافة مؤهلة لاقتحام الثقافة العربية الإسلامية بتراكيبها الغنية العميقة، والمؤلفة من عناصر إسلامية ومسيحية عربية، وعناصر بيئية إقليمية تضرب بجذورها في عمق الحضارات القديمة، من مصرية وأمورية وآشورية وآرامية وكنعانية-فينيقية. ناهيك بالحضارة العربية-الإسلامية التي استوعبت خلال قرون كل تلك المنوعات التي يشملها مصطلح العالم الإسلامي اليوم.

وتأسيسًا على نظرة التاريخ الشامل في المنطقة بدوائرها الإقليمية الأساسية: الجزيرة، الهلال الخصيب (أو المشرق)، وادي النيل، المغرب العربي... يتموضع التراث اليهودي القديم داخل هذا الإطار الحضاري الواحد المتنوع، لا خارجه، بل إن هذا التراث يصبح وكما يثبت جل الدراسات الحضارية المتخصصة، مجرد اقتباس عن حضارات المنطقة بدوائرها الثلاث: مصر، وبلاد كنعان، وبلاد ما بين النهرين[٢].

وعليه، فإن إعادة النظر في المقولة-الأسطورة التي سادت الفكر الأوروبي الحديث، والتي تنسب مرجعية الحضارة الغربية الحديثة إلى الجذور اليهودية واليونانية، مهمة ثقافية وعلمية تحتمها لا ضرورات البحث العلمي المعاصر فحسب، بل أيضًا حاجات

---

(١) راجع كتاب: Colloque des intellectuels juifs politique et religion (Paris, 1981) وهو كتاب غني بدلالاته على الجهد التوفيقي الذي يبذله مثقفون صهيونيون في هذا الاتجاه.

(٢) J.H. Breasted, the Dawn of Conscience (New York, 1934)؛ وأيضًا سيجموند فرويد، «موسى والتوحيد»، ترجمة عبد المنعم الحفني، الدار المصرية، ١٩٧٨م.

المشروع الحضاري العربي والإسلامي المعاصر. وقد سبق لباحثين ودارسين غربيين أن تنبهوا إلى إغفال الأسطورة الغربية السائدة لدور المرجعيات الأُخرى المكونة للحضارة الغربية الحديثة، وهي مرجعيات حضارات شرقي المتوسط ووادي النيل، والتي يرى البعض أنها كانت مرجعيات للحضارة اليونانية نفسها، ناهيك أيضًا بإغفال دور المرجعية الحضارية العربية-الآسيوية التي قامت بدور التوليف والهضم والإضافة، والإبداع والتوصيل إلى أوروبا، والتأثير فيها عبر أقنية وجسور المتوسط، ولاسيما عبر صقلية وإسبانيا في مرحلة سيادة الإسلام في عصره الذهبي، على حد تعبير المؤرخ الفرنسي موريس لومبار.

أما الثقافة الصهيونية، فإنها الإسرائيلية المعاصرة، ذات المنهجية البراغماتية الغربية، ولا سيما الأمريكية، وذات الموضوع التراثي اليهودي المستخدم كحقل استثمار أيديولوجي-سياسي، وبالتماثل المعكوس مع قوميات أوروبا الشوفينية والعنصرية (الوجه الآخر للاسامية ومن الطبيعة العنصرية نفسها، أي أنها والنازية عنصران متكاملان).

تحاول هذه الثقافة السياسية اليوم أن تتكيف مع التحولات الدولية و«المفاهيم العلمية» المستجدة، لتتجاوز أزمتها المفاهيمية القديمة في فكرة «أرض الميعاد»، ومأزق الاستيطان، والتوسع الجغرافي بلا حدود، وذلك من خلال الانتقال إلى مفهوم (صهيوني) أكثر تلاؤمًا مع مفاهيم السلطة العالمية السائدة اليوم: النظام العالمي والسوق، وما يتبعهما من شعارات «ليبرالية» مزعومة، وخطاب «علموي» مرتكز إلى ما تشكله سلطة المعرفة وعصرالمعلومات والاتصال من قوة تأثير ونفوذ وقدرة في المبادرة، وحذق في اتخاذ القرار، وإتقان في صناعته، واشتراك أوسع النخب والاتجاهات والتخصصات في بلورته والمساهمة في تكوين حقوله وخلفياته.

ولعل في هذه النقطة -على ما أرى- يكمن الخطر الثقافي الإسرائيلي الجديد، فهو ليس «تطبيعًا ثقافيًا»، كما يحلو للبعض أن يقول ويتوهم وينذر ويحذر ويتخذ قرارات الفصل أو التجميد لكاتب أو شاعر أو باحث حاور أو جادل مثقفين أو باحثين إسرائيليين كما حصل للشاعر أدونيس. «التطبيع الثقافي» -على ما أرى- هو «المنديل الأحمر» الذي يلوح به أمام الثور الهائج، كما كان مالك بن نبي يقول عندما درس العلاقة الملتبسة القائمة بين ثقافة المستعمِر وثقافة المستعمَر في الخمسينيات والستينيات، ورأى أن الكثير من الشعارات والمناهج التي انزلق إليها بعض مثقفي حركات التحرر الوطني في إفريقيا وآسيا، بوعي أو بغير وعي، هو نوع ما سماه «القابليات للاستعمار».

وأخشى أن يكون بعض شعارات اليوم، وإن اتسم بالرفض الشكلي، نوعًا من التركيز على «المنديل الأحمر»، ونوعًا من القابليات للشرق-الأوسطية، أو نوعًا من أساليب الاستدراج التي سيستفيد المشروع الصهيوني الجديد منها في تجاوز أزمته ومأزقه.

ومن يعرض تاريخنا النضالي (الشكل القومي منه كما الأشكال الإسلامية والوطنية)، يعجب لكثرة أشكال «الاستدراج» و«القابليات» التي حركتنا نحن العرب والمسلمين على اختلاف قطرياتنا وانتماءاتنا الوطنية. ونأمل بأن تكون آخر فصول تلك القابليات وذاك الاستدراج-لكي لا نذهب أبعد من ذلك في ضرب الأمثلة من تاريخنا المعاصر- فصول الحرب اللبنانية، وفصلا حرب الخليج الأولى والثانية.

كثيرة هي الأسباب التي حاول الكتاب والباحثون المحليون، ومن مواقع

أيديولوجية ومنهجية مختلفة، أن يفندوها لتفسير ما حدث ويحدث. واللافت، مهما تتعدد الأسباب، أن مشهد التراجع أو التردي يتكرر من «النكبة» إلى «النكسة» إلى «الكارثة»، إلى مشاهد من الحروب الأهلية والإقليمية، وتناقص معدلات النمو، وازدياد المديونية، وتفاقم الفقر وسوء توزيع الثروة والدخل، وانتشار البطالة والهجرة، وازدياد الفساد، وترهل الإدارة، وتراجع المؤسسات العلمية والبحثية، وانخفاض المستوى العلمي، وانتشار الأمية[1].

وفيما يخص المسألة الثقافية وعلاقتها بما حدث ويحدث، دعونا نطرح جانبًا من جوانبها، جانب الثقافة السياسية.. ولنكن أكثر تحديداً فنطرح جانب البحث العلمي ومناهج العمل في المؤسسات الأكاديمية والبحثية، باعتبارها قطاعًا من قطاعات الثقافة، ولنسأل عن موقع المثقف-الباحث في الإنتاج والسياسة وصناعة القرار، وبالتالي في عملية «التطبيع» أو «اللاتطبيع»، في عملية الحرب أو اللاحرب، في عملية السلم أو اللاسلم.

ولنضع جانبًا بيانات «القيادات الثقافية» في الأحزاب أوالاتحادات، التي تدعونا إلى مواجهة «التطبيع الثقافي» -بأسلوب مناطحة المنديل الأحمر- ولنواجه بعض الأرقام والمعطيات الإحصائية في قطاع الأبحاث العلمية لدى إسرائيل ولدى الدول العربية مجتمعة.

في مقالة للزميل أنطوان حداد: «اتساع الفجوة العلمية بين العرب وإسرائيل»[2]، بعض من معطيات رقمية احتسبها الكاتب من الكتاب السنوي الإحصائي الصادر عن

(١) بلغت نسبة الذين يحسنون القراءة والكتابة بين الكبار (ما فوق ١٥ سنة) ٥١٪ سنة ١٩٩٠م في مقابل ٧٤٪ في دول شرق آسيا، و٨٤٪ في دول جنوب شرق آسيا، و٨٥٪ في دول أميركا اللاتينية.

(٢) نشرت في «النهار» ١٩٩٤/٨/١٧م .

اليونسكو سنة ١٩٩٣م ،ومن تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٩٣م. ومن المفيد في هذا السياق إيراد بعضها :

«إسرائيل تنفق سنويًا نحو ١,٥٨١ مليار دولار على البحث والتطوير، أي تقريبًا نصف ما ينفقه العرب مجتمعين (٣,١٥ مليار دولار)، و٢٥ ضعف ميزانية البحث والتطوير في مصر التي لا تتجاوز ٦٢ مليون دولار، ويعني ذلك أن كل باحث إسرائيلي يتمتع بميزانية سنوية تبلغ ٦٣,٢٤٠ دولار، بما فيها الراتب، وهي أعلى ميزانية فردية على الإطلاق في العالم، فيما يكتفي نظيره المصري بـ ٢٥٠٠ دولار سنويًا، بما فيها الراتب طبعًا».

وفي مجال إصدار الكتب، «يصدر عن العالم العربي سنويًا ٦٤٠٠ كتاب جديد تشكل ٠,٨٪ من مجمل العناوين الصادرة في العالم، والتي يبلغ عددها ٨٤٢ ألف كتاب بعد عام ١٩٩٠م. إذًا نسبة ما ينتجه العالم العربي من كتب هي ٠,٨٪ من الإنتاج العالمي، فيما يشكل العرب ٤,٢٪ من سكان العالم».

والخطورة هنا لا تقتصر على مدى اتساع الفجوة العلمية بيننا وبين إسرائيل، بل تتجاوز ذلك لتطرح أبعادًا أخطر بشأن موقع البحث وقيمته الاجتماعية والسياسية في مجال العلوم الإنسانية والاستراتيجية والسياسية ونظرة السلطة إليه. وإذ لا تتسع هذه العجالة لمعالجة الجانب الإبداعي في الثقافة، نسوق بضع ملاحظات تتعلق بمدى قيمة البحث العلمي في مجال علوم الإنسان والمجتمع والاقتصاد والسياسة، ومدى قيمة الباحث والمؤسسة الأكاديمية والبحثية في بلادنا.

يستخدم العالم الفرنسي «بيير بورديو» تعبير «رأس المال الرمزي» للإشارة إلى قيمة أنماط من العلاقات التبادلية بين البشر، تخضع للأعراف والعادات والقيم والأخلاق، وتنتظم قناعات وأشكالاً من الإيمان. وهذه القيمة لا تدخل في الحسابات

المالية، ولا ينظر لها من زاوية التراكم والتكلفة والأسعار والريع والربح وفائض القيمة، بل إن تكلفتها المادية -وقد تكون كبيرة- لا يقابلها بالضرورة ربح مادي مباشر، لكن يبقى لها وظيفة عامة اجتماعية وسياسية ومعنوية، من شأنها أن تؤمن شروط تراكم الثروة في المدى البعيد، وشروط إعادة إنتاج ركائز السلطة الوطنية، وتماسك الجماعة واستقرارها، ومرونة العلاقات وسيولتها.

في تاريخ الحضارة الإسلامية، في إبان ازدهارها، أدت الأوقاف دوراً بارزاً في ما أسماه بورديو دور «رأس المال الرمزي»، إذ من خلالها كان يتم الإنفاق على دور العلم، والبيمارستانات (المستشفيات)، ومختلف الخدمات الاجتماعية.

وفي زمننا المعاصر، وفي سياق نشأة الدولة الحديثة، تقهقرت أوضاع الوقف، أو صادرت الدولة بعضه أو كله، ولم تقم الدولة بواجبها الاجتماعي والعلمي والخدماتي على الوجه المطلوب. وبلغة الاقتصاد السياسي المعاصر، لم يقم القطاع العام بواجبه كما يجب تجاه المجتمع والجامعة والمدرسة والبحث العلمي. كما لم يقم القطاع الخاص (رأس المال) بمهماته كرأس مال تراكمي بعيد المدى، إذ أنه لم ينتج «رأس ماله الرمزي»، واكتفى بالاستفادة من البنى التقليدية كرأس مال رمزي مساعد في المضاربات العقارية والتجارة الوسيطة والمقاولات، وكلها قطاعات من الاقتصاد قلما تتطلب إنتاجًا لمعرفة، أو أبحاثًا في التنمية أو في علم الاجتماع الاقتصادي والاستثمارات البعيدة المدى.

أما أهل الدولة والسياسة، فهم أيضًا قلما يحتاجون إلى أبحاث ودراسات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم النفس في مجتمع تقليدي تفكك، عاشوه واختبروه وأتقنوا استخدام رموزه ومفرداته وأساليب بناء السلطة فيه. فأي نفع من تطوير جامعة أو إنشاء مركز أبحاث؟ وإذا كانت السياسات الإقليمية والدولية على

المستوى الخارجي قد ضاق هامشها أكثر فأكثر بالانتقال من الثنائية القطبية إلى المركزية القطبية، فأي نفع أيضًا في إنشاء مراكز دراسات استراتيجية وجيو-سياسية؟ وإذا كانت السياسات الاقتصادية الكبرى في المنطقة، ومنها السياسات الشرق الأوسطية، يخطط لها عبر البنك الدولي والمؤسسات العالمية والشركات المتعددة الجنسيات، فأية حاجة أيضًا إلى الدراسات الاقتصادية والإنمائية المحلية؟

إلا أن هذه التساؤلات النقدية كلها لا تدعو إلى استسلام المثقف، أكان عالمًا أم باحثًا أم مبدعًا. إن التحديات الراهنة، بل إن التجزئة التاريخية برمتها منذ أوائل القرن، تطرح بإلحاح نمطًا جديداً من السلطة والدولة، نمطًا جديداً من التنمية، نمطًا جديداً من رجل الأعمال والصناعي والتاجر، نمطًا جديداً من العلاقة بالعلم والبحث وبالمؤسسة الأكاديمية والبحثية وبمجالات الإبداع الفني على اختلافها، نمطًا جديداً من فلسفة السياسة العربية.

أتساءل وأنا أكتب هذه السطور: لماذا يوجد في الولايات المتحدة وألمانيا ودول أخرى عشرات، وربما مئات «المؤسسات البحثية» الخاصة تحمل اسم هذا الشخص أو ذاك؟ وهذه المؤسسات لا تكتفي بتشجيع الأبحاث داخل بلادها، بل تشجع وتمول أنشطة علمية وبحثية خارجها! وأتساءل: لماذا لا نجد في بلادنا العربية الإسلامية مثل هذه المؤسسات، وفلسفة الوقف التي كانت جزءاً من حضارتها، وُجدت في الأساس من أجل تأمين الخدمات العلمية الاجتماعية؟ وإن وجدت مثل تلك المؤسسات، في حالات نادرة، لماذا تتقلص وظيفتها لتصبح وظيفة جاه واستعراض، بدلاً من أن تكون وظيفة إنتاج للمعرفة؟

في دراساتي التي تناولت فيها مواقع النخب العربية والإسلامية تجاه الدولة العثمانية من جهة والغرب من جهة أخرى، توقفت مليًا، وبشيء من القلق والحيرة،

عند تساؤلات: لماذا فضل بعض النخب الغرب على الدولة العثمانية، ولماذا تردد البعض الآخر؟ ولماذا كان ذاك الإرباك والالتباس في مواقف المثقفين تجاه مصائر المنطقة؟ ووجدت أن ما أسماه مالك بن نبي لاحقًا «القابلية للاستعمار» تمليها وقائع مرة: «جاذبية» الاستعمار من جهة، وبؤس واقع الحال من جهة أخرى.

لقد وجد «مثقف النهضة» أن الغرب يقدم المدرسة والجامعة والمستشفى والطريق وسكة الحديد، بينما تعجز دولته عن تقديم أي شيء، بل يتطاول سلطانها في المقابل لمنع الكتاب، وكم الأفواه، ومنع الكتابة، وملاحقة المفكرين. أمام هذه المفارقة ينتصب إشكال صعب وخيار أصعب، لا تنفع حيالهما النصائح ولا التحذيرات، لا سيما عندما يوضع خيار «المصير القومي» في مواجهة مع خيار «الديمقراطية» و«حقوق الإنسان»، من تعليم وصحة وإنتاج فكرى وثقافي وإبداع وحرية تعبير.

صحيح أن الأفكار الأخيرة (الديمقراطية وحقوق الإنسان) كانت ولا تزال شعارات لا تأخذها الدول الكبرى على محمل الجد بالنسبة إلينا وإلى دول العالم الثالث، بل وتستخدمها مجرد أوراق سياسية، يستيقظ ضميرها حيال خرقها ساعة يشاء، وينام مستقر البال ساعة يشاء.. وصحيح أن المشروع الشرق الأوسطي لن يكون جنة الديمقراطية وحقوق الإنسان، إذ عبره ستسحق الطبقات الوسطى مع الطبقات المعدمة، وستدوس الرأسماليات الاحتكارية الكبرى على أصل ليبراليتها وديمقراطيتها المزعومة، و«مجتمعها المدني» الذي صعدت على أنقاضه.. صحيح كل هذا، لكنه لا يبرر الفصل بين «المصير القومي» ومصير الإنسان العربي والمسلم المرتبط بشرطين هما شرطا وجوده: حريته وحقوقه.

إن «الموقف الثقافي» يبدأ من تلمس المشكلة في أجزائها الصغيرة وفي أشكالها المعيشة لا في مفرداتها الكبرى كـ«التطبيع» و«المصير» و«الرفض» و«الثورة»...

وإلى من يخشى ويتخوف من تطبيع المجتمعات العربية والإسلامية ثقافيًا، يستحسن أن يقرأ تجربة المجتمع المصري في الممانعة الثقافية. لكن كي تصمد هذه الممانعة في أي مجتمع عربي، وفي حال التطبيع أو عدمه، لا بد لها من شروط إنمائية واستراتيجية وحضارية.

فالخوف على مجتمعاتنا ليس من الغزو الثقافي، وإنما من الفقر والجهل والأمية وسياسات التفرد والانقسام والفردية، وحب السلطان، وسياسات التجهيل، وتهميش النخب العلمية والفكرية والثقافية، ودفع العلماء إلى الهجرة، والباحثين إلى البطالة أو الجمود أو التسبيح بـ «مجد السلطان».

بهذا المعنى يتجاوز مفهوم الثقافة المقاطعة، كما يتجاوز التطبيع. إنها شرط ومؤشر في الوقت نفسه: مؤشر على حالة العرب عندما يحاربون ويقاطعون، وعلى حالتهم عندما يفاوضون ويسالمون.

لقد كانت هذه الحالة مؤشرًا في مرحلة سابقة على سوء إدارة الحرب، فهل نتعظ ويتم تحويل الثقافة إلى حالة نهوض، أي إلى حالة علم ومعرفة وإبداع على المستويات كافة، حالة ينتفع العرب والمسلمون بها، سواء في حربهم أو في سلمهم؟

بهذا الشرط، وهو شرط لا يبنى بين ليلة وضحاها، بل بتراكم تاريخي نملك بداياته، يمكن أن نواجه مرحلة الحرب ومرحلة التطبيع. وكما قال الإمام علي: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

ولا بأس في نقل هذه الجدلية الغنية في الموقف الفلسفي-الوجودي إلى حقل العمل من أجل السلم والحرب معًا، من أجل السلم العادل، ومن أجل الحرب العادلة أيضًا.

حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا

الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي*

الأمة التي صنعت الحضارة القديمة قادرة على أن تصنع حضارة جديدة تأخذ من حضارة الغرب خير ما فيها من وثبات العلم، وتضيف إليها قيم الإيمان والإنسانية، وتضبط مسيرتها بالتشريعات الإلهية، وبهذا تكمل نقص الحضارة المعاصرة.

لم تصل حضارة من الحضارات طوال التاريخ إلى ما وصلت إليه الحضارة الغربية المعاصرة التي تسود عالمنا اليوم، والتي بلغت الأوج في التقدم العلمي والتكنولوجي، مما كان له أثره في اختصار المكان والزمان للإنسان، وتوفير الرفاهية والراحة له، حتى أصبحت حاجاته تُقضى بضغط على زر، بل يكاد الآن يستغني عن الأزرار، فهو يدخل الباب فينفتح له وحده، ويضع يده تحت الصنبور، فيصب الماء عليه، ويضع قدمه على السلم فيصعد به، إلى غير ذلك مما غدا معتاداً في حياتنا اليوم.

ولقد استطاع الإنسان أن يغزو الفضاء، ويبعث بمراكبه تدور حول الأرض، بل لقد نزل الإنسان بالفعل على سطح القمر، وجلب منه صخوراً وأتربة، وضعها تحت بحثه وتحليله. ويحاول الآن الوصول إلى الكواكب الأبعد في الفضاء الكوني، مثل الكوكب الأحمر، المريخ.

---

* مدير مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر (قطر).

ولا ريب أن إنجازات العلم المادي في عصرنا إنجازات هائلة، لو ذكر عشر معشارها لمن كان قبلنا لاتهموا قائله بالجنون. وهي تدخل تحت قوله تعالى في القرآن: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

شقاء الإنسان في هذه الحضارة:

ولكن يبقى هنا سؤال في غاية الأهمية، وهو: هل استطاع العلم الذي رفع الإنسان إلى سطح القمر أن يحقق له السعادة على ظهر الأرض؟

الواقع المر يقول: لا، فإن العلم بمفهومه الغربي -وهو علم مادي بحت- وفر للإنسان راحة الجسم، ولم يوفر له راحة النفس، حقق له الرفاهية المادية، ولم يحقق له السكينة الروحية، هيأ له الوسائل والأدوات، ولم يهيئ له المقاصد والغايات، ولهذا عاش الإنسان مزوق الظاهر، خرب الباطن، أشبه بقبور العظماء، مشيدة مزخرفة، وليس فيها إلا عظام نخرة.

ومن ثم رأينا الناس الذين يعيشون تحت سلطان هذه الحضارة يشكون من القلق والاكتئاب والخوف والأسى واليأس، والغربة النفسية، والشعور بالضياع وتفاهة الحياة، وأنها حياة لا هدف لها ولا رسالة ولا طعم ولا معنى. وهذا يحطم الإنسان من داخله.

ولا غرو أن كثرت العيادات النفسية والعصبية، حتى غدت تعد بالألوف، ومع هذا لا تكفي زائريها، وقلما يجدون عندها ما يشفي عليلاً، أو يروي غليلاً.

إن الناس يشكون في هذه الحضارة من الانحلال الأخلاقي، والقلق النفسي، والتفسخ العائلي، والاضطراب العقلي، والتفكك الاجتماعي، ومن انتشار الجريمة إلى حد يثير الخوف والذعر لدى جماهير الناس[1].

---

(١) انظر: فصل (آفات الحضارة المعاصرة وآثارها على الحياة البشرية) من كتابنا (الإسلام حضارة الغد)، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

لقد بالغت الحضارة الغربية في إعطاء الحرية الشخصية للإنسان، ليفعل ما يشاء ما دام لا يعتدي على غيره، فأفسدت عليه فطرته، ولم تستطع إشباع نهمه كله، فالشهوات كلما ازداد المرء منها عبًا، ازداد معها عطشًا، ولا يوجد في الكون كله شيء حر حرية مطلقة، فالبواخر في المحيطات، والطائرات في الفضاء، تسير في مسارات محددة، لا يجوز لها أن تتعداها، وإلا هددت بكوارث لا تحمد عقباها، ولا تعرف نتائجها.

والحضارة لم تجن على الإنسان وحده، لقد جنت على البيئة من حوله، فلوثتها بدخان مصانعها، و فضلاتها، وآثار إشعاعها، ونفاياتها النووية، وتدخلاتها الكيماوية في النبات والحيوان، وأكثر من ذلك آثار الهندسة الوراثية.. وقد بدأت هذه النتائج تبدو للعيان في مثل (جنون البقر) وغيره من المشكلات.. وما يكنه الغد أشد وأقسى.

أضف إلى ذلك الإخلال بالتوازن الكوني، كما يبدو فيما ذكروه من (ثقب الأوزون)، ولا ندري ماذا بعد ذلك؟

والليالي من الزمان حُبالى   مثقلات يلدن كل عجيب!

فهذه ثمار طبيعية لصنع الإنسان بنفسه وما حوله، إذا تصرف في نفسه وفي الكون، وكأنه إله لا يسأل عما يفعل، وما هو إلا مخلوق لخالق عظيم، يجب عليه أن يخضع لنواميسه الكونية، وقوانينه الشرعية، وبذلك ينجو ويفلح.

سر المعاناة في هذه الحضارة:

وسر ما يعانيه الناس في الحضارة المعاصرة: أنها حضارة نسيت (الله) فأنساها أنفسها. إنها عاشت جسمًا بلا روح، أو قل :جسم فيل بروح نملة!

ولقد قال الشاعر الهندي الكبير طاغور لأحد مفكري الغرب: صحيح أنكم

استطعتم أن تحلِّقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في البحر كالسمك، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان.

بل وجدنا من النقاد الغربيين أنفسهم من يشكو من الخواء الروحي في هذه الحضارة، بل من يدقون جرس الإنذار محذرين من التمادي في هذه الحياة المادية الإباحية النفعية، التي لا تطمئن الإنسان من قلق، ولا تؤمنه من خوف.

تحذيرات رجال العلم والفكر والأدب:

لقد توالت تحذيرات العلماء والفلاسفة والمربين والأدباء والسياسيين وغيرهم، من مادية الحضارة الغربية، وإغراقها في الآلية الصناعية، والحياة الاستهلاكية.

من ذلك: تحذيرات (الكسيس كاريل) و (رينيه دوبو) من رجال العلوم الطبيعية، ومن الحائزين على جائزة نوبل، وسننقل بعض كلامهما فيما بعد.

ومن ذلك ما قاله الفيلسوف الأمريكي الشهير (جون ديوي): إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة.. لهي حضارة تدمر نفسها بنفسها[1].

وأوضح منه ما قاله المفكر الكبير المؤرخ البريطاني المعاصر (توينبي) إذ ينقل عنه الكاتب الأمريكي (كولن ولسون) مقولته: لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها، وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم، ببيعها المصابيح الجديدة لهم مقابل المصابيح القديمة، لقد أغرتهم فباعوا أرواحهم وأخذوا بدلاً منها السينما، الراديو، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك (الصفقة الجديدة) إقفاراً روحيًا وصفه (أفلاطون) بأنه مجتمع الخنازير، ووصفه (الدوس هكسلي) بأنه عالم زاهٍ جديد!!»..

---

(١) نقل ذلك عنه دوبو في كتابه المترجم بعنوان: (إنسانية الإنسان)، ص ٤٣.

ويأمل توينبي في نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين[1].

وقال الأديب الأمريكي الكبير (جون شتاينيك) في خطاب أرسله إلى صديقه (ادلاى استيفينسون) : «إن مشكلة أمريكا هي ثراؤها، وأن لديها أشياء كثيرة، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية.. إننا في حاجة إلى ضربة تجعلنا نفيق من ثرائنا، لقد انتصرنا على الطبيعة، ولكننا لم ننتصر على أنفسنا».

وعبر الشاعر الألماني (بروشرت) عن مأساة الأجيال الجديدة، الناشئة في ظل الحضارة الآلية بقوله : «نحن جيل بلا رابط ولا عمق. عمقنا هو الهاوية، نحن جيل بلا دين ولا راحة، شمسنا ضيقة، حبنا وحشية، وشبابنا بلا شباب. إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد!».

وفي أكثر من كتاب، ومن محاضرة للمفكر الفرنسي جارودي، حمل على الحضارة الغربية، وسماها الحضارة الفرعونية، فقد تهيأ لها العلم، ولم تضم إليه الحكمة، وعنيت بالآلة ولم تعن بالإنسان، ولا سيما الحضارة الأمريكية التي تقوم على تأليه الدولار، ووحدانية السوق بدل وحدانية الله.. وقد ألف أخيراً كتاب (أمريكا طليعة الانحطاط)[2]. ولا يقلل من شهادته اهتداؤه إلى الإسلام، ومثله (ليوبولد فايس) أو محمد أسد، و(رينيه جينو) أو عبد الواحد يحيى.

ومن السياسيين الذين عنوا بهذا الجانب (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الأمريكي الشهير في عهد (أيزنهاور) صاحب كتاب (حرب أم سلام) فقد خصص

---

(١) عن كتاب (سقوط الحضارة) لكولن ولسون، وهو كاتب أمريكي معروف ناقد للحضارة الغربية أيضاً، وقد وصف الحياة في نيويورك بأنها (غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء!).

(٢) نشرته (دار الشروق) بالقاهرة، ١٩٩٩م.

فصلاً من كتابه بعنوان (حاجتنا الروحية) بيَّن فيه ما ينقص أمريكا، فقال: «إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي. فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً. وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها».

ومن أهم ما ذكره: ما نقله عن الرئيس (ولسون) مما كتبه قبيل وفاته: «إن اختصار المسألة هو: أن حضارتنا لا تستطيع البقاء والاستمرار من الناحية المادية، إلا إذا استردت روحانيتها!». وحسبنا هذه الشهادات من أهلها[1].

عجز العلم في حضارة اليوم عن إسعاد البشرية:

لماذا يصرخ الناس في عصرنا، ويضجون بالشكوى من شقائهم، وشعورهم بأن الحياة بلا معنى؟ ألا يستطيع العلم الكوني، العلم الطبيعي والرياضي، وما أثمره من من تكنولوجيا غيرت وجه الحياة، قربت البعيد،وأنطقت الحديد، ويسرت العسير: أن يهب السعادة للناس، ويزيح الشقاء والمرارة والبؤس، والتفاهة، التي يعاني منها الناس؟ الحق أن العلماء الكبار أنفسهم أكدوا عجز العلم عن القيام بدور المنقذ.

شهادات كبار العلماء:

من هؤلاء العلامة (ألكسيس كاريل) أحد أقطاب العلم، والحاصل على جائزة (نوبل) في العلوم، وصاحب الكتاب القيم الشهير (الإنسان ذلك المجهول) الذي نقد فيه الحضارة الغربية نقداً علمياً رصينًا، قائمًا على منطق العلم ومسلماته.

يقول (ألكسيس كاريل) في كتابه ذاك: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في

---

(١) من أراد الاستزادة فليراجع الفصل الثالث من كتابنا (الإسلام حضارة الغد) بعنوان: (عقلاء رجال الغرب يدقون أجراس الإنذار).

موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولّدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أُنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[1].

وفي موضع آخر يقول: «يجب أن نحرر الإنسان من الكونيات التي خلقها علماء الطبيعة والفلك.. تلك الكونيات التي حُبس فيها الإنسان منذ عصر النهضة، إذ على الرغم من ضخامته الهائلة، فإن عالَم المادة أضيق من أن يتسع للإنسان، فهو كبيئته الاقتصادية والاجتماعية، لا يلائمه.

ويختم الكتاب كله بقوله: «لقد حان اليوم الذي نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا.. ولكننا لن نضع برنامجاً، لأن البرنامج قد يخنق الحقيقة الحية خلف درع صُلب، إنه سيمنع انبثاق غير المتنبأ به، ويحبس المستقبل داخل حدود عقلنا»[2].

وما قاله (ألكسيس كاريل) أكده عالم آخر، من كبار علماء البيولوجيا، ومن حملة جائزة نوبل أيضاً، وله كتاب يعتبر امتداداً لكتاب (ألكسيس كاريل)، بعد نحو ثلث قرن من الزمان.

ذلك العالم هو (رينيه دوبو) الأمريكي الجنسية الفرنسي الأصل. وكتابه هو (So Human An Animal) الذي ترجمه إلى العربية الدكتور نبيل صبحي الطويل تحت عنوان (إنسانية الإنسان)[3] يقول (دوبو) في كتابه:

«نحن ندعي أننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يُدار الآن، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور

---

(١) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ص٣٧، الطبعة الرابعة.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٧، ٣٥٩.

(٣) نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت.

الإنسان! لقد جمعنا جسمًا هائلاً من المعلومات حول المادة، وتقنية قوية لضبط واستغلال العالم الخارجي.. ومع ذلك لا يزال جهلنا فاضحًا بالآثار التي قد تنتج عن اللَّعب بمهاراتنا هذه، ونتصرف في غالب الأحيان وكأننا آخر جيل يعيش على هذه الأرض».

«إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية».

«إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة، والخليط الحضري المتمرد، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»[1].

«منذ قرنين تقريبًا والإنسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسَّنت صحته العضوية.. إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة»[2].

وفي موضع آخر يقول:

«وتواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء، أو بدايات الزمن، أضف إلى ذلك أن الإنجازات العلمية تثير -بصورة عامة- مسائل

---

(١) إنسانية الإنسان، ص٣١، من الترجمة العربية.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم، ويشيرون إلى أن العلم والتكنولوجيا أدوات ووسائل ليس لها أخلاق، ويمكن استعمالها لخير البشرية أو لدمارها.. والاعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشاكل العلمية أمر يكذبه الوعي المتزايد بأن تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة»[1].

وفي حديث بعنوان: «هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو؟» كان سكرتير وزارة الداخلية (استيوارت.ل.أودال) شجاعًا عندما قال: إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنسان.. كارثة على مستوى القارة. لقد ذكَّر (أودال) مستمعيه: «إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات (الخردة) بالمقارنة لأية دولة أخرى في العالم! نحن أكثر سكان العالم تنقلاً ونتحمل أكبر قدر من الازدحام! ونولِّد أكبر قدر من الطاقة، وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثاً في العالَم..»، ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله مازحاً: «إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنسانًا إلى القمر.. بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات!!»[2].

وشهادة أخرى من الدكتور (هنري لنك) طبيب النفس الأمريكي الشهير، إذ يقول معارضًا للذين ينكرون الإيمان بالغيب، باسم العلم واحترام الفكر، مبينًا أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة:

«والواقع أنه يوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال، وأعني به تعظيم شأن الفكر، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب،(أي بعيداً عن الروح)

---

(١) إنسانية الإنسان، ص٢٢٠.

(٢) انظر: فصل: التخلص من أسطورة النمو والتنمية، من كتاب (إنسانية الإنسان)، ص٢١٩، ٢٢١.

كفيل بهدم سعادة الإنسان».

«فلن نهتدي إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها.. فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التي ابتدعتها وابتكرتها، بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعفنها، كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم، وأعني به طريق الإيمان»[١].

علم الغرب معزول عن الدين:

أضف إلى ما ذكره هؤلاء العلماء الغربيون: أن العلم في الغرب -لظروف تاريخية معروفة- نشأ بمعزل عن الدين، بل نشأ مضاداً للدين، فقد وقفت الكنيسة وقفتها المعروفة في التاريخ، معادية للعلم ومكتشفاته، فتركها العلم، ومضى وحده، وحسب العلماء أن طبيعة الدين أن يقف في وجه العلم، فأعرض عن الله -مصدر الدين- ولم يذكر اسمه في بحوثه وابتكاراته وإنجازاته.

كانت هذه هي الروح السائدة على العلم ورجاله في حضارة الغرب، فلم تدرس قوانينه على أنها (سنن الله في الكون). بل هي إفرازات الطبيعة الصماء، ولم يقل العلماء لطلابهم: هذا من صنع الله في خلقه، بل قالوا: هذا من صنع الطبيعة! والطبيعة أعجز من أن تصنع شيئًا، ولكن هذه الإبداعات التي نشهدها في الكون كله، أرضه وسمائه، إنما هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠)، هذا ما نؤمن به نحن المسلمين.

(١) العودة للإيمان، ص٨١،٨٢، وقد ترجم إلى العربية في أوائل الخمسينيات، وذكر مترجمه ثروت عكاشة، أنه طبع في أمريكا ٤٨ طبعة.

ثم إن الغرب قد استخدم منجزات العلم في الخير والشر، والنفع والضر، والحياة والموت، ولم يبال أن يجعل من منتجات العلم أدوات للتدمير وإهلاك البشر. ألم تر ما صنعه في حربيه العالميتين الكبيرتين في القرن العشرين، وما قتل فيهما من الملايين؟ ألم تر ما فعله بأهل هيروشيما وناجازاكي في اليابان من ضربهما بالقنابل الذرية المهلكة للحرث والنسل، المدمرة للحياة والأحياء بغير حساب؟

فلا يتصور من علم هذه نشأته، وهذا نهجه، وهذه روحه، وهذه منجزاته، أن يكون سببًا في سعادة البشر، و أن يقوم بدور المنقذ لما يعانون من شقوة في حياتهم، بل لعله -كما ذكر علماؤه أنفسهم- من أسباب تعاستهم، وفراغهم الروحي.

عجز الفلسفة أن تسعد البشرية:

وإذا كان العلم الطبيعي والرياضي -على تقدمه الهائل في عصرنا- لم يستطع أن يحرر الإنسان من شقائه وضياعه، فهل تستطيع الفلسفة -بمدارسها المختلفة، واتجاهاتها المتباينة- أن تكون سفينة إنقاذ للبشرية المعاصرة -وخصوصًا في الغرب الذي بلغ ذروة التقدم في المجالات المادية- من الغرق المخوف، في بحر الظلمات، الذي أبدع القرآن في وصفه: ﴿ ... كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠).

لقد اختلفت العقول الفلسفية في أجلى حقائق الوجود، وهي حقيقة وجود الله تعالى ووحدانيته وتفرده سبحانه بالكمال الذي يليق بذاته المقدسة.

فذهب من ذهب من الفلاسفة إلى إنكار الإله، وكل ما وراء الحس، وأنه ليس في الوجود إلا المادة، وما عدا ذلك فهو حديث خرافة.

وبعكسهم من أثبت تعدد الآلهة، وأقر عبادة الإنسان أو عبادة الحيوان، أو عبادة الأوثان، أو عبادة النجوم، أو غيرها، وبرر ذلك بمستندات عقلية.

ومن الفلاسفة من أثبت للكون إلها، ولكنه لم يعطه صفات إيجابية، تجعله قادراً على أن يدبر في الكون أمراً، فهو لا يعلم إلا ذاته، ولا يعلم في الكون شيئًا؛ والفلاسفة الدينيون على عكس هذا.

وكما اختلفت عقول البشر في شأن الألوهية، اختلفت في شأن الإنسان: ما هو؟ روح خالد أم مادة فانية؟ نور من السماء أم طين من الأرض؟ ملاك صاعد أم حيوان هابط؟ عقل مدبِّر أم شهوة مسيَّرة؟ أهو ثابت أم متغير؟ مسيّر أم مخير؟ أناني أم غيري؟ فردي أم جماعي؟ تجدي فيه التربية أم لا تجدي؟ مخلوق مكرم خُلق لهدف أسمى، أم نبتة برية ظهرت بغير زارع، وتوشك أن تكون هشيمًا تذروه الرياح؟ ما حقيقة هذا الإنسان؟ هل خُلق من غير شيء أو خَلقه خالق؟ ولأي غاية خُلق؟ ولماذا يحيا؟ وما رسالته في حياته؟ وما مصيره بعد مماته!!؟؟

أسئلة اختلف في الإجابة عنها عمالقة الفكر والفلسفة، في شتى الأعصار، ومختلف الأقطار، وشتَّى المدارس والاتجاهات، وتباينت بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وكثيراً ما خرج المتبحرون في الفلسفات، والمتعمقون في دراستها، أشد حيرة مما دخلوها.

صراع الفلسفات وتناقضها:

اقرأ تاريخ الفلسفة والفكر في الشرق والغرب،وأجِلْ بصرك في المدارس الفلسفية هنا وهناك قديمًا وحديثًا، فماذا تجد؟

تجد المثاليين من الفلاسفة يعارضهم الواقعيون؛ وتجد الروحيين منهم يناقضهم الماديون؛ وتجد الإلهيين يصارعهم الملحدون؛ وتجد دعاة الواجب في مقابلة دعاة المنفعة؛ وتجد من ينادي بالرجوع إلى الضمير، ومن يصرخ بأن الضمير خرافة! وتجد القائلين بخيرية الإنسان، والقائلين بأنه ذئب مقنَّع! وتجد القائلين بأنه حر مختار،

والقائلين بأنه ريشة في مهب الريح؛ وتجد دعاة الفلسفة الفردية في مواجهة دعاة الفلسفة الجماعية.

وكل فريق يزعم أن الصواب معه، وأن الخطأ عند غيره، وكلهم من العقل الحر -المجرد من الالتزام بأي دين- يستمدون، وعنه يصدرون!

بل وجدنا في مدارس الفلسفة من ينكر وجود أي حقيقة كانت، فلا الدين حقيقة، ولا الدنيا حقيقة، لا الله حقيقة، ولا الإنسان حقيقة، حتى أنكروا وجودهم ذاته!! إن ما يظنه الإنسان حقيقة إن هو إلا سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. وهؤلاء هم الذين يسمونهم (العنادية)، المعاندين لوجود الحقائق في أي مجال.

وهناك من قالوا بنسبية الحقائق كلها، فلا توجد حقيقة مطلقة في أي شيء. فالحقيقة كل الحقيقة عند زيد، لا مانع في أن تكون هي الباطل كل الباطل عند عمرو، وكلاهما صواب، وهؤلاء يسمونهم (العندية).

وهناك من شككوا في الحقائق كلها، ولما قيل لهم: إذن هناك حقيقة أقررتم بها، وهي الشك في ثبوت الحقيقة، قالوا: نحن نشك، ونشك في أننا نشك!! وهؤلاء هم الذين يسمونهم (اللاأدرية)، أي الذين يقولون في كل قضية: لا ندري حقيقتها!

ثم إن العقل البشري -مهما يدّع الحيادية والموضوعية- تحده وتؤثر فيه أوضاع المكان والزمان، أي ظروف البيئة والعصر، البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية والثقافية، كما تحده وتحكمه طاقة الإنسان وقدرته على المعرفة من خلال وسائل وأدوات هي محدودة أيضًا.

وفوق ذلك كله، نجد هذا العقل، مهما يحاول التجرد من الذاتية، كثيرًا ما يقع -بوعي أو بغير وعي- أسيرًا للمؤثرات والميول الشخصية والحزبية والطائفية، والإقليمية والعنصرية وغيرها، مما يوجه أحكامه وجهة متحيزة بعيدة عن الموضوعية.

لهذا كان الإنسان في حاجة إلى نور آخر أقوى من نور العقل، يهديه في مفارق الطرقات، وعند التباس الأمور، وهو نور الوحي، ليكون له ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ (النور:٣٥)[1].

حصاد الفلسفة خلال القرون:

وهنا سؤال مهم يحتاج إلى جواب: ما حصاد الفلسفة خلال القرون القديمة والوسيطة والحديثة؟ ما الذي قدمته الفلسفة للبشرية من هداية للعقل، أو طمأنينة للقلب، أو سكينة للروح؟ إنها أثارت أسئلة عويصة ولم تجب عنها، أو أجابت إجابات ينقض بعضها بعضًا! إنها هدمت أكثر مما بنت، وتكلمت كثيرًا، وكان السكوت خيرًا لها ولأهلها لو كانوا يعلمون.

وها هو أحد مؤرخي الفسلفة في عصرنا، وهو أحد أنصارها، والمعجبين بها (ول ديورانت) الأمريكي صاحب الكتاب الشهير في التاريخ (قصة الحضارة) يقول في كتابه الذي سماه (مباهج الفلسفة) مبينًا الحصيلة الأخيرة من وراء مشوارها الطويل:

«ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته؟ وما مكوناته وهيكله؟ وما مواده الأولى وقوانينه؟ ما المادة في كيفها الباطن، وفي جوهر وجودها الغامض؟ ما العقل؟ أهو على الدوام متميِّز عن المادة وذو سلطان عليها؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين: الخارجي الذي ندركه بالحس، والباطني الذي نحسه في الشعور، عُرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية، كما قال الشاعر: «ما يكتبه الخالق في مطلع النهار نقرؤه في آخر النهار؟» أم ثمة في المادة أو العقل، أو في كليهما، عنصر من

(١) انظر: كتابنا (المرجعية العليا في الإسلام) فصل: تقديم العقل على الشرع، ص٢٣١-٢٥٤، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

الاتفاق والتلقائية والحرية..؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس، ويجيب عليها جميع الناس. وهي منابع فلسفاتنا الأخيرة، التي يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شيء آخر، في نظام متماسك من الفكر.. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض.

«ولنسلم أنفسنا في الحال لإخفاق لا مناص منه. لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج في إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس، فقط، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل! فهذه النظرة الكلية -وهي فتنتنا في هذه المغامرات اللطيفة- ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن. ويكفي أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع وشيء من الأمانة، لنتأكد من أن الحياة والعالم في غاية التعقيد والدقة، بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما.. وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلاً قد يكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء[1].. فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوي جهلنا! وكلما كثر علمنا قلَّت معرفتنا، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة، وشكوك جديدة.. (فالجزيء) يكشف عن (الذرة)، والذرة عن الألكترون (الكهيرب)، والألكترون عن (الكوانتوم Quantum) الكويمية. ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا (Categories) وقوانيننا وينطوي عليها. والتعليم تجديد في العقائد وتقدم في الشك. وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة، وحواسنا بالعقل.. وفي خلال هذا الضباب يجب علينا نحن (الزغب على الماء) أن نفهم البحر!

وينتهي (ول ديورانت) إلى هذه النتيجة فيقول:

---

(١) هذا التعبير (الآلهة) وأمثاله شائع في الفكر الغربي، وهو من تأثير العقائد الوثنية القديمة لدى الإغريق والرومان، وهو من المكونات الأساسية للعقلية الغربية التي قلما تعرف التوحيد المصفى.

«ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها، وأن الفلاسفة جميعًا خاضعون لثورة جنون قتل الإخْوة!؟ فلا يهدأ لهم بال؛ حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات، أو ما يهدئ به هذه الحرب»[1].

وهذا ما جعل بعض مؤرخي الفلسفة يقول، بعد أن عرض لعدد من الفلاسفة، هذا يثبت وذاك ينفي، وهذا يبني وآخر يهدم، وهذا روحي والثاني مادي، وهذا عقلي ومعارضه عاطفي، وواحد مثالي ومقابله واقعي، بعد هذا قال: ما الحصيلة من هذا كله؟ إنها في الواقع ليست إلا (صِفرًا)!

وكذلك كان هذا ما جعل أحد أساتذة الفلسفة المرموقين، وهو شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود -شيخ الأزهر بعد ذلك- يقول بصراحة، بعد أن رأى تعارض الفلسفة، وتضارب نتائجها، وتناقض ثمراتها: إن الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقرر الشيء ونقيضه، وكل من الرأيين المتنافيين يجد من رجال الفلسفة من يؤيدَه بقوة، ويقيم الأدلة على صوابه، وخطأ غيره، فكيف يخرج الإنسان من هذه المتناقضات بطائل أو ثمرة؟ الواقع أنها لن تشفي له علة، ولن تنقع له غلة، بل الغالب أنه بعد أن يسبح في بحارها سبحًا طويلاً، سيخرج منها أشد حيرة، وأضيع سبيلاً.

ولعل من أبلغ العبارات المعبرة عن عجز الفلسفه، وخيبة الفلاسفة، ما ذكره فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة أبوحيان التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة) حيث قال عن (إخوان الصفا) وفلسفتهم ورسائلهم: «تعبوا وما أغنَوْا، ونصبوا وما أجدَوْا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا»[2].

---

(١) انظر: ص٦١، ٦٢ من (مباهج الفلسفة) ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو مع مؤسسة فرانكلين.

(٢) انظر: الإمتاع والمؤانسة، ٢/٦، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ويتفق هذا مع ما انتهى إليه فيلسوف التاريخ، ومؤسس (علم الاجتماع) العلامة ابن خلدون (ت:٨٠٨هـ): «الذي عقد في الباب السادس من (مقدمته) الشهيرة، فصلاً طويلاً، لبيان (إبطال الفلسفة وفساد منتحلها) ولا سيما الفلسفة الميتافيزيقية، أي التي تعنى بما وراء الطبيعة، أو بـ(الإلهيات). وأوصى من ينظر فيها من أهل الإسلام أن يمتلئ من (الشرعيات) أولاً، قال: ولا يكبَن عليها أحد، وهو خلو من علوم الملة، فقلّ أن يسلم لذلك من معاطبها»[١].

لا إنقاذ للبشرية بغير الدين

لقد أصبح من المؤكد لدى الغربيين أن الإنسان -وإن بلغ من العلم ما بلغ- لا يستطيع أن يعيش بغير دين، بغير إيمان، بغير صلة بالله، وبوحي من السماء.

إن الدين هو سر الوجود، وجوهر الحياة، وروح العالم، وهو شيء ليس مفروضًا على الإنسان من خارجه، بل هو نابع من فطرته التي فطره الله عليها.. والإنسان إذا فقد دينه وإيمانه، فقد نفسه، وفقد جذوره، وفقد أمسه، وفقد غده، ومن لا أمس له ولا غد، قل لي بربك: كيف يعيش؟ والإنسان من غير دين وإيمان أشبه بالساري في دجى الليل بغير مصباح، والسائر في تيه الصحراء بغير دليل، وراكب البحر المحيط وليس معه (بوصلة) ترشده ولا نجم يهديه.. إن الدين ليس أمرًا مفروضًا على الإنسان من خارجه، بل هو نابع من داخل فطرته، التي فطره الله عليها.. والحياة بغير دين مصادمة للفطرة.

لهذا تنادى المخلصون من العلماء والمفكرين والقادة حتى في العالم العربي نفسه، بضرورة استعادة دور الدين في الحياة، حتى يقوى الإنسان من ضعف، ويأمن من خوف، ويهتدي من حَيرة، ويستقر من اضطراب.

---

(١) انظر: المقدمة، طبعة لجنة البيان العربي بتحقيق: د.علي عبد الواحد وافي، ص ١٢٠٦، ١٢٠٧.

وإن بعض الفلاسفة الذين لا يؤمنون بحقيّة الدين، لم يمكنهم إلا الاعتراف بضرورة الإيمان الديني، لضبط مسيرة الحياة، وتقوية حوافز الخير، وتقليم أظفار الشر، حتى قال بعضهم: لو لم يكن الله موجوداً، لوجب علينا أن نخلقه! وقال آخر: لم تشككون في وجود الله، ولولا الإيمان به لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي!

ونبه كثير من العلماء والمفكرين الكبار على ضرورة الدين لحياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، فالفرد في حاجة إلى الإيمان الديني ليطمئن ويسعد، والمجتمع في حاجة إليه ليترابط ويرقى[1].. يقول المؤرخ الكبير توينبي في كتابه (العادة والتغيير):

«إن جميع الأيديولوجيات تشترك في نقطة ضعف واحدة قد تودي بها جميعاً، وذلك في منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير.. وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان.. فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع، وعبودية الفرد، ليتجه إلى الله وحده، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع، فتضاءل ليصبح مجرد (نملة اجتماعية) في مجتمع النمل!!

لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية.. ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار.. ولن تستطيع الأيديولوجيات أن تنسيه هذه الحقيقة.. لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته له الأديان..

فالدين هو قلب الحياة للإنسان، وهو جوهر الحياة للإنسانية، هو النور الذي يغمر القلوب، فلا غنى للإنسان عن الدين.. ولن تستطيع الأيديولوجيات أن تحل محل الدين؛ لأنها تمنحنا التعصب والتباغض، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون.. إنها قد تمنحنا لقمة الخبز، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي»[2].

---

(١) من أوائل كتبنا التي شرحت هذا المعنى بالتفصيل كتابنا (الإيمان والحياة).

(٢) انظر كتابنا (بينات الحل الإسلامي)، ص ٥٥، ٥٧، طبع مكتبة وهبة بالقاهرة.

عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ:

وإذا كان الإنسان في عصرنا في حاجة إلى (الدين) لينقذه من الغرق في بحر الظلمات، فأي دين يمكنه أن يقوم بدور المنقذ للبشرية القلقة الحائرة المعذبة؟

هل تستطيع المسيحية -في إطار أحد مذاهبها الثلاثة الكبرى: الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الأرثوذكسية- أن تقوم بهذا الدور المنشود؟

وجوابًا عن ذلك السؤال نقول منصفين: إن المسيحية القائمة في العالم اليوم، وفي الغرب خاصة، لا تستطيع أن تقوم بدور المنقذ للبشرية المعاصرة مما تعانيه من القلق والتخبط تحت سلطان الحضارة الغربية السائدة، وأن تبني الإنسان المنشود.

وذلك لعدة أسباب نجملها فيما يلي:

أولاً: إن المسيحية في صورتها المثالية لا تحمل رسالة حضارية، بل هي -في صلب تعاليمها- لا تهتم بالحياة، ولا تحتكم للعقل، ولا تدعو إلى العلم، ولا تحنو على فطرة الإنسان، هذا إن لم نقل بصراحة: إنها -كما صورها كهنتها- معادية للحياة، مناوئة للعقل، مجافية للعلم، قاسية على فطرة الإنسان.. والمسيحي المثالي يتجسد في (الراهب) المعتزل للحياة، المنقطع عن الدنيا، المعرض عن الطيّبات، حتى عن الزواج. بل كان الرهبان في العصور الوسطى يفرون من ظل المرأة، ويستعيذون من شرها، ولو كانت هذه المرأة أُم أحدهم أو أخته، وكانوا يبالغون في تعذيب أجسامهم، لترقى أرواحهم[1].

والأخلاق المسيحية أخلاق غير واقعية، لأنها فوق الطاقة المعتادة للبشر، كما في قول الإنجيل: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن سرق قميصك فأعطه إزارك..»

(١) انظر: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) لأبي الحسن الندوي، ص١٨٥، ط دار القلم، الكويت.

والمسيحيون أنفسهم -وخصوصًا في الغرب- أبعد الناس عن هذه الأخلاق، وقد جرى بينهم من الحروب الدينية والدنيوية مالم يجر بين غيرهم من فئات البشر، وحسبنا الحربان العالميتان في هذا القرن وما حصدته من ملايين المسيحيين بأيدي المسيحيين! على أن المسيحية الأصلية كانت رسالة مؤقتة، لفترة محدودة، ولقوم معينين، ولم تكن مهيأة قط لتكون رسالة عامة ولا خالدة، وقد عبر المسيح عن ذلك بأنه إنما بُعث لخراف بني إسرائيل الضالة، وأنه لم يقل كل الحق، كما بشَّر بمن يأتي بعده ليُبيِّن للناس كل شيء، ويكسر عمود الكفر.

فكيف والمسيحية الأصلية نفسها قد غُيِّرت وبُدِّلت، وذهب كتابها الأصلي، ودخل عليها من التحريف اللَّفظي والمعنوي، في عقائدها وشعائرها وأُصولها وفروعها ما مسخها وأضاع حقيقتها، وأخرجها من التوحيد إلى التثليث، ومن عبادة الله الواحد إلى عبادة المسيح أو العذراء!

والمسيح يقول: «لا يدخل الغني ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سم الخياط»، ويقول لمن أراد أن يتبعه: «بع مالك ثم اتبعني».. وشعار المسيحية المتوارث المشهور: اعتقد وأنت أعمى! أي اعزل إيمانك عن عقلك.

والإيمان المسيحي بطبيعته وتاريخه شيء خارج عن دائرة العقل، حتى قال القديس الفيلسوف الشهير (أوغستين) يومًا في تعليل إيمانه بغير المعقول: أومن بهذا، لأنه محال[1]!

معنى هذا أن المسيحي الحق لابد أن يختار بين أمرين، فإما دين بلا علم، وإما علم بلا دين! فالدين والعلم في نظره لا يجتمعان، وهما ككفتي الميزان، لا تثقل إحداهما إلا بما تخف الأخرى.

(١) انظر في هذا كتاب: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) للأستاذ الإمام محمد عبده. والأصول التي تقوم عليها المسيحية، منها (الإيمان بغير المعقول).

ثانيًا: إن المسيحية ينوء كاهلها بتاريخ شديد الظلمة، حالك السواد، ملطخ بدماء العلماء والمفكرين الأحرار، تاريخ تقشعر لمجرد ذكره الأبدان، وتشيب لهوله الولدان، تاريخ وقفت فيه الكنيسة مع الجمود ضد الفكر، ومع الخرافة ضد العلم، ومع الاستبداد ضد الحرية، ومع الظلام ضد النور، ومع الملوك ضد الشعوب، وصنعت من المجازر البشرية -وخاصة مع النخبة والصفوة من العلماء والمفكرين- ما لا ينساه التاريخ. وهل ينسى التاريخ يوما (محاكم التفتيش) وما اقترفته من موبقات في حق العلم وأهله، ولاسيما المبتكرين والمكتشفين؟

وبهذا لم يعد وجه المسيحية مقبولاً بحال للقيام بالدور المنتظر، حتى لو افترضنا قدرتها على ذلك، وما هي بقادرة.

ثالثًا: إن المسيحية لا تنفصل عن (الإكليروس) عن رجال الكهنوت.. وسيادة المسيحية تعني سيادة هؤلاء الذين يتحكمون في ضمائر الناس، ويزعمون أنهم وحدهم الممسكون بمفاتيح أبواب الملكوت، وأنهم حلقة الوصل بين السماء والأرض، ومحتكرو الوساطة بين الله وعباده.. والبشرية التي دفعت ما دفعت للتحرر من استبداد الملوك ورجال الدنيا، ليست مستعدة أن تقع أسيرة لاستبداد رجال الدين مرة أخرى.

رابعًا: إن كثيرًا من رجال الدين في المسيحية، قد انهزموا أمام التيار المادي والإباحي في الحضارة الغربية، فانساقوا وراء أهوائها وانحرافاتها، وأباحوا للناس أن ينهلوا منها ويعلّوا، ويشربوا من خمرها حتى يسكروا ويعربدوا. فلا غرو أن وجدنا من القسس في كنائس عدة في أوربا وأمريكا من يزوج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، خلافًا لفطرة الله التي فطر عليها الناس، والتي دعت الديانات السماوية جميعها إلى رعايتها.. ورأينا بعض هؤلاء القسيسين يستخدم بعض الأغاني المثيرة للجنس في كنيسته لجذب الشباب إليها، والغاية تبرر الوسيلة.

خامساً: إن جمهرة المسيحيين الغربيين اليوم في أوربا وأمريكا -كما تدلّ الإحصائيات، وكما تظهر المشاهدات- ليسوا في الواقع مسيحيين إلا بالاسم أو بالميراث، أو بالجغرافيا، أي بالعيش في بلاد المسيحيين.

إنهم لا يعتنقون المسيحية لا عقيدة ولا سلوكًا، وكثيرًا ما يسأل الواحد منهم عن عقيدته، فيجيب: لم أفكر في هذا الأمر، لأنه لا يعنيني.. إنهم لا يشغلون أنفسهم بالتفكير في الألوهية ولا في النبوة ولا في الآخرة، ولا في الجنة أو النار، ولا يعرفون حلالا من حرام. إن أكبر همهم ومبلغ علمهم هو هذه الدنيا ومنافعها ولذاتها، وكأنهم يقولون ما قال الأولون: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما نحن بمبعوثين.

وقد ذكرت بعض الإحصاءات: أن نسبة الذين يرتادون الكنائس في أيام الآحاد لا تزيد عن٥٪. هذا مع أن كثيراً ممن يزور الكنيسة يوم الأحد، ليس بدافع ديني خالص، بل ربما كان لتغيير رتابة الحياة، أو اللقاء بمن يحب أو بمن تحب، أو التعرف على وجوه جديدة، أو غير ذلك.. ولا غرو أن وجدنا كثيراً من المسيحيين في أوروبا وأمريكا يبيعون كنائسهم، حيث لم تعد تمس الحاجة إليها، وربما اشتراها منهم المسلمون، وحولوها إلى مساجد ومراكز إسلامية.

سادساً: إن الحضارة الغربية يزعم لها الكثيرون أنها حضارة مسيحية! ويحاولون إلصاقها بالمسيح، وإن كان المسيح منها براء، فهي -كما قلت مرة- حضارة المسيح الدجَّال، لا حضارة المسيح ابن مريم، لأن الدجَّال أعور، وهي حضارة عوراء، تنظر إلى الحياة والكون والإنسان بعين واحدة، هي العين المادية. ترى الإنسان بغير روح، والكون بغير إله، والدنيا بغير آخرة.

ولهذا كله يستبعد المفكرون الغربيون أنفسهم أن تكون المسيحية هي مصدر الخلاص، وسبيل النجاة.

فدور المسيحية قد انتهى إلى غير رجعة، والمسيح عندهم «قد مات»، وهو ما عبَّر عنه (نيتشة) وغيره بأن «الإله قد مات!».

وعبارة (موت الإله) شديدة الوقع على الحس الإسلامي، والعقل الإسلامي، لأن الإله عندنا هو رب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي خلقهم وسوَّاهم، وأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم.. ومثل هذا الإله المحيي المميت لا يتصور أن يموت، بل هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، بلْهَ أن يعتريه موت.

أما إله الغرب، أو إله المسيحيين، فهو -في اعتقادهم- مجرد بشر تجسَّد فيه، أو حل فيه روح الإله، وهم يعتقدون أنه صُلِب من قبل، فلا غرابة أن يموت من بعد!!

يقول البروفيسور (رينيه دوبو) في نقده للحضارة الغربية، وبعد فصل كامل سماه «البحث عن معنى» وتحت عنوان فصل جديد: «التخلص من أسطورة النمو والتنمية»: «إذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع «البحث عن معنى» عملاً لا فائدة منه. ففي كل مرة تتعرض البشرية لمثالية تعطيها معنى لحياتها تتجزأ هذه المثالية وتختفي، ولقد ظهر في الماضي كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبشر طريقهم لمدة ما، وضاعت من بعد ذلك في مستنقع من شكوك فلسفية وجدل ضيق عقيم.

بدت المسيحية في القرون الوسطى كقوة موحدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال، والمطامح المشتركة، والسلوك الاجتماعي المستوحى من محبة الله وخوفه. ولقد حرَّكت أفكار المسيحية القدرات البشرية في أعمال جماعية مدهشة، كبناء الأديرة، والكاتدرائيات ذات الفن القوطي والروماني.

ولكن بعد ذلك انشغل المسيحيون باطراد في مجالات لاهوتية مكررة، وتحوَّلت المسيحية من عقيدة روحانية من المحبة إلى اعتقاد جامد محافظ خال من أي إلهام،

والآن كثيراً ما نراها -أي المسيحية- تتفتَّت لتصبح فئات متعددة تتبنى أخلاقًا اجتماعية مبهمة.. فاللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفية زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية والرأي الذي لا معنى له عن «موت الإله»!

ليت (دوبو) عرف الإسلام بحق، إذن لوجد فيه ما افتقده في المسيحية[1]!

اليهودية أشد عجزاً:

وإذا كانت (المسيحية) عاجزة عن القيام بدور المنقذ، فإن (اليهودية) أشد عجزاً! واليهودية نفسها لا تزعم أن لديها هداية تقدمها للبشر، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري، وبنو إسرائيل -وحدهم دون الناس- هم شعب الله المختار! ولغلبة العنصرية على اليهودية نراها في الغالب منغلقة على نفسها، ليس لها دعوة للناس تنشرها وتبلغها للعالم.

و(الله) في دين اليهود ليس رب العالمين، ولكنه رب إسرائيل، والآخرة عند اليهود ليست هي ملكوت السماء عند النصارى، ولا جنة الخلد عند المسلمين، إنما هي مُلك إسرائيل. و(العهد القديم) كتاب اليهود المقدَّس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتها، يدور جله حول تاريخ إسرائيل، وأحلام إسرائيل.

ولا غرو أن قال الكاتب القبطي المصري د.نظمي لوقا[2]: اليهودية ديانة شعب، أي ليست ديانة عالمية.

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوَّه صورة الألوهية، وأضفى على الإله من نقائص البَشر، من الجهل والخوف والحسد والضعف، ما يلحظه كل قارئ للتوراة، وخصوصا سفر التكوين.

(١) انظر: كتابنا (الإسلام حضارة الغد)، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ص١٤٤، ١٤٧، مع إضافات.

(٢) في كتابه: محمد: الرسالة والرسول.

والأنبياء الذين جعلهم الله هُداة للبَشر ومعلِّمين، لُوِّثت سيرتهم، وأُلصقت بهم التهم، في هذا الكتاب، فلم يعودوا ليصلحوا أُسوة للناس، حتى نادى بعض المربين بمنع قراءة هذا الكتاب للأطفال والمراهقين، لما فيه من قصص فاضحة منافية للأخلاق.

والشريعة فيه تحل لبني إسرائيل ما تُحرِّمه على غيرهم، فالربا حرام إذا تعامل اليهودي مع مثله، أما مع غيره من الناس فهو حلال زلال.

أما تعاليم (التلمود) فتجعل من اليهود (عصابة) أشبه بعصابات (المافيا) في عصرنا، تستحل دماء البشر وأموالهم وحرماتهم، باسم الدين، فكل مَن عداهم من الأُمم يجب أن يكونوا عبيداً لهم، وأن يكون لهم السيادة على العالَم وكل من دونهم أحط من البهائم[1].. (اليهودية) ليست دعوة عالمية، ولا تنشد هداية العالم، إنما تريد شيئاً واحداً، هو السيطرة على العالم.

على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البَشر، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها، فهم -بأنانيتهم وعزلتهم وحقدهم وطمعهم وشرههم وحرصهم على استغلال المجتمعات التي يعيشون فيها- لا يصلحون لحمل رسالة عالمية.

وهم -بما نُشر عنهم في بروتوكولات حكماء صهيون، وما ظهر على أيديهم من مظالم ومآثم ومجازر في فلسطين ولبنان- أعداء البَشرية لا منقذوها!

وهم بتاريخهم الدموي مع أنبياء الله ورسله -زكريا ويحيى والمسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام- لا يصلحون لحمل رسالة للإنسانية.

وهم -بتاريخهم في إيقاد الفتن، وتمزيق الجماعات، وبث الأفكار الهدَّامة، ونشر الفلسفات والمذاهب الانحلالية- لا يصلحون للإنقاذ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فإن فاقد الشيء لا يُعطيه! وقد ضل من كانت العميان تهديه[2]!

---

(١) انظر: (همجية التعاليم الصهيونية) لبولس حنا مسعد، نشر المكتب الإسلامي ببيروت.

(٢) انظر: كتابنا (الإسلام حضارة الغد).

لم يبق غير الإسلام منقذاً

إذا قلنا: إن العلم والفلسفة عاجزان عن القيام بمهمة الإنقاذ للبشرية اليوم مما تعانيه، وأن الدين وجده هو المنقذ، ولا شيء غيره، وبينا أن المسيحية -باعتبارها ديناً- عاجزة عن القيام بهذا الدور، وأن اليهودية أشد منها عجزاً، فلم يبق غيرالإسلام ديناً يمكنه أن يقوم بهذا الدور الخطير، في هذا الزمن البائس، الذي تتلمس فيه البشرية الخلاص، وتبحث عن طوق للنجاة.

ترى هل يستطيع الإسلام المعاصر أن يقوم بهذه المهمة بجدارة واقتدار؟ وأيّ الاتجاهات الفكرية التي نشهدها في الساحة اليوم، ونرى لها دعاتها وأنصارها، هو المرشح للقيام بهذا الدور المنشود؟؟

الاتجاهات السبعة السائدة في موقفها من الإسلام:

سنعرض هنا بوضوح وأمانة للاتجاهات الفكرية الأساسية التي تتحدث عن الإسلام، وتتخذ منه موقفاً، بالإيجاب أو بالسلب، بالقبول والولاء، أو بالرفض والعداء.. ومن درس الاتجاهات الفكرية في الساحة، وموقفها من الإسلام، وجدها سبعة، ستة منها نرفضها، لأنها لا تمثل الإسلام الحق في رأينا، وواحد منها فقط، هو الذي نؤمن به، وندعو إليه. وسنجتهد أن نعرضها هنا بإيجاز ما استطعنا، محاولين تحديد أهم ملامحها ومعالمها، مختارين لها عناوين معبرة، وهي من عندنا، ولم يسمها بها أصحابها طبعاً.

١- الاتجاه الاجتراري:

وهو الذي يعيش على الماضي وهو يجتره، ويعيد مضغه من جديد ولا يضيف إليه شيئاً، هذا مع أنه في واقع الأمر قد مُضِغ وهضم وامتص من قبل. فالاجترار المعروف عند الأنعام له وظيفة مهمة، وهو استعادة ما أكل بسرعة واختزن ولم يمضغ

جيداً، حتى يعاد مضغه في تؤدة وأناة. أما الاجترار الفكري لما هو مهضوم بالفعل من قبل، فهو عمل معيب، غير ذي وظيفة.

الاجترار الحيواني إذن له فائدته ونفعه، أما الاجترار الإنساني فلا فائدة له، بل هو ضار بالأمة، لأنه يضيع طاقتها في غير طائل.

إنما المفيد حقًا هو استخدام هذا الماضي أو التراث لإنشاء شيء جديد، فيكون بمثابة (المادة الخام) التي تضاف إليها بعض المواد المعينة لتصنيع آليات جديدة، لخدمة الأهداف الثابتة، والأصول الخالدة، التي يقوم عليها كيان الأمة.

يمثل هذا الاتجاه بعض الدعاة الذين يفكرون بعقول الأموات من الماضين، وينظرون إلى إشكالات الحياة المعاصرة بعيونهم، بعض الجماعات الدينية، التي تعيش على الماضي وحده، ولا تهتم بما يمور به العصر من تيارات، ولا ما يعانيه الواقع من مشكلات، فهم قدماء في أفكارهم، قدماء في لغتهم، قدماء في توجههم. يعتقدون أن في الكتب القديمة حلاً لكل معضلة، وإجابة عن كل سؤال.. ولا ننازع في أن أئمتنا وفقهاءنا الأقدمين تركوا للأمة فقهًا ثريًا، وتركة غنية بالأقوال والتعليلات والتخريجات والقواعد والصور، ولكنهم اجتهدوا لزمانهم لا لزماننا، ولبيئتهم لا لبيئتنا، ولمشكلاتهم لا لمشكلاتنا. فعلينا أن نجتهد لزماننا وبيئتنا كما اجتهدوا، وأن نرفض تلك المقولة التي تبناها أصحاب هذه الاتجاهات، وهي: ما ترك الأول للآخر شيئًا. فالواقع أن الأول ترك للآخر أشياء كثيرة، رأيناها ماثلة للعيان في مجال العلوم الطبيعية والرياضية. فلماذا لا يكون ذلك في العلوم الشرعية؟ لا سيما أن الحياة تغيرت تغيراً هائلاً اقتضى أن تتغير الفتوى بتغيره، كما قرر الراسخون من العلماء. وهذا ليس في الفقه وحده، بل في العقيدة وعلم الكلام أيضًا. فما أحوج الناس إلى علم كلام جديد، يخاطب الإنسان المعاصر بلسانه.

٢- الاتجاه الانتحاري:

وهو الاتجاه الذي يريد من الأمة أن تنسلخ من ذاتيتها، وتتنكر لعقيدتها وشريعتها ورسالتها، وتذوب في الأمم الأخرى، الأشد قوة، والأكثر تقدمًا، والأقوى حضارة في الإبداع المادي، بناء على نظرية تقول: إن الحضارة لا تتجزأ، وإن أخذ جزء من حضارة -كالجزء العلمي أو التكنولوجي في الحضارة الغربية المعاصرة- لا يغني، ما لم تأخذ الحضارة كلها بجذورها الفلسفية، وقيمها الأخلاقية، ومفاهيمها الفكرية، ومناهجها التربوية، وتوجهاتها التشريعية. فما لم تؤخذ الحضارة بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، فلن يجتني من ورائها ثمرة، ولن تستطيع منافسة أهلها في مضمار التقدم[١].

وإنما سمينا هذا الاتجاه (الانتحاري) لأنه إعدام للأمة وإلغاء لشخصيتها وتميزها، وهذا هو الانتحار بعينه، فإن بقاء الأمة -بوصفها أمة- إنما يكون ببقاء شخصيتها وخصائصها الذاتية، فإذا ذابت في غيرها، وفنيت فيه، كما يذوب الملح في الماء، فلم يعد لها وجود متميز، فحياتها -كأمة- وموتها سواء، ولا سيما إذا كانت هذه الأمة ذات رسالة عالمية دينية وأخلاقية وحضارية. فذلك أكبر جناية عليها، حيث تنسى نفسها، وتنكر ذاتها.. وأخذ جزء من حضارة لا يستلزم أخذ الحضارة كلها، وقد تكرر هذا قديمًا وحديثًا. أخذ الغرب المنهج العلمي التجريبي من الحضارة الإسلامية دون أن يأخذ قيمها الروحية والأخلاقية والتشريعية. وأخذت اليابان في عصرنا هذا المنهج من الغرب، ولم تأخذ عقائد الغرب ولا قيمه ولا تقاليده، واستفادت اليابان بما أخذت من الغرب، كما استفاد الغرب قديمًا بما أخذ من حضارة الإسلام.

هذا الاتجاه الخطير يمثله دعاة (التغريب) بفصائلهم المختلفة، وفلسفاتهم المتباينة:

---

(١) ناقشنا هذه الفكرة بتفصيل في كتابنا: (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا)، تحت عنوان: رأي توينبي في اقتباس الحضارات، ص ١٢٩- ١٣٩، طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت، الخامسه عشرة.

من اليمين الليبرالي، إلى اليسار الماركسي، فكلهم شركاء في رفض (مرجعية الإسلام) للأمة، متفقون -رغم اختلاف وجهاتهم- على إخراجها من هويتها، وسلخها من جلدها، لتتبع أممًا أخرى، في فكرها وقيمها وسلوكها، شبرًا بشبر، ذراعًا بذراع!

فكل هؤلاء بمدارسهم المتعددة لا يؤمنون بأصالة الأمة، وقيمة ما لديها من رسالة وثقافة وحضارة، وأنها لا يمكن أن تعيش -بله أن تتقدم- إلا بالاستيراد من غيرها.

ولو قالوا باستيراد الأساليب والكيفيات والآليات، لوافقناهم تمامًا، ولكنهم يريدون استيراد الأصول والفلسفات والقيم، لتبقى الأمة بلا أساس ولا جذور. ولهؤلاء أساليب شتى، وحيل متنوعة، في الوصول إلى هذا الهدف.

بعضهم صرحاء في رفضهم لمرجعية الإسلام، بلا مداهنة ولا مواربة ولا مجاملة، ولا تغليف بأي غلاف.

وبعضهم يتخذ أساليب ملتوية، كالقول بتاريخية النص القرآني أو النبوي، أو بدعوى قراءته قراءة جديدة، لا تعتمد على الأصول العلمية الموروثة، والتي أجمعت عليها الأمة في علم أصول الفقه، أو أصول التفسير، أو أصول الحديث، بل يقرأونه قراءة معاصرة تلغي كل القراءات القديمة، ولا تستلهم إلا ذاتها وهواها، فتعرض عن (المحْكمات) وتتمسك (بالمتشابهات)، وتؤوّل (القطعيات). ولا تؤمن بهذا المبدأ العظيم: «أن الأمة في مجموعها معصومة» ولا تجتمع على ضلالة[1].

وبهذا يصبح لكل شخص أن (يؤلف) دينًا على رأيه ومزاجه وهواه، ولا يكون

---

(١) انظر: كتابنا (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة)، باب: معالم وضوابط في فهم الأصلين، الكتاب والسنة، وباب: مزالق ومحاذير في فهم الأصلين، ص١٥٥، ٢٥٩، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة والرسالة ببيروت. وكذلك كتابنا: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم)، باب: مزالق ومحاذير في تفسير القرآن، طبعة دار الشروق بالقاهرة.

ثمّة دين يجتمع الناس عليه، ويدينون به، إذ ليس هناك أصول تضبط الأفهام، وترد الشاردين إلى الصواب.. ويسير في هذا الدرب كثيرون من المغرورين المتفيهقين، الذين عبدوا أنفسهم للغرب، وحرروها من الالتزام بالإسلام.

٣- الاتجاه الاعتذاري:

وهو الاتجاه الذي يقدم الإسلام وكأنه في قفص اتهام، أمام مُدَّعٍ يطالبه بأن تكون فلسفته كلها، وقيمه كلها، ومفاهيمه كلها، وتشريعاته كلها، متماشية مع الغرب، فما خالف الغرب منها فلا بد له من عذر، ولا مفر من البحث له عن مُسوِّغ أو (مُبرِّر).. ومن هنا وقف الكثيرون من قضية الحجاب في مجال المرأة، والطلاق وتعدد الزوجات في مجال الأسرة، والربا في مجال الاقتصاد، والجهاد في مجال العلاقات الدولية، وغيرها من القضايا الإسلامية الأصيلة موقف المحامي المدافع عن متهم يطالب له بأقصى العقوبة!

وكثيرًا ما ينزل هؤلاء عن هذا الموقف إلى موقف تبريري أضعف، يحاولون فيه تسويغ الأوضاع التي صنعها لنا الغرب، وفرضها علينا أيام سطوته الاستعمارية، بإعطائها (سندًا شرعيًا)، وتغطيتها بفتاوى إسلامية، أي إنهم -كما قلت مرة- يُلبِسون الخواجه الأوربي أو الأمريكي عمامة عربية إسلامية! وفي هذا من الضحك على النفس، والتضليل للغير، ما فيه.

مدرسة الاعتذار والتبرير كانت ظاهرة في النصف الأول من القرن العشرين، ولا يزال لها صوت إلى اليوم، يتمثل في أولئك الذين يريدون أن يحللوا (الربا) وفوائد البنوك؛ بمماحكات شرعية، وأن يحللوا (الخمر) أو يسقطوا (الحدود) بمجادلات بيزنطية، ومثلهم الذين يريدون أن يخلعوا عن المسلمة حجابها بمثل هذا المراء العقيم.

٤- الاتجاه الافتخاري:

وفي مقابل الاتجاه الاعتذاري يوجد هذا الاتجاه الافتخاري، الذي يتحدث عن الإسلام وتاريخه وحضارته بالأمس، وعن صحوته وحركاته اليوم، حديث (المختال الفخور)، الذي لا يرى إلا الأمجاد يسردها، والمناقب يعددها، مغفلاً العيوب والآفات والعاهات الدينية والأخلاقية والفكرية والحضارية التي أصابتنا بالأمس، حتى دمرت بنيان حضارتنا، ولا تزال تصيبنا اليوم بصورة أخرى، وفي مجالات أُخَر، وعلى مستوى آخر، حتى غدونا في مؤخرة القافلة البشرية، نُنسب إلى العالم الثالث، أو الرابع لو كان هناك، ونُحسب على بلاد التخلف التي جاملوها فسموها (النامية)!

لا أريد أن نشعر بالدونية ولا أن نحقر أنفسنا، فنحن نملك المؤهلات والطاقات التي ترشحنا لأن نسود ونقود، لو أننا استخدمناها كما ينبغي، وكما أمرنا ديننا، وانتقلنا من القول إلى العمل، ومن الانفعال إلى الفعل، ومن الغوغائية إلى العلمية، ومن التقليد إلى التجديد، ومن الاغتراب -سواء كان مكانيًا (أي عن أمتنا) أم زمانيًا (أي عن عصرنا)- إلى الأصالة والإبداع.

عندنا القوة المادية، والقوة البشرية، والقوة التاريخية، والقوة الروحية، التي تعدنا لنكون شيئًا مذكوراً، لو حددنا الوجهة، وأخلصنا النية، وأعددنا العدة، ووحدنا الصف، وبدأنا السير، عازمين متوكلين على الله، مستفيدين من أخطاء الماضي، وزلات الحاضر، وتجارب الآخرين، ولكن ينبغي أن نقوّم أنفسنا تقويمًا عادلاً.

يمثل هذا الاتجاه بعض الدعاة العاطفيين للإسلام، ممن ينسبون إلى بعض الجماعات الدينية، والإسلامية، ممن لم يتعمقوا في دراسة الإسلام وثقافته وحضارته وتاريخه، ولم يحيطوا علمًا بما عند الآخرين، واعتبروا كل ما عندنا وردًا لا شوك فيه، وما عند الآخرين شوكًا لا ورد فيه، فظلت نظرتهم قاصرة، وإن كانت سريرتهم طاهرة.

٥- الاتجاه الاختصاري:

وهو الذي يريد أن يختصر الإسلام في العقيدة والعبادة، وإن كانت صورة بلا حقيقة، وشبحًا بلا روح، ويحذف من الإسلام كل ما يجعل منه رسالة لإصلاح المجتمع، وبناء الأمة، وهداية العالم، وتجديد الحياة.

وإذا كان اتجاه بعض المسلمين في الأزمنة الماضية (الزيادة في الإسلام) بالابتداع فيه، وهو مردود، فإن كل بدعة ضلالة، فإن اتجاه هؤلاء هو: (الانتقاص من الإسلام)، بإخراج بعض ما هو من صُلبه منه، وقد امتن الله تعالى علينا بإكمال هذا الدين، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)، والكامل لا يقبل الزيادة علية، ولا النقص منه.

هذا الاتجاه يريد الإسلام: عقيدة بلا شريعة، ودعوة بلا دولة، وسلامًا بلا جهاد، وحقًا بلا قوة، وعبادة بلا معاملة، وزواجًا بلا طلاق، ودينًا بلا دنيا.

إن أصحاب هذا الاتجاه يريدون (تحريف الإسلام) وتحويله إلى ديانة جديدة، تحمل (مضمون النصرانية) و (عنوان الإسلام).

فالنصرانية ليس فيها تشريع، ولا عقوبات، ولا معاملات ولا طلاق، ولا جهاد، ولا دولة أو حكومة، بل يقول إنجيلها: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، فقبلت قسمة الحياة، وقسمة الإنسان بين الله تعالى وبين قيصر، فالدين لله أي للكنيسة، أو للسلطة الروحية، والدنيا وشؤون الحياة لقيصر، أي للدولة، أو للسلطة الزمنية.. أما الإسلام فهو يقرر أن كل ما في الوجود لله، فله ما في السموات وما في الأرض، ومن في السموات ومن في الأرض، ملكًا ومُلكًا، وقيصر و ما لقيصر كله لله وحده.

هذا هو اتجاه دعاة (العلمانية) الذين لا يريدون أن يعلنوها صريحة بأنهم يرفضون الإسلام، كما نزل به القرآن، وكما دعا إليه محمد عليه الصلاة والسلام،

وكما فهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، وعلماء الأمة في سائر القرون، بل يريدون أن يحرفوا الإسلام باسم الإسلام، والإسلام من دعواهم براء.

فهو رسالة شاملة: عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودعوة ودولة، وحق وقوة، ودين ودنيا، وجهاد واجتهاد، وثقافة وحضارة.. إنه رسالة تصحب الإنسان في رحلة حياته كلها من المهد إلى اللحد، بل من قبل أن يولد، ومن بعد أن يموت. الإنسان جنينًا ورضيعًا وفطيمًا، وصبيًا وشابًا، وكهلاً وشيخًا، الإنسان رجلاً والإنسان امرأة، الإنسان وحده والإنسان في أسرة ومجتمع، الإنسان محكومًا والإنسان حاكمًا، الإنسان غنيًا والإنسان فقيرًا، الإنسان في بادية والإنسان في حاضرة.

وهو كذلك رسالة تصحب الإنسان في مجالات حياته كلها، تصحبه بالتشريع حينًا، وبالتوجيه أحيانًا، ترسم له الطريق، وتحدد له المعالم، وتحذره من المزالق. في البيت، أو في المسجد، أو في الطريق، أو في المدرسة، أو المزرعة، أو المصنع، أو المتجر، أو المكتب، أو المحكمة، أو الديوان، أو في أي جانب من جوانب الحياة[1].

فقد أنزل الله كتابه تبيانًا لكل شيء، من رب كل شيء، كما قال سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

٦- الاتجاه الاشتجاري:

وهو الاتجاه الذي يقدم الإسلام (مشتجرًا) مع سائر الناس، معتركًا مع كل من يخالفه، ليس إسلام الرفق والتسامح، وليس إسلام الحوار والإقناع، فهو ينصب معركة مع غير المسلمين، بل مع المسلمين غير الملتزمين، بل مع الملتزمين المخالفين لرأيه، مع

(١) انظر: خصيصة الشمول، في كتابنا: (الخصائص العامة للإسلام)، وكتابنا: (شمول الإسلام)، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

الحكام، مع الفن -كل الفن- مع المرأة التي تلبس الخمار، لمَ لمْ تلبس النقاب؟ مع الذين لا يرون رأيه في بعض مسائل العقيدة أو لا يقولون بقوله في بعض مسائل الفقه.

أصحاب هذا الاتجاه دائمًا (في حالة حرب) مع غيرهم، شاهرون سيوفهم على من ليسوا أعداءً لهم في الحقيقة، فهم يقاتلون غير عدو، ويجاهدون في غير ميدان.

همهم الأكبر إثارة الخلاف، والجدل في الجزئيات، وشغل الناس بالجزئيات عن الكليات، وبالفروع عن الأصول، وبالشكل عن الجوهر، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه.

صورة الإسلام الذي يقدمونه للناس، لا تصلح إلا لبيئتهم المحدودة، لا تصلح رسالة عامة خالدة، للشرق وللغرب، للقرن الخامس عشر الهجري، أو القرن الحادي والعشرين الميلادي.

إنه الإسلام المقطب الوجه، العبوس القمطرير، الذي لا يعرف غير العنف في الدعوة، والخشونة في المجادلة، والغلظة في التعامل، والفظاظة في الأسلوب.

إنه الإسلام الجامد كالصخر، الذي لا يعرف تعدد الآراء، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات، ولا يقر إلا الرأي الواحد، والوجه الواحد، ولا يسمع للرأي الآخر، ولا للوجهة الأخرى، ولا يرى أحدهم أن رأيه صواب يحتمل الخطأ، وأن رأي غيره خطأ يحتمل الصواب.. إنه الإسلام الذي لا يكاد يرى في الإسلام إلا التشريع، ولا يكاد يرى في التشريع إلا الحدود والعقوبات.

إنه الإسلام الذي لا يعرف التسامح مع المخالفين في الدين، ولا يقبل الحوار، مع المغايرين في الفكر، ولا يأذن بوجود للمعارضين في السياسة.. إنه الإسلام الذي ينظر بريبة إلى المرأة، فهو يدعو إلى حبسها في البيت، وحرمانها من العمل، ومن المشاركة في الدعوة والحياة الاجتماعية، ومنعها من التصويت، بله الترشيح للمناصب.

إنه الإسلام الذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثروة، ولا توكيد قاعدة الشورى

في السياسة، ولا إقرار الحرية للشعب، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما اقترفوه، لكنه يشغل الناس بالجدال في فرعيات فقهية، وجزئيات خلافية، في العبادات أو المعاملات، لا يمكن أن ينتهي فيها الخلاف.

إنه الإسلام الذي يتوسع في (منطقة التحريم) حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرمات، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعاته وأقلام كتابه : كلمة (حرام).

إن الإسلام بهذه الصورة القاتمة السوداء، الذي يقدمه بها نفر من أبنائه -المخلصين غالباً في نياتهم، القاصرين في أفهامهم- لن يمكنه القيام بدور (المنقذ) أو (الوارث) للحضارة الغاربة أو التي توشك على الغروب.

٧- الاتجاه الحضاري :

وهذا ما ينادي به اتجاه (الوسطية الإيجابية) التي تنظر إلى الإسلام باعتباره (رسالة حضارية) متميزة، رسالة ربانية الغاية، إنسانية المحتوى، عالمية الوجهة، أخلاقية المنهج، إيجابية المسلك.. وسنتحدث عن هذه الرسالة -بعد قليل- بما يبين ملامحها، ويلقي شعاعًا على مقوماتها وخصائصها.

يعمل هذا الاتجاه جاهداً أن يُجند الأمة لجهاد كبير، يعيد إليها ذاتها، أو يعيدها إلى ذاتها، فتستفيد من أمسها، ملتفتة إلى يومها، متطلعة إلى غدها.. جهاد همه البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الثناء.. والابتكار لا الاجترار ولا الافتخار، وشعاره : الرفق لا العنف، والتسامح لا التعصب، والتعاون لا التشاحن.. يغالي هذا الاتجاه، أو هذا التيار بقيمة ما لدينا من رسالة، وما أقمنا من حضارة، وما عندنا من إمكانات، ولكنه يعترف بأخطائنا القاتلة بالأمس، وانزلاقاتنا الماثلة اليوم، ولكنه لا يجعل من الحبة قبة، ولا يضخم (سلبياتنا) حتى يوئسنا من أنفسنا، فهو ينكر (التهويل) كما ينكر (التهوين) للواقع، مجتهداً أن يعطي لكل أمر ما يستحقه.

هذا الاتجاه مثّله دعاة (الجامعة الإسلامية) من قبل : الأفغاني ومحمد عبده

ورشيد رضا، بأقدار متفاوتة، ومثّله بعدهم دعاة الإصلاح والتجديد الإسلامي، أمثال: حسن البنا مؤسس كبرى الحركات الإسلامية (الإخوان المسلمون)، والتي أصبح لها أتباع في أكثر من سبعين دولة في العالم اليوم، ومن رجالها: مصطفى السباعي، وعبد القادر عودة، ومحمد الغزالي، وسيد قطب، وسعيد حوّى وعبد الحليم أبو شقة، وكثير من الأعلام الأحياء.

ومن فروعها: الجبهة القومية الإسلامية في السودان، وحزب النهضة في تونس، وجبهة العمل الإسلامي في الأردن، وحزب التجمع والإصلاح في اليمن.

ومثله: أبو الأعلى المودودي مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية، وصاحب الرسائل والكتب الفكرية التي شرقت وغربت، وأحد الذين نقدوا الحضارة الغربية على بصيرة. وكذلك مثله عبد الحميد بن باديس منشئ (جمعية العلماء) بالجزائر، التي قاومت فرنسة الشعب والمجتمع الجزائري، وعملت على إحياء هويته القائمة على الإسلام والعربية، وكان من أعلامها الشيخ البشير الإبراهيمي، ومن بعده المفكر الجزائري مالك ابن نبي، وجماعة نجم الدين أربكان في تركيا.

وهناك جماعات علمية دعوية تتبنى هذا الاتجاه الحضاري مثل (ندوة العلماء) في الهند التي تجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، وتأخذ من التراث ما صفا، وتدع ما كدر، وقد قام عليها علماء أعلام، مثل شبلي النعماني، وسليمان الندوي، وأبي الحسن الندوي.

ومثلها جماعة (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) في واشنطن وفروعه، ويقوم عليه رجال ثقات، مثل: د.عبدالحميد أبوسليمان، و د.طه جابر العلواني، وإخوانهما، ويعمل المعهد جاهداً في (إسلامية المعرفة) ولا سيما في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وقد أصدر مجموعة من الكتب القيمة والمنشورات النافعة.

الإسلام في نظر هذا الاتجاه ليس إسلام عصر من الأعصار، ولا إسلام قطر من الأقطار، ولا إسلام مذهب من المذاهب، ولا إسلام فئة من الفئات.

إن الإسلام المنشود، هو (الإسلام الأول).. إسلام القرآن والسنة، سنة النبي ﷺ وسنة الراشدين المهديين من بعده.. إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناكر، والتسامح لا التعصب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادعاء، والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير.

إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وعمل روحه الإتقان، وأخلاق روحها الخير، وآداب روحها الذوق، وتشريع روحه العدل، ورابطة روحها الإخاء، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل.

ولقد تحدثت عن هذا الاتجاه الحضاري أو هذا التيار (تيار الوسطية) في أكثر من كتاب لي[1]، وعن خصائصه المميزة له، وهي الجمع بين السلفية والتجديد، والموازنة بين الثوابت والمتغيرات، والحرص على استلهام التراث، ومعايشة الحاضر، واستشفاف المستقبل، والفهم الشمولي المتوازن للإسلام، في ضوء فقه جديد، يشمل فقه سنن الكون، وفقه مقاصد الشرع، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه حقيقة الواقع، بعيداً عن التهوين والتهويل، وعن التجميد والتمييع والتجزئة لحقائق الإسلام ورسالته الجامعة. فمن أراد التفصيل فليرجع إليه هناك.

رسالة أمتنا الحضارية

هل عند أمتنا رسالة حضارية للبشرية؟

إذا عجزت المسيحية، وعجزت اليهودية، وبعبارة أخرى: عجز المسيحيون، وعجز اليهود أن يقدموا للبشرية قارورة الدواء، أو مضخة الإطفاء لحريق المادية، وسعار الإباحية، وصراع النفعية -وهو ما تفرزه الحضارة الغربية للناس- فهل يستطيع الإسلام

---

(١) مثل كتاب: (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي)، وكتاب: (فقه الأولويات)، وكتاب: (مستقبل الأصولية الإسلامية).

أو يستطيع المسلمون أن يقوموا بدور المنقذ للبشرية التي تكاد تشرف على الغرق؟ وبعبارة أخرى: هل عند أمتنا (مشروع حضاري) تقدمه للبشرية في دورتها المقبلة أو في قرنها الجديد؟ سواء سميناه قرن (صراع الحضارات) كما يسميه الكاتب الأمريكي (صمويل هانتنغتون)، أم قرن (حوار الحضارات) على حد تعبير المفكر الفرنسي المسلم (جارودي)؟

والجواب: نعم عند أمتنا مشروعها الحضاري المتميز، وهو (المشروع الحضاري الإسلامي) الذي يتبناه اتجاه (الوسطية الإسلامية) الذي تحدثنا عنه.

وإن كنت أوثر ألا أستخدم عبارة (المشروع) هذه -التي جرت على الألسنة والأقلام في السنوات الأخيرة- إلا من باب ما يسميه علماء البلاغة العربية (المشاكلة) كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ (الأنفال: ٣٠)، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢).

وعلى هذا الأساس أجزنا استعمال كلمة (المشروع الإسلامي) في مقابلة (المشروع الماركسي) و(المشروع الليبرالي) و(المشروع العلماني) بصفة عامة.. والعبارة التي أوثرها هنا حقًا هي (الرسالة) فبدل أن نقول: (مشروعنا الحضاري)، نقول: (رسالتنا الحضارية).

نعم لدى أمتنا رسالة حضارية:

ومما لا ريب فيه أننا أمة ذات رسالة، وهي (رسالة حضارية) متميزة، إنها رسالة جامعة، تبدأ بتزكية الفرد، مروراً بإسعاد الأسرة، وإصلاح المجتمع، وبناء الأمة، وإقامة الدولة، وانتهاءً بسلام العالم وخيره، حتى يتحقق قول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله ﷺ عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[١].

---

(١) رواه ابن سعد والدارمي عن أبي صالح مرسلاً، والحاكم عن أبي هريرة، صحيح الجامع الصغير ٢٣٤٥.

وأذكر أن حواراً دار بين مفكرين إسلاميين كبيرين، هما: مالك بن نبي من الجزائر، وسيد قطب من مصر، حول نسبة الحضارة إلى الإسلام، وإلى مجتمعه. فقد كان سيد قطب أعلن عن كتاب كبير يعده، سماه في أول الأمر (نحو مجتمع إسلامي متحضر)، ثم عاد فحذف من العنوان كلمة (متحضر) واكتفى بتسميته (نحو مجتمع إسلامي)، معللاً ذلك بأن نسبة المجتمع إلى الإسلام ووصفه به، يغني عن وصفه بالتحضر، على أساس أن الإسلام هو الحضارة الحقيقية، وما عداه من الحضارات التي تبهر الناس وهمٌ وزيف، وكتب في ذلك فصلاً من فصول كتابه الشهير (معالم في الطريق) جعل عنوانه (الإسلام هو الحضارة).

وأنا مع الشهيد قطب في أن الإسلام هو الحضارة المثلى، الذي تقاس إليه الحضارات المختلفة، ليعرف صوابها من خطئها، وأصيلها من زائفها.

ولكن هذا لا يمنع من استخدام وصف (المتحضر) -كما قال ابن نبي- للمجتمع الإسلامي، باعتبارها صفة كاشفة، لا صفة منشئة، كما يقول اللغويون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ (الأنعام:٣٨)، فليس هناك طائر يطير بجناحيه، وآخر لا يطير بهما.. ووصف المجتمع الإسلامي بهذه الصفة (التحضر) ليبين من أول الأمر أن الإسلام دين حضارة وعلم وثقافة، وليس كما يتصور بعض الناس أو يصورون أنه دين بداوة، لأنه نشأ في بيئة لم يكن لها فلسفة اليونان، ولا قانون الرومان، ولا مدنية الفرس، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين.

ولهذا أقول بكل ثقة واطمئنان: إن لدى أمتنا (رسالة حضارية) متميزة تستطيع أن تقدمها للعالم الذي تدل كل الدلائل أنه في أشد الحاجة إليها، لو وجدت من يحسن تقديمها إليه، ولا سيما العالم الغربي الذي حقق الثورات العلمية الهائلة في دنيا الذرة، ودنيا الفضاء، ودنيا الإلكترونيات، ودنيا الهندسة الوراثية، ودنيا الاتصالات والمعلومات.. هذه الرسالة تستطيع أن تقدم للغرب الإيمان ولا تسلبه العلم، وتعطيه الدين ولا تحرم عليه الدنيا، وتصله بالسماء ولا تمنعه من عمارة الأرض، وتمنحه نور

الوحي ولا تحرمه نور العقل، وتقوي صلته بالخالق ولا تقطعه عن الخلق.

مقومات هذه الرسالة العشرون:

ولهذه الرسالة الحضارية (مقومات)[1] -ذكرتها في محاضرة لي منذ نحو ثلاث سنوات في مؤتمر إسلامي في مدينة ديترويت بالولايات المتحدة- تصل إلى عشرين عداً، نذكرها سرداً مجرداً فيما يلي، فهي:

رسالة العقيدة الموافقة للفطرة.. رسالة العبادة الدافعة للعمارة.. رساله العقل المهتدي بالوحي.. رسالة العلم المرتبط بالإيمان.. رسالة الإيمان المقترن بالعمل.. رسالة العمل الملتزم بالدعوة.. رسالة الدنيا المعدة للآخرة.. رسالة الجسم الممدود بالروح.. رسالة القوة المدافعة عن الحق.. رسالة المال المكتسب من حل، المنفق في حق.. رسالة الحقوق المتوازنة مع الواجبات.. رسالة الحرية الخادمة للفضيلة.. رسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.. رسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع.. رسالة المجتمع الذي لا يطغى على الأفراد.. رسالة الأمة المنفتحة على العالم.. رسالة الدولة المقيمة للدين.. رسالة التشريع المحقق للمصالح.. رسالة العدل المؤيد بالإحسان.. رسالة الفن الملتزم بالقيم.

هذه مفردات مقومات هذه الرسالة الحضارية، وشرح كل منها يطول، فحسبنا هنا سردها. وعسى الله أن يهيئ لنا شرحها وإلقاء الضوء عليها، في مناسبة أخرى.

خصائص رسالتنا الحضارية:

وإذا كان لرسالتنا الحضارية مقومات تشخصها، فلا ريب أن لها خصائص تميزها. وقد ألفنا كتاباً من زمن طويل بعنوان (الخصائص العامة للإسلام) يمكن الرجوع إليه لاستبانة هذه الخصائص من: الربانية والإنسانية والشمولية والوسطية والواقعية والوضوح، والجمع بين الثبات والمرونة.

---

(١) شرحت عشرة منها في تلك المحاضرة، وهي مسجلة على شريط، يمكن لمن يريد الرجوع إليه.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى خصيصة (الوسطية) ويمكن التعبير عنها بـ(التوازن)، وأضيف إليها خصيصة (التكامل)، وأتحدث عنهما بإيجاز.

رسالة التوازن والوسطية:

فهذه الرسالة هي الرسالة الوحيدة التي تُقدِّم للبشرية منهجًا يتميز بالتوازن والتكامل، ونعني بالتوازن: التوسط بين طرفي الغلو والتفريط، اللذين لم يسلم منهما منهج بشري صرف، أو منهج ديني دخله تحريف البشر، وهو ما يُعبِّر عنه القرآن باسم (الصراط المستقيم) وهو المذكور في فاتحة الكتاب، الذي يسأل المسلم ربه كل يوم أن يهديه إليه ما لا يقل عن سبع عشرة مرة في صلواته: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦)، فهو منهج متميز عن طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

وقد يُعبَّر عنه بـ(الميزان) الذي يجب إلا يشوبه طغيان ولا إخسار كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن:٧-٩).

فالطغيان هو الميل إلى جانب الغلو والإفراط، والإخسار: هو الميل إلى جانب التقصير والتفريط، وكلاهما ذميم.

في هذا المنهج تلتقي المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضربًا من المحال، لأنها في نظرهم متضادة، والضدان لا يجتمعان، ولكنها في الإسلام تلتقي في صورة من الاتساق المبدع، بحيث يأخذ كل منها المساحة المناسبة له، دون أن يطغى على مقابله: لا طغيان ولا إخسار.

فهو يضع الموازين القسط:

بين الربانية والإنسانية.. بين الوحي والعقل.. بين الروحية والمادية.. بين الأخروية والدنيوية.. بين المثالية والواقعية.. بين الماضوية والمستقبلية.. بين المسؤولية والحرية.. بين الاتباع والابتداع.. بين الواجبات والحقوق.. بين الثبات والتغير.

وبهذا التوازن تتميز الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم، ويضعها في مرتبة الأُستاذية، وهو ما خاطبها الله سبحانه وتعالى به بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

وقد ظهرت هذه الوسطية في حياة الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، وحياة المجتمع المسلم، والأمة المسلمة، وتجلت آثارها بوضوح في توجه الحضارة الإسلامية وتوازنها.

رسالة التكامل:

وأما التكامل فلا نعني به التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين، كالذي ذكرناه في التوازن.. إنما نعني به اجتماع معان وأُمور يكمل بعضها بعضًا، ولا يستغنى بأحدها عن الآخر، لكي يؤدي الإنسان رسالته كاملة في عمارة الأرض، وخلافة الله وعبادته، كما أمر الله تعالى، وتؤدي الأمة رسالتها في هداية الناس، وتكون كما أراد الله لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمرآن: ١١٠).

مثال ذلك:

العلم والإيمان.. الحق والقوة.. العقيدة والعمل.. الدعوة والدولة.. التربية والتشريع.. وازع الإيمان ووازع السلطان.. الإبداع المادي والسمو الخُلُقي.. القوة العسكرية والروح المعنوية.

فليس العلم مقابلاً أو مضاداً للإيمان، في نظر الإسلام، ولا في واقع الأمر. وليس الحق مقابلاً للقوة، وليست العقيدة مقابلة للعمل، ولا التربية مقابلة للتشريع.. وهكذا، إنما هي معان يكمل بعضها بعضًا، ولا بد منها جميعًا.

فإن الحياة التي ينشدها الإسلام لا تستقيم ولا تتكامل إلا بهذه الأمور كلها.

وعيب المناهج والأنظمة البشرية أنها تهتم ببعض الجوانب دون بعض، وتركز على بعض القيم دون بعض، فنراها تعنى –مثلاً– بالاقتصاد والإنتاج، أعني بإشباع البطون، ولكن لا تعنى كثيراً بإشباع العقول، وقد تعنى بإشباع العقول بالعلم المادي، ولكنها

لا تعنى بإشباع القلوب والأرواح برحيق الإيمان. وقد تهتم بتيسير المواصلات بين البلدان، على حين تغفل الاهتمام بالصلات الاجتماعية والنفسية بين الناس. وأعظم من ذلك الصلة بين الإنسان وربه.

ولكن الإسلام -منهج الله- يعنى بإشباع حاجات الإنسان كله: جسمه وعقله وروحه، ويهتم بالإنسان في كل أحواله، فرداً، وعضواً في أسرة، وعضواً في مجتمع، ومواطنًا في دولة، ويوجه عنايته التوجيهية والتشريعية إلى الإنسان في كل مراحله وأوضاعه، الإنسان طفلاً، والإنسان شابًا، والإنسان شيخًا.. الإنسان رجلاً، والإنسان امرأة.. الإنسان حاكمًا، والإنسان محكومًا، الإنسان من حيث هو إنسان: أبيض أو أسود، شرقي أو غربي، غني أو فقير، يعيش في ناطحات السحاب أو في الغابات والأدغال.

كما يوجه الإسلام عنايته إلى إنشاء المجتمع الفاضل، والأمة الواحدة، التي أخرجها الله للناس، لخير الناس، وهداية الناس، والدولة الصالحة، التي تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

تكامل العلم والإيمان في الإسلام:

ومن أظهر ما يتجلى فيه التكامل الإسلامي، هو: تكامل العلم والإيمان.

فمن مظاهر التكامل في رسالة الإسلام: أن التقى فيها العلم والإيمان جنباً إلى جنب، ولم يقم في مجتمعه ما قام في المجتمعات الأخرى من نزاع بين العلم والدين، راح ضحيته الألوف من أهل العلم والفكر، ومن رأى رأيهم أو سار على دربهم.. وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى حافل بالمجازر البشرية الرهيبة التي سيق إليها العلماء والدارسون في ظل محاكم التفتيش وغيرها.. وقد حكى الشيخ محمد عبده في كتابه: (الإسلام والنصرانية، مع العلم والمدنية) جملاً من هذه الوقائع تقشعر لمجرد ذكرها الجلود، وتستنكرها في عصرنا أدنى العقول.

ومن حسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم، كما قد يتوهم الذين لا يعرفون الإسلام، ويريدون أن يُجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى.. نحن نعتبر التقدم العلمي وما يُثمره في الحياة من استخدامات تكنولوجية نافعة -تيسر على الإنسان حياته، وتوفر عليه جهده البدني والعقلي- عبادة بالنسبة للفرد المسلم، يتقرَّب بمعرفتها وإتقانها إلى ربه، كما يتقرَّب بالصلاة والصيام. وهي -بالنسبة للمجتمع- فريضة كفائية، يأثم المجتمع كله إذا لم يقم من أبنائه عدد كاف يسد كل الثغرات، ويلبي كل الحاجات، التي يتطلبها المجتمع في كل مجالاته المدنية والعسكرية.. إن مما تميز به الإسلام عن غيره من الأديان الأخرى، هو احترامه للعقل، ودعوته إلى النظر والتفكير، وحثه على العلم والتعلم، وإشادته بالعلماء وأصحاب العقول، وحملته على الجمود والجهل، وتمجيده للقراءة والكتابة والقلم، من أول آيات أنزلت من القرآن[1].

ولكن العلم في الإسلام إنما يقوم في رحاب الإيمان وضوئه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، والقراءة هي مفتاح العلم، ولكنها قراءة مؤمنة، قراءة باسم الله، الرب الذي خلق.. وبهذا يكون العلم خيراً وبركة على الناس، لا مصدر غرور وتسلط على الخلق، ومن هنا رأينا سليمان حينما جيء له بعرش بلقيس من سبأ إلى الشام بوساطة العلم، لم يركبه الغرور، بل قال في أدب وتواضع: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠)، ورأينا ذا القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سبباً، وهيأ له من الفتوح في الشرق والغرب ما لم يتهيأ لأحد قبله، حين بنى سدَّه العظيم يقول في خشوع المؤمنين: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ (الكهف: ٩٨).

(١) انظر في ذلك كتبنا: (الرسول والعلم)، و(العقل والعلم في القرآن الكريم)، و(السنة مصدر للمعرفة والحضارة).

حضارتنا: حضارة العلم والإيمان:

وفي ضوء هذه القيم والمفاهيم تأسست النهضة العلمية الكبرى في رحاب الحضارة الإسلامية المتكاملة.. ترجم المسلمون كتب (الأوائل) كما كانوا يسمونهم في المشرق والمغرب، وخصوصًا اليونان، الذين كان لهم باع طويل في الفلسفة، التي كانت تشمل شُعَبها: الجوانب العلمية والرياضية والطبيعية، (بجوار الجانب الميتافيزيقي)، فاستفاد المسلمون منها، وهذّبوها، وشرحوها، وأضافوا إليها إضافات هامة، بل ابتكروا علومًا جديدة مثل علم (الجبر)، واكتشفوا المنهج الاستقرائي والتجريبي، الذي طبَّقوه عمليًا في مختلف جوانب الحياة، والذي اقتبسه الغربيون منهم، وقامت على أساسه النهضة الغربية الحديثة، فهي حسنة من حسنات الحضارة الإسلامية، كما شهد بذلك المنصفون من الغربيين أنفسهم.

لقد كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة الأولى -وربما الحضارة الفذّة- في العالم لعدة قرون، يوم كانت أوروبا غارقة في بحار الجهالة و الظلمات، ولا ترى الضوء إلا من جهة الشرق المسلم.

وكانت جامعات المسلمين هي جامعات العلم الكبرى في العالَم، في بغداد أو في القاهرة، أو في دمشق، أو في قرطبة، والأندلس، أو في غيرها من مواطن العلم في عالم الإسلام، وكان الطُلاب من أنحاء العالم يفدون إلى هذه الجامعات ليتعلموا ويتقدموا.

وكانت المراجع العلمية في العالَم هي المراجع الإسلامية.. وكانت أسماء علماء المسلمين هي ألمع الأسماء العلمية في تلك العصور، بل هي الأسماء الوحيدة المعروفة في تخصصاتها المتنوعة، مثل الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وابن البيطار.. وغيرهم وغيرهم.. إلى جوار علماء الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية مثل الكندي والفارابي والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن مسكويه وابن عربي وابن تيمية وابن خلدون.. وغيرهم.. وكان كثير من هؤلاء علماء مبرزين في علوم

الدين والشريعة، ومبرزين كذلك في العلوم الطبيعية والرياضية، مثل ابن رشد والفخر الرازي وابن النفيس وغيرهم.

وكانت اللغة العربية هي لغة العلم الأولى في العالم، فقد وسعت كل العلوم المترجمة والمبتكرة، وكتبت بها في سلاسة ووضوح، ولم يشك عالم يومًا ما أن اللُّغة ضاق صدرها بعلم من العلوم، أو عجزت عن التعبير عنه.

وكانت مدن المسلمين في عالَم الإسلام هي التي احتضنت هذه النهضة الشامخة، وتجلَّت فيها آثارها المادية: في مساجدها، وفي مدارسها، وفي قصورها، وفي قلاعها، وفي مستشفياتها، وفي شتى جوانب حياتها.

كما تجلت آثارها المعنوية في سلوك المسلمين، حتى قال (غوستاف لوبون): «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب».. يعني: من المسلمين.

كانت حضارتهم حضارة ربانية، كل شيء فيها موصول بذكر الله، وكل أمر ذي بال فيها لا يبدأ باسم الله فهو أبتر.

وكانت حضارة إنسانية، تعمل لخير الإنسان، وسعادة الإنسان، والسمو بالإنسان، كما تهتم بكرامة الإنسان، وفطرة الإنسان، وحرية الإنسان.

وكانت حضارة أخلاقية، لا ينفصل فيها العلم عن الأخلاق، ولا الاقتصاد عن الأخلاق، ولا السياسة عن الأخلاق، ولا الحرب عن الأخلاق.

وأعتقد أن الأمة التي صنعت تلك الحضارة القديمة، قادرة على أن تصنع حضارة جديدة، تأخذ من حضارة الغرب خير ما فيها، من وثبات العلم والتكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، ولكنها تضيف إليها قيم الإيمان والأخلاق الربانية والإنسانية، وتضبط مسيرتها بالتشريعات الإلهية، التي وضعت (النصوص الربانية) أسسها وأصولها، وتركت للعقل المسلم حق الاجتهاد في فروعها وتفصيلاتها، مراعيًا الجمع بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، ومعتبرًا لتغير الزمان والمكان والإنسان[1].

---

(١) انظر: كتابنا: (السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها)، نشر مكتبة وهبة.

وبهذا تكمل حضارتنا نقص الحضارة المعاصرة، وتملأ فراغها، حين تمزج الروح بالمادة، وتصل الدنيا بالآخرة، وتربط بين التنمية والأخلاق، وتجمع بين العلم والإيمان، فليس بالعلم وحده يحيا الإنسان.

إن الإيمان -كما جاءت به الرسالة الخاتمة- هو الذي يُفسر قضايا الوجود الكبرى، ويصل الإنسان بالوجود الكبير، وبالأزل والأبد، ويجعل لحياته طعمًا وهدفًا ورسالة، وهو الذي يمنحه السكينة الروحية، والطمأنينة القلبية، فلا يستبد به القلق والخوف، ولا يسيطر عليه الاكتئاب واليأس: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ (الفتح: ٤)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

الإيمان قوة هادية، تنير لصاحبها الطريق، وهو قوة حافزة، تدفعه إلى الخير، وهو قوة ضابطة، تصده عن الشر، وقوة جامعة، تربط أهل الإيمان برباط لا ينفصم: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١).

كلمة أخيرة:

هذه رسالة الإسلام الحضارية، تقدمها أمته إلى العالم الحائر الذي شقي بالحضارة المادية الاستهلاكية التي تسوده اليوم.

على الأمة أن تجتهد وتستفرغ وسعها في تبليغ هذه الرسالة إلى البشرية التائهة: بالأسوة الحسنة والنموذج العملي أولا، ثم بالكلمة المقروءة، وبالكلمة المسموعة، وبالكلمة المشاهدة، وباللغات المختلفة، حتى تقوم على الناس الحجة، وتبرأ الذمة.

ولدينا من الإذاعات الموجهة، ومن القنوات الفضائية، ومن شبكة (الإنترنت)، ما يمكننا أن نوصل كلمتنا إلى أنحاء الأرض، ونحقق عالمية الإسلام بالفعل.

ولكننا -لكي نحقق هذا الهدف- نفتقر إلى قوى بشرية مدربة هائلة، لتستطيع أن تخاطب كل قوم بلسانهم، ولتبين لهم.. وإلى قدرات مالية كبيرة، لتمويل

مـا تحتاجه هذه الآليات الخطيرة من أجهزة وأدوات، ومن تفريغ للقوى البشرية القادرة على العطاء المتميز.

وقد سميت الدعوة إلى الإسلام عن طريق (الإنترنت) جهاد العصر، فهو يغنينا عن تجييش الجيوش، لإيصال دعوة الإسلام إلى البلدان والشعوب البعيدة.

وبهذا نستطيع برسالتنا الحضارية -إذا أحسنا عرضها بلغة عصرنا- أن نفتح لها آفاقًا وأقطارًا، فتحًا سلميًا، لا تراق فيه قطرة دم، فلا نشهر سيفًا، ولا نطلق مدفعًا، ولا نعلن حربًا.

إنه (الفتح السلمي) الذي أصّله الإسلام، في (صلح الحديبية) المعروف، والذي عقد بين الرسول ﷺ وبين مشركي قريش، لإقامة هدنة بين الطرفين، يكف كل منهما يده عن الآخر، فسمّى القرآن ذلك (فتحًا مبينًا) ونزلت في شأنه (سورة الفتح).. وسأل بعض الصحابة الرسول الكريم: أوفتح هو يا رسول الله؟ قال: «**إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح**»[1]. وانتشر الإسلام في هذه الفترة، كما لم ينتشر في أي فترة مضت.

وعلى ضوء هذا، أفسر ما بشر به الحديث النبوي الشريف من (فتح رومية) بعد فتح (القسطنطينية)[2] أنه فتح الدعوة والفكر، لا فتح السيف والمدفع. وفتح رومية يعني عودة الإسلام إلى أوربا، بعد أن أخرج منها مرتين، وهذا هو فتح القرن القادم إن شاء الله، القرن الحادي والعشرين، فتح العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والحياة كلها بتعاليم الإسلام. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم:٤-٥). ويتحقق وعده تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

---

(١) رواه أحمد عن مجمع بن حارثة الأنصاري؛ تفسير ابن كثير لأول سورة الفتح، ٤/١٨٣، طبعة الحلبي.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي المدينتين تفتح أولاً: رومية أو قسطنطينية؟ فقال: «**مدينة هرقل تفتح أولاً**»، يعني: قسطنطينية، وقد فتحت سنة ١٤٥٣م، وبقي الشق الآخر من البشارة: فتح رومية.

عوائق على طريق النهوض

الدكتور عبد اللطيف محمود آل محمود*

إن تقوية العاطفة الإيمانية، وقيام دولة المؤسسات، والالتزام بقيم الشورى، والالتقاء على الثوابت، والانفتاح الفكري والمذهبي، والاهتمام بالتربية والتعليم والثقافة والسلوك، ووضع سياسة للعطاء الحضاري، تشكل أولويات النهوض.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدالأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،، وبعد:

فإن دور الأمة الإسلامية في عالم الحياة منذ أن جاءت الرسالة إلى الرسول الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ لم يكن وليد فكر بشري، أو تصور نظري فردي أو جماعي، فلم يكن محمد ﷺ سوى رجل أمي غير أنه أوتي الكتاب من الله تعالى كما أوتيه الرسل والأنبياء من قبله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

---

* باحث.. وأكاديمي.. (البحرين).

لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

هذا الدور كان اختياريًا ربانيًا محددًا من الله تعالى للأمة، يجب عليها أن تعمل على تحقيقه في الحياة أفرادًا وجماعة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ (البقرة: ١٤٣)، ويقول الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ولقد نفى الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ أن يكون تحديد دوره ودور أمته في الحياة رأيًا بشريًا أو تصورًا نظريًا، منه منفردًا، أو منه ومن متبعيه، حيث يقول سبحانه له ردًا على من سيتصور هذا التصور أو يرى هذا الرأي: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١-١٦٣).

إذن، هذا الدور في الحياة إنما كان هداية من الله تعالى وتوجيهًا إلى صراطه المستقيم، وهو دور قام به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، جد النبي محمد ﷺ، في فترة من الزمن قد مضت ونيط بمحمد ﷺ وبامته من بعده أن يقوموا به فيما بقي من الزمان.

المقومات الحضارية للأمة المسلمة

أمة أراد الله تعالى لها أن يكون لها هذا الدور الحضاري بين الأمم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، ولها هذه المكانة عند الله تعالى بين أمم الأرض جميعًا، من اتبع منهم رسالة سماوية أو دينًا بشريًا صرفًا، أو دينًا اختلط فيه حق كامل من رسالة سماوية مع تصور قاصر من فكر بشري: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، لا تتأهل له (لهذا الدور الحضاري) إلا بمقومات خاصة في عقيدتها، وسلوكها، وتصورها لنفسها ولغيرها من الأمم والناس أجمعين.

ولعل من أهم هذه الخصائص:

- أن أفرادها ينتمون في سلالتهم وأصلهم إلى ذات السلالة والأصل الذي ينتمي جميع البشر إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١).

- أنه لا تميز بين البشر عند الله تعالى بسبب لغة أو جنس أو لون، فالكل خلقه وهم عبيده وهو ربهم وخالقهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات: ١٣).

- أن الكرامة للفرد عند الله عز وجل بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

- أنه لا إكراه لاتباع هذا الدين قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦). والقاعدة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩).

- عدم الإيمان بالإسلام لا يحرم صاحبه من حقوقه الدنيوية والمعيشية، بل يجب أن يحصل عليها كاملة غير منقوصة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥).

- اكتمال التصور للحياة عند المسلم بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالله كان ولم يكن معه شيء، ثم خلق السموات والأرض وما فيهن إلى أجل محدد، وخلق الإنسان ليبتليه ثم يميته ثم يحييه ليحاسبه على ما قدم وأخر، لتكون نهايته إما في الجنة وإما في السعير.

- وضوح العلاقة بين الإنسان وخالقه وبينه وبين أفراد بني جنسه، وبينه وبين الكون الذي يعيش فيه.

- قيام الالتزام بالإسلام على إعطاء الجسد حقه، وإعطاء الروح حقها، في توازن لا يطغى فيه أحدهما على الآخر.

- اعتبار الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، والوعد بأن اتباع الأحكام الشرعية تحقق الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة في الآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧)، ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٧).

- التكامل في عبادة الله، بين إقامة الشعائر الخالصة لله تعالى من صلاة وصيام وحج، والشعائر المرتبطة بالمجتمع كالزكاة وحسن الخلق والتعاون على البر والتقوى والإحسان والعدل.
- التفرقة في الأحكام بين الثابت والمتغير، فالثوابت أحكامها منصوصة لا اجتهاد فيها، والمتغيرات تعتمد على الاجتهاد في فهم النص أو في طلب الدليل من غير النص.
- الاهتمام بالعلوم النظرية والعلوم التطبيقية على حد سواء، وإعطاء كل نوع مجاله الخاص به.
- الدعوة إلى النظر والبحث والملاحظة، والحث على الدراسة والسير في الأرض، لتطوير الحياة، بدءاً من النظر في السموات والأرض: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)، إلى البحث عن كيفية خلق الإنسان: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

أسباب عدم فاعلية الأمة

إنه لمن المسلمات في الحياة الإنسانية أن الأحكام والمبادئ والخصائص والمقومات لأي رأي أو فكر أو دين أو قانون، لا تؤتى ثماره ولا يجنى جناه إلا إذا وجد من يؤمن به ويعمل على تحقيقه، وتوجد البيئة الملائمة والظروف المواتية لتطبيقه.

والأمة الإسلامية ليست بدعًا من الأمم، ولا استثناء من قواعد الحياة، وقد قال الله

عز وجل لها: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥)، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت:٩-١٠).

ولا يصح القول: بأن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تقوم بدور حضاري أو ليس لها مقوماته، لأنه قد كان لها دور حضاري على أرض الواقع تنطق به المعالم الأثرية الحضارية في جميع البلاد التي استقر بها المسلمون، وتزخر بها المكتبات، ونجد عنها العلوم النظرية والتطبيقية التي عرفها المسلمون.

ولا يجوز لنا الاتكاء على أن الأعداء قد عملوا لإخراج الأمة الإسلامية عن دورها الحضاري باستعمارها والسيطرة عليها والتصرف في مقدراتها وقوانينها بالقوة والهيمنة، فذلك شأن الصراع بين القوى، والغالب يفرض سلطانه ورأيه على المغلوب، طبقًا لأحكامه وقواعده وأخلاقه وسياسته ونظرته إلى الآخرين.

أما وقد ثبت في الواقع أن الأمة الإسلامية قد تخلفت في وقتها الراهن عن القيام بدورها الحضاري أمام الحضارات الأخرى، والغربية على وجه الخصوص، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب التي عطلتها عن ذلك.

ويمكن التأكيد على ما سبق قوله من أن الأفكار والآراء والأديان لا تؤتي ثمارها إلا إذا وجدت ثلاثة أمور: أولها الإيمان بها.. وثانيها العمل على تحقيقها.. وثالثها: البيئة الملائمة للتطبيق.

أما الإيمان بالإسلام، فإنه لابد أن نفرق بين الإيمان به كمعتقد شخصي، وبين الإيمان به كدين حضاري جاء من الله تعالى لتحقيق الحياة الطيبة للناس أجمعين في الدنيا، من آمن به ومن لم يؤمن به: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ولتحقيق النجاة من عذاب النار ودخول الجنة يوم القيامة: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥).

المؤمنون بالإسلام اليوم في العدد كثير، منتشرون في الكرة الأرضية، أغلبية في دول وأقلية في دول أخرى، ولن ينتهي المسلمون من على سطح الأرض إلا عندما تأتي الريح اللينة في آخر الزمان فتأخذ أرواح المؤمنين، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ.

لكن الإيمان بالإسلام درجات، مؤمن يمارس الإسلام في ذاته، عامل به في نطاق حياته وحياة من حوله. وهذا النوع من الإيمان نراه في سلوك عامة الناس وعوامهم، وهم الغالبية العظمى. وهذه الغالبية -في الإسلام وفي أي معتقد وحضارة ودين- يمكن أن تكون قوة معطلة لا يؤبه بها ولا تؤثر في الحياة، ويمكن أن تكون قوة ذات فاعلية كبرى تغير الحياة وتؤثر فيها إيجابًا أو سلبًا.

إنها تكون قوة معطلة لا يؤبه بها عندما ما ترتبط بلقمة عيشها، وتتبع شهواتها وأهواءها، وتضعف عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها فحسب، ولا تجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي تربطها بالحياة وتطوراتها.

ولكنها تصير قوة ذات فاعلية إيجابية كبرى عندما ترتبط بلقمة عيشها وتسيطر على شهواتها وأهوائها، وتقوى عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها ولغيرها على حد سواء، وتجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي توجهها إلى الحياة الإنسانية، وتربطها بها وبتطوراتها.

كما أنها تصير قوة ذات فاعلية سلبية كبرى عندما تسيطر عليها الانتماءات اللغوية أو المكانية أو الزمانية أو الجنسية أو العرقية أو النسبية، وترى لها الفضل والأفضلية على بقية البشر، أو يشتط بها إيمانها بنفسها فترى أن الدنيا لها وحدها وغيرها إنما خلق خادمًا لها ومحققًا لشهواتها، وهي تلك الدعوات العنصرية والجنسية والدينية.. وتصبح هذه النزعة طامة كبرى في الحياة البشرية عندما تجد قيادة سياسية وقيادة فكرية تزكي في نار التمييز والتميز وادعاء الأحقية على بقية البشر.

تلك درجة من الإيمان تجعل أصحابها غثاء كغثاء السيل.. ويمكن أن تتحول إلى قوة بناء، كالماء العذب يمر على الأرض الهامدة، فإذا بها قد اهتزت وربت وأينعت وأنبتت وأثمرت كما ضرب الله بذلك مثلاً: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

ودرجة أخرى من الإيمان بالإسلام، يعيش صاحبها في الحياة وهو يحمل هم الحياة وهمومها، ويفكر في طريق خلاصها، عاطفته جياشة لا تفتر، متزنة لا تحيد، وهو لا يعيش لنفسه فحسب وإنما يعيش لنفسه ولقومه وأمته بل وللناس أجمعين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. تراه يتعبد في محراب العمل، ومحراب المعاملة، ومحراب التعامل مع جميع الخلق، كما يتعبد في محراب الصلاة والصوم والحج لله رب العالمين.

هذه الدرجة من الإيمان إذا وجدت في القيادة السياسية والقيادة الفكرية الموجهة لعقول أبناء الأمة وطاقاتها كانت بركة على المسلمين وعلى البشرية أجمعين، وجعلت من المسلمين أندادًا لغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى، يعملون كما يعملون، وينتجون كما ينتجون، ويتفاعلون مع الحياة كما يتفاعلون.

وأما العمل على تحقيق الإسلام في الحياة فهو ناتج من الإيمان بعالمية الإسلام وتنظيمه لشؤون الحياة كلها وشؤون البشرية جمعاء، من آمن به ومن لم يؤمن به،

وإعطاء كل ذي حق حقه في توازن بين حق الفرد وحق الجماعة وحق الآخرين.. وهذا الوعي بين المسلمين هو الذي نقل الإسلام من الحجاز إلى الجزيرة العربية كلها وما حولها من أرض، شمالاً وشرقًا وغربًا وجنوبًا، حتى وصل إلى معظم أنحاء العالم المعروف، ويصل أبناؤه اليوم إلى العالم الجديد الذي لم يكن معلومًا لهم.

وأما البيئة الملائمة للتطبيق فتقوم على وجود الضوابط والحدود، التي تحفظ لكل مؤسسة صغرت أو كبرت قواعد حركتها، وحدودها، وحقوقها، وواجباتها، ومرجعيتها عند الاختصام، وأسلوب عملها، فردًا أو أسرة أو سلطة تشريعية أو فكرية أو قوة إعلامية.

ولقد وجه الله تعالى هذه الأمة في أسلوب عملها فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:٣٨)، وإلى مرجعيتها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء:٥٩)، وإلى أسلوب التقويم في حياتها فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤)، وإلى تعلق القلوب بابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة:٥)، وإلى الالتزام بأحكام الإسلام فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة:٤٨)، وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة:٤٩).

ها هي **أسباب عدم فاعلية الأمة** في وقتها الراهن للقيام بدورها الحضاري، قد بانت وظهرت:

– ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية بالدور الحضاري للأمة الإسلامية.

– ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى الغالبية العظمى من عامة المسلمين بالدور الحضاري للأمة الإسلامية.

– ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى بعض المفكرين المسلمين بالدور الحضاري للأمة الإسلامية.

– الانشغال بتنمية الكيانات الصغيرة للدول الإسلامية والعربية دون الاهتمام بالارتباط القومي والإسلامي.

– فقدان التعاون والتنسيق بين كيانات الدول العربية والإسلامية في جوانبها السياسية والاقتصادية والإعلامية والحضارية على وجه الخصوص.

– انتفاء سياسة العطاء الحضارية التي تقوم عليها الأمة الإسلامية وتدعو إليها خلال القرون الماضية والقرن الحالي (الإيمان بعالمية الإسلام).

– عدم اعتبار مصادر الإسلام الصحيحة مرجعًا أوليًا لأخذ القوانين والنظم التي تسوس الفرد والجماعة، وللاحتكام بين المسلمين فيما يتنازعون فيه.

– عدم وضع الاعتبار لقوة الشعوب في حركة الدول العربية والإسلامية بحيث تكون قوة مساندة لحكوماتهم وأنظمتهم في عطائهم الحضاري الإسلامي، وفي دفاعهم عن حقوقهم ومقوماتهم أمام طغيان القوى المسيطرة عالميًا.

- اختلاط الاختصاصات بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، أو وحدة الهيمنة عليها، وسرعة إحداث التغييرات في قواعدها وقوانينها في كثير من الدول الإسلامية لتحقيق المصالح الفردية والآنية.

- التجاوزات للقوانين، وسد الأبواب على المتضررين عن المضي في الطرق التي توصلهم إلى حقوقهم عند حدوث هذه التجاوزات.

- ضعف الرقابة على الأداء الوظيفي للقطاع العام باعتباره القطاع الذي يسوس أفراد الشعب ومؤسسات الدولة، ويحوي ميزانية الدولة، التي يستفيد منها المجتمع بكامله، مع ما لقوته وعطائه من الأثر الأكبر في استقراره والثقة فيه، داخلياً وخارجياً.

- عدم التأكيد على السلوكيات الأخلاقية الإسلاميةَ في حركة الفرد وحركة المجتمع، بحيث يتم ضبط السلوك على معايير الحضارة الإسلامية.

- ارتباط حركة الدول بالأفراد الذين يتولون المسؤولية دون مؤسساتها، مما يجعل الدولة لا تستقر في حركتها، وتتغير سياستها وحركتها بتغير الأفراد الذين يتولون أمرها، ويؤثر ذلك في غالب الأحوال سلبًا على مقوماتها وحركتها.. كما أنه في هذه الأحوال، غالبًا ما يتمكن الطفيليون والمنافقون وأصحاب الأهواء والمصالح الخاصة من مصالح الدولة العامة، ويكثر الفساد الإداري، وتنتشر الرشوة والمحسوبية.

- انغلاق أصحاب الفكر المذهبي أو العلمي أو العلماني على أنفسهم، ومحاولتهم القضاء على الآخرين أو طمس أفكارهم أو ردهم إلى أضيق السبل في الحياة، مما يولد المعارضة التي تعطل الحركة، وتعمل على هدم المجتمع بالتعاون مع (الآخرين).

- عدم التأكيد على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والعمل في مجال المتغيرات، وانصباب الحركات الأخرى على تغيير الثوابت الإسلامية، مما ولد صراعات لم تنته بعد.

أزمة الحضارة الحالية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية

لابد من الاعتراف مسبقًا بما للحضارة العالمية الحالية من منجزات حضارية مادية، سواء في التقدم المدني، أو العلمي، أو التقني، أو وسائل الاتصالات، أو العمل التجاري، أو التنظيم الإداري، أو الاهتمام بالجسد البشري وبالنفس الإنسانية، من خلال البحوث المكثفة والدراسات الميدانية والدراسات الموسعة.

ولابد من الاعتراف ثانيًا، أن هذه المنجزات الحضارية قد قامت في كثير من دوافعها وتطبيقاتها على أساس الانفصال بين الدين والحياة، وحصر الدين على أماكن العبادة والشؤون الخاصة للفرد، وجعل الحياة الاجتماعية واقعة تحت تخطيط الإنسان والنتائج التي يتوصل إليها انطلاقًا من تشريع الإنسان لنفسه.

ولابد من الاعتراف ثالثًا، أن القائمين على هذه المنجزات قد تأثروا ببيئاتهم الثقافية، بما فيها من علوم وتاريخ وأساطير وأديان وخرافات ونظرة إلى النفس وإلى الآخرين.

ولابد من الاعتراف رابعًا، أن الإنسان في طفولته الحياتية والثقافية والعلمية يرى أنه دائمًا على الحق، وأن غيره مجافٍ للحق، ويود لو أن العالم تغير إلى ما هو عليه.. ويصل به الاعتقاد إلى أنه يعجب كيف لا يعرف الآخرون الحق الجلي الذي يعتقده، وكيف لا يعرفون الباطل -في رأيه- الذي هم عليه؟! ولا يخرج من هذه الطفولة إلا من نمى بثقافته وعلمه حتى وصل إلى مرحلة الرجولة والشيخوخة التي تعترف بأن الحق قد يكون متعددًا، وأحيانًا أنه لابد من التعايش مع ماهو باطل بكل المقاييس.

ولا بد من الاعتراف خامسًا، أن الحضارة العالمية رغم سماتها الأوربية والأمريكية وسماتها المادية، إلا أنها لا تمنع الآخرين من الدخول إليها والعمل من داخلها للاستفادة منها والتأثير فيها بقوة البرهان والدليل، مع الاعتراف بأن هذا التأثير ليس

بالأمر اليسير ولكنه ليس بالأمر المستحيل.. وتتيح قيم الديموقراطية والحرية والإخاء الإنساني وحقوق الإنسان ودولة المؤسسات والإعلام -المفتوح على كل شيء، بما له من سلطة فائقة حتى سمي بالسلطة الرابعة- لكل قادر أن يلج إلى تلك المجتمعات ويؤثر فيها، رغم ما سيحاوله الآخرون من عرقلة لتلك الجهود.

وإذا كان الإسلام يهتم بالجسد والروح، وبالمادة والقيمة، ويربط الإنسان بالكون وخالقه، ويعترف بالإنسانية جمعاء، فإن عمل المسلمين مع الحضارة العالمية الراهنة ينبغي أن يكون مكملاً لها، ومصلحًا لاعوجاجها إن وجد، ودافعًا لمسيرتها حتى ترتقي إلى أن تكون إنسانية عالمية لا إنسانية أوربية أمريكية غربية.

ولقد أتيح للمسلمين أن يثبتوا صدق معتقدات الإسلام وصحة طروحاته، سواء النفسية أو الروحية أو الاقتصادية، في البلاد الإسلامية والبلاد الغربية، لكن جهودهم إنما كانت جهودًا فردية.. إلا أن هذه الجهود الفردية تحتاج إلى أوقات طويلة حتى تؤتي ثمارها على المستوى الحضاري.. ويوم أن يكون للدول الإسلامية سياسة للعطاء الحضاري يتم إقرارها من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي أو رابطة العالم الإسلامي، وتلتزم الدول الإسلامية بالعمل على تحقيقها داخل دولها أولاً، وثانيًا من خلال الروابط الثنائية والمنظمات الإقليمية كمجلس التعاون لدول الخليج العربية، أو القومية كجامعة الدول العربية، أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أو المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، فإن الوقت سيقصر، والتأثير سيكثر، والإنسانية ستستفيد من هذا التلاقح والتكامل الحضاري بين الإسلام والغرب والشرق.

ولابد من أن يتم تحديد الموارد المالية لتطبيق هذه السياسة الحضارية من قبل الدولة داخليًا، ومن قبل المنظمات داخليًا وخارجيًا. وقد تبين أن المشروعات الدولية التي تنشئها الدول الإسلامية لا تستمر بسبب العجز في الميزانيات العامة لهذه الدول، وأغلبها من الدول المتخلفة.

لذا أرى أن يتم إنشاء صناديق استثمارية وقفية لهذه المنظمات، بحيث يتم تمويلها ذاتيًا بدل الاعتماد على المخصصات السنوية من الدول المشاركة، رغم الحاجة إليها في أول الأمر لإنشاء هذه الصناديق الاستثمارية، بحيث لا تتعدى فترة العشر سنوات من إنشائها لتعتمد على نفسها.

أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة

أظن أن مرحلة العمل الحضاري الإسلامي لا تنهض به أحزاب أو جمعيات، بل لابد أن تقوم به الدول الإسلامية، وإن أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة ينطلق من:

١- تقوية العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وجماهير الشعوب الإسلامية.

٢- قيام دولة المؤسسات في الدول الإسلامية.

٣- الالتزام بقيم الشورى في حركة المجتمع، في كل مؤسساته.

٤- الالتقاء على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والالتزام بأدب الحوار في المواضيع التي تمس تلك الثوابت.

٥- الانفتاح بين أصحاب الأفكار والمذاهب الدينية وغيرها.

٦- الاهتمام بالتربية والتعليم والثقافة، المعتمدة على مبادئ الإسلام وقيمه.

٧- الحرص على السلوك الأخلاقي والعقيدي الذي يرعى الفرد والجماعة.

٨- وضع سياسة للعطاء الحضاري الإسلامي على المستوى الداخلي والدولي.

والله المستعان.

المشروع الحضاري الإسلامي
تأملات.. وبصائر

الدكتور حسن عبد الله الترابي*

الشورى التي كانت تجمع الناس بكل دفعهم السلطاني المتدين بدأت تغيب حتى من أصول الدين، وهي الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة، حيث إن الاجماع هو قرار الشورى بالطبع، لكن هذا سقط في الواقع وبدأ الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.

الحمد لله الحي القيوم أولاً وأخيراً عبر الأزل.. والصلاة والسلام على موكب الأنبياء الذين وصلوا عالم الغيب الأزلي بعالم الشهادة النسبي. وبعد،

فقيام الدين هو نهضة الحضارة.. والدين هو خيار الإنسان، بقدر مشيئته لسيرة حياته إلى المصير، في إطار أقدار من الابتلاء في الدنيا. وقد يجمد الإنسان، غافلاً ضالاً ببداوة فطرته الساذجة، فلا يُحدِث في الكون أثراً، ولا يُحدث في تيار التاريخ حضارةً.. وإذا تحرك فتشقف وتكيف، ولكنه كان رهيناً للشهوات والأهواء والحاجات من عالم المادية والمكانية المشهود فهو إنما ينشئ مدنية لا دينية.. أما إذا اهتدى بالدين وانفعل، فعبر عنه، وصوره عمراناً لحياته، مصوّباً نحو أهداف على مناهج مشروعة، فإنما يكون بانيًا لحضارة دينية.

---

* مفكر.. (السودان).

تأملات في واقع المسلمين

لقد قدر الله سنة من التداول لنهضات الحضارات الدينية وسقطاتها، كما يتحرك الموج، يعلو ويهبط.. عبر قرون الزمان، تقوم النهضات الدينية، وقد تنحط.. وإذا قرأنا القرآن في حركة الميراث الإبراهيمي، وهو الإسلام، نرى كيف كانت تتنزل الرسالة، فتذكِّر الفطرة، وتحييها، وتدعمها بدوافع الإيمان وضوابط الحركة، وتتفجر الطاقات، فتقوم نظم النهضة وأركانها، تماماً كما يتنزل الغيث على النبات، فيقوم ويصبح حياً بعد موت.. لكن الغالب على الناس إذا تطاول بهم العهد أن ينسوا ملتهم، وأن تهبط حركتهم، وأن تخف وطأتهم على أثر الحياة، فتغشاهم غاشيات الضلال والجمود من أنفسهم.

هذا الضعف النسبي، يجلب إليهم فتنًا من قوى أخرى من حولهم في الكون.. وهذا ما كان يحدث دائماً لمصير الرسالات.. ثم يأتي إسعاف، يحررهم، ويطهرهم، ويذكرهم، ويفجر طاقاتهم العقلية اجتهاداً، والحركية جهاداً، ويملؤهم إيماناً، يعبرون عنه أقوالاً وأفعالاً.. وهكذا تتحرك الدورات والدفعات الحضارية.. ولعلنا نتذكر بالطبع نهضة حضارية لداود وسليمان عليهما السلام، وما حولهم.

أما بعد الرسالة الخاتمة، فقد أصبح توالي التجديدات والنهضات في وجه الابتلاءات المتقلبة المتداولة، لا يتنزل من السماء ولكن أصبح من تكاليف الذين حُمِّلوا رسالة الإسلام من بعد، وقد حُفِظَت لهم الأصول.

لا أريد أن أعرض لصدر الإسلام، من محور حضارة واحدة من الأرض الوسطى، وكيف امتد لواء الإسلام شرقاً وغرباً ليجمع طائفة من شعوب العالم وأقوامهم.. وكيف أن الوشائج التي وصلت كل هذه الأطراف إلى محور الوحدة ومركزها، وقد بدأت تنتهي بعد ذلك، حيث الحضارة أخذت تذبل، كما تنقطع الشرايين التي تصل

بالقلب، فينشل العضو.. ولكن بدأت تتعاقب كذلك نهضات ودفعات هنا وهناك.. فيقوم في الهند المغول بحضارة.. وتقوم بالأندلس حضارة، وتتنزل آثارها كذلك على إفريقيا، وسطاً وغرباً.. وقد تمتد نبضات الدفع الحضاري، شرقاً، وشمالاً إلى وسط آسيا.. نتذكر كل هذه الحضارات التعليمية والثقافية والاقتصادية والسياسية المشهورة، هنا وهناك.

لكن جملةً، كل هذه المنظومة من الحضارات الإسلامية، بدأت تتهاوى، وبدأت تتنزل إلى دركات من الانحطاط، ولم تكن في فراغ من العالم.. هبطت إلى الوادي والجبال من حولها من بعد حضارات أخرى.. أصبحت المياه تنصب إليها، وبدأ يشتد الضغط لتهب الرياح عليها.. وضعف الدين تماماً في نفوس المسلمين.. وأصبح الانتساب إلى الإسلام هوية تاريخية، ومظاهر، وشعائر.. وتضاءل الإيمان بالغيب ونقص، وربما تخلفه عقائد سحر وخرافات، ومزاعم بركات لبعض الطقوس، تسد الغيب الذي بدأ يغيب عن قلوب الناس.

أما أصول الدين فلم تعد إلا محفوظات وأصوات.. القرآن أصبح محفوظة صوتية.. الأحاديث ليس فيها تحليل للمعاني، فضلاً عن تجديدٍ لمعانٍ متجددة في وجه ابتلاءات جديدة.

وحدة الأمة تمزقت، وتحول المسلمون وتقطعوا إلى عصبيات وإقليميات وطائفيات بدأت تغشاهم من قديم الزمان، ومذهبيات في الفقه الظاهري والفقه الباطني.

ووحدة الشريعة بدأت تتفتت.. وانفلت من إطار الدين السلطان والحكم والسياسة.. الشورى التي كانت تجمع الناس بكل دفعهم السلطاني المتدين بدأت تغيب حتى من أصول الدين، وهي الأصل الثالث في الدين بعد الكتاب والسنة،

حيث إن الإجماع هو قرار الشورى بالطبع، لكن هذا سقط في الواقع.. وبدأ الطاغوت والظلم هو الذي يتحكم في المسلمين..

والمعاش كذلك بدأ يخرج من أن يكون نعمة من الله إلى أن يكون متاعاً للحياة الدنيا.. وإذ ضَعُفَت الدوافعُ لأن يطلب الإنسانُ ما يسخره له ربه، فيزداد تديناً، بدأ يضعف كسبه الاقتصادي، وبدأ الفقر يدخل عليه.

وانفلت العلم كذلك من وحدانية العلم، فخرج العلم بطبائع الأشياء بعيداً من العلم بالمنقولات التي يسمونها شرعية.. فهذه ماتت.. وغابت تماماً كل العلوم التي نهضت أيام المسلمين الأولى.. وحتى العلوم المنقولة تماوتت جداً لأنها أصبحت محفوظات ثم منقولات وحسب.

المجتمع أيضاً فسدت أخلاقه، وأُوكلت الفضائل في الحياة إلى الشيوخ، مثلما يصيب كل الديانات.. واستُضعفت النساء، وكاد أن ينشلّ نصف المجتمع في معظم بلاد العالم الإسلامي.

وروح التصدي للتحديات والجهاد فترت همتها في نفوس الناس..

اللغة الدينية كلها بدأت تتحول.. فاللغة التي تحمل القرآن، اللغة العربية، بدأت تتقلص.. موسوعتنا العربية بدأت تتقلص إلى عُشر الكلمات.. كانت تتحرك وتمتد بالسطح وتتسع لتستوعب الحياة الكثيفة المتزايدة تزايد الإيمان، ولكن بدأت تتقلص مع تقلص الدين.. وذبلت كلمات مثل كلمة عبادة، وكلمة دين، وكلمة شريعة، وكلمة اجتهاد، وكلمة فقه.

الفقه الذي هو الفهم العميق لم يعد سوى ذاكرة، يمكن أن يحسنها الأطفال.

والعبادة -وكل الحياة عبادة لله.. وما خُلق الناس إلا ليعبدوا الله- انحسرت..

انحسر مفهومها، وأصبحت البقية قد تسمى معاملات، وقد تسمى أشياء أخرى.. حتى اللغة نفسها كانت تعبر عن هذا العجز.. ويداول الله الأيام بين الناس.. حتى الذين أمدهم المسلمون بثقافتنا الدينية فأخذوا من المسلمين القانون الدولي ومعاملات الشعوب، وأخذوا منهم القانون الدستوري ومعاملات السلطان، وأخذوا منهم علوم الفلك وعلوم الطب، حتى هؤلاء تناولوا علومنا وثقافتنا وبدأوا ينهضون بها، والمسلمون الذين أعطوها ذبلت في أنفسهم.

فبدأ الغرب ينهض بنور علمي، لا ديني، خرج من الدين تمامًا، لأنه خرج من الكنائس.. وبدأت تظهر حاجات وضغوط وطبقات جديدة لا تجد مجالاً في إطار الكنيسة التي تحتكر السلطان ظلاً لله في الأرض، فخرجت منها ثورات، ملوكًا وثواراً انفلتوا تماماً، وخرجوا بالسياسة كلها من الدين.. وفلتت كذلك الطبقات الحديثة التي كرهت التحالف الكنسي الإقطاعي.. طبقات التجديد الاقتصادي البرجوازي خرجت من الدين تماماً رغم أن الكنائس حاولت أن تغازلها وتسايرها بتحليل الربا، ولكنها انطلقت وتركت الدين وراءها، وهجرته.

وخرج الفن كذلك من الكنيسة كما خرج العلم بعد أن احتكروه وحاصروه.

هؤلاء امتلأوا – ومعلوم أنه بمجرد أن تملأ الحضارة كياناً أو أرضاً تفيض كما يفيض الماء إذا ملأ الكوب– وبدأوا يفيضون، وبدأت تحملهم روح إمبريالية عدوانية، لأنهم خرجوا من الدين لا يعلمون ميزان عدالة في الأرض.. وأصبحوا يلقون على الناس، استغلالاً لطاقاتهم وثمرات أرضهم.. وأصبحت أرزاقهم كلها كذلك لهم.. وعدواناً على الناس، بل مبالغة في العدوان، بالاستعمار المشهور.. أخذوا يفرضون أنماطهم الاجتماعية على الناس، لأنهم يزعمون أنهم هم الذين يمثلون التاريخ، والآخرون سذج ليس لهم إلا أن يكونوا قردة مقلدين.

الانبهار والتحدي

لقد أصبح المسلمون فريسة وهدفاً لتجارب الغرب.. فتجارب الغرب مع الدين أيدت هجرة المسلمين لدينهم، فأكدتها عليهم.. الغرب خرج من الدين، والمسلمون كانوا قد خرجوا من الدين من قبل، في الحياة العامة والمعاش وغالب العلوم والفنون، وحصروه في دُور محدودة وشعاب خاصة من الحياة، فجاء الغرب ليؤكد لهم ويطبع عليهم هذه الحياة المارقة من الدين.

أصبح المسلمون يعجبون بالغرب ويقلدونه.. النماذج الاجتماعية الغربية فتنتهم.. والثقافة الغربية غلبت عليهم تماماً.. وأصبح الناس يوالون الغرب، حتى الذي يتسلط على المسلمين سلطانًا، لكنه تسلطٌ تحت وطأة سلطان الغرب عامة.. لقد كبت الغرب الدين عند الناس.

وربما كان ذلك لأسباب تاريخية، فقد كان المسلمون في نهضتهم يتسعون على حساب الغرب وطوائفه.. لذلك حرمهم الغرب من الدين، وكبته في نفوسهم، حتى لا يحدِّث المسلمون أنفسهم مرة أخرى بالانقلاب على الغرب.

لا شك أن التحديات دائماً هي التي تحرك التاريخ.. والشعوب التي تنقطع من حركة الإنسان في الأرض كالشعوب الأفريقية جنوباً، تظل جامدة هامدة.. لكن الشعوب التي تكون هي عرضة دائماً لحركات، فإن التحدي يستفزها، فيقوم فيها التصدي لذلك.. فالمسلمون كانت لهم مشروعات نهوض بحالتهم التي انحطت عن قيمهم، وعن مستويات كسبهم، ودفعًا كذلك للآخرين، دفاعًا أول الأومر.

القرنان الماضيان شهدا حركات فيها بقية من مشاعر دين تقليدي، حفظته بعض الموروثات وحفظه بعض الصالحين من الناس، وفيه مشاعر قومية نتيجة للاستفزاز الأجنبي الذي هجم على الوطن أو على القوم.. هذه الصدمات جمعت الناس أيضاً

لقوميتهم واستفزتهم، فقامت حملات للاستقلال والعزة القومية والوطنية.. كما أن مشاعر الظلم والاستغلال والتسخير والسلب، الذي فُرض على المسلمين، حركهم، يبتغون العدل واسترداد الحقوق والأمانات، لا سيما أن الغرب بدأ يدخل بقوته يصطرع في حروب أنهكته إنهاكاً شديداً.

قامت مدافعات برؤى وحركات كان بعضها سافراً يريد أن يهجّر الدين.. سافراً صريحاً، متجاهلين تاريخهم مقارنة بالغرب.. فالمسلمون، إنما كانت نهضة العلم عندهم من نهضة التدين.. وسعة الأرض مع نهضة التدين.. والعدالة مع نهضة التدين.. وكان ذبول التدين في نفوس الناس مع ذبول العلم، والذل بعد العزة، والفقر بعد الغنى.

أما الغرب فقد كان عكس ذلك، لأن الدين في الغرب لم يكن ديناً حقاً.. كان دين الكنائس، فكان يتحرك عكس حركة الدين الإسلامي.. ولما كان الدين جاثماً في القرون التي يسمونها مظلمة عليهم، وكان الإنسان معطلاً كله، لأنه لا يصل إلى ربه إلامن خلال أبواب القديسين، كان العلم جامداً، والكسب الاقتصادي معطلاً، والفتح العالمي محاصراً.. ولكن عندما تحرروا، انطلقوا وانطلق كل شيء .

لذلك فالغربيون يقرأون التاريخ هكذا: لكي تنهض، تحرر من دينك.. ولكن طائفة من المسلمين، تقليداً للغرب، نسوا دينهم ونسوا تاريخهم، وعبرة تاريخهم التي هي عكس تلك العبرة.. فنجد الآن بلاداً تكتب صراحة في دساتيرها أن الدولة لا دينية! بالطبع مثل هذه الكلمات الغربية نحن لا نعرف لها معنى في ديننا.. لا نعرف من هو الدهري ومن هو الأزلي فينا.. فليس فينا الدنيوي العالمي، من هذا العالم، والذي من العالم الآخر.. كلنا من هذا العالم وإلى العالم الآخر.. فالطريق عندنا واحد، نبني هنا لنستثمر بناءنا في العالم الآخر.. لا نعرف من هو المقدس من

البشر ومن هم العوام.. الناس كلهم يمكن أن يتطهروا ويتقدسوا بطهارةٍ أو يتنجسوا بنجاسة فينتكسوا.. كلهم سواء في ذلك.. ولكن في غرب أفريقيا مثلاً، بلاد كثيرة تكتب في دستورها ذلك.. وحتى في بعض بلاد شمالي أفريقيا، خرجت أصوات صريحة تدعو لترك الدين، بعيداً من الحياة العامة.

وبعض بلاد المسلمين اليوم، كما هو معلوم، ماذا جرى فيها.. كانت فيها إرادة كاملة، وطمس للدين بالقوة لا بالعقيدة.

وحتى فارس في أيام الخلافة العباسية الثانية قام فيها كتاب يقولونها صراحة -حسب المذاهب العلمانية الحديثة- الخليفة رمز يُدعىٰ له بالمساجد، وتضرب باسمه السكة، ولا شأن له بالحياة، أما السلطان فهو الذي يتولى الحكم ولا شأن له بقضايا الدين.

هناك بلاد أخرى لم تكن صريحة سافرة ضد الدين.. لكن روح الوطنية وروح الدفع القومي والنضال ضد الغرب غمر روح التدين تماماً في الحياة العامة، عملاً لا قولاً، وروح النهضة وحبها.. ويلتمس النهضة إما ليبرالياً تحررياً مع الغرب، في منهج الحكم والاقتصاد، أو اشتراكياً إن كره الغرب.

من مشروعات النهوض

ولكن بدأت مشروعات تدافع الهجمة الغربية والغزو الغربي إسلامياً، وبعضها كان في أواخر القرن التاسع عشر، وكان ثقافياً -جمال الدين الأفغاني، محمد عبده- وكان ضد اللادينية العالمية، وكان من أجل وحدة العالم الإسلامي.

لقد قامت حركات ثقافية، بعضها أصولي، وبعضها عصري فيه روح من الكفاح، كما في فلسطين ومصر والجزائر.. حيث غلب على بعضها الروح الإسلامية، وعلى بعضها الآخر روح ثقافية عصرية، فيه قليل من الدين.

ولكن غالب الحركات كانت جهادية .. فقامت السلفية الجهادية مثلاً في الجزيرة العربية .

ولم تقتصر الجهادية على السلفية، ولكن بعض الجماعات الصوفية أيضاً كانت دعوة جهاد في أغلب مناطق العالم الإسلامي.. في أفريقيا مثلاً، كل المجاهدين ضد الغرب، حملهم أولاً الزهد في الحياة، والتوكل على الله.. ونظام الجمعيات الصوفية كان يهدف إلى تمتين الصف الإسلامي في وجه الآخرين.. بدءاً من الصومال (محمدأحمد حسن) على سبيل المثال، إلى السودان والمهدية (محمد أحمد المهدي).. ومن قبل ذلك نيجيريا.

وآسيا كذلك، فإندونيسيا أيضاً قامت بالدفع الذي يزهدك في الدنيا وأن لا تبالي في سبيل الله، أن تستشهد.. كما قامت حركات وسط روسيا ضد الغزو الشيوعي.. وفي الهند قامت ثورات بعد ثورات.. وكذلك كان الحال في أفغانستان..

غالب هذه الحركات لم تفلح كثراً، لأنها كانت مقاومات، في آخر قوة العالم الإسلامي، استفزه هذا الهجوم، وبعد ذلك انحط.

لكن المشروعات النهضوية الإسلامية، كانت تسعى نحو مشروع إسلامي متكامل، لا يحرر الناس فقط، لا يبطل الباطل ولايهدمه وحسب، لكن يريد أن يبني الحق.. لا يصوب نحو قتل العدو ليقتل بشراً، بل وراء ذلك مقاصد وأهداف في الحياة.. هذه الحركات الإسلامية، لم تكن في الغالب كاملة المناهج في الحياة، لأنها أساساً كانت تُعنى بالدفاع أول الأمر.. والذي يدافع ينشغل عادة بهدم الباطل أكثر من إحقاق الحق، لا سيما أنها لم تجد مجالاً للحرية، وإذا وجدت مجالاً للحرية لجادلها الناس واضطروها لأن تدفع بالإسلام في كل جوانب الحياة، ولكن المبدأ نفسه كان مرفوضاً، وكانت تقف على شعار الإسلام الأول: الإسلام هو الحل.

لم تتمكن من الحريات حتى تقيم أنماطاً اجتماعية واقتصادية، ولو صغيرة، تستطيع أن تبني عليها في آخر الأمر.. كما كانت محدودة القواعد لقلة الحريات والآثار..

كانت هناك حركات تركز على الثقافة أكثر، في شمالي أفريقيا مثلاً أنموذج مالك بن نبي.. وهناك حركات في العالم الشرقي من البلاد العربية، امتد إلى الغرب، وهي الحركات الإسلامية المشهورة الأسماء.

وإلى جانب هذه الحركات، التي قام بها من وحدوا العصر إلى الأصل، قام علماء كذلك في العالم الإسلامي..

وفي آسيا قامت جماعات إسلامية، بعضها من العلماء وبعضها من المحدثين..

وفي تركيا كذلك، وتحت وطأة الحملة اللادينية التي جثمت عليها، نبع من جديد اتجاه إسلامي، كلما ضُرب منه وجه نشأ بوجه آخر واسم آخر.

حتى في إندونيسيا هناك جماعات إسلامية واسعة..

في أوروبا وأمريكا، بدأت تنشط جماعات..

من سنن التغيير:

لكن لابد من الإشارة إلى أن المشروعات النهضوية أو ما يسميه بعضهم حركة الإسلام السياسي محاربة اليوم بشدة في كثير من بلاد المسلمين، وتلك هي السيرة السنية.. سنن السيرة في الإسلام تكشف عن أنه ما دام الإسلام في خاصة حياتك فإن أصحاب السلطان لا يعنون بك، ولا يغارون منك، يتركونك في الخلاوي تذكر أذكارك وتسبح تسابيحك وتقلب أورادك، أما إذا دخلت تتحدث عن الشورى، تريد أن تصوب مسيرة السلطان وترد الأمانات إلى أهلها من الشعب، وتتحدث عن

النصيحة، تريد أن تتفاصح وتتناصح في وجوههم، وتحدث عن أن الشريعة فوقهم، تريد أن تضبطهم، وهم يريدون أن يعربدوا بالسلطة بغير حد، فإنهم يمنعونك.. وهذا أمر طبيعي، وتلك سنة .

فما يصيب حركة الإسلام السياسي هو أمر طبيعي جداً.. و إذا قرأنا القرآن، أي سورة من سور القرآن، نجد فيها معنى من معاني الجهاد، لأن الأمة لا تبنى أصلاً إلا بالجهاد.. وفي مكة، رغم أن الناس يحسبون أن الآيات المكية ليس فيها كثير من السياسيات، إلاّ أن الحقيقة غير ذلك، ففيها سياسيات كثيرة جداً، لكن الناس لا يرونها.. فيها الشورى، والقتال، والمساواة، والإنفاق، وتوزيع المال العام وغير ذلك.. كان القرآن يهيئ المسلمين في مكة بتلك السياسيات لتطبيقها في مرحلة الدولة، حتى لا يصبحوا كبعض إخواننا اليوم الذين لم يتهيأوا إلا للجهاد فقط، فأحسنوا واستشهدوا في سبيله، ولما جاءت الدولة ارتبك عليهم الأمر وأرتج.

ولكن إذا طغى في الأرض قوم جبارون، وظننا أننا لن نستطيع أن نتصدى لهم أبداً إلا أن يخرجوا هم من مواقع السلطة، فيأتي من يدخل عليهم بدين الله وشريعة الله، بينما نريد نحن أن نجلس في خلوة، كخلوة سيناء، كما فعل بنو إسرائيل من قبل، فستضيع أربعون سنة.. ولكن سيأتي يوم وتأتي من بعدنا أجيال تقول: نريد ملكاً نقاتل في سبيل الله، فيذهبون ويقاتلون ويبنون دولة الإسلام.

ولكن الدول التي تقوم فيها حركات الإسلام السياسي اليوم لا يمكن وصفها بأنها دول كافرة، هكذا بإطلاق، لذلك أسأل الله أن لا تتبدد طاقاتنا في صراعات بين الرعية والراعي.. وأسأله تعالى أن نصوب طاقاتنا كلها برفق لنبني ديننا، لا لنصطرع بها رعية وراع، ولا قطراً وقطراً، لا أفقياً ولا رأسياً، إن شاء الله.

وكثيراً ما أتحدث إلى الرعاة، وأقول لهم: لم لا تقودون أنتم إسلامية الحياة العامة؟ فالإمام إذا سلك السبيل فالرعية وراءه.

ويأتي الغرب كذلك من هناك، لأنه لا يريد للإسلام أن يدخل هذه الساحة أصلاً.. هو يدعو للحرية وللديموقراطية، ولكن أيما ديموقراطية تلد إسلاماً أو تحمل إسلاماً لتلده، تُجْهَض فوراً، هذه سنة عندهم، يشاهدها المرء ويراها من حوله.. لذلك فإن دفعة الإسلام ليتمكن في الحياة العامة لا تأتي أصلاً إلا بدفعة جهاد.. ودفعة قوة ضد هذه القوة الأجنبية، وليس بعضنا ضد بعض.. وبعد ذلك فإن الإسلام لا يقوم على القوة والإكراه، إنما يقوم على الرضى.. فلا إكراه في الدين، ولا إكراه في السياسة، ولا إكراه في الزواج، ولا إكراه في المعاملات المالية.. فالحياة كلها دين عندنا.. ولا إكراه في الدين يعني: لا إكراه في أي مجال من مجالات الحياة كلها.. لكن الإنسان إذا اضطر وانْكَبَت وتعبأ، انفجر، وهذا قانون طبيعي وقانون سني.

لكن الثورات فيها تكاليف.. كل الثورات، فرنسية كانت أو أفغانية، مسلمين أو غيرمسلمين، أسأل الله أن يجنبنا أن نتعبأ تحت الأرض ونتعبأ ولا نجد متنفساً حتى ننفجر.. والغربيون لا يسمون هذه ثورة، بل يسمونها إرهاباً.. ما يحبونه يسمونه ثورة.. ولكن نسأل الله سبحانه وتعالى أن تقوم حركة الإسلام السياسي متاباً للرعية والراعي معاً، إن شاء الله، ولو تدرجاً ورفقًا نحو الإسلام.

الابتلاءات العالمية

لكن القضايا التي تواجه الإسلام الآن، غير الضعف الذاتي، هو الابتلاءات العالمية.. العالم كله أصبح يتقارب ويتوحد، والإنسان أصبح يندرج في نظام عالمي، بدأ تتكشف شعابه، ويتبلور ويتطور، ويتركز.. أصبحت للغرب قوة ومخاطر أن يعولموا ويقولبوا العالم الإسلامي على نمطهم تماماً.

الثقافة العلمية، علوماً وفنوناً، أصبحت تحملها إلينا مناهج تعليم وجامعات ووسائل إعلام واتصال ونشر.. والأنماط الاجتماعية، الجنس وتجاوز الأخلاق، أصبحت

تطغى على المسلمين.. وأصبح المسلمون يتصلون بغير الإعلام بالسياحة والتزاور والمنظمات غير الحكومية..

القوة المادية، صناعة وخدمات، التي تدخل على المسلمين تشغلهم بمتاع الحياة الدنيا عن الآخرة، أصبحت تحملها أسواق نقد وعملة وشركات عالمية ومعايير ربوية، تتصل شبكتها وتحيط بالعالم.

وحتى الهجمة السياسية، نفوذاً وتدخلاً وفتنة بين المسلمين، وكبتاً حتى للروح الوطنية فضلاً عن الروح الأصولية الإسلامية، وقدوة سائدة باسم المعانى، ديموقراطية مثلاً، أصبح المسلمون لا يتحدثون إلا بهذه المناهج والمذاهب: الديموقراطية، حقوق الإنسان، وهي لغة لم يعرفها المسلمون من قبل، لأنهم كانوا ينظرون إلى اللّه سبحانه وتعالى من فوقهم، أما الآن فلأن الإنسان أصبح يعتقد أنه ليس فوقه شيء، لذلك بدأ يتجه للبحث عن حقوقٍ له!!

حتى العسكريات، سلاحًا وصناعة حربية،أصبحت تمكن الغربيين من أن يعدوا مباشرة على المسلمين.

الغرب بدأ يتجمع .. أمريكا بدأت تتجمع، تجمع شماليها وجنوبيها ليتقوى.. أوروبا التي أهلكتها من قبل الحروب، وهي حروب أهلية بينها، بدأت تتجمع الآن.. القوي والأقوى بدأوا يتجمعون في وجه الضعيف الذي يشاقق أخاه الضعيف، ويبدد طاقاته كلها.. كل طاقات الضعفاء تتبدد وتتساقط وتتخاصم بينهم.

كان يمكن لهذه العالمية أن تكون فرصة للإسلام.. لم يكن يتيسر للمسلمين من قبل عالمية الاتصال والانتقال بين الشعوب، ولكنهم ركبوا العسير حتى يصلوا أطراف الأرض كلها، لينقلوا إليهم رسالة الإسلام، وتيسر لهم ذلك في سنوات.. الآن الإسلام، أصبح هو الدين العالمي الوحيد.. ليس في العالم من دين غير الإسلام..

الإسلام الذي ورث الكتاب، والكتاب هو دين إبراهيم، وهو الإسلام.. والذين تسموا باسم تركات إبراهيمية أخرى وزيفوها وحرفوها، ماتت.. غالب الأوربيين لا يدينون لا بإله ولا بعيسى عليه السلام.. إنهم يعيشون فراغًا كاملاً.. الغرب أصبح لا دين له.. والفراغ أسهل شيء تستطيع أن تدخل عليه، لا يزاحمك شيء.. ولا يصدمك شيء.. ليست لهم مذاهب الآن.. أصبحوا بعد ذهاب الدين اشتراكيين أو محافظين.. الأحزاب الآن في الغرب انهارت تماماً، وأصبحت عبارة عن عصابات، تتنافس وتتداول على السلطة فقط.

التدهور الاجتماعي في الغرب

- القوة البشرية:

الغرب يتدهور الآن، اجتماعيًا بخاصة.. قوته البشرية السكانية بدأت تجمد أو تتناقص في كثير من البلاد، ويتمون أنفسهم الآن بالهجرة فقط، حتى لا ينقص العدد.. أصبح الجنس يشغلهم عن قضية الولادة، فهم يريدون متاع الجنس وحده، ولا يريدون تكاليف الاستثمار الجنسي، حتى لا يتحملوا تكاليف المولود، وتربيته، لأنه إذا تربى يهجرك عند البلوغ ولا يعنى بك بعد ذلك، فأنت خاسر، فلماذا إذن تحمل كل هذه التكاليف؟!

- الأسرة:

الأسرة في الغرب بدأت تتحلل.. حالات الجوار وبناء الإنسان، وكل أطر البناء البشري، بدأت تتحلل.. والبشر هو أصل الحياة.. ولا يظنن أحد أن القوة هي الصناعة.. كان الناس بالأمس يحسبون أن الصناعة هي كل شيء.. والزراعة كذلك.. ولكن الآن يمكن أن تزرع في حقل صغير وتنتج أضعاف ما ينتجه آخرون.. كما يمكن بالتقنية الحديثة أن تفعل كذلك ما لا تفعل الصناعات.

- الفساد:

الفساد.. لقد أصبحت المجتمعات الغربية كما هو معلوم كلها نفاق وفساد، وأصبحوا هم يعترفون بذلك.. كل حياتهم تقوم على النفاق والكذب والزيف.. وإذا قارنا بين الغرب وآسيا، فلماذا تنهض آسيا؟ لأنها أصلاً قائمة على الجماعة والاستقرار والمؤسسات الاجتماعية وعلى الوحدة، لا على الهوى الشخصي والأنانية وشح النفس، الذي ضرب الغرب تماماً الآن.. آسيا الآن تنهض، وتسعد.

فالناس يحسبون أن سعادة الإنسان هي أن تحصي الدخل القومي، وتقارن بينه وبين الدخل القومي للآخرين، فتقول: إن هذا البلد أسعد من البلد الآخر.. ولكن الغربيين الآن اكتشفوا بأنفسهم أن السعادة قد يفتنها الفقر، ولكن قد يفتنها الغنى أيضًا، ويفسدها ذلك.

والمعرفيات والتقنية نفسها أصبحت تتحرك في العالم بيسر، حتى ولو حاول الغربيون أن يحتكروا السلطة في العالم، ويحتكروا النظم العالمية، ويحتكروا المال، ويحتكروا العلم.

التدهور الاقتصادي في الغرب

اقتصادياً، الغرب بدأ يتضاءل.. كان نصف إنتاج العالم في أمريكا، أما الآن فقد نزل.. وكذلك الحال في بريطانيا.. أما الصين، فكلهم يعرفون أن الصين في السنوات الأولى من القرن الجديد ستدرك أمريكا.

الثقل السكاني العالمي اليوم أصبح في الشرق لا في الغرب، وعند مشرق الشمس لا عند مغربها.. والنهضات في المشرق اليوم قفزات، قفزةٌ فقفزةٌ، لا كحركة الغرب درجة فدرجة.. والغرب نفسه يقول ذلك.. الأمريكان يقدرون المستقبل لسنة ألفين وعشرين، ويقولون: إن الصين في عام ٢٠٠٢ ستكون قد أدركت أمريكا، أما في سنة ٢٠٢٠ فتكون قد تجاوزتها بعيداً.

الغرب بدأ يضعف، وهم يعلمون أن المال يتحرك.. مالنا تحرك إليهم، بكل أسف.. من تحت أقدامنا.. ولكن المال يتحرك الآن منهم إلينا.

المسلمون أصبحت لهم فرص فاتحة وواعدة.. وهذه الفرص لا أقول إنها مباحة لهم، ولكنها واجبة عليهم.. الحوار ليس سماحة من المؤمن ولكنه أداء للواجب.. فأن يبدأ المؤمن بالحوار والتحية، فلأنه هو المكلف بأمانة الرسالة.

الغرب الآن يضمحل.. هذه حقيقة.. والعالم هكذا.. والمسلمون هكذا.. عندما فتنتهم الثروة والسلطان في الأرض، لم يأخذوا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح:٧)، وإنما أخذوا بإذا فرغت فارتاح.. ارتاحوا.. فذهبت عنهم الحضارة.

أمريكا نفسها تقول اليوم شيئًا من هذا.. كتابها يقولون: هذه نهاية التاريخ، لأنهم لا يريدون للتاريخ أن يتحرك، لأنه إذا تحرك تتحرك الحضارات من موقع إلى موقع، وتتحرك القوة كذلك.. والله يداول الأيام بين الناس.. فهم يريدون أن يثبّتوا التاريخ حتى تبقى أمريكا هي رب العالم، لكن التاريخ لا يثبت ولا يجمد أصلاً.

حتى بالنسبة لأوروبا، فهي الآن تتجمع كلها، وأمريكا تغار منها، وتريد أن تحرضها ضد الإسلام.. وهناك الصين أيضًا.

العالم الآن يتكتل كتلاً ضخمة، وبعد قليل سيتوازن.. الآن أصبح كله مرجوحاً بكفة واحدة.. بالأمس كنا نكره الشيوعية، ونسأل الله أن يقضي عليها، ونسينا أن حكمة الله سبحانه وتعالى فيها أنها تحفظ لنا توازنًا في العالم.. ما كان الأمريكان يجرأون علينا أبداً، بالعكس كانوا يتوددون إلينا، بالمعونات وبغيرها.. وحتى لو قتلناهم في بلادنا، كما قتلوا في السودان من قبل، حيث قُتل إرهابيون فيه، لم يقولوا

كلمة واحدة، لا كلمة إرهاب ولا غيرها.. فالله سبحانه وتعالى عنده حِكَمٌ، وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً..

توحيد الوجود بالدين.. أساس مشروع النهوض

لذلك فإن المشروع الإسلامي لمستقبل النهضة بعد الانحطاط، والتصدي لتحديات الغرب، هي أنه لابد أن نوحد الوجود الإنساني بالدين.. مرة أخرى إن شاء الله نبعث الإيمان بالغيب في أنفسنا.. فالإيمان بالغيب يكاد يتلاشى.. هناك محفوظات كلامية أحياناً، لكنها على اللسان فقط.. حتى بعض خريجي المعاهد التي تتخصص في هذا، ليس في نفسه من الدين شيء، إلا قليلاً.

- توحيد الباطن والظاهر:

والباطن والظاهر، لابد أن تتوحد، فقد مرض المسلمون كما مرض الغرب حيث الدين أصبح ظاهراً، ولكن قامت ثورة في الغرب احتجت على ذلك .. إن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب التي في الصدور.. المسلمون كذلك قامت فيهم حركات احتجاج، ومعظم حركات الصوفية قامت لتقيم الدين، ولكن تباعد الاثنان.. وحتى الصوفية نفسها تحولت في نهاية الأمر في كثير من مظاهرها إلى ظاهريات.

هذا الفصام، بين الباطن والظاهر، والشهادة والغيب، لابد أن نزاوجه الآن ليعود كما أراده الله في كتابه وسنة نبيه، لأن كل ظواهر حياتنا لا تتسق ولا تنشط إلا بهذا.. لا بد أن نوحد الزمان والأزل.. متاع الحياة الدنيا لا نتجاوزه، فليس الدين هو أن تترك الدنيا وتهجرها تماماً، ولكن في الوقت نفسه ليس أن ترتهن لها وتتخذ إلهك هواك، وإنما أن تتخذها مطية للآخرة، أرض الجزاء..

- **تنشيط حركة التخطيط** (دنيا الماضي والحاضر والمستقبل) :

كان ينبغي على المسلمين أن يكونوا هم رواد حركة التخطيط في العالم لأنهم ينظرون إلى الأزل، فضلاً عن بضع سنوات.. لكن واقعهم يقول بأن التخطيط والاستراتيجيات أصبحت تأتي كلها من الغرب.. لقد أصبح المسلمون يكبون على وجوههم ولا يرفعون رؤوسهم.. الماضي لا ننقطع عنه منذ تجربة آدم في السماء، عبرة وعظة.. وتكاليف الحاضر لا يكفينا عنها أن نتكل على الماضي ونقول: كما قال أهل الكتاب من قبلنا نحن أبناء الله وأحباؤه، لأننا أبناء مسلمين.

نحن كمسلمين مطالبون أن ننظر للمستقبل أيضاً، ولا ننظر إلى الحاضر فقط.. المسلمون الأوائل تميزوا بأنهم كانوا يتوكلون على الله حق توكله، لذلك لم يروا روما وبلاد فارس شيئًا ضخمًا.. كانوا يؤمنون بأن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة.. وأن الله إذا أمدك بالقوة يمكن لبعوضة أن تقتل فيلاً! والتوكل لنا مثلما كان لهم.

نحن الآن لدينا من عالم الشهادة شواهد، أرقامًا وإحصاءً، بديل الإيمان، لأن إيماننا قد ضعف.. فلو قلنا للناس توكلوا على الله سبحانه وتعالى كما توكل سلفٌ لكم من قبل، لتوقفوا وأخضعوا الأمر لحسابات مادية فقط. لكن المسلم إن اتقى الله لجعل له من كل ضيقٍ مخرجًا وفرجًا، ولرزقه من حيث لا يحتسب.

المستقبل هو رقي إلى الله سبحانه وتعالى.. فلابد من التخطيط، ولابد من الدفع على التوكل، ولا بد من توحيد شعاب الحياة مرة أخرى.. نتوب بكل الحياة إلى الدين.. في المجالات كلها.

- **انقشاع العلمانية:**

ففي مجال السياسة لابد من أن تنقشع العلمانية من نفوسنا.. معظم البلاد

الإسلامية علمانية إلا بضع بلاد فقط، لذلك أصبح عالم الشريعة يفتيك في بعض خواص أمرك فقط.

هذا تغيير لابد أن يحدث، وأحسب أنه من العسير أن يحدث، لأن هذه المنطقة هي المنطقة التي تستفز الغرب، فينقلب عليك إن حدثتك نفسك بمثل هذا التغيير، ويحاول أن يضربك الضربة القاضية، كما حاول مع بعض الناس الآن، الذين يسعى لوأدهم في المهد قبل أن تقوم ظاهرة وتصبح نموذجاً وقوة تعدي، لما يسمي هو ذلك مرضاً.

- توحيد الدين والمال:

يجب توحيد الدين والمال والمتاع ضد المادية.. بالأمس، علمتنا الصوفية التي انتشرت في العالم الإسلامي كله لسنوات طويلة، أن الفقر لا يضر المسلمين في شيء ولا يفتنهم، خاصة عندما انحط المسلمون إلى الفقر بعد الغنى .. ولكن من يوحدنا بإيمانيات أخرى حتى نسعد بالمال؟ لأنه عندما هجم المال على المسلمين، لم يكونوا أهلاً لذلك.. ولم تكن أوعيتهم مهيأة لتتسع لهذا المال.. لذلك انكسرت أوعية التدين في أنفسهم.

المسلمون الآن في حاجة إلى حركة تجديد.. لا بد من أن تقوم نهضة جديدة في حياة المسلمين .. لا بد أن يزيد المسلمون كسبهم حتى يزيد أجرهم عند الله.. ويزيدوا نعمة الله عليهم فيزيد كسبهم عند الله، وتطيب الحياة.

لقد أصبحت النهضة الاقتصادية هينة اليوم، وبعض الدول الآسيوية دليل على ذلك.. فإذا كانت بعض البلاد، حتى بالدوافع الوطنية يمكن أن تنهض وتقفز بنسبة ٦٪، ١٠٪.. إلخ، فما بالك بالبلاد المسلمة التي إذا تعبأت بالدين، فضلاً عن الديار والأموال والحرص على عاجل الحياة الدنيا وأرباحها، يمكن أن تحدث ثورات اقتصادية

في العالم بزيادات تدرك الذين تقدموا علينا وبدأوا يتباعدون عنا، من تقدمهم وتباطؤنا نحن في التقدم.

- توحيد العلم:

توحيد العلم، هذه الثنائية التي ورثها المسلمون بعد أن دخل الإشراك حتى على العلم، فأعطوا الله قسمة ضيزى.. معاهد قليلة، علوم نقلية قليلة، أما بقية العلم كله والمدارس كلها فليس لله فيها شيء! هذه القسمة الضيزى، ماتزال تضرب كل المسلمين تقريباً، إلا قليلاً منهم.. لكن العلم واحد، كله لله، فأحكام الله القدرية التي يخاطب بها الأشياء وطبيعة الأشياء، وأحكام الله التكليفية التي يخاطب بها الإنسان المخير، كلها من الله، كلها علم واحد، لمعهد واحد.. سميت معاهد أو مدارس، لكن يبقى العلم واحداً، كله لله.. التعليم الأساس كله واحد، وبعد ذلك التخصص يمكن أن يذهب إلى مساقات هنا وهناك.

المسلمون لا يعرفون علماء.. وكلمة علماء لم يكونوا يعرفونها، حتى عند الصحابة.. فقد كان الصحابة كلهم علماء.. العلم كان ظاهرة عامة، الناس يتفاوتون فيه، بعضهم قد يكون أكثر علماً من أخيه.. ولكن بعد قليل هبط المسلمون من أن يشاركوا في العلم، وتركوه لمن أسموهم العلماء، فظهر العلماء حينها.. ولكن كلمة علماء الآن، مع انحطاطنا، أصبحت تكاد تصف بها علماء النقل فقط، الشرع المنقول، أما علماء المعقول فهؤلاء لا يسمون علماء!

القرآن نفسه لا بد من أن يعود مرة أخرى، لا يعود محفوظاً فقط، والحمد لله أنه عاد محفوظًا، ولكن لا بد أن يعود فقهاً ومتلواً، لا باللسان ولكن بالجنان والأبدان.. تتلوه حياتنا، ويتلوه عقلنا، ونستقر ونعمل به.

الاجتهاد، لم تعرف هذه الكلمة في نهضة المسلمين الأولى، ولكن بعد قليل

تخصص فيها أناس وتركها الآخرون.. بقية المسلمين لا يجتهدون، وإنما اجتهد قليلون.. وأصبح التعريف يُحاصر ويحاصر حتى جعلهم قلة قليلة جداً.. الآن لا بد أن يتاح الاجتهاد لكل الشعب، لكل الناس، ولكل المؤمنين.. بحسب قدراتهم.. كل مؤمن يُجهد عقله حسبما تيسر له.. بوسع عقله وزاده يكون مجتهداً.. بالطبع بعض الناس سيكون أكثر إجادة من بعض، وبعضهم أكثر تسجيلاً وكتابة للاجتهاد من بعضهم الآخر.. لكن العلم كله لابد أن ينتشر في قضايا العالم.

- توحيد الفن:

الفن خرج غالبه من الدين.. وهبناه للشيطان.. والأدوات كلها وهبناها للشيطان.. ومن المعلوم أنه أيما أداة أو آلة في الأرض، حتى تلك الآلة التي ركبها الله في حلق الإنسان، يمكن أن نسخرها للشيطان، غيبة وغناءً فاجراً وهكذا، أو نسخرها لله سبحانه وتعالى.

المسلمون في حاجة لنهضة فنية، لأن الدين أصلاً لا يقوم في جانب دون آخر، بل يقوم في كل الحياة ومساقاتها.

- توحيد المجتمع:

المجتمع: قانون، أخلاق، وجدان... كلها لابد أن تتوحد..

الذكر، بدل أن يكون شعائر وطقوس ظاهرة، لا بد أن يتصل بالحياة كلها.

لا نريد أن يصبح الدين هوية فقط، ولكن لابد من أن يتحول فينا إلى فاعلية.

لا بد من توحيد سواد المجتمع والقوى الفاعلة فيه، لا أن تنفصل منه شرائح تسمى علماء، مجتهدون، رجال دين، مثلما هو الحال في تاريخ الغرب الكنسي.. ولكن لا بد أن ينفتح بعضنا إلى بعض.. لا طائفية، ولا أن ينغلق تنظيم دون

الآخرين، ولكن لا بد أن ننفتح دائماً.. لا نتخصص لكل الحياة، ولكن علينا أن نتكامل مع بعض.. الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، بدأت أولاً منفتحة، لكنها انغلقت أحياناً كالطوائف، وأحياناً انحرفت وبعدت لأسباب أمنية وضغوط إلى صفوات من الناس، وهكذا.

وتوحيد المجتمع والسلطان.. وكما هو معلوم فإن السلطة، في الدين الإسلامي، هي بعد الشريعة للشعب: «**إن أمتي لا تجتمع على ضلالة**» (أخرجه ابن ماجه).. ولكن بعد قليل أخذوا ممثلي الشعب من العلماء، وقيل: إن المجتهدين هم الذين يحركون الإجماع، كما أخذ الغربيون أحياناً القضاة ممثلين للشعب.. لكن لا بد أن نرجع مرة أخرى إلى أصولنا.. الرعية هي أولاً قبل الراعي، وهي التي تقدم الراعي، وتختاره، وتضبطه.. ولا بد أن ينزل غالب الاقتصاد من القطاع الاقتصادي الرسمي إلى البشر.. وغالب العلم ينزل إلى البشر.. حضارات المسلمين كانت كلها جماهيرية شعبية.. الأندلس كلها لم تكن فيها ضرائب.. مدارسها، مستشفياتها، خدماتها، كلها كانت شعبية.. خيرها كله كان شعبياً..

وحدة المجتمع المسلم، لا فردية وإنما جماعية.. ولا تباين عرقي، ولا لساني، ولا لوني، ولا رجال دون نساء.. المجتمع المسلم من غير توحيد مجتمع مشلول.

لابد أن نوحد أنفسنا.. نوحد بين الذكورة والأنوثة.. وهنا لا أتحدث عن حقوق النساء، ولست داعية حقوق وإنما داعية حقوق وواجبات كذلك.. داعية تكاليف أساساً.. فالنساء لابد أن يأتين إلى الانخراط في المجتمع، لا ليتمتعن بحقوق كن محرومات منها ومظلومات فيها، ولكن ليؤدين واجبات وتكاليف، ويشاركن الذكور في الحياة.. فالحياة كلها لا بد أن تكون شركة.

- التوحيد نحو الإنسانية:

لا بد من توحيد أمة المسلمين عبر العالم، دولاً تتقارب.. والدول الغربية التي علمتنا الوطنية والقومية وقطّعت حدودنا، تجاوزت ما علمتنا إياه ونحن لا نزال وراء المذهب القديم .. الشعوب لابد أن تتوحد: الحج، المؤتمرات، العلاقات الشعبية كلها.

أيضاً لا بد من التوحيد نحو الإنسانية.. المسلمون وغير المسلمين في بلد واحد تجد أن من العسير عليهم أن يتحدوا.. بلد واحد يعاني اليوم كيف يقيم نظاماً إسلامياً وفيه قطاع مقدر من غير المسلمين! المسلمون هم أول نموذج قام، في المدينة، مبنيًا على الإنسانية، وأول دستور كتب لدولةٍ قام على وحدة الإنسان، وليس على وحدة المسلمين فقط..

لا بد أن ينهض المسلمون ليصلحوا نظام العالم المعوج ونظمه غير العادلة: نظام الأمم المتحدة، العلاقات الثنائية، ضرب الشمال للجنوب، الظلم الاقتصادي، والعلمي، والثقافي، واحتكار الثقافة، وهكذا.. لابد أن ينهض المسلمون بالميزان وبعد ذلك يتفاعلوا إن شاء الله مع الآخرين.

فالمشروع الإسلامي الذي يستشرف المستقبل، هو أنه لابد من نهضة بعد الهبوط نحو القيم، ومن أن نكون فراغاً يضغط علينا العالم بأن نمتلىء إن شاء الله، ونعبر عن كل هذه القيم، أصالةً في اللغة، لغة القرآن التي ضيعناها، وفي الدين، وفي المذاهب، وفي الحركة، وفي الكسب، وفي الغنى.

لا بد من نهضة حضارية جديدة، حيث إن المحور الأساس لحضارة المسلمين بدأ يذبل، فبدأت تنشأ له فروع في مناطق متخلفة، وبعد ذلك تلاشت ووهنت كلها.

نحن نحتاج بهذا الدين لدورة حضارية جديدة، ودفعة حضارية جديدة

إن شاء الله.. إن الله سبحانه وتعالى يداول بين الأيام.. لكن الحضارة الإسلامية ليست كغيرها من الحضارات التي تنشأ في مكان لتذهب إلى مكان آخر.. حضارتنا قامت وامتدت أكثر من الحضارات الأخرى، وإن ذبلت فنبتت حضارة أخرى لا دينية في الغرب.

فالدور دورنا، والمستقبل لنا، أن تقوم دورة أخرى وحضارة أخرى إن شاء الله.. ليست حضارة صدام ولكن حضارة تفاعل بين الإنسان.. وليست حضارة صراع وظلم واستعمار كحضارة الغرب، ولكنها حضارة للإنسان كله..

من الأرض الوسطى، التي هي أرض العرب، لابد أن نقوم شهداء وأئمة على العالمين مرة أخرى، ونمتد جنوبًا إلى الهند وإفريقيا خاصة، ونمتد شمالاً كذلك.. حضارتنا بدأت هنا في المنطقة الوسطى وصعدت شمالاً.. والديانات بدأت هنا وصعدت شمالاً.. فالدور دورنا هذه المرة.. فنحن في حاجة إلى دورة حضارية تنهض شمالاً.

إمكانيات الإسلام في أفريقيا وأمريكا

وفي هذا الإطار تأتي دعوتنا لتعريب أفريقيا ونشر الإسلام في أمريكا.. أما تعريب أفريقيا فذلك أن اللغة العربية هي الأصل في أفريقيا منذ آلاف السنين.. الآن غزتها ودخلت عليها الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية، دخلت عليها قبل قرن ونصف أو قرنين تقريبًا، فهي حديثة جداً.. واللغات الأفريقية الكبرى، في غربي أفريقيا وشرقيها عاشت كذلك على اللغة العربية غالب مادتها اللغوية.. القرن الأفريقي، أصول اللغة فيه كلها عربية.

أفريقيا ليست لها لغة واحدة، وإنما هي رطانات، لذلك يمكن أن تكون العربية هي اللغة العامة الجامعة.. وإذا ضربنا بالسودان مثلاً، فإن السودان ما كان عربياً في

شماليه، كان نوبياً لا يحسن نطق العربية العامة، ولا شرقيه ولا غربيه ولا جنوبيه، ولكن اللغة العربية الآن انبسطت شمالاً وجنوباً وشرقاً وغربًا وأصبحت هي لغة الخطاب. حتى في الجنوب، بين قبيلة وقبيلة، فإنهم لا يعبرون حدود القبيلة إلا بالعربية.. والأفارقة الآن يسألون الله أن تنفتح لهم أبوابٌ ليتحدثوا بالعربية. العرب يبدو أنهم لا يريدون أن ينشروا لغتهم.. لا أدري لماذا ؟

الصراع في إفريقيا الآن، صراع لغات وصراع ثقافات.. والصراع بين الهوتو والتوتسي هو صراع لغات بين الفرانكوفونية والأنجلوفونية.. كل يمد الوقود من هنا وهناك، ويقتتل الأفارقة وتسفك دماؤهم، في سبيل لغة، لأن اللغة هي التي تصلك بالآخر، فتعرف قضاياه، وتتفاعل معه، وتشتري منه، ويشتري منك، وهكذا.. اللغة هي وسيلة اتصال.. وبغير اتصال تنقطع الصلة بين الناس.

وإذا كنا -في السودان مثلاً- نريد أن نعرب أفريقيا، فلأن السودان هو البلد الوحيد الذي انزج في أفريقيا، ولذلك يكرهه الغرب، ويحب لو أن صحراءً حالت بينه وبين أفريقيا، وأن النيل لم يصله أبداً.. لكن الذي نطمئن إليه هو أن الأفارقة منفتحون للغة العربية.. وأحسب لو أن أموالاً قليلة من أموال العرب دخلت أفريقيا، لتعلمت أفريقيا كلها العربية، ولتحولت إلى الإسلام.

أما أمريكا فهي أسهل بلد يمكن نشر الإسلام فيه.. فهي جمع من البشر، لم يرثوا كرهًا للمسلمين مثلما ورث الغربيون من كرهٍ منذ الحروب الصليبية. الغربيون تنطبع في نفوسهم كراهية المسلم، فإذا كنت مسلماً تنسد طبلة آذانهم دون سماع كلامك، فهم لا يريدون أن يسمعوا منك شيئاً أصلاً، لا سيما إذا كنت مصفر اللون أو مسود اللون، لأن الغربي يؤمن بالعرقية، ولا يؤمن بالدين أصلاً، ولا بآدم وحواء..

ولكن أمريكا بلد مفتوحة فيها كل الألوان والأعراق، وقلوب الأمريكان مفتوحة

كذلك.. إذا كرهوك خرجوا بكراهيتهم إليك، وإذا أحبوك خرجوا إليك بحبهم كذلك.. وينقلبون بين عشية وضحاها.. أما الأوربيون، فالضغائن والمكائد كامنة في نفوسهم، حتى إذا ابتسموا لك، فوراء الابتسامة سموم.

لذلك أعتقد أن أمريكا أسهل بلد لنشر الإسلام.. ولكن نسأل الله أن يوفر لنا من يستطيع أن يخاطب الأمريكان على قدر عقولهم.. ونحن نريد أن نفعل ذلك.. وهناك في أمريكا اليوم قطاع أفريقي ضخم جداً دخل الإسلام، وبدأ يحرك أمريكا كلها، ويخيفها كلها.

وأنا لا أقول ذلك عبثًا أو من فراغ.. فإذا كان الإنسان العربي الأمي، الذي لم تكن له حضارة، ولم يكن يعرف أطعمة ولا ملبوسات ولا مصنوعات، وكان يمشي حافيًا، استطاع أن يخترق حضارات الرومان والفرس كلها، فانقلبت إسلاماً، أفلا يتيسر لنا نحن ذلك اليوم؟ نحن الذين نتحدث اليوم لغة الغربيين وهم لا يتحدثون لغتنا، ونعرف تاريخهم ولا يعرفون تاريخنا، ونعرف دينهم وهو من ديننا، ولا يعرفون ديننا؟!

ليس هناك مجال للمقارنة بيننا وبينهم.. فقط علينا أن نتحلل من عقدة النقص إزاءهم، بأنهم هم الأعلون.. نحن لا نعدو عليهم بالقوة، إلا أن يبدأوها هم، ولكن باللسان وبالحجة والدعوة، يمكن أن تتعرب أفريقيا، ويمكن أن تسلم أمريكا لله إن شاء الله.

خاتمة:

لم أرد بما أوردته أن أنزل كثيراً إلى عين الحوادث والوقائع، دون أن أسمي الأشياء، فإشارتي ومقصدي وإلى ماذا أصوب بالقوانين العامة، أمر يسهل إدراكه.. لكني أردت أن لا يجرنا للوراء ثقل ضعف الدين وضعف الإيمان والعصبيات.

عرضت لأمراضنا أولاً قبل أن أتحدث عن الخارج، وعن أنه ما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيدي الناس، والله لا يسلط عباداً أولي بأس شديد إلا لأن الناس أفسدوا.. تحدثت عن فسادنا نحن، قبل أن أتحدث عن الذي أضعفنا وأتاح للآخرين بعد ذلك أن يتمكنوا منا لهذا الضعف.

ينبغي أن لا يغيب عنا أننا أمة تؤمن بالأزل، ولكن نُعنى حتى بالأمور البسيطة.. نزيل الأذى من الطريق لأننا نصله بالأزل، نصله بالسموات والأرض.. ونسبح الله لا في الأرض، ولكن نحمده في السموات والأرض.. نحن الوحيدين الذين نستطيع أن نصل السموات بالأرض.. ولكن هذا العالم الغيبي الكلي العالمي ضعف عندنا جداً، وأصبحنا محاصرين ومعصورين ومحصورين على محقرات الأشياء وصغائرها، والفرعيات من الأصول في أنفسنا.

الآن هناك دفعة للانفتاح من الفروع إلى الأصول، ومن الأرض تحت أقدامنا إلى الأرض بسعتها كلها.. ومن الدنيا إلى الآخرة.. ومن المسلم القديم إلى كل العالم لندخله على الإسلام إن شاء الله.. نهدي العالم.. من الدار القليلة، دار المسلمين هذه، إلى كل العالم إن شاء الله..

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس



■ تعنى بنشر الأبحاث والدراسات الفكرية والثقافية، التي تهتم بالنظر في قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها، وكيفيات معالجتها في ضوء الكتاب والسنة، وتسهم في التحصين الثقافي والتغيير الحضاري للأمة، وتعمل على إعادة بناء العقل المسلم في ضوء معارف الوحي.

■ صدر الكتاب الأول في جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ - آذار (مارس)١٩٨٢م.. وبلغت إصداراتها (٧٧) كتاباً.

■ تسعى السلسلة إلى تغطية المحاور والمجالات التالية:

١- تأصيل الرؤية الشرعية للقضايا والمشكلات المعاصرة، والعودة بالأمة إلى ينابيع التلقي الأولى في الكتاب والسنة، وفهم القرون المشهود لها بالخيرية.

٢- المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، وتنقية واقع التدين مما شابه من بدع وانحرافات، وذلك عن طريق إحياء مناهج المراجعة والنقد والتقويم.

٣- معالجة أسباب الغلو، والتشدد والانتحال الباطل، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية والاعتدال.

٤- إحياء مفهوم الأخوة الشامل،وتأصيل مبدأ الشورى، وتأسيس منهج الحوار، والتأكيد على الحوار الداخلي لإزالة الحواجز بين المسلمين.

٥- تحرير مصطلح عالم الغيب، وبناء الرؤية المستقبلية في ضوء استشراف الماضي وفقه الحاضر.

٦- إحياء مفهوم فروض الكفاية، وبيان أهمية التخصص في شعب المعرفة المتنوعة.

٧- إعادة تشكيل شخصية المسلم المعاصر في ضوء القيم الإسلامية، وتبصيره بالرسالة المنوطة به، وتأهيله لتحقيق متطلبات الاستخلاف، وشحذ فاعليته ليكون قادراً على استثمار طاقاته الروحية والفكرية والمادية في ضوء هدايات الوحي واجتهادات العقل، وفي ظل الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة.

٨- المساهمة في بناء النخبة (الطائفة القائمة على الحق)، التي تتحقق بالمرجعية الشرعية المتمثلة في الكتاب والسنة، لتشكل الأنموذج التطبيقي العملي لفهم الدين، والدليل الممتد على خلود الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل زمان ومكان.

٩- العمل على إخراج الأمة من جديد، وإنقاذها من حالة الفرقة والتخلف والوهن، وتأهيلها لاسترداد دورها المنوط بها في الشهادة والقيادة وإلحاق الرحمة بالعالمين.

١٠- التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، وتحقيق الوعي الحضاري والحصانة الثقافية.

١١- إحياء المنهج السنني، وإشعار الأمة بأهمية التوغل في التاريخ، والسير في الأرض، والنظرفي العواقب والمآلات، وإدراك السنن والقوانين الاجتماعية التي تحكم الحياة والأحياء.

١٢- دراسة حركات التغيير والنهوض الإسلامي، وتقويم نتائجها، وبيان أسباب القصور ومواطن التقصير.

١٣- التعريف بأولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة، وفتح آفاق الاجتهاد الفكري والتفكير المنهجي لمستقبل العمل الإسلامي، وبيان أبعاد التكليف الشرعي في ضوء فقه الاستطاعة.

١٤- الإسهام في معالجة أزمة الحضارة المعاصرة، والتأكيد على حاجتها إلى الهدي الإلهي.